الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

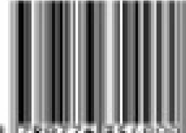
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الأربعون





بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون(1)

(١) في وقت نزول السورة، قولان:
أحدهما: أنها مكّيّة، قاله ابن عباس-في رواية-، وابن الزبير، وعطاء، وجابر.
الثاني: أنها مدنيّة، روي عن ابن عباس-أيضا-، وبه قال قتادة. وبه قال الثعلبي.
قال هبة الله المفسّر: "نزلت نصفين أو نصفان نصفها بمكة ونصفها بالمدينة فالذي أنزل منها بمكة: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١]، نزلت في العاص بن وائل السهمي {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون: ٢ - ٣]، إلى ههنا، ونزل باقيها في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} [الماعون: ٤]، إلى أخرها: نزلت بالمدينة".
قال ابن عطية:" هي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية".
قال ابن عاشور:" هي مكية في قول الأكثر".
* آياتها سبع فى عدّ العراقى، وستٌّ عند الباقين. وكلماتها خمس وعشرون (وحروفها مائة وخمس وعشرون). المختلف فيها آية {يُرَآءُونَ} فواصل آياتها على النون.
* تسمى «سورة الماعون» سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير: «سورة الماعون»، لورود لفظ «الماعون» فيها دون غيرها، قال تعالى: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون: ٧].
وتسمى سورة «أرأيت»، أو «أرأيت الذي يكذب» سميت في بعض التفاسير: «سورة أرأيت»، وكذلك عنونها في «صحيح البخاري».
وعنونها ابن أبي زمنين، والثعالبي: ب «سورة أرأيت الذي».
وعنونها الجصاص، وابن عرفة، باسم: «أرأيت الذي يكذب بالدين»، باسم الآية =

=

الأولى كاملة.

وهذه التسميات، لها ارتباط بأول آية افتتحت بها، أو بأول كلمة فيها اختصارا، قال تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١].

وتسمى«سورة الدين» عنونت السورة بهذا الاسم في عدة مصاحف، وعنونها البقاعي في: «نظم الدرر»، وذكره في الإتقان، كما ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم.

ووجه تسميتها بذلك لوقوع لفظ: «الدين»، في أول السورة، قال تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١].

وتسمى «سورة اليتيم» وردت هذه التسمية في «نظم الدرر»، و «فتح القدير» للشوكاني، وسميت به لوقوع كلمة: «اليتيم» في السورة، قال تعالى: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} [الماعون: ٢]. ويجدر القول بأن هذه الكلمة: «اليتيم»، قد وردت في عدة سور من القرآن الكريم.

وتسمى «سورة التكذيب» وردت هذه التسمية في «حاشيتي الخفاجي وسعدي»، وكذلك أوردها الألوسي في تفسيره، والبقاعي في «نظم الدرر».

ووجه تسميتها ب «سورة التكذيب»، لورود «التكذيب»، بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١].

* معظم مقصود السّورة: الشكاية من الجافين على الأَيتام والمساكين، وذمّ المقصّرين والمُرَائين، وما نعى نفع المعونة عن الخيرات والمساكين، فى قوله: {وَيَمْنَعُونَ الماعون}.

* **المتشابهات**: قوله: {الذين هُمْ} كرّره ولم يقتصر على مرّة واحدة؛ لامتناع عطف الفعل على الاسم. ولم يقل: الّذين هم يمنعون؛ لأَنَّه فعل، فحسن العطف على الفعل. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٦).

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١).

{أَرَأَيْت الَّذِي يُكَذِّب بِالدِّينِ} بِالْجَزَاءِ وَالْحِسَاب أَيْ هَلْ عَرَفْته وَإِنْ لَمْ تَعْرِفهُ.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢).

{فَذَلِكَ} بِتَقْدِيرِ هُوَ بَعْد الْفَاء {الَّذِي يَدُعّ الْيَتِيم} أَيْ يَدْفَعهُ بِعُنْفٍ عَنْ حَقّه.

وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣).

{وَلَا يَحُضّ} نَفْسه وَلَا غَيْره {عَلَى طَعَام الْمِسْكِين} أَيْ إِطْعَامه نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْن وائل أو الوليد بن المغيرة.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤).

{فويل للمصلين}.

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥).

{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتهمْ سَاهُونَ} غَافِلُونَ يُؤَخِّرُونَهَا عن وقتها.

الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦).

{الذين هم يراؤون} فِي الصَّلَاة وَغَيْرهَا.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧).

{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون} كَالْإِبْرَةِ وَالْفَأْس والقدر والقصعة[٢].

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين الدلو =

=

والقدر والفأس وشبهه؛ فيمنعونهم؛ فأنزل الله: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٤٤) ونسبه لابن مردويه.
* قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١]
أي: أرأيت حال ذلك الذي يكذِّب بالبعث والجزاء؟
قال الطبري: يقول: " أرأيت يا محمد الذي يكذّب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه".
عن الحسن قوله: " {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}، قال: الكافر".
قال ابن عطية:" هذا توقيف وتنبيه لتتذكر نفس السامع كل من يعرفه بهذه الصفة".
قال النحاس:" يجوز أن يكون «أرأيت» من رؤية العين فلا يكون في الكلام حذف، وأن يكون من رؤية القلب، فيكون التقدير: «أرأيت الذي يكذّب بالدين بعد ما ظهر له من البراهين أليس مستحقا عذاب الله» ".
قال الشوكاني: "(أرأيت الذي يكذب بالدين) لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والاستفهام لقصد التعجب من حال من يكذب بالدين، والرؤية: بمعنى المعرفة، والدين: الجزاء والحساب في الآخرة".
قال الرازي: "... وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب، فإذا كان منكرا للقيامة لم يترك شيئا من المشتهيات واللذات، فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي".
قال ابن عاشور: "وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقا إذا شبت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتياج إلى آمر ولا إلى مخافة ممن يقيم عليه العقوبات حتى إذا اختلى بنفسه وأمن الرقباء جاء بالفحشاء

=

=

والأعمال النكراء".

وفي قوله تعالى: {بِالدِّينِ} [الماعون: ١]، ثلاثة وجوه:

أحدها: يعني: بالحساب، قاله عكرمة، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل.

قال سهل:" أي: بالحساب يوم يدان الناس".

الثاني: الذي يكذّب بحكم الله ﷻ، قاله ابن عباس.

الثالث: بالجزاء الثواب والعقاب. حكاه الماوردي.

قال ابن عطية:" الحساب هنا قريب من الجزاء".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب".

قال السعدي:" أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل".

وفي قراءة عبد الله: «أرأيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ الدِّينَ».

وقرئ: «أرأيتك الذي»، بزيادة حرف الخطاب، كقوله {أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [الإسراء: ٦٢]، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، على أقوال:

أحدها: أنها نزلت في رجل من المنافقين، قاله ابن عباس.

قال عطاء عن ابن عباس:" نزلت في رجل من المنافقين".

الثاني: أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي، قاله الكلبي، ومقاتل، وسهل.

قال الكلبي: "نزلت في العاص بن وائل السهمي".

وقال مقاتل:" نزلت في العاص ابن وائل السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، زوج أم هاني بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ".

الثالث: في الوليد بن المغيرة، قاله السدي، ومقاتل بن حيان.

الرابع: في أبي جهل. حكاه الماوردي.

=

=

الخامس: في عمرو بن عائذ، قاله الضحاك.

السادس: في أبي سفيان وقد نحر جزورًا، فأتاه يتيم، فسأله منها، فقرعه بعصا، قاله ابن جريج.

وقال ابن جُرَيْج: "كان أبو سفيان بن حرب ينحر كلّ أسبوع جَزورين، فأتاه يتيم، فسأله شيئًا، فقرعه بعصاه؛ فأنزل الله سبحانه فيه: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} ".

قوله تعالى: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} [الماعون: ٢]

فذلك الذي يدفع اليتيم الذي مات أبوه وهو صغير بعنف وشدة عن حقه؛ لقساوة قلبه.

قال الطبري:" يقول: فهذا الذي يكذِّب بالدين، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه".

قال الأخفش:" يدفعه عن حقه".

قال الفراء:" يدفعه عن حقه، ويظلمه. وكذلك: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّم} [الطور: ١٣] ".

قال ابن عطية:" أي: ارقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، ودع اليتيم: دفعه بعنف، وذلك إما أن يكون المعنى عن إطعامه والإحسان إليه، وإما أن يكون عن حقه وماله، فهذا أشد".

قال الزجاج:" معنى «يدع» -في اللغة-: يدفع، وكذلك قوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: ١٣]، أي: يدفعون إليها دفعا بعنف، فذلك الذي يدع اليتيم عن حقه".

قال ابن الجوزي: "والمعنى: أنه يدفع اليتيم عن حقه دفعا عنيفا ليأخذ ماله، وقد بينا فيما سبق أنهم كانوا لا يورثون الصغير، وقيل: يدفع اليتيم إبعادا له، لأنه لا يرجو ثواب إطعامه".

=

=

قال ابن جزي: "أي يدفعه بعنف، وهذا الدفع يحتمل أن يكون عن إطعامه، والإحسان إليه أو عن ماله وحقوقه، وهذا أشد".

قال ابن كثير:" أي: هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه".

قال الزمخشري:" أي: يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى، وبردّه ردًا قبيحا بزجر وخشونة".

قال السعدي:" أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخشى عقابًا".

عن ابن عباس: " {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}، قال: يدفع حقّ اليتيم".

قال مجاهد:" يدفع اليتيم فلا يُطعمه".

قال الضحاك:"يقهره".

قال قتادة:" أي يقهره ويظلمه".

عن الحسن:" {يَدُعُّ اليَتِيمَ}، قال: يظلمه".

عن محمد بن كعب:" {يَدُعُّ اليَتِيمَ}، قال: يدفعه". وروي عن سفيان مثله.

وقرئ «فَذَلِكَ الَّذِي يَدَعُ الْيَتِيمَ»، أي: فذلك الذي لا يعبأ باليتيم ويتركه مهملًا، ويجفو.

* قد جاءت الشريعة بالحث على رحمة اليتيم والتحذير من ظلمه وقهره.

فأكل مال اليتيم من كبائر الذنوب.

كما قال تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا).

وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا).

=

=

وقال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده).

وقال ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات:... وذكر منها: وأكل مال اليتيم) متفق عليه.

قال ابن الجوزي: انما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلة مراعيه وضعف مالكه.

العطف على اليتيم سبب للين القلب.

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه؟ فقال له الرسول ﷺ (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد

كافل اليتيم في الجنة.

فقال ﷺ (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) متفق عليه.

قال تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل).

وقال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل).

وقال النبي ﷺ (من ضم يتيما بين مسلمين في طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة) رواه أبو يعلى والطبراني وأحمد مختصرا بإسناد حسن كما قال الحافظ المنذري.

وبخ سبحانه من لم يكرم يتيما.

فقال تعالى: (كلا بل لا تكرمون اليتيم).

وقرن دعه وهو قهره وظلمه بالتكذيب بيوم الدين.

فقال سبحانه: (فذلك الذي يدع اليتيم).

=

=

ونهى الله صفوة خلقه أن يقهر أحدا منهم.

فقال تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر).

وقد أمر الله بحفظ أموالهم، ونهى عن قربها إلا بالحسنى.

قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده).

ولا يتولى أموالهم إلا القوي الأمين، ونهى النبي ﷺ الضعيف أن يتولى شيئا من أموالهم.

فقال ﷺ ("يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم) رواه مسلم.

وإطعام الأيتام سبب لدخول الجنة.

قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا).

روى البخاري في الأدب المفرد: أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان لا يأكل طعاما إلا وعلى خوانه يتيم.

ومن أراد تليين قلبه فليطعم المسكين، وليمسح رأس اليتيم.

قال ﷺ (إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد.

وأطيب المال ما أعطي منه اليتيم:

قال ﷺ (إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين، واليتيم، وابن السبيل).

وعد الشارع الاعتداء على مال اليتيم من كبائر الذنوب.

قال تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا).

وقال ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات: وذكر منها: أكل مال اليتيم....).

=

=

والإنفاق على اليتيم سبيل للنجاة من الكروب والخطوب والمزالق والمخاطر.

قال الله في كتابه العزيز: (فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة).

ولقد جعل النبي ﷺ حق الضعيفين: اليتيم والمرأة من أولى الحقوق بالرعاية والعناية.

عن أبي شريح الخزاعي، قال: قال رسول الله ﷺ (اللهم إني أحرج حق الضعيفين: حق اليتيم، وحق المرأة).

- من النماذج المشرقة لصغار عاشوا حياة اليتم، ونفع الله بهم، وأصبحوا من علماء الأمة، وجهابذة العلم:

- الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أباه وهو دون العامين، فنشأ في حجر أمه في قلة من العيش، وضيق من الحال، يقول: كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام. وقد حفظ القرآن، وجالس العلماء، حتى ساد أهل زمانه.

- ومنهم الإمام أحمد بن حنبل مات والده وهو حمل في بطن والدته، وعاش حياة فقر وفاقة، فحضنته أمه وأدبته، وأحسنت تربيته، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانت أمي توقظني قبل الفجر بوقت طويل وعمري عشر سنين، وتدفئ لي الماء في الشتاء، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا من صلاة التهجد، ثم تنطلق بي إلى المسجد في طريق بعيد مظلم موحش لتصلي معي صلاة الفجر في المسجد، وتبقى معي حتى منتصف النهار تنتظر فراغي من طلب العلم وحفظ القرآن.

- ومنهم الإمام البخاري صاحب الصحيح، فقد نشأ يتيما في صغره، وقرأ على ألف شيخ، وصنف كتابه الصحيح، وغيره من الكتب النافعة.

فبصبر الأمهات وجهادهن خرج هؤلاء العلماء الأفذاذ.

=

=

قوله تعالى: {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون: ٣]

أي: ولا يحضُّ غيره على إطعام المحتاج الذي لا يملك ما يكفيه ويسد حاجته، فكيف له أن يطعمه بنفسه؟

والحض: الحث، وهو أن تطلب غيرك فعلا بتأكيد.

قال الطبري: يقول: " ولا يحثّ غيره على إطعام المحتاج من الطعام".

قال الفراء:" أي: لا يحافظ على إطعام المسكين ولا يأمر به".

قال الزجاج:" أي: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطْعَامِه".

قال ابن عطية:" أي: لا يأمر بصدقة ولا يرى ذلك صوابا".

قال الزمخشري: أي:" ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف، يعنى: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد، لخشى الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك، فحين أقدم عليه: علم أنه مكذب، فما أشده من كلام، وما أخوفه من مقام، وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين".

قال ابن كثير:" «المسكين»: يعني: الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته".

قال الخازن: "وهذا غاية البخل، لأنه يبخل بماله وبمال غيره بالإطعام".

قال ابن جريج: كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزورا فجاءه يتيم، فقرعه بعصا فنزلت السورة فيه".

* وفي الآية الحث على الرحمة والتواصي بها وأن ذلك من صفات المؤمنين كما قال تعالى (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة).

وفي الدعاء (اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين).

=

=

- وفي هذا فضل السعي على المساكين والصدقة عليهم وإطعامهم وأن ذلك من علامات الإيمان بالآخرة.

أنه كالمجاهد في سبيل الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله - وأحسبه قال يشك القعنبي - كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر) متفق عليه.

فهذا الحديث دليل على الفضل العظيم والأجر الكبير في السعي على الأرملة والمسكين.

قال ابن هبيرة: والمراد أن الله تعالى يجمع له ثواب الصائم والقائم والمجاهد في دفعة؛ وذلك أنه قام للأرملة مقام زوجها الذي سلبها إياه القدر، وأرضاها عن ربها، وقام على ذلك المسكين الذي عجز عن قيامه بنفسه؛ فأنفق هذا فضل قوته، وتصدق بجلده؛ فكان نفعه إذا [يكافئ] الصوم والقيام والجهاد ". انتهى.

وصية النبي ﷺ بهم.

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم).

أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين.

قال ﷺ (إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين (رواه أحمد.

أن أكثر من يدخل الجنة المساكين.

- عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ (قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين) متفق عليه.

- كتب سفيان الثوري إلى بعض إخوانه: "عليك بالفقراء والمساكين والدنو

=

=

منهم؛ فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين.

- زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية. وكانت تدعى في الجاهلية "أم المساكين" لإطعامها إياهم.

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤ - ٥] أي: فعذاب شديد للمصلين الذين هم عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها، ولا يؤدونها في وقتها.

قال الطبري: يقول: "فالوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين الذين يصلون، لا يريدون الله ﷻ بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلوها".

قال الفراء:" يعني: المنافقين".

قال الزجاج:" يُعْنَى بهذا: المنافقون، لأنهم كانوا إنما يراءون بالصلاة إذَا هُمْ رآهم المؤمنون صلوا معهم، وإذا لم يروهم لم يصلوا".

قال ابن عطية:" ويروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطرين في الإسلام بمكة الذين لم يحققوا فيه وفتنوا فافتتنوا، وكانوا على هذه الخلق من الغشم وغلظ العشرة والفظاظة على المسلمين، وربما كان بعضهم يصلي أحيانا مع المسلمين مدافعة وحيرة".

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٥]، وجوه من التفسير:

احدها: أنهم يؤخِّرونها عن وقتها، فلا يصلونها إلا بعد خروج وقتها. وهذا قول ابن عباس، وابن أبزى، ومسروق، وأبي الضحى، ومسلم بن صبيح، وسعد بن أبي وقاص، وابنه مصعب. ورواه سعد مرفوعا. وحكاه الواحدي عن الأكثرين.

قال الزمخشري: " كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك، فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها".

=

قال الزجاج:"ومن تعمَّد تأخيرها عن وقتها حتى يدخل وقت غيرها فالويل له أيضًا كما قال الله ﷻ".

قال السعدي:" {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} أي: الملتزمون لإقامة الصلاة، ولكنهم {عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ} أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ".

عن سعد بن أبي وقاص قال:" سألت النبي ﷺ عن قوله: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها» ".

عن ابن عباس: " {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: الذين يؤخِّرونها عن وقتها".

قال مسروق:" الترك لوقتها". وفي لفظ:" تضييع ميقاتها".

قال أبو الضحى:" ترك المكتوبة لوقتها".

قال مسلم بن صبيح:" الذين يضيعونها عن وقتها".

قال ابن أبزى:" الذين يؤخِّرون الصلاة المكتوبة، حتى تخرج من الوقت أو عن وقتها".

عن مصعب بن سعد، قال: "قلت لأبي، أرأيت قول الله ﷻ: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}: أهي تركها؟ قال: لا، ولكن تأخيرها عن وقتها".

عن مصعب بن سعد، قال: "قلت لسعد: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}: أهو ما يحدّث به أحدنا نفسه في صلاته؟ قال: لا ولكن السهو أن يؤخِّرها عن وقتها".

قال مصعب بن سعد:" السهو: الترك عن الوقت".

الثاني: أنهم يتركونها فلا يصلونها. قاله ابن عباس -أيضا-، ومجاهد.

=

عن مجاهد: " {عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: الترك لها".

قال ابن عباس:" هم المنافقون يتركون الصلاة في السرّ، ويصلون في العلانية".

قال ابن عباس:" فهم المنافقون كانوا يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضا لهم، وهو الماعون".

قال ابن كثير:" ولهذا قال: {لِلْمُصَلِّينَ}، أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى.. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا»، فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا؛ ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلا ". ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو إذًا لم يصل بالكلية. قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلا قَلِيلا} [النساء: ١٤٢]. وقال هاهنا: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} ".

الثالث: أن معنى «ساهون»، أي: لاهون. قاله ابن عباس -في رواية-، ومجاهد -أيضا-، والفراء.

=

=

عن مجاهد: " {عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: لاهون".

وقال مجاهد:" يتهاونون".

قال مقاتل:" يعني: لاهون عنها حتى يذهب وقتها، وإن كانوا في خلال ذلك يصلونها".

وقرأ ابن مسعود: «لاهون».

قال الزمخشري: " لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب لما يكره فيها: من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات، لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السور، كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم. والمعنى: أنّ هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة- التي هي عماد الدين،

والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام- علما على أنهم مكذبون بالدين. وكم ترى من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة، فيا مصيبتاه".

الرابع: غافلون. قاله قتادة.

عن قتادة:" {عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: غافلون".

قال قتادة:" عنها، لا يبالي صلى أم لم يصلّ".

وقال ابن زيد:" يصلون، وليست الصلاة من شأنهم".

قال سهل:" هم المنافقون، غافلون عن مراعاة أوقات الصلاة ومراعاة حقوقها، وهذا وعيد شديد، إذ ليس كل من كان في صورة المطيعين واقفًا مع العابدين، كان مطيعًا مقبول العمل. وفي زبور داود عليه السلام: قل للذين يحضرون الكنائس بأبدانهم، ويقفون مواقف العباد وقلوبهم في الدنيا: أبي يستخفون؟ أم إياي يخدعون؟. وفي

=

=

الخبر: «ليس لأحد من صلاته إلا ما عقل» ".

الخامس: هو الذي يلتفت يمنة ويسرة وهوانًا بصلاته، قاله أبو العالية.

قال أبو العالية:" هو الذي يصلي ويقول هكذا وهكذا، يعني: يلتفت عن يمينه وعن يساره".

ونقل ابن الجوزي عن أبي العالية أنه قال: "هو الذي لا يدري عن كم انصرف، عن شفع، أو عن وتر".

قال ابن الجوزي:" وردَّ هذا بعض العلماء فقال: هذا ليس بشيء، لأنّ رسول الله ﷺ قد سها في صلاته، ولأنه قال ﷻ: عَنْ صَلاتِهِمْ ولم يقل: في صلاتهم، ولأن ذاك لا يكاد يدخل تحت طوق ابن آدم".

قال القرطبي: "وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته، فضلا عن غيره، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهود في كتبهم".

قال ابن العربي:" لأن السلامة عن السهو محال فلا تكليف. وقد سها النبي ﷺ في صلاته والصحابة، وكل من لا يسهو في صلاته فذلك رجل لا يتدبرها ولا يعقل قراءتها، وإنما همه في إعدادها وهذا رجل يأكل القشور ويرمي اللب، وما كان النبي ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها، اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له: اذكر كذا [لما لم يكن يذكره] حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى".

السادس: لا يصلّيها سرًا ويصليها علانية رياء للمؤمنين، قاله ابن عباس -في رواية-، والحسن.

قال ابن عباس:" هم المنافقون يرآءون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا".

وحكي ابن كثير عن الحسن: "إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع

=

=

زكاة ماله وفي لفظ: صدقة ماله".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: {ساهُونَ}: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها، تضييعها أحيانا، وتضييع وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك صح بذلك قول من قال: عُنِيَ بذلك ترك وقتها، وقول من قال: عُنِيَ به تركها لما ذكرتُ من أن في السهو عنها المعاني التي ذكرت". ثم استشهد على صحة قوله:

- عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص، قال: سألت النبيّ ﷺ، عن {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}، قال: هم الذين يؤخِّرون الصلاة عن وقتها" وهو ضعيف مرفوعا.

- عن أبي برزة الأسلميّ، قال: قال رسول الله ﷺ: "لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}: الله أكبر هذه خير لكم من أن لو أعطي كلّ رجل منكم مثل جميع الدنيا هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه" وإسناده ضعيف أيضا.

- وروي عمر بن سليمان يحدّث عن عطاء بن دينار أنه قال: "الحمد لله الذي قال: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ} [ولم يقل: في صلاتهم ساهون]".

ثم قال الطبري:" وكلا المعنيين اللذين ذكرت في الخبرين اللذين روينا عن رسول الله ﷺ محتمل عن معنى السهو عن الصلاة".

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} [الماعون: ٦]

أي: الذين هم يتظاهرون بأعمال الخير مراءاة للناس.

قال الطبري:" يقول: الذين هم يراءون الناس بصلاتهم إذا صلوا، لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا

=

=

على عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام".

قال الفراء:" إن أبصرهم الناس صلوا، وإن لم يرهم أحد تركوا الصلاة".

قال مقاتل:" إذا أبصرهم الناس صلوا، يراءون الناس بذلك ولا يريدون الله- ﷻ- بها".

قال ابن عطية:" بيان أن صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بينة إيمان، وإنما هي رياء للبشر فلا قبول لها".

عن مجاهد، عن عليّ بن أبي طالب -عليه السلام- في قوله: " {يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، قال: يراءون بصلاتهم".

قال مجاهد:" هم المنافقون".

عن الضحاك:" {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}، يعني: المنافقين".

قال ابن عباس:" هم المنافقون، كانوا يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا".

قال الحسن:" هو المنافق... فإن صَلّى راءى، وإن فاتتْه لم يأسَ عليها".

قال ابن زيد:" ويصلون- وليس الصلاة من شأنهم- رياءً".

قال سهل:" هو الشرك الخفي، لأن المنافقين كانوا يحسنون الصلاة في المساجد، فإذا غابوا عن أعين المسلمين تكاسلوا عنها، ألا ترى كيف أثبتهم أولًا مصلين، ثم أوعدهم بالوعيد. واعلموا أن الشرك شركان: شرك في ذات الله ﷻ، وشرك في معاملته، فالشرك في ذاته غير مغفور، وأما الشرك في معاملته قال: نحو أن يحج ويصلي ويعلم الناس، فيثنون عليه، هذا هو الشرك الخفي. وفي الخبر: «أخلصوا أعمالكم لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص، ولا تقولوا هذا لله، وللرحم إذا وصلتموه فإنه للرحم، وليس منه شيء». وقد قال النبي ﷺ لمعاذ حين قال له:

=

أوصني يا رسول الله، قال: «أخلص لله يكفيك القليل من العمل» ".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى المراءاة؟ قلت: هي مفاعلة من الإراءة، لأنّ المرائي يرى الناس عمله، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ولا غمة في فرائض الله»، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعا، فحقه أن يخفى، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم: «أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك»، وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود» ".

قال ابن كثير:" ومما يتعلق بقوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ} أن من عمل عملا لله فاطلع عليه الناس، فأعجبه ذلك، أن هذا لا يعد رياء، والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا مخلد بن يزيد، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كنت أصلي، فدخل علي رجل، فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ، فقال: "كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية".

قال أبو علي هارون بن معروف: "بلغني أن ابن المبارك قال: نعم الحديثُ للمرائين".

وعن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل

=

يَسُرُّه، فإذا اطُّلعَ عليه أعجبه. قال: قال رسول الله ﷺ: "له أجران: أجر السر وأجر العلانية".

* قال ابن حجر: الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد، وهو مشتق من الرؤية، والمراد إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها، والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر.

* وفي الآية التحذير من الرياء: فإن الله حذرنا من الرياء في الأقوال والأفعال في كثير من آيات القرآن الكريم، وبين لنا سبحانه أن الرياء يحبط الأعمال الصالحات.

فالرياء محبط للعمل.

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر).

وقال سبحانه (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا).

قال ابن كثير: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في وقت الغلس.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) رواه مسلم.

وهو من صفات المنافقين.

قال تعالى في المنافقين (يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا).

وقال سبحانه وتعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن

=

=

كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

وقال جل شأنه (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون).

قال مجاهد في معنى هذه الآية: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات.

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم.

وهدد تعالى المرائين.

قال سبحانه موضحا عقوبة المرائين يوم القيامة (فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون).

أول من يقضى عليه يوم القيامة المرائي بعمله.

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت. قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال هو قارئ. فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار) رواه مسلم.

أن الله يفضح المرائين.

=

=

كما في حديث سمرة. قال: قال ﷺ (من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به).

قال النووي: (سمع) بتشديد الميم، ومعناه: أشهر عمله للناس رياء (سمع الله به) أي: فضحه يوم القيامة، ومعنى (من راءى) أي: من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم (راءى الله به) أي: أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

يقال للمرائين يوم القيامة: اذهبوا اطلبوا الثواب ممن كنتم تراءون لهم.

عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الترمذي.

خافه النبي ﷺ علينا.

عن أبي سعيد مرفوعا (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد.

لا يدخل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ (من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) رواه أبو داود.

ليس له في الآخرة نصيب.

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ (بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب) رواه احمد.

=

=

من أقوال السلف:

عن شداد بن أوس قال عند موته: إن أخوف ما أخاف عليكم: الرياء، الشهوة الخفية.

قال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص.

وقال ابن القيم: وكل ما لم يكن لله فبركته منزوعة.

وكان الثوري يقول: كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئا.

وعن عبدة قال: إن أقرب الناس من الرياء آمنهم منه.

وقال الربيع بن خثيم: كل ما لا يراد به وجه يضمحل.

قال ابن رجب: ما ينظر المرائي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق.. المرائي يزور التواقيع على اسم الملك ليأخذ البراطيل لنفسه ويوهم أنه من خاصة الملك وهو ما يعرفه بالكليه... نقش المرائي على الدرهم الزائد اسم الملك ليروج والبهرج ما يجوز إلا على غير الناقد.

قال ابن القيم: أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله، فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به.

وقال القرطبي: وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس.

وقال ابن قدامة: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول:

أولا: حب لذة الحمد.

ثانيا: الفرار من ألم الذم.

ثالثا: الطمع فيما في أيدي الناس.

=

=

وقال: واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفا من الذم، وذلك من المهلكات.

وقال: ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وقال: ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما نغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال.... (مختصر منهاج القاصدين).

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر: ثم تأملت العلماء والمتعلمين، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة؛ لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضي بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

وقال ابن رجب: ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع.

فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكرا واستدراجا كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته.

وقال الذهبي: ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، وإن أعجبه الصمت فلينطق، ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب

=

=

الظهور والثناء.

وقال أبو قلابة لأيوب السختياني: يا أيوب إذا أحدث الله لك علما فأحدث لله عبادة، ولا يكونن همك أن تحدث به الناس.

وفي ترجمة ابن جريج: قال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟!! كلهم يقول: لنفسي. غير أن ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس.

قال الذهبي - رَحِمَهُ اللَّهُ - تعليقا على هذا الخبر: " قلت: ما أحسن الصدق، واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه.

وقال عبد الله بن المعتز: علم المنافق في قوله، وعلم المؤمن في عمله.

قال عمر بن الخطاب: من خلصت نيته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

وكان من دعاء عمر: اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا.

وقال ابن القيم: العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله.

وقال: إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده، حتى في الأعمال، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئا من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

=

=

وقال: الوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

- الفرق بين الرياء والعجب: الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس.

قوله تعالى: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون: ٧]

أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة كالإناء والدلو والفأس ونحو ذلك مما جرت العادة ببذله، فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون فكيف بما هو أكثر منه.

قال الشوكاني: "قال أكثر المفسرين (الماعون) اسم لما يتعاوزه الناس بينهم: من الدلو، والفأس، والقدر وما لا يمنع كالماء، والملح".

وقال الخازن: ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل قال العلماء ويستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم ولا يقتصر على الواجب.

وفي تفسير قوله تعالى: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [الماعون: ٧]، أقوال:

أحدها: أن «الماعون»: الزكاة، قاله علي، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك،وزيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن، ومحمد بن الحنفية، قال الراعي:

أخليفة الرحمن إنا مَعْشَرٌ... حُنَفاءُ نسجُد بكرةً وأصيلًا

عَرَبٌ نرى لله في أمْوالِنا... حقَّ الزكاة مُنزّلا تنزيلًا

قَوْمٌ على الإسلام لمّا يَمْنعوا... ماعونَهم ويضَيِّعوا التهْليلا

قال عكرمة:" رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة".

قال ابن كثير:" وهذا الذي قاله عكرمة حسن؛ فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع

=

=

كلها إلى شيء واحد. وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة".

عن علي رضي الله عنه:" {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون}، قال: يمنعون زكاة أموالهم". وفي لفظ:" الصدقة المفروضة".

عن قتادة: " {المَاعُونَ}: الزكاة المفروضة".

قال ابن زيد:" هم المنافقون يمنعون زكاة أموالهم".

قال ابن زيد:" أولئك المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها".

قال زيد بن أسلم:" الماعون: الزكاة. قال: ولو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة لم يصلوا".

قال الحسن:" منعوا صدقات أموالهم، فعاب الله عليهم".

قال الحسن:" هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله، فإن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها".

عن سلمة، قال: "سمعت أبا المُغيرة قال: سألت ابن عمر، عن الماعون، فقال: هو منع الحقّ".

عن سلمة بن كهيل، قال:" سمعت أبا المغيرة: رجلا من بني أسد، قال: سألت عبد الله بن عمر، عن الماعون، قال: هو منع الحقّ، قلت: إن ابن مسعود قال: هو منع الفأس والدلو قال: هو منع الحقّ".

عن سلمة بن كهيل، قال: سُئل ابن عمر عن الماعون، فقال: هو الذي يسأل حق ماله ويمنعه، فقال: إن ابن مسعود يقول: هو القدر والدلو والفأس، قال: هو ما أقول لكم".

عن سلمة بن كهيل:" أن ابن عمر سُئل عن قول الله: "وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، قال: الذي يُسأل مال الله فيمنعه، فقال الذي سأله، فإن ابن مسعود يقول: هو الفأس

=

=

والقدر، قال ابن عمر: هو ما أقول لك".

عن أبي المُغيرة، قال: "سأل رجل ابن عمر، عن الماعون؟ قال: هو المال الذي لا يؤدى حقه، قال: قلت: إن ابن أمّ عبد يقول: هو المتاع الذي يتعاطاه الناس بينهم، قال: هو ما أقول لك".

الثاني: أن «الماعون»: المعروف، قاله محمد بن كعب.

وفي الحديث: «كل معروف صدقة».

الثالث: أنه الطاعة، قاله ابن عباس -في رواية-.

الرابع: أنه المال -بلسان قريش-، قاله سعيد بن المسيب، والزهري.

الخامس: أن «الماعون» -في الجاهلية: كل منفعة وعطية، وفي الإسلام: الطاعة والزكاة. قاله أبو عبيدة، والزجاج. واستشهدا بقول الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْه بِمَاعُونِهِ... إذا ما سَماؤُهُمُ لَمْ تَغِمْ

وقول الراعي:

قَوْمٌ عَلى الإِسْلامِ لَمَّا يَمْنَعُوا... ماعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلا

قال أبو عبيدة: وكانت لي ناقة صفيّة، فقال لي رجل: لو قد نزلنا لقد صنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون. أي: تنقاد".

قال الزجاج:" «الماعون» -في الجاهلية- ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل ما انتفع به من قليل أو كثير.. و «الماعون» -في الإسلام-: قيل هو الزكاة والطاعة".

قال ابن عطية:" وصف لهم بقلة النفع لعباد الله، وتلك شرخلة".

قال ابن كثير:" أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى".

=

=

السادس: أنه الماء إذا احتيج إليه، ومنه: الماء المعين، وهو الجاري، ذكره الفراء، ومنه قول الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْه بِمَاعُونِهِ... إذا ما سَماؤُهُمُ لَمْ تَغِمْ

قال الفراء:" سمعت بعض العرب، يقول: الماعون: هو الماء، وأنشدني فيه:

يمج صَبِيرُهُ الماعون صبّا

قال الفراء: "ولست أحفظ أوله. الصّبير: السّحاب".

وقال ابن منظور:" الماعون: المطر، لأنه يأتي من رحمة الله عفوا بغير علاج كما تعالج الأبآر ونحوها من فرض المشارب؛ وأنشد أيضا:

أقول لصاحبي ببراق نجد:... تبصر، هل ترى برقا أراه؟

يمج صبيره الماعون مجا،... إذا نسم من الهيف اعتراه".

السابع: أنه ما يتعاوره الناس بينهم، مثل الدلو والقدر والفأس، قاله ابن عباس، وابن مسعود، وأبو مالك، وسعيد بن جبير. وقد روي مأثورا.

عن دلهم بن دهثم العجلي: حدثنا مائذ بن ربيعة النميري:" أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ما تعهد إلينا؟ قال: «لا تمنعون»، وقال: يا رسول الله وما الماعون؟ قال «في الحجر وفي الحديدة وفي الماء»، قالوا فأي الحديدة؟ قال «قدوركم النحاس وحديد الفأس الذي تمتهون به»، قالوا وما الحجر؟ قال: «قدوركم الحجارة» وإسناده ضعيف.

عن علي بن فلان النميري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المسلم أخو المسلم. إذا لقيه حَيَّاه بالسلام، ويرد عليه ما هو خير منه، لا يمنع الماعون". قلت: يا رسول الله، ما الماعون؟ قال: "الحَجَر، والحديد، وأشباه ذلك" وسنده ضعيف فيه علل.

عن ابن عباس" {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، قال: اختلف الناس في ذلك، فمنهم من

=

=

قال: يمنعون الزكاة، ومنهم من قال: يمنعون الطاعة، ومنهم من قال: يمنعون العارية".

عن ابن عباس:" {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، قال: لم يجيء أهلها بعد".

عن ابن جبير، عن ابن عباس: " {المَاعُونَ}: العارية".

قال ابن عباس:" يمنعونهم العارية، وهو الماعون".

عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: "هو العارية".

عن ابن عباس:" {المَاعُونَ}، قال: متاع البيت".

قال ابن عباس:" هو متاع البيت".

قال ابن عباس:" ما يتعاطى الناس بينهم".

قال ابن عباس:" ويمنعونهم، العارية بغضا لهم وهي «الماعون» ".

عن أبى العبيدين، قال: قال عبد الله: "الماعون: القدر والفأس والدلو".

عن ابن مسعود:" {المَاعُونَ}: منع الفأس والقدر والدلو".

قال ابن مسعود:" ما يتعاوره الناس بينهم: الفأس والدلو وشبهه".

عن أبي العبيدين: "-وكانت به زمانة، وكان عبد الله يعرف له ذلك-، فقال: يا أبا عبد الرحمن ما الماعون؟ قال: ما يتعاطى الناس بينهم من الفأس والقدر والدلو وأشباه ذلك".

قال ابن مسعود:" كنا أصحاب محمد نحدّث أن الماعون: القدر والفأس والدلو".

قال ابن مسعود:" كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدّث أن الماعون: الدلو والفأس والقدر، لا يستغنى عنهن".

قال ابن مسعود:" عن عبد الله، قال: كنا مع نبينا ﷺ ونحن نقول: الماعون: منع الدلو وأشباه ذلك".

=

=

عن سعيد بن عياض -قال أبو موسى: هكذا قال غندر- عن أصحاب النبيّ ﷺ، قالوا: "إن من الماعون: الفأس والدلو والقدر".

قال السعدي:" أي: يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به، فهؤلاء -لشدة حرصهم- يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه".

الثامن: أنه الإبرة، والماء، والنار، والفأس، وما يكون في البيت من هذا النحو، رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ.

وعن عائشة: "الماء والنار والملح".

قال الزمخشري:" وقد يكون منع هذه الأشياء محظورا في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحا في المروءة في غير حال الضرورة".

التاسع: أنه منع الزكاة والفأس والدلو والقدر. قاله علي رضي الله عنه.

العاشر: أنه منع الحق، قاله عبد الله بن عمر.

الحادي عشر: أنه المستغل من منافع الأموال، مأخوذ من: المعنى، وهو: القليل، قاله الطبري، وابن عيسى.

قال الطبري: المعنى: "ويمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كلّ شيء منفعته، يقال للماء الذي ينزل من السحاب ماعون".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، إذ كان الماعون هو ما وصفنا قبل، وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم، وأنهم يمنعونه الناس، خبراً عاما، من غير أن يخص من ذلك شيئا أن يقال: إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاونونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض".

=

=

قال ابن كثير: أي: لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به.

مسألة: قوله {فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون}.

توعد الله الغافلين عن الصلاة المتكاسلين عنها بالوعيد الشديد، وهذه الآية فيمن يصلي؛ لأن الله قال: {فويل للمصلين}؛ يعني: أنهم يصلون لكنهم يتكاسلون ويغفلون عنها حتى يؤخروها عن وقتها؛ وهذا ظاهر قوله تعالى: {الذين هم عن صلاتهم ساهون} فبين أنهم ساهون عنها، وليسوا تاركين لها، ولا أنهم ساهون فيها فقط؛ لأن السهو عنها هو غفلة عن أصل الصلاة، والسهو فيها هو عدم الخشوع فيها؛ ولهذا قالا عطاء بن دينار: "الحمد لله الذي قال: {هم عن صلاتهم ساهون}، ولم يقل: في صلاتهم ساهون".

لأن ذهاب بعض الخشوع لا يكاد يسلم منه أحد، وقد سأل مصعب بن سعد سعدا، فقال: {هم عن صلاتهم ساهون}: أهو ما يحدث به أحدنا نفسه في صلاته؟ قال: لا؛ ولكن السهو أن يؤخرها عن وقتها.

وقد تقدم الكلام على الخشوع وحكمه في أول سورة المؤمنون.

وحمل هذه الآية على تأخير الصلاة عن وقتها، لا تركها بالكلية: جماعة من السلف؛ كسعد وابن عباس والشعبي، ومسروق.

ومن السلف: من حملها على الترك، وهذا قول لابن عباس رواه عنه علي بن أبي طلحة، ولكن ابن عباس قيد الترك بترك المنافق سرا ويفعلها علانية، فقال: "فهم المنافقون؛ كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضا لهم، وهو الماعون".

وبهذا المعنى قال جماعة؛ كمجاهد والضحاك وغيرهما.

وهذا المعنى صحيح، ولا يخرج عن القول السابق له، لأن المنافق إما أن يكون

=

=

نفاقه أكبر؛ فيترك الصلاة المفروضة في السر بالكلية، وينشئها رياء وعلانية للناس، وإما أن يكون نفاقه ليس بأكبر؛ فيجذبه الإيمان عن الترك، ويجعله نفاقه يتراخى عن وقتها، وهو بين مد النفاق وجزر الإيمان للوقت، ومن هذا ما ثبت في مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (تلك صلاة المنافق؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا)، وهذا النفاق الأصغر الذي لم يخرجه من الملة، ولو كان أكبر، لم يقم لأدائها.

التلازم بين الرياء وتأخير وقت الصلاة: وثمة تلازم بين تأخير الصلاة عن وقتها وبين الرياء، وكلما كان الرياء في قلب العبد عظيما، كان تراخيه عن الصلاة شديدا، فإن اكتمل الرياء، اكتمل الترك، وقد جعل الله الرياء ملازما للتساهل في الصلاة في كتابه؛ كما في قوله هنا: {فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون} [الماعون: ٤ - ٦]؛ فبمقدار الرياء يكون السهو عنها، وكذلك قرن الله الرياء بالتكاسل عن الصلاة في قوله تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس} [النساء: ١٤٢]، وكذلك هو في الحديث السابق فيمن اعتاد تأخير الصلاة إلى قبيل المغرب، قال ﷺ: (تلك صلاة المنافق).

* حكم الصلاة: الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي أول الواجبات البدنية، وشريعة في كل الرسالات، وفرض الله خمسها في السماء بلا واسطة؛ بخلاف بقية الشرائع المفروضة والمسنونة.

وأما ترك الصلاة، فقد استفاضت النصوص على كفر فاعله مرفوعة وموقوفة، وقد روى مسلم؛ من حديث جابر؛ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة).

فجعل الصلاة حائلا بين الرجل وبين الكفر، وإن تركها بالكلية، فقد زال الحائل

=

=

بينهما، ودخل الرجل إلى الكفر.

وقد جعلها النبي ﷺ فيصلا بين من أسلم وجهه لله وبين من أسلم وجهه لغيره ممن نطق الشهادتين، فقال كما في السنن: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة؛ فمن تركها، فقد كفر)، وبهذا كان يقول الصحابة ويفرقون بينهم وبين الكفار؛ كما قال مجاهد بن جبر لجابر رضي الله عنه: "ما كان يفرق بين الكفر والإيمان عندكم من الأعمال في عهد رسول الله ﷺ؟ قال: الصلاة".

ويقول عبد الله بن شقيق العقيلي: "كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة".

وعلى هذا كان التابعون، وكانوا يطلقون على التارك الكفر، كما قال أيوب: ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه.

ولا يوجد من كلام الصحابة ولا التابعين ما يخرج هذا العموم أو يقيده ويخصصه، إلا حمل ذلك على الترك بالكلية، وأما من كان يؤدي بعض الصلوات ويترك بعضا، فهذا ليس تاركا لها بالكلية؛ وإنما يدخل في الوعيد في هذه الآية: {الذين هم عن صلاتهم ساهون}، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قبل إسلام من لم يؤد الصلاة كلها، كما صح عن نصر بن عاصم الليثي، عن رجل منهم: "أنه أتى النبي ﷺ فأسلم على أن يصلي صلاتين، فقبل منه"؛ رواه أحمد.

ولم يكن النبي ﷺ ليقره على الكفر، وإنما قبل منه الإسلام ولو كان مسرفا على نفسه أهون من بقائه على الكفر.

وإنما اختلف العلماء في تفسير ما أطلق من كلام النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومرادهم في كفر تارك الصلاة، فمنهم من حمله على الكفر الأكبر، ومنهم من حمله على الأصغر.

والمعروف عن أحمد والمشهور عند الأصحاب: كفر تارك الصلاة، وليس في

=

=

كلام أحمد ما يخالف ذلك، وعامة الرواة عنه ينقلون كفر تارك الصلاة، وأما ما نقله عنه صالح في "المسائل" أنه سأله عن زيادة الإيمان ونقصانه، فقال له: كيف يزيد وينقص؟ قال: زيادته بالعمل، ونقصانه بترك العمل؛ مثل تركه الصلاة والزكاة والحج وأداء الفرائض.

فهذا لا يخالف ما تقدم تقريره؛ وذلك أن أحمد أخرج حديث نصر بن عاصم في "مسنده"، وظاهره: أنه لا يخالفه، فالنقصان يكون بترك صلوات، لا ترك الصلاة كلها.

وقد اختلف القول في ذلك عن مالك والشافعي؛ فنقل عنهم الكفر وعدمه، وإن لم يأت عنهما نص في التصريح، وإنما هي حكايات من الأئمة عنهم، والمشهور في المحكي عنهما في تارك الصلاة: أن كفره ليس بأكبر.

وأما أبو حنيفة، فجماهير أصحابه ينقلون عنه عدم الكفر. وللتوسع في هذه المسألة انظر كتاب (جامع أحكام شروط الصلاة- طبعة دار اللؤلؤة) المجلد الأول بالكامل فهو مخصص لهذه المسألة.

مسألة: قال الله تعالى: {ويمنعون الماعون}.

ذكر الله حبس النفقة عن أهلها بعدما ذكر الغفلة عن الصلاة، فجعل حبس النفقة صفة للغافلين عن صلاتهم الساهين عنها؛ وذلك أن كمال الصلاة علامة على قوة الإيمان بالآخرة، ومن قوي إيمانه بالآخرة، انبسطت يده بالصدقة، لعمارة آخرته، وقدم لها ما ينتظره فيها من أجر، ومن ضعفت صلاته، ضعف إيمانه، وانقبضت يده عن الصدقة بمقدار ضعف إيمانه؛ فإن الإنسان في الدنيا يعمر بيوتها بمقدار أمله بالبقاء فيها، فتجده لا يعمر بيتا في بلد يعبرها مسافرا، وكلما كان يقينه بالبقاء فيها أطول، كانت عمارته لها أشد.

وقوله تعالى: {الماعون} على وزن (فاعول)؛ مشتق من المعن، وهو الشيء

=

=

القليل اليسير؛ فكل ما يحتاج إلبه الناس ويعينهم في استمتاعهم يسمى ماعونا، ثم غلب استعماله على الآنية؛ لأنها أغلب ما ينتفع به الناس في الطعام والشراب.
ومن السلف: من حمل قوله: {الماعون} في الآية على منع كل خير ولو كان نفقة درهم ودينار.
بل من السلف: من حمله على إعانة الناس بمهنتهم إن طلبوا عونا.
ومن هنا تنوع كلام السلف في تفسير الماعون في الآية:
فمنهم: من قال: هي الزكاة؛ كعلي وابن عمر ومجاهد وابن الحنفية وسعيد بن جبير والحسن والزهري.
ومنهم: من قال: هو القدر والدلو الفأس وما في حكمه من متاع؛ كابن مسعود ونسبه إلى أصحاب النبي ﷺ؛ وبه قال علي وابن عباس وعكرمة والنخعي.
ومنهم: من جعله منع كل حق ومال يسأل الإنسان إياه ولا يعطيه؛ كابن عمر.
ومنهم: من حمله على العارية؛ كما قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير.
ومنهم: من حمله على النقدين الذهب والفضة؛ كما قاله ابن المسيب.
ومنهم: من حمله على المهنة وإعانة المحتاج بها عند طلبها؛ فيعان بجهد البدن؛ كما قالت أم عطية.
وهذا كله من السلف تنوع لا تضاد، ومنع كل ما ذكروه هو مما يدخل في قوله تعالى: {ويمنعون الماعون}.
* حكم العارية وحبس ما يعين المحتاج:
وتضمنت الآية منح العارية وبذل ما يعين الناس في حاجاتهم، وإنما اختلف العلماء في وجوب إعطاء العارية ومنحها، على قولين في مذهب أحمد، وقد نص على الوجوب جماعة؛ كابن تيمية وغيره، والأظهر الوجوب؛ لكن بشروط:
الأول: أن يكون طالب العارية محتاجا لها؛ لا يستعيرها ترفا وتكثرا.

=

سورة الكوثر[1]

=

الثاني: أن يكون المتاع المستعار لا يحتاج إليه صاحبه بمثل أو أشد من حاجة طالبه، فإن كان محتاجا له، فله منعه لنفسه ولعياله، ويكون بذله من باب الإيثار على النفس وهذه مرتبة أهل الفضل بالبذل: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} [الحشر: ٩].

الثالث: أن يكون المستعير مؤتمنا على حفظ المتاع لا يفسده، ومن عرف بأخذ العارية وجحدها أو إتلافها وإضاعتها وإفسادها، فلا يجب على صاحبها بذلها ولو كان المستعير محتاجا لها، ويكون بذل العارية في حقه فضلا وحسنة بمقدار حاجة طالبها.

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها مكّيّة، قله ابن عباس، وعائشة، وابن الزبير، وهو المشهور.

قال أبو حيان:" هذه السورة مكية في المشهور، وقول الجمهور.

عن ابن عباس قال: " نزلت سورة {إنا أعطيناك الكوثر} بمكة". وروي عن ابن الزبير، وعائشة مثل ذلك.

الثاني: أنها مدنيّة، وهو قول الحسن، وعكرمة، وقتادة.

قال ابن عطية:" هي مكية".

قال ابن عاشور:" تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضا شديدا، فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتاب «النشر» قال: «أجمع من نعرفه على أنها مكية». قال الخفاجي: «وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها».

وعن الحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة: هي مدنية، ويشهد لهم ما في «صحيح

=

=

مسلم» عن أنس بن مالك: «بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: أنزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ١ - ٣]، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة»، الحديث.

وأنس أسلم في صدر الهجرة فإذا كان لفظ «آنفا» في كلام النبي ﷺ مستعملا في ظاهر، معناه: وهو الزمن القريب، فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا. ومقتضى ما يروى في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، أن تكون السورة مكية، ومقتضى ظاهر تفسير قوله تعالى: وانحر من أن {انْحَرْ} في الحج أو يوم الأضحى تكون السورة مدنية، ويبعث على أن قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ليس ردا على كلام العاصي بن وائل.

والأظهر أن هذه السورة مدنية ".

* آياتها ثلاث بالإجماع. وكلماتها عشر. وحروفها ثنتان وأربعون. فواصل آياتها على الرّاءِ.

عن ابن شبرمة قال: "ليس في القرآن سورة أقل من ثلاث آيات".

قال ابن عاشور:" عدد آيها ثلاث بالاتفاق. وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، وأما في عدد الآيات فسورة «العصر» وسورة «النصر» مثلها، ولكن كلماتهما أكثر".

* تسمى «سورة الكوثر» سميت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضا «سورة الكوثر». وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من «جامعه». ووجه تسميتها بذلك لافتتاح السورة بذكر «الكوثر»، قال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١].

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١).

{إِنَّا أَعْطَيْنَاك} يَا مُحَمَّد {الْكَوْثَر} هُوَ نَهْر فِي الْجَنَّة هُوَ حَوْضه تَرِد عَلَيْهِ أُمَّته وَالْكَوْثَر الْخَيْر الْكَثِير مِنْ النُّبُوَّة وَالْقُرْآن وَالشَّفَاعَة ونحوها.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢).

=

وتسمى سورة «إنا أعطيناك الكوثر» بذلك عنونها البخاري في «صحيحه».

وذكرها السخاوي في «جمال القراء»، باسم «إنا أعطيناك».

وسميت بها السورة، لأنها أول آية افتتحت بها السورة، قال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١].

وتسمى سورة «النحر» ذكر البقاعي، أنها تسمى: «سورة النحر»، ونقل عنه الألوسي في تفسيره، وقد ذكرها الجمل في الفتوحات.

وذكر-أيضا - سعد الله الشهير بسعدي، في «حاشيته على تفسير البيضاوي» أنها تسمى «سورة النحر».

وقد علل البقاعي هذه التسمية، بقوله: "لأنه معروف في نحر الإبل، وذلك غاية الكرم عند العرب".

ولم يعدها في «الإتقان» مع السور التي لها أكثر من اسم.

* معظم مقصود السّورة: بيان المِنَّة على سيّد المرسلين، وأَمره بالصّلاة والقُرْبان، وإِخباره بإِهلاك أَعدائه أَهل الخيبة والخذلان.

* **المتشابهات:** قوله تعالى: {إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر} وبعده: {إِنَّ شَانِئَكَ} قيد الخبرين بإِنَّ، والخبر إذا قيّد بإِنَّ قارب الاسم. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{فَصَلِّ لِرَبِّك} صَلَاة عِيد النَّحْر {وَانْحَرْ} نُسُكك.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣).

{إنَّ شَانِئُك} أَيْ مُبْغِضك {هُوَ الْأَبْتَر} الْمُنْقَطِع عَنْ كُلّ خَيْر أَوْ الْمُنْقَطِع الْعَقِب نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْن وَائِل سَمَّى النَّبِيّ ﷺ أَبْتَر عِنْد مَوْت اِبْنه القاسم(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)}؛ قال: نهر في بطنان الجنة، حافتاه قباب الدر والياقوت، فيه أزواجه وخدمه، قال: وبأي شيء ذكر ذلك؟ قال: إن رسول الله ﷺ دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفًا؟! قال: ذلك الأبتر؛ يريد: النبي ﷺ؛ حتى أنزل الله هذه السورة: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}؛ يعني: عدوك العاص بن وائل هو الأبتر من الخير، لا أذكر في مكان إلا ذكرت معي يا محمد! فمن ذكرني ولم يذكرك؛ ليس له في الجنة نصيب، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم؛ أما سمعت حسان بن ثابت يقول:

وحَبَاه الإله بالكوثر ... الأكبر فيه النعيم والخيرات.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٤٦، ٦٤٧) ونسبه للطستي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا؛ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟! قال: "أنزلت عليّ آنفًا سورة"، فقرأ: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}، ثم قال: "أتدرون ما الكوثر؟ "، فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير؛ هو =

=

حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب! إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك".

أخرجه مسلم (رقم ٤٠٠).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة؛ قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ ونحن؛ يعني: أهل الحجيج وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه؛ فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}، ونزلت: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} إلى قوله: {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [النساء:٥١، ٥٢].

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٥٦٠ رقم ٧٢٧)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٣١ - "موارد")، والبزار في "مسنده" (٣/ ٨٣ رقم ٢٢٩٣ - "كشف")، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٣) من طريق يحيى بن راشد وابن أبي عدي عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد صحيح.

وذكر الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٥٩٨): أن البزار أخرجه من طريق ابن أبي عدي عن داود، وقال: "وهذا إسناد صحيح".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٥): "بسند صحيح".

وذكره في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأخرجه الطبراني في "الكبير" (رقم ١١٦٤٥) من طريق يونس بن سليمان الجمال ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس به.

قال الهيثمي في "المجمع" (٧/ ٥، ٦): "وفيه يونس بن سليمان الجمال ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح".

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ؛ مشى

=

=

المشركون بعضهم إلى بعض، فقالوا: إن هذا الصابئ قد بتر الليلة؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)} إلى آخر السورة.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ١٧٩ رقم ٤٠٧١) من طريق سعيد بن مسلمة عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٣): "رواه الطبراني؛ وفيه واصل بن السائب وهو متروك".

الثانية: أبو سورة ضعيف -أيضًا-.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) وزاد نسبته لابن مردويه.

وقال في "لباب النقول" (ص ٢٣٦): "بسند ضعيف".

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان أول من ولد لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة القاسم، وبه كان يُكنى، ثم ولدت زينب ثم رقية ثم فاطمة ثم أم كلثوم، ثم ولد في الإسلام عبد الله؛ فسمي الطيب والطاهر وأمهم جميعًا خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، فكان أول من مات من ولده القاسم، ثم مات عبد الله بمكة؛ فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده؛ فهو أبتر؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (١/ ١٣٣): نا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس به. وهذا موضوع كذب؛ الكلبي كذاب، وشيخه متهم بالكذب.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) وزاد نسبته لابن عساكر.

وعن عكرمة؛ قال: لما أوحى الله إلى النبي ﷺ؛ قالت قريش بتر محمد بنا؛

=

=

فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١١/ ٥٠٨ رقم ١١٨٤٥)، والطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٣) عن وكيع عن بدر بن عثمان عن عكرمة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥١)، و"لباب النقول" (ص ٢٣٥) وزاد نسبته لابن المنذر وعبد الرزاق.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: ولدت خديجة من النبي ﷺ ولهم عبد الله، ثمّ أبطأ عليه الولد من بعده، فبينما رسول الله ﷺ يكلم رجلًا والعاص بن وائل ينظر إليه؛ إذ قال له رجل: من هذا؟ قال: هذا الأبتر؛ يعني: النبي ﷺ، فكانت قريش إذا ولد للرجل ثم أبطأ عليه الولد من بعده؛ قالوا: هذا الأبتر؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}؛ أي: مبغضك هو الأبتر الذي بتر من كل خير.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) ونسبه لابن عساكر.

وعن السدي؛ قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل: بتر فلان، فلما مات ولد النبي ﷺ؛ قال العاص بن وائل: بتر محمد؛ فنزلت.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٥، ٢٣٦)، و"الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن محمد بن علي؛ قال: كان القاسم ابن رسول الله ﷺ قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيبة، فلما قبضه الله؛ قال عمرو بن العاص: لقد أصبح أبتر من ابنه؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)} عوضًا يا محمد عن مصيبتك بالقاسم {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٢) ونسبه للبيهقي في "الدلائل" وهو ضعيف؛ لإرساله.

=

=

وقال البيهقي: هكذا روي بهذا الإسناد وهو ضعيف، والمشهور أنها نزلت في العاص بن وائل.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}؛ قال: هو العاص بن وائل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٢)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٣) من طريق العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن سعيد بن جبير؛ أنه قال: كانت هذه الآية؛ يعني: قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)} يوم الحديبية، أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: "انحروا وارجع"، فقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البدن فنحرها؛ فذلك حين يقول تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٢): ثنا يونس نا ابن وهب أخبرني أبو صخر ثني أبو معاوية البجلي عن سعيد به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وعن شمر بن عطية؛ قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد وهو أبتر؛ فأنزل الله فيه هؤلاء الآيات: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)} عقبة بن أبي معيط.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٣): ثنا ابن حميد ثنا يعقوب القمي عن حفص بن حميد عن شمر به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن حميد متهم بالكذب.

وعن عطاء؛ قال في قوله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}: أبو جهل.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا مرسل لا تقوم به

=

=

حجة.

وعن ابن جريج؛ قال: بلغني أن إبرهيم ولد النبي ﷺ لما مات؛ قالت قريش: أصبح محمد أبتر؛ فغاظه ذلك؛ فنزلت: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)} تعزية له.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٦) ونسبه لابن المنذر. وهذا معضل.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال: توفي القاسم ابن رسول الله ﷺ بمكة، فمر رسول الله ﷺ وهو آت من جنازته على العاص بن وائل وابنه عمرو، فقال حين رأى رسول الله ﷺ: إني لأشنئوه، فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتر؛ فأنزل الله ﷻ: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٣) ونسبه للزبير بن بكار وابن عساكر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن يزيد بن رومان؛ قال: كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ؛ قال: دعوه؛ فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحم منه؛ فأنزل الله تعالى في ذلك: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)} إلى آخر السورة.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٧) بسند حسن عن ابن إسحاق؛ قال: حدثني يزيد به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وعن عكرمة: في هذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)} [النِّساء: ٥١]؛ قال: نزلت في كعب بن الأشرف، أن مكّة فقال له أهلها: نحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه، ونحن أهل الحجيج وعندنا منحر البدن؟! قال: أنتم خير؛ فأنزل الله فيه هذه الآية، وأنزل في الذين قالوا للنبي ﷺ ما قالوا: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٣): ثنا ابن المثنى ثنا عبد الوهاب ثنا

=

=

داود عن عكرمة.

وهذا مرسل صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح.

وعن الكلبي في قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}؛ قال: هو العاص بن وائل، قال: إني شانئ محمدًا، وهو الأبتر ليس له عقب؛ فقال الله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٤٠٢) والكلبي كذاب.

* قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١]

أي: إنا أعطيناك -أيها النبي- الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر الكوثر في الجنة الذي حافتاه خيام اللؤلؤ المجوَّف، وطينه المسك.

وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة. قال ابن عاشور: (وقد فسر السلف الكوثر في هذه الآية بتفاسير، أعمها: أنه الخير الكثير).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ} يا محمد {الْكَوْثَر} ".

واختلف أهل التفسير في معنى {الْكَوْثَر}، على أقوال:

أحدها: أن الكوثر: النبوة، قاله عكرمة.

قال عكرمة:" هو النبوّة، والخير الذي أعطاه الله إياه".

وعن عكرمة:" {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال: الخير الكثير، والقرآن والحكمة".

وقال عكرمة:" الخير الذي أعطاه الله النبوّة والإسلام".

قال عكرمة:" الكوثر: ما أعطاه الله من النبوة والخير والقرآن".

عن بدر بن عثمان، سمع عكرمة يقول في «الكوثر»: قال: "ما أُعطي النبّي من الخير والنبوّة والقرآن".

الثاني: القرآن، قاله الحسن.

=

=

الثالث: الإسلام، حكاه المغيرة.

الرابع: أنه نهر في الجنة، أعطاه الله نبيه محمدا ﷺ. وهذا القول مروي عن عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم ومجاهد. ورجحه: الطبري، والواحدي، والبغوي، والخازن، وأبي حيان، والقنوجي.

ويشهد لهذا القول حديث أنس رضي الله عنه قال: (أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسما فقال: إنه أنزلت علي سورة آنفا، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها، فقال: هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير...) رواه مسلم.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي، قول من قال: هو اسم النهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرة، لعظم قدره، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك، لتتابع الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن ذلك كذلك.

وقال الرازي: (المشهور المستفيض عند السلف والخلف أنه نهر في الجنة - إلى أن قال - القول الثاني: أنه حوض، والأخبار فيه مشهورة، ووجه التوفيق بين هذا القول والقول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض، أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض).

وقال الشوكاني: وذهب أكثر المفسرين، كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة.

وقال ابن حجر: لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه.

- قوله (إنا...) تكلم تعالى عن نفسه بضمير العظمة، لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم (وهو العلي العظيم).

- والنبي ﷺ أعطاه الله النعم الكثير:

كقوله ﷺ: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب

=

=

مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة). متفق عليه.
الخامس: أنه حوض النبي ﷺ الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة قاله عطاء.
عن عطاء: " {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال: حوض في الجنة أُعطيه رسول الله ﷺ".
عن مطر، قال: سألت عطاء ونحن نطوف بالبيت عن قوله: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال: حوض أُعطيه رسول الله ﷺ".
السادس: أنه الخير الكثير، قاله ابن عباس -في رواية أخرى-، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة.
عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: "الكوثر: الخير الكثير".
عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس أنه قال في «الكوثر»: "هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: فقلت لسعيد بن جبير: فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه".
عن أبي بشر، قال: سألت سعيد بن جبير، عن الكوثر، فقال: "هو الخير الكثير الذي آتاه الله، فقلت لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة، فقال: هو الخير الذي أعطاه الله إياه".
عن هلال، قال: "سألت سعيد بن جُبير: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال: أكثر الله له من الخير، قلت: نهر في الجنة؟ قال: نهر وغيره".
عن عطاء بن السائب، قال: قال محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جُبير في الكوثر؟ قال: قلت: قال: قال ابن عباس: هو الخير الكثير، فقال: صدق والله".
عن ابن عباس، وسعيد بن جبير: " {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال: الخير الكثير".
عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة:" الكوثر: الخير الكثير".
قال مجاهد:" الكوثر: قال: الخير كله".

=

=

قال مجاهد:" خير الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:" وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر".

قال السعدي:" أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له: {الكوثر} ومن الحوض، طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا".

السابع: أنه كثرة الأصحاب والأشياع، قاله أبو بكر بن عياش.

الثامن: أن «الكوثر»: كلمة من الكتب الأولى ومعناها: الإيثار، قاله ابن كيسان.

التاسع: أن «الكوثر»، شيئان: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع. قاله الحسين بن الفضل.

العاشر: أنه رفعة الذكر، وهو «فوعل»، من: الكثرة. حكاه الزجاج عن أهل اللغة.

قال سفيان بن عيينة: "قيل لعجوز رجع ابنها من السفر بم آب ابنك؟ قالت آب بكوثر، يعني: بمال كثير".

قال الواحدي:" الكوثر: -عند أهل اللغة-: «فوعل» من: الكثرة، ومعناه: العدد الكثير، والخير الكثير، ويقال للرجل الكثير العطاء: كوثر، قال الكميت:

وأنت كثيرٌ يا بن مروان طَيِّبٌ... وكان أبوك ابنَ العقائلِ كوثرا

وقالت عجوز من العرب: قدم فلان بكوثر كثير. ويقال للغبار إذا سطع وكثر: كوثرٌ، ومثله يقال: للكثير النوافل: نوفل، هذا معنى «الكوثر» في اللغة".

قال الزمخشري:" الكوثر: «فوعل»، من: الكثرة، وهو المفرط الكثرة. قيل: لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر".

قال الزجاج:" قال أهل اللغة: الكوثر: «فوعل»: من الكثرة، ومعناه: الخير الكثير.

=

=

وجميع ما جاء في تفسير هذا قد أعطيه النبي عليه السلام. قد أعطي الإسلام والنبوة وإظهار الدين الذي أتى به على كل دين والنصر على عدوه والشفاعة. وما لا يحصى مما أعطيه، وقد أعطي من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة".

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي، قول من قال: هو اسم النهر الذي أُعطيه رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرة، لعِظَم قدره، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك، لتتابع الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن ذلك كذلك". ثم استشهد الطبري بالأخبار الآتية:

- عن أنس قال: "لما عُرج بنبيّ الله ﷺ في الجنة، أو كما قال، عرض له نهر حافتاه الياقوت المجوف، أو قال: المجوب، فضرب الملك الذي معه بيده فيه، فاستخرج مسكا، فقال محمد للملك الذي معه: "ما هَذَا؟ " قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله؛ قال: ورفعت له سدرة المنتهى، فأبصر عندها أثرا عظيما" أو كما قال.

- عن أنس:" أن رسول الله ﷺ، قال: "بَيْنَما أنا أسِيرُ في الجَنَّةِ، إذْ عَرَض لِيَ نَهْرٌ، حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ، فقالَ المَلَكُ الَّذِي مَعَهُ: أتَدْرِي ما هَذَا؟ هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أعْطاكَ اللهُ إيَّاهُ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ إلى أرْضِه، فأخْرَجَ مِنْ طِينِه المِسْكَ".

- عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "لمَّا عُرِجَ بِي إلى السَّماء، أتَيْتُ على نَهْرٍ حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّف، قُلتُ: ما هَذَا يا جِبْرِيلُ؟ قال: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أعْطَاكَ رَبُّكَ، فأهْوَى المَلكُ بِيَدِهِ، فاسْتَخْرَجَ طِينَه مِسْكًا أذفَرَ".

- عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "دَخَلْتُ الجَنَّة، فإذَا أنا بِنَهْرٍ حافَتاهُ خِيامُ اللُّؤْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إلى ما يَجْرِي فِيهِ، فإذَا مِسْكٌ أذْفَرُ؛ قال: قُلْتُ: ما هَذَا يا جِبْرِيلُ؟ قال: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أعْطاكَهُ اللهُ".

- عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: "الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ"، قال النبيّ ﷺ:

=

=

"رَأَيْتُ نَهَرًا حَافَتَاهُ اللُّؤْلُؤ، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ ما هَذَا؟ قالَ: هَذَا الكَوْثَرُ الَّذِي أعْطَاكَهُ اللهُ".

- عن أنس، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: "هُوَ نَهْرٌ أعْطانِيهِ اللهُ في الجَنَّةِ، تُرَابُهُ مِسْكٌ أبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ، تَرِدُهُ طَيْرٌ أعناقُهَا مِثْلُ أعناقِ الجُزُرِ"، قال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: "آكِلُها أنْعَمُ مِنْها".

- عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "دَخَلْتُ الجَنَّةَ حِينَ عُرِجَ بِيَ، فَأُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ، فإذَا هُوَ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، عُضَادَتاهُ بُيُوتٌ مُجَوَّفَةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ".

- عن أنس: أن رجلا جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: "نَهْرٌ أعْطانِيهِ اللهُ فِي الجَنَّةِ، لَهُوَ أشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أعْناقُهَا كأعْناقِ الجُزُرِ". قال عمر: يا رسول الله إنها لناعمة، قال: "آكِلُها أنْعَمُ مِنْها".

- عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمجْرَاهُ عَلى الْياقُوتِ والدُّرِّ، تُرْبَتُهُ أطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، ماؤُهُ أحْلَى مِنَ العَسَلِ، وأشَدُّ بَياضًا مِنَ الثَّلْجِ".

- عن عطاء بن السائب، قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جُبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس، أنه قال: هو الخير الكثير، فقال: صدق والله، إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر، قال: لما نزلت: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، قال رسول الله ﷺ: "الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حافَتاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي على الدُّرِّ واليَاقُوتِ".

- عن أُسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوما، فلم يجده، فسأل امرأته عنه، وكانت من بني النجار، فقالت: خرج، بأبي أنت آنفا عامدا نحوك، فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار، أو لا تدخل يا رسول الله؟ فدخل،

=

=

فقدمت إليه حيسا، فأكل منه، فقالت: يا رسول الله، هنيئا لك ومريئا، لقد جئت وإني لأريد أن آتيك فأهنيك وأمريك، أخبرني أبو عمارة أنك أُعطيت نهرا في الجنة يُدعى الكوثر، فقال: "أَجَلْ، وَعَرْضُهُ - يعني أرضه - يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ وزَبَرْجَدٌ ولُؤْلُؤٌ".

قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]

أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له.

قال السعدي:" ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، خصّ هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به".

قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ} [الكوثر: ٢]، أي:" فأخلص لربك صلاتك كلها".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ} [الكوثر: ٢]، وجوه:

أحدها: الصلاة المكتوبة، وهي صلاة الصبح بمزدلفة، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وحجاج، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، ورواه منصور عن الحكم.

قال مقاتل:" يعني: الصلوات الخمس".

عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ}، قالوا: صلاة الصبح بجمع".

الثاني: صلاة العيد، قاله أنس بن مالك، وقتادة، وعطاء، والربيع.

قال الزجاج:" الأكثر فيما جاء: {فَصَلِّ لِرَبك وانْحَرْ}: صلاة يوم الأضْحَى ثم النحر بعد الصلاة".

=

=

عن أنس بن مالك، قال: "كان النبي ﷺ ينحر قبل أن يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر".

وعن عكرِمة: "فصلّ الصلاة، وانحر النُّسُك".

عن أبي جعفر: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ}، قال: الصلاة؛ وقال عكرِمة: الصلاة ونحر النُّسُك".

عن عطاء:" {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: تصلي وتنحر".

قال قتادة:" هي صلاة الأضحى".

الثالث: معناه: اشكر ربك، قاله عكرمة.

الرابع: معناه: فصل وادع ربك وسله. قاله الضحاك.

عن الضحاك: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: صلّ لربك وسل".

قال ابن كثير-في تفسير الآية-:" أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهرُ الذي تقدم صفته - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ".

وقال الزمخشري:" المعنى: أعطيت مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان: إصابة أشرف عطاء وأوفره، من أكرم معط وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه، وشرفك وصانك من منن الخلق، مراغما لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت، مخالفا لهم في النحر للأوثان".

قوله تعالى: {وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]، أي:" واذبح ذبيحتك لله وعلى اسمه وحده".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]، وجوه:

=

=

أحدها: اذبح يوم النحر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وابن جبير، وحجاج، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وعكرمة، وابن زيد، والجمهور.

قال مقاتل: يعني:" البدن يوم النحر فإن المشركين لا يصلون ولا يذبحون لله-عَزَّوَجَلَّ-".

عن ابن عباس: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: الصلاة المكتوبة، والنحر: النسك والذبح يوم الأضحى".

عن ابن عباس:" {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، يقول: اذبح يوم النحر".

عن عكرمة: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: نحر النسك".

قال ابن زيد:" نحر البُدن".

قال مجاهد:" مناحر البُدن بِمِنًى ".

عن مجاهد: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: الصلاة المكتوبة، ونحر البُدن".

عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة قوله: {وَانْحَرْ} ، قالوا: نحر البدن بمنى".

عن سعيد بن جُبير وحجاج أنهما قالا في قوله: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: صلاة الغداة بجمع، ونحر البُدن بمنًى".

عن عطاء: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: صلاة الفجر، وانحر البدن".

عن قتادة: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: نحر البُدن، والصلاة يوم النحر".

قال قتادة:" صلاة الأضحى، والنحر: نحر البُدن".

عن الحسن: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ، قال: الذبح".

قال النحاس: هذا القول" عليه أكثر التابعين، قال الحسن وعطاء: أي: صلّ العيد وانحر البدن، وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير، وهو مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبعض أهل النظر يميل إليه لأنه ظاهر المعنى أي انحر البدن، ولا تذبحها،

=

=

وبعض الفقهاء يردّه لأن صلاة العيد ليست بفرض عند أحد من المسلمين، الضحية ليست بواجبة عنه أكثر العلماء كما روي أن أبا بكر وعمر كانا لا يضحيّان مخافة أن يتوهّم الناس أنّها واجبة، وكذا ابن عباس قال: ما ضحّيت إلا بلحم اشتريته".

الثاني: وضع اليمنى على اليسرى عند النحر في الصلاة. رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس، وهو قول عليّ ﵁، وبه قال أبو القموص، والشعبي.

قال ابن كثير:" وقيل: المراد بقوله: {وَانْحَرْ} وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر. يروى هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله".

عن أبي الجوزاء عن ابن عباس: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر".

عن علي -رضى الله عنه-: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة".

عن علي -رضى الله عنه-:" {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: وضع اليد على اليد في الصلاة".

قال علي:" وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره".

عن أبي القموص، زيد بن علي العبدي:" {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: وضع اليد على اليد في الصلاة".

واختاره النحاس، وقال:" اختلف العلماء في معناها، فمن أجلّ ذلك: ما حدّثنا محمد بن أحمد بن جعفر قال: ثنا أبو بكر بن شيبة ثنا وكيع عن يزيد بن أبي زيادة بن أبي الجعد عن عاصم الجحدري عن عقبة بن ظهير عن علي بن أبي طالب ﵁ في قول الله جلّ وعزّ: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، قال: وضع اليمين على الشمال

=

=

في الصلاة.

قال النحاس: "وقد اختلف عنه في ذلك، فروي عنه أنه قال: يضع اليمين على الساعد الأيسر على صدره، وعنه وعن أبي هريرة يجعلهما تحت السرّة، وهذا مذهب الكوفيين، ويحتجّ للقول الأول أنه أشبه بالآية، لأن معنى وانحر، أي: اجعل يدك نحو نحرك، وقد روى سفيان لشعبة عن عاصم بن كليب عن ابنه عن وائل بن حجر.

قال: رأيت النبي ﷺ اجعل يدك نحو نحرك، وقد روى سفيان وشعبة عن عاصم بن أنس عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على اليسرى في الصلاة.

قال النحاس: فعلى هذا القول: {فصلّ لربك}، أي: الصلوات كلّها، {وانحر}: اجعل يدك نحو نحوك".

الثالث: يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة، قاله أبو جعفر الباقر.

عن جابر، عن أبي جعفر: " {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، الصلاة، وانحر: برفع يديه أول ما يكبر في الافتتاح".

عن قبيصة بن هلب، عن أبيه، قال: "كان النبي ﷺ يضرب بإحدى يديه على الأخرى في الصلاة".

عن قبيصة بن هلب، عن أبيه، قال: "رأيت النبي ﷺ واضعا يمينه على شماله في الصلاة".

عن وائل بن حجر، قال: "رأيت النبي ﷺ يضع يده اليمنى على اليسرى في الصلاة قريبا من الرفع، ويرفع يديه حتى يبلغا أذنيه".

عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى رجلا وهو يصلي واضعا يده اليسرى على اليمنى فنزع اليسرى عن اليمنى ووضع اليمنى على اليسرى".

=

=

عن محمد بن إسماعيل السلمي، قال: "صلّيت خلف أبي عارم- أي النعمان- فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت ما هذا؟ فقال: صليت خلف حماد بن زيد فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ فقال: صليت خلف أيوب السجستاني فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ قال: صلّيت إلى جنب عطاء بن أبي رياح فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ قال: صليت خلف أبي بكر الصديق فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ قال: صلّيت خلف النبي ﷺ فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع".

وعن سليمان التيمي: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]، قال: "يعني: وأرفع يديك بالدعاء إلى نحرك".

الرابع: أن المعنى: صل لله، وانحر لله، فإن ناسًا يصلون لغيره، وينحرون لغيره، قاله محمد بن كعب القرظي.

عن أبي صخر، عن محمد بن كعب القرظي، أنه كان يقول في هذه الآية: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، يقول: إن ناسا كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد، فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي".

قال النحاس: هذا أبين الأقوال" -وهو مذهب محمد بن كعب- قال: أخلص صلاتك لله وانحر له وحده. وهو قول حسن لأن الله جل وعز عرفه ما أكرمه به وأعطاه إياه فأمره أن يشكره على ذلك لئلا يفعل كما

=

=

يفعل المشركون وأن تكون صلاته خالصة لله وحده ويكون نحره قاصدا به ما عنده الله جلّ وعزّ لا كما يفعل الكفار".

الخامس: أنها أنزلت يوم الحديبية، حين حصر النبيّ ﷺ وأصحابه، وصُدّوا عن البيت، فأمره الله أن يصلي، وينحر البُدن، وينصرف، ففعل. وهذا قول سعيد بن جبير.

عن سعيد بن جُبير، قال: "كانت هذه الآية، يعني: قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، يوم الحديبية، أتاه جبريل عليه السلام فقال: انحر وارجع، فقام رسول الله ﷺ، فخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، فذلك حين يقول: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ".

السادس: أنه أراد واستقبل القبلة في الصلاة بنحرك، قاله أبو الأحوص، والضحاك، والكلبي، والفراء، وأنشد الأخير قول الشاعر:

أَبَا حَكَمٍ هَا أَنْتَ عَمُّ مُجَالِدٍ... وَسَيِّدُ أَهْلِ الأَبْطُحِ الْمُتَنَاحِرِ

أي: المتقابل.

قال الفراء:" وسمعت بعض العرب، يقول: منازلنا تتناحر، هذا بنحر هذا، أي: قبالته".

قال النحاس:" وليس هذا قول أحد من المتقدمين".

السابع: معناه: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وأبرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن ابي حاتم عن عطاء.

وذكر الثعلبي عن واصل بن السائب، عن عطاء:" أمر رسول الله ﷺ أن يستوي بين السجدتين جالسا حتى يبدوا نحره".

قال ابن كثير:" كل هذه الأقوال غريبة جدا، والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه

=

ويقول: «من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نَسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: «شاتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقا هي أحب إليَّ من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحدا بعدك» ".

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفء له، وخصك به، من إعطائه إياك الكوثر، وإنما قلت: ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك، لأن الله جلّ ثناؤه أخبر نبيه ﷺ بما أكرمه به من عطيته وكرامته، وإنعامه عليه بالكوثر، ثم أتبع ذلك قوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، فكان معلوما بذلك أنه خصه بالصلاة له، والنحر على الشكر له، على ما أعلمه من النعمة التي أنعمها عليه، بإعطائه إياه الكوثر، فلم يكن لخصوص بعض الصلاة بذلك دون بعض، وبعض النحر دون بعض وجه، إذ كان حثا على الشكر على النِّعَم.

فتأويل الكلام إذن: إنا أعطيناك يا محمد الكوثر، إنعاما منا عليك به، وتكرمة منا لك، فأخلص لربك العبادة، وأفرد له صلاتك ونسكك، خلافا لما يفعله من كفر به، وعبد غيره، ونحر للأوثان".

قال ابن كثير:" وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظي، وعطاء ".

قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]

أي مبغضك وذامك يا محمد هو (الأبتر) المقطوع من كل خير، وهو الأذل المنقطع ذكره، مقطوع النسل والأثر والذكر، والمقطوع عن كل خير.

=

فأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد، لأنه مبتور من رحمة الله أي مقطوع عنها ولأنه لا يذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه.

عن ابن عباس: " {إِنَّ شَانِئَكَ} ، يقول: عدوك".

قال أبو عبيدة:" {إِنَّ شانِئَكَ} ، أي: مبغضك".

قال الطبري: يقول:" إن مبغضك يا محمد وعدوك هو الأقلّ والأذلّ المنقطع دابره، الذي لا عقب له".

قال ابن كثير:" أي: إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه ".

قال السعدي:" أي: مبغضك وذامك ومنتقصك {هُوَ} المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر. وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقًا، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار، والأتباع ﷺ".

وفي معنى: {الْأَبْتَرُ}، خمسة وجوه:

أحدها: أنه الحقير الرقيق الذليل، قاله قتادة، والكلبي.

قال الكلبي: " هو العاص بن وائل، قال: إن شانئ محمدا، وهو الأبتر وأنه ليس له عقب، قال الله تعالى: {إن شانئك هو الأبتر} [الكوثر: ٣] الحقير الرقيق الذليل".

الثاني: معناه: الفرد الوحيد، قاله عكرمة.

الثالث: أنه الذي لا خير فيه حتى صار مثل الأبتر، حكاه الماوردي.

قال سهل بن عبد الله: أي:" عن خير الدارين أجمع".

قال النحاس:" أي: المنقطع الذّكر من الخير لا أحد يا قوم بدينه، ولا يذكره بخير. فكان هذا من علامات نبوته ﷺ أنه خبر بما لم يقع فكان كما أخبر به، وقد قيل:

=

=

لما أنزل الله: {إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، لم يولد له بعد ذلك، والأول أصحّ، وأصله من بتره أي قطعه".

الرابع: أن قريشًا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده، قد بتر فلان، فلما مات لرسول الله ﷺ ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده، فنزلت الآية، قاله إبراهيم، وشمر بن عطية، والسدي، وابن زيد، والكلبي.

قال أبو عبيدة:" {الْأَبْتَرُ}: الذي لا عقب له".

قال الفراء:" كانوا يقولون: الرجل إذا لم يكن له ولد ذكر - أبتر -، أي: يموت فلا يكون له ذكر. فقالها بعض قريش للنبي ﷺ، فقال الله تبارك وتعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ} مبغضك، وعدوك، {هُوَ الأَبْتَرُ} الذي لا ذكر له بعمل خير، وأما أنت فقد جعلت ذكرك مع ذكرى، فذلك قوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: ٤] ".

قال السدي: "كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل: بتر فلان، فلما مات ولد النبي ﷺ قال العاصي بن وائل: بتر: والأبتر الفرد".

عن ابن زيد، في قوله: " {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}، قال: الرجل يقول: إنما محمد أبتر، ليس له كما ترون عقب، قال الله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} ".

قال ابن قتيبة:" أي: إن مُبغضَكَ، لا عَقِب له، وكانت قريش قالت: "إن محمدًا لا ذَكَرَ له؛ فإذا مات: ذهب ذِكْرُه"؛ فأنزل الله هذا، وأنزل: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} ".

قال مقاتل:" وذلك أن النبيﷺ دخل المسجد الحرام من باب بني سهم بن عمرو بن هصيص، وأناس من قريش جلوس في المسجد فمضى النبيﷺ، ولم يجلس حتى خرج من باب الصفا، فنظروا إلى النبيﷺ حين خرج ولم يروه حين دخل، ولم يعرفوه، فتلقاه العاص بن وائل السهمي بن هشام ابن سعد بن سهم على باب الصفا، وهو يدخل، وكان النبيﷺ قد توفي ابنه عبد الله، وكان الرجل إذا مات ولم

=

=

يكن له من بعده ابن يرثه سمي: الأبتر، فلما انتهى العاص إلى المقام، قالوا: من الذي تلقاك؟ قال: الأبتر. فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، يعني: إن مبغضك هو الأبتر، يعني: العاص ابن وائل السهمي، هو الذي أبتر من الخير، وأنت يا محمد ستذكر معي إذا ذكرت فرفع الله- ﷻ- له ذكره في الناس عامة، فيذكر النبيﷺ في كل عيد للمسلمين في صلواتهم، وفي الأذان، والإقامة، وفي كل موطن حتى خطبة النساء، وخطبة الكلام، وفى الحاجات".

عن الزهري، قال: "أول امرأة تزوجها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي. تزوجها في الجاهلية، وأنكحه إياها أبوها خويلد بن أسد. فولدت لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: القاسم، به كان يكنى، والطاهر، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. رضي الله عنهم".

قال ابن إسحاق، قال: "فتزوجها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فولدت له قبل أن ينزل عليه الوحي ولده كلهم: زينب، وأم كلثوم، ورقية، وفاطمة، والقاسم، والطاهر، والطيب، فأما القاسم، والطاهر، والطيب، فهلكوا قبل الإسلام. وبالقاسم كان يكنى. وأما بناته فأدركن الإسلام، وهاجرن معه، واتبعنه وآمن به".

عن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: "أكبر ولد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. قال مصعب: هم هكذا: الأول فالأول، ثم مات القاسم، وهو أول ميت من ولده، مات بمكة، ثم مات عبد الله، ثم بلغت خديجة خمسا وستين سنة، ويقال خمسين سنة. وهو أصح".

الخامس: أن الله تعالى لما أوحى إلى رسول الله -ﷺ- ودعا قريش إلى الإيمان، قالوا ابتر منا محمد، أي: خالفنا وانقطع عنا، فأخبر الله تعالى رسوله أنهم هم

=

=

المبترون، قاله ابن عباس، وعكرمة، وشهر بن حوشب.

عن عكرمة، في هذه الآية: " {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا} ، قال: نزلت في كعب بن الأشرف، أتى مكة فقال له أهلها: نحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه، ونحن أهل الحجيج، وعندنا منحر البدن، قال: أنتم خير. فأنزل الله فيه هذه الآية، وأنزل في الذين قالوا للنبي ﷺ ما قالوا: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر} ".

قال عكرمة: "لما أوحي إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بَتِرَ محمد منا، فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} ، قال: الذي رماك بالبتر هو الأبتر".

عن عكرمة، عن ابن عباس قال: "لما قَدِم كعب بن الأشرف مكة أَتَوْه، فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم خير منه، فنزلت عليه: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} ، قال: وأنزلت عليه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} ... إلى قوله: {نَصِيرًا} ".

قال الزجاج:" {شَانِئَكَ} ، مبغضك، وهذا هو العاص بن وائل دخل النبي عليه السلام وهو جالس فقال: هذا الأبتر، أي هذا الذي لا عقب له، فقال الله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ} يا محمد {هُوَ الْأَبْتَرُ} ، فجائز أن يكون هو المنقطع العقب. وجائز أن يكون هو المنقطع عنه كل خير. و «البتر»: استئصال القطع".

قال ابن كثير:" الأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد".

=

=

وقال الزمخشري: المعنى:" إِنَّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم {هُوَ الْأَبْتَرُ} لا أنت، لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك، ولك في الآخرة مالا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له

أبتر: وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة، وإن ذكر ذكر باللعن، وكانوا يقولون: إنّ محمدا صنبور: إذا مات مات ذكره. وقيل: نزلت في العاص بن وائل، وقد سماه الأبتر، والأبتر: الذي لا عقب له. ومنه:

الحمار الأبتر الذي لا ذنب له".

واختلف في المراد من قريش بقوله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أبو لهب، قاله عطاء.

قال عطاء: "نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ} ".

الثاني: أبو جهل، قاله ابن عباس، وعطاء-أيضا-.

الثالث: أنه العاص بن وائل، قاله ابن عباس-أيضا-، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والكلبي.

قال السمعاني:" أكثر المفسرين أن المراد به هو العاص بن وائل السهمي، كان إذا ذكر له رسول الله قال: دعوا ذكره، فإنه أبتر يعني: أنه لا ولد له".

قال سعيد بن جبير:" عدوّك العاص بن وائل انبتر من قومه".

عن مجاهد: " {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ}، قال: العاص بن وائل، قال: أنا شانئٌ

=

=

محمدا، ومن شنأه الناس فهو الأبتر".

قال قتادة:" هذا العاص بن وائل، بلغنا أنه قال: أنا شانئُ محمد".

عن قتادة: " {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}، قال: هو العاص بن وائل، قال: أنا شانئٌ محمدا، وهو أبتر، ليس له عقب، قال الله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}، قال قتادة: الأبتر: الحقير الدقيق الذليل".

وروي عن محمد بن علي، قال: "كان القاسم بن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد بلغ أن يركب الدابة، ويسير على النجيب، فلما قبضه الله، ﷺ، قال عمرو بن العاص: لقد أصبح محمد أبتر من ابنه. فأنزل الله تعالى على نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١]، عوضا يا محمد بن نصيبك بالقاسم، {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٢ - ٣] ".

الرابع: أنه عنى به جماعة من قريش، وهم الذين قالوا: ابتر منا محمد، أي: خالفنا وانقطع عنا. قاله ابن عباس-في رواية-، وعكرمة-أيضا-.

الخامس: أنه عقبة بن أبي معيط. قاله إبراهيم، وشمر بن عطية.

عن شهر بن عطية عن إبراهيم، قال:" كان عقبة بن أبي معيط، يقول: إنه لا يبقى النبي ﷺ ولد، وهو أبتر. فأنزل الله فيه: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣] ".

عن شمر بن عطية، قال: "كان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبيّ ﷺ ولد، وهو أبتر، فأنزل الله فيه هؤلاء الآيات: {إِنَّ شَانِئَكَ}: عقبة بن أبي معيط، {هُوَ الأَبْتَرُ} ".

وقد ذهب ابن جرير، وابن عطية، والبيضاوي، وابن كثير، وأبو السعود، والآلوسي، والسعدي، إلى أن الآية عامة في كل من أبغض رسول الله ﷺ.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مُبغض رسول الله ﷺ هو الأقلّ الأذلّ، المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من

=

=

أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه".

قال ابن كثير:" وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر، وغيرهم".

وقال الشوكاني: " (إن شانئك هو الأبتر) أي: إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعم خيري الدنيا والآخرة، أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته، وظاهر الآية العموم، وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما مر غير مرة".

* مسائل في الحوض:

المسألة الأولى: وجوب الإيمان بالحوض.

يجب الإيمان بالحوض الذي يرده المؤمنون في الآخرة، فالإيمان به واجب ولا ينكره إلا جاهل مبتدع.

قال السفاريني: والحوض والكوثر ثابت بالنص وإجماع أهل السنة والجماعة حتى عده أهل السنة في العقائد الدينية لأجل الرد على أهل البدع والضلال.

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددا من الصحابة الذين رووا أحاديث الحوض، فقال: ذكر ما ورد في الحوض النبوي المحمدي - سقانا الله منه يوم القيامة - من الأحاديث المتواترة المتعددة من الطرق الكثيرة المتضافرة؛ وإن رغمت أنوف كثيرة من المبتدعة المعاندة المكابرة، القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: (من كذب بكرامة لم ينلها) ثم شرع في ذكر أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث الحوض ا.ه

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٦): الجنة والنار والبعث... والحوض... فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة.

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص: ٢٨٩): وأجمعوا...

=

=

على أن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترده أمته لا يظمأ من شرب منه.

وقال الإمام سفيان بن عيينة كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٥): السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك شيئًا فقد ترك السنة، إثبات القدر... والحوض ا.ه

وقال الإمام أحمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٥): ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها... والإيمان بالحوض وأن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترد عليه أمته ا.ه

وقال العلامة الألباني في تحقيق بداية السول (ص ٥٥ - ٥٦): وأما الحوض فأحاديثه كثيرة جدًا، قد بلغت مبلغ التواتر التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، قال الحافظ: «إذ قد روى ذلك عن صلى الله عليه وآله وسلم من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله، واشتهر رواته». قلت: وقد استقصى طرقه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٢١ – ٢٦٠، رقم ٦٩٧ - ٧٧٦) عن أكثر من خمسة وثلاثين وصحابيًا، لبعضهم أكثر من طريق واحد وهذه أسماؤهم.... وقال ابن أبي عاصم رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «والأخبار التي ذكرنا في حوض النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- توجب العلم، فنحن به مصدقون، ونرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به أن يوردنا فيسقينا منه شربة نعدم بها ظمأ الأمد بطوله، ونسأله ذلك بفضله» ا.ه

وقال العلامة العثيمين في تعليقه كتاب لمعة الاعتقاد (ص١٢٣): الحوض لغة: الجمع يقال حاض الماء يحوضه إذا جمعه، ويطلق على مجتمع الماء.

وشرعًا: حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي ﷺ، ودل عليه السنة المتواترة وأجمع عليه أهل السنة.

=

=
قال النبي ﷺ: "إني فرطكم على الحوض" متفق عليه.
وأجمع السلف أهل السنة على ثبوته، وقد أنكر المعتزلة ثبوت الحوض ونرد عليهم بأمرين:
١- الأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ.
٢- إجماع أهل السنة على ذلك.
صفة الحوض: طوله شهر وعرضه شهر وزواياه سواء وآنيته كنجوم السماء، وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من ريح المسك، فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والثاني من فضة، يرده المؤمنون من أمة محمد، ومن يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وكل هذا ثابت في الصحيحين أو أحدهما. وهو موجود الآن لقوله ﷺ: "وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن" رواه البخاري، واستمداده من الكوثر لقوله ﷺ: "وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوض". رواه أحمد، قال ابن كثير: وهو حسن الإسناد والمتن.
ولكل نبي حوض ولكن حوض النبي ﷺ أكبرها وأعظمها وأكثرها واردة؛ لقول النبي ﷺ: (إن لكل نبي حوضًا وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة) رواه الترمذي وقال: غريب، وروى ذلك ابن أبي الدنيا وابن ماجه من حديث أبي سعيد وفيه ضعف لكن صححه بعض العلماء من أجل تعدد الطرق.
المسألة الثانية: أدلة وجود الحوض.
قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: أنَّ الحوض دلَّ عليه القرآن باحتمال، ودلَّت عليه السنة بقطع.
أما القرآن فدليل الحوض فيه قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، وقد ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ فَسَّرَ الكوثر بأنه
=

=

(حوض أعطاه الله إياه)، وهناك عدة تفاسير للكوثر منها أنه نهر في الجنة، وقد جاء أيضا أنَّ الحوض يُسْكَبُ فيه من الكوثر ميزابان يعني يغذونه بماء الكوثر.

وأما من السنة فقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في وجود الحوض وفي صفته، وقد رواها عنه ﷺ أكثر من خمسين صحابيًا، ولهذا نقول: هي متواترة نقلًا ومتواترة تواترًا معنويًا، فجمعت بين نوعي التّواتر، وهذا النقل جاء عن أفاضل الصحابة وعن أكمل الصحابة.

فمرويات الحوض ثابتة عن الصحابة عن أبي بكر رضي الله عنه وعن عمر وعن عثمان وعن علي وعن فقهاء الصحابة كابن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وأبي ذر إلى غير هؤلاء، فجُلَّة الصحابة رووا أحاديث الحوض على خلاف بينهم في ألفاظها، والنّبي ﷺ كان يكرّر الكلام عن أحاديث الحوض كما روى أبو داوود في سننه عن أحد الصحابة أنه قال (سمعته مرارا لا أقول مرة أو مرتين) يعني عن النبي ﷺ، فكان يكرر الأحاديث في الحوض فلذلك حصل فيها بعض الاختلاف كما سيأتي فيما نستقبل.

المسألة الثالثة: صفة الحوض.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: صفة الحوض التي دل عليها الدليل من صحيح السنة.

أولًا: من حيث شكله: هو مربع زواياه سواء وأضلاعه متساوية، وقد ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ "قال طوله شهر وعرضه شهر زواياه سواء" فهذا يدل على أنَّ شكل الحوض مربع، وأنَّ زواياه قائمة، وأنَّ طوله وعرضه واحد وهو شهر.

واختلفت الروايات كثيرا في طوله وعرضه، ومُحَصَّلُها ما ذكرتُ لك من أنه شهر في شهر، وقد جاء في بعض الروايات قال "هو كما بين المدينة وبيت المقدس"، وفي رواية قال "هو كما بين المدينة وعُمَان" أو قال "عَمَّان"، وفي رواية قال "هو

=

=

كما بين المدينة إلى صنعاء"، وفي رواية قال "هو كما بين أيلة إلى صنعاء" وثَمَّ غير ذلك.

وإذا قلنا مسيرة شهر في شهر، فالمراد بالشهر بسَير الجمال السّير المعتاد؛ لأنه هو الفصل في التقدير.

هذا من حيث طوله وعرضه وشكله، شكله مربع وطوله وعرضه شهر في شهر.

ثانيًا: من حيث مكانه: مكانه هو في الأرض المُبَدَّلَة، يعني يوم يبدّل الله الأرض غير الأرض والسموات، هو في الأرض المُبَدَّلَة.

ثالثًا: من حيث آنيته: آنيته وصفَها ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمر بن العاص وغيره قال "آنيته كنجوم السماء" وهذا التشبيه بقوله (كنجوم السماء) نفهم منه صفتين:

الصفة الأولى: الكثرة، في أنَّ كثرتها كثرة نجوم السماء، وهذا يدل على مزيد راحة وطمأنينة في الشرب منه وتناوله، وألا يكون هناك تزاحم على كيزانه، أو أنَّ الناس يشربون بأيديهم.

والصفة الثانية: أنَّ كيزانه أو كيسانه أو أباريقه أو نحو ذلك كنجوم السماء في الإشراق والبهاء والنور، فنجوم السماء فيها صفة الكثرة وفيها صفة النوروالبهاء.

هذا من جهة وصف كيزانه من حيث العدد ومن حيث الشكل.

رابعًا: من حيث مائه: ماؤه من حيث اللون أشد بياضًا من اللبن، كما ثبت في الحديث قال "حوضي طوله شهر وعرضه شهر ماؤه أشد بياضا من اللّبن وأحلى من العسل"، وقد جاء في رواية قال "ماؤه أشدّ بياضا من الوَرِقْ" يعني من الفضة.

ورائحة مائه قال "رائحته كرائحة المسك".

ومصدر مائه من الكوثر؛ النهر الذي في الجنة، قال ﷺ "الكوثر نهر أعطانيه الله في الجنة". وقد جاء في صفة الحوض "يشخب فيه من الكوثر ميزابان". انتهى.

=

=

(تنبيه) قال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (ص٤٠٠): طوله شهر وعرضه شهر هذا إذا يقتضي أن يكون مدورًا لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب إلا إذا كان مدورا، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل المعتاد.

وقال في شرح السفارينية (ص٤٨٣): هل هذا الحوض واسع أو ضيق؟ جاء في الحديث الصحيح أن طوله شهر وعرضه شهر، وبذلك يكون واسعًا، لكن أخذ بعض العلماء من قوله ﷺ: طوله شهر وعرضه شهر أن الحوض مدور؛ لأنه لو كان مربعًا لكان ما بين الزاويتين أكثر من الشهر، فإذا قال الرسول ﷺ: إن طوله شهر وعرضه شهر فإنه لا يتحقق هذا في جميع جهاته إلا إذا كان مدورًا، وعلى كل حال فإن كان هذا هو مراد رسول الله ﷺ فإننا نقبله، وإن لم يكن مراده فإنه جرى على لسان العرب أنهم يقولون: الحُجرة طولها أربعة أذرع وعرضها أربعة أذرع مع أنها مربعة.

المسألة الرابعة: مكان الحوض.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: اختلف العلماء أين يكون الحوض؟ هل هو قبل الصراط أم بعد الصراط؟ على قولين:

القول الأول: وهو قول جمهور أهل العلم على أنَّه قبل الصراط وليس بعد الصراط؛ لأنّ الأحاديث التي فيها صفة الحوض فيها ذُكِرَ أَنَّ أناسا يُذَادُون عنه ويُدْفَعُون ويُؤْخَذ بهم إلى النار، فيقول النبي ﷺ "ربي أصيحابي أصيحابي"، أو قال "أصحابي أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك".

القول الثاني: وبه قال طائفة من أهل العلم إنَّ الحوض حوضان حوض قبل الصراط وحوضٌ بعد الصراط، فمن لم يشرب منه قبل الصراط بأن أُخِذَ للعذاب من هذه الأمة ثم نَجَى بعد ذلك، فَثَمَّ حوض آخر بعد الصراط يشرب منه.

=

=

ولكن الذي تدل عليه الأحاديث بظهور وكثرة أنَّ الحوض يكون قبل الصراط لا بعده.

ثُمَّ القائلون بأنه قبل الصراط أيضًا اختلفوا: هل هو قبل الميزان أم بعد الميزان؟ على قولين لأهل العلم، والأكثر أيضا أنّه قبل الميزان، وأنّه في العرصات قبل أنْ يأتي الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء وقبل أن تتطاير الصحف وإلى آخر ذلك.

ولشدة طول هذا اليوم فإنّ الله يكرم نبيه ﷺ بهذا الحوض حتى يشرَب منه المؤمنون فلا يظمؤون ولا يقلقون في شدة هول الموقف.

فإذًا نقول الصواب أنَّهُ قبل الصراط وأيضًا أنه قبل الميزان.

قال القرطبي صاحب كتاب التذكرة في الكلام المشهور عنه يتناقله العلماء قال: والمعنى يقتضي هذا؛ لأنَّ الناس يخرجون من قبورهم عطاشا فإذا وافوا الموقف فإنهم يحتاجون مع طول الموقف إلى ما به ذهاب ظمئهم وصدورهم، وهذا يناسب أن يكون إكرام النبي ﷺ بالحوض قبل الميزان. ا.ه

قلت قد ذهب كثير من العلماء أن مكان الحوض في عرصات القيامة قبل العبور على الصراط، وإليه مال الغزالي، والقرطبي في التذكرة (ص٣٤٧) وقال: المعنى يقتضيه. فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا. فناسب تقديم الحوض، وأيضًا فإنه من جاز الصراط لا يتأتى طرده عن الحوض فقد كملت نجاته، ورجح القاضي عياض أنه بعد الصراط، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار. ويؤيده من جهة المعنى أن الصراط يسقط منه من يسقط من المؤمنين، ويخدش فيه من يخدش ووقوع ذلك للمؤمن بعد شربه من الحوض بعيد فناسب تقديم الصراط حتى إذا خلص من خلص شرب من الحوض. وقيل: يشهد له ما تقدم من أن للحوض ميزابين يصبان فيه من الكوثر. ولو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين وصول ماء الكوثر إليه. ولكن وصول ذلك ممكن. والله على كل

=

=

شيء قدير.

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٩٦): في شرحه لحديث لقيط بن عامر بن المنتفق وهو حديث طويل جاء فيه (....فيسلكون جسرا من النار يطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول ربك: فتطلعون على حوض نبيكم) ولكن هذا الحديث ضعيف لا يثبت فلا يصح الإستدلال به، وقد ضعفه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٦٣٦).

قال ابن القيم: قوله (فتطلعون على حوض نبيكم) ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر فكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر، وللسلف في ذلك قولان حكاهما القرطبي في " تذكرته " والغزالي وغلطا من قال: إنه بعد الجسر، وقد روى البخاري: عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال لهم: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم) فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط؛ لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم، فمن جازه سلم من النار.

قلت: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف وحديثه كله يصدق بعضه بعضا، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط، فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله طوله شهر، وعرضه شهر، فإذا كان بهذا الطول والسعة، فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده، فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه

=

=

موقوف على خبر الصادق والله أعلم ا.ه

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (ص٣٣٤): تعليقا على قول شيخ الإسلام (وفي عرصة القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ).

(عرصة) هذه العرصة هي الفناء الواسع الذي لا بناء فيه، ساحة عظيمة لا بناء فيها وهكذا الأرض يوم القيامة فإنه لا بناء فيها لأحد، وعرصات القيامة هي الأماكن التي يجتمع فيه الناس وينتظرون فيها حسابهم، هذه هي عرصات القيامة، وهناك عرصات الجنة وهي ما بعد جواز الصراط وقبل دخول الجنة هناك أيضا عرصات ساحات كبيرة يجتمع فيها الخلق لدخولهم لدار المقام

قال (في عرصة القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ) يعني أن حوض النبي ﷺ الذي جاءت به الأحاديث الذي دل عليه قوله جل وعلا ؟إنا أعطيناك الكوثر؟ هو في عرصة القيامة يعني أنه ليس بعد العبور على الصراط وإنما هو في عرصة القيامة في الأماكن التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، وهذا من شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ إثبات لأن الحوض قبل الصراط.

والعلماء تنازعوا: هل الحوض قبل الصراط أم بعد الصراط على أقوال:

* منهم من يقول إنه قبل الصراط.

* ومنهم من يقول هو بعد الصراط.

* ومنهم من يقول هو قبل الصراط وبعده حوض واحد ممتد من عرصات القيامة إلى العرصات التي قبل الجنة.

* ومنهم من يقول هما حوضان: قبل الصراط حوض وبعد الصراط حوض.

والله جل وعلا أعلم بكيف يكون الصراط على هذه الحال وجهنم واسعة والصراط منصوب على متنها.....

وكلام شيخ الإسلام هنا ظاهر في أن الحوض الذي أوتيه محمد عليه الصلاة

=

=

والسلام فإنه يكون قبل الصراط وهذا واضح، وقد وصف في الأحاديث بصفات تأتي إن شاء الله ا.ه

وقال العلامة الألباني في بداية السول (ص ٥٧): إن قول المصنف: «في الموقف»، فيه أنه يرى أن الحوض قبل الصراط، وهو الظاهر من بعض الأحاديث، وهو الذي رجحه الحافظ ا.ه

وقيل مكانه بعد الصراط قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٧٤): وإيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة إشارة منه إلى ان الورود على الحوض يكون بعد الصراط والمرور عليه ا.ه.

والقول الثالث هو الجمع بين الأحاديث الواردة واختلفوا في طريقة الجمع على قولين:

الأول: واختاره الحافظ الحكمى حيث قال في المعارج: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف، وحديثه كله يصدق بعضه بعضًا، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط ؛ فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جاوزوه وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله:" طوله شهر وعرضه شهر " فإذا كان بهذا الطول والسعة ؛ فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده ؟ فهذا في حيز الإمكان ووقوعه موقوف على خبر الصادق " ا.ه

والقول الثاني للسيوطي حيث جمع بين الروايات التي تفيد أن الحوض بعد الصراط، والروايات التي تفيد أنه قبله بقوله:" ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار، حتى يهذبوا منها على الصراط "، ثم قال:" ولعل هذا أقوى ".

=

=

وقد امتدح الشيخ مرعي - كما نقل عنه السفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ١٩٦) - هذا الجمع بقوله " وهذا في غاية التحقيق جامع القولين وهو دقيق ".

المسألة الخامسة: من الذين يزادون عن الحوض.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: جاء في الأحاديث أنَّ الحوض يُذاد عنه، فقد جاء أنَّ النبي ﷺ يذود أناسًا عن الحوض.

وجاء في أحاديث أخرى أنَّ النبي ﷺ يأتيه قوم فيعرفهم فيُذادُون عن الحوض؛ يعني يذودهم غيره ﷺ، فيقول "يا ربي أصيحابي أصيحابي" إلى آخر الأحاديث التي سيأتي توجيهها.

وهذا يدلّ على أنّ التحقيق أنّ الذَّوْد عن الحوض نوعان:

الأوّل ذود عام: وهو ذود النبي ﷺ غير أمته أن يستقوا من الحوض فيدفعهم أو يمنعهم ويذودهم عن الحوض الخاص بأمته ﷺ، وهذا الذّود العام منه ؟ وإبعاد الناس عن حوضه إلا أمته يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: أنه ﷺ للمؤمنين به في هذه الأمة رؤوف رحيم، فيريد أن تختص أمته بحوضه، وذلك فيه إكرام لهم ومزيد عناية بهذه الأمة.

الفائدة الثانية: أنه قد جاء -كما ذكرنا- أن لكل نبي حوضا، والنبي ﷺ يريد من كل تابع لنبي ومؤمن بنبي من إخوانه الأنبياء والمرسلين، يريد أن يذهب إلى النبي ليكون أبلغ في ظهور عظم الرسالة -رسالة النبي إلى قومه- ورأفة قومه به، وإظهار لمن آمن بكل نبي على من لم يؤمن بذلك النبي.

وهذا توجيه جيد أفاده عدد من أهل العلم منهم الحافظ ابن حجر ومن تبعه.

الثاني ذودٌ خاص: فهذا يُذاد عن الحوض طائفة قليلة بالنسبة إلى كثرة من يرده، قد جاء فيه أحاديث كثيرة عنه ﷺ متعددة: أنه إذا ورد الحوض ورد عليه أناس يعرفهم ويعرفونه ثم يُذَادُونَ عن الحوض؛ يعني يُدفَعُونَ بشدة فيقول "يا ربي

=

=

قومي قومي" وفي رواية "أصحابي" وفي رواية لأنس في الصحيح "أصيحابي أصيحابي"، فينادي المنادي "إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، في رواية "إنهم لم يزالوا مرتدّين على أدبارهم مذ تركتهم"، فهذا دَفْعٌ بشدة عن الحوض لطائفة من المرتدّين ومن المُحْدِثِين.

ولهذا اختلف أهل العلم في هؤلاء الذين يُدفعون عن الحوض من هم؟ على أقوال:

القول الأول: أنّ الذين يُذادُونَ عن الحوض هم الذين ارتدوا من الصحابة بعده ﷺ، كالذين تبعوا مسيلمة الكذاب أو سجاح أو كَفَرُوا وارتَدُّوا بعد ذلك، وهم قليل.

ويدل على قلتهم أنه ؟ قال "يذاد قوم" أو يؤتى كما في رواية أخرى، قال "فيأتيني قوم فيُذادون عن الحوض" وهذا يدل على قلّتهم. ويدل على ذلك أيضا قوله "يا ربي أصيحابي أصيحابي". فقال أهل العلم إنَّ كلمة (قوم) و (أصيحابي) ونحوهما، يدل على قلة العدد لا على كثرتهم.

وهذا يناسب هذا القول؛ لأنَّ عدد الذين ارتدوا بعد النبي ﷺ ممن صحبوه أو حجوا معه حجة الوداع قليل من شرذمة من الأعراب الذين لم يؤمنوا به حق الإيمان.

القول الثاني: أنِّ الذين يُذادون عن الحوض هم المنافقون.

والنبي ﷺ لم يعرف المنافقين جميعًا فقد قال الله له (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد:٣٠] فيأتون يوم القيامة وعليهم سيما أهل الإيمان أو أنهم مع المؤمنين فيظنّهم ﷺ من المؤمنين به ظاهرًا وباطنًا، ثم يُذادون فيُدْفَعُونَ عن الحوض بشدة، ويساقون إلى النار فيقول "أصحابي أصحابي" باعتبار ما كان عليه ظاهر أمرهم، فيقول (إنك لا تدري ما

=

=

أحدثوا بعدك)، (أو إنهم لم يزالوا مرتدين على أدبارهم مذ تركتهم).

يعني ظَهَرَ نفاقهم واستبان بعد وفاته ؟.

القول الثالث: أنَّ الذين يذادون هم كل من أحدث بعده ﷺ حدثًا فَغَيَّرَ في دينه إمَّا بالارتداد عن الإسلام إلى الكفر أو بما هو دون ذلك من المحدثات كالبدع المضلة من أنواع البدع المضلة كبدعة الرِّفض والسبئية والخوارج والنّصب والاعتزال، كل هذه من أنواع المحدثات.

والنبي ﷺ قال في وصف من يُذاد "فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، وهذه من جملة أنواع المحدثات.

وهذا القول الثالث هو أظهر الأقوال لشموله للقولين السابقين، فنقول:

أولا: الذين يُذادون كما جاء في بعض الأحاديث الذين ارتدوا ممن شارك في حجة الوداع أو صحب النبي ﷺ ولم يؤمن به إيمانًا حقيقيًا، فهؤلاء يذادون.

ثانيًا: وأيضًا يذاد المنافقون.

ثالثًا: وأيضًا يذاد كل أصحاب الفرق الضالة كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وأشباه هؤلاء من الفرق الذين ضلوا وأحدثوا في الدين وابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، قال بعض أهل العلم: ويُلْحَقْ بذلك أيضًا من افترى على الله في دينه؛ يعني كَذَبَ في أمر الدين، ويدل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده ونحو ذلك بألفاظ متقاربة من أنَّ النبي ؟ قال "سيكون بعدي أمراء فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد عليَّ الحوض".

قال في وصف هؤلاء "فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم" يعني يكذبون على الدين وهذا يُصَدِّقُهُم على ذلك ويعينهم على الكذب على الدين ويعينهم على الظّلم، فهذا مُحْدِثْ، ولهذا أُلحق بتلك الفئات بقوله ﷺ "فليس مني ولستُ

=

=

منه ولن يرد عليّ الحوض".

وهذه بعض الروايات بألفاظها المختلفة الواردة في هذه المسألة:

عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: (إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا، سحقا، لمن غير بعدي). رواه البخاري (٦٢١٢) ومسلم (٢٢٩٠).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا) قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله، قال: (أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد) فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: (أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال؛ أناديهم: ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا) رواه مسلم (٢٤٩).

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إني على الحوض أنتظر من يرده علي منكم، فليقطعن رجال دوني، فلأقولن: يا رب أمتي أمتي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم). رواه أحمد (٤١/ ٣٨٨) وهو صحيح.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

رواه البخاري (٦٢١١) ومسلم (٢٣٠٤).

=

=

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك). رواه البخاري (٦٦٤٢) ومسلم (٢٢٩٧).

وعند التأمل في الأحاديث السابقة نجد أن الكلام قد انحصر في مجموعات ترد حوض النبي ﷺ لتشرب منه، فتردهم الملائكة، ويناديهم النبي ﷺ بألفاظ هي " أمتي "، " أصحابي "، " أصيحابي "، وليس بينها اختلاف تضاد، بل هي محمولة على أناس تشملهم معاني تلك الكلمات، ويمكننا أن نجملهم بهذه الطوائف:

١ - مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام.

٢ - مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته ﷺ، ولم يكن يعلم بكفرهم.

٣ - أهل النفاق ممن أظهر الإسلام، وأبطن الكفر.

٤ - أهل الأهواء الذين غيروا سنة النبي صلى الله وسلم وهديه، كالروافض، والخوارج.

٥ - وبعض العلماء يدخل فيهم: أهل الكبائر، وله ما يؤيد من السنة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (٩/ ٥١٤) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد علي الحوض) وصححه المحققون.

ولفظ " أمتي " في الأحاديث يصدق على أهل القول الرابع، والخامس، ولفظ " أصحابي " و " أصيحابي " على الأقوال الثلاثة الأول.

ومما يدل على أنهم من أمته ﷺ: أنه عرفهم بالغرة والتحجيل، وهي سيما خاصة بهذه الأمة، ويكون تعرف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هناك بصفاتهم، لا بأعيانهم؛ لأنهم جاءوا بعده.

=

=

ومما يدل على دخول المنافقين في اسم " أصحابي ": قوله ﷺ (لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه) رواه البخاري (٣٥١٨)، وهذا معنى لغوي بحت للصحبة، ليس أنهم استحقوا شرفها؛ لأن تعريف الصحابي الاصطلاحي لا يصدق على هؤلاء، وهذه طائفة من أقوال أهل العلم في تلك الأحاديث:

قال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في شرح الحديث -: هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال: أحدها: أن المراد به المنافقون، والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل، فيناديهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء مما وعدت بهم، إن هؤلاء بدلوا بعدك، أي: لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ، ثم ارتد بعده، فيناديهم النبي ﷺ، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه ﷺ في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام. " شرح مسلم " (٣/ ١٣٦، ١٣٧).

وقال الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وقال الخطابي: لم يرتد من الصحابة أحد، وإنما ارتد قوم من جفاة العرب، ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قدحا في الصحابة المشهورين، ويدل قوله: (أصيحابي) بالتصغير على قلة عددهم. " فتح الباري " (١١/ ٣٨٥).

وقال عبد القاهر البغدادي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أجمع أهل السنة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ من كندة، وحنيفة، وفزارة، وبني أسد، وبني بكر بن وائل، لم يكونوا من الأنصار، ولا من المهاجرين قبل فتح مكة، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من هاجر إلى النبي ﷺ قبل فتح مكة، وأولئك بحمد الله ومنه

=

=

درجوا على الدين القويم، والصراط المستقيم، وأجمع أهل السنة على أن من شهد مع رسول الله بدرا: من أهل الجنة، وكذلك كل من شهد معه بيعة الرضوان بالحديبية. " الفرق بين الفرق " (ص ٣٥٣).

وقال الشاطبي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: والأظهر: أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم، وهو الغرة والتحجيل؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض، كان كفرهم أصلا، أو ارتدادا، ولقوله: (قد بدلوا بعدك)، ولو كان الكفر: لقال: " قد كفروا بعدك "، وأقرب ما يحمل عليه: تبديل السنة، وهو واقع على أهل البدع، ومن قال: إنه النفاق: فذلك غير خارج عن مقصودنا؛ لأن أهل النفاق إنما أخذوا الشريعة تقية، لا تعبدا، فوضعوها غير مواضعها، وهو عين الابتداع.

ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنة والعمل بها حيلة وذريعة إلى نيل حطام الدنيا، لا على التعبد بها لله تعالى؛ لأنه تبديل لها، وإخراج لها عن وضعها الشرعي. " الاعتصام " (١/ ٩٦).

وقال القرطبي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله: فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردا: من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء، والبدع، ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء، يعرفون به، ثم يقال لهم (سحقا)، وإن كانوا

=

=

من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان، ويسرون الكفر: فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف له الغطاء فيقول لهم: (سحقا سحقا)، ولا يخلد في النار إلا كافر، جاحد، مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. " التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة " (ص ٣٥٢).

ومما يبين كذب الروافض في زعمهم أن الصحابة الأجلاء أبا بكر وعمر وعثمان من أولئك المرتدين: أنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه قد حصلت ردة، وقتال للمرتدين، فمن قاتل من؟ إن الذي ارتد هم الذين ذكرنا وصفهم، من بعض قبائل العرب، وإن الذي قاتلهم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإخوانه من المهاجرين والأنصار - وقد شاركهم في قتالهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسبى من بني حنيفة امرأة، أنجبت له فيما بعد الإمام العلم " محمد بن الحنفية " -؛ فإذا كان الصحابة الكرام: أبو بكر وعمر، ومن معهما من المهاجرين والأنصار: مرتدين؛ فماذا يكون حال مسليمة وأتباعه، والعنسي وأتباعه؟! إلا إن هذا هو عين النفاق والشقاق، وقول الباطل وشهادة الزور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:الله أكبر على هؤلاء المرتدين المفترين، أتباع المرتدين، الذين برزوا بمعاداة الله ورسوله وكتابه، ودينه، ومرقوا من الإسلام، ونبذوه وراء ظهورهم، وشاقوا الله ورسوله وعباده المؤمنين، وتولوا أهل الردة والشقاق؛ فإن هذا الفصل وأمثاله من كلامهم: يحقق أن هؤلاء القوم المتعصبين على الصديق رضي الله عنه وحزبه من أصولهم من جنس المرتدين الكفار، كالمرتدين الذين قاتلهم الصديق رضي الله عنه. " منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٠).

وقال - رحمه الله -: وفي الجملة: فأمر مسيلمة الكذاب، وادعاؤه النبوة، واتباع بني حنيفة له باليمامة، وقتال الصديق لهم على ذلك: أمر متواتر، مشهور، قد علمه الخاص، والعام، كتواتر أمثاله، وليس هذا من العلم الذي تفرد به الخاصة، بل

=

=

علم الناس بذلك أظهر من علمهم بقتال الجمل وصفين، فقد ذكر عن بعض أهل الكلام أنه أنكر الجمل، وصفين، وهذا الإنكار وإن كان باطلا: فلم نعلم أحدا أنكر قتال أهل اليمامة، وأن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة، وأنهم قاتلوه على ذلك.
لكن هؤلاء الرافضة من جحدهم لهذا، وجهلهم به: بمنزلة إنكارهم لكون أبي بكر وعمر دفنا عند النبي ﷺ، وإنكارهم لموالاة أبي بكر، وعمر للنبي ﷺ، ودعواهم أنه نص على " علي " بالخلافة، بل منهم من ينكر أن تكون زينب، ورقية، وأم كلثوم من بنات النبي ﷺ! ويقولون: إنهن لخديجة من زوجها الذي كان كافرا قبل النبي ﷺ." منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٢، ٤٩٣).
وقال أيضا: وهم - أي: الرافضة - يدعون أن أبا بكر وعمر، ومن اتبعهما ارتدوا عن الإسلام! وقد علم الخاص والعام: أن أبا بكر هو الذي قاتل المرتدين، فإذا كانوا يدعون أن أهل اليمامة مظلومون، قتلوا بغير حق، وكانوا منكرين لقتال أولئك، متأولين لهم: كان هذا مما يحقق أن هؤلاء الخلف تبع لأولئك السلف، وأن الصديق وأتباعه يقاتلون المرتدين في كل زمان.
وقوله - أي: ابن المطهر الحلي الرافضي - " إنهم سموا بني حنيفة مرتدين لأنهم لم يحملوا الزكاة إلى أبي بكر ": فهذا من أظهر الكذب، وأبينه؛ فإنه إنما قاتل بني حنيفة لكونهم آمنوا بمسيلمة الكذاب، واعتقدوا نبوته، وأما مانعو الزكاة: فكانوا قوما آخرين، غير بني حنيفة، وهؤلاء كان قد وقع لبعض الصحابة شبهة في جواز قتالهم، وأما بنو حنيفة فلم يتوقف أحد في وجوب قتالهم...." منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٣، ٤٩٤).

ويقال لهؤلاء الروافض: لماذا ارتد الخلفاء الثلاثة دون علي؟! وما الذي استثنى مثل " عمار بن ياسر " و " المقداد بن الأسود " و " أبا ذر " و " سلمان الفارسي " من الردة؟! أم هو التحكم والهوى؟!، ونحن نعتقد أن المهاجرين والأنصار في

=

=

الجنة خالدين فيها أبدا، قال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) التوبة/ ١٠٠.

ونعتقد أن أبا بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وهكذا كل من سماهم النبي ﷺ، وأن هؤلاء جميعا سيشربون من حوض النبي ﷺ شرابا هنيئا، والويل والثبور لمن لعنهم، وكفرهم، فهو أولى أن يكون يوم القيامة في صف المرتدين الذين حاربهم أولئك الأطهار.

وهذه الأحاديث حجة على الروافض؛ حيث يثبتون فيها ردة الصحابة رضي الله عنهم إلا نفرا قليلا، ويزعمون أنهم " أحدثوا " بعد وفاة النبي ﷺ، ومعنى هذا أنهم كانوا على الإيمان قبل ذلك! فأي دين اعتقدوه بعد ذلك؟ وماذا فعلوا ما استحقوا به التكفير؟! فإن قالوا: سلب الخلافة من علي رضي الله عنه: فيقال لهم هذه معصية! تكفرها الحسنات، ويكفي الصحابة سبكم ولعنكم لهم حتى توضع أوزارهم عليكم إن شاء الله.

وإن قالوا: قتل جنين فاطمة!: قلنا قد قتل في زمن علي رضي الله عنه الآلاف! فهل تطبقون عليه القاعدة نفسها في التكفير؟!، فتبين مما سبق: أن الصحابة الأجلاء هم الذين دافعوا عن دين الله، وهم الذين أوقفوا مد الردة، والتي قام على إذكائها ونشرها سلف أولئك الروافض، من أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وأن الله تعالى قد أثنى في كتابه الكريم على المهاجرين والأنصار في قرآن يتلى إلى قيام الساعة، وقد نزههم ربهم عن الوقوع في البدعة، فكيف يقعون في الردة، وهم الذين نشروا الإسلام في الآفاق؟!. والله أعلم.

المسألة السادسة: الذين خالفو في الحوض من أهل البدع.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: خالف في الحوض طوائف من أهل البدع، خالف فيه

=

=

المعتزلة والخوارج والرّافضة.

أما المعتزلة فخالفوا في إنكاره أصلًا فأنكروا الحوض، وقالوا هذه الصفة التي وردت لا تُعْقَلْ، فردُّوا الأحاديث المتواترة المتطابقة المتتابعة لفظًا ومعنىً، رَدُّوهَا بالعقل فقالوا (الحوض لا يُعْقَلْ وإنما له معنى يُؤَوَلْ إليه).

فليس عندهم حوض موجود يوم القيامة وإنما هو معنًى من المعاني.

قالوا: فكيف يكون الحوض قبل الصراط وبين الناس وبين الجنة جهنم الكبيرة، ويكون الحوض يُغْذَى من الجنة، والصراط على جهنم؟

يعني أنهم تخيَّلُوا ما ورد في صفة يوم القيامة بعقولهم، ثم بعد ذلك ردُّوا ذلك، ردُّوا بعض الأحاديث مما لا يتناسب مع الوصف العام الذي تخيّلوه.

ومن المعلوم أنَّ السنة إذا ثبتت ولو بالآحاد، فكيف إذا كانت بالتواتر اللفظي والمعنوي، إذا ثبتت فلا يجوز أن يُسَلَّطَ عليها العقل؛ لأنّ الأمر أمرٌ غيبي.

والمعتزلة كما هو معلوم في قاعدتهم يُؤَوِّلُونَ الغيبيات: فأنكروا الصراط وأوّلوا الميزان وأوّلوا الصحف وأوّلوا الحوض إلى غير ذلك، على أساس قاعدتهم من تسليط العقل على النّقل. فإذًا مخالفتهم مردودة.

وقال بعض أهل العلم: من أنكر الحوض بعد علمه بالتواتر فإنّه يكفر.

ولكن هذا فيه نظر من جهة تطبيقه لأنَّ التواتر قسمان: تواتر لفظي وتواتر معنوي، وقد يُسَلِّمُونَ بصحة النقل لكن لا يُسَلِّمُونَ بصحة الدّلالة.

أما الخوارج والرافضة: فمخالفتهم ليست في إثبات الحوض، ولكن في أنهم جعلوا أحاديث الحوض على غير ما هي عليه من جهة الصحابة رضوان الله عليهم.

فقالت الخوارج والرافضة: إنَّ الذين ارْتَدُّوا فلم يَرِدُوا على الحوض هم الصحابة، وأولئك جمع كبير من الصحابة.

فيؤمن الخوارج والرافضة بالحوض لكن يقولون هؤلاء الذين رُدُّوا هم الصحابة

=

=

ويحتجون بأحاديث الحوض على تكفير الصحابة.

فيقول الرافضة مثلا: إنَّ هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ فإنه لم يُسْلِمْ أو لم يبق على الإيمان بعده ﷺ من الصحابة إلا نفر قليل والأكثرون كَفَرُوا والعياذ بالله. والرَّد على هذه الفِرْية من أوجه:

الرد الأول: الألفاظ المختلفة تدلُّ على تقليل العدد، فقال ؟:

("فيُذاد قوم عن حوضي" هذا في لفظ.... والثاني "فيذاد أناس عن حوضي".

وفي الثالث قال "فأقول يا ربي أصحابي".... وفي الرابع قال "فأقول يا ربي أصيحابي".

فدل ذلك بمقتضى اللغة على أنَّ قوله "يذاد أناس فأقول يا ربي أصيحابي" على أنَّ العدد قليل كما يقول القائل في اللغة (أتاني بنو تميم، إلا قوم منهم لم يأتوا)، يعني إلا قليل منهم.

فإذا أتت الجملة الكثيرة ثم أُستثني قوم دلَّ على قلة أولئك كيف وقد جاء الحديث فيه ذكر التقليل لقوله "أصيحابي أصيحابي".

الرد الثاني: أنَّ الذين نقلوا أحاديث الحوض عن النبي ﷺ هم الذين زعمت الرافضة أنهم كَفَرُوا، وهم جمعٌ كبيرٌ أكثر من خمسين صحابيًا يقول الرافضة إنَّ هؤلاء كفروا، وهم الذين نقلوا أحاديث الحوض.

فنقول: إن كنتم صَدَّقْتُم بأنَّ ما نقله هؤلاء من صفة الحوض وأحاديث الحوض وأنها صحيحة، فكيف تقبلون أحاديث من كفر عندكم؟

وإنّ كان النقل عندكم إنما هو للتكاثر، فكيف يَنْقُلُ هؤلاء الجلة من الصحابة والعدد الغفير أحاديث فيها تكفيرُهم؟

لا شك أنَّ فهم الجمع الغفير، بل عامة الصحابة، بل كل الصحابة لأحاديث الحوض، وكونهم رَوَوهَا وتناقَلُوهَا جميعًا -جميع الصحابة وجميع التابعين-

=

=

نَقَلُوهَا وتَنَاقَلُوهَا مع تَرَضِّيهِمْ عن الخلفاء الأربعة جميعًا وعن العشرة المبشرين بالجنة ما يَدُلُّ دَلَالَةً قاطعةً على أَنَّ هذا الفهم لتلك الأحاديث لم يكن معروفًا عند الصحابة ولا التابعين ولا تبع التابعين.

وكون فَهْمٍ في الأحاديث يكون غائبًا عن الصحابة جميعًا وعن التابعين وعن تَبَعِ التابعين ولا يظهر هذا الفهم إلا بعد مائتي سنة يدلّ على أنَّ هذا الفهم مردود؛ لأنه لم يفهمه أجيال من المسلمين.

وإذا كان كذلك فالقاعدة المتفق عليها (أنَّ الفهم إذا كان مُحْدَثًا وغاب عن القرون المفضلة ولم تَفْهَمْ هذا الفهم، فإنَّ معنى ذلك أنَّ هذا الفهم غير صحيح).

وهذا هو الذي يلاحظ في الواقع، فإنَّ الذين ارتدوا من أصحاب النبي ﷺ ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم نفر قليل ممن قاتلوا مع مسيلمة أو كَفَرُوا بعد إسلامهم من شذاذ الأعراب وطوائف ممن قال الله فيهم (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) [التوبة:١٠١]، وكلام الرافضة كلام طويل في الاستدلال بأحاديث الحوض على مسألة تكفير الصحابة ليس هذا محل بسطها وبيانها. ا.ه من شرح الطحاويه للشيخ صالح آل الشيخ (٢/ ١٢٥).

المسألة السابعة: هل صح أن صالح النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حوضه ضرع ناقته.

هذا القول غير صحيح، لأن مستنده حديث سويد بن عمر قال قال رسول الله ﷺ (حوضى أشرب منه يوم القيامة، ومن اتبعنى من الانبياء، ويبعث الله ناقة ثمود لصالح فيحلبها فيشربها، والذين آمنوا معه حتى يوافي بها الموقف، ولها رغاء، وابنتي فاطمة على العضباء وأنا على البراق... الحديث) وهو حديث ضعيف لا يثبت.

المسألة الثامنة: يعتقد كثير من الناس أن النبي ﷺ هو الذي يسقي الناس من ماء

=

=

الحوض بيده الشريفة، لذا نسمع ونقرأ في دعائهم "واسقنا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبدًا". فهل هذا الدعاء صحيح.

في هذه المسألة قولان:

القول الأول: ذهب البعض إلى صحة هذا الدعاء مستدلين بحديث البخاري (٧٠٤٩) عن عبد الله بن مسعود رَضِوَٱللَّهُعَنهُ قال قال النبي ﷺ (أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني فأقول أي رب أصحابي يقول لا تدري ما أحدثوا بعدك).

قال القاضي عياض في مشارق الأنوار (٢/ ٣٢): قوله (أهويت لأناولهم) أي أسقيهم بيدي ا.ه

وقال العيني في عمدة القاري (٢٤/ ١٧٦): قوله: فرطكم بفتح الفاء والراء وبالطاء المهملة أي: أنا أتقدمكم، والفرط من يتقدم الواردين فيهيىء لهم الإرشاء والدلاء وعدد الحياض ويسقي لهم، وهو على وزن فعل بمعنى فاعل كبيع بمعنى بائع. قوله: ليرفعن على صيغة المجهول المؤكد بالنون الثقيلة. قوله: إذا أهويت أي: ملت وامتددت. قوله: اختلجوا على صيغة المجهول أي: سلبوا من عندي يقال: خلجه واختلجه إذا جذبه وانتزعه قوله: ما أحدثوا أي: من الأمور التي لا يرى الله بها، وجميع أهل البدع والظلم والجور داخلون في معنى هذا الحديث ا.ه

وأعترض أصحاب القول الثاني على هذا الحديث بقول بعضهم: هؤلاء طائفة من الناس وواضح أنهم كانوا على حال اقتضت أن يناولهم بيده ﷺ ليسقيهم ! ويدل على ذلك أنهم فعلًا صُرفوا، وإلا فكبار الصحابة أولى بهذا الشرف مع العلم أن الإنكار هو على اعتقاد أنه يسقي جميع الواردين لحوضه واحتمال أن يسقي طائفة من الناس ليس بعيدًا.

القول الثاني: ذهب البعض أن هذا الدعاء خطأ لأسباب:

=

=

١- عـدم ثبـوت ذلـك في جميـع روايـات أحاديـث الحـوض -هـذا علـى حـسب رأيهم-.

٢- ثبت في أحاديث الحوض أن النبي ﷺ أخبر أنـه مـن ورد الحـوض شـرب منه، فعلّق الشرب على وروده، وليس على سقيا النبي ﷺ له.

٣- أن النبي ﷺ قد أخبر أن عدد آنيته بعدد نجوم السماء، وهـذا يـشير إلـى أن كـل من يرده يشرب بنفسه.

قالوا: فلم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أصحابه رضي الله عنهم أنه يسقي أحدًا بيده الشريفة، بـل ثبـت أن مـن ورد الحـوض فإنـه يـشرب منه كمـا قـال عليـه الصلاة والسلام في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم (٢٣٠٠) قال

(قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر مـن عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية آنية الجنـة مـن شـرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابـان مـن الجنـة مـن شـرب منه لـم يظمأ عرضه مثل طوله ما بـين عمـان إلـى أيلـة مـاؤه أشـد بياضـا مـن اللبن وأحلـى مـن العسل) فها أنت تـرى في هـذا الحـديث وغيـره ممـا ثبـت، أنـه صـلى الله عليـه وآلـه وصحبه لـم يـذكر أنـه يـسقي أحـدًا بيـده، بـل قـال) مـن شـرب) أي: باشـر الـشرب بنفسه، ولو أن الشرب بيده صلى الله عليه وآله وسلم؛ لذَكره عليه الصلاة والـسلام تمامًا؛ مثلما ذكر بعض المشاهد الحاصلة عند الحوض من: أن يذاد عن الحـوض أناسًا من أمته وأنه فرط أمته علـى الحـوض، وأنـه يقـول سـحقًا للمُبـدِّلين لـشريعته وسنته، وأناسًا يضربهم الملائكة... وهكذا كما أنه عليه الصلاة والسلام أيضًا علّق في الأحاديث الشرب على ورود المـؤمنين الحـوض، ولـيس علـى أن يـسقيهم هـو بيده ﷺ.

وقد سئل العلامة عبد المحسن العباد كمـا في شـرح سـنن ابـن ماجـه (آخـر شـريط

=

سورة الكافرون[1]

=

رقم ٣١٥): نسمع من يدعو "اللهم اسقنا شربة هنيئة من يد رسولك" فهل السقيا تكون من يد الرسول ﷺ من الحوض؟

فأجاب: معلوم أنَّ السقيا من الكيزان أي: الأكواب التي هي بعدد نجوم السماء، ولا يلزم أن يكون كل واحد يناوله الرسول ﷺ، ما فيه شيء يدل على هذا، لكن يدل على أن من جعله الله أهلا للشرب أنه يشرب بهذه الأكواب التي هي بعدد نجوم السماء في الكثرة، ولا يلزم أن يكون الإنسان ما يشرب إلا أن يناوله الرسول ﷺ.

السائل: وهل يعتبر من الاعتداء في الدعاء؟.

الشيخ: يعني تعبير غير صحيح "من حوض نبيك" يكفي ا.ه

قلت اعلم رحمني الله وإياك أن الإخبار بسقاية الرسول صلى الله عايه وسلم للناس من حوضه بيده الشريفة؛ من الغيب، وأمور الغيب ينبغي الإيمان بها كما وردت، دون اختلاف فيها أو تأويل، أو زيادة أو نقصان بغير دليل، وأحوال الآخرة عمومًا تختلف عن أحوال الدنيا؛ هذه عقيدة أهل الحق، أهل السنة والجماعة، أهل الحديث والأثر، السلف الصالحين، والأئمة المهدين ومن تبعهم، وحديث ابن مسعود المتقدم عند البخاري يعطي قوة للقول الأول، ويجعل في المسألة سعة، فإذا كان هناك من يسقيه النبي ﷺ بيده، فلا بأس من الدعاء بهذا الأمر وإن لم يسقي الجميع، كما أن الدعاء بالفردوس الأعلى مستحب كما في الحديث (.. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس..) مع أنه ليس لجميع الموحدين. والله أعلم.

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها مكّيّة، قله ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وعكرمة، والجمهور.

=

=

الثاني: أنها مدنيّة، في قول ابن الزبير، وقتادة، والضحاك. وهو أحد قولي ابن عباس.

قال ابن عطية:" هي مكية إجماعا".

قال أبو حيان:" هذه مكية في قول الجمهور".

* آياتها ستّ بالإجماع. وكلماتها ثمانٍ وعشرون. وحروفها أَربع وتسعون. فواصل آياتها على النّون.

* تسمى «سورة الكافرون» عنونت هذه السورة في المصاحف وفي معظم التفاسير، «سورة الكافرون» بإضافة «سورة» إلى «الكافرون» وبثبوت «واو» الرفع في «الكافرون»، على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها.

ووقع في بعض كتب التفسير: «سورة الكافرين» بياء الخفض في لفظ «الكافرين» بإضافة «سورة» إليه أن المراد: سورة ذكر الكافرين، أو نداء الكافرين.

وجه تسميتها سورة «الكافرون»، لوقوع لفظ: «الكافرون» في بداية السورة، قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١].

وتسمى سورة «قل يا أيها الكافرون» سميت في كلام الصحابة، وبعض كتب التفسير: سورة «قل يا أيها الكافرون»، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه». وهي تسمية للسورة بأول آية منها.

وتسمى سورة «المقشقشة» تسمى هي و «سورة الإخلاص»: المقشقشتين، لأنهما تقشقشان من الشرك والنفاق، أي: تبرئان منه، يقال: قشقش: المريض إذا صح وبرأ.

روي عن زرارة بن أوفى، قال: "كانت هذه السورة تسمى: المقشقشة".

عن أبي عمرو بن العلاء، قال: " كانت {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} تسمى المقشقشة، أي: أنها تبرئ من الشرك، ويقال: قشقش البعير إذا رمى بجرته".

=

قال أبو عبيدة: " {قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ}، و {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، يقال لهما: «المشقشتان»، ومعناه المبرّئتان من الكفر والشكّ والنفاق كما يقشقش الهناء الجرب فيبرئه".

وقد وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير، وذكرها الفيروزآبادي في «البصائر».

وتسمى سورة «الإخلاص» وتسمى أيضا «سورة الإخلاص»، كما وردت في بعض كتب التفسير، ووجه تسميتها بذلك، لأنها منها إخلاص العبادة والدين، كما أن «قل هو الله أحد» في الإخصلاص والتوحيد واجتماع النفاق منهما محال لمن اعتقدهما وعمل بهما.

وبذلك يكون هذان الاسمان «المقشقشة، والإخلاص» مشتركين بينها وبين سورة {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، وقد ذكر في سورة براءة أن سورة براءة تسمى المقشقشة لأنها تقشقش، أي: تبرئ من النفاق فيكون هذا مشتركا بين السور الثلاث فيحتاج إلى التمييز.

وتسمى سورة «العبادة» سماها بهذا الاسم السخاوي في «جمال القراء»، ونقلها عنه السيوطي، والألوسي في تفسيره، وفي الفتوحات وردت تسميتها بسورة «المعابدة»، فلعله تصحيف من «العبادة»، أو أن اللفظ من مشتقات «العبادة».

ووجه تسميتها بسورة «العبادة»، لأنها اشتملت على امر الله تعالى لرسولهﷺ بأن يعلن للمشركين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان والأحجار.

وتسمى سورة «المنابذة» ورد هذا الاسم عند الرازي، دون أن يعلل وجه تسميتها بذلك.

وتسمى سورة «الدين» في «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي تسمى «سورة الدين»،، وعلل تسميتها: لقوله تعالى: {وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦].

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١).

{قل يا أيها الكافرون}.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢).

{لَا أَعْبُد} فِي الْحَال {مَا تَعْبُدُونَ} مِنْ الأصنام.

=

ووجد في مصحف نسخ سنة (١٢٥٧ ه) سماها سورة «الجحد»، ولم أجده عند أحد من المفسرين.

* معظم مقصود السّورة: يأْس الكافرين من موافقة النبىّ ﷺ بالإِسلام والأَعمال، فى الماضى، والمستقبل، والحال، وبيان أَن كلّ أَحد مأْخوذ بما لَه عليه إِقبال، وعليه اشتغال.

* **المتشابهات**: قوله: {لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} فى تكراره أَقوال خمسة، ومعانٍ كثيرة، ذكِرت فى التفاسير. وقال محمود بن حَمزة الكرمانىّ: هذا التكرار اختصار وإِيجاز، هو إِعجاز، لأَنه نفى عن نبيّه عبادة الأَصنام فى الماضى، والحال، والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأَزمنة الثلاثة أَيضًا. فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستَّ مرّات فذكر لفظ الحال، لأَنَّ الحال هو الزَّمان الموجود. واسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأَزمنة. واقتصر من الماضى على المسند إِليهم، فقال: {وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} ولأَنَّ اسم الفاعل بمعنى الماضى فعل على مذهب الكوفيّين. فاقتصر من المستقبل على المسند إِليه فقال: {وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ} وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل. وهذا معجزة للقرآن وبرهان. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٤٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣).

{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ} فِي الْحَال {مَا أَعْبُد} وَهُوَ الله تَعَالَى وَحْده.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤).

{وَلَا أَنَا عَابِد} فِي الِاسْتِقْبَال {مَا عَبَدْتُمْ}.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥).

{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ} فِي الِاسْتِقْبَال {مَا أَعْبُد} عَلِمَ الله مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِطْلَاق مَا عَلَى الله عَلَى وَجْه الْمُقَابَلَة.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦).

{لَكُمْ دِينكُمْ} الشِّرْك {وَلِيَ دِين} الْإِسْلَام وَهَذَا قَبْل أَنْ يُؤْمَر بِالْحَرْبِ وَحَذَفَ يَاء الْإِضَافَة الْقُرَّاء السَّبْعَة وَقْفًا وَوَصْلًا وَأَثْبَتَهَا يَعْقُوب فِي الحالين[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن قريشًا وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالًا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ويطأوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد! وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل؛ فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك ولنا فيها صلاح، قال: "ما هي؟ "، قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة، قال: "حتى أنظر ما يأتي من عند ربي"، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)} السورة، وأنزل الله: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)} إلى قوله تعالى: {فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)} [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٤): ثنا محمد بن موسى الحرشي ثنا أبو خلف ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ =

=

أبو خلف ضعيف؛ كما في "التقريب".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٤) وزاد نسبته لابن أبي حاتم والطبراني.

وعن وهب؛ قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن سرّك أن نتبعك عامًا وترجع إلى ديننا عامًا؛ فأنزل الله -جلّ ثناؤه-: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٤٠٣) عن إبراهيم الأحول، قال: سمعت وهبًا به. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٥) وزاد نسبته لابن المنذر.

وعن سعيد بن ميناء مولى البختري؛ قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! هلمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا؛ كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يديك؛ كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك؛ فأنزل الله ﷻ: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)} حتى انقضت السورة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٤): ثني يعقوب ثنا ابن علية عن ابن إسحاق حدثني سعيد به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن الأنباري في "المصاحف".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن قريشًا قالت: لو استملت آلهتنا؛ لعبدنا إلهك؛ فأنزل الله: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٥) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر

=

=

وابن مردويه.

* قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١]

أي: قل -أيها الرسول- للذين كفروا بالله ورسوله: يا أيها الكافرون بالله.

قال الطبري:-في تفسير الآية-:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وكان المشركون من قومه فيما ذكر عرضوا عليه أن يعبدوا الله سنة، على أن يعبد نبيّ الله ﷺ آلهتهم سنة، فأنزل الله معرفه جوابهم في ذلك: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوك عبادة آلهتهم سنة، على أن يعبدوا إلهك سنة {يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} بالله".

قال السعدي:" أي: قل للكافرين معلنا ومصرحًا".

قال البيضاوي:" يعني: كفرة مخصوصين، قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون".

قال ابن كثير:" هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفارُ قريش".

قوله تعالى: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون: ٢]

أي: لا أعبد ما تعبدون من الأصنام والآلهة الزائفة.

قال ابن عباس، ومقاتل: "لا أعبد آلهتكم التي تعبدون اليوم".

قال الطبري: يقول: " {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} من الآلهة والأوثان الآن".

قال الزجاج:" أي: لست في حالي هذه عابدًا ما تعبدون".

قال أبو عبيدة:" أي: لا أعبد الآن ما تعبدون، ولا أجيبكم فيما بقي أن أعبد ما تعبدون".

قال ابن فورك:" أي: لا أعبد الأوثان وأنتم تعبدونها".

قال السعدي:" أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهرًا وباطنًا".

=

قال الزمخشري:" {لا أَعْبُدُ}، أريدت به العبادة فيما يستقبل، لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال".

قال ابن كثير:" قيل: إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} يعني: من الأصنام والأنداد".

قوله تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: ٣]

أي: ولا أنتم عابدون ما أعبد من إله واحد، هو الله رب العالمين المستحق وحده للعبادة.

قال الطبري: يقول: " {وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} الآن".

قال أبو عبيدة:" ولا أنتم عابدون ما أعبد في الجاهلية والإسلام".

قال ابن فورك:" لجهلكم بوجوب إخلاص العبادة لله".

قال السعدي:" لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة".

قال ابن أبي زمنين:" أي: إنكم تعبدون الأوثان ولا تعبدون الله".

قال الواحدي:" ومعنى: {مَا أَعْبُدُ}: من أعبد، ولكنه مقابل قوله: {مَا عَبَدْتُمْ}، أي: من الأصنام. ثم حمل الثاني عليه ليتقابل".

قال ابن كثير: {مَا أَعْبُدُ} " وهو الله وحده لا شريك له. ف {ما} -هاهنا- بمعنى: «من» ".

قوله تعالى: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [الكافرون: ٤]

أي: ولا أنا عابد ما عبدتم من الأصنام والآلهة الباطلة.

قال الواحدي:" يعني: فيما بعد اليوم".

=

قال الطبري: يقول: " {وَلا أَنَا عَابِدٌ} فيما أستقبل {مَا عَبَدْتُمْ} فيما مضى".
قال الزجاج:" أي: ولا أعبد فيما أستَقْبِل ما عبدتم".
قال أبو عبيدة:" أي: لا أعبد الآن ما تعبدون ولا أجيبكم فيما بقي أن أعبد ما تعبدون".
قال ابن كثير:" أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه".
قال الزمخشري:" أي: وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى منى في الإسلام".
قوله تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: ٦]
أي: ولا أنتم عابدون مستقبلا ما أعبد.
قال الواحدي: يعني: " فيما بعد اليوم".
قال الزمخشري:" أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته".
قال الزجاج:" ولا أنتم فيما تستقبلون عابدون ما أعبد، فهذا نفي الحال، وأن يكون أيضًا فيما يستقبل، ينتقل عن الحال".
قال الطبري: يقول: " {وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ} فيما تستقبلون أبدا {مَا أَعْبُدُ} أنا الآن، وفيما أستقبل. وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبدا، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم، في وقت من الأوقات، وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبدا، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافرا".
قال ابن كثير:" أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئًا
=

=

من تلقاء أنفسكم، كما قال: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: ٢٣] فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله".

قال الزمخشري:" المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روى أنّ رهطا من قريش قالوا: يا محمد، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره: فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم، فأيسوا".

فإن قيل: ما فائدة هذا التكرار؟ قيل: فيه ثلاثة وجوه:

أحدها: أنها لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء، وابن قتيبة.

قال القشيري:" كرّر اللفظ على جهة التأكيد".

قال القرطبي:" فكان التكرار في {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}، لأن القوم كرروا عليه مقالهم مرة بعد مرة".

قال أبو حيان:" فقوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [الكافرون: ٤]، توكيد لقوله: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون: ٢]، وقوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: ٥] ثانيا، تأكيد لقوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: ٣] أولا. والتوكيد في لسان العرب كثير جدا، وحكوا من ذلك نظما ونثرا ما لا يكاد يحصر. وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبدا".

=

=

قال ابن قتيبة:" إنّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار: إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء- أحسن من اقتصاره في المقام على فنّ واحد... ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه: {قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ} [الكافرون: ١]، لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون، ليعبدوا ما يعبد، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا، فأراد الله، ﷻ، حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم، فأبدأ وأعاد في الجواب. وهو معنى قوله: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩] أي تلين لهم في دينك فيلينون في أديانهم".

الثاني: أن المعنى: {لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ} في حالي هذه، {وَلا أَنْتُمْ} في حالكم هذه، {عابِدُونَ ما أَعْبُدُ}. {وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ} فيما أستقبل، وكذلك أنتم، فنفى عنه وعنهم ذلك في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم، أعلمه الله ﷻ أنهم لا يؤمنون، فلا يكون حينئذ تكرارا، هذا قول ثعلب، والزّجّاج، ونحوه قال أبو عبيدة، والأخفش، والمبرد.

قال أبو حيان:" فزال التوكيد، إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير".

قال ابن فورك:" معنى تكرير ذكر العبادة لتصريفها في الفوائد المختلفة وذلك لنفي عبادة المؤمنين للوثن كيف تصرفت الحال إلى ماضي أو حاضر أو مستقبل".

قال الزجاج:" نفى عنهم العبادة في الحال للهِ ﷻ وفي الاستقبال. وهذا - والله أعلم - في قومه. أعلمه الله أنهم لا يؤمنونَ كما قال ﷻ في قصة نوح: {لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ}".

قال النحاس:" وكان في هذا دلالة على نبوته ﷺ لأن كل من خاطبه بهذا المخاطبة ثم لم يسلم منهم أحد، وكذا الذين خاطبهم بقولهم: {سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

=

=
تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٦] ".

وقد علق الشوكاني حول هذا القول، فقال: "وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: {لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ} للاستقبال، وإن كان صحيحًا على مقتضى اللغة العربية، ولكنه لا يتم جعل قوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} للاستقبال، لأن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات، فدخول المني عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحًا للزم مثله في قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} وفي قوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}، فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريتين على الحال، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس، لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده؛ منفية كلها بحرف واحد، وهو لفظ «لا» في كل واحد منها، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة.

الثالث: أن المراد بقوله: {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} نفى الفعل لأنها جملة فعلية، {وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا. وهذا قول أبو العباس بن تَيمية.

قال ابن كثير:"وهو قول حسن -أيضا-".

قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦]

أي: لكم دينكم الذي أصررتم على اتباعه، ولي ديني الذي لا أبغي غيره.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لكم دينكم فلا تتركونه أبدا، لأنه قد ختم عليكم، وقضي أن لا تنفكوا عنه، وأنكم تموتون عليه، ولي دين الذي أنا عليه، لا أتركه
=

=

أبدا، لأنه قد مضى في سابق علم الله أني لا أنتقل عنه إلى غيره".

قال الزمخشري: أي: " لكم شرككم، ولى توحيدي. والمعنى: أنى نبيّ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعوني، فدعوني كفافا ولا تدعوني إلى الشرك".

قال ابن فورك: أي:" لكم جزاؤكم على عبادة الأوثان ولي جزاء على عبادة ربي، فانظروا ما مقتضى كل من الأمرين".

عن ابن زيد:" {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، قال: للمشركين؛ قال: واليهود لا يعبدون إلا الله ولا يشركون، إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء، وبما جاءوا به من عند الله، ويكفرون برسول الله، وبما جاء به من عند الله، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلما وعدوانا، قال: إلا العصابة التي بقوا، حتى خرج بختنصر، فقالوا: عُزَير ابن الله، دعا الله ولم يعبدوه ولم يفعلوا كما فعلت النصارى، قالوا: المسيح ابن الله وعبدوه".

قال البيضاوي: أي: " لكم دينكم الذي أنتم عليه لا تتركونه. ولي دين ديني الذي أنا عليه لا أرفضه، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليكون منسوخا بآية القتال، اللهم إلا إذا فسر بالمتاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه، وقد فسر ال «دين» ب «الحساب والجزاء والدعاء والعبادة» ".

قال أبو حيان:" أي: لكم شرككم ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ. ولما كان الأهم انتفاءه عليه الصلاة والسلام من دينهم، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه. ولما تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله: لكم دينكم على سبيل المهادنة، وهي منسوخة بآية السيف".

قال الزجاج:" قيل: هذا قبل أن يؤمر ﷺ بالقتال".

وقال بعض العلماء:"في هذه الألفاظ مهادنة ما وهي منسوخة بآية القتال".

=

=

قال القرطبي: قوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} " فيه معنى: التهديد، وهو كقوله تعالى: {لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ} [القصص: ٥٥]، أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف. وقيل: السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شي لأنها خبر. ومعنى لكم دينكم أي جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمى دينهم دينا، لأنهم اعتقدوه وتولوه. وقيل: المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي، لأن الدين الجزاء".

قال ابن عباس: " {كم} كفركم بالله، {ولي} التوحيد والإخلاص له، وهذا قبل أن يؤمر بالحرب، ثم نسخ هذا التسليم بآية القتال".

قال ابن عباس: "ليس في القرآن سورة أشد لغيظ إبليس من هذه السورة لأنها توحيد وبراءة من الشرك".

قال ابن كثير:" وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} على أن الكفر كله ملة واحدة تورثه اليهود من النصارى، وبالعكس؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس؛ لحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» ".

قرأ أبو عمر: «ولي ديني» ساكنة الياء، من {لي}، ونصبها الباقون بخلاف كل واحد منهم، والقراءتان حسنتان، وقرأ سلام ويعقوب: «ديني» بياء في الوصل والوقف.

(فائدة): قال الإمام ابن القيم في بدائع الفوائد: وأما قوله ﷻ: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} [الكافرون: ٢ - ٣] ف "ما" على بابها، لأنها واقعة على معبوده ﷺ على الإطلاق؛ لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل

=

=

كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به؛ فقوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)} [الكافرون: ٥] أي: أنتم لا تعبدون معبودي، ومعبوده هو ﷺ كان غارفًا به دونهم، وهم جاهلون به. هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تبريتهم عن عبادته تبريهم من المعبود؛ لأن العبادة متعلِّقة به، وليس هذا بشيء! إذ المقصود براءته من معبوديهم، وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ حسدًا له، وأَنَفَةً من اتباعه، فهم لا يعبدون معبودة، لا كراهية لذات المعبود؛ ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصًا على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمغنى الرفيع إلا لفظ "ما"؛ لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك وجه رابع، وهو: قَصْد ازدواج الكلام [أصلٌ] في البلاغة والفصاحة، مثل قوله تعالى: {نسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: ٦٧]، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ} [البقرة: ١٩٤]، فكذلك: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)} [الكافرون: ٢] ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدَوَجَ مع هذا الكلام قوله تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} [الكافرون: ٥]، فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا "من" كقوله تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ}، {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ} [يونس: ٣١]، {أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ} [يونس: ٣١] {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [النمل: ٦٣]، {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢]، {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ} [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك.

وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو: أن المقصود هنا ذِكْر المعبود الموصوف بكونه أهلًا للعبادة مستحقًّا لها، فأتى ب "ما" الدالة على هذا المعنى

=

=

كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظة "من"؛ لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذِكْر الصِّلة تعريفًا لا أنه هو جِهَة العبادة، ففَرْقٌ بين أن كونه تعالى أهلًا لأن يعبد تعريفٌ محض، أو وصف مقتضٍ لعبادته، فتأمله فإنه بديع جدًّا.

وهذا معنى قول محققي النحاة: إن "ما" تأتي لصفات من يعلم، ونظيره: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده وهو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به، أتى ب "ما" دون "من "، وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية.

وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا فلنذكر فائدة ثانية زائدة على ذلك وهي: تكرير الأفعال فى هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة رابعة وهي: أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، ونجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة وهي: كون أداة النفي هنا "لا" دون "لن".

ثم فائدة سادسة وهي: أن طريقة القرآن في مثل هذا: أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للخفي والإثبات، وهذا حقيقة "لا إله إلا الله"، فلِمَ جاءت هذه السورة بالنفي المحض وما سرُّ ذلك؟..

وفائدة سابعة وهي: ما حِكْمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم ثم نفي عبادتهم عن معبوده؟.

=

=

وفائدة ثامنة وهي: أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطهم بالذين كفروا، والذين هادوا، كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} [التحريم: ٧] {قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ} [الجمعة: ٦] ولم يجئ: {يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)} إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟.

وفائدة تاسعة وهي: هل في قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} [الكافرون: ٦] معنى زائد على النفي المتقدم؟ فإنه يدلّ على اختصاص كلٍّ بدينه ومعبوده، وقد فُهِم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور؟.

وفائدة عاشرة وهي: تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص. وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة حادية عشرة وهي: أَنَّ هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الإخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم، فهل هذا مُتَارَكَة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف أو التخصيص ببعض الكفار؟ أم الآية باقة على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة؟.

فهذه عشر مسائل فى هذه السورة قد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهى وقوع "ما" فيها بدلًا عن "من " فنذكر المسائل التسع مُسْتمدين من فضل الله، مستعينين بحوله وقوته، متبرئين إليه من الخطأ فما كان من صوابٍ فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

فأما المسألة الثانية: وهي فائدة تَكْرَار الأفعال، فقيل فيه وجوه؛ أحدها: أن قوله تعالى: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)}، نفي للحال والمستقبل، وقوله تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)}، مقابله أي: لا تفعلون ذلك، وقوله تعالى: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)}، أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في

=

=

عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: {مَا عَبَدْتُمْ (٤)}، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم. وقوله تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)}، مقابله، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائمًا.

وعلى هذا فلا تَكْرَار أصلًا، وقد استوفت الآياتُ أقسام النفي ماضيًا وحالًا ومستقبلًا، عن عيادته وعبادتهم، بأوجز لفظ وأخصَرِه وأبيَنِه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها، فعليك بها.

وأما المسألة الثالثة وهي: تكرير الفعل بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه (ظ/ ٣٩ ب)، وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم.

ففي ذلك سرٌّ وهو: الإشارة والإيماء إلى عِصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به بدلًا ولا يبغي عنه حِوَلًا، بخلاف الكافرين، فإنهم يعبدون أهواءَهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصَدَد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره، فقال: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}، يعني: الآن، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} أنا الآن -أيضًا- ثم قال: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)} يعني: ولا أنا فيما يُسْتَقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون. وأشبهت "ما" هنا رائحةُ الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: "مهما عبدتم من شيءٍ فلا أعبده أنا".

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل، ولا جواب لها، وهي موصولة فما أبعد الشرط منها؟!.

قلنا: لم نقل أنها شرط نفسُها، ولكن فيها رائحة منه وطرف من معناه؟ لوقوعها على غير معَيَّن وإبهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام

=

=

وجدت معنى الشرط باديًا على صفحاته. فإذا قلت لرجل ما -تخالفه في كل ما يفعل-: أنا لا أفعل ما تفعل، ألستَ ترى معنى الشرط قائمًا قي كلامِكَ وقصدك؟ وأن روح هذا الكلام: مهما فعلتَ من شيءٍ فإني لا أفعله. وتأمل ذلك في "مَنْ"، مثل قوله تعالى: {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)} [مريم: ٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد "مَنْ" بلفظ الماضي، والمراد به المستقبل، وأن المعنى: مَنْ كان في المهد صبيًا فكيف نكلمه؟ في هذا هو المعنى الذي حامَ حوله من قال من المفسرين والمعربين: إن "كان" هنا بمعنى يكون، لكنهم لم يأتوا إله من بابه، بل ألقوه عُطْلًا من تقدير وتنزيل، وعزب عن فهم غيرهم هذا للُطْفه ودقَّته، فقالوا: "كان" زائدة، والوجه ما أخبرتك به، فخده عَفْوًا، لك غُنمه وعلى سِوَاك غرمه، هذا مع أن "مَن" في الآية قد عمل فيها الفعل، وليس لها جواب، ومعنى الشرطية قائم فيها، فكذلك في قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)}، وهذا كلُّه مفهومٌ من كلام فحول النحاة، كالزَّجَّاج وغيره.

فإذا ثبت هذا، فقد وضَحَت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)}، بخلاف قوله: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)}، لبعد "ما" فيها عن معنى الشرط؛ تنبيهًا من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

وأما المسألة الرابعة وهي: أنه لم يأتِ النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارةً وباسم الفاعل أُخرى، فذلك -والله أعلم- لحكمة بديعة، وهي: أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولًا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول: أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني: أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غيرِ اللهِ

=

=

لا تكون فعلًا لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لحنفيَّين مقصودَيْن (ظ/ ٤٠ أ) بالنفي.
وأما في حقهم؛ فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: إن الوصف الثابت اللازم للعابد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم وإنما يثبت لمن خص اللهَ وحدَه بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ} [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]، فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونُفِيَ الوصفُ؛ لأن من عبدَ غيرَ اللهِ، لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها.
فتأمل هذه النكتة البديعة، كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه: عابدُ الله وعبدُه والمستقيم على عبادته، إلا من انقطع إليه بكلِّيته وتبتَّل إليه تبتيلًا لم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره؛ فليس عابدًا لله ولا عَبْدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص، التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كلُّ أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.
وأما المسألة الخامسة وهي: أن النفي في هذه السورة أتى بأداة "لا" دون "لن"، فلِمَا تقدم تحقيقُه عن قربٍ: أن النفي ب "لا" أبلغ منه ب "لن"، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من "لن"، وأنها للطول: والمد الذي في لفظها طال النفي بها وامتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة، وأن "لن" إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال، وقد تقدَّم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق، فالإتيان ب "لا" مُتَعين هنا؟ والله أعلم.

=

=

وأما المسألة السادسة وهي: اشتمال هذه السورة على النفي المحض؛ فهذا هو خاصَّة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءةٍ من الشرك، كما جاء في وصفها: "أنها بَرَاءةٌ مِنَ الشِّرْك"، فمقصودُها الأعظم هو البراءة المطلقة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)} براءة محضة، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} إثبات أن له معبودًا يعبده وأنهم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات وطابقت قولَ إمام الحنفاء: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي} [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]، وطابقت قول الفِتْية الموحدين: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ} [الكهف: ١٦] فانتظمت حقيقةَ لا إله إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بها وب {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١)} في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعَي التوحيد، الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمِّن تنزيه الله عما لا يليق به مِن الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أَحَدٌ صَمَد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد (ظ/ ٤٠ ب) الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، فتضمنت السورةُ إثبات ما يليق بجلالة من صفات الكمال ونفي ما لا يليقُ به من الشريك أصلًا وفرعًا في نظيرًا، فهذا توحيد العِلْم والاعتقاد.

والثاني: توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته عباده، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)} مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نَوْعَي التوحيد وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النَّهار. في سُنة الفجر ويختم بهما في سنة المغرب. وفي "السنن" أنه. كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا

=

=

تخريجُ جواب: المسألةِ السابعةِ وهي: تقديم براءته من معبودهم، ثم أتْبعها ببراءَتهم من معبوده فتأمله فإنه واضح.

وأما المسألة الثامنة وهي: إثباته هنا بلفظ: "يا أيها الكافرون" دون: "يا أيها الذين كفروا"؛ فسرُّه -والله أعلم-: إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه؛ فهو حقيقٌ أن يتبرأَ اللهُ منه، ويكون هو -أيضًا- بريئًا من الله، فحقيق بالموحِّد البراءة منه، فكان ذكره في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانية بحقيقةِ حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازمٌ لكم ثابتٌ لا تنتقلون عنه؛ فمجانبتكم والبراء منكم ثابت دائم أبدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدَّال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح.

وأما المسألة التاسعة وهي: ما هي الفائدة في قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} وهل أفاد هذا معنًى زائدًا على ما تقدَّم؟.

فيقال: في ذلك من الحكمة -والله أعلم- أنَّ النفيَ الأول أفاد البراءة، وأنه لا يُتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم -أيضًا- لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفادَ آخرُ السورة إثبات ما تضمنه ذلك الخفي مِنْ توحيده له، وأنه حظه ونصيبه وقسمه، فإن ما تضمنه الخفي من جهتهم من الشرك والكفر هو حظهم وقسْمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضًا فقال له: "لا تدخل في حَدِّي ولا أدخل في حَدك، لك أرضك ولي أرضي"، فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنّا اقتسمنا حِصَّتنا بيننا فأصابنا التوحيد والإيمان؛ فهو نصيبُنا وقَسْمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقَسْمكم الذي تختصون به لا نشرككم فيه.

فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه. وهذه المعاني ونحوها إذا

=

=

تجلَّت للقلوب رافِلَةً فِي حُللها فإنها تَسْبي القلوبَ وتأخذ بمجامِعِها، ومن لم يصادف من قلبه حياة؛ فهي:

* خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضَرِيرٍ مُقعدِ *

فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله تمام نِعْمته.

وأما المسألة العاشرة وهي: تقديم قِسْمهم ونصيبهم على قَسْمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يُدركه إلا فحولُ البلاغة وفرسانها، فإن السورةَ لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضيَ كلٌّ بقسمه، وكان المحِقُّ هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميَّز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أَرْدَأ منه، وأنه هو قد استولى على القسم (ظ/ ٤١ أ) الأشرف والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سُمًّا وشِفاء، فرضيَ مُقاسِمة بالسمِّ، فإنَّه يقول له: لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي.

فتقديم ذكر قسمة هاهنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: "هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم"، فكان في تقديم ذِكر قسْمِه من التهكُّم به والنداء على سوء اختاره وقُبْح ما رضيه لنفسه من الحُسْن والبيان ما لا تجده في ذكر تقديم قسم نفسه. والحاكم في هذا هو الذوقُ، والفَطِنُ يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجعُ فيه كثرةُ البيان.

ووجهٌ ثانٍ وهو: أن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبّها ومَغْزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أولِ السورة، ثم جاء قوله تعالى {لَكُمْ دِينُكُمْ} مطابقًا لهذا المعنى، أي: لا أُشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه،

=

=

بل هو دينٌ تختصون أنتم به لا أشرككم فيه أبدًا، فطابقَ آخرُ السورةِ أوَّلَها، فتأمَّلْهُ.
وأما المسألة الحادية عشرة وهي: أن هذا الإخبار بأنَّ لهم دينَهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟.
فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يُقرُّون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط مَحْض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نصٌّ محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.
وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدَّم، ومنشأُ الغلطِ: ظنُّهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: منسوخ.
وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتابَ لهم، فقالوا: هذا مخصوص، ومعاذَ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم، أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه، أشد على الإنكارِ عليهم وعيب دينهم وتقبيحِه والنهي عنه والتهديد لهم والوعيد كل وقت وفي كل ناد. وقد سألوه أن يكفَّ عن ذكر آلهتهم، وعَيْب دينهم، ويتركونه وشأْنَه؛ فأبى إلا مُضِيًّا على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟! معاذ الله من هذا الزعم الباطل، وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدَّم، وأن ما هم عليه من الدين لا أوافقكم عليه أبدًا، فإنه دينٌ باطل، فهو مختص بكم لا نشرككم فيه ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصُّل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يُدَّعى النسخ أو التخصيص؟
=

=

أفتَرَى إذا جُوهِدُوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة، لا يصح أن يقال لهم: لكم دينكم ولي دين. بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين (ظ/ ٤٠١ ب) والكافرين إلى أن يطهِّر الله منهم عبادَه وبلاده.

وكذلك حكمٌ هذه البراءة بين أتباع الرسول ﷺ أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاءَ به، الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذا براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة النزرة، المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير، ولا تتبع لهذه الكلمات من مظانٍّ توجد فيه، بل هي استملاء مما علَّمه الله وألهمه بفضله وكرمه، والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ولبالغت في استحسانها، وعسى اللهُ المانّ بفضله الواسع العطاء، الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط، وهذا الأسلوب، وقد كتبتُ على مواضعَ متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدَّس، والله المرجو إتمام نعمته.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: للسائل أن يسأل عن تكرير ما ورد فيها؟ والجواب أنها لم تتكرر فيها آية واحدة إذا اعتبرت أن كل آية منها تفيد من المعنى وتحرر ما لا تفيده الأخرى بذلك التحرير، فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها مع جليل التشاكل وعلي التلاؤم والتناسب.

بيان ذلك أنه ورد في سبب نزول هذه السورة أن قريشًا قالوا لرسول الله صلي الله عليه وسلم: أعبد آلهتنا سنة ونعد إلهك سنة، وروي أنهم قالوا: تعالى فلنشترك في عبادة ألهتنا وإلهك فنأخذ الخير حيث كان، فتبرأ صلي الله عليه وسلم من مقالهم

=

=

وأنزل الله السورة فتلاها عليهم وهم مجتمعون في المسجد. فقوله: (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) (الكافرين: ٢) أي لا أفعل ذلك يما أستقبله من زماني ولا أنتم تفعلونه فيما يستقبل، وهذا إخبار منه سبحانه عن أولئك العصبة أنهم لا يؤمنون، وهم الذين قتلهم (الله) يوم بدر، فهو إخبار بغيب. ثم قال تعالى: (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) (الكافرين: ٤) أي ولا أنا متصف فيما مضى من عمري إلى الآن بعبادة ألهتكم ولا كنتم أنتم فيما مضى متصفين بعبادة الله سبحانه، فحصل من ذلك الإخبار عن حال ما يستقبل منه صلي الله عليه وسلم ومنهم وعن حال ما مضى وتقدم منه صلي الله عليه وسلم ومنهم، فعبر عن أربعة أحوال متباينة وهي: احله، عليه السلام، فيما يستقبل وحالهم، وحاله فيما تقدم قبل وحالهم، فعبر عن هذه الأربعة بأربع آيات، فلا تكرار.

فإن قلت: فكيف تنزيل آي السورة على هذا؟ قلت: إن لا النافية إذا دخلت على المضارع المبهم مجردة عن قرينة من لفظ () خلصته للاستقبال، وقد دخلت في أول آية على قوله: " أعبد " فتخلص هذا الإخبار لما يستقبل، ثم بنيت الجملة من قوله: " ولا أنتم عابدون ما أعبد " على ما قبلها ليتقابل الإخبار ويلتئم نظم الكلام، وجئ فيه بالجملة الاسمية لأنها تحرز من حيث تسلط النفي على الصفة أنها لا توجد فيهم ولا يتصرفون بها في شئ مما يستقبلونه، ففي الصفة أحرز بتعميم ما يستقبل من نفي الفعل.

فإن قيل: فإذا كان نفي الصفة على ما ذكر فلم لم يأت كذلك أولًا فكأن يقال: لا أنا عابد ما تعبدون (أو ما أنا عابد) ما تعبدون؟ قلت: لم يكن كذلك لأمرين: أحدهما أنه جواب لقولهم: أعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فلما كان جوابا لفعل أتي فيه بالفعل نفيًا لعين ما طلبوه ولو نفي الاسم لما كان مطابقًا لقولهم، والثاني أن الجملة الأسمية إنما نفيها بما لا بلا، وما ليست بمخلصة للاستقبال،

=

ونفي المستقبل مقصود، فلم يكن بد مما يحرزه، فهذا ما حمل أولًا على ما عليه الكلام. وأما الجملة المنفية على هذه وهي قوله: (ولآ انتم عابدون ما أعبد) فتنبيه لما قصد تعريفهم به، إذ هي طرف معرف بحالهم بناء على ما تقدمها من بيان حاله، عليه السلام، فهي جملة جوابهم، وبناؤها على ما تخلص استقباله مغن عن الأداة المخلصة لأن حكمها حكم ما بنيت عليه، وتم بها أنه قد وقع الفعل المبهم في صلة ما وهي معمولة لاسم الفاعل المجموع الواقع خبرًا عن " أنتم " ولا يعمل إلا بمعنى الحال والاستقبال، ولكن المعتمد الجوابية على ما تقرر فقد تبين أن قوله: (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) إخبار عما يستقبل من الزمان وعن حاله، عليه السلام، فيه وحالهم فيه أيضا. ثم قال: (ولا أنا عابد ما عبدتم) فهذا نفي لما تقدم ومضى على كفاية الحال الماضية ولهذا عمل اسم الفاعل في " ما". ولما كان الإفصاح هنا بالماضي يحرز المقصود جاءت الجملة اسمية لتحصل الماضي والحال. أما الماضي فمهوم ببنية الفعل وهو قوله (ما عبدتم) ولو لم يقع الإفصاح بالفعل لأفهم السياق ما ذكر لأنه قد تقدم ما يستقبل في حق الفريقين فلم يبق إلا ما مضى، ولا مانع من اللفظ، فتعين المقصود.

أما الحال فإن الجملة الاسمية إذا دخل عليها النفى حملت على الحال ما لم يقع في الكلام ما يقيدها بغيره، فإن قيل: التقييد بقوله: (ما عبدتم) قلت: قوله: (ما عبدتم) من صلة ما بعد حصول المبتدأ الذي هو أنا وهو اسم الفاعل، فحصل من قوله: (ولا أنا عابد) نفي اتصافه صلي الله عليه وسلم في الحال بعباده آلهتهم، وإنما الحال عندنا الماضي غير المنقطع، قال سيبويه، رحمة الله، معرفًا بما يطلق عليه اسم الحال فقال:، وهو كائن لم ينقطع، فحصل عن المبتدأ والخبر من قوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم) الإخبار عن حالة المستمرة على ذلك فيما تقدم متصلة غير منفصلة، وحصل من الجملة الخبرية الواقعة صلة وهي: " عبدتم " أنهم لم

سورة النصر[1]

=

يفعلوا ذلك فيما مضى، وقد حصل فيما تقدم استمرارهم على ذلك حال الإخبار، وزيد بيانًا وتأكيدًا لقوله بعد: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وقد حصل أيضا فيما تقدم أن تلك حالهم فيما يستقبلونه، فيحصل المجموع أنه صلي الله عليه وسلم تبرأ من عبادة آلهتهم فيما مضى وفي الحال وما يأتي، (وأنهم ما عبدوا الله كما يجب له سبحانه فيما مضى ولا في الحال ولا يفعلون ذلك فيما يأتي)، وهو الحاصل من قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) (يونس: ٩٦). ثم قال سبحانه على لسان نبيه صلي الله عليه وسلم: (ولا أنتم عابدون ما أعبد)، هذا في مقابلة قوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم) فهو إخبار عن حالة صلي الله عليه وسلم فيما مضى وتقدم من عمره صلي الله عليه وسلم، وقد تبين ما قيل.

فإن قيل: لم لم يقل هنا: ولا أنتم عابدون ما عبدت فكان يجرى جري ما بني عليه وقوبل (به)؟ قلت لو قيل: " ما عبدت " لأوهم انقطاعًا، لأن قول القائل: فعلت لا يقتضى الدوام والإتصال، ولكن وإن كان هناك مفهومًا فيما تقدم من مقصود الكلام بالجملة فإن الأولى رفع الاحتمال من اللفظ كما أحرز المعنى، وهو الجاري في الكتاب العزيز. ثم قال (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (الكافرين: ٦) فحصل التبري، وتوضح التفصيل المتقدم. ا.ه من ملاك التأويل (٢/ ٥١١-٥١٣).

(١) قال ابن عطية:" هي مدنية بإجماع".

قال ابن الجوزي:" هي مدنيّة بإجماعهم".

قال الزمخشري:" نزلت بمنى في حجة الوداع، فتعد مدنية، وهي آخر ما نزل من السور".

قال أبو حيان:" هذه مدنية، نزلت منصرفه ﷺ من غزوة خيبر، وعاش بعد نزولها =

=

سنتين".

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: "قال لي ابن عباس: تعلم - وقال هارون: تدري - آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعا؟ قلت: «نعم، {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}»، قال: صدقت".

وعن ابن عمر، قال: "نزلت هذه الآية: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ} علي رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، وعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت له فركب فوقف بالعقبة واجتمع الناس فذكر الحديث في وضع الدم والربا واستدارة الزمان، ثم قال: وإنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما، وذلك أنهم كانوا يجعلون صفر عاما حراما، وعاما حلالا، وعاما حراما، وذلك النسيء. أيها الناس! من كانت عنده وديعة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، أيها الناس! إنه لا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا ما طابت به نفسه وذكر الحديث".

عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله عز وجل: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ} [النصر: ١]، قال: «فتح مكة، نعيت لرسول الله ﷺ نفسه، فاستغفر ربك، واعلم أنه قد حضر أجلك».

فهذه السورة مدنية بالاتفاق. واختلف في وقت نزولها، على أقوال:

فقيل: نزلت منصرف النبي ﷺ من خيبر -أي: في سنة سبع-، ويؤيده ما رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس، قال: «لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ} السورة، نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهادا من أمر الآخرة، ثم قال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء نصر الله وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن». فقال له رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان».

=

=

ومجيء أهل اليمن أول مرة هو مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر.

ولم يختلف أهل التفسير أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة، وعليه فالفتح مستقبل ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبل أيضا وهو الأليق باستعمال {إذا}، ويحمل قول النبي ﷺ: «جاء نصر الله والفتح» على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع

لتحقق وقوعه أو لأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة.

قال ابن عباس:" هذه السورة عَلَمٌ وحَدٌّ حدّه الله لنبيه ﷺ، ونعى له نفسه. إي إنك لن تعيش بعدها إلا قليلا".

قال قتادة: "والله ما عاش، بعد ذلك إلا قليلا سنتين، ثم توفي ﷺ".

ونقل الواحدي عن ابن عباس: أنها «نزلت في منصرف النبيﷺ من غزوة حنين، وعاش بعد نزولها سنتين».

فيكون الفتح قد مضى ودخول الناس في الدين أفواجا مستقبلا، وهو في سنة الوفود سنة تسع، وعليه تكون {إذا} مستعملة في مجرد التوقيت دون تعيين.

وروى عن ابن عمر أنها: «نزلت أواسط أيام التشريق»، أي: عام حجة الوداع، وإن صحت هذه الرواية، كان الفتح ودخول الناس في الدين أفواجا قد مضيا.

وفي عمدة القاري: «أن رسول الله ﷺ عاش بعد حجة الوداع نحوا من ثلاثة أشهر». وعليه تكون {إذا} مستعملة للزمن الماضي، لأن الفتح ودخول الناس في الدين قد وقعا.

وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلا أن هذه السورة تشتمل على إيماء إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها إذ لا خلاف في أن هذا الإيماء يشير إلى توقيت بمجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف.

=

=

وفي حديث ابن عباس في «صحيح البخاري»: «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ} [النصر: ١]: فتح مكة، فذاك علامة أجلك: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣]».

قال ابن عباس: "لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ}، دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «إنه قد نعيت إلي نفسي» فبكت، فقال: «لا تبكين، فإنك لأول أهلي لاحق بي»، فضحكت. فرآها بعض أزواج النبي ﷺ، فقالت لها: رأيناك بكيت، ثم ضحكت. فقالت: إنه قال لي: «نعيت إلي نفسي» فبكيت، فقال: «لا تبكي، فإنك أول أهلي لاحق بي»، فضحكت".

وفي هذا الحديث ما يؤول من إشارة إلى اقتراب ذلك الأجل، فإن قوله: «لما نزلت» مدرج من الراوي، وإنما هو إعلام لها في مرضه كما جاء في حديث الوفاة في «الصحيحين» فهذا جمع بين ما يلوح منه تعارض في هذا الشأن.

قال البيهقي:" مجموع هذه الأخبار الصحيحة تدل على أن الله تعالى: أنزل على رسوله ﷺ هذه السورة. فكانت علامة لاقتراب أجله. وعارضه جبريل- عليه السلام- بالقرآن في ذلك العام مرتين، فكانت علامة أخرى لأجله، وأخبره بعمر عيسى عليه السلام، فكانت علامة أخرى لأجله، وخيره بين الدنيا والآخرة فيما روينا، وفيما نرويه إن شاء الله فاختار الآخرة. فكانت علامة أخرى لأجله".

* آياتها ثلاث. وكلماتها ستّ وعشرون. وحروفها أَربع وسبعون. فواصل آياتها على الحاءِ والأَلف. وليس فى القرآن آية على الحاءِ غير الفتح.

* تسمى «سورة النصر» سميت في المصاحف وفي معظم التفاسير: «سورة النصر»، لذكر نصر الله فيها، قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، فسميت بالنصر المعهود عهدا ذكريا.

وتسمى «إذا جاء نصر الله والفتح» سميت هذه السورة في كلام السلف سورة «إذا

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١).

{إِذَا جَاءَ نَصْر الله} نَبِيّه ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ {وَالْفَتْح} فَتْح مَكَّة.

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا (٢).

=

جاء نصر الله والفتح»، وعنونها البخاري في «صحيحه»، باسم: سورة «إذا جاء نصر الله»، وهي تسمية بأول آية من السورة، وذلك في قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١].

وفي «روح المعاني» للألوسي، أنها تسمى سورة «إذا جاء».

وتسمى سورة «التوديع» ذكر السخاوي أنها تسمى: «سورة التوديع»، معللا: "لما فيها من الإيماء إلى وفاة رسول الله ﷺ". يعني: من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى كما سيأتي عن عائشة.

قال الماوردي:" وهذه السورة تسمى التوديع، عاش النبي بعدها حولًا على قول مقاتل، وحولين على قول ابن عباس".

قال الفيروزآبادي: سميت سورة التوديع، لما فيه من بيان نعى المصطفى ﷺ".

وتسمى سورة «الفتح» وسميت سورة «الفتح»، كما في «سنن الترمذي»، وذلك لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركا بينها وبين سورة: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١].

* معظم مقصود السّورة: بيان نعيه، وذكر تمام نُصرة أَهل الإِسلام، ورغبة الخلق فى الإِقبال على دِين الهدى، وبيان وظيفة التسبيح والاستغفار، والأَمر بالتّوبة فى آخر الحال بقوله: {واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٥٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَرَأَيْت النَّاس يَدْخُلُونَ فِي دِين الله} أَيْ الإسلام {أفواجا} جماعات بعد ما كَانَ يَدْخُل فِيهِ وَاحِد وَاحِد وَذَلِكَ بَعْد فَتْح مَكَّة جَاءَهُ الْعَرَب مِنْ أَقْطَار الْأَرْض طائعين.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣).

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّك} أَيْ مُتَلَبِّسًا بِحَمْدِهِ {وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} وَكَانَ ﷺ بَعْد نُزُول هَذِهِ السُّورَة يُكْثِر مِنْ قَوْل سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِر الله وَأَتُوب إِلَيْهِ وَعَلِمَ بِهَا أَنَّهُ قَدْ اِقْتَرَبَ أَجَله وَكَانَ فَتْح مَكَّة فِي رَمَضَان سَنَة ثَمَان وَتُوُفِّيَ ﷺ فِي رَبِيع الأول سنة عشر[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت سورة {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)} كلها بالمدينة بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين ينعى إليه نفسه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٦): ثنا ابن حميد؛ قال: ثنا سلمة؛ قال: ثني ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: جهالة الأصحاب مع ملاحظة أن ابن إسحاق مدلس.

الثالثة: ابن حميد ضعيف متهم بالكذب.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)} على رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، وعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت له، فركب فوقف بالعقبة واجتمع الناس (فذكر الحديث في وضع الدم والربا واستدارة الزمان)، ثم قال: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ =

=

كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا} [التوبة: ٣٧] وذلك أنهم كانوا يجعلون صفرَ عامًا حرامًا وعامًا حلالًا، وعامًا حرامًا، وذلك النسيء، أيها الناس! من كانت عنده وديعة؛ فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، أيها الناس! إنه لا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا ما طابت به نفسه"، وذكر الحديث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥٩) ونسبه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في "الدلائل". هو في "الدلائل" (٥/ ٤٤٧) من طريق زيد بن الحباب أخبرني موسى بن عبيدة الربذي أخبرني صدقة بن يسار عن ابن عمر به. وهذا إسناد ضعيف؛ مداره على موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: تعلم أي آخر سورة نزلت جميعًا؟ قلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)}؛ قال: صدقت.

أخرجه مسلم (رقم ٣٠٢٤).

وعن الزهري؛ قال: فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله، ثم أمر رسول الله ﷺ فرفع عنهم، فدخلوا في الدين؛ فأنزل الله: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)} حتى ختمها، ثم رجع رسول الله ﷺ بمن معه من قريش وهي كنانة، ومن أسلم يوم الفتح قبل حنين، وحنين وادٍ في قُبُل الطائف ذو مياه، وبه من المشركين يومئذ عجز هوازن، ومعهم ثقيف، ورأس المشركين يومئذ مالك بن عوف النضري، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله نبيه ﷺ والمسلمين، وكان يومًا شديدًا على الناس؛ فأنزل الله ﷻ: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ} الآية [التوبة: ٢٥].

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٣٧٨) عن معمر عن الزهري به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

=

* قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]
أي: إذا تمَّ لك -أيها الرسول- النصر على كفار قريش، وتم لك فتح «مكة».
والفتح على الراجح فتح مكة، وكان في رمضان سنة ٨ ه.
فهذا الفتح هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به المؤمنين وأذل به الكافرين، وطهر الله به بيته من الرجس والأصنام.
قال الشوكاني: فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم، والفتح هو فتح مساكن الأعداء، ودخول منازلهم.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، {وَالْفَتْحُ} ".
قال الثعلبي:" {إذا جاءَ نَصْرُ اللّه} على من عاداك وناوأك".
قال أبو هلال العسكري:" الفتح: الظفر بالمكان".
قال ابن فورك:" النصر: المعونة على العدو للظهور عليه، وذلك أن المعونة قد تكون
بالمال على نوائب الزمان، وقد تكون على العدو، وهي النصر دون المعونة الأخرى. و «الفتح»: الفرج الذي يمكن معه الدخول في الأمر بملك العدو".
وفي هذا الفتح، قولان:
أحدهما: فتح المدائن والقصور، قاله ابن عباس، وابن جبير.
قال مقاتل:" نزلت هذه السورة بعد فتح مكة والطائف".
قال أبو هلال العسكري:" كان فتح مكة سنة ثمان، ونزلت هذه سنة عشر بعد حجة الوداع، وقيل: المراد أنه يفتح لك الأمم والبلدان".
عن ابن عباس، قال: "بينا رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ قال: "اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، جاءَ نَصْرُ الله والفَتْحُ، جاءَ أَهْلُ اليَمَنِ"، قيل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: "قَوْمٌ

=
رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ طِبَاعُهُمْ، الإيمَانُ يَمَانٍ، والفِقْهُ يَمَانٍ، والحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ".
وقال الكلبي: "الأفواج: القبائل".
الثاني: فتح مكة، قاله الحسن، ومجاهد.
قال الثعلبي:" قال عامة المفسرين: فتح مكة".
قال ابن عاشور: "ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة".
قال السعدي:" في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به".
قال الحسن:" لما فتح الله على رسوله مكة قالت العرب بعضهم لبعض: ليس لكم بهؤلاء القوم يدان. فجعلوا يدخلون في دين الله أفواجا، أي: قبائل قبائل"، وفي لفظ: "أمة أمة".
قال الضحاك: "والأمة: أربعون رجلًا".
عن مجاهد: " {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} : يعني: فتح مكة".
قال ابن زيد:" النصر حين فتح الله عليه ونصره".
قال الطبري:" والفتح: فتح مكة".
قال النحاس:" هذه السورة دلالة على نبوّته ﷺ، لأنها نزلت قبل الفتح".
قال ابن كثير:" والمراد ب «الفتح» -هاهنا-: فتح مكة قولا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد
=

=

والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تَتَلَوّمُ بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي. الحديث» ".

قال الزجاج:" قيل: فأعلم الله - ﷻ - أنه إذَا جَاء فتح مكة ودخل الناس في الإسلام أفواجًا فقد قرب أجله ﷺ وكان يقول ذلك إنه قد نعيت إلى نفسي في هذه السورة".

عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه» ؛ قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر قول: سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال: "خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، وأستغفره وأتوب إليه، فقد رأيتها {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}: فتح مكة، {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} ".

وكانت قصة «الفتح»، على ما ذكره محمد بن إسحاق بن بشار والعلماء من أصحاب الأخبار: "أن رسول الله ﷺ لما صالح قريش عام الحديبية كان فيما اشترطوا أنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، وكان بينهما شرّ قديم، وكان السبب الذي هاج ما بين بكر وخزاعة أن رجلا من الحضرمي يقال له مالك بن عماد خرج تاجرا، فلما توسّط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزين الديلي وهم من أشراف بكر فقتلوه بعرفة عند أنصاب الحرم، فبينا بكر وخزاعة على ذلك من الشر حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به، فلما كان صلح الحديبيّة ووقعت تلك الهدنة اغتنمها بنو الديل من بني بكر من

=

=

خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم بأولئك النفر الذين أصابوا منهم بني الأسود بن رزين، فخرج نوفل بن معونة الديلي في بني الديل، وهو يومئذ قائدهم حتى بيّت خزاعة وهم على الوتير- ماء لهم بأسفل مكة-، فأصابوا منهم رجلا وتحاوروا واقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا حتى جاوزوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممن أعان من قريش بني بكر على خزاعة ليلتين بأنفسهم مشتركين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ومع عبيدهم قالوا: فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنا دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: أنه لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فيه فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه.

فلما دخلت خزاعة مكة لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد لما استحلّوا من خزاعة، وكانوا في عقدة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ وكان ذلك مما هاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس فقال لهم: إني بايعت محمدا وذكر الأبيات:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا... إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدًا... إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُوَكَّدَا... وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا... وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا

=

=

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدًا... وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: «إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب»، وأمر رسول الله الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه.

وقد قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي حين بلغه إسلام أم هاني بنت أبي طالب وأسمها: هند:

أَشَاقَتْكَ هِنْدٌ أَمْ أَتَاكَ سُؤَالُهَا... كَذَاكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَانْفِتَالُهَا

وَقَدْ أَرَّقَتْ فِي رَأْسِ حِصْنٍ مُمَنَّعٍ... بِنَجْرَانَ يُسْرِي بَعْدَ لَيْلٍ خَيَالُهَا

وَعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي... وَتَعْذِلُنِي بِاللَّيْلِ ضَلَّ ضَلَالُهَا

وَتَزْعُمُ أَنِّي إِنْ أَطَعْتُ عَشِيرَتِي... سَأُرْدَى وَهَلْ يُرْدِينِ إِلَّا زِيَالُهَا

فَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ... عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الْيَوْمَ حَالُهَا

وَإِنِّي لَحَامٍ مِنْ وَرَاءِ عَشِيرَتِي... إِذَا كَانَ مِنْ تَحْتِ الْعَوَالِي مَجَالُهَا

وَصَارَتْ بِأَيْدِيهَا السُّيُوفُ كَأَنَّهَا... مَخَارِيقُ وِلْدَانٍ وَمِنْهَا ظِلَالُهَا

وَإِنِّي لَأَقْلَى الْحَاسِدِينَ وَفِعْلَهُمْ... عَلَى اللهِ رِزْقِي نَفْسُهَا وَعِيَالُهَا

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِيَ غَيْرِ كُنْهِهِ... لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ تَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ... وَعَطَّفَتْ الْأَرْحَامَ مِنْكَ حِبَالُهَا

فَكُونِي عَلَى أَعْلَى سَحِيقٍ بِهَضْبَةٍ... مُلَمْلَمَةٍ غَبْرَاءَ يَبْسٍ بِلَالُهَا

قال ابن إسحاق: " وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، من بني سليم سبع مائة. ويقول بعضهم: ألف، ومن بني غفار أربع مائة، ومن أسلم أربع مائة، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم، وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد، قالوا: وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من

=

=

شهر رمضان سنة ثمان وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشر ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن وثقيف وقد نزلوا حنين".
وكان مما قيل من الشعر في يوم الفتح قول حسان بن ثابت الأنصاري:

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ ... إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ... تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ... خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
فَدَعْ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ... يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
لِشَعْثَاءَ الَّتِي قَدْ تَيَّمَتْهُ... فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا... فَهُنَّ لِطِيبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ
نُوَلِّيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أُلِمْنَا... إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ
وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا... وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ
عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءٌ
يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ... يَلْطِمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ... يُعِينُ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللهِ فِينَا... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْت عَبْدًا... يَقُولُ الْحَقَّ أَنْ يَقَعَ الْبَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ... فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ يَسَّرْت جُنْدًا... هُمْ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

=

=

فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي... مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْك عَبْدًا... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْت لَهُ بِكُفْءٍ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا فِدَاءُ
هَجَوْت مُبَارَكًا بَرًّا حَفِيًّا... أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعِرْضِي... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ... وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ

قال ابن إسحاق: "وبلغني عن الزهري أنه قال: لما رأى رسول الله ﷺ النساء يلطمن الخيل بالخمر تبسم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قوله تعالى: {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا} [النصر: ٢]

أي: (ورأيت) أيها الرسول ﷺ، والرؤية قلبية، ويحتمل أنها بصرية.

(الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أي: ورأيت الناس يدخلون في دين الله جماعات كثيرة، فيسلمون من غير قتال.

وهذا كناية عن انتشار الإسلام، وذهاب أمر الجاهلية.

والناس: هم العرب عامة؛ للحديث الذي رواه البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن سلمة الذي قال: وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم.

ودين الله: هو الإسلام، لقوله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) ولقوله: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه).

=

=

قال الطبري: يقول:" {وَرَأَيْتَ النَّاسَ} من صنوف العرب وقبائلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار {يَدْخُلُونَ} في دين الله الذي ابتعثك به، وطاعتك التي دعاهم إليها زُمَرًا، فوجًا فوجًا".

قال الفراء:" يقول: ورأيت الأحياء يسلم الحي بأسره، وقبل ذلك إنما يسلم الرجل بعد الرجل".

قال ابن فورك:" «الدين»: الطاعة التي يستحق بها الجزاء، كما قيل: {فِي دِينِ الْمَلِك} [يوسف: ٧٦]، أي: في طاعته. و «الفوج»: جماعة من جماعة، وإذا قيل: «أفواج»: فهو جماعات، وهكذا كان الناس

يدخلون في الدين جماعة بعد جماعة من جملة القبيلة حتى تكامل الإسلام الجميع.. والدخول في الدين: الاعتقاد لصحته مع استشعار العمل به".

قال أبو عبيدة:" {أَفْواجًا}: جماعات في تفرقة".

قال الثعلبي:" زمرا وأرسالا، القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال".

قال الزجاج: يعني:" جماعات كثيرة، أي بعد أن كانوا يدخلون وَاحِدًا واحِدًا. واثنين اثنين، صارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام".

عن مجاهد: " {فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا}، قال: يعني: زُمرًا زُمرًا، فعند ذلك موتك يا محمد".

قال ابن عباس:" يعني: إسلام الناس".

قال مقاتل:" يعني: أهل اليمن من كل وجه زمرا، القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم، ليس بواحد ولا اثنين ولا ثلاثة، فقد حضر أجلك".

قال الحسن: "لمّا فتح رسول الله ﷺ مكة، قالت العرب بعضها لبعض: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله سبحانه أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجًا".

=

=

عن أبي عمار، حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: "قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله، فسلم عليّ، فجعلت أحدّثهُ عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون منه أفواجًا".

قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣]

أي: إذا وقع ذلك فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره، إنه كان كثير التوبة على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم.

قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [النصر: ٣]، أي:" إذا وقع ذلك فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره".

وفي أمره بهذا التسبيح والاستغفار وجهان:

أحدهما: أنه أراد بالتسبيح: الصلاة، أي: صل شكرا له ما جدد لك من نعمة، قاله ابن عباس، وبالاستغفار: مداومة الذكر.

قال الفراء:" يقول: فصل. وذكروا أنه قال- ﷺ حين نزلت هذه السورة: نعيت إلى نفسي".

الثاني: أنه أراد صريح التسبيح، الذي هو التنزيه والاستغفار من الذنوب.

قال مقاتل:" يقول: فأكثر ذكر ربك، {وَاسْتَغْفِرْهُ} من الذنوب".

قال ابن فورك: "أي: نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك إياه".

قال الطبري:" فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده. فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق مَنْ قبلك من رُسله من الموت، وسله أن يغفر ذنوبك".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

=

=

عن المسيّب -من طريق الهُذيل- قال: " {سُبْحانَ اللهِ} إنصاف لله من السوء".

عن عائشة قالت: "كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهمّ اغفر لي»، يتأول القرآن".

عن عائشة، قالت:" كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، فقلت: إنك تُكثر من هذا، فقال: «إنَّ رَبي قَدْ أَخْبَرَنِي أَنِّي سأرَى عَلامةً فِي أُمَّتِي، وأَمَرَنِي إذَا رأَيْتُ تِلكَ الْعَلامَةَ أنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ، وأسْتَغْفِرَهُ إنَّهُ كَانَ تَوَّابا، فَقَدْ رأَيْتُها: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} » ".

عن أم سلمة، قالت: "كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: "سبحان الله وبحمده"، فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: سبحان الله وبحمده، قال: "إني أمرت بها"، فقال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، إلى آخر السورة".

عن أبي العالية، قال: "لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، ونعيت إلى النبيّ ﷺ نفسه، كان لا يقوم من مجلس يجلس فيه حتى يقول: «سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» ".

عن عمرو، قال: "لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، كان النبيّ ﷺ مما يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التوّاب الرحيم» ".

عن ابن مسعود، قال: "لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، كان يكثر أن يقول: «سبحانك اللهمّ وبحمدك، اللهمّ اغفر لي، سبحانك ربنا وبحمدك، اللهمّ اغفر لي، إنك أنت التواب الغفور» ".

وفي أمره بهذا بعد النصر والفتح وجهان:

=

=

أحدهما: ليكون ذلك منه شكرًا لله تعالى على نعمه، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر.

قال ابن فورك:" وجه الاستغفار بالنصر والفتح، أن النعمة تقتضي القيام بحق النعمة المنافية للمعصية، فكأنه قيل: قد حدث أمر يقتضي الاستغفار مما جدده الله لك فاستغفره، بالتوبة يقبل ذلك منك، ومخرجه مخرج الخطاب للنبي ﷺ وهو يعلم لجميع أمته".

قال السعدي: "فيه إشارة أن النصر يستمر لهذا الدين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ} وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرًا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل. ومع هذا فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال".

وقال الزمخشري:" الأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين: من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته، ولأنّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس، فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»، وروى أنه لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه استبشروا وبكى العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عم»؟ قال: نعيت إليك نفسك. قال: «إنها لكما تقول» فعاش بعدها سنتين لم يرفيهما ضاحكا مستبشرا".

الثاني: أنه نعى إليه نفسه، ليجد في عمله.

قال السعدي: " وفيه الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه

=

=

ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به. وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك. فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» ".

قال الزجاج:" فأمره الله ﷻ أن يكثر التسبيحَ والاستغفار ليختم له في آخرِ عمره بالزيادة في العمل الصالح باتباع ما أمره به".

قال الحسن: "أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة، ليختم له بالزيادة في العمل الصالح".

قال ابن عباس:" وداعٌ من الله، ووداعٌ من الدنيا، فلم يعش بعدها إلا سنتين مستديمًا التسبيح والاستغفار كما أُمِرَ، وكان قد لبث أربعين سنة لم يوح إليه، ورأى رؤيا النبوة سنتين، ومات في شهر ربيع الأول وفيه هاجر".

عن ابن عباس، قال: "لما نزلت {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، علم النبيّ أنه نعيت إليه نفسه، فقيل له: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ...}، إلى آخر السورة".

عن ابن عباس: " {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١] إلى آخرها، قال: «علم وحدّ حده الله لنبيه، ونعى إليه نفسه، إنك لن تعيش بعد فتح مكة إلا قليلا»".

عن ابن عباس:" أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألهم عن قول الله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: فأنت يا بن عباس ما تقول: قلت: مَثَلٌ ضُرب لمحمد ﷺ نعيت إليه نفسه".

عن ابن عباس: " {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، قال: ذاك حين نَعَى لَه نفسه يقول: إذا {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا}، يعني: إسلام الناس، يقول: فذاك

=

=

حين حضر أجلك {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} ".

قال ابن عباس:" لما نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}، قال رسول الله ﷺ: «نُعِيَتْ إِليَّ نَفْسِي، كأنّي مَقْبُوضٌ فِي تِلكَ السَّنَةِ» ".

عن معمر، عن الحسن، قال: "كان إذا قرأ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١] قال: «أجيب رسول الله وقورب له فقارب، والله ما قورب له، والحمد لله الذي أقر بعينه وأسرع به إلى كرامته، وحيث وعد بحظه".

عن الحسن، قال: "لَمّا أُنْزِل على النبي ﷺ: {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا} قال: قرب لرسول الله ﷺ أجلُه، وأُمر بكثرة التسبيح والاستغفار".

قال الضحاك:" كانت هذه السورة آية لموت رسول الله ﷺ".

عن مجاهد: {وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، قال: اعلم أنك ستموت عند ذلك".

قال مقاتل: " كانت هذه السورة آية موت النبيﷺ فقرأها على أبي بكر وعمر ففرحا، وسمعها عبد الله بن عباس فبكى، فقال له النبيﷺ: صدقت. فعاش النبيﷺ بعدها ثمانين يوما. ومسح رسول اللهﷺ بيده على رأس ابن عباس وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ".

قال ﷺ (أني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري.

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده (اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره وعلانيته وسره) رواه مسلم.

وكان ﷺ يقول (رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي،

=

=

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير) متفق عليه.

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣]، أي:" إنه كان كثير التوبة على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم".

قال مقاتل: أي: " للمستغفرين".

قال الطبري: "يقول: إنه كان ذا رجوع لعبده، المطيع إلى ما يحب".

قال السمعاني:" أي: توابا على عباده، ويقال: التواب هو المسهل لسبيل التوبة، ويقال: هو القابل لها".

قال ابن فورك:" أي: إنه يقبل توبة من بقي كما قبل توبة من مضى".

قال سهل:" أي: رجاعًا يقبل التوبة، كلما تاب العبد إليه. واعلم أن إلهنا أكرم من أن يكون معك على نفسك، فإنه قال: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ} [البقرة: ٢٢٢] فإن كنت عليها كان معها بالعفو، وإن كنت معها على أمر الله ونهيه كان عليك، فمن وافق أمر الله على هواه كان ناجيًا، ومن وافق هواه على أمر الله كان هالكًا، وإنّ أمر الله تعالى مرّ وهوى النفس حلو، فما مثالها إلا كالأطعمة اللذيذة قد يحصل فيها الصبر، والدواء يشرب مع مرارته لما جعل فيه من المنافع. وكان بعض الصالحين يقول: وا سوأتاه، وإن عفوت. فمنهم من يحذر الرد، ومنهم من يبكي خجلًا، وإن عفي عنه".

روي عن أبي زرعة قال: "إن أول شيء كتب: أنا التواب أتوب على من تاب".

عن ابن شهاب قال: "قراءة {قل يا أيها الكافرون}، {إذا جاء نصر الله والفتح}، فإنهما يغنيان من الفقر".

سورة المسد(١)

(١) قال ابن عطية:" هي مكية بإجماع ".
قال ابن الجوزي:" هي مكّيّة بإجماعهم".
قال ابن عاشور:" هي مكية بالاتفاق".
* وآياتها خمس بالإجماع. وكلماتها ثلاث وعشرون. وحروفها سبع وسبعون. فواصل آياتها (دبّ).
* تسمى «سورة المسد» سميت في المصاحف وأكثر من التفاسير: «سورة المسد»، ووجه تسميتها لقوله تعالى: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد: ٥].
وتسمى سورة «تبت» سميت هذه السورة في جمع من المصاحف «سورة تبت»، وكذلك عنونها الترمذي في «جامعه»، وفي بعض كتب التفسير، تسمية لها بأول كلمة فيها، قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١].
وتسمى سورة «أبي لهب» وسماها بعض من المفسرين «سورة أبي لهب» على تقدير: سورة ذكر أبي لهب، ووجه تسميتها لوقوع هذه الكلمة في أول السورة، قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١].
وتسمى سورة «اللهب» وقد عنونها بعض المفسرين: «سورة اللهب». ووجه تسميتها لوقوع كلمة «لهب» في بداية السورة، وذلك في قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١].
وتسمى سورة «تبت يدا أبي لهب» وردت هذه التسمية عند ابن عباس، وابن الزبير (، وعائشة، -رضي الله عنهم جميعا، وبذلك عنونها البخاري في «صحيحه»، والماتريدي، والثعالبي في تفسيريهما.
* مقصود السّورة: تهديد أَبى لَهَب على الجفاءِ والإِعراض، وضياع كَسْبه وأَمره، وبيان ابتلائه يوم القيامة، وذمّ زَوْجه فى إِيذاءِ النبىّ ﷺ، وبيان ما هو مدّخَر لها من
=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١).

{لَمَّا دَعَا النَّبِيّ ﷺ قَوْمه وَقَالَ إِنِّي نَذِير لَكُمْ بَيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد فَقَالَ عَمّه أَبُو لَهَب تَبًّا لك ألهذا دعوتنا نزل {تَبَّتْ} خَسِرَتْ {يَدَا أَبِي لَهَب} أَيْ جُمْلَته وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْيَدَيْنِ مَجَازًا لِأَنَّ أَكْثَر الْأَفْعَال تُزَاوَل بِهِمَا وَهَذِهِ الْجُمْلَة دُعَاء {وَتَبَّ} خَسِرَ هُوَ وَهَذِهِ خَبَر كَقَوْلِهِمْ أَهْلَكَهُ الله وَقَدْ هَلَكَ وَلَمَّا خَوَّفَهُ النَّبِيّ بِالْعَذَابِ فَقَالَ إِنْ كان ما يقول بن أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْتَدِي مِنْهُ بِمَالِي وَوَلَدِي نزل.

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢).

{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَاله وَمَا كَسَبَ} أَيْ وَكَسَبَهُ أَيْ وَلَده مَا أَغْنَى بِمَعْنَى يُغْنِي.

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣).

{سَيَصْلَى نَارًا ذَات لَهَب} أَيْ تُلَهَّب وَتُوقَد فَهِيَ مَآل تَكْنِيَته لِتَلَهُّبِ وَجْهه إِشْرَاقًا وَحُمْرَة.

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤).

{وَامْرَأَته} عَطْف عَلَى ضَمِير يَصْلَى سَوَّغَهُ الْفَصْل المفعول وَصِفَته وَهِيَ أُمّ

=

سوءِ العاقبة.

* المتشابه: قوله تعالى: ({تَبَّتْ} وبعده: {وَتَبّ} هذا ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل جرى مجرى الدّعاءِ، والثَّانى خَبَر، أَى وقد تبّ. وقيل تبت يدا أَبى لهب أَعملُه، وتبّ أَبو لهب. وقال مجاهد: وتبّ ابنه (وتبّ ابنه) بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٥٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

جَمِيل {حَمَّالَة} بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب {الْحَطَب} الشَّوْك وَالسَّعْدَان تُلْقِيه فِي طَرِيق النَّبِيّ ﷺ.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥).

{فِي جِيدهَا} عُنُقهَا {حَبْل مِنْ مَسَد} أَيْ لِيف وَهَذِهِ الْجُمْلَة حَال مِنْ حَمَّالَة الْحَطَب الَّذِي هُوَ نَعْت لِامْرَأَتِهِ أَوْ خَبَر مُبْتَدَأ مقدر[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: ما كان أبو لهب إلا من كفار قريش، ما هو حتى خرج من الشعب حين تمالأت قريش؛ حتى حصرونا في الشعب وظاهرهم، فلما خرج أبو لهب من الشعب؛ لقي هندًا بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه، فقال: يا ابنة عتبة! هل نصرت اللات والعزى؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيرًا يا أبا عتبة! قال: إن محمدًا يعدنا أشياء لا نراها كائنة، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فما ذاك وصنع في يدي ثم نفخ في يديه، ثم قال: تبًا لكما ما أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد؛ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)} قال ابن عباس: فحصرنا في الشعب ثلاث سنين وقطعوا عنا الميرة؛ حتى إن الرجل ليخرج منا بالنفقة فما يبايع حتى يرجع، حتى هلك فينا من هلك.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٦٥) ونسبه لأبي نعيم في "الدلائل".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد إلى الجبل؛ فنادى: "يا صباحاه! "؛ فاجتمعت إليه قريش، فقال: "أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم وممسّيكم أكنتم تصدقوني؟ "، قالوا: نعم، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"؛ فقال أبو لهب -عليه لعنة الله- للنبي ﷺ: تبًا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)}.

أخرجه البخاري (رقم ١٣٩٤، ٣٥٢٥، ٤٨٠١، ٤٩٧١، ٤٩٧٢، ٤٩٧٣)، =

=

ومسلم (رقم ٢٠٨/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال: في قول الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)}؛ قال: التب: الخسران، قال: قال أبو لهب للنبي ﷺ: ماذا أعطى يا محمد! إن آمنت بك؟ قال: "كما يُعطى المسلمون"، فقال: ما لي عليهم فضل، قال: "وأي شيء تبتغي؟ "، قال: تبًا لهذا من دين، تبًا أن أكون أنا وهؤلاء سواء؛ فأنزل الله ﷻ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)} يقول بما عملت أيديهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٧): ثني يونس نا ابن وهب عن عبد الرحمن به.

وهذا ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف عبد الرحمن.

وعن رجل من همدان يقال له: يزيد بن زيد: أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي ﷺ الشوك؛ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)} إلى: {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢١٩): ثنا أبو كريب ثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق السبيعي عن رجل به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علل:

الأولى: جهالة هذا الرجل.

الثانية: الإرسال.

الثالثة: أبو إسحاق؛ مدلس وكان قد اختلط، ورواية إسرائيل عنه بعد الاختلاط.

وذكر السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٧): أن ابن المنذر أخرج عن عكرمة مثله.

قلنا: وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: قام رسول الله ﷺ فقال: "يا آل غالب! يا آل لؤي! يا آل مرة! يا آل كلاب! يا آل عبد مناف! يا آل قصي! إني لا أملك لكم من

=

=

الله منفعة ولا من الدنيا نصيبًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله"، فقال أبو لهب: تبًا لك؛ ألهذا دعوتنا؟! فأنزل الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٨، ٣٥٩) من طريق يزيد بن زريع عن الكلبي عن أبي صالح عنه به. والكلبي كذاب، ونحوه شيخه أبو صالح.

* قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: ١]، أي:" خسرت وخابت يدا أبي لهب وضل عمله وسعيه (وتب) أي وقد تب تحقق خسارته وهلاكه وشقي بإيذائه رسول الله محمدا ﷺ".

وأبو لهب هو أحد أعمام النبي ﷺ، واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة، وإنما سمي ب (أبي لهب) لإشراق وجهه ووضاءته، وكان شديد البغض والعداوة والكراهة للنبي ﷺ، شديد التنقص له ﷺ، كثير الأذية له.

عن أبي ربيعة الديلي قال: (رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب). رواه أحمد

وهذا دعاء عليه، وإنما خص التباب باليدين؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما، كما قال تعالى: (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) وقال تعالى: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا)، وقيل: إنه أخذ حجرا ليرمي به رسول الله ﷺ.

عن سفيان: " {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، قال: حين أرسل النبي ﷺ إليه وإلى غيره، وكان أبو لهب عمّ النبيّ ﷺ، وكان اسمه عبد العزى، فذكرهم، فقال أبو لهب: تبا لك، في هذا أرسلت إلينا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} ".

قال ابن عطية:" «أبو لهب»: هو عبد العزى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ،

=

=

ولكن سبقت له الشقاوة".

قال السعدي:" أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة -قبحه الله- فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة".

وفي تفسير قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: ١]، وجوه:

أحدها: أي: معناه: خسرت يدا أبي لهب. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، ومنه قول الشاعر:

تواعَدَني قوْمي ليَسْعوْا بمهجتي... بجارية لهم تَبّا لهم تبًّا.

قال ابن عطية:" {تَبَّتْ}، معناه: خسرت، والتباب: الخسار والدمار، وأسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضم ما يملك".

قال السعدي:" أي: خسرت يداه، وشقى".

عن ابن عباس: " {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، قال: خسرت".

قال قتادة:" خسرت يدا أبي لهب وخسر".

قال الكلبي:" خسرت يدا أبي لهب".

قال ابن زيد:" التبّ: الخسران".

عن ابن زيد:" {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، يقول: بما عملت أيديهم".

قال ابن كثير:" أي: خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه".

الثاني: ضلّت، وهو قول عطاء.

الثالث: هلكت، قاله ابن جبير.

الرابع: صفِرت من كل خير، قاله يمان بن رئاب.

حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء: "أنه لما قتل عثمان بن عفان سمع الناس هاتفًا يقول:

=

=

لقد خلّوْك وانصدعوا... فما آبوا ولا رجعوا

ولم يوفوا بنذرِهمُ... فيا تبًّا لما صَعنوا".

قال الحسن: "إنما سمي أبا لهب، من حسنه".

قال الماوردي: "وقيل إنه" كني أبا لهب لحُسنه وتلهّب وجنته".

وفي ذكر الله له بكنيته دون اسمه، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه.

الثاني: لأنه كان مسمى: بعبد هشم، وقيل: إنه عبد العزى فلذلك عدل عنه.

الثالث: لأن الاسم أشرف من الكنية، لأن الكنية إشارة إليه باسم غيره، ولذلك دعا الله أنبياءه بأسمائهم.

قوله تعالى: {وَتَبَّ} [المسد: ١]، أي:" وقد تحقق خسران أبي لهب".

وفي قوله: {وتَبَّ} [المسد: ١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه تأكيد للأول من قوله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، فقال بعده: {وتَبَّ}، تأكيدًا.

قال ابن عطية:" أي: حتم ذلك عليه".

قال ابن كثير:" {وَتَبَّ}، أي: وقد تب تحقق خسارته وهلاكه.

قال السعدي:" فلم يربح".

عن ابن عباس: " {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، قال: خسرت، {وَتَبَّ}، قال: خسر".

عن قتادة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، قال:" خسرت يدا أبي لهب وخسر".

قال سهل:" {تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ}، أي: خسرت يداه، {وَتَبَّ}، أي: خسر".

الثاني: يعني: تبت يدا أبي لهب بما منعه الله تعالى من أذى لرسوله، وتب بما له عند الله من أليم عقابه. حكاه الماوردي.

الثالث: يعني: وتبّ ولد أبي لهب، قاله مجاهد.

=

الرابع: أن الخسران الأول: خسران المال، والخسران الآخر: خسران النفس. قاله سهل.

الخامس: أن الأول: دعاء، والثاني: خبر. قاله الفراء.

قال الفراء:" كما تقول للرجل: أهلكك الله، وقد أهلكك، أو تقول: جعلك الله صالحا، وقد جعلك".

قال سهل: "التباب الأول كالدعاء عليه، والثاني كالإخبار عن وقوع الخسران في سابق التقدير، وهو جواب عن قول أبي لهب للنبي ﷺ: «تبًا لك»، حين جمعهم ودعاهم إلى التوحيد، وأنذرهم العذاب بقوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين} ".

وفي قراءة ابن مسعود: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَب»، جعله خبرًا، وهي على قراءة غيره تكون دعاء كالأول.

قال الماوردي: في قوله (يدا أبي لهب) وجهان:

أحدهما: يعني نفس أبي لهب، وقد يعبر عن النفس باليد كما قال تعالى {ذلك بما قدمت يداك} أي نفسك.

الثاني: أي عمل أبي لهب، وإنما نسب العمل إلى اليد لأنه في الأكثر يكون بها.

وقيل إنه كني أبا لهب لحسنه وتلهب وجنته.

قال ابن الجوزي: فإن قيل: كيف كناه الله ﷻ، وفي الكنية نوع تعظيم؟

فعنه جوابان.

أحدهما: أنه إن صح أن اسمه عبد العزى، فكيف يذكره الله بهذا الاسم وفيه معنى الشرك؟!

والثاني: أن كثيرا من الناس اشتهروا بكناهم، ولم يعرف لهم أسماء.

قال القرطبي: قوله تعالى (أبي لهب) قيل: سمي باللهب لحسنه، وإشراق وجهه.

=

وقد ظن قوم أن في هذا دليلا على تكنية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كناه الله بأبي لهب عند العلماء لمعان أربعة:

الأول: أنه كان اسمه عبد العزى، والعزى: صنم، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

الثاني: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه؛ فصرح بها.

الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله ﷻ عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بد من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يكن عن أحد منهم، ويدلك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يسمى ولا يكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه، لتقدسه عنها.

الرابع: أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته؛ بأن يدخله النار، فيكون أبا لها؛ تحقيقا للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه.

قوله تعالى: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ٢]

(ما أغنى عنه ماله) أي: ما دفع عنه العذاب ماله الذي كان يجمعه عنده.

(وما كسب) أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء من الجاه ومن الولد وغير ذلك.

والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل وولد وغير ذلك.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أيّ شيء أغنى عنه ماله، ودفع من سخط الله عليه {وَمَا كَسَبَ}، وهم ولده".

قال السعدي:" {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ} الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به".

قوله (وما كسب) أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء من الجاه ومن الولد وغير ذلك.

=

=

والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل وولد وغير ذلك.

- فالكثير قالوا في قوله (وما كسب) أي: أولاده، فالمعنى: ما أغنى ماله وما أغنى عنه ولده.

وقيل: إن الكسب عام فيدخل فيه الولد ويدخل فيه كل ما اكتسبه من زرع وماشية وميراث وتجارات.

وقيل: إن المراد بالكسب هنا العمل، أي: لم ينفعه العمل السيئ الذي عمله معاديا به رسول الله ﷺ.

قال ابن عطية:" يحتمل أن تكون {ما} نافية، ويكون الكلام خبرا عن أن جميع أحواله الدنياوية لم تغن عنه شيئا حين حتم عذابه بعد موته، ويحتمل أن تكون ما استفهاما على وجه التقرير أي أين الغناء الذي لماله ولكسبه؟ {وَما كَسَبَ}: يراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أو ليكون الكلام دالا على أنه أتعب فيه نفسه لم يجئه عفوا لا بميراث وهبة ونحوه، وقال كثير من المفسرين: المراد ب ما كَسَبَ بنوه، فكأنه قال: ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وولده".

عن مجاهد:" {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}، قال: ما كسب ولده".

قال مجاهد:" ولده هم من كسبه".

قال الكلبي:" كسبه ولده".

قال مقاتل:" يعني: أولاده عتبة وعتيبة ومعتب، لأن ولده من كسبه".

وعن قتادة: "عمله الذي ظن أنه منه على شيء، كقوله: {وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ} ".

قال الزمخشري:" استفهام في معنى الإنكار، ومحله النصب أو نفى وَما كَسَبَ مرفوع. وما موصولة أو مصدرية بمعنى: ومكسوبه. أو: وكسبه. والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله، يعنى: رأس المال والأرباح. أو ماشيته وما كسب من

=

=

نسلها ومنافعها، وكان ذا سابياء. أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه. أو ماله التالد والطارف".

قالت عائشة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-:" أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ابنه من كسبه، ثم قرأت: {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}، قالت: {وَمَا كَسَبَ}: ولده".

عن ابن عباس:" أنه رأى يوما ولد أبي لهب يقتتلون، فجعل يحجز بينهم ويقول: هؤلاء مما كسب".

عن أبي الطفيل، قال: "جاء بنو أبي لهب إلى ابن عباس، فقاموا يختصمون في البيت، فقام ابن عباس، فحجز بينهم، وقد كُفّ بصره، فدفعه بعضهم حتى وقع على الفراش، فغضب، وقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث".

قوله تعالى: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: ٣ - ٤] أي: سيدخل نارًا جهنم ذات اللَّهب المشتعل، هو وامرأته التي كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق النبي ﷺ؛ لأذيَّته.

قوله تعالى: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} [المسد: ٣]، أي:" سيدخل نارًا جهنم ذات اللَّهب المشتعل".

قال الطبري:" يقول: سيصلى أبو لهب نارا ذات لهب".

قال الزجاج:" أي: وولده سيصلى نارًا ذات لهب".

قال السعدي:" أي: ستحيط به النار من كل جانب".

قال الزمخشري:" «السين»: للوعيد، أي: هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته".

قوله تعالى: {سَيَصْلَى} [المسد: ٣]، وجهان:

أحدهما: صلي النار، أي حطبا ووقودا، قاله ابن كيسان.

الثاني: يعني: تصليه النار، أي: تنضجه، وهو معنى قول ابن عباس، فيكون على الوجه الأول صفة له في النار، وعلى الوجه الثاني صفة للنار

=

=

وفي تفسير قوله تعالى: {نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} [المسد: ٣]، وجهان:

أحدهما: ما في هذه الصفة من مضارعة كنيته التي كانت من نذره ووعيده.

الثاني: ذات ارتفاع وقوة واشتعال، فوصف ناره ذات اللهب بقوتها، لأن قوة النار تكون مع بقاء لهبها.

قال ابن كثير:" أي: ذات شرر ولهيب وإحراق شديد".

وهذه الآية تشتمل على أمرين:

أحدهما: وعيد من الله حق عليه بكفره.

الثاني: إخبار منه تعالى بأنه سيموت على كفره، وكان خبره صدقًا، ووعيده حقًا.

قال العلماء: "وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهرًا ولا باطنًا، لا مسرًا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة".

لم تنفعه قرابته من النبي ﷺ لما كفر وعاند وجحد الحق، فهو بالنار، وكذا أبو طالب عم النبي ﷺ مات على الكفر ولم تنفعه قرابته من النبي ﷺ، وقد أنزل الله في أبي طالب: (إنك لا تهدي من أحببت).

وقد أنزل الله على نبيه ﷺ: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم).

قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأعمام النبي ﷺ عشرة، أدرك الإسلام منهم أربعة، فبقي اثنان منهم على الكفر، وأسلم اثنان، فالكافران: أبو لهب، وأبو طالب، واللذان أسلما هما: العباس وحمزة.

قوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: ٤]، أي:" هو وامرأته التي كانت

=

=

تحمل الشوك، فتطرحه في طريق النبي ﷺ؛ لأذيَّته".

قال السعدي:" أي: هو {وَامْرَأَتُهُ}، وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ".

قال ابن كثير:" كانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَونًا عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال: {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مُهَيَّأة لذلك مستعدة له".

وفي قوله تعالى: {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: ٤]، أربعة وجوه:

أحدها: أنها كانت تحتطب الشوك فتلقيه في طريق النبي ﷺ ليلًا، ليدخل في قدمه إذا خرج إلى الصلاة. قاله ابن عباس، والضحاك، وابن زيد.

قال ابن عباس:" كانت تحمل الشوك، فتطرحه على طريق النبي ﷺ، ليعقره وأصحابه".

قال الضحاك:" كانت تحمل الشوك، فتلقيه على طريق نبي الله ﷺ ليعقِره".

قال ابن زيد:" كانت تأتي بأغصان الشوك، فتطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ".

عن عطية الجدلِّي:" {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}، قال: كانت تضع العضاه على طريق رسول الله ﷺ، فكأنما يطأ به كثيبا".

قال الخازن: قوله تعالى (حمالة الحطب) قيل: كانت تحمل الشوك، والحسك والعضاه بالليل، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتؤذيهم بذلك وهي رواية عن ابن عباس.

=

=

فإن قلت: إنها كانت من بيت العز والشرف فكيف يليق بها حمل الحطب؟

قلت يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها، وشرفها في نهاية البخل والخسة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشدة عداوتها لرسول الله ﷺ ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد بل تفعله هي بنفسها.

الثاني: أنها كانت تعيِّر رسول الله ﷺ بالفقر، فكان يحتطب فعُيِّرتْ بأنها كانت تحتطب، حكاه الطبري دون عزو، وعزاه الماوردي إلى قتادة.

قال ابن الجوزي:" وهذا القول ليس بالقوي، لأن الله تعالى وصفه بالمال".

الثالث: أنها كانت تحتطب الكلام وتمشي بالنميمة، قاله الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، فسمي الماشي بالنميمة: حمال الحطب، لأنه يشعل العداوة كما تشعل النار الحطب، قال الشاعر:

إنّ بني الأَدْرَم حَمّالو الحَطَبْ... هم الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ

عليهمُ اللعْنةُ تَتْرى والحرَبْ

وقال آخر:

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ على ظهر لأمةٍ... ولم تمشِ بَيْن الحيّ بالحَطَب والرطْبِ

عن مجاهد، وعكرمة، وسفيان: " {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} : كانت تمشي بالنميمة".

قال قتادة:" كانت تحطب الكلام، وتمشي بالنميمة".

قال قتادة:"أي: كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض".

قال الحسن:" كانت تحمل النميمة فتأتي بها بطون قريش".

قال الكلبي:" حمالة النميمة".

قل الفراء:" تحرش بين الناس، وتوقد بينهم العداوة".

قال الزمخشري:" يقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النائرة ويورّث الشر".

=

=

الرابع: أنه أراد ما حملته من الآثام في عداوة رسول اللهﷺ، لأنه كالحطب في مصيره إلى النار.

قال الطبري:" الصواب عندي، قول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، لأن ذلك هو أظهر معنى ذلك".

عن ابن إسحاق، عن يزيد بن زيد، وكان ألزم شيءٍ لمسروق، قال: "لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}، بلغ امرأة أبي لهب أن النبي ﷺ يهجوك، قالت: علام يهجوني؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطبا؟، {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} " فمكثت، ثم أتته، فقالت: إن ربك قلاك وودعك، فأنزل الله: {وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} ".

ويقرأ: «حَمَّالَةُ الْحَطَب».

قوله تعالى: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد: ٥].

أي: في عنقها حبل محكم الفَتْلِ مِن ليف شديد خشن، تُرْفَع به في نار جهنم، ثم تُرْمى إلى أسفلها.

قال الطبري:" يقول في عنقها؛ والعرب تسمي العنق: جيدا ؛ ومنه قول ذي الرمة:

فعَيْنَاكِ عَيْناها وَلَوْنُكِ لَوْنُها... وجِيدُكِ إلا أَنَّهَا غَيْرُ عَاطِلِ".

عن ابن زيد: " {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ}، قال: في رقبتها".

وفي قوله تعالى: {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد: ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنها حبال كانت تكون بمكة، رواه العَوفي عن ابن عباس.

قال الضحاك:" حبل من شجر، وهو الحبل الذي كانت تحتطب به".

قال ابن زيد:" حبال من شجر تنبت في اليمن لها مسد، وكانت تفتل؛ وقال: {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}: حبل من نار في رقبتها".

قال الكلبي:" يقال: الحبل الذي في الدلو".

=

=

قال أبو عبيدة:" المسد -عند العرب-: حبال يكون من ضروب".

أخرج الطبري بسنده الشعبي:" المسد: الليف".

وعن الشعبي:" أنه حبل من ليف النخل"، عزاه إليه الماوردي وأنشد أنشد قول الشاعر:

أعوذ بالله مِن لَيْل يُقرّبني... إلى مُضاجعةٍ كالدَّلْكِ بالمسَدِ

قال الأزهري:" المسد: حبل من جلود الإبل، أو من ليف، أو من خوص".

قال الزجاج:" «المسد» -في لغة العرب-: الحبل إذا كان من ليفِ المُقْلِ، وقد يقال لما كان من أدبار الإبل من الحبال: مَسَدٌ.

الثاني: أنها قلادة من وَدَع في عنقها، على وجه التعيير لها، قاله قتادة.

قال قتادة:" قلادة من وَدَع".

وذكر ابن كثير عن سعيد بن المسيب: "كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، يعني: فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار".

قال ابن عطية:" فإنما عبر عن قلادتها ب {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث".

الثالث: أن المَسَد: الحديد الذي يكون في البَكرة. قاله مجاهد، وعكرمة.

عن مجاهد: " {حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، قال: عود البكرة من حديد".

ونقل ابن كثير عن مجاهد:" {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البَكْرة مَسَدًا؟ ".

قال أبو المعتمر: "زعم محمد أن عكرمة قال: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، إنه الحديدة التي في وسط البكرة".

الرابع: أنه حبل ذو ألوان من أحمر وأصفر تتزين به في جيدها، قاله الحسن، ذكرت به على وجه التعيير -أيضًا-.

=

الخامس: أنها قلادة من جوهر فاخر، قالت: لأنفقنها في عداوة محمد، ويكون ذلك عذابًا في جيدها يوم القيامة. حكاه الماوردي.

السادس: أنه إشارة إلى الخذلان، يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء كالمربوطة في جيدها بحبل من مسد. حكاه الماوردي-أيضا-.

السابع: أي: في عنقها حبل من النار مثل الطوق. قاله سفيان، ومجاهد.

وقال سفيان:" حبل في عنقها في النار، مثل طوق طوله سبعون ذراعا".

وعن مجاهد-في رواية-:" {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}: من نار".

وذكر ابن كثير عن:" بعض أهل العلم في قوله تعالى: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}، أي: في عنقها حبل في نار جهنم تُرفَع به إلى شفيرها، ثم يرمى بها إلى أسفلها، ثم كذلك دائما".

قال أبو الخطاب بن دَحْية في كتابه التنوير - وقد رَوَى ذلك -:"وعُبر بالمسد عن حبل الدلو، كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب "النبات": كلّ مَسَد: رشاء، وأنشد في ذلك:

وَبَكْرَةً ومِحْوَرًا صِرَارًا... وَمَسَدًا مِنْ أبق مُغَارًا

قال: والأبقُ: القنَّبُ".

الثامن: أنه سلسلة من حديد. قاله عروة بن الزبير، ومجاهد، ومقاتل، وهي التي قال الله تعالى فيها: {سَبْعُونَ ذِرَاعًا} [الحاقة: ٣٢].

قل الفراء:" هي: السلسلة التي في النار".

قال الزجاج:" يعنى: أنها تسلك في السلسلة سبعون ذراعًا".

عن مجاهد: " {مِنْ مَسَدٍ}، قال: من حديد".

وقال عروة:" سلسلة من حديد من نار ذرعها سبعون ذراعا"، وفي لفظ:" سلسلة من حديد، ذرعها سبعون ذراعا". وفي لفظ: "سلسلة ذرعها سبعون ذراعا".

=

قال الحسن: "سميت «السلسلة»: مسدًا، لأنها ممسودة، أي: مفتولة".

قال ابن قتيبة:" وأما «المسد»: فهو عند كثير من الناس: اللّيف دون غيره. وليس كذلك، إنما المسد: كلّ ما ضفر وفتل من اللّيف وغيره، يقال: مسدت الحبل مسدا إذا فتلته، فهو مسد. كما تقول: نفضت الشّجرة نفضا وخبطتها خبطا. واسم ما يسقط من ثمرها وورقها: نفض وخبط، ومنه قيل: رجل ممسود الخلق، إذا كان مجدولا مفتولا، ويدلّك على أن المسد قد يكون من غير الليف، قول الرّاجز:

يا مسد الخوص تعوّذ منّي... إن تك لدنا ليّنا فإنّي

ما شئت من أشمط مقسئنّ فجعله هذا من خوص.

وقال آخر:

ومسد أمرّ من أيانق... لسن بأنياب ولا حقائق

فجعله هذا من جلود الإبل.

أراد الله، تبارك وتعالى، بهذا الحبل السلسلة التي ذكرها، فقال: {فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعًا فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة: ٣٢]، فيجوز أن يكون سمّاها مسدا، وإن كانت حديدا أو نارا أو ما شاء الله أن تكون، بالضّفر والفتل" (.

قال الزمخشري:" المسد: الذي فتل من الحبال فتلا شديدا، من ليف كان أو جلد، أو غيرهما ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون: تخسيسا لحالها، وتحقيرا لها، وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها، وهما في بيت العز والشرف. وفي منصب الثروة والجدة. ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبى لهب بحمالة الحطب، فقال:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي... أم ما تعيّر من حمّالة الحطب

=

=

غرّاء شادخة في المجد غرّتها... كانت سليلة شيخ ناقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى: أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل من ما مسد من سلاسل النار: كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو حبل جُمع من أنواع مختلفة ولذلك اختلف أهل التأويل في تأويله على النحو الذي ذكرنا".

قال السعدي:" ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة".

ورد في سيرة ابن هشام:" جعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني المطلب دونه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، ومنهم من سمى لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار، فكان ممن سمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت -فيما بلغني- تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث تمر، فأنزل الله تعالى فيهما: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد: ١ – ٥] ".

قال ابن إسحاق: "فذكر لي: أن أم جميل، حمالة الحطب، حين سمعت ما نزل

=

=

فيها، وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي

يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَممًا عَصَينا * وأمرَه أبَينا * ودينَه قَلَيْنَا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني؟ لقد أخذ الله ببصرها عني.

قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مذمما، ثم يسبونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لما صرف الله عني أذى قريش، يسبون مذمما، وأنا محمد» ".

روي عن الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: "لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول (:

مُذَممًا أبَينَا

ودينَه قَلَينا

وَأمْرَه عَصَينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: "إنها لن تراني". وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} [الإسراء: ٤٥]. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني؟ قال:

=

=

لا ورب هذا البيت ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فعثَرَت أم جميل في مِرْطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تَعس مُذَمَّم. فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصانُ فما أكلَّم، وثَقَافُ فما أعلَّم، وكلنا من بني العم، وقريش بعد أعلم".

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تَنَحَّيت لا تُؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: "إنه سَيُحال بيني وبينها". فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما نَطَق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر، رضي الله عنه: ما رأتك؟ قال: "لا ما زال ملك يسترني حتى ولت".

وقال مقاتل:" فلما نزلت هذه الآية في أبي لهب قيل لها: إن محمدا قد هجا زوجك، وهجاك، وهجا ولدك، فغضبت وقامت فأمرت وليدتها أن تحمل ما يكون في بطن الشاة من الفرث والدم والقذر، فانطلقت لتستدل على النبي ﷺ لنلقى ذلك عليه فتصغره، وتذله به، لما بلغها عنه، فأخبرت أنه في بيت عند الصفا، فلما انتهت إلى الباب سمع أبو بكر - رحمة الله عليه- كلامها، وكان النبي ﷺ داخل البيت فقال أبو بكر - رحمة الله عليه-: يا رسول الله إن أم جميل قد جاءت، وما أظنها جاءت بخير. فقال: النبي ﷺ: اللهم خذ ببصرها. أو كما قال. ثم قال لأبي بكر - رحمة الله عليه-: دعها تدخل، فإنها لن تراني، فجلس النبي -ﷺ وأبو بكر - رحمة الله عليه- جميعا، فدخلت أم جميل البيت، فرأت أبا بكر - رحمة الله عليه- ولم تر النبي ﷺ، وكانا جميعا في مكان واحد فقالت يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقال: وما أردت منه يا أم جميل؟ قالت: إنه بلغني أنه هجاني، وهجا زوجي، وهجا أولادي، وإني جئت بهذا الفرث لألقيه على وجهه، ورأسه أذله

=

=

بذلك. فقال لها: والله، ما هجاك، ولا هجا زوجك، ولا هجا ولدك. قالت: أحق ما تقول يا أبا بكر. قال: نعم. فقالت: أما إنك لصادق، وأنت الصديق، وما أرى البأس إلا وقد كذبوا عليه. فانصرفت إلى منزلها، ثم إنه بدا لعتبة بن أبي لهب أن يخرج إلى الشام في تجارة، وتبعه ناس من قريش حتى بلغوا الصفاح فلما هموا أن يرجعوا عنه إلى مكة، قال لهم عتبة: إذا رجعتم إلى مكة، فأخبروا محمدا بأنى كفرت ب {وَالنَّجْمِ إِذا هَوى}، وكانت أول سورة أعلنها رسول الله- ﷺ، فلما بلغ النبيﷺ ذلك قال: اللهم سلط عليه كلبك يأكله، فألقى الله- ﷻ- في قلب عتبة الرعب لدعوة النبي- ﷺ وكان إذا سار ليلا ما يكاد ينزل بليل، فهجر بالليل، فسار يومه وليلته، وهم أن لا ينزل حتى يصبح، فلما كان قبيل الصبح، قال له أصحابه: هلكت الركاب، فما زالوا به حتى نزل، وعرس، وإبله وهو مذعور، فأناخ الإبل حوله مثل «السرادق وجعل الجواليق دون الإبل مثل السرادق ثم أنام الرجال حوله دون الجواليق، فجاء الأسد ومعه ملك يقوده، فألقى الله- ﷻ- على الإبل السكينة،

فسكنت، فجعل الأسد يتخلل الإبل، فدخل على عتبة وهو في وسطهم فأكله مكانه. وبقي عظامه وهم لا يشعرون، فأنزل الله- ﷻ- في قوله حين قال لهم: قولوا لمحمد إنى كفرت بالنجم إذا هوى، يعني القرآن إذ نزل، أنزل فيه: {قُتِلَ الْإِنْسانُ} يعني لعن الإنسان {مَا أَكْفَرَهُ}، يعني: عتبة يقول أي شيء أكفره بالقرآن، إلى آخر الآيات".

(تنبيه): هذه السورة آية ظاهرة على نبوته ﷺ.

قال ابن كثير: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: (سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد) فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن

=

سورة الإخلاص[(١)]

=

يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهرا ولا باطنا، لا مسرا ولا معلنا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.

قال الثعلبي: وفي هذه السورة دلالة واضحة على نبوة نبينا محمد ﷺ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن مصير أبي لهب وامرأته الى النار وكانا من أحرص الناس على تكذيب النبي ﷺ فلم يحملهما ذلك على اظهار الإيمان حتى يكذبا رسول الله ﷺ بل داما على كفرهما حتى علم أن وعيد الله سبحانه إياهما وإخباره عن مصيرهما إلى النار حق وصدق.

قال ابن الجوزي: وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك، إذ لو قالا بألسنتهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقا في الرد على رسول الله ﷺ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطنا ولا ظاهرا، فأخبره بذلك.

وقال السعدي: في هذه السورة آية ظاهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

(فائدة): قال ابن تيمية: ليس في القرآن ذم من كفر به ﷺ باسمه إلا هذا وامرأته ففيه أن الأنساب لا عبرة بها بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم. كما قال تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب) الآية.

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر، وقتادة،
=

=

ومجاهد-بخلاف عنه-.

الثاني: مدنية، روي عن ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، والضحاك، والقرظي، والسدي.

قال ابن عاشور:" هي مكية في قول الجمهور... ومنشأ هذا الخلاف الاختلاف في سبب نزولها".

* وآياتها خمس فى عدّ المكِّيّين، والشَّاميّين، وأَربع عند الباقين. وكلماتها إِحدى عشرة وحروفها سبع وأَربعون. المختلف فيها آية {لَمْ يَلِدْ}. فواصل آياتها على الدال.

* تسمى «سورة الإخلاص» سميت في أكثر المصاحف وفي معظم كتب التفسير، وفي «جامع الترمذي»: «سورة الإخلاص»، واشتهر هذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة، لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى، أي: سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية.

وذكر الماوردي في تسميتها ب «سورة الإخلاص»، ثلاثة وجوه:

أحدها: لأن في قراءتها خلاصًا من عذاب الله.

الثاني: لأن فيها إخلاص لله من كل عيب ومن كل شريك وولد، قاله عبد الله ابن المبارك.

الثالث: لأنها خالصة لله ليس فيها أمر ولا نهي.

وتسمى سورة «قل هو الله أحد» وردت هذه التسمية في تفسير ابن أبي زمنين، «روح المعاني» للألوسي، و «صحيح البخاري»، وهي تسمية للسورة بأول آية منها، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١].

والمشهور في تسميتها في عهد النبي ﷺ وفيما جرى من لفظه، وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتها «سورة قل هو الله أحد».

=

=

ورد في الصحيح: «قل هو الله تعدل ثلث القرآن».

وهو ظاهر في أنه أراد تسميتها بتلك الجملة لأجل تأنيث الضمير من قوله: «تعدل» فإنه على تأويلها بمعنى السورة.

وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك، فذلك هو الاسم الوارد في السنة.

وتسمى سورة «التوحيد» وسميت في بعض المصاحف التونسية «سورة التوحيد»، وقد وردت هذه التسمية عند الرازي، والألوسي، كما ذكرها ابن العربي في «أحكام القرآن».

ووجه تسميتها، «سورة التوحيد»،لأنها تشتمل على إثبات أنه تعالى واحد، فهي سورة التوحيد والتنزيه لله- سبحانه وتعالى- وهذا هو الأصل الأول والركن الركين للإسلام لذلك ورد أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب قراءتها إذ الأصول العامة ثلاثة: التوحيد، تقرير الحدود وأعمال الخلق، وذكر أحوال يوم القيامة، ولا حرج على فضل الله الذي يهب لمن يقرؤها بتدبر وتفهم مثل ما يهبه لقارئ ثلث القرآن.

وتسمى سورة «الأساس» ذكرها الزمخشري، والرازي، في تفسيريهما، ووجه تسميتها ب «سورة الأساس»، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين.

قال الزمخشري:" وتسمى «سورة الأساس»، لاشتمالها على أصول الدين". ثم استدل على هذه التسمية، بما روي عن قتادة، عن عمرو بن غيلان الثقفي، رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قال وهو على منبر البصرة: «حدثنا هذا الرجل الصالح من أهل الكتاب، يعني كعبا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، أن الله ﷻ، أسس السماوات السبع، والأرضين السبع على هذه السورة «قل هو الله أحد»».

يعني: ما خلقت السماوات والأرضون إلّا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى

=

=

ومعرفة صفاته التي تضمنتها هذه السورة، وقيل: معنى تأسيسها عليها أنها إنما خلقت بالحق كما قال تعالى: {وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ} [الأنبياء: ١٦] {ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ} [الدخان: ٣٩]، وهو العدل والتوحيد، وهو إن لم يرجع إلى الأول لا يخلو عن نظر، وقيل: المراد أن مصحح إيجادهما أي بعد إمكانهما الذاتي ما أشارت إليه السورة من وحدته ﷻ واستحالة أن يكون له سبحانه شريك إذ لولا ذلك لم يمكن وجودهما لإمكان التمانع كما قرره بعض الأجلّة في توجيه برهانية قوله تعالى: {لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا} [الأنبياء: ٢٢]. وفيه بعد.

وهذا الحديث لا يدل دلالة صريحة على تسمية السورة ب «الأساس»، لأن معنى الحديث أنها الأساس الذي أسس عليه السماوات والأرض وذلك تعظيما وتشريفا لها، فلا تعد اسما للسورة-والله أعلم-.

وتسمى سورة «المقشقشة» في «الكشاف»: أن هذه السورة و «سورة الكافرون»، تسميان: المقشقشتين، لأنهما تقشقشان من الشرك والنفاق، أي: المبرئتين من الشرك ومن النفاق.

قال أبو عبيدة: " {قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ}، و {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، يقال لهما: «المشقشتان»، ومعناه المبرّئتان من الكفر والشكّ والنفاق كما يقشقش الهناء الجرب فيبرئه".

وتسمى سورة «الصمد» سماها البقاعي في «نظم الدرر» «سورة الصمد»، والرازي في «مفاتيح الغيب»، والألوسي في «روح المعاني».

ويشيع على ألسنة العامة تسميتها ب «الصمدية»، وهي تسمية عربية صحيحة نسبة إلى الصمد سمى الله تعالى نفسه فيها ويجدر القول بأن الفخر الرازي قام بإحصاء أسماء عديدة للسورة، وقد عقد لها فصلا، فذكر لها عشرين اسما بإضافة عنوان

=

=

سورة إلى كل اسم منها ولم يذكر أسانيدها. وفيما يأتي هذه الأسماء:

أحدها: «سورة التفريد»، وثانيها: «سورة التجريد»، وثالثها: «سورة التوحيد»، ورابعها: سورة الإخلاص: لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال، ولأن من اعتقده كان مخلصا في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار، ولأن ما قبله خلص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب.

قال النيسابوري:" ولشرف هذه السورة سميت بأسماء كثيرة، أشهرها: «» الإخلاص»، لأنها تخلص العبد من الشرك أو من النار". وخامسها: «سورة النجاة»: لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا، وعن النار في الآخرة. وسادسها: «سورة الولاية»: لأن من قرأها صار من أولياء الله، ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة. وسابعها: «سورة النسبة»: لما روينا أنه ورد جوابا لسؤال من قال: انسب لنا ربك، ولأنه ﷺ قال لرجل من بني سليم: «يا أخا بني سليم استوص بنسبة الله خيرا». وهو من لطيف المباني، لأنهم لما قالوا: انسب لنا ربك، فقال: نسبة الله هذا، والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها. وثامنها: سورة المعرفة: لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة. روى جابر: «أن رجلا صلى فقرأ: قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن هذا عبد عرف ربه». فسميت سورة المعرفة لذلك. وتاسعها: «سورة الجمال»: قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله جميل يحب الجمال»، فسألوه عن ذلك فقال: «أحد صمد لم يلد ولم يولد»، لأنه إذا لم يكن واحدا عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. وعاشرها: «سورة المقشقشة»: يقال: تقشيش المريض مما به، فمن عرف هذا حصل له البرء

=

=

من الشرك والنفاق، لأن النفاق مرض كما قال: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة: ١٠]. والحادي عشر: «المعوذة»: روي أنه ﷺ دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها، ثم قال: «تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها». والثاني عشر: «سورة الصمد»: لأنها مختصة بذكره تعالى. والثالث عشر: «سورة الأساس»: قال عليه الصلاة والسلام: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد». ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [مريم: ٩٠]، فوجب أن يكون التوحيد سببا لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]. والرابع عشر: «سورة المانعة»: روى ابن عباس أنه تعالى قال: لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران. والخامس عشر: «سورة المحضر»: لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت. والسادس عشر: «المنفرة»: لأن الشيطان ينفر عند قراءتها. والسابع عشر: «البراءة»: لأنه روي أنه ﷺ: رأى رجل يقرأ هذه السورة فقال: «أما هذا فقد برئ من الشرك». وقال ﷺ: «من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار». والثامن عشر: «سورة المذكرة»: لأنها تذكر العبد خالص التوحيد، فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه. والتاسع عشر: «سورة النور»: قال الله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: ٣٥]، فهو المنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك. وقال ﷺ: «إن لكل شيء نور، ونور القرآن قل هو الله أحد». ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان. والعشرون: سورة الأمان: قال ﷺ: «إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١).

النَّبِيّ ﷺ عَنْ رَبّه فَنَزَلَ {قُلْ هُوَ الله أَحَد} فَاَللهُ خَبَر هُوَ وَأَحَد بَدَل مِنْهُ أَوْ خَبَر

=

حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» ".

وبضم اسمها المشهور: «قل هو الله أحد»، تبلغ أسماؤها اثنين وعشرين.

وذكر الفيروزآبادي -أيضا- مجموعة من الأسماء، فقال:" ولها عشرون اسما: سورة التوحيد، وسورة التفريد، وسورة التجريد، وسورة الإخلاص، وسورة النجاة، وسورة الولاية، السابع: نسبة الرب، لقوله: «لكل شيء نسبة ونسبة الرب: قل هو». الثامن: سورة المعرفة. التاسع: سورة الجمال. العاشر: المقشقشة. وقد سبق في: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١]، الحادي عشرة: المعوذة. الثاني عشر: سورة الصمد. الثالث عشر: الأساس. الرابع عشر: المانعة. الخامس عشر: المحضرة؛ لأن الملائكة تحضر لاستماعها من القارئ. السادس عشر: المنفرة، لأنها تنفر الشيطان. السابع عشر: البراءة، أي: من النفاق. الثامن عشر: المذكرة. التاسع عشر: الشافية. العشرون: سورة النور؛ لما في الخبر: «إن لكل شيء نورا، ونور القرآن: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] ".

* معظم مقصود السّورة: بيان الوحدانيّة، وذكر الصّمد، وتنزيه الحقّ من الولد والوالد والولادة، والبراءَة من الشركة والشريك فى المملكة.

* المتشابه: قوله تعالى: {الله الصمد} كُرّر ليكون كلّ جملة بها مستقلَّة بذاتها، غير محتاجة إِلى ما قبلها. ثمّ نَفَى عنه سبحانه الولد بقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}، والصّاحبة بقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٥٤).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

ثَانٍ.

اللهُ الصَّمَدُ (٢).

{الله الصَّمَد} مُبْتَدَأ وَخَبَر أَيْ الْمَقْصُود فِي الْحَوَائِج عَلَى الدَّوَام.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣).

{لَمْ يَلِد} لِانْتِفَاءِ مُجَانَسَته {وَلَمْ يُولَد} لِانْتِفَاءِ الحدوث عنه.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤).

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد} أَيْ مُكَافِئًا وَمُمَاثِلًا وَلَهُ مُتَعَلِّق بِكُفُوًا وَقُدِّمَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مَحَطّ الْقَصْد بِالنَّفْيِ وَأُخِّرَ أَحَد وَهُوَ اِسْم يكن عن خبرها رعاية للفاصلة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}؛ فالصمد: الّذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)}؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء.

أخرجه أحمد في "المسند" (٥/ ١٣٤)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ٢٤٥)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١/ ٢٩٧، ٢٩٨ رقم ٦٦٣)، والترمذي في "سننه" (٥/ ٤٥١ رقم ٣٣٦٤)، والطّبريّ في "جامع البيان" (٣٠/ ٢٢١)، والدارمي في "الرد على الجهمية" (٢٣/ ٢٨)، وابن خزيمة في "التوحيد" (١/ ٩٥ رقم ٤٥)، وأبو القاسم البغوي في "معجم الصحابة" (١/ ١١ - ١٢/ ٨)، والعقيلي في "الضعفاء" (٤/ ١٤١)، وابن عدي في "الكامل في الضعفاء" (٦/ ٢٢٧)، والهيثم بن كليب في "مسنده" (٣/ ٣٧١ رقم ١٤٩٦)، والدارقطني في =

=

"الأفراد" (ق ٦٤/ أ)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢٢٢ - ٢٢٨ رقم ٦٥٤، ٦٥٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٦٠٥)، وأبو الشيخ في "العظمة" (١/ ٣٧٣، ٣٧٤ رقم ٨٨)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٤٠)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (١/ ٩٢ رقم ٥٠، ٢/ ٣٩ رقم ٦٠٧)، و"شعب الإيمان" (١/ ٢٧٦ رقم ١٠٠)، و"الاعتقاد" (ص ٤٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣٠٩، ٣١٠)، والخطيب في "التاريخ" (٣/ ٢٨١) من طريقين عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي به.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه أبو جعفر الرازي، ضعفه الإمام أحمد والنسائي والساجي وأبو زرعة وغيرهم، ولخصه الحافظ في "التقريب" بقوله: "صدوق سيئ الحفظ".

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي!!.

وقد خولف أبو جعفر الرازي، خالفه عبيد الله بن موسى؛ فرواه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية به مرسلًا ليس فيه أُبيّ بن كعب. أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢١ رقم ٣٣٦٥).

قال الترمذي: "وهذا أصح"، وهو كما قال: فعبيد الله ثقة، وتابعه أبو النضر هاشم بن القاسم -وهو ثقة ثبت- عن الربيع به مرسلًا.

أخرجه العقيلي (٤/ ١٤١)، وقال: "وهذا أولى"، وهو كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ.

فهذان ثقتان روياه عن الربيع مرسلًا، وخالفهما الرازي -وهو ضعيف- فلا حجة فيه، وتابعهما ثالث وهو مهران بن أبي عمر العطار عن الربيع به مرسلًا.

أخرجه الطبري (٣٠/ ٢١٢) لكن في إسناده ابن حميد الرازي؛ ضعيف، واتهمه بعضهم.

=

=

وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (١/ ٢٤٥) من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع به معضلًا. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإعضال.

الثانية: أبو جعفر الرازي؛ ضعيف الحفظ.

الثالثة: ابنه عبد الله فيه ضعف، لا سيما في روايته عن أبيه، وقد قال ابن حبان في "الثقات" (٨/ ٣٣٥): "يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه".

الرابعة: رواية أبي جعفر الرازي عن الربيع خاصة فيها اضطراب.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٦٩) وزاد نسبته لابن النذر.

قلنا: لكن للحديث شواهد يصح بها، ويدل على أن له أصلًا دون قوله: "والصمد".

منها: ما أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢٢١)، وعبد الله بن أحمد في "السنة" (٢/ ٥٠٨ رقم ١١٨٥)، وأبو يعلى في "المسند" (٤/ ٣٨، ٣٩ رقم ٢٠٤٤)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٦/ ٢٥ رقم ٥٦٨٧)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢١٧، ٢١٨ رقم ٦٥١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٣١٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢/ ٥٠٨، ٥٠٩ رقم ٢٥٥٢)، والذهبي في "معجم الشيوخ" (١/ ٤٠)، وأبو نعيم الأصبهاني في "حلية الأولياء" (٤/ ٣٣٥) جميعهم من طريق سريج بن يونس عن إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي عن جابر به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه مجالد بن سعيد الهمداني: ليس بالقوي، وقد تغير في آخر عمره، وابنه إسماعيل فيه ضعف يسير، ولخصه الحافظ بقوله: "صدوق يخطئ"؛ فهو شاهد لا بأس به؛ فيكون الحديث بمجموعهما حسن لغيره.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٦٩) وزاد نسبته لابن المنذر.

=

=

وقال أبو نعيم: "غريب من حديث الشعبي، تفرد به إسماعيل عن مجالد وعنه سريج".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٦): "رواه الطبراني في "الأوسط" - وفاته أنه عند أبي يعلى؛ فليستدرك عليه- فيه مجالد بن سعيد، قال ابن عدي: له عن الشعبي عن جابر [أحاديث صالحة] وباقي رجاله رجال الصحيح". اه.

وما بين معقوفتين زيادة من "الكامل".

وقال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٦٠٥): "إسناد متقارب".

وحسنه السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٦٩).

ومنها -أيضًا-: ما أخرج ابن عدي في "الكامل" (٤/ ١٥٦٦)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢١٩ رقم ٦٥٢)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٢/ ٣٨ رقم ٦٠٥) من طريق محمد بن موسى بن خالد الحرشي ثنا أبو خلف ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس بلفظ: أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ فيهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك الذي بعثك؛ فأنزل الله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}.

وهذا إسناد ضعيف، وذكر اليهود فيه منكر، والمحفوظ أن الذين جاؤوا هم المشركون، والآية مكية واليهود كانوا في المدينة.

وسبب ضعفه: أن مداره على عبد الله بن عيسى بن خالد الخزاز أبو خلف؛ ضعيف؛ كما في "التقريب" وغيره، لكن أصل السؤال ووقوع الحدث ثابت بما سبق، وبما أخرجه الطبراني؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٦٠٥)، والهروي في "ذم الكلام" (٣/ ٢٢١ رقم ٦٥٣) من طريق قيس بن الربيع عن عاصم عن شقيق عن عبد الله قال: قالت قريش للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؛ فنزلت.

وهذا سند حسن في الشواهد؛ لأجل قيس بن الربيع وهو صدوق تغيّر لما كبر،

=

=

أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.

وهذا يؤكد أن السائل هم قريش أو المشركون، وليس اليهود.

وأخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (١/ ٣٧٥ رقم ٨٩) من طريق قيس به مرسلًا ليس فيه ابن مسعود، ولعل هذا من أوهام قيس؛ لأن الراوي عنه في كلا الروايتين ثقة؛ فتارة كان يسنده، وتارة كان يرسله.

وعن عبد الله بن سلام ﵁؛ أنه قال لأحبار اليهود: إني أريد أن أُحْدِثَ بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدًا، فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله، فقمت مع الناس، قال: فلما نظر إليه رسول الله ﷺ؛ قال: "أنت عبد الله بن سلام؟ "، قال: قلت: نعم، قال: قلت: فانعت لنا ربك؟ قال: " {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} "؛ قال: وقرأه علينا رسول الله ﷺ.

أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (١/ ٢٩٨ رقم ٦٦٤)، والطبراني في "المعجم الكبير" (ص ١٠٠، ١٠١ رقم ١٣٨ - قطعة من المجلد ١٣)، والهروي في "ذم الكلام" (٣/ ٢١٥، ٢١٦ رقم ٦٥٠) من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه - في "ذم الكلام": حدثني أهل بيتي - عن جده به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام لم يدرك جده عبد الله بن سلام، وبه أعله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٤٧) فقال: "رواه الطبراني؛ ورجاله ثقات! إلا أن حمزة لم يدرك جده عبد الله بن سلام".

الثانية: جهالة حمزة هذا؛ فلم يروه عنه إلا ابنه محمد، ولم يوثقه إلا ابن حبان، ومعروف تساهله؛ ولذلك قال عنه الحافظ في "التقريب" (١/ ٢٠١): "مقبول" حيث يتابع، وإلا؛ فلين.

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٧٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وأبي نعيم في "الحلية".

وعن سعيد بن جبير؛ قال: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ما نسبة ربك؛ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}.

أخرجه الهروي في "ذم الكلام" (٣/ ٢١٣، ٢١٤ رقم ٦٤٨) من طريق محمد بن عثمان التنوخي الملقب ب (أبي الجماهر) عن سعيد بن بشير عن قتادة عن سعيد به. وهذا سند ضعيف -وذكر اليهود فيه منكر-؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: سعيد بن بشير؛ ضعيف لا سيما عن قتادة؛ قال ابن حبان في "المجروحين" (١/ ٣١٩): "كان رديء الحفظ فاحش الخطأ، يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه".

وقال ابن نمير؛ كما في "تهذيب الكمال" (١٠/ ٣٥٤): "يروي عن قتادة المنكرات".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢٢١) بسند ضعيف جدًا إلى سعيد؛ أنه قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ فقالوا: يا محمد! هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلقه؟! فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضبًا لربه؛ فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: "اخفض عليك جناحك يا محمد! "، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه، قال: "يقول الله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)} "، فلما تلا عليهم النبي ﷺ؛ قالوا: صف لنا ربك؛ كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم غضبًا؛ فأتاه جبريل؛ فقال له مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)} [الزمر: ٦٧].

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٧١) وزاد نسبته لابن المنذر.
وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ سبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب، منهم: العاقب والسيد من مذحج، فقالوا للنبي: صِفْ لنا ربك: أمن زبرجد، أم من ياقوت، أم من ذهب؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن ربي ليس من شيء كان، بان من الأشياء، ولم تكن الأشياء منه"؛ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١)} الذي ليس كمثله شيء، فقال: هذا أنت واحد، وهذا واحد! فقال رسول الله ﷺ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] كل أحد يموت إلا هو"، قالوا: زدنا في الصفة؛ فأنزل: {اللهُ الصَّمَدُ (٢)}، فقالوا: وما الصمد؟ قال رسول الله ﷺ: "السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج؛ كقوله: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣] "؛ يريد: إليه تستغيثون، قالوا: زدنا في الصفة؛ فأنزل الله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} كما ولدت مريم، ولم يولد كما وُلد عيسى، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}؛ يريد: نظيرًا من خلقه، فأنكروا ذلك وأراد رسول الله ﷺ أن يلاعنهم؛ فأجابوه إلى ذلك، وقالوا: أخرنا ثلاثًا، يوم الرابع نلاعنك، فقالت اليهود والنصارى: لا تلاعنوه؛ فإنه نبي ويُستجاب له فيكم.
أخرجه الهروي في "ذم الكلام" (٣/ ٢١٠، ٢١٢ رقم ٦٤٦) من طريق عبد الغني بن سعيد ثنا موسى بن عبد الرحمن الثقفي عن ابن جريج عن عطاء وعن جويبر عن الضحاك كلاهما [عطاء والضحاك] عن ابن عباس به.
قلنا: وهذا إسناد موضوع كذب ما قاله ابن عباس ولا عطاء، أما السند الأول؛ ففيه موسى بن عبد الرحمن الثقفي تقدم في غير ما حديث أنه كذاب وضاع دجال، وعبد الغني -أيضًا- ضعيف.
والسند الثاني: فيه جويبر؛ ضعيف جدًا، والضحاك لم يلق ابن عباس.
وعن عكرمة؛ قال: إن المشركين قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن ربك، صف لنا

=

=

ربك ما هو ومن أي شيء هو؟ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٢٢١): ثنا ابن حميد ثنا يحيى بن واضح ثنا الحسين بن يزيد عن عكرمة به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن حميد؛ ضعيف متهم بالكذب.

وعن أبي العالية: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}؛ قال: قال ذلك قادة الأحزاب: انسب لنا ربك؛ فأتاه جبريل بهذه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٢٢١): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: ابن حميد؛ متهم بالكذب.

الثانية: مهران؛ له أوهام سيئ الحفظ.

الثالثة: أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

الرابعة: الإرسال.

وعن قتادة؛ قال: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: انسب لنا ربك؛ فنزلت: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢٢٢): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن سعيد بن أبي عروبة به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ لما عرفت من حال ابن حميد ومهران. ثم هو مع هذا مرسل، وقد ذكر السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٧١): أن عبد الرزاق وابن المنذر أخرجاه، فإن صح السند إلى قتادة؛ فتبقى علة الإرسال.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم! خلق الله عز وجل الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس

=

=

من لهب النار، والسماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك؟ فلم يجبهم النبي ﷺ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "يا محمد! {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١)}: ليس له عروق تتشعب إليه، {اللهُ الصَّمَدُ (٢)}: ليس بالأجوف لا يأكل ولا يشرب، و {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)}: ليس من خلقه شيء يعدل مكانه، يمسك السماوات والأرض إن زالتا"، هذه السورة ليس فيها ذكر جنة ولا نار، انتسب الله عز وجل إليها؛ فهي له خالصة.

أخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (١/ ٣٧٠، ٣٧١ رقم ٨٦) من طريق يحيى بن عبد الله الحراني عن ضرار بن مرة الكوفي عن أبان بن أبي عياش عن أنس به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: أبان؛ متروك الحديث؛ كما في "التقريب".

الثانية: يحيى بن عبد الله؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ؛ منهم: كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك الذي بعثك؛ فأنزل: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١)} إلى آخرها.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٣٨) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن أبي سعيد الصنعاني؛ قال: قال المشركون للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؛ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} لأنه ليس بشيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله - جلّ ثناؤه- لا يموت ولا يورث: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}: ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣٠/ ٢٢٣): ثنا أحمد بن منيع ومحمود بن خداش قالا: ثنا أبو سعيد به. وهذا معضل.

=

=

وعن الضحاك؛ قال: قالت اليهود: يا محمد! صف لنا ربك؛ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢)} فقالوا: أما الأحد؛ فقد عرفناه، فما الصمد؟ قال: الذي لا جوف له.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٧١) ونسبه للطبراني في "السنة". وهذا - أيضًا- معضل.

قال ابن عاشور:" الصحيح أنها مكية فإنها جمعت أصل التوحيد وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة، ولعل تأويل من قال: إنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربد، أو حينما سأل أحبار اليهود، أن النبيء ﷺ قرأ عليهم هذه السورة، فظنها الراوي من الأنصار نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط".

قال السيوطي:" وجمع بعضهم بينهما بتكرر نزولها، ثم ظهر لي بعد ترجيح أنها مدنية كما بينته في أسباب النزول".

* قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١].

الخطاب للرسول ﷺ أولا، ولكل من يصلح للخطاب، أي: قل أيها الرسول: هو الله أحد، أي: واحد لا شريك له ولا شبيه له ولا مثيل له، فهو تعالى المنفرد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وابتداء الكلام ب (قل) يدل على أهمية مضمونه، ولفت الأذهان إليه، وإعلانه للأمة، فإن من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بالمؤكدات، أو بفعل أمر، مثل: (اعلم) أو (قل) كما هنا.

- والاسم الشريف (الله) علم على الرب، وهو أصل الأسماء الحسنى.

ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيما، وذلا وخضوعا، وخوفا ورجاء.

ولا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو مختص بالله لفظا ومعنى.

=

=

لفظا: أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد.

ومعنى: أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق.

قال بعض العلماء: إنه الاسم الأعظم.

لأنه يوصف بجميع الصفات، هذا دليل نظري على أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم، أي أن هذه الأسماء جميعا ترجع إليه لفظا ومعنى.

- معنى ترجع إليه لفظا: أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها كما سبق في الآيات الحديث.

- ومعنى ترجع إليه معنى: أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات.

واختلف هل هو مشتق أم غير مشتق والراجح أنه مشتق.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واختلفوا في اشتقاقه على أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله إلاهة، فأصل الاسم الإله، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى (وهو الله في السماوات وفي الأرض) مع قوله ﷻ (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) ومعناه ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له.

- ورد اسم الأحد في هذه السورة فقط، وورد اسم الواحد في عدة آيات، كقوله تعالى: (وإلهكم إله واحد) وقال تعالى: (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد) وقال تعالى: (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار).

معنى (الأحد) المتوحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك.

ومعنى (الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك.

ففي هذه الآية: إثبات وحدانية الله تعالى، الذي لا إله إلا هو، وحده لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الذي ليس له ند ولا نظير ولا شبيه

=

=

ولا مثيل.

- فالله أحد في ذاته وصفاته، وفي ربوبيته، وفي ألوهيته.

قال تعالى: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وقال تعالى: (وما من إله إلا الله الواحد القهار).

وقد بين سبحانه بأنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة، فقال: (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو).

قال في التسهيل: وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته وذلك في القرآن كثير جدا أوضحها أربعة براهين:

الأول: قوله: (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحدا منها شريك له.

والثاني: قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

والثالث: قوله: (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا).

والرابع: (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض).

عن أبي بن كعب: (أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! انسب لنا ربك؟ فقال الله: قل هو الله أحد). رواه أحمد.

- وقد بين سبحانه بأنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة: فقال (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو).

وكفر وضل من اتخذ إلها سواه أو معه. قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم).

وقال سبحانه (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد).

=

=

وكيف يعبد غيره، والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد والرزق والإمداد والبسط والقبض، والرفع والخفض.

قال تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون).

وقد أمر الرسول ﷺ رسوله إلى اليمن أن يبدأ أولا بدعوتهم إلى توحيد الله.

كما في حديث ابن عباس قال (بعث النبي ﷺ معاذا إلى اليمن... قاله له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم أن يوحدوا الله....) متفق عليه.

قال الطبري: "قل يا محمد لهؤلاء السائليك عن نسب ربك وصفته، ومَن خَلقه: الربّ الذي سألتموني عنه، هو الله الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا تصلح لشيء سواه".

قال الزجاج:" المعنى: الذي سألتم تبيين نِسْبَته {هُوَ الله أحد} ".

قال النحاس:" {هُوَ} في موضع رفع بالابتداء، كناية عن الحديث على قول أكثر البصريين والكسائي، أي: الحديث الذي هو الحق: الله أحد".

قال الماوردي:" الأحد: هو المتفرد بصفاته الذي لا مِثل له ولا شبه".

قال الفراء:" وهذا من صفاته: أَنَّهُ واحد، وأحد وإن كَانَ نكرة".

فأما «الأحد»، و «الواحد»، ففيهما ثلاثة وجوه:

أحدهما: أنه لا فرق بينهما. وهذا مذهب ابن عباس، وأبي عبيدة.

قال أبو عبيدة:" «أحد»، أي: واحد".

قال ابن عباس:" يريد الواحد الذي ليس كمثله شيء".

الثاني: أن «الأحد»: لا يدخل العدد، و «الواحد»: يدخل في العدد، لأنك تجعل للواحد ثانيًا، ولا تجعل للأحد ثانيًا. وهذا قول ثعلب.

=

=

ورد عليه أبو حيان بأنه يقال: «أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد».

الثالث: أن «الأحد»: يستوعب جنسه، و «الواحد»: لا يستوعب، لأنك لو قلت: فلان لا يقاومه أحد، لم يجز أن يقاومه اثنان ولا أكثر، فصار الأحد أبلغ من الواحد. حكاه الماوردي-أيضا-.

وقال أبو سليمان الخطابي: "الواحد: هو المنفرد بالذات، فلا يضاهيه أحد، والأحد: هو المنفرد بالمعنى، لا يشاركه فيه أحد".

وأصل «الأحد» عند النحويين: الوحد، ثم أبدلوا عن الواو الهمزة".

قال الأزهري: "لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا درهم أحدٌ. كما يقال: رجل وَحَدٌ، أي: فرد".

قرأ الجمهور: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، بإثبات {قُلْ}، وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي: «الله أحد»، بدون «قل». وقرأ الأعمش «قل هو الله الواحد»، وقرأ الجمهور بتنوين «أحد»، وهو الأصل. وقرأ زيد بن علي وأبان بن عثمان وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السمال وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة.

قوله تعالى: {اللهُ الصَّمَدُ} [الإخلاص: ٢]

أي: الله الذي كَمُل في صفات الشَّرَف والمجد والعظمة، الذي يقصده الخلائق في قضاء الحوائج والرغائب.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له الصمد".

قال النحاس:" فيه ست تقديرات: أحسنها أن يكون قولك اللهُ رفعا بالابتداء الصَّمَدُ نعته وما بعده خبره".

قال الشوكاني: "وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية".

وفي تفسير: «الصَّمَد»، أقوال:

=

=

أحدها: أن «الصَّمَد»: هو السيد الذي تصمد إليه الخلق في حوائجهم ومطالبهم، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وأبو وائل، وإبراهيم النخعي، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة،

والزجاج، وسهل بن عبد الله، وابن عطية، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني، وغيرهم. والعرب تقول لسيدها ولعظيمها: صمد، ومنه قول الشاعر:

عَلوْتُه بحُسامٍ ثم قلت له... خُذْها حُذَيْفَ فأنت السيّد الصَّمَدُ

ويقال: بيت مصمود ومصمّد، إذا قصده الناس في حوائجهم، قال طرفة:

إن يَلْتَقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني... إلى ذِروة البيتِ الرفيع المصمَّدِ

ومنه قول الأخر:

ألا بَكَرَ النَّاعي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الواحدي: معناه: "أن السؤدد انتهى إلى الله، فلا سيد فوقه، كما أن العلم انتهى إليه، ففوق كل ذي علم عليم حتى ينتهي العلم إليه، فلا عالم فوقه".

قال أبو عبيدة:" هو الذي يصمد إليه، ليس فوقه أحد، والعرب كذلك تسمّى أشرافها".

قال ابن قتيبة:" {الصَّمَدُ} السَّيد الذي قد انتهى سُودَدُه؛ لأن الناس يَصْمِدُونه في حوائجهم".

قال الزجاج:" وأصحه: أنه السيد المصمود إليه في الحوائج".

قال ابن عطية:" الصَّمَدُ في كلام العرب السيد الذي يصمد إليه في الأمور ويستقل بها".

قال ابن الأنباري:" لا خلاف بين أهل اللغة أن «الصمد»: هو السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم".

قال الشوكاني:" الصمد: هو الذي يصمد إليه في الحاجات، أي: يقصد لكونه قادرا

=

=

على قضائها، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض لأنه مصمود إليه، أي: مقصود إليه".

قال السمين: أي:" هو السند الذي يسند إليه في الأمور، أي: يقصد. يقال صمد صمده أي قصد قصده معتمدًا عليه، وقيل: الصمد: المرتفع الرتبة. ومنه: بناءٌ مصمدٌ، أس مرتفعٌ عالٍ. والصمْد بسكون العين: ما شرف من الأرض وعل".

قال الفيروزآبادي:" «الصمد»: المكان المرتفع الغليظ لا يبلغ أن يكون جبلا مرتفعا، و «الصماد»: عفاص القارورة أو سدادها. وقد صمدتها أصمدها. و «الصمد» – بالتحريك –: السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج، أي: يقصد. ومنه حديث عمر رضى الله عنه: «أيها الناس إياكم وتعلم الأنساب والطعن فيها. والذى نفس عمر بيده، لو قلت: لا يخرج من هذا الباب إلا صمد ما خرج إلا أقلكم» ". أي: من انتهي إليه السؤدد.

قال الحسن:" الذي يصمد إليه في الحوائج، ثم تلا هذه الآية: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣] ".

قال أبو وائل: " {الصَّمَد}: «السيد الذي قد انتهى سؤدده» ؛ ولم يقل أبو كُرَيب وابن عبد: «الأعلى سؤدده» ".

قال شقيق: " {الصَّمَدُ}: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده".

قال إبراهيم النخعي: "الذي يصمد إليه العباد في حوائجهم".

وعن ابن عباس–أيضا–: "الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء".

عن ابن عباس، في قوله: " {الصَّمَدُ}، يقول: السيد الذي قد كمُل في سُؤدَده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبَّار الذي قد كمل في

=

=

جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له".

الثاني: أن «الصَّمَد»: الذي لا جوف له، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك، والسدي، وعبد الله بن بُريدة، ورواه مرفوعا. ومنه قول الشاعر:

شِهَابُ حُروبٍ لا تَزَالُ جِيَادهُ... عَوابِسَ يَعلُكْنَ الشَّكيمَ المُصَمَّدَا

قال الشوكاني: " وهذا لا ينافي القول الأول، لجواز أن يكون هذا أصل معنى «الصمد»، ثم استعمل في «السيد» المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير".

قال ابن عطية:" قال كثير من المفسرين: «الصَّمَدُ»: الذي لا جوف له، كأنه بمعنى «المصمت» .. وقال الشعبي: «هو الذي لا يأكل ولا يشرب»، وفي هذا التفسير كله نظر، لأن الجسم في غاية البعد عن صفات الله تعالى. فما الذي تعطينا هذه العبارات".

قال الواحدي:" فقد يكون في العربية «الصمد»: الشيء المصمت الذي لا جوف له، المسدود الجوف، ومنه يقال: لسداد القارورة: الصماد، وقد صمدتها أصمدها، وشيء مصمد: صلب، وليس فيه خور، وهذا صحيح في اللغة، ولكن «الصمد» -بهذا المعنى-: لا يجوز في صفة الله تعالى، لأن المصمت هو المتضاغط الأجزاء، وهذا تشبيه وكفر بالله".

عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال - لا أعلم إلا قد رفعه - قال:" {الصَّمَدُ}، الذي لا جوف له".

=

=

عن ابن عباس، قال: " {الصَّمَد} : الذي ليس بأجوف".

عن الحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومجاهد، وعكرمة:" {الصَّمَد} : الذي لا جوف له".

قال مجاهد:" المُصْمَت الذي لا جوف له".

قال سعيد بن المسيب:" الذي لا حِشوة له".

وعن ابن مسعود: "الذي ليست له أحشاء".

الثالث: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، قاله الشعبي، ومقاتل، وهو احد قولي: سهل بن عبد الله.

قال الشعبي:" "الصمد الذي لا يأكل الطعام".

عن الشعبي:" {الصَّمَد} ، قال: الذي لا يطعم الطعام".

قال الشعبي:" الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب".

الرابع: أنه الباقي الذي لا يفنى، قاله قتادة، والحسن.

كان الحسن وقتادة يقولان: "الباقي بعد خلقه، قال: هذه سورة خالصة، ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة".

عن قتادة، قال: " {الصمد} : الدائم". وروي عن عاصم بن بهدلة، ومعمر مثله.

الخامس: هو الذي لم يلد ولم يولد، قاله أبو العالية، ومحمد بن كعب، وعكرمة.

قال أبو العالية:" الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا سيموت، فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث ولا يموت".

عن أبي سعيد الصنعاني، قال: "قال المشركون للنبي ﷺ أنسب لنا ربك فأنزل الله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ - ٤]،

لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جلّ

=

=

ثناؤه لا يموت ولا يورث {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: ولم يكن لَه شبيه ولا عِدل، وليس كمثله شيء".

عن محمد بن كعب: " {الصَّمَدُ}: الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد".

السادس: أنه الكامل الذي لا عيب فيه، قاله مقاتل بن حيان، ومنه قول الزبرقان:

سِيرُوا جَمِيعًا بِنِصْفِ اللَّيْلِ وَاعْتَمِدُوا... وَلا رَهِينَةَ إِلَّا سَيِّدٌ صَمَدُ

عن مقاتل بن حيان:" {الصَّمَد} الذي لا عيب فيه".

السابع: أنه المقصود إليه في الرغائب، والمستغاث به في المصائب، قاله السدي.

الثامن: أنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. قاله أبو هريرة.

التاسع: «الصَّمَد»: الذي ليس فوقه أحد. قاله علي، وعكرمة.

العاشر: أنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، قاله الحسين بن فضيل.

الحادي عشر: الذي لا يخرج منه شيء. قاله عكرمة.

وعلق ابن تيمية عليه فقال: "كلام صحيح؛ بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه ".

الثاني عشر: الذي لا يكافئه من خلقه أحد. قاله كعب الأحبار.

الثالث عشر: الذي لا يوصف بصفته أحد. قاله ابن كيسان.

الرابع عشر: الذي لا تعتريه الآفات. قاله الربيع.

الخامس عشر: الكامل في جميع صفاته وأفعاله. قاله سعيد بن جبير.

السادس عشر: الذي لا يبلى ولا يغنى. قاله مرّة الهمداني.

السابع عشر: أن «الصَّمَدُ»: نور يتلألأ. قاله عبد الله بن بُرَيدة.

الثامن عشر: هو الذي: {يَحْكُمُ ما يُرِيدُ ويَفْعَلُ ما يَشاءُ}... {لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} ولا راد لقضائه. قاله الحسين بن الفضل أيضا.

التاسع عشر: أن «الصَّمَد»: الذي لا {تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ}، ولا تحويه الأفكار ولا

=

=

تبلغه الأقطار {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ} . قاله محمد بن علي.
العشرون: هو المتعالي عن الكون والفساد. قاله ابن عطاء.
الواحد والعشرون: هو الذي لا يسحر ولا يستغرق ولا تعترض عليه القواطع والغلل. قاله الواسطي.
الثاني والعشرون: هو الذي أيست العقول عن الإطلاع على كيفيته. قاله علي بن موسى الرضا.
الثالث والعشرون: أن «الصَّمَد»:هو الغالب الذي لا يغلب. قاله جعفر الصادق.
الرابع والعشرون: ما روي عن جعفر الصادق: أن " {الصَّمَد} خمس حروف: فالألف دليل على أَحَدِيَّته، واللام دليل على إلاهِيَّته، وهما مدغمان لا يظهران على اللسان ويظهران في الكتابة، فدلّ ذلك على أنّ أَحَدِيَّته وإلاهِيَّته خفيّة لا تُدرك بالحواس، وأنّه لا يقاس بالناس، فخفاؤه في اللفظ دليل على أنّ العقول لا تُدركه ولا تحيط به علمًا، وإظهاره في الكتابة دليل على أنه يظهر على قلوب العارفين، ويبدو لأعين المُحِبِّين في دار السلام، والصاد دليل
على صِدْقه، فوعْده صِدْقٌ، وقوله صِدْقٌ، وفِعله صِدْقٌ، ودعا عباده الى الصدق، والميم دليل على مُلكه، فهو الملِك على الحقيقة، والدال علامة دوامه في أبديّته وأزليّته".
الخامس والعشرون: هو الأزلي بلا عدد، والباقي بلا أمد، والقائم بلا عمد. قاله محمد بن علي الترمذي.
وقال الحسين بن الفضل: "هو الأزلي بلا ابتداء".
قال الطبري:" الصمد عند العرب: هو السيد الذي يُصمد إليه، الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمى أشرافها؛ ومنه قول الشاعر:
ألا بَكَرَ النَّاعي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

=

=

وقال الزبرقان:

وَلا رَهِينَةً إلا سَيِّدٌ صَمَدُ

فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة، المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه؛ ولو كان حديث ابن بُريدة، عن أبيه صحيحا، كان أولى الأقوال بالصحة، لأن رسول الله ﷺ أعلم بما عنى الله جل ثناؤه، وبما أنزل عليه".

قال ابن تيمية بعدما ذكر الأقوال في معنى «الصمد» - قال: «قلت: الاشتقاق يشهد للقولين جميعًا؛ قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدل؛ فإن الأول أصل الثاني».

وقال ابن كثير بعد سياق كثير من الأقوال في معنى «الصمد»: "وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسيره «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك".

قال ابن تيمية في تفسير (الصمد): " والاسم (الصمد) فيه للسلف أقوال متعددة قد يُظن أنها مختلفة وليس كذلك، بل كلها صواب. والمشهور منها قولان: أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له.

والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج، والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة، والثاني قول طائفة من السلف والخلف، وجمهور اللُّغويين،.. ".

قال ابن كثير: " وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب (السنة) له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكلُّ هذه صحيحةٌ وهي صفات ربنا ﷻ

=

=

هو الذي يصمد إليه في الحوائج وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه.. ".

* ولا منافاة بين جميع هذه الأقوال، فإن كل ما سبق من هذه الأقوال يصح أن يوصف به ربنا سبحانه وتعالى.

فهو الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب، وهو كذلك سبحانه، الغني عن كل شيء، وهذا من صفات كماله.

كما قال سبحانه: (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم).

وقال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

وقد رد الله على النصارى الذين قالوا بإلهية عيسى بقوله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام).

فدلت الآية على أن الإله الحق ينبغي أن يكون مستغنيا عن الطعام والشراب.

ومن قال: إن الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده، فهذا حق، فهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، فصفات السؤدد كلها كاملة له سبحانه، لا يشاركه في هذا شيء من مخلوقاته.

ومن قال: إن الصمد هو الباقي الذي لا يفنى، فهذا حق لا مرية فيه، قال تعالى: (كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

وهذان الاسمان - (الأحد)، (والصمد) - لم يذكرهما الله إلا في هذه السورة؛ فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك.

قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: ٣]

أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

=

=

وهذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم: " عيسى ابن الله " واليهود في قولهم: " عزيز ابن الله " والعرب في قولهم: " الملائكة بنات الله " وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد.... (ابن جزي).

وقد نفى الله سبحانه عن نفسه الولد:

كما قال تعالى (بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).

وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا).

وقال تعالى (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد).

وقال تعالى (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك)

وقال تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون).

وقال تعالى: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا. الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا).

وقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله).

وقال تعالى (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا).

ومن ادعى أن لله ولدا فقد شتمه، كما قال ﷺ: (قال تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا ألأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد). رواه البخاري.

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولا: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباينا له في كل الأحوال.

=

=

ثانيا: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالبا ممن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).

ثالثا: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء، أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب ﷻ ليس بحاجة إلى ذلك، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعا: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني).... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالا واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) وقال أيضا في آخر هذه السورة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

وقال ابن جزي: قد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد:

أن الوالد إنما يتخذ ولدا للحاجة إليه، والله لا يفتقر إلى شيء فلا يتخذ ولدا: وإلى هذا أشار بقوله (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني).

أن جميع الخلق عباد الله والعبودية تنافي البنوة.

=

=

وإلى هذا أشار بقوله تعالى (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

أنه لا يكون له ولد إلا لمن له زوجة، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد: وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).

قال السمعاني:" أي: ليس له والد ولا ولد".

قال القشيري:" ليس بوالد ولا مولود".

قال الشوكاني: "أي: لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء لأنه لا يجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقا ولا حقا".

قال الطبري:" يقول: ليس بفانٍ، لأنه لا شيء يلد إلا هو فانٍ بائد، وليس بمحدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى ذكره قديم لم يزل، ودائم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى".

قال البيضاوي:" لم يلد، لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه، ولعل الاقتصار على لفظ الماضي لوروده ردا على من قال الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله أو ليطابق قوله: {ولم يولد}، وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم".

وفي تفسير الآية، وجهان:

أحدهما: لم يلد فيكون والدًا، ولم يولد فيكون ولدًا، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس:" {لَمْ يَلِدْ} فيخرج منه الولد، {وَلَمْ يُولَدْ} فيخرج من شيء".

الثاني: لم يلد فيكون في العز مشاركًا، ولم يولد فيكون موروثًا هالكًا، قاله الحسين بن فضيل، وهو معنى قول أبي العالية.

قال أبو العالية:" الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا سيموت، فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث ولا يموت".

=

قال أبو سعيد الصنعاني:" لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جلّ ثناؤه لا يموت ولا يورث".

قال الزمخشري:" قوله: {لَمْ يُولَدْ} وصف بالقدم والأوّلية، قوله {لَمْ يَلِدْ}: نفى للشبه والمجانسة. وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} تقرير لذلك وبت للحكم به".

وقال سهل:" {لَمْ يَلِدْ}: فيورث. {وَلَمْ يُولَدْ}: فيكون ملكه محدثا، وهو أيضًا إثبات الفردانية، ونفي الأسباب عنه، ردًا على الكفار".

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}، رد على إشارة الكفار في النسب الذي سألوه".

وإنما كان كذلك لأمرين:

أحدهما: أن هاتين صفتا نقص فانتفتا عنه.

الثاني: أنه لا مثل له، فلو وَلَدَ أو وُلِدِ لصار ذا مثل، والله تعالى منزه عن أن يكون له مثل.

وقد نفى الله الولادة قبل التولد، لأن الولادة لم يدعها أحد في حقه - سبحانه - وإنما ادعوا أنه ولد، فلذلك قدم نفيه لأنه المهم المحتاج إلى نفيه.

قال مقاتل:" وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الرحمن. {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّه} [التوبة: ٣٠]، فأكذبهم الله- ﷻ- فبرأ نفسه من قولهم، فقال: {لَمْ يلد}، يعني: لم يكن له ولد. {وَلَمْ يُولَدْ}، كما ولد عيسى وعزير ومريم".

قال ابن كثير:" أي: ليس له ولد ولا والد.. وهذا كما قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ

=
شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٨٨ – ٩٥] وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: ١٥٨، ١٥٩] وفي الصحيح – صحيح البخاري –: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم» ".

عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: "قال الله، ﷻ: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يُعيدَني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد".

وفي حديث مرفوع حسن: أن النبي ﷺ قال: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله».

وعن ابن عباس: "تفكروا في كل شيء، ولا تتفكروا في ذات الله تعالى".

يعني: كيفيات صفات الله، فإن الله لا تصل إليه فكرة، سبحانه وتعالى، مهما يصل بك الفكر إلى كيفية من كيفيات صفات الله جل وعلا فالله أعظم وأجل، سبحانه وتعالى، فكبر وسبح ونزه ربك، إذًا: فالتكييف باطل أثرًا ونظرًا.

قال ابن عطية: "لأن الأفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالى بواجب وجوده وافتقار كل شيء إليه واستغنائه عن كل شيء وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به تبارك وتعالى، وأن ليس كمثله شيء، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة".
=

=

قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]

أي: ولم يكن له مماثلا ولا مشابهًا أحد من خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقدَّس.

قال ابن أبي زمنين:" ولم يكن له أحد كفوا له، أي: مثل وشبه".

قال البيضاوي:" أي: ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها".

قال السمعاني:" لم يكن أحد نظيرا له ولا شبيها، فهو على التقديم والتأخير، ومعنى «أحد» في آخر السورة، غير معنى «أحد» في أول السورة".

وفي تفسير الآية، ثلاثة وجوه:

أحدها: لم يكن له مثل ولا عديل، قاله ابن عباس، وكعب، وأبو العالية، وعطاء، وابن جريج.

قال ابن فارس:" الكفء: المثل".

عن ابن جريج: " {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا} : مثل".

قال ابن عباس:" ليس كمثله شيء، فسبحان الله الواحد القهار".

قال أبو العالية:" لم يكن له شبيه، ولا عِدْل، وليس كمثله شيء". وروي عن أبي سعيد الصنعاني مثله.

قال كعب:" إن الله تعالى ذكره أسس السموات السبع، والأرضين السبع، على هذه السورة {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، وإن الله لم يكافئه أحد من خلقه".

قال ابن عطية: " معناه: ليس له ضد ولا ند ولا شبيه، والكفأ والكفؤ والكفاء النظير".

الثاني: يعني: لم تكن له صاحبة، فنفى عنه الولد والوالدة والصاحبة، قاله مجاهد.

عن مجاهد: " {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، قال: صاحبة".

=

=

الثالث: أنه لا يكافئه في خلقه أحد، قاله قتادة. وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولم يكن له أحدٌ كُفوًا، فقدم خبر كان على اسمها لتنساق أواخر الآي على نظم واحد. ذكره سهل التستري.

قال الطبري:" والكُفُؤُ والكُفَى والكِفَاء -في كلام العرب- واحد، وهو: المِثْل والشِّبْه؛ ومنه قول نابغة بني ذُبيان:

لا تَقْذِفَنِّي بِرُكْن لا كِفَاء لَهُ... وَلَوْ تَأَثَّفَكَ الأعْدَاءُ بالرِّفَدِ

يعني: لا كِفَاء له: لا مثل له".

قرئ: «كُفُوًا» بضم الكاف والفاء، و «كُفْوًا»، بضم الكاف وسكون الفاء، «وكِفْوًا»، بكسر الكاف وسكون الفاء، و «كِفَاء» بكسر الكاف.

قال على بن الحسين بن واقد: "سال الخليفة مقاتل بن سليمان، فقال له: بلغني انك تشبه! فقال: إنما أقول: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ - ٤]. فمن قال غير ذلك فقد كذب".

علي الروذباري، قال: "وجدنا أنواع الشرك ثمانية: النقص والتقلّب والكثرة والعدد وكونه علّة أو معلولا، والأشكال والأضداد، فنفى الله تعالى عن صفته نوع الكثرة والعدد بقوله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}، ونفى التنقّص والتقلّب بقوله: {اللهُ الصَّمَدُ}، ونفى العلل والمعلول بقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}، ونفى الأشكال والأضداد بقول: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، فحصلت الوحدانية البحت لذلك سمّيت: «سورة الإخلاص» ".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّايَ فقولهُ: لن يعيدني كما بدأني. وليس أولُ الخَلْق بأهونَ عليّ من إعادته، وأمّا شتْمُهُ إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصَّمَد، الذي لم ألِدن ولم أولدن ولم يكن لي كفوًا أحد» ".

=

=

فهذه السورة تضمنت نفي الشريك بجميع أنواعه:
فقد نفى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله (الله أحد).
ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله (الله الصمد).
ونفى عن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله (الله الصمد).
ونفى عن نفسه الحدوث بقوله (ولم يلد).
ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله (ولم يكن له كفوا أحد).
* من فضائلها:
قراءتها تعدل ثلث القرآن، لحديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) رواه البخاري.
ولحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال في (قل هو الله أحد): (إنها تعدل ثلث القرآن) رواه مسلم.
وحبها سبب لمحبة الله للعبد: عن عن عائشة (أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم ب - {قل هو الله أحد} فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال سلوه لأى شيء يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي ﷺ أخبروه أن الله يحبه) متفق عليه.
وحبها سبب لدخول الجنة: عن أنس رضي الله عنه كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب - {قل هو الله أحد} حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه فقالوا إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى فقال ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما

=

=

يأمرك به أصحابك وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة فقال إني أحبها فقال حبك إياها أدخلك الجنة) رواه البخاري.

وقراءتها تكفي من الشر: عن عائشة (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قرأها مع المعوذتين ومسح ما استطاع من جسده) متفق عليه.

ومن فضائلها: أن الدعاء بها مستجاب: عن بريدة (أن النبي ﷺ سمع رجلا يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، قال: "والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب) رواه الترمذي.

وتحرس صاحبها وتحفظه من الشرور بإذن الله: عن عقبة بن عامر الجهني قال (بينا أنا أقود برسول الله ﷺ راحلته في غزوة، إذ قال: (يا عقبة قل) فاستمعت، ثم قال: (يا عقبة قل) فاستمعت، فقالها الثالثة، فقلت: "ما أقول؟ "، فقال: (قل هو الله أحد) فقرأ السورة حتى ختمها، ثم قرأ (قل أعوذ برب الفلق) وقرأت معه حتى ختمها، ثم قرأ (قل أعوذ برب الناس) وقرأت معه حتى ختمها، ثم قال (ما تعوذ بمثلهن أحد). رواه النسائي

(فائدة): اختلف العلماء في معنى (إنها تعدل ثلث القرآن): وأقرب الأقوال ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (١٧/ ١٠٣) وحاصله:

أن القرآن اشتمل على ثلاث مقاصد أساسية:

الأول: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق.

والثاني: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم.

والثالث: علم التوحيد، وهو ما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته.

=

=

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) (الإخلاص: ١)، قيل في " أحد " هنا: أنه بمعنى واحد وأصله وحد، وربما يعتضد من قال بهذا بقراءة من قرأ: " قل هو الله الواحد " فيجعل هذه القراءة مفسرة للاخرى وهي قراءة شاذة خارجة عن خط المصحف فليست مما يقطع به، وربما عضد هذا القول أيضا بأن أحدًا الواقع في الجواب إنما ينبغى أن يكون بمعنى واحد ومرادفًا له لأنه قد صح عن أئمة اللسان اتفاقهم على (أن) أحدًا لفظ يخص الواجب من الكلام ويقع عامًا، فتقول: ما جاءنى أحد، فيحصل منه النفى العام، ولا تقول: جاءنى أحد. قال سيبويه، رحمة الله: لو قلت كان أحد من آل فلان لم يكن كلامًا، فإذا ورد في واجب فنيبغي أن يحمل على أنه بمعنى واحد، إذ قد تبين أن أحدًا المقتضى العموم والاستغراق لا يرد في واجب ولا يتكلم به فيه، وعلى هذا كلام العرب، فحصل منه أن أحدًا لفظ مجمل يكون للفي العام، فهذا لا يقع في (كل) واجب، ويكون بمعنى واحد فيقع في الواجب وغيره، والواقع في سورة الإخلاص من هذا القبيل أعنى الذي أحد فيه بمعنى واحد.

فإن قلت: فكيف تري موقع هذا التفسير؟ قلت: أما القول بأن أحدًا هنا مرادف لواحد وبمعناه من كل جهة فقول ليس ببدع، ولذلك جري عليه أكثر كلام المفسرين، ولكن فيه ادعاء ترادف للفظين من غير حامل قطعي أكثر من وقوع أحد في قولك أحد عشر، وواحد وعشرون وشبه ذلك، ولا ينكر من كلامهم الاستغناء بالشئ عن الشئ لتقارب ما أو نسبة واشتراك في طرف ما، وما أراك تجد في كلامهم لفظ أحد المجرد عن التركيب والإضافة والعطف وأرادا في معنى واحد ومرادفًا له على القطع أبدًا. وإذا ثبت هذا وجب إجراء الكلام على إبقاء كل واحدة من اللفظتين على ما استقر لها في المعنى وإلا يعدل عن ذلك ما وجدت عنه مندوحة.

=

=

وقد أوضح الاعتبار الفرق بين أحد وواحد من جهة اللفظ وحكمه ومن جهة المعنى. أما الفارق اللفظي فإن لفظ واحد قد فرقوا فيه بين المذكر والمؤنث، قالوا: واحد وواحدة فألحقوا مؤنثة الهاء، وجمعوه فقالوا: وحدان. وأما أحد فلم يلحقوه علامة تأنيث ولا جمعوه.

وفرق ثان وهو أنهم استعملوا واحدًا في الواجب وغير الواجب تقول: جاءني رجل واحد ومررت برجل واحد، قال تعالى (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) (البقرة: ١٦٣) و (إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) (النساء: ١٧١) و (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ) (سبأ: ٤٦) أي بخصلة واحدة أو بموعظة واحدة، ومن غير الواجب (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) (القمر: ٢٤)، (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا) (ص: ٥)، أما أحد فلا يقع مفردًا عن إضافة أو تركيب في كلام واجب أصلًا، فلا تقول: جاءنى أحد ولا مررت بأحد ولا ورد في كتاب الله سبحانه في كلام واجب إلا قوله سبحانه: (قل هو الله أحد) ويقع في غير الواجب وهو بابه الذي اختص به، تقول: ما جاءنى أحد وما مررت بأحد، قال تعالى: (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (الكهف: ٢٦)، (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف: ١١٠)، (وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) (الكهف ٣٨)، (لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ) (الجن ٢٢)، (وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) (الجن: ٢) وذلك كثير جدًا.

وفرق ثالث وهو أن واحدًا يقع تابعًا في أكثر موارده، وهو الوجه فيه، لأنه يجري صفة وإن كان الوصف به عارضًا كما في الأعداد، كلنه (قد) أجرى صفة، وحكم ما ليس بخاص من الصفات لزوم التبعية، ولا يقع أحد تابعًا أصلًا إلا في نادر فلا تقول: جاءنى رجل أحد كما تقول: رجل واحد ولا ما شابه ذلك فهذه فروق (ثلاثة) من جهة حكم اللفظ.

وأما الفرق من جهة المعنى فإن واحدًا يقع على كل مفرد كان، مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف، تقول: رجل واحد وجمل واحد، وهذا خلاف حكم أحد

=

=

فإنه لا يقع إلا لأولى العلم والعقل من الملائكة والإنس والجن.
وفرق ثان، وهو أنك تقول: ما جاءني رجل (واحد) فيحتمل ذلك ثلاث معان: أحدها أن تريد ما جاءني (رجل واحد بل جاءنى) أكثر، والثاني أن تريد ما جاء رجل عناء وقوة بل جاء الضعفاء، والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءنى رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف. والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءنى رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف. فإذا قلت ما جاءنى أحد لم يتحمل غير معنى واحد وهو النفي العام وهذا أوضح فارق بين لفظ واحد (وأحد).
فإن قلت: قد تقرر فرق (ما) بين لفظ واحد وأحد (فما الحاصل المعتمد في معنى أحد) ومقتضاه؟ قلت: معناه وحدة لا غيرية معها ولا أثنينية، وإليه يشير ما فسره به أهل اللغة، قال صاحب العين: الوحد المنفرد وهو أوحد في هذا الأمر أي منفرد. وقد استشعر الفرق بين المفسرين من قال: أحد بمعنى واحد فرد من جميع جهات الوحدانية: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: ١١) وهو قول بعض جلة المفسرين وقد أحسن. أما اقتصاد الزمخشري على تزاكيه في البيان وتوفر حظه من علم اللسان على أن قال ك أحد بمعنى واحد وأصله وحد ولم يزد على هذا فغير مناسب لمسلكه. وقال بعض الأئمة الفرق بين أحد وواحد أن الواحد المنفرد بالذات والأحد المنفرد بالمعنى ومنه في أسمائه تعالى: الواحد - الأحد. وقيل واحد اسم لمفتاح العدد ومن جنسه وأحد لنفي ما يذكر معه من العدد، وقيل أحد يدل على محض الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يرد معه يريد في نحو قولك: ما أتانى أحد لانتفاء الواحد وما سواه، بخلاف قولك: ما أتانى واحد إذ قد يحتمل أن يراد أنه أتاك أكثر من واحد، وقد تقدم هذا، ولا يحتمل ذلك قولك: ما أتانى أحد. ومن المعلوم المطرد أن حكم اللفظ المنفى لا يغاير موجبه في غر ما اقتضته أداة النفي ن وأن يبقي الكلام فيما عدا حكم النفي على ما كان ولا يتغير منه شئ سوي

=

=

انتقاله من الإيجاب إلى النفي، وكذلك الحكم في كل أداة تدخل على لفظ الواجب من ثمن أو استفهام أو عرض أو غير ذلك، هكذا كلام العرب. ولفظ أحد لا يتناول بوضعه غير الوحدة فلو تكلم به في الواجب فقيل جاءني أحد لكان معناه: أحد لا ثاني له بوجه، ولو قلت: جاءني واحد لم يلزم فيه ذلك بل كان يحتمل أن تريد: جاءني واحد يعتد به ويعتمد، ولم ينتف أن يجيء معه من لا يعتد به أو يعتمد عليه، إذ ليس يمنع بوضعه الزائد على واحد إذا غايره من حيث ذكر. فإذا تقرر أن حكم أحد من مقتضى الوحدة ما ذكر، تبين أنه لايتصور ولا يصح بمعناه في واجب حيث يراد المخلوق المحدث، لأن كلا من المخلوقات له النظير والمثيل، حتى إن المتباعدات والمتباينات متماثلة من حيث الافتقار وانسحاب سمات الحدوث ودلائل عدم الاستقلال إلى غير ذلك من شواهد الحدوث، فكلها لا تنفك عن وجود النظراء والأنداد، فلم يصح وقوع لفظ أحد في كلام واجب يقع فيه لفظ أحد لمخلوق لما تبين، وصح ورود ذلك في حق الخالق جل جلاله لانفراده بالوحدانية وتنزيهه عن النظير والمثيل، فورد لفظ أحد حيث صح معناه من الكلام الواجب، (وأمتنع) حيث لا يصح معناه. أما غير الواجب فيصح فيه معنى أحد لصحة معنى الكلام، لأنك إذا قلت: ما أتاني أحد انتفى كل ما يمكن وصفه بالإتيان بمقتضى العموم، فانتفي ما وقع عليه لفظ أحد وانتفي النظير والمثيل، وصح هذا في المخلوق. بخلاف أن لو قلت: أتاني أحد فإنك فيه تتكلم بما لا يصح معنى ولا يعقل، إذ ليس في المخلوقات من لا مثيل له.

فلما كان لفظ أحد بالنظر إلى المخلوقين يصح معناه في غير الواجب ورد من كلامهم حيث يصح معناه وامتنع حيث لا يستقيم معناه، ووضع قول أئمة اللسان أنه لا يرد في الواجب، يريدون في محاورات المخلوقين وتخاطبهم، إذ لا يصح معناه هناك، فأما في حق الخالق جل جلاله فهو موضعه الذي يصح فيه ولا يتعداه،

=

سورة الفلق[1]

=

ولم يتعرض النحويون لعلة امتناعه في الواجب، بل اكتفوا بتقرير السماع من غير تعرض للعلة، إذ لا يبني لهم على ذلك قانون تتسع جهاته وتنتشر مسائلة. وإذ وضحت العلة تبين وجه وروده في السورة الكريمة، ولم يحتج إلى ادعاء اشتراك ولا تأويل، والله أعلم. ا.ه من ملاك التأويل (٢/ ٥١٤-٥١٦).

(١) في مكان وقت السورة، قولان:

أحدهما: أنها مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة-في رواية-، وعكرمة، وعطاء، وجابر.

الثاني: مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة.

قال ابن الجوزي:" والأول أصح، ويدل عليه أنّ رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة، فنزلت عليه المعوذتان".

قال ابن عاشور:" الأصح أنها مكية، لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلم".

* وآياتها خمس بالإجماع. وكلماتها ثلاث وعشرون. وحروفها أربع وسبعون. وفواصل آياتها (دبق).

* تسمى «سورة الفلق» اشتهرت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير ب «سورة الفلق»، ووجه تسميتها لافتتاحها بقوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١].

وتسمى سورة «قل أعوذ برب الفلق» سمى النبي ﷺ هذه السورة: «قل أعوذ برب الفلق» روي عن عقبة بن عامر الجهني، أنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدميه، فقلت: أقرئني من سورة يوسف. فقال: " لن تقرأ شيئا

=

=

أبلغ عند الله من: {قل أعوذ برب الفلق} ".

وهذا ظاهر في أنه أراد سورة: «قل أعوذ برب الفلق»، لأنه كان جوابا عن قول عقبة: أقرئني سورة هود إلخ، ولأنه عطف على قوله: «قل أعوذ برب الفلق» قوله: «وقل أعوذ برب الناس»، ولم يتم سورة: «قل أعوذ برب الفلق».

وقد عنونها البخاري في «صحيحه»: «سورة قل أعوذ برب الفلق»، بإضافة كلمة «سورة» إلى أول جملة منها.

وتسمى سورة «المعوذتين» - مع «سورة الناس»:

جاء في كلام بعض الصحابة تسميتها مع سورة الناس «المعوذتين».

روي عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة». بكسر الواو المشددة وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات، أي: آيات السورتين.

وفي رواية: «بالمعوذتين في دبر كل صلاة».

ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى «المعوذة» بالإفراد، وقد سماها ابن عطية «سورة المعوذة الأولى»، فإضافة «سورة» إلى «المعوذة» من إضافة المسمى إلى الاسم، ووصف السورة بذلك مجاز يجعلها كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يدخله المعاذ.

وتسمى سورة «المشقشقتين» - مع سورة الناس، تسمى هي وسورة الناس: «المشقشقتين» -بتقديم الشينين على القافين- من قولهم: خطيب مشقشق، أي: مسترسل القول، تشبيها له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب، ولم يظهر لي وجه وصف المعوذتين بذلك.

وقد سماها بهذا الاسم السخاوي، والسيوطي، ولم يذكرا مستندهما في هذه التسمية.

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١).

{قُلْ أَعُوذ بِرَبِّ الْفَلَق} الصُّبْح.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢).

{مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ} مِنْ حَيَوَان مُكَلَّف وَغَيْر مُكَلَّف وَجَمَاد كَالسُّمِّ وَغَيْر ذَلِكَ.

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣).

{وَمِنْ شَرّ غَاسِق إِذَا وَقَبَ} أَيْ اللَّيْل إِذَا أَظْلَمَ وَالْقَمَر إِذَا غَابَ.

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤).

{وَمِنْ شَرّ النَّفَّاثَات} السَّوَاحِر تَنْفُث {فِي الْعُقَد} الَّتِي تَعْقِدهَا فِي الْخَيْط

=

وتسمى سورة «المقشقشتين» - مع سورة الناس، وتسمى هي وسورة الناس: «المقشقشتين» -بتقديم القافين على الشينين-، أي: تبرئان من النفاق، وقد وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير.

فيكون اسم «المقشقشة»، مشتركا بين أربع سور: «سورة الفلق»، و «سورة الناس»، و «سورة براءة»، و «سورة الكافرون».

* معظم مقصود السّورة: الاستعاذة من الشرور، ومن مخافة اللَّيل الدّيجور، ومن آفات الماكرين والحاسدين فى قوله: {إِذَا حَسَدَ}.

* ومن المتشابهات: قوله تعالى: {قُلْ} نزلت فى ابتداءِ خمس سُوَر، وصار مَتْلُوّا بها؛ لأَنَّها نزلت جوابًا، وكرّرَ قوله: {مِنْ شَرٍّ} أَربع مرّات؛ لأَنَّ شرّ كلّ واحد منها غير شرّ الآخر. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٥٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

تَنْفُخ فِيهَا بِشَيْءٍ تَقُولهُ مِنْ غَيْر رِيق وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيّ مَعَهُ كَبَنَاتِ لَبِيد الْمَذْكُور.

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥).

{وَمِنْ شَرّ حَاسِد إِذَا حَسَدَ} أَظْهَر حَسَدَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ كَلَبِيد الْمَذْكُور مِنْ الْيَهُود الْحَاسِدِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَذِكْر الثَّلَاثَة الشَّامِل لَهَا مَا خَلَقَ بَعْده لِشِدَّةِ شَرّهَا [١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)} {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)} "، وفي رواية: "أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط؟ المعوذتين".

أخرجه مسلم (رقم ٨١٤/ ٢٦٤، ٢٦٥) وغيره كثير من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عقبة به.

وخالف عبد العزيز بن مسلم القسملي؛ فرواه عن إسماعيل به؛ لكن جعله من مسند أبي مسعود: أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣/ ١١٦، ١١٧ رقم ٢٦٥٨).

قال الطبراني: "رواه سفيان والناس عن إسماعيل عن قيس عن عقبة بن عامر".

يعني: يشير للمخالفة، وعبد العزيز؛ ثقة ربما وهم، فهذا الحديث يعد من أوهامه، فقوله: عن أبي مسعود شاذ، والصواب أنه من مسند عقبة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: مرض رسول الله ﷺ مرضًا شديدًا؛ فأتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: "ما ترى؟ قال: طب، قال: وما طبه؟ قال: سحر، قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي، قال: أين هو؟ قال: في بئر آل فلان تحت صخرة في ركية"؛ فأتوا الركي، فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة، ثم خذوا الركية فاحرقوها، =

=

فلما أصبح رسول الله ﷺ؛ بعث عمار بن ياسر في نفر فأتوا الركي؛ فإذا ماءها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الركية فاحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة؛ فأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية؛ انحلت عقدة: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)}.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٢٤٨) من طريق عبد الوهاب بن عطاء أنبأنا محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. و الكلبي كذاب، ونحوه شيخه أبو صالح.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئًا؛ فأصابه من ذلك وجع شديد، فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه لـمّ به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما؛ فخرج إلى أصحابه صحيحًا.

أخرجه أبو نعيم في "الدلائل"؛ كما في "لباب النقول" (ص ٢٣٩) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس به. وهذا سند ضعيف، أبو جعفر الرازي صدوق سيئ الحفظ.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: سحر رسولَ الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة- وهو عندي؛ دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا ثم دعا، ثم قال: "يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيه فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي -أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي-: ما وجع الرجل؟ فقال مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطه، وجف طلع نخلةٍ ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان (وفي رواية: ذروان) "، قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، فجاء فقال: "يا

=

=

عائشة! والله لكأن ماؤها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين"، قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ (وفي رواية: أفلا أحرقته؟)، قال: "لا، أما أنا؛ فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس فيه شرًا؛ فأمرت بها فدفنت".

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣١٧٥، ٣٢٦٨، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦، ٦٠٦٣، ٦٣٩١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢١٨٩).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: سحر النبيَّ ﷺ رجل من اليهود، قال: فاشتكى؛ فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: "إن رجلًا من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان"، قال: فأرسل عليًّا فجاء به، قال: فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال، قال: فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئًا وما صنع به، قال: ولا أراه وجهه.

أخرجه النسائي في "المجتبى" (٧/ ١١٢، ١١٣)، وفي "الكبرى" (٢/ ٣٠٧ رقم ٣٥٤٣)، وعبد بن حميد في "المسند" (١/ ٢٤٧ رقم ٢٧١ - منتخب) -وهذا لفظه-، وأحمد (٤/ ٣٦٧)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٨/ ٢٩، ٣٠ رقم ٣٥٦٩)، والطبراني في "المعجم الكبير" (رقم ٥٠١٦)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (رقم ٥٩٣٥) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم به. وهذا سند صحيح.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: مرض رسول الله ﷺ وأخذ عن النساء وعن الطعام والشراب، فهبط عليه ملكان وهو بين النائم واليقظان، فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، ثم قال أحدهما لصاحبه: "ما شكواه؟ قال: طب؛ يعني: سحر، قال: ومن فعله؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي! قال: ففي أي شيء جعله؟ قال: في طلعة، قال: فأين وضعها؟ قال: في بئر ذروان تحت صخرة، قال: فما

=

=

شفاؤه؟ قال: تنزح البئر وترفع الصخرة وتستخرج الطلعة"، وارتفع الملكان فبعث نبي الله ﷺ إلى علي رضي الله عنه وعمار فأمرهما أن يأتيا الركي فيفعلا الذي سمع، فأتياها وماؤها كأنه قد خضب بالحناء؛ فنزحاها، ثم رفع فأخرجا طلعة؛ فإذا بها إحدى عشرة عقدة، ونزلت هاتان السورتان: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)}؛ فجعل رسول الله ﷺ كلما قرأ آية؛ انحلت عقدة، حتى انحلت العقد، وانتشر نبي الله للنساء والطعام والشراب.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ١٩٨، ١٩٩): نا عمر بن حفص عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر؛ متروك الحديث.

الثانية: الضحاك لم يلق ابن عباس.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان لرسول الله ﷺ -غلام يهودي يخدمه، يقال له: لبيد بن أعصم، وكان تعجبه خدمته، فلم تزل به يهود حتى سحر النبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يذوب ولا يدري ما وجعه، فبينما رسول الله ﷺ ذات ليلة نائم؛ إذ أتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: "ما وجعه؟ قال الذي عند رأسه: مطبوب، قال الذي عند رجليه: من طبه؟ قال الذي عند رأسه: لبيد بن أعصم، قال الذي عند رجليه: بِمَ طبه؟ قال الذي عند رأسه: بمشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر بذي ذروان، وهي تحت راعوفة البئر"، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فدعا عائشة، فقال: "يا عائشة! أشعرت أن الله عز وجل قد أنبأني بوجعي؟ "، فلما أصبح؛ غدا رسول الله ﷺ وغدا معه أصحابه إلى البئر، فإذا ماؤها كأنه نقوع الحناء، وإذا نخلها الذي يشرب من مائها قد التوى سعفه كأنه رؤوس الشياطين.

قال: فنزل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول

=

=

الله ﷺ، ومن مُراطة رأسه، وإذا تمثال من شمع تمثال رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوذتين؛ فقال: "يا محمد {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)}، وحل عقدة، {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)}، وحل عقدة، حتى فرغ منها، ثم قال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)} وحل عقدة، حتى فرغ منها، وحل العقد كلها.

وجعل لا ينزع إبرة إلا وجد لها ألمًا، ثم يجد بعد ذلك راحة، فقيل: يا رسول الله! لو قتلت اليهودي؟ فقال رسول الله ﷺ: "قد عافاني الله عز وجل وما وراءه من عذاب الله أشد"، قال: فأخرجه.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٧/ ٩٢ - ٩٤) من طريق يزيد بن هارون عن محمد بن عبيد الله العرزمي عن أبي بكر بن محمد عن عمرة عنها به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ العرزمي متروك الحديث.

* قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١]

أي: قل -أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الفلق، وهو الصبح.

قال الطبري -في تفسير الآية-:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، أستجير بربّ الفلق".

عن أبيّ بن كعب، قال: "سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟ فقال: «قيل لي»، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ ".

قال سهل:" إن الله تعالى أمره في هاتين السورتين بالاعتصام والاستعانة به، وإظهار الفقر إليه".

ومعنى {أَعُوذُ}: أعتصم وألتجئ وأستجير وأتحصن وأتحرز وألوذ، وهذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو نفس «التعوذ».

واختلف في معنى «الفلق»، على أقوال:

=

=

أحدها: أن الفلق: سجن في جهنم، قاله ابن عباس.

قال الزمخشري:" قيل: هو واد في جهنم أو جب فيها، من قولهم لما اطمأن من الأرض: الفلق".

وقال وهب والسدي: "جُبٌّ في جهنم". وروي عن وهب مثله.

وقال ابن السائب: "وادٍ في جهنم".

عن أبي هُريرة، عن النبيّ ﷺ قال: "الفَلَق: جبّ في جهنم مغطًّى" ولمنه حديث منكر.

أخرج ابن أبي حاتم، عن زيد بن علي، عن آبائه، قال: "الفلق: جب في قعر جهنم عليه غطاء، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه" وهو ضعيف لا يثبت.

عن عمرو بن عَبسة، قال: "الفَلَق: بئر في جهنم، إذا سُعِّرتْ جهنم فمنه تُسعّر، وإنها لتتأذّى بها كما يتأذّى بنو آدم من جهنم".

عن كعب:" أنه دخل كنيسة فأعجبه حُسنها، فقال: أحسن عمل وأضلّ قوم، رضيت لكم الفلق، قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فُتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه".

عن العوّام بن عبد الجبار الجولاني، قال: "قَدم رجل من أصحاب رسول الله ﷺ الشأم، قال: فنظر إلى دور أهل الذمة، وما هم فيه من العيش والنضارة، وما وُسِّع عليهم في دنياهم، قال: فقال: لا أبا لك أليس من ورائهم الفلق؟ قال: قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذ فُتح هَرّ أَهْلُ النار".

الثاني: أنه اسم من أسماء جهنم، قاله أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي.

الثالث: أنه الخلق كله، رواه الوالبي عن ابن عباس.

عن ابن عباس: " {الفلق}، يعني: الخلق".

=

=

عن الضحاك:" معنى الفلَق: الخَلْق".

الرابع: أنه فلق الصبح، قاله جابر بن عبد الله، ورواه العوفي عن ابن عباس، وبه قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والقرظي، وابن زيد. وبه قال الفراء، وابن قتيبة، والزجاج، والنحاس، ومنه قول الشاعر:

يا ليلةً لم أَنَمْها بِتُّ مُرْتفقا... أرْعى النجومَ إلى أنْ نوَّرَ الفَلَقُ

وقول الآخر:

حتَّى إذَا ما جَلَى عَنْ وجْهِهِ فلقٌ... هَاديِهِ فِي أخريَاتِ اللَّيْلِ مُنتَصِبُ

قال السمعاني:" الأظهر -: أن الفلق هو الصبح".

قال الفراء:" الفلق: الصبح، يُقال: هُوَ أبين من فلق الصبح، وَفَرَقَ الصبح".

قال الزجاج:" هو فلق الصبح وهو ضياؤه، ويقال: أيضًا فرق الصبح. يقال: «هو أبين من فلق الصبح» ".

قال الزمخشري:" الفلق والفرق: الصبح، لأن الليل يفلق عنه ويفرق.. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر".

قال النحاس:" وإذا وقع الاختلاف وجب أن يرجع إلى اللسان الذي نزل به القرآن، والعرب تقول: «هو أبين من فلق الصبح وفرقه»، يعنون: الفجر".

وعن قتادة:" {الفَلَقِ}: فَلق النهار". وفي لفظ:" فلق الصبح".

قال الخازن: قوله (قل أعوذ برب الفلق) أراد بالفلق الصبح، وهو قول الأكثرين.... وسبب تخصيصه في التعوذ أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم قادر على أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه، ويخشاه، وقيل إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، كما أن الإنسان ينتظر طلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح.

قال ابن القيم:.... ومن هاهنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع

=

=

فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار وتأوي الهوام إلى أحجرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها فأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور. (بدائع الفوائد).

عن محمد بن كعب القرظي:" أنه كان يقول في هذه الآية: {قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ}، يقول: فالق الحبّ والنّوى، قال: {فالِقُ الإصْباحِ} [الأنعام: ٩٦] ".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قول الله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، قيل له: فلق الصبح؟ قال: نعم، وقرأ: {فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} ".

الخامس: أنها الجبال والصخور تنفلق بالمياه.

السادس: أنه كُلُّ ما انفلق عن شيء كالصبح، والحَبُّ، والنَّوى، وغير ذلك، قاله الحسن.

قال الزجاج:" وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن خلقه أكثره عن انفلاق، فالفلق جميع المخلوقات، وفلق الصبح من ذلك".

وقال ابن القيم: "واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلق «فعل» بمعنى «مفعول» كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﷻ: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ} [الأنعام: ٩٦]، و {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [الأنعام: ٩٥]، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة «فلقا وفرقا» يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه.. يفرق ظلام الليل بالإصباح.. ومنه فلقه البحر

=

=

لموسى، وسماه «فلقًا» ".

قال السعدي:" أي: {قل} متعوذًا {أَعُوذُ} أي: ألجأ وألوذ، وأعتصم {بِرَبِّ الْفَلَقِ} أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح".

السابع: شجرة في النار، قاله عبد الله بن عمر.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقول: {أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فَلَق الصُّبح، ومن فرق الصبح. وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فَلَق. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جلّ ثناؤه وضعَ دلالة على أنه عُنِي بقوله: {بِرَبِّ الْفَلَقِ} بعض ما يُدْعَى الفلق دون بعض، وكان الله تعالى ذكره ربّ كل ما خلق من شيء، وجب أن يكون معنيا به كل ما اسمه الفَلَق، إذ كان ربّ جميع ذلك".

قال ابن عاشور: رب الفلق: هو الله، لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر لأن شرا كثيرا يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعسر النجدة، وبعد الاستغاثة واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح منجاة من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة.... (التحرير).

قوله تعالى: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} [الفلق: ٢]

هذا هو المستعاذ منه الأول في هذه السورة.

ومعنى الآية: أي من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام، ومن كل شر مؤذ خلقه الله تعالى، ومن ذلك شر النفس، كما قال النبي ﷺ:

=

=

(ونعوذ بالله من شرور أنفسنا).

- وظاهر قوله تعالى: (من شر ما خلق) أنه عام في كل المخلوقات، ولكن هذا الظاهر غير مراد، لأنه من الأعيان أعيانا لا شر فيه كالملائكة والجنة.

فمعنى الآية (من شر ما خلق) أي من شر كل مخلوق فيه شر.

قال الطبري:" أمر نبيه أن يستعيذ من شرّ كل شيء، إذ كان كلّ ما سواه، فهو ما خَلَق".

وفي تفسير الآية، أقوال:

أحدها: أن شر ما خلق: جهنم، قاله ثابت البناني.

الثاني: إبليس وذريته، قاله ابن عباس، والحسن.

قال عطاء عن ابن عباس: "يريد إبليس خاصة، لأن الله تعالى لم يخلق خلقًا هو شر منه".

الثالث: أنه عام، أي: من شر ما خلق في الدنيا والآخرة، قاله الكلبي"، وابن شجرة.

وقال الكلبي: "يريد من شر كل ذي شر".

وقال مقاتل: من شر ما خلق من الجن والإنس".

قال السمعاني:" أي: من شر جميع ما خلق".

قال السعدي:" هذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها، من الشر الذي فيها".

قال ﷺ: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل منه».

وروي عنهﷺ، قال: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن

=

=

شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن».

قال الشوكاني:" أي: من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور، وقيل: هو إبليس وذريته، وقيل: جهنم، ولا وجه لهذا التخصيص، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية. وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه وتقويما لباطله، فقرؤوا بتنوين شر على أن «ما» نافية، والمعنى: من شر لم يخلقه، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن عائذ".

قال أبو حيان:" {ما}: عام، يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد، كالإحراق بالنار، والإغراق بالبحر، والقتل بالسم".

قرأ الجمهور: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}، بإضافة {شَرِّ} إلى {مَا}، وقرأ عمرو بن فايد: «من شرٍ»، بالتنوين.

قال ابن عطية:" وقرأ عمرو بن عبيد، وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر: «من شرٍ»، بالتنوين، «ما خلق» على النفي، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل، الله خالق كل شيء".

قال ابن القيم: "الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه؛ فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع لذة، لكنها شرور؛ لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح، والإحراق في النار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه... وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؛ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها الله عليه، ولا يغيرها حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

=

وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عاقبة عواقب الذنوب كما قيل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ

وحَافِظْ عليها بِشُكْرِ الإله... فَإِنَّ الإِلهَ سَرِيعُ النقَمْ

فما حفظت نعمة لله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد والهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا؛ فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء؛ فحينئذ يقول: {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]، {يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّه} [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين؛ فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه؛ فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي:

=

«عذاب القبر، وعذاب النار»؛ فهذان أعظم المؤلمات، «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»، وهذان سبب العذاب المؤلم؛ فالفتنة سبب العذاب... فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابه، وهذا من آكد أدعية الصلاة وهذا من آكد أدعية الصلاة، حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير. وأوجبه ابن حزم في كل تشهد. فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ثم قال ابن القيم -أيضًا-: "والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود، يطلب رفعه، والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد؛ كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود، فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه، والثاني: معدوم، فيطلب وجوده وحصوله؛ فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قوله: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} [آل عمران: ١٩٣]؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود؛ فإن الذنوب والسيئات شر، كما تقدم بيانه، ثم قال: {وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٣]؛ فهذا طلب لدوام الخير الموجود - وهو الإيمان - حتى يتوفاهم عليه؛ فهذان قسمان، ثم قال: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ} [آل عمران: ١٩٤]؛ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: {وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ١٩٤]؛ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة؛ فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة؛ وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة

=

=

رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} [الفلق: ٣]

هذا هو المستعاذ منه الثاني في هذه السورة.

وهذا والمستعاذ منه الثالث والرابع كلها داخلة ضمن المستعاذ منه الأول وهو قوله (من شر ما خلق) من باب التخصيص بعد التعميم لعظم ضرر هذه الأشياء الثلاثة وشدة خفائها.

أي: ومن شر ليل شديد الظلمة إذا دخل وتغلغل، وما فيه من الشرور والمؤذيات.

قال بعض العلماء: قوله تعالى: (من شر ما خلق) عام في كل شئ فما فائدة تكرار ومن شر غاسق... ومن شر النفاثات... ومن شر حاسد، جوا: هو تخصيص بعد تعميم، ليدل به على أن هذه الثلاثة من شر الشرور على الناس لكثرة وقوعها بين الناس.

قال الرازي: تنبيها على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر.

ومعنى الآية: أي من شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه.

وفي تفسير «الغاسق»، أقوال:

أحدها: يعني: الشمس إذا غربت، قاله ابن شهاب.

قال ابن شهاب:" الغاسق: سقوط الثريا، و «الغاسق إذا وقب»: الشمس إذا غربت".

الثاني: أنه القمر إذا ولج، أي: دخل في الظلام.

عن أبي سلمة قال: قالت عائشة: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع، فقال: " تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب".

وظاهر هذا الحديث أن الغاسق هو القمر، ولكن النبي ﷺ يتكلم بلسان العرب، والعرب إنما تعرف بالغسق غسق الليل، فكأن النبي ﷺ جعل القمر دليلا على

=

=

الليل، كما جعل الله تعالى في آيات كثيرة الشمس دليلا على النهار.

قال بعض العلماء: وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق ويقل فيه الغوث.

وقال ابن القيم: وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الليل إذا أقبل بظلمته ودخل في كل شيء، لأن الليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط وتنتشر شياطين الإنس والجن والهوام وغيرها من الأرواح الشريرة والخبيثة المؤذية والمفسدة، ولهذا قال ﷺ: (إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم...). متفق عليه.

قال ابن قتيبة:" ويقال: «الغَاسِقُ»: القمر، إذا كُسف فاسودَّ. {إذا وَقبَ}: دخل في الكسوف".

قال النحاس: يجوز أن تكون الاستعاذة من القمر، لأن قوما أشركوا بسببه، فنسب إليه الاستعاذة على المجاز".

وذكر بعضهم: "أن الاستعاذة من القمر؛ لأن أهل البرية يتحينون وجه القمر – أي: غروبه – وهم اللصوص وأهل الشر والفساد".

قال ابن قتيبة: "ويقال: الغاسق: القمر إذا كسف فاسودَّ. ومعنى وَقَبَ دخل في الكسوف".

الثالث: أنه الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:" كانت العرب تقول: الغاسق: سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها".

عن عثمان بن عبد الله بن سراقة قال: «كنا في سفر ومعنا ابن عمر فسألته، فقال: "

=

=

رأيت رسول الله ﷺ لا يسبح في السفر قبل الصلاة ولا بعدها"، قال: وسألت ابن عمر عن بيع الثمار، فقال: "نهى رسول الله ﷺ عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة"، قلت: أبا عبد الرحمن وما تذهب العاهة، ما العاهة؟ قال: "طلوع الثريا"».

عن أبي هريرة رفعه:"إذا طلع النجم ذا صباح، فقد رفعت العاهة عن كل بلد".

قال السمعاني:"وذلك مثل الوباء والطواعين والأسقام وما يشبهها".

وذكره المرتضى الزبيدي، بلفظ:"لا تباع الثمار حتى تطلع الثريا".

وأورده ابن حجر من رواية أبي داود بلفظ:"إذا طلع النجم صباحا رفعت العاهة عن كل بلد"، ثم قال: وفي رواية أبي حنيفة، عن عطاء: "رفعت العاهة عن الثمار".

والنجم: هو الثريا، وطلوعها صباحا يقع في أول فصل الصيف، وذلك عند اشتداد الحر في بلاد الحجاز، وابتداء نضج الثمار، فالمعتبر في الحقيقة النضج، وطلوع النجم علامة له.

وفي الباب عن زيد بن ثابت:" أنه كان لا يبيع ثماره حتى تطلع الثريا".

الرابع: أنه النجم، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ. ولكنه حديث ضعيف.

الخامس: أنه الليل، لأنه يخرج السباع من آجامها، والهوام من مكامنها ويبعث أهل الشر على العبث والفساد، رواه الوالبي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والقرظي، والسدي، والفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، والنحاس. قال الشاعر:

يا طيْفَ هِنْدٍ لقد أبقيْتَ لي أرَقا... إذ جئْتَنا طارِقًا والليلُ قد غَسَقا

قال السعدي:" أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية".

=

=

عن مجاهد: " {غَاسِقٍ}، قال: الليل، {إِذَا وَقَبَ}، قال: إذا دخل".
عن الحسن:" {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، قال: أوّل الليل إذا أظلم".
عن الحسن:" {إِذَا وَقَبَ}، قال: إذا جاء".
قال الحسن:" الليل إذا أقبل".
وعن قتادة: " {وَقَبَ}: ذهب".
وعن عطية بن سعد العَوفيّ، {ومِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ}، قال: الليل إذا ذهب".
قال القرظي:" النهار إذا دخل في الليل".
قال القرظي:" هو غروب الشمس إذا جاء الليل، إذا وقب".
قال القرظي:": هو غروب الشمس إذا جاء الليل، إذا وجب".
وقال السدي:" يعني: الليل إذا أطبق الأُفُق بظُلمته".
قال ابن قتيبة:" «الْغَاسِقُ» الليل؛ و «الغَسَقُ»: الظلْمة، {إِذَا وَقَبَ}، أي: دخل في كل شيء".
قال الطبري:" يقول: ومن شرّ مظلم إذا دخل، وهجم علينا بظلامه".
قال الفراء:" الغاسق: الليل «إِذا وَقَبَ» إِذَا دخل فِي كل شيء وأظلم، وَيُقَال: غسق وأغسق".
قال الزجاج:" {غَاسِقٍ}، يعنى: به الليل، {إِذَا وَقَبَ}: إذا دَخَل، وقيل: لليل غاسقٌ - والله أعلم - لأنه أبرد من النهار، والغاسق: البارد".
قال ابن القيم: "ولا تنافي بين القولين؛ فإن الليل بارد ومظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه".
قال النحاس:" وأكثر أهل التفسير أن «الغاسق»: الليل، ومنهم من قال: الكواكب، فإذا رجع إلى اللغة عرف منها أنه يقال: «غسق»، إذا أظلم. فاتّفقت الأقوال، لأن الشمس إذا غربت دخل الليل، والقمر بالليل يكون، والكواكب لا يكاد يطلع إلّا

=

ليلا. فصار المعنى: ومن شرّ الليل إذا دخل بظلمته فغطّى كل شيء. يقال: وقب إذا دخل".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ {وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ} وهو الذي يُظْلم، يقال: قد غَسَق الليل يَغْسُق غسوقا: إذا أظلم {إِذَا وَقَبَ}، يعني: إذا دخل في ظلامه؛ والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخصص بعض ذلك بل عمّ الأمر بذلك، فكلّ غاسق، فإنه ﷺ كان يُؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب. وكان يقول في معنى وقب: ذهب. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة: «{غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، قال: إذا ذهب»، ولست أعرف ما قال قتادة في ذلك في كلام العرب، بل المعروف من كلامها من معنى {وقب}: دخل".

قال السمعاني:" ومعنى الاستعاذة من الليل؛ لأن فيه يكون تحرك الهموم وهجوم كل ذي شر بقصد".

قال الزمخشري:" التعوّذ من شر الليل لأن انبثاثه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه".

قال الشوكاني:" قيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وقيل الغاسق: كل هاجم يضر كائنا من كان، من قولهم غسقت القرحة إذا جرى صديدها. وقيل: الغاسق: هو السائل، و الراجح في تفسير هذه الآية أن الغاسق: الليل،، ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر، والتحرز من الشرور فيه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل".

ولهذا قال ﷺ: «إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، ولو

=

تعرض عليه شيئًا».

وفي حديث آخر: «فإن الله ﷻ يبث في ليله من خلقه ما يشاء».

قال ابن تيمية: "فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك؛ فالشر دائمًا مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم؛ لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته، وأبو معشر البلخي له «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه".

قال ابن القيم:" والليل هو محل الظلام. وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار. فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة. وروى أن سائلا سأل مسيلمة: «كيف يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس». وسئل النبي ﷺ «كيف يأتيك؟ فقال: في مثل ضوء النهار».

ولهذا كان سلطان السحر إنما هو بالليل دون النهار؛ فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم، كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن. ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع؛ فإن الفلق هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص، وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور، الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها

=

وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات الكفر، قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]، وقال في أعمال الكفار: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠]، وقال ﷻ في وصف نوره ونور الإيمان: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٣٥] ".

قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤]

أي: ومن شر الساحرات اللاتي ينفخن فيما يعقدن من عُقَد بقصد السحر.

قال الطبري:" يقول: ومن شرّ السواحر الّلاتي ينفُثن في عُقَد الخيط، حين يَرْقِين عليها".

قال السعدي:" أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر".

قال البغوي:" يعني: السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها".

قال الفراء:" هن السواحر ينفثن سحرهن".

قال ابن قتيبة:" {النَّفَّاثَاتِ}: السَّواحر. و «يَنْفُثْن»: يَتْفُلْنَ إذا سَحَرْن ورَقَيْن".

=

قال الزجاج:" {النَّفَّاثَاتِ}: السواحر، تنفث: تتفل بلا ريق، كأنه نفخ كما يفعل كل من يرقى".

قال أبو عبيدة:" «النَّفَّاثاتِ»: السّحرة ينفثن، قال عنترة:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه... وإن يفقد فحقّ له الفقود".

قال ابن القيم: "والجواب المحقق أن «النفاثات» -هنا-: هن الأرواح والأنفس النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح لشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، ولهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم.. والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي".

قال الزمخشري:" {النَّفَّاثاتِ}: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها ويرقين: والنفث النفخ من ريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه. أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكنّ الله ﷻ قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان".

وقول الزمخشري:" «ولا تأثير لذلك» مبنى على مذهب المعتزلة الباطل من أنه لا حقيقة للسحر ولا تأثير له. وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره لظاهر الكتاب والسنة".

عن ابن عباس: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: ما خالط السِّحر من الرُّقَي".

عن الحسن: " {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: السواحر والسَّحرَة".

=

عن قتادة، قال: "كان الحسن يقول إذا جاز: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: إياكم وما خالط السحر".

عن معمر، قال: تلا قتادة: " {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: إياكم وما خالط السِّحر من هذه الرُّقَى".

قال طاوس:" ما من شيء أقرب إلى الشرك من رُقْية المجانين".

عن مجاهد: " {النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: الرقى في عقد الخيط".

عن عكرِمة:" {النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، قال: الأخذ في عقد الخيط".

قال ابن زيد:" {النَّفَّاثَاتِ}: السواحر في العقد".

عن الضحاك:" {النفاثات}، قال: السواحر".

قال الخليل:" النفث: نفثك في العقد ونحوها".

قال الأزهري:" التفل بالفم لا يكون إلا ومعه شيء من الريق، فإذا كان نفخا بلا ريق فهو النفث".

قال الصاحب بن عباد:" النفث: النفخ كما ينفث الراقي. والنافثة: الساحرة، وهن النوافث والنافثات".

قال الجوهري:" النفث: شبيه بالنفخ، وهو أقل من التفل. وقد نفث الراقي ينفث وينفث.

{والنفاثات في العقد}: السواحر ". التفل: شبيه بالبزق، وهو أقل منه. أوله البزق، ثم التفل، ثم النفث، ثم النفخ... ومنه: تفل الراقي. ورجل تفل، أي غير متطيب".

قال ابن الأنباري: "قال اللغويون: تفسير «نَفَثَ»: نَفَخَ نفخًا ليس معه ريق، ومعنى «تفل»: نفخ نفخا معه ريق. وقال ذو الرّمّة:

ومن جوف ماء عرمض الحفل فوقه... متى تحس منه ماثح القومِ يَتْفُلِ".

وقال بعض المفسرين: "المراد ب «النَّفَّاثات» -هاهنا-: بنات لبيد أعصم

=

اليهودي سحرن رسول الله ﷺ".

قال أهل التفسير: "من السواحر ينفثن في عقد الخيوط للسحر، قال الشاعر:

أَعُوذُ بربِّي مِن النَّافِثا... تِ في عُقَدِ العاضِهِ المُعْضِهِ

وربما فعل قوم في الرقى مثل ذلك، طلبًا للشفاء، كما قال متمم بن نويرة:

نَفَثْت في الخيط شبيه الرُّقَى... من خشيةِ الجِنّة والحاسدِ"

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه».

عن أبي سعيد الخدري: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: "اشتكيت يا محمد؟ فقال: "نعم". فقال: بسم الله أرْقِيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك".

قال ابن كثير:" ولعل هذا كان من شكواه، عليه السلام، حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرَة الحسَّاد من اليهود في رءوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوما من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى".

عن زيد بن أرقم قال: " سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا في بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله ﷺ، فاستخرجوها، فجيء بها، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه قط".

روى ابن أبي سُرَيج: «النافثات»، بألف قبل الفاء مع كسر الفاء وتخفيفها.

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه إيهام للأذى وتخيل للمرض من غير أن يكون له تأثير في الأذى والمرض، إلا استشعار ربما أحزن، أو طعام ضار ربما نفذ بحيلة خفية. حكاه ابن

=

=

فورك.

قال النحاس:" يقال: أنّهنّ نساء سواحر كنّ في عهد النبي ﷺ أمر بالاستعاذة منهن لأنهنّ يوهمن أنهنّ ينفعن أو يضررن فربّما لحق الإنسان في دينه ما يأثم به. فأما السحر فباطل".

الثاني: أنه قد يؤذى بمرض لعارض ينفصل فيتصل بالمسحور فيؤثر فيه كتأثير العين، وكما ينفصل من فم المتثائب ما يحدث في المقابل له مثله. حكاه الماوردي.

الثالث: أنه قد يكون ذلك بمعونة من خدم الجن يمتحن الله بعض عباده دون بعض. حكاه ابن فورك.

قال ابن فورك:" وفي السورة تعليم ما يستدفع به الشرور بإذن الله على تلاوة ذلك بالإخلاص فيه، والاتباع لأمر الله تعالى".

فأما المروي من سحر النبي ﷺفقد أثبته أكثرهم، وأن قومًا من اليهود سحروه وألقوا عقدة سحره في بئر حتى أظهره الله عليها.

عن عائشة قالت: "سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أن يفعل الشيء وما يفعله، قالت: حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم قال: " يا عائشة شعرت أن الله ﷻ قد أفتاني فيما استفتيته فيه، جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر أروان " قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، ثم جاء فقال: " يا عائشة لكأن ماءها نقاعة

=

=

الحناء، ولكأن نخلها رءوس الشياطين " قلت: يا رسول الله، فهلا أحرقته؟ قال: " لا، أما أنا فقد عافاني الله ﷻ، وكرهت أن أثير على الناس منه شرا "، قالت: فأمر بها فدفنت ".

وأنكره آخرون، ومنعوا منه في رسول الله ﷺ وإن صح في غيره، لما في استمراره عليه من خبل العقل، وأن الله تعالى قد أنكر على من قال في رسوله حيث يقول: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} [الإسراء: ٤٧].

قلت: لم يترتب على ذلك السحر اليهودي شيء مما يضر الناس أو يخل بالرسالة أو بالوحي، والله جل وعلا عصمه من الناس مما يمنع وصول الرسالة وتبليغها.، وأما ما يصيب الرسل من أنواع البلاء فإنه لم يُعصم منه عليه الصلاة والسلام، بل أصابه شيء من ذلك، فقد جُرح يوم أحد، وكُسرت البيضة على رأسه، ودخلت في وجنتيه بعض حلقات المغفر، وسقط في بعض الحفر التي كانت هناك، وقد ضيقوا عليه في مكة تضييقا شديدا، فقد أصابه شيء مما أصاب من قبله من الرسل، ومما كتبه الله عليه، ورفع الله به درجاته، وأعلى به مقامه، وضاعف به حسناته، ولكن الله عصمه منهم فلم يستطيعوا قتله ولا منعه من تبليغ الرسالة، ولم يحولوا بينه وبين ما يجب عليه من البلاغ فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﷺ.

قال المازري: "أنكر المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدَّى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثَمَّ هناك، وأنه يوحي إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، قال المازري: وهذا كله مردود؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وأما ما يتعلق ببعض الأمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ولا كانت

=

=

الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين.

قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن، وهذا كثيرًا ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة.

قلت - أي: ابن حجر -: وهذا قد ورد صريحًا في رواية ابن عيينة عند البخاري، ولفظه: «حتى كان يرى» أي: يظن «أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»، وفي رواية الحميدي: «أنه يأتي أهله ولا يأتيهم».

قال عياض: "فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده"

وقال المهلب: "صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، ففي الصحيح أن شيطانًا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه، فكذلك السحر، ما ناله من ضرره لا يدخل نقصا على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفعل، أو حدوث تخيل لا يستمر، بل يزول ويبطل الله كيد الشياطين ".

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هديه ﷺ في علاج السحر الذي سحرته اليهود به: قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنُّوه نقصًا وعيبًا، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «سُحِر رسول الله حتى إن كان ليخيَّل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن، وذلك أشد ما يكون من السحر»، قال القاضي عياض: والسحر مرض

=

=

من الأمراض، وعارض من العلل، يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكر، ولا يَقدح في نبوته.

وأما كونه يخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله: فليس في هذا ما يُدخل عليه داخلة في شيء من صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز أن يطرأ عليه في أمر دنياه التي لم يُبعث لسببها، ولا فُضِّل من أجلها، وهو فيها عُرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أنه يخيَّل إليه مِن أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان".

وبعد، فقد تبيَّن صحة الحديث، وعدم تنقصه من منصب النبوة، والله سبحانه وتعالى يعصم نبيَّه ﷺ قبل السحر وأثناءه وبعده، ولا يعدو سحره عن كونه متعلقًا بظن النبي ﷺ أنه يأتي أهله وهو لم يفعل، وهو في أمرٍ دنيوي بحت، ولا علاقة لسحره بتبليغ الرسالة البتة، وفيما سبق من كلام أهل العلم كفاية.

قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق: ٥]

أي: ومن شر حاسد مبغض للناس إذا حسدهم على ما وهبهم الله من نعم، وأراد زوالها عنهم، وإيقاع الأذى بهم.

قال المراغي:" أي ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده، بالسعي والجد في إزالة نعمة من يحسده".

قال الزمخشري:" {إِذا حَسَدَ}: إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه: من بغى الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره.. يجوز أن يراد بشر الحاسد: إثمه وسماجة حاله في وقت حسده، وإظهاره أثره.. وقوله: {مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ} تعميم في كل ما يستعاذ منه، وبعد ذلك خصّ شرّ «الغاسق» و «النفاثات»، و «الحاسد»، لخفاء أمره، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وقالوا: شر العداة

=

=

المداجى الذي يكيدك من حيث لا تشعر".

وفي الاستعاذة: {مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد} [الفلق: ٥] وجهان:

أحدهما: أنها عام في كلّ حاسد أمر النبيّ ﷺ أن يستعيذ من شرّ عينه ونفسه، وهذا قول قتادة، وعطاء الخراساني، وبه قال النحاس، وقال الشاعر:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسبُونَكَ سيِّدًا... وإِخَالُ أَنَّك سَيِّدٌ مَعْيُونُ

عن قتادة: " {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، قال: من شرّ عينه ونفسه".

قال ابن عطية:" يريد ب «النفس»: السعي الخبيث والإذاية كيف قدر، لأنه عدو مجد ممتحن".

وحكي سهل عن ابن عباس: في هذه الآية: "هو نفس ابن آدم".

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: "العين حق، تستنزل الحالق".

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا".

قال النووي-في شرح الحديث-:" فيه إثبات القدر، وهو حق بالنصوص وإجماع أهل السنة، ومعناه أن الأشياء كلها بقدر الله تعالى، ولا تقع إلا على حسب ما قدرها الله تعالى وسبق بها علمه، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر الله تعالى، وفيه صحة أمر العين وأنها قوية الضرر، والله أعلم".

الثاني: أنها خاصة بالإستعاذة من شرّ اليهود الذين حسدوه. وهذا قول الحسن، وابن زيد، وبه قال الفراء.

عن ابن زيد:" {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، قال: يهود، لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم".

عن الحسن:" {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، يعني: اليهود هم حسدة الإسلام".

وروي عن الحسن في قوله: {ومن شر حاسد إذا حسد} قال: هو أول ذنب كان في

=

=

السماء".

وقال الفراء:" يعنى: الذي سحره لبيدا".

قال النحاس:" أولى ما قيل في هذا قول قتادة".

قال الطبري:" وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: أمر النبيّ ﷺ أن يستعيذ من شرّ كلّ حاسد إذا حسد، فعابه أو سحره، أو بغاه سوءًا، لأن الله ﷻ لم يخصص من قوله: {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}، حاسدا دون حاسد، بل عمّ أمره إياه بالاستعاذة من شرّ كلّ حاسد، فذلك على عمومه".

قال الزمخشري:" عرفت {النفاثات}، لأن كل نفاثة شريرة، ونكر {غاسق}، لأنّ كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل {حاسد} لا يضرّ. ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين»، وقال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال:

إنّ العلا حسن في مثلها الحسد".

قال الشوكاني:" ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره، وهو الغاسق والنفاثات والحاسد، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر".

قال السمعاني:" الحسد: هو تمني زوال النعمة عن المنعم عليه".

قال الماوردي:" أما الحسد: فهو تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها، والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل، فالحسد شر مذموم، والمنافسة رغبة مباحة، وقد روي أن النبي ﷺ، قال: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» ...

=

=

وقيل: إن الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء والأرض فحسد إبليس آدم حتى أخرجه من الجنة، وأما في الأرض فحسد قابيل بن آدم لأخيه هابيل حتى قتله، نعوذ بالله من شر ما استعاذنا منه ".

قال السعدي:" والحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا. ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله".

قال ابن القيم: "ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك؛ ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قِبَله إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله، ويتحصن به، ويكن له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله، والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: {إِذَا حَسَدَ} بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.. ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها، إذا لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره، لم يؤثر فيه شيئا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيّفت نفسه الخبثة وانسمّت، واحتدت فصارت نفسا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه، وقوة نفس الحاسد. فربما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فوّق سهما نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلا. وربما صرعه وأمرضه. والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا

=

=

أكثر من أن تذكر. وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة. وهي في ذلك بمنزلة الحيّة التي إنما يؤثر سمها إذا عضّت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السمّ، فتؤثر في اللديغ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة. فتطمس البصر، وتسقط الحبل. كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر، وذي الطّفيتين منها. فقال «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر، ويسقطان الحبل».

فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها؟ فلله كم من قتيل؟ وكم من سليب؟ وكم من معافى عاد مضنى على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو؟ فصدق. ليس هذا الداء من علم الطبائع. هذا من علم الأرواح وصفاتها. وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع، وانفعال الأجسام عنها. وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له. ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه.

وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الانفعال والتأثير، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة، والآثار الغريبة إلا من الأرواح، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع؟ فالصنعة في الحقيقة له، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع. ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيرتها، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها. وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، خالق الأسباب والمسببات- رأى عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية الله، وعظمة ربوبيته، وأن ثم عالما آخر تجرى عليه أحكام أخر، تشهد آثارها. وأسبابها غيب عن الأبصار. فتبارك الله رب العالمين. وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

=

=

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع، وعجائبه أبهر وآياته أعجب. وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؟ كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك، أو يعاديك، ويخفّ عليك أو يثقل، ويؤنسك أو يوحشك إلا ذلك الأمر الذي هو وراء الهيكل المشاهد بالبصر؟ فرب رجل عظيم الهيولى كبير الجثة. خفيف على قلبك، حلو عندك. وآخر لطيف الخلقة، صغير الجثة، أثقل على قلبك من جبل. وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها. وبالجملة: فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد: إنما هي للأرواح أصلا والأشباح تبعا".

وفي الحديث: «إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب».

وقال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء».

فهو مع الكبر الذي حمل إبليس على ترك السجود لآدم والكفر والخروج من ملكوت السموات والأرض وطرده وإبعاده وتخليده في النار، كما قال ﷻ عنه أنه قال: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١]، وقال: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [الإسراء: ٦٢]، وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢٣، ص: ٧٦]، وهو الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه لما تقبل الله قربانه دونه، كما قال ﷻ {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]، وهو من صفات اليهود؛ فهو الذي حملهم على رد

=

رسالة الحق، رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قال الله ﷻ عنهم: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة:١٠٩]، وقال ﷻ: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء:٥٥]، وهو الذي حمل ثمود على تكذيب نبيهم صالح، ورد دعوته، كما قال الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} [القمر: ٢٥]، وهو الذي حمل كفار قريش على تكذيب الرسول ﷺ، ورد دعوته، كما قال الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١].

والحسد داء عضال، ومرض عام ومنتشر، لا يكاد يسلم منه أحد، إلا من عصمه الله، وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه».

وقيل للحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف».

قال أبو الدرداء: "ما أكثر عبد ذكر الموت إلّا قلّ فرحه وقلّ حسده".

قال ابن سيرين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:" ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار".

قال بعض الحكماء: "بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه:

أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟

وثالثها: أنه ضاد فعل الله، أي إن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله.

ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم.

وخامسها: أنه أعان عدوه إبليس".

=

وقيل: "الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعا وغما، ولا ينال في الآخرة إلا حزنا واحتراقا، ولا ينال من الله إلا بعدا ومقتا".

وروي أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين».

قال ابن عطية:" وعين الحاسد في الأغلب لاقعة نعوذ بالله من شرها.. وهذه السورة خمس آيات فقال بعض الحذاق: وهي مراد الناس بقولهم للحاسد إذا نظر إليهم: «الخمس على عينيك»، وقد غلطت العامة في هذا، فيشيرون في ذلك بالأصابع لكونها خمسة".

قال الحسن بن الفضل:" إنّ الله جمع الشرور في هذه الآية وختمها بالحسد ليعلم أنه أخسّ الطبائع".

قال ابن الجوزي:" الحسد: أخس الطبائع. وأولُ معصية عُصِيَ الله بها في السماء حَسَدُ إبليس لآدم، وفي الأرض حسد قابيل لهابيل".

وعن عمر بن عبد العزيز: "لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد".

وللحسد المذموم مرتبتين اثنتين:

إحداهما: تمني زوال النعمة عن الغير.

الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة: فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله، من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس.

وإبليس أول الحاسدين، حسد أبانا آدم - عليه السلام - على شرفه وفضله، وأبى أن

=

=

يسجد له حسدًا وكبرًا؛ وعلى هذا فالحسد يكون من شياطين الجن وشياطين الإنس، وهذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب، وهو المراد بقوله {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} وفي الحديث: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب».

وإنما حرم الحسد وعد من كبائر الذنوب لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمته الأرزاق بين عباده كما قيل:

سبحان مَن قَسَّمَ الحُظوظَ فَهَذا... يَتَغَنّى وَذاكَ يَبكي الدِيارا

و-أيضًا- لما فيه من أذية المحسود بلا ذنب منه ولا جرم، وغير ذلك.

ويدخل في الحاسد: العائن الذي يؤذي المحسود بنفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، كما قال ﷻ عن المشركين: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} [القلم: ٥١ [، قال ابن كثير: "أي: ليَعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة".

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية جبريل للنبي ﷺ قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك».

فعوّذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد، لما اشتكى. فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشاكيته ﷺ، وإلّا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

قال ﷺ: «العين حق، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا».

فالعائن حاسد، لكنه حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا - والله أعلم - إنما جاء في السورة ذكر

=

=

الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن.

قال ابن القيم:" فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة. فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها. كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني. وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستعير. وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر. وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٢ - ٣]، فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته. فإن الله بالغ أمره. وقد جعل الله لكل شيء قدرا. لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله. قال تعالى: ١٦: ٩٨، ٩٩ {فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٨ - ١٠٠] وقال: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم. فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم".

وقال ابن القيم: وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله (إذا حسد) لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئا من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يجب، فهذا لا يكاد

=

=

يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.....

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: ما خلا مجتمع من التغاير، إلا ما كان في جانب الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: الحسد ثلاث مراتب:

أحدها: أن يحسد ويقوم بمقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم.

والثاني: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبدا، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدا إلا قهرا.

والثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وفي الصحيح قال ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس) فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

قال النسفي: والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق، إشعار بأن شر هؤلاء أشد، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عصي الله به في

=

=

السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل.

وقال الشوكاني: ذكر الله سبحانه في سورة الفلق إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره، ومزيد ضره، وهو الغاسق، والنفاثات، والحاسد، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر، حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) رواه مسلم.

قال النووي: فيه بيان عظم فضل هاتين السورتين، وفيه دليل واضح على كونهما من القرآن، ورد على من نسب إلى ابن مسعود خلاف هذا، وفيه أن لفظة (قل) من القرآن ثابتة من أول السورتين بعد البسملة، وقد أجمعت الأمة على هذا كله.

وعنه. قال (بينا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال: ألا تركب يا عقبة؟ فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركب رسول الله ﷺ، ثم قال: ألا تركب يا عقبة؟ فأشفقت أن يكون معصية، فنزل وركبت هنيهة، ونزلت، وركب رسول الله ﷺ، ثم قال: ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ فأقرأني قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، فأقيمت الصلاة، فتقدم فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: كيف رأيت يا عقبة بن عامر؟ اقرأ بهما كلما نمت وقمت) رواه النسائي.

وعن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت (كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد وبالمعوذتين جميعا ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده قالت عائشة فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به) رواه البخاري.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت (المعوذتان)، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما).

=

=

وعن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها) رواه البخاري.

قال ابن القيم: تضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

قوله تعالى: (قل أعوذ برب الفلق) أي: قل يا محمد ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل.

قال بن عباس: الفلق: الصبح، واختار هذا القول البخاري في صحيحه، وابن جرير وابن كثير.

قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ: أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرا لطلوع الصباح؛ فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح.

(فائدة): قد ذكر الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ بحثًا نفيسًا في بدائع الفوائد قال فيه: والمقصود الكلام على هاتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة، بل الضرورةِ إليهما، وأنه لا يَستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرًا خاصًّا في دفع السحر، والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النَّفَس والطعام والشراب واللباس.

فنقول -والله المستعان-: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول، وهي أصول الاستعاذة: أحدها: نفس الاستعاذة، والثانية المستعاذ به، والثالثة المستعاذ منه، فبمعرفة ذلك تُعْرَف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة، والثاني في المستعاذ به، والثالث في المستعاذ منه:

=

=

[الفصل الأول]: الاستعاذة، وبيان معناها:

(اعلم): أن لفظ عاذ، وما تصرف منها يدلّ على التحرّز والتحصّن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى مَن يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به مَعَاذًا، كما يسمى ملجًا ووَزَرًا.

وفي الحديث أن ابنة الْجَوْن لما أدخلت على النبيّ ﷺ، فوضع يده عليها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: "قد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك"، رواه البخاريّ.

فمعنى أعوذ ألتجئ، وأعتصم، وأتحرز، وفي أصله قولان:

[أحدهما]: أنه مأخوذ من السَّتْر، والثاني أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها: عُوَّذ -بضم العين، وتشديد الواو، وفتحها- فكأنه لما عاذ بالشجرة، واستتر بأصلها وظلها سَمَّوه عُوَّذًا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوّه بمن استعاذ به منه، واستجَنَّ به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للَّحم إذا لَصِقَ بالعظم، فلم يتخلص منه: عُوَّذ؛ لأنه اعتصم به، واستمسك به، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به، واعتصم به ولزمه، والقولان حقّ، والاستعاذة تنتظمهما معًا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه، متمسك به، معتصم به، قد استَمْسَك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفًا، وقصده به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يُلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هَرَب من عدوه الذي يَبْغَى هلاكه إلى ربه ومالكه، وفَرّ إليه، وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبَعْدُ فمعنى الاستعاذة القائمُ بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي

=

=

الربّ، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه أمرٌ لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبيرُ عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا يُدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لِعِنِّين لم تُخْلَق له شهوة أصلًا، فلو قرّبتها وشبّهتها بما عساك أن تشبهها به، لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خُلِقت فيه، ورُكِّبت فيه عَرَفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل أَعْوُذُ بتسكين العين، وضم الواو، ثم أُعل بنقل حركة الواو إلى العين، وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب، ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذٌ، وأصله عاوِذٌ، فوقعت الواو بعد ألف فاعلٍ، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم وخائف، وقالوا في المصدر: عياذًا بالله، وأصله عِوَاذًا كَلِوَاذًا، فقلبوا الواو ياء؛ لكسرة ما قبلها، ولم تَحْصُنها حركتها؛ لأنها قد ضَعُفَتْ بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذٌ، وأصله مُستَعْوِذٌ، كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها، ثم قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياءً على أصل الباب.

[فإن قلت]: فَلِمَ دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل، كقوله {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ}، ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعُذْت بالله، دون أستعيذ، واستعذت؟.

[قلت]: السين والتاء دالّة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير الله، أي أطلب خيرته، وأستغفره، أي أطلب مغفرته، وأستقيله، أي أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله، فقد امتثل ما طُلب منه؛ لأنه طُلب منه الالتجاء والاعتصام، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله، أَتَى بالفعل الدالّ على ذلك، دون الفعل

=

=

الدالّ على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: استَغْفِرِ اللهَ، فقال: أستغفر الله، فإنه طُلِب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلًا؛ لأن المعنى أطلب من الله تعالى أن يغفر لي.

وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيذ بالله تعالى، أي أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنًى غيرُ نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه، فالأول يخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبرُه يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه، والثاني طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني، فحال الأول أَكمَل مَجِيء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر.

ولهذا جاء عن النبيّ ﷺ في امتثال هذا الأمر: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، و"أعوذ بكلمات الله التامات"، و"أعوذ بعزة الله وقدرته"، دون أستعيذ، بل الذي علمه الله إياه أن يقول: أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس، دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

[الفصل الثاني]: في المستعاذ به:

المستعاذُ به وهو الله وحده ربّ الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شرّ ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورَهَقًا، فقال حكاية عن مؤمني الجن: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)} [الجن: ٦]، جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر، فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي فزاد الإنس الجن

=

=

باستعاذتهم بسادتهم رَهَقًا، أي طغيانًا وإثمًا وشرًّا، يقولون: سُدْنا الإنس والجنّ، والرهق في كلام العرب الإثم، وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتَجَّ أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة، بأن النبيّ ﷺ استعاذ بقوله أعوذ بكلمات الله التامات، رواه مسلم، وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا.

ونظير ذلك قوله: "أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك"، رواه مسلم، فدلَّ على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق، وكذلك قوله: "أعوذ بعزة الله وقدرته"، أخرجه مسلم، وقوله: "أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات"، إسناده قابل للتحسين، وما استعاذ به النبيّ ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله، أو صفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الربّ والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفَلَق، وإلى الناس، ولا بدّ من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها، وقد قرَّرنا في مواضع متعددة أن الله ﷻ يُدْعَى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه.

وقد قال النبيّ ﷺ في هاتين السورتين: إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما، فلا بدّ أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب، وهو دفع الشرّ المستعاذ منه، أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه، فتتبين المناسبة المذكورة، فنقول:

[الفصل الثالث]: في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين، الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين: إما ذنوب وقعت منه، يعاقب عليها، فيكون

=

=

وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشرّ هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرّين وأدومهما، وأشدّهما اتصالًا بصاحبه، وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف، أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجنيّ، وغير المكلف مثل الهوامّ، وذوات الْحُمَّى، وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها، بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذةً، بحيث لم يبق شرّ من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة: أحدها: شر المخلوقات التي لها شرّ عمومًا، الثاني: شر الغاسق إذا وقب، الثالث: شر النفاثات في العقد، الرابع: شر الحاسد إذا حسد، فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تُدفع بعد وقوعها.

وقبل الكلام في ذلك لا بدّ من بيان الشرّ ما هو؟ وما حقيقته؟ فنقول: الشرّ يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يُفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك.

فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذّة، لكنها شرور؛ لأنها أسباب الآلام، ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار، والْخَنْق بالْحَبْل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بدّ ما لم يمنع السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان، وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب، فيدفع الأقوى للأضعف.

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة، كأسباب الصحة والمرض، وأسباب

=

=

الضعف والقوة، والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذّةٌ ما هي شرّ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهيّ لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذّ لآكله، وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بدّ، حتى لو لم يُخْبِر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده، وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قَصّ الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره، وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ.

فما حُفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النِّعَم التي تَعْمَل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم، استغنى عن تعريف غيره له، والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولا بدّ وأما كون مسبباتها شرورًا، فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسيّ ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات.

ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حقَّ التفطن لأعطاه حقّه من الحذر والجدّ في الهرب، ولكن قد ضُرِب على قلبه حجاب الغفلة؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا،

=

=

فلو تيقظ حقّ التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله تعالى، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم، والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: {يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر: ٢٤]، و {يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} [الزمر: ٥٦].

مَدارُ المستعاذات على الآلام وأسبابها:

ولما كان الشرّ هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبيّ ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكلُّ ما استعاذ منه، أو أمر بالاستعاذة منه، فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهنّ، وهي عذاب القبر، وعذاب النار، فهذان أعظم المؤلمات، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، رواه البخاريّ، ومسلم، والنسائيّ.

وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا، وذكر نوعي الفتنة؛ لأنها إما في الحياة، وإما بعد الموت، ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدةً، وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ، فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يَدْعُ به في التشهد الأخير، وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به بطلت صلاته.

استعاذة النبي ﷺ من ثمانية أشياء:

ومن ذلك قوله: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والْحَزَن، والعجز والكسل، والْجُبْن والبخل، وضَلَع الدين، وغلبة الرجال". رواه البخاريّ، ومسلم، والنسائيّ.

فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان، فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهمّ توقع الشر في المستقبل، والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي، أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم

=

=

وعذاب يَرِدُ على الروح، فإن تعلق بالماضي سُمّي حَزْنًا، وإن تعلق بالمستقبل سمي هَمًّا.

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم؛ لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح؛ لفواته بحسب تعلقها به، والتذاذها بإدراكه، لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه وبينها أيضًا فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضَلَع الدين، وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها، أحدهما قهر بحقّ، وهو ضلع الدين، والثاني قهر بباطل، وهو غلبة الرجال، وأيضًا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ من المأثم والمغرم، رواه البخاريّ، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: "أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك"، رواه مسلم، فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام، وأقوى أسبابها.

وهكذا طوّل نفسه الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضوع بما لم يُسبَق إلى جمعه، وتحقيقه، وإيراده في محلّ واحد، فللّه درّه من إمام محقّق، وجهبذ مدقّق، فإن أردت استيفاء هذا البحث، فارجع إلى كتابه الممتع "بدائع الفوائد".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) (الفلق: ٣ –

=

=

٥)، للسائل أن يسأل عن التقييد بالظرف في قوله تعالى: (ومن شر غاسق إذا وقب) وفي قوله: (ومن شر حاسد إذا حسد) فلم تقع الاستعاذة من شر هذين بتقييد الوقوب في الغاسق ووقع الحسد من الحاسد ويطلق حكم الاستعاذة من شر النفاثات وهن الساحرات، ولم يقل إذا نفثن أو سحرن فيقيد كما قيد ما قبل وما بعد، فما الفرق؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن قوله سبحانه في سورة: (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) (طه: ٦٩)، إطلاق حاكم بتماديه وتمادي حكمه على تلك الصفة المذمومة، فلم يكن التقييد في آية الفلق لو قيل: إذا كذا ليطابق ما ورد في سورة طه من الإطلاق. ثم إن السحر كفر، وقد ذكر سبحانه قول الملكين للطالب تعلمه: (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) (البقرة: ١٠٢) أي بتعلم السحر، (ولا بسحركم سحر الساحر ولا يسمي ساحرًا إلا باعتقاد. فتبين أن السحر شر مطلق)، فورد التعوذ منه مطلقًا غير مقيد بوقوع أو () وتأثير الكواكب وذلك كفر، وما أجرى الله سبحانه من التأثير في العالم عند تلاقيها وتقابلها وتنازرها وما في ذلك من تفصيل التناظر، كل ذلك فعل الله سبحانه ولا تأثير إلا له جل وتعالى، (ويقتل الساحر ولا استتابة) في قول.

أما الغاسق فإن الليل إذا أظلم، وليس الشر منه بما هو ليل مظلم إنما هو ستر لذوي الشر لاحتجابهم بظلمته عن أعين الناس فيوقعون فيه شرهم، فالشر فيه لا منه. ألا تري أنه لأهل الخير رحمة ونعمة، وكذلك لكل من لا يترصده لشر، قال تعالى: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (القصص: ٧٣) أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار. وتردد ذكر الليل في غير ما آية في كتاب الله معدودا في نعم الله تعالى على عباده، وهو شقيق النهار في تلك. ثم إنه من حيث هو لباس وستر عن الأعين فيمكن فيه لأهل الشر

=

=

ما لا يمكنهم في نهارهم، فيستحكم فيه شرهم عند امتداد ظلمته لأمنهم من الناس في ذلك. فتبين أنه ليس شرًا بما هو ليل إنما الشر فيه وعنده لا به بما هو ليل ولا منه، ولا يتمكن مطلوق ذوي الشر إلا في ظلمته، فنسبة الشر إليه بهذا الوجه، والإضافة في لسان العرب تكون بأدنى ملابسة، قال تعالى: (لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) (النازعات: ٤٦) والضحى ليس للعشية وإنما هما طرفان للنهار فصحت الإضافة بهذا القدر، وقال تعالى: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) (سبأ: ٣٣) والليل والنهار لا يمكران غنما يكون المكر فيهما، قال معناه سيبويه، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما الحاسد فإن القائم بنفسه من هذه الصفة قبل أن يمضى يمكن أن ينفذها حسدًا ويمكن أن ينفذها غبطة، فإذا لا يتبين كونه حسدًا إلا بعد أن يمضى ويوقع، ألا تري اتحاد ما يقوم بالنفس أولًا من هذه الصفة. بيان ذلك أن كل عاقل - بما هو عاقل - إذا رأي نعمة على غيره من دين أو دنيا أعجبته وتمناها لنفسه، فإن أراد زوالها عمن ظهرت عليه وانفراده هو بها فهذا هو الحسد المذموم، وإن تمنى مثلها أو أكثر وبقاء تلك على صاحبها فهذه هي الغبطة، وهي من صفات المؤمنين. فقد وضح أنه إنما يكون حسدًا ويوصف بتلك الصفة عند ظهوره وقوعه على الصفة المذمومة وأما قبل ذلك فلا شر فيه ولا هو شر، ألا تري أن الحساد لو قامت به تلك الفة ثم تذكر واستغفر لمن رأي النعمة به والخير وركن قله إلى ذلك لم يؤاخذ شرعًا بتلك الهمة والخطرة، وقد نص الشترع على ذلك، واتفق العلماء والقاضي أبو بكر ومن قال بقوله على تلقى الوارد في هذا عن الشارع، عَلَيْهِ السَّلَامُ، منزلا على ما ذكرته. فلما كان حال الحسد على ما ذكر وحال الغاسق على ما تقدم ذلك وقع التقييد في الإستعاذة من شرهما بالظرف فقيل: (إذا وقب) و (إذا حسد)، ولم يقع تقييد في الإستعاذة من شر السحرة، وجاء كل من ذلك على ما يجب ويناسب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم. ا.ه من ملاك التأويل

=

سورة الناس(١)

=

(٢/ ٥١٧-٥١٨).

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال قتادة.

الثاني: مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وابن الزبير.

قال ابن عاشور:" هي مكية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مكية، ومدنية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مدنية. والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين، فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى".

* وآياتها سبع عند المكِّيّين، والشَّاميّين، وستّ عند الباقين. المختلف فيها آية: {مِن شَرِّ الوسواس} . وكلماتها عشرون. وحروفها تسع وسبعون. وفواصلها على السين.

* تسمى «سورة الناس» اشتهرت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير ب «سورة الناس»، ووجه تسميتها لافتتاحها بقوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١]، وقد تكررت كلمة «الناس»، فيها خمس مرات.

وتسمى سورة «قل أعوذ برب الناس» لقد تقدم في الاسم الثاني لسورة «الفلق»، أن النبيﷺ والصحابة الكرام، سموها سورة: «قل أعوذ برب الناس».

روي عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}».

عن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-:" أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}، ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من

=

=

جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

وقد عنونها البخاري في «صحيحه»: سورة «قل أعوذ برب الناس»، بإضافة كلمة «سورة» إلى أول جملة منها.

وتسمى سورة «المعوذتين» قد تقدم في الاسم الثالث ل «سورة الفلق»، أنها و «سورة الناس»، تسميان: «المعوذتين»، وكذلك جاء في كلام بعض الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين-.

روي عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة». بكسر الواو المشددة وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات، أي: آيات السورتين.

وفي رواية: «بالمعوذتين في دبر كل صلاة».

وعنون لها -من القدماء-ابن عطية، والثعالبي في تفسيريهما: سورة «المعوذة الثانية»، وعنون لها الترمذي مع سورة الفلق ب «المعوذتين»، وكذلك فعل الكلبي في تفسيره.

وتسمى سورة «المشقشقتين» سبق -أيضا- أنها هي و «الفلق» تسميان: «المشقشقتين»، وقد سماهما بهذا الاسم السخاوي، والسيوطي، دون ذكر مستندهما في هذه التسمية.

وتسمى سورة «المقشقشتين» تقدم في مقدمة سورة «الفلق»، أن بعض المفسرين سموهما: «المقشقشتين» -بتقديم القافين على الشينين-، أي: تبرئان من النفاق.

وقد وردت في بعض المصاحف سورة «الملك»، وهي تسمية للسورة ببعض ألفاظها، قال تعالى: {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس: ٢]، ولم أقف عليه عند أحد من المفسرين.

* معظم مقصود السّورة: الاعتصام بحفظ الحقِّ - تعالى - وحياطته، والحذر

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١).

{قُلْ أَعُوذ بِرَبِّ النَّاس} خَالِقهمْ وَمَالِكهمْ خُصُّوا بالذكر تشريفا لهم ومناسبة للاستعاذة من شر الموسوس في صدورهم.

مَلِكِ النَّاسِ (٢) .

{ملك الناس} .

إِلَهِ النَّاسِ (٣).

{إِلَه النَّاس} بَدَلَانِ أَوْ صِفَتَانِ أَوْ عَطْفَا بَيَان وَأَظْهَر الْمُضَاف إِلَيْهِ فِيهِمَا زِيَادَة لِلْبَيَانِ.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤).

=

والاحتراز من وَسْواس الشيطان، ومِن تعدّى الجنّ والإِنسان، فى قوله: {مِنَ الجنة والناس} .

* ومن المتشابه قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس} ثمّ كرّر {الناس} خمس مرّات. قيل: كرّر تبجيلًا لهم على ما سبق. وقيل: كرّر لانفصال كلّ آية من الأُخرى بعدم حرف العطف. وقيل: المراد بالأَوّل الأَطفال ومعنى الرّبوبيّة يدلّ عليه، وبالثّانى الشُّبّان ولفظ المُلْك يدلّ عليه؛ لأَنَّه مُنبىء عن السّياسة - وبالثالث الشيوخ - ولفظ (إله) المنبئ عن العبادة يدلّ عليه؛ وبالرابع الصّالحون والأَبرار - والشيطان مولع بإِغوائهم، وبالخامس المفسدون والأَشرار، وعَطْفه على المعوَّذ منهم يدلّ عليه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٥٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{مِنْ شَرّ الْوَسْوَاس} الشَّيْطَان سُمِّيَ بِالْحَدَثِ لِكَثْرَةِ مُلَابَسَته لَهُ {الْخَنَّاس} لِأَنَّهُ يَخْنِس وَيَتَأَخَّر عَنْ الْقَلْب كُلَّمَا ذُكِرَ الله.

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥).

{الَّذِي يُوَسْوِس فِي صُدُور النَّاس} قُلُوبهمْ إِذَا غَفَلُوا عَنْ ذِكْر الله.

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦).

{مِنْ الْجِنَّة وَالنَّاس} بَيَان لِلشَّيْطَانِ الْمُوَسْوِس أَنَّهُ جِنِّيّ وَإِنْسِيّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى شَيَاطِين الْإِنْس وَالْجِنّ أَوْ مِنْ الْجِنَّة بَيَان لَهُ وَالنَّاس عَطْف عَلَى الْوَسْوَاس وَعَلَى كُلّ يَشْتَمِل شَرّ لَبِيد وَبَنَاته الْمَذْكُورِينَ وَاعْتَرَضَ الْأَوَّل بِأَنَّ النَّاس لَا يُوَسْوِس فِي صُدُورهمْ النَّاس إِنَّمَا يُوَسْوِس فِي صُدُورهمْ الْجِنّ وَأُجِيبَ بِأَنَّ النَّاس يُوَسْوِسَونَ أَيْضًا بِمَعْنَى يَلِيق بِهِمْ فِي الظَّاهِر ثُمَّ تَصِل وَسْوَسَتهمْ إِلَى الْقَلْب وَتَثْبُت فِيهِ بِالطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إلى ذلك والله تعالى أعلم[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١]

أي: قل أيها الرسول الكريم أعوذ وألتجئ وأعتصم (برب الناس) أي: بمربيهم ومصلح أمورهم، وراعي شؤونهم.

قال ابن عاشور: شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد أستجير {بِرَبِّ النَّاسِ} ".

قال مقاتل:" أمر الله- ﷻ- النبيﷺ أن يتعوذ برب الناس".

قال الطنطاوي:" المعنى: قل- أيها الرسول الكريم- أعوذ وأعتصم وأستجير، =

=

برب الناس".

قال القاسمي:" أي: ألجأ إليه وأستعين به، وبرب الناس الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره. وهو رب العالمين كلهم والخالق للجميع".

قال القشيري: أي: " أعتصم بربّ الناس خالقهم وسيّدهم".

قال أبو الليث السمرقندي:" يقول: أستعيذ بالله وخالق الناس".

قال الشوكاني:" معنى {رَبِّ النَّاسِ}: مالك أمرهم ومصلح أحوالهم".

وإنما ذكر أنه «رب الناس»، وإن كان ربًّا لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شَرِّهم أعلم أنه ربهم، ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم.

قال الشوكاني:" وإنما قال: {رَبِّ النَّاسِ}، مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم".

الثاني: لأن الناس معظَّمون متميزون على غيرهم، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا.

قرأ الجمهور: {قل أعوذ}، بالهمزة. وقرئ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام، وقرأ الجمهور بترك الإمالة في {الناس}، وقرأ الكسائي بالإمالة.

قوله تعالى: {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس: ٢]

أي: ملك الناس المتصرف في كل شؤونهم، الغنيّ عنهم.

قال القشيري:" أي: مالكهم جميعهم".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: خالق الناس ومالكهم وله نفاذ الأمر والملك فيهم".

قال القاسمي:" أي: الذي ينفذ فيهم أمره وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره".

قال الطبري:" وهو ملك جميع الخلق: إنسهم وجنهم، وغير ذلك، إعلاما منه

=

=

بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه، وأن ذلك في مُلكه وسلطانه، تجري عليه قُدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحقّ بالتعبد له ممن يعظمه، ويُتعبد له، من غيره من الناس".

قال ابن فورك:" وهو جل وعز ملك جميع الخلق لبيان أن مدبر جميع الناس قادر أن يعيذهم من شر ما استعاذوا منه مع أنه أحق بالتعظيم من ملوك الناس".

قال الشوكاني:" قوله: {ملك الناس} عطف بيان، جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم ممن مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، والسلطان القاهر".

قوله تعالى: {إِلَهِ النَّاسِ} [الناس: ٣]

أي: الذي يدين له الناس بالعبودية والخضوع والطاعة، لأنه هو وحده الذي خلقهم وأوجدهم في الحياة.

قال الطبري:" يقول: معبود الناس، الذي له العبادة دون كل شيء سواه".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: خالق الناس ومعطيهم ومانعهم".

قال القاسمي:" أي: معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر. دون كل شيء سواه. و «الإله»: المعبود الذي هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها".

* وهذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ:

الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس.

فالمستعاذ به هو: رب الناس ومالكهم ومعبودهم.

قال ابن القيم: وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا

=

=

يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه.
وقال ابن الجوزي: (قل أعوذ برب الناس) فإن قيل: لم خص الناس هاهنا بأنه ربهم، وهو رب كل شيء؟ فعنه جوابان:
أحدهما: لأنهم معظمون متميزون على غيرهم.
والثاني: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم أعلم أنه ربهم، ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم، ولما كان في الناس ملوك قال تعالى: (ملك الناس) ولما كان فيهم من يعبد غيره قال تعالى (إله الناس).
قال بعض العلماء: أن المستعاذ منه الوسوسة وهي مخصوصة بالناس، فناسب استغاثتهم لسيدهم، وتسميتهم لذلك.
وقال الرازي: أنه تعالى رب جميع المحدثات، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه:
أحدها: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلهم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم.
وثانيها: أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس.
وثالثها: أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول: يا رب يا ملكي يا إلهي.
وقال الشوكاني: وإنما قال (رب الناس) مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم.
وقال القرطبي: إنما قال (ملك الناس * إله الناس) لأن في الناس ملوكا يذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن

=

=

يستعاذ به، ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

قال الشوكاني:" {إِلَـهِ النَّاسِ}، هو -أيضا- عطف بيان كالذي قبله، لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية، المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعدام، وأيضا الرب قد يكون ملكا، وقد لا يكون ملكا، كما يقال رب الدار ورب المتاع، ومنه قوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله} [التوبة: ٣١]، فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلها، وقد لا يكون، فبين أنه إله لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد، وأيضا بدأ باسم الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنه عبد مخلوق وأن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس، وكرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس".

قال ابن كثير:" هذه ثلاث صفات من صفات الرب، ﷻ: «الربوبية»، و «الملك»، و «الإلهية»: فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له".

قال أبو حيان:" ولما كانت مضرة الدين، وهي آفة الوسوسة، أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث: «الرب»، و «الملك»، و «الإله»، وإن اتحد المطلوب، وفي الاستعاذة من ثلاث: «الغاسق» و «النفاثات» و «الحاسد» بصفة واحدة وهي «الرب»، وإن تكثر الذي يستعاذ منه".

قال تقي الدين المقريزي:" «الملك»: هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيّته ويتركهم سدى معطلين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا

=

=

يعاقبون، فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب، ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربّ والملك والإله، فإنه لما قال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لَمّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟، قيل: نعم، فجاء: {مَلِكِ النَّاسِ}، فأثبت الخلق والأمر {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤]، فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربا موجدًا، وملكا مكلفا، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر، قيل: {إِلَهِ النَّاسِ} أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلّف العابد إلا له، فجاءت الإلهيّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها. وهاتان السورتان أعظم عوذة في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سحر النبي ﷺ، وخيّل إليه أنه يفعل الشيء ﷺ وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يوما، كما في الصحيح، وكانت عقد السّحر إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعوّذتين إحدى عشرة آية، فانحلّت بكلّ آيةٍ عقدةٍ. وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله، وهو المعبود وحده، لاجتماع صفات الكمال فيه. ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل، ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا، المرغوب إليه؛ في أن يعيذ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربّه. ثم استحب التعليق باسم الإله في جميع المواطن الذي يقال فيها: «أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم»، لأن اسم الله - تعالى - هو الغاية للأسماء، ولهذا كان كل اسم بعده لا يتعرف إلاّ به، فتقول: الله هو السّلام، المؤمن، المهيمن، فالجلالة تعرّف غيرها، وغيرها لا يعرفها".

قوله تعالى: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس: ٤].

هذا هو المستعاذ منه.

=

=

أي: من أذى الشيطان الذي يوسوس عند الغفلة، ويختفي عند ذكر الله.

قال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سهى وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس.

- فالوسواس: هو الشيطان، وأصل الوسوسة الحركة والصوت الخفي.

قال ابن كثير: وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهدا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله.

- ووصف الشيطان وسمي بالوسواس لدقة وخفاء مداخله ومجاريه في الإنسان، كما قال النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم). متفق عليه

والخناس: من خنس يخنس، إذا توارى واختفى بعد ظهوره، وهكذا حال الشيطان مع العبد، فإن غفل العبد عن الذكر أقبل عليه الشيطان بخيله ورجله وجثم على قلبه، وبذر فيه أنواع الوساوس، من تزيين الأعمال السيئة وغير ذلك، وإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به من الشيطان انخنس الشيطان وتوارى وتصاغر واختفى.

قال الماوردي: (من شر الوسواس الخناس) الخناس هو الشيطان، وفي تسميته بذلك وجهان:

أحدهما: لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: (فلا أقسم بالخنس) يعني النجوم لاختفائها بعد الظهور.

الثاني: لأنه يرجع عن ذكر الله، والخنس الرجوع.

قال بعض العلماء: وتسمية هذه الطوارق المنكرة، وتلك الواردات المضلة، بالوسواس، لأنها تدخل على الإنسان فى مسارة ومخافتة، وتلقاه من وراء عقله، وفى غفلة من ضميره.. إنها توسوس له، وتهمس في صدره، دون أن يحضرها عقله، أو تشهدها حواسه..

وهذا واضح إذا كان هذا الوسواس من ذات الإنسان نفسه، ومن نزغات شيطانه.

=

=

أما إذا كان هذا الوسواس من شيطان من شياطين الإنس، فإن الوسوسة تكون بينه وبين من يوسوس له، بمعزل عن أعين الناس، وعن أسماعهم، حتى لا يروا ولا يسمعوا هذا السوء الذي يوسوس به، ولا هذا المنكر الذي يدعو إليه.

قال في التسهيل: وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء. واحدها: الإكثار من ذكر الله. وثانيها: الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة. وثالثها: مخالفته والعزم على عصيانه.

قال القاسمي:" أي: من شر الشيطان ذي الوسوسة، الذي عادته أن يخنس- أي: يتأخر- إذا ذكر الإنسان ربه، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة وكلما تنبه العبد فذكر الله، خنس".

قال الطبري:" يعني: من شرّ الشيطان الذي يخنِس مرّة ويوسوس أخرى، وإنما يخنِس فيما ذُكر عند ذكر العبد ربه ".

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: من شر الشيطان، لأني لا أستطيع أن أحفظ نفسي من شره لأنه يجري في نفس الإنسان مجرى الدم ولا يراه بشر والله تعالى قادر على حفظي من شره ومن وسوسته".

قال ابن عطية:" {الْوَسْواسِ} : اسم من أسماء الشيطان، وهو أيضا ما توسوس به شهوات النفس وتسوله، وذلك هو الهواء الذي نهي المرء عن اتباعه وأمر بمعصيته والغضب الذي وصى رسول الله ﷺ بطرحه وتركه، حين قال له رجل أوصني، فقال: لا تغضب، قال زدني: قال: لا تغضب ".

ويجدر القول بأن الوسواس الذي يصيب الإنسان ليس كله على درجة واحدة، من حيث المرضية، ومن حيث المصدر والأثر، فالوسواس الذي يدعو الإنسان لسماع المحرمات أو رؤيتها أو اقتراف الفواحش وتزيينها له: له ثلاثة مصادر: النفس – وهي الأمَّارة بالسوء –، وشياطين الجن، وشياطين الإنس .

=

=

قال ابن فورك:" الوسواس: حديث النفس بما هو كالصوت الخفي، وأصله الصوت الخفي والوسوسة كالهمهمة ومنه: فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتريه من المرة".

قال الشوكاني:" الوسوسة: هي حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة، أي: حدثته حديثا، وأصلها: الصوت الخفي، ومنه قيل: لأصوات الحلي وسواس، ومنه قول الأعشى:

تسمعُ للحَلي وَسواسًا إذا انصرفت... [كَما استعان بريحٍ عِشرقٌ زَجِلُ]

ومعنى «الخناس»: كثير الخنس، وهو التأخر، يقال: خنس يخنس إذا تأخر، ومنه قول أبي العلاء الحضرمي، يمدح رسول الله ﷺ:

فإن دحسوا بالشر فاعف تكرما... وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل".

قال ابن كثير:" «الوسواس الخناس»: هو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخبال. والمعصوم من عَصَم الله".

قال الزجاج:" قيل في التفسير: إن له رأس كرأس الحية، يجثم على القلب، فإذا ذكر اللهَ العبدُ تنحَّى وخنس، وإذا ترك ذكرَ اللهِ رجع إلى القلب يوسوس".

عن ابن عباس، قال: ما من مولود إلا على قلبه الوَسواس، فإذا عقل فذكر الله خَنَس، وإذا غَفَل وسوس، قال: فذلك قوله: {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} ".

عن مجاهد: " {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، قال: الشيطان يكون على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خَنَس".

قال مجاهد:" ينبسط فإذا ذكر الله خَنَس وانقبض، فإذا غفل انبسط".

قال قتادة:" يعني: الشيطان، يوسوس في صدر ابن آدم، ويخنس إذا ذُكر الله".

قال قتادة:" هو الشيطان، وهو الخَنَّاس أيضا، إذا ذكر العبد ربه خنس، وهو

=

=

يوسوس وَيخْنِس".

قال قتادة:" يقال: الخناس له خرطوم، كخرطوم الكلب يوسوس في صدور الناس، فإذا ذكر العبد ربه خنس".

قال ابن زيد:" الخناس الذي يوسوس مرّة، ويخنس مرّة من الجنّ والإنس، وكان يقال: شيطان الإنس أشدّ على الناس من شيطان الجنّ، شيطان الجنّ يوسوس ولا تراه، وهذا يُعاينك معاينة".

عن ابن مسعود، قال رسول اللهﷺ: "ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينة". قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: "نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير".

عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: "أن صفية - زوج النبي ﷺ - أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مر رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا» ".

وفي سبب تسمية الشيطان ب «الخناس»، وجهان:

أحدهما: لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [التكوير: ١٥]، يعني: النجوم لاختفائها بعد الظهور. أفاده ابن فورك.

قال ابن فورك:" الخناس: الكثير الاختفاء بعد الظهور، يقال: خنس يخنس خنوسا، ومنه {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [التكوير: ١٥]، أي: بالنجوم التي تخفى بعدما تظهر بتصريف الحكيم الذي أجرها على حق حسن التدبير".

=

=

الثاني: سمي «خناسا»، لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله، حكاه الماوردي، و «الخنس»: الرجوع، قال الراجز:

وصاحب يَمْتَعِسُ امْتِعاسا... يزدادُ من خَنسِهِ خناسا

قال أبو عبيدة:" {يُوَسْوِسُ} ثم يخنس".

قال مقاتل:" الخناس: الذي إذا ذكر الله ابن آدم خنس عن قلبه، فذهب عنه، ويخرج من جسده".

وأما «الوسواس» -ها هنا-، ففيه وجهان:

أحدهما: أنه الشيطان لأنه يوسوس للإنسان.

قال مقاتل:" هو الشيطان في صورة خنزير معلق بالقلب في جسد ابن آدم، وهو يجري مجرى الدم، سلطه الله على ذلك من الإنسان".

وقالﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم».

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر خَنَس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس".

أخرج ابن أبي داود في كتاب "ذم الوسوسة"، عن معاوية، في قوله: {الوسواس الخناس}، قال: "مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه فإذا ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو {الوسواس الخناس} ".

عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن للوسواس خطما كخطم الطائر فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس فإن ابن آم ذكر الله نكص وخنس فلذلك سمي {الوسواس الخناس} ".

عن عاصم، سمعت أبا تميمة، يُحَدث عن رَديف رسول الله ﷺ، قال: "عَثَر بالنبي ﷺ حمارهُ، فقلت: تَعِس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظَم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر

=

=

حتى يصير مثل الذباب» ".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكم إذا كان في المسجد، جاءه الشيطان فأبس به كما يُبَس الرجل بدابته، فإذا سكن له زنقه - أو: ألجمه". قال أبو هُرَيرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلا - كذا - لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله".

عن إبراهيم التيمي، قال: "أول ما يبدأ الوسواس من الوضوء".

عن عبد الله بن مغفل، قال: "البول في المغتسل يأخذ منه الوسواس".

وأخرج أبو بكر بن أبي داود في كتاب "ذم الوسوسة"، عن معاوية بن أبي طلحة، قال: "كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم اعمر قلبي من وسواس ذكرك، واطرد عني وسواس الشيطان".

عن ابن عباس: " {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس".

فعلى قول ابن عباس، يكون في تفسير «الخناس»، وجهان:

أحدهما: الراجع بالوسوسة على الهوى.

الثاني: أنه الخارج بالوسوسة في اليقين.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس، في قوله: " {الْوَسْوَاسِ}، قال: هو الشيطان يأمره، فإذا أطيع خنس".

قال النحاس:" عن ابن عباس روايتان: إحداهما: أنه يوسوس ويجثم على صدر الإنسان فإذا ذكر الله جلّ وعزّ يخنس، والرواية الأخرى: أنه يوسوس فإذا أطيع انخنس، القولان متفقان".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أمر نبيه محمدا ﷺ أن يستعيذ به من شرّ شيطان يوسوس مرّة ويخنس أخرى، ولم يخصَّ

=

=

وسوسته على نوع من أنواعها، ولا خنوسه على وجه دون وجه، وقد يوسوس بالدعاء إلى معصية الله، فإذا أطيع فيها خَنَس، وقد يوسوس بالنَّهْي عن طاعة الله فإذا ذكر العبدُ أمر ربه فأطاعه فيه، وعصى الشيطان خنس، فهو في كلّ حالتيه وَسْواس خَناس، وهذه الصفة صفته".

الوجه الثاني: أنه وسواس الإنسان من نفسه، وهي الوسوسة التي يحدث بها نفسه.

قال ابن عطية:" «الْخَنَّاسِ»، معناه: على عقبه المستتر أحيانا وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر العبد وتعوذ وتذكر فأبصر كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوه فهو يخنس بتذكير النفس اللوامة بلمة الملك وبأن الحياء يردع والإيمان يردع بقوة فتخنس تلك العوارض المتحركة وتنقمع عند من أعين بتوفيق ".

وقد روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم به أو تعمل به».

وفي الفرق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس معنى لطيف، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- عن بعض العلماء، قال:"وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان، فقال: «ما
كرهتْه نفسُك لنفسِك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه، وما أحبَّته نفسُك لنفسِك فهو من نفسك فانْهَها عنه".

أي: أن النفس غالبًا توسوس فيما يتعلق بالشهوات التي يرغب فيها الناس عادةً.

وذكر بعض العلماء فرقًا آخر مهمًّا، وهو أن وسوسة الشيطان هي بتزيين المعصية حتى يقع فيها المسلم فإن عجز الشيطان انتقل إلى معصية أخرى، فإن عجز فإلى ثالثة وهكذا، فهو لا يهمه الوقوع في معصية معينة بقدر ما يهمه أن يعصي هذا

=

=

المسلم ربَّه، يستوي في هذا فعل المنهي عنه وترك الواجب، فكلها معاصٍ، وأما وسوسة النفس فهي التي تحث صاحبها على معصية بعينها، تحثه عليها وتكرر الطلب فيها.

قيل لسهل: "ما «الوسوسة»؟ فقال: كل شيء دون الله تعالى فهو وسوسة، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره. ثم قال: من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء، وهو ذكر الطبع، فوسوسة العدو في الصدور، كما قال: {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [٥ - ٦]، يعني في صدور الجن والإنس جميعًا، ووسوسة النفس في القلب. قال الله تعالى: {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]، وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدو، ومعرفة العدو أجلى من معرفة الدنيا، وأسر العدو معرفته، فإذا عرفته فقد أسرته، وإن لم تعرف أنه العدو وأسرك فإنما مثل العبد والعدو والدنيا كمثل الصياد والطير والحبوب، فالصياد إبليس، والطير العبد، والحبوب الدنيا، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع، فإن كنت صائمًا فأردت أن تفطر قال لك: ما يقول الناس، أنت قد عُرفت بالصوم تركت الصيام. فإن قلت: مالي وللناس. قال لك: صدقت أفطر، فإنهم سيضعون أمرك على الحسبة والإخلاص في فطرك، وإن كنت عرفت بالعزلة فخرجت. قال: ما يقول الناس، تركت العزلة. فإن قلت: مالي وللناس. قال: صدقت اخرج فإنهم سيضعون أمرك على الإخلاص والحسبة. وكذلك في كل شيء من أمرك، يردك إلى الناس حتى كأنه ليأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس.

ولقد حكي أن رجلًا من العباد كان لا يغضب، فأتاه الشيطان وقال: إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك. ففطن به العابد فقال: وكيف يجيء الغضب؟

=

=

قال: آتيك بشيء فأقول: لمن هو؟ فقل: هو لي، فأقول: بل هو لي. فأتاه بشيء وقال العابد: هو لي، فقال الشيطان: لا بل هو لي. فقال العابد: إن كان لك فاذهب به، ولـم يغضب، فرجع الشيطان خائبًا حزينًا، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته، فعرفه واتقى غرورة.

ثـم قال سهل: عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة، وإياك والتدبير فإنه داء النفس، وعليك بالاقتداء فإنه أساس العمل، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لـم تستتمه حتى تدخل النار، وعليك بالقنوع والرضا، فإن العيش فيهما، وإياك والائتمار على غيرك، فإنه لينسيك نفسك، وعليك بالصمت، فأنت تعرف الأحوال فيه، وعليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا، وعليك بسهر الليل تموت نفسك من ميلة طبعك وتحيي قلبك، وإذا صليت فاجعلها وداعًا، وخف الله يؤمنك، وارجهُ يؤملك، واتكل عليه يَكفِك، وعليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك. ولقد قال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «لولا مخافة الوسواس، لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس» ".

قوله تعالى: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس: ٥]

أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام.

والصدور: جمع صدر؛ وهو ساحة القلب وبيته، فتجتمع فيه الوساوس والواردات ثم تلج إلى القلب.

قال المراغي:" أي: هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس فى صدور البشر".

قال الطنطاوي:" صفة لهذا «الوسواس الخناس»، وزيادة توضيح له، أي: والذي من صفاته- أيضا- أنه يوسوس في صدور الناس بالسوء والفحشاء، حيث يلقى فيها خفية، ما يضلها عن طريق الهدى والرشاد".

قال الطبري:" يعني بذلك: الشيطان الوسواس، الذي يوسوس في صدور الناس:

=

=

جِنّهم وإنسهم".

قال البغوي: "يوسوس بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع".

قال القاسمي:" أي: بالإلقاء الخفي في النفس. إما بصورة خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت".

قال الشيخ محمد عبده: "وإنما جعل الوسوسة في الصدور على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب والقلب مما حواه الصدر عندهم، وكثيرا ما يقال: «إن الشك يحوك في صدري»، وما الشك إلا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل في المخ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربان القلب وضيق الصدر وانبساطه".

قال الخازن:" كما أن للشيطان قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة في إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير. ويسمى ما يلقي الشيطان: وسوسة، وما يلقي الملك لمة وإلهاما".

فتحصل أن في كيفية الوسوسة قولان، ذهب لكل منهما بعض أهل التحقيق الموثوق بديانتهم، واتفقوا على وجود الشيطان بلا تأويل؛ لأن ذلك مصادمة للكتاب والسنة والإجماع، وأما المخالفون فداء الضلال فيهم عياء.

عن يحيى بن أبي كثير، قال: "إن الوسواس له باب في صدر ابن آدم يوسوس منه".

عن ابن ثور، عن أبيه، قال: "ذُكر لي أن الشيطان، أو قال: الوسواس، ينفث في قلب الإنسان عند الحزن وعند الفرح، وإذا ذُكر الله خنس".

عن عكرمة، قال: "الوسواس محله على فؤاد الإنسان وفي عينه وفي ذكره، ومحله من المرأة في عينها وفي فرجها إذا أقبلت وفي دبرها إذا أدبرت هذه مجالسه".

عن عروة بن رويم اللخمي: "أن عيسى عليه السلام، دعا ربه تبارك وتعالى أن يريه

=

=

موضع إبليس من بني آدم فتجلى له إبليس فإذا رأسه مثل رأس الحية، واضعا رأسه على ثمرة القلب، فإذا ذكر العبد ربه ﷻ خنس إبليس برأسه، وإذا ترك الذكر مناه وحدثه، يقول الله ﷻ: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس: ٥] ".

قال بعض العلماء: فى قوله تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس) وفى جعل الوسوسة في الصدور، مع أنها تكون فى الآذان إشارة إلى أن هذه الوسوسة إنما تتدسس إلى الصدور، دون أن تشعر بها الآذان، وأنها لا تحدث أثرها السيء إلا إذا أخذت مكانها من الصدور، أي القلوب، ووقعت منها موقعا.. على خلاف الآذان، فإن كثيرا من وساوس السوء تطرقها، ثم لا تجد لها من أصحابها أذنا صاغية، فتسقط ميتة، وتدرج في أكفان الريح! وقوله تعالى: «من الجنة والناس» «من» هنا بيانية، تكشف عن وجه الوسواس الخناس، وهو أنه إما أن يكون إنسانا، أو شيطانا.. من عالم الإنس، أو عالم الجن.

- وشرور الشيطان كثيرة لا تحصى، وأقواها وأشدها تأثيرا الوسوسة.

قال ابن القيم: ووصفه بأعظم صفة وأشدها شرا، وأقواها تأثيرا، وأعمها فسادا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله حتى تميل نفسه إليه....

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه....

قال في التسهيل: وسوسة الشيطان في قلب الإنسان أنواع كثيرة، منها: إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد، فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في

=

=

الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه، واستكثار عمله، ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد، والحقد، والغضب، حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال.

وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء: واحدها: الإكثار من ذكر الله. وثانيها: الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السور. ثالثها: مخالفته والعزم على عصيانه.

قوله تعالى: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [الناس: ٦]

أي: من شياطين الجن والإنس.

(من الجنة والناس) لبيان الموسوس، وأن الموسوس تارة يكون من الجن، وتارة يكون من الإنس.

أي: أن الذي يوسوس في صدور الناس نوعان: شياطين جن، وشياطين إنس، ويدل لهذا:

أن الله أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا، كما قال تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) ووحي الشياطين لا يكون إلا بالوسوسة، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر.

وكقوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) فإن هذا يقتضي حضورا ومشاهدة بين من قال وبين من قيل له.

وعن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: (هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟) فقلت: يا رسول الله، وهل للإنس من جن؟ قال: (نعم، هم شر من شياطين الجن). رواه أحمد.

قال الشوكاني:... ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان: جني، وإنسي، فقال

=

=

(من الجنة والناس) أما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس، فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته، كما قال سبحانه (شياطين الإنس والجن).

قال ابن القيم: قوله (من الجنة والناس) بيان للذي يوسوس وأنهما نوعان إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضا يوسوس إلى الإنسي... فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم – ومن سوسة شياطين الإنس: وسوسة نفس الإنسان له، كما قال تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه).

وقال مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا.

قال السعدي: والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس.

(تنبيه): وقيل في معنى الآية: يوسوس في صدور الناس جنتهم وناسهم، فسمى الجن هاهنا ناسا، كما سماهم رجالا في قوله تعالى (يعوذون برجال من الجن) وسماهم نفرا بقوله تعالى (استمع نفر من الجن) هذا قول الفراء، وعلى هذا القول يكون الوسواس موسوسا للجن، كما يوسوس للإنس.

قال الخازن: (.... والناس) وفي معنى الآية وجهان:

أحدهما: أن الناس لفظ مشترك بين الجن والإنس، ويدل عليه قول بعض العرب جاء قوم من الجن، فقيل من أنتم قالوا أناس من الجن، وقد سماهم الله تعالى

=

=

رجالا في قوله (يعوذون برجال من الجن) فعلى هذا يكون معنى الآية؛ أن الوسواس الخناس يوسوس للجن كما يوسوس للإنس.

الوجه الثاني: أن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة، وهم الجن وقد يكون من الإنس، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس للإنسان تارة، ويخنس أخرى، فكذلك شيطان الإنس قد يوسوس للإنسان كالناصح له فإن قبل زاد في الوسوسة، وإن كره السامع ذلك انخنس وانقبض فكأنه تعالى أمر أن يستعاذ به من شر الجن والإنس جميعا.

قال ابن عاشور: وقدم (الجنة) على (الناس) هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا شياطين الإنس والجن) لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين، لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فإن الله أراد إبلاغ وحيه لأنبيائه فزكى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين، ولم يعصمهم من لحاق ضر الناس بهم والكيد لهم لضعف خطره، قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماركين) ولكنه ضمن لرسله النجاة من كل ما يقطع إبلاغ الرسالة إلى أن يتم مراد الله.

وقدم سبحانه الجنة على الناس، لأنهم هم أصل الوسواس، إذ إنهم مختلفون عنا ولا نراهم كما قال تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم).

وفي تفسير الآية، ثلاثة وجوه:

أحدها: أخبر الله ﷻ أن الذي يوسوس من الجن، والإنس. قاله ابن عباس، وسفيان، ومقاتل.

قال القرطبي:" أخبر أن الموسوس قد يكون من الناس".

=

=

قال الطنطاوي:" قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، زيادة بيان للذي يوسوس في صدور الناس، وأن الوسوسة بالسوء تأتى من نوعين من المخلوقات: تأتى من الشياطين المعبر عنهم بالجنة... وتأتى من الناس، وقدم- سبحانه- الجنة على الناس، لأنهم هم أصل الوسواس، إذ أنهم مختفون عنا، ولا نراهم، كما قال- تعالى-: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧].. فعليك- أيها الرسول الكريم- أن تستعيذ بالله- تعالى- من شر النوعين جميعا".

قال السمعاني:" المعنى: أنه أمره بالاستعاذة من شياطين الجن والإنس، والشيطان كل متمرد سواء كان جنيا أو إنسيا".

قال الفخر:" وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق، فإن زجره السامع يخنس، ويترك الوسوسة، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه".

قال قتادة:" إن من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس، والجن".

وقال الحسن: "هما شيطانان: أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية".

وروي عن أبي ذر:" أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم، لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام: ١١٢]... الآية".

الثاني: أن «الناس» -هنا-: يراد به «الجن»، والمعنى: يوسوس في صدور الناس جِنَّهم وناسهم، فسمى الجن -هاهنا- ناسًا، كما سمّاهم رجالا في قوله ﷻ: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]، وسمّاهم نفرا بقوله ﷻ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا

=

=

قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن: ١]، وعليه يكون الوسواس موسوسًا للجن، كما يوسوس للإنس. وهذا قول الكلبي، والفراء. وضعّفه الزمخشري، والفخر الرازي.
قال الكلبي:" {مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ}، يعني: يدخل في الجنيّ كما يدخل في الإنسيّ، ويوسوس للجنيّ كما يوسوس للإنسيّ".
قال الفراء:" ف «الناس» -هاهنا- قد وقعت على «الجنة» وعلى «النَّاس»، كقولك: يوسوس فِي صدور النَّاس: جنتهم وناسهم، وقد قال بعض العرب وهو يحدّث: جاء قوم من الجن فوقفوا، فقيل: من أنتم؟ فقالوا: أناس من الجن".
قال الرازي:" وهذا القول ضعيف، لأن جعل الإنسان اسما للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جنا لاجتنابهم والإنسان إنسانا لظهوره من الإيناس وهو الإبصار".
قال الزمخشري:" قيل: {من الجنة والناس} بيان للناس، وأن اسم {الناس} ينطلق على الجنة، واستدلوا ب «نفر» و «رجال»: في سورة الجن. وما أحقه، لأن الجن سموا «جنا» لاجتنانهم، والناس «ناسا» لظهورهم، من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشرا، ولو كان يقع الناس على القبيلين، وصح ذلك وثبت: لم يكن مناسبا لفصاحة القرآن وبعده من التصنع. وأجود منه أن يراد بالناس: الناسي، كقوله يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ كما قرئ مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ ثم يبين بالجنة والناس، لأنّ الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله ﷻ".
روي عن أبي ذر، قال: "أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: "يا أبا ذر، هل صليت؟ ". قلت: لا. قال: "قم فصل". قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: "يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: "نعم". قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: "خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر". قلت: يا رسول الله فما

=

=

الصوم؟ قال: "فرض يجزئ، وعند الله مزيد". قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: "أضعاف مضاعفة". قلت: يا رسول الله، أيها أفضل؟ قال: "جُهد من مُقل، أو سر إلى فقير". قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: "آدم". قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: "نعم، نبي مُكَلَّم". قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: "ثلثمائة وبضعة عشر، جَمًّا غَفيرًا". وقال مرة: "خمسة عشر". قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: "آية الكرسي: {اللهُ لا إِلَـهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ".

الثالث: أن الوسواس: الذي يوسوس في صدور الناس، هو من الجِنَّة، وهم من الجن. والمعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجنّ. ثم عطف قوله ﷻ: {وَالنَّاسِ} على {الْوَسْواسِ} والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجنّ والإنس، وهذا قول الزّجّاج.

قال النحاس:" وسألت علي بن سلمان عن قوله ﷻ: {وَالنَّاسِ}، فكيف يعطفون على {الْجِنَّةِ} وهم لا يوسوسون؟ فقال: هم معطوفون على {الوسواس}، والتقدير: «قل أعوذ بربّ الناس من شرّ الوسواس والناس». والذي قال حسن، لأن التقديم والتأخير في «الواو» جائز حسن كثير كما قال:

جمعت وفحشا غيبة ونميمة... ثلاث خصال لست عنها بمرعوي

وقال حسّان:

وما زال في الإسلام من آل هاشم... دعائم غرّ ما ترام ومفخر

وهم جبل الإسلام والنّاس حولهم... رضام إلى طود يروق ويقهر

بَهاليل منُهم جعفرٌ وابنُ أمهِ... عَليٌّ ومنهُم أحمدُ المتَخيّرُ

فبدأ اللفظ ب «جعفر» ثم جاء بعده ب «عليّ»، ثم جاء بعده ب «النبي» ﷺ، وهو المقدم على الحقيقة".

=

=

وأما «وسواس الناس»، ففيه وجهان:

أحدهما: أنها وسوسة الإنسان من نفسه، قاله ابن جريج.

قال ابن جريج: "هما وسواسان، فوسواس من الجنة، وهو الجن، ووسواس نفس الإنسان، فهو قوله: {والناس} ".

عن ابن عباس قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » ".

الثاني: أنه إغواء من يغويه من الناس. وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:" إن من الناس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن".

قال ابن عطية:" ويظهر -أيضا- أن يكون قوله: {وَالنَّاسِ}، يراد به من يوسوس بخدعه من البشر، ويدعو إلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان".

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "أن رسول الله ﷺ، كان يعوذ حسنا وحسينا، يقول: " أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة " وكان يقول: " كان إبراهيم أبي يعوذ بهما إسماعيل، وإسحاق".

(فائدة): قال ابن القيم في بدائع الفوائد: وأما سورة (الناس)؛ فقد تضمَّنَتْ –أيضًا– استعاذة ومستعاذًا به ومستعاذًا منه، فالاستعاذةُ قد تقدَّمت. وأما المستعاذُ به فهو الله تعالى: {بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)}، فذكر ربوبيَّته للنَّاس، وملكَه إياهم، وإلاهيتَه لهم، ولا بُدَّ من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان، كما تقدم، فنذكر أولًا معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمِّنة لخلفهم وتدبيرهم، وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشَّرِّ عنهم وحفظهم مما

=

=

يفسدُهم، هذا معنى ربوبيته لهـم، وذلـك يتضمَّن قدْرتَـهُ التامَّـة ورحمتـه الواسـعة، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كُرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو مَلِكُهم المُتَصَرِّفُ فيهم، وهم عبيدُه ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبِّرُ لهم كما يشاءُ، النافذُ القدرة فيهم، الذي لـه السلطانُ التَّامُّ عليهم، فهو مَلِكُهم الحق الـذي إليـه مَفْزَعُهُم عنـد الـشَّدائد والنَّوائب، وهـو مُسْتَغَاثُهم ومَعَاذُهم ومَلْجَؤُهم، فلا صلاحَ لهم ولا قيامَ إلا به وبتدبيره، فليس لهم مَلِكٌ غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدوُّ، ويستنصرون به إذا نزل العدوُّ بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية فهو إلههُم الحقُّ، ومعبودُهم الذي لا إله لهم سـواه، ولا معبودَ لهم غيره. فكما أنه وحدَه هو ربُّهـم ومليكهُم لـم يـشركْه في ربوبيَّتـه ولا فِي ملكه لهم أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودُهم، فلا ينبغي أن يجعلـوا معـه شريكًا في إلهيّته، كما لا شريكَ معه فى ربوبيته ومُلْكِهِ.

وهذه طريقةُ القرآن الكريم يحتجُّ عليهم بإقرارهم بهذا التَّوحيد على ما أنكروه مـن توحيد الإلهيـة والعبـادة، وإذا كـان وحـدَه هـو ربنـا وملكنـا وإلهنـا فـلا مَفْزَعَ لنـا فى الشَّدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبـودَ لنـا غيـره، فـلا ينبغـي أن يُـدعى ولا يُخـافَ ولا يزجـى ولا يُحَـبَّ سـواه، وفي يُـذَلَّ لغيـره، ولا يُخْـضَعَ لـسواه، ولا يُتَوَكَّلَ إلا عليه؛ لأن من ترجوه ونخافُهُ وتدعوه وتتوكَّل عليه إما أن يكون مُرَبِّيَـكَ: والقَيِّمَ بأمورِك ومتوليَ شأنِك، وهـو ربُّـك فـلا ربَّ لـك سـواه، أو تكـونَ مملوكـه وعبدَه الحقَّ، فهو ملكُ الناس حقًّا، وكلُّهم عبيدُه ومماليكُه.

أو يكون معبودَك وإلهَك الذي لا تستغني عنه طَرْفةَ عينٍ، بـل حاجتُكَ إليـه أعظـمُ من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهـو الإلـهُ الحقُّ، إلـه النـاس الـذي لا إلـه لهـم سواه، فمن كـان ربهـم وملكهـم وإلههـم فهـم جـديرون أن لا يـستعيذوا بغيـره، ولا يستنصروا بـسواه، ولا يلجـأوا إلـى غيـر حمـاه، فهـو كـافيهم وحسبهم وناصـرهم،

=

=

ووليُّهم ومتولِّي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلاهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه؟! فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوةً وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا.

ثم إنه سبحانه كرَّر الاسمَ الظَّاهرَ ولم يوقع المُضْمَرَ موقعَهُ، فيقولُ: ربُّ الناس وملكهم وإلههم، تحقيقًا لهذَا المعنى وتقويةً له، فأعاد ذكرَهم عند كلِّ اسم من أسمائه، ولم يعطفْ بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذةُ بمجموع هذه الصِّفات حتى كأنها صفةٌ واحدةٌ، وقدم الربوبيَّةَ لعمومها وشمولها لكلِّ مربوب، وأخَّرَ الإلهيَّةَ لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إلهُ مَنْ عَبَدَهُ ووحَّده، واتخذه دونَ غيره إلهًا، فمن لم يعبدْه ويوحِّده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن تَرَكَ إلهه الحق واتخذ إلهًا غيره، ووسَّط صفةَ الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرِّف بقوله وأمره، فهو المطاعُ إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلاهَهُم الحق من كمال ملكه، فى بربوبيَّتهُ تستلزمُ ملكَه وتقتضيه، وملكُهُ يستلزمُ إلهيته ويقتضيها، فهو الرَّبُّ الحق، الملك الحق، الإله الحقُّ، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، استعبدهم بإلاهيته، فتأمَّل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمَّنَتْها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)}، وقد اشتملت هذه الإضافاتُ الثلاثُ على جميع قواعد الإيمان، وتضمَّنَتْ معاني أسمائه الحسنى.

أما تضمُّنها لمعاني أسمائه الحسنى؛ فإن الرَّبَّ هو: القادرُ الخالقُ البارئ المصوِّر الحيُّ القَيُّومُ العليمُ السميعُ البصيرُ المحسِنُ المُنعِمُ الجَوَادُ المُعطي المانعُ الضَّارُّ النافعُ المُقَدِّم المُؤَخِّر،

=

=

الذي يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ، ويُسعد من يشاءُ ويُشقِي من يشاء ويعزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك؛ فهو الآمر الناهي المعزُّ المذِلُّ الذي يصرف أمورَ عباده كما يحِبُّ، ويقلبهم كما يشاءُ، وله من معنى الملك ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى؛ كالعزيز الجبار المتكبِّر الحَكَم العَدْل الخافض الرافع المُعِز المُذِل العظيم الجَلِيل الكبير الحَسِيب المجيد الوالي المُتَعالي مالك الملك المقسِط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء: العائدة إلى الملك.

وأما الإله؛ فهو الجامعُ لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فِيدخلُ فِي هذا الاسم جميعُ الأسماء الحسنى، ولهذا كان القولُ الصحيح أن "الله" أصلُه "الإله" كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذَّ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى، فقد تضمَّنت هذه الأسماءُ الثلاثةُ جميعَ معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يُعَاذَ ويُحْفَظ ويُمْنَعَ من الوسواس الخنَّاس ولا يُسَلَّطَ عليه.

وأسرارُ كلام الله أجلُّ وأعظمُ من أن تدركهَا عقولُ البشر، وإنما غايةُ أولي العلمَ الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإن بادِيَه إلى الخافي اليسير.

فصل: وهذه السورة مشتملةٌ على الاستعاذة من الشر الذي هو سببُ الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشرُّ الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة (الفلق) تضمّنت الاستعاذة من الشَّرِّ الذي هو ظلمُ الغير له بالسحر والحسد، وهو شرٌّ من خارج، وسورة (الناس) تضمَّنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شرٌّ من داخل.

فالشر الأول: لا يدخلُ تحت التكليف، ولا يُطْلب منه الكف عنه؛ لأنه ليس من

=

=

كسبه، والشر الثاني في سورة (الناس): يدخل تحتَ التكليف، ويتعلَّق به النهيُ، فهذا شرُّ المعايب، والأول شرُّ المصائب، والشر كله يرجعُ إلى العيوب والمصائب، ولا ثالث لهما، فسورة (الفلق) تتضمَّنُ الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة (الناس) تتضمَّنُ الاستعاذةَ من شرِّ العيوب التي أصلُها كلها الوسوسةُ.

فصل: إذا عُرِف هذا فالوَسْواس: فَعْلالٌ، من وَسْوَسَ، وأصل الوَسْوَسَةِ: الحَرَكَةُ، أو الصَّوتُ الخَفِيُّ الذي لا يُحَسُّ فيُحْتَرَزَ منه، فالوَسْوَاسُ: الإلقاءُ الخَفِيُّ في النفس، إما بصوتٍ خفِيٍّ لا يسمعُه إلا من أُلقِيَ إليه، وإما بغير صوت كما يُوَسْوِسُ الشيطانُ إلى العبد، ومن هذا "وَسْوَسَةُ الحَلْي"، وهو حركتُهُ الخَفِيَّةُ في الأذن، والظاهر -والله أعلم- أنها سُمِّيَتْ: "وسوسةَ الحَلْي" لقربها، وشدَّة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقيل "وَسْوَسة الحَلْي"؛ لأنه صوت مجاورٌ للأذن، كوسوسة الكلام الذي يُلقِيه الشيطانُ في أذن مَنْ يوسْوِسُ له.

ولما كانت الوسوسةُ كلامًا يكرِّرُه الموسوِسُ ويؤكِّدُه عند من يُلقيه إليه كرَّروا لفظها: بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وَسوَسَ وَسْوَسَةً، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدَّم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالدَّوَران والغَلَيَان والنَّزَوَان، وبابه، ونظير ذلك: "زلْزَلَ ودَكْدَكَ وقَلْقَلَ وكَبْكَبَ الشَّيءَ"؛ لأن الزَّلْزَلة: حركةٌ متكرِّرةٌ، وكذلك: "الدَّكْدَكة والقَلْقَلة"، وكذلك كبْكَبَ الشيءَ: إذا كبَّه في مكانٍ بعيد، فهو يكبُّ فيه كبًّا بعد كبٍّ، كقوله تعالى: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)} [الشعراء: ٩٤] ومثلُه رَضرَضَهُ: إذا كرَّر رَضَّهُ مرَّةً بعد مرة، ومثله ذَرْذَرَهُ: إذا ذرَّه شيئًا بعد شيء، ومثله: صَرْصَرَ البابُ: إذا تكرَّرَ صريرهُ، ومثله: مطْمَطَ الكلامَ: إذا مطَّهُ شيئًا بعد شيء، ومثله: كَفْكَفَ الشيءَ: إذا كرَّر كَفَّه،

=

=

وهو كثير.

وقد عُلِمَ بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب؛ لأن الثلاثي لا يدل على تكرار، بخلاف الرُّباعي المكرر، فإذا قلت: (ذرَّ الشيء، وصَرَّ البابُ، وكَفَّ الثوبَ، ورضَّ الحبَّ) لم يَدُلَّ على تكرار الفعل بخلاف ذَرْذَرَه وصَرْصَرَ ورَضْرَضَ، ونحوه، فتأمله فإنه مطابق لقاعدة العربية فِي الحذو بالألفاظ حذوَ المعاني، وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عَجَّ العِجْلُ: إذا صَوَّتَ، فإن تابع صوتَه قالوا: عَجعَجَ، وكذلك: ثَجَّ الماء: إذا صُبَّ، فإن تكرر ذلك قيل: ثَجْثَجَ، والمقصود أن المُوَسْوِسَ لما كان يكرِّر وَسْوَسَتَهُ ويتابعها قيل: وَسْوَسَ.

فصل

إذا عُرِفَ هذا فاختلف النُّحاةُ في لفظ (الوَسْوَاس) هل هو وصفٌ أو مصدرٌ؟ على قولين، ونحن نذكر حُجَّةَ كُلَّ قول ثم نُبَيِّنُ الصحيحَ من القولينِ بعون الله تعالى وفضله:

فأما من ذهبَ إلى أنه مصدر، فاحتجَّ بأن الفعل منه: فَعْلَلَ، والوصف من: فَعْلَلَ إنما هو: "مفَعْلِلٌ" كمُدَحْرِج ومُسَرْهِف ومُبَيْطِر ومُسَيْطِر، وكذلك هو من: فَعَلَ بوزن: "مَفْعِّل" كَمَقْطِّع ومَخْرِّج، وبابه، فلو كان الوَسْوَاسُ صِفَةً لقيل: موَسْوِس، ألا ترى أن اسم الفاعل من زَلْزَلَ: مُزَلْزِلٌ، لا زَلْزَال، وكذلك من دَكْدَكَ: مُدَكْدِكٌ، وهو مطَّرِد، فَدَلَّ على أن الوَسْوَاس مصدرٌ وُصِفَ به على وجه المبالغة، أو يكون على حذف مضاف تقديرُه: ذو الوَسْوَاس. قالوا: والدليل عليه أيضًا قول الشاعر:

تَسْمَعُ للحَلْيِ بها وَسْوَاسًا

فإذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء.

قال أصحاب القول الآخر: الدليلُ على أنه وصف أن "فَعْلَلَ" ضَرْبَانِ: أحدهما:

=

صحيح لا تكرارَ فيه؛ كَدَحْرَجَ وسَرْهَفَ وبَيْطَرَ، وقياس مصدر هذه: "الفَعْلَلَة"، كالَدَحْرَجَة والسَّرْهَفَة والبَيْطَرَة، و"الفِعْلال" -بكسر الفاء- كالسِّرهاف والدِّحْراج، والوصف منه "مفَعْلِلٌ" كمدَحْرِج ومبيْطِر.

والثاني: "فَعْلَل" الثنائي المكرر؛ كزَلْزَلَ ودَكْدَكَ ووَسْوَس، وهذا فرعٌ على "فَعْلَلَ" المجرد عن التَّكرار؛ لأن الأصل السلامةُ من التَّكرار، ومصدر هذا النوع والوصف منه مساوٍ لمصدر الأول ووصفه، فمصدره يأتي على "الفعللة"؛ كالوَسْوَسَةِ وَالزَّلْزَلَةِ، و"الفِعْلال" كالزِّلْزَال، وأَقْيَس المصدرين وأولاهما بنوعي فَعْلَلَ: "الفِعْلال" لأمرين:

أحدهما: أن "فَعْلَلَ" مشاكل ل "أَفْعَلَ" في عدد الحروف، وفتح الأول والثالث والرابعِ وسكون الثاني، فجُعِل "إفعال" مصدرْ "أفعل"، و"فِعْلال" مصدر "فَعْلك"، ليتشاكل المصدران، كما يتشاكل الفِعْلان، فكان "الفِعْلالُ" أولى بهذا الوزن من "الفعللة".

الثاني: أن أصل المصدر أن يخالفَ وزنه وزن فعله، ومخالفة "فِعْلال" ل "فَعْلَلَ" أشدُّ من مخالفة "فَعْلَلَة" له، فكان "فِعْلال" أحقَّ بالمصدرية من "فَعْلَلَة"، أو تساويا في الاطِّراد مع أن "فَعْلَلَة" أرجحُ في الاستعمال وأكثرُ، هذا هو الأصل.

وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء، فقالوا: "وَسْوَسِ الشيطان وَسْوَاسًا"، و"وَعْوعَ الكلبُ وَعْوَاعًا" إذا عوى، و"عَظْعَظ السَّهْمُ عَظْعَاظًا"، والجاري على القياس: "فِعْلالٌ" بكسر الفاء، أو "فَعْلَلَة"، وهذا المفتوح نادر؛ لأن الرُّباعي الصحيحَ أصلٌ للمتكرِّر، ولم يأتِ مصدر الصحيح مع كونه أصلًا إلاّ على "فَعْلَلَة وفِعْلال" بالكسر، فلم يحسُن بالرباعي المكرّر لفرعيته أن يكونَ مصدَرُه إلا كذلك، لأن الفرعِ لا يخالف أصلَه، بل يحتذي فيه حذوَه، وهذا يقتضي أن لا يكونَ مصدرُه على "فَعْلال" بالفتح، فإن شذَّ حُفِظ ولم يُزَدْ عليه.

=

قالوا: وأيضًا فإن "فَعْلالًا" المفتوح الفاء قد كثر وقوعُه صفةً مصوغةً من "فَعْلَلَ" المكرر ليكون فيه نظير "فَعَّال" من الثلاثي لأنهما متشاركان وزنًا، فاقتضى ذلك أن لا يكون ل "فَعْلال" من المصدرية نصيبٌ، كما لم يكن ل "فَعال" فيها نصيبٌ، فلذلك اسْتندروا وقوع: (وَسْوَاس ووَعْوَاع وعَظْعَاظ) مصادر، وإنما حقُّها أن تكون صفاتٍ دالَّةً على المبالغة في مصادر هذه الأفعال.

قالوا: وإذا ثبت هذا فحقُّ ما وقع منها محتملًا للمصدرية والوصفية أن يُحمل على الوصفية، حَمْلًا على الأكثر الغالب وتجنبًا للشَّاذِّ، فمن زعم أن (الوَسْوَاس) مصدر مضاف إليه (ذو، تقديرًا، فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب، ويدلُّ على فساد ما ذهب إليه أمران:

أحدهما: أن كلَّ مصدر أضيف إليه (ذو) تقديرًا فتجرُّدُهُ للمصدرية أكثرُ من الوصف به، كَرِضى وَصَوْم وفِطْر، و"فَعْلال" المفتوح لم يثبُتْ تجرُّدُه للمصدرية إلا فِي ثلاثة ألفاظ فقط (وَسْوَاسْ ووَعْوَاع وعَظْعَاظ)، على أن منع المصدرية في هذا ممكنٌ؛ لأن غاية ما يمكنُ أن يُستدَلَّ به على المصدرية قولهم: وَسْوَس إليه الشيطان وَسْواسًا، وهذا لا: يتعيَّنُ للمصدرية؛ لاحتمال أن يُرَادَ به الوصفية وينتصب: "وَسْواسًا" على الحال، ويكون حالًا مؤكِّدة، فإن الحال قد يؤكِّدُ بها عاملُها الموافق لها لفظًا ومعنًى، كقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا} [النساء: ٧٩] {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ}، نعم إنما تتعيَّن مصدرية (الوَسْوَاس) إذا سُمِع: "أعوذ بالله من وَسْوَاس الشيطان"، ونحو ذلك مما يكون الوَسْوَاس فيه مضافًا إلى فاعله، كما سُمع ذلك في (الوَسْوَسَة) ولكن أين لكم ذلك؟ فهاتوا شاهده؟! فبذلك يتعيّن أن يكون (الوَسْوَاس) مصدرًا لا بانتصابِه بعد الفعل.

الوجه الثاني: -من دلِيل فساد من زعم أن وسواسًا مصدرٌ مضافٌ إليه (ذو)

=

=

تقديرًا-: أنَّ المصدر المضاف إليه (ذو) تقديرًا لا يؤنَّثُ ولا يُثنَّى ولا يُجمعُ، بل يلزمُ طريقةً واحدةً، ليعلمَ أصالته في المصدرية وأنه عارض: الوصفية، فيقال: امرأة صَوْمٌ، وامرأتان صَوْمٌ، ونساءٌ صَوْم، لأن المعنى: ذاتُ صَوْم، وذواتا صَوْم، وذوات صَوْم، و"فَعْلال" الموصوف به ليس كذلك، بل يثنَّى ويُجْمَعُ ويؤَنَّثُ فتقول: رجل ثَرْثار، وامرأة ثَرْثَارة، ورجالٌ ثَرْثارنَ.

وفي الحديث: "أبْغَضُكُمْ إلىَّ الثَّرْثَارُونَ المُتَفَيْهِقُون" وقالوا: ريحٌ زَفْزَافةٌ، أي: تُحَرِّكُ الأشجار، وريح سَفْسَافة، أي: تنخِّلُ التُّرابَ، ودِرْعٌ فَضْفاضَةٌ، أيِ: مُتَّسِعَة. والفعل من ذلك كله: "فَعْلَلَ"، والمصدر: "فَعْلَلَةٌ وفِعْلال" بالكسر، ولم ينقلْ في شيء من ذلك: "فَعْلالٌ" بالفتح.

وكذلك قالوا: تَمْتَامٌ، وفَأْفَاءٌ، ولَضْلاضٌ، أي: ماهرٌ في الدِّلالة، وفَجْفَاجٌ: كثيرُ الكلام، وهَزهارٌ، أي: ضَحَّاكٌ، وكَهْكاهٌ ووطْواطٌ، أي: ضعيفٌ، وحَشحَاشٌ وعَسْعاسٌ، أي: خفيف، وهو كثير ومصدره كله "الفَعْلَلَة" والوصف "فَعْلال" بالفتح.

ومثله: هَفْهَافٌ أي: خَمِيصٌ، ومثله: دَحْدَاحٌ أي: قَصير، ومثله: بَجْبَاج أي: جَسِيم، وتَخْتَاخٌ أي: ألْكَن، وسَمْسَامٌ أي: سريع، وشيءٌ خَشْخَاش أي: مُصَوِّتٌ، وقَعْقَاعٌ مثله، وأسد قَضْقَاضٌ أي: كاسِر، وحيَّةٌ نَضْنَاضٌ: تُحَرِّكُ لسانها. فقد رأيت "فَعْلالًا" في هذا كله وصفًا لا مصدرًا، فما بال الوَسْوَاس أُخْرِج عن نظائره وقياس بابه؛ فثبت أن وَسْوَاسًا وصفٌ لا مصدر؛ كَثَرْثَار وتَمْتَام ودَحْدَاح، وبابه.

ويدلُّ عليه وجهٌ آخر وهو: أنه وصَفَه بما يستحيلُ أن يكون مصدرًا، بل هو متعيِّنُ الوصفيَّة وهو الخَنَّاس، فالوسواس والخَنَّاس وصفانِ لموصوف محذوف وهو الشيطانُ، وحَسَّنَ حذفَ الموصوف هاهنا غلبةُ الوصف حتي صار كالعَلَم عليه، والموصوف إنما يَقْبُحُ حذفُهُ إذا كان الوصفُ مشتركًا فيقعُ اللَّبْسُ؛ كالطَّويل

=

=

والقبيح والحَسَن، ونحوه، فيتعيَّن ذكرُ الموصوف ليعلم أن الصِّفة له لا لغيره، فأما إذا غلب الوصفُ واختصَّ ولم يعرضْ فيه اشتراك، فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسُنُ حذف الموصوف؛ كالمسلم والكافي والبَرِّ والفاجر والقاصي والداني والشاهد والوالي والأمير ونحو ذلك، فحَذْف الموصوف هنا أحسن من ذكره، وهذا التفصيلُ أولى من إطلاق مَنْ منَعَ حذْفَ الموصوفِ ولم يفَصِّلْ.

ومما يدلُّ على أن الوسواس وصفٌ لا مصدرٌ: أن الوصفيَّة أغلبُ على "فَعْلال" من المصدرية كما تقدَّم، فلو أريد المصدرُ لأتي ب: (ذو) المضافة إليه، ليزولَ اللَّبْسُ وتَتَعَيَّنَ المصدريَّةُ، فإن اللَّفظ إذا احتمل الأمرين على السواء، فلا بدَّ من قرينةٍ تدُلُّ على تعيينِ أحدهما، فكيف والوصفيةُ أغلبُ عليه من المصدرية!؟.

وهذا بخلاف صَوْم وفِطْر وبابهما، فإنها مصادرُ لا تلتبسُ يالأوصاف، فإذا جرت أوصافًا عُلِم أنها على حذف مضافٍ أو تنزيلًا للمصدر منزلةَ الوصف مبالغةً على الطريقتين في ذلك، فتعيَّنَ أن الوَسْواسَ هو الشَّيطَانُ نفسه، وأنَّه ذاتٌ لا مصدرٌ، والله أعلم.

فصل: وأما الخنَّاسُ: فهو "فَعَّال" من: خنَسَ يَخْنِسُ: إذا تَوَارى واخْتَفَى. ومنه قول أبي هريرة: "لَقِيَني النَّبِيُّ ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جُنُبٌ فانخَنَسْتُ منه". وحقيقة اللَّفظ اختفاءٌ بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء؛ ولهذا وُصِفت بها الكواكبُ في قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥)} [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو باللَّيل وتخنِسُ بالنَّهار فتختفي ولا تُرَى. وكذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: هي الكواكبُ تخنس بالنهار فلا تُرى. وقالت طائفة: الخُنَّسُ: هي الرَّاجعةُ، التي ترجِعُ كلَّ ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعةُ السَّيَّارة، قالوا: وأصل الخُنُوس: الرُّجُوعُ إلى وراء.

والخَنَّاسُ هو مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخُّر، فإن

=

=

العبدَ إذا غَفَلَ عن ذكر الله جَثَمَ على قلبه الشيطانُ، وانبسط عليه، وَبَذَرَ فيه أنواعَ الوساوس التي هي أصلُ الذنوب كلها، فإذا ذكر العبدُ ربَّهُ واستعاذ به انخنَسَ وانقبض كما ينخِنسُ الشيءُ يَتَوَارَى، وذلك الانخناسُ والانقباضُ هو -أيضًا- تَجَمُّعٌ ورجوع وتَأَخُّرٌ عن القلب إلى خارج، فهو تأخُّر ورجوعٌ معه اختفاءٌ.

وخَنَسَ وانْخَنَسَ يدُلُّ على الأمرين معًا. قال قتادة: الخَنَّاسُ له خُرْطُوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَسَ.

ويقالُ: رأسُه كرأس الحيَّة وهو واضعٌ رأسَهُ على ثَمَرَة القلب يُمَنِّيه ويحدِّثُهُ، فإذا ذكر الله تعالى خَنَسَ، وإذا لم يَذْكرْه عادَ ووضَعَ رأسَهُ يوسوِسُ إليه ويُمَنِّيهِ.

وجيء من هذا الفعل بوزن: "فعَّال" الذي للمبالغة دون الخَانِس والمُنْخَنِس إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعِظَم نفوره عندَ ذكر الله، وأن ذلك دأبُهُ ودَيْدَنُهُ، لا أنه يعرِضُ له عند ذكر الله أحيانًا، بل إذا ذُكِرَ اللهُ ﷻ هَرَبَ وانخنسَ وتأخَّرَ، فإنَّ ذِكْرَ اللهِ هو مِقْمَعَتُهُ التي يُقمعُ بها، كما يُقمعُ المفسدُ والشِّرِّيرُ بالمقامع التي تَرْدَعُهُ؛ من سِياطٍ وحديدٍ وعِصِيٍّ، ونحوها.

فذِكْر اللهِ تعالى يقمعُ الشيطانَ ويؤلمُهُ ويؤذيه، كالسِّياط والمقامع التي تؤذي من يُضْرَبُ بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلًا ضئيلًا مضنًى مما يعذبهُ المؤمنُ ويقمعُه به من ذكر الله وطاعته.

وفِي أثرٍ عن بعض السلف: "إن المؤمن يُنْضِي شيطانَه، كما يُنْضِي الرَّجلُ بعيرَهُ في السَّفَر"؛ لأنه كلما اعترضه صبَّ عليه سياطَ الذِّكر والتَّوجُّه والاستغفار والطاعة، فشيطانُه معه في عذاب شديد، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحةٍ ودَعَة، ولهذا يكون قويًّا عاتيًا شديدًا.

فمن لم يعذبْ شيطانَه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيدِه واستغفارِه وطاعته، عذبه شيطانُه في الآخرة بعذاب النار، فلا بُدَّ لكل أحدٍ أن يُعَذِّبَ شيطانَه أو يُعَذِّبُه

=

=

شيطانُه.

وتأمل كيف جاء بناءُ الوسواس مكرَّرًا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارًا، حتى يعزمَ عليها العبد، وجاء بناء "الخناس" على وزن "الفَعَّال" الذي يتكرَّر منه نوع الفعل؛ لأنه كلَّما ذكر الله انخنسَ، ثم إذا غفل العبدُ عاوده بالوسوسة، فجاء بناءُ اللفظين مطابقًا لمعنييها.

فصل

وقوله: {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)} [الناس: ٥] صفةٌ ثالثة للشيطان، فذكر وسوستَه أولًا، ثم ذكر محلَّها ثانيًا، وأنها في صدور الناس، وقد جعل اللهُ للشّيطان دخولًا في جوف العبد، ونفوذًا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدَّم، وقد وُكِلَ بالعبد فلا يفارقُه إلى الممات.

وفي "الصحيحين" من حديث الزُّهْري، عن علي بن حسين، عن صَفِيَّة بنت حُيَيّ، قالت: "كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيتُه أزوره ليلًا، فحدَّثتُه، ثم قمت فانقلبتُ، فقام معي ليقلِبَني -وكان مسكنُها في دار أُسامة بن زيد- فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: "عَلَى رِسْلِكُما إنَّها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ"، فقالا: سبحانَ اللهِ يا رسول: الله! فقال: "إنَّ الشَّيطانَ يجري من الإنسانِ مَجْرَى الدَّمِ، وإني خَشِيْتُ أن يَقْذَفَ في قلوبِكُما سواءً" -أو قال: "شيئًا"-.

وفي "الصحيح" أيضًا عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: "قال رسول الله ﷺ: "إذا نُوْدِيَ بالصَّلاةِ أدْبرَ الشَّيْطَان وله ضُرَاطٌ، فإذا قُضِي أقْبَلَ، فإذا ثُوِّبَ بها أَدْبَرَ، فإذا قُضِيَ أقْبَل حتى يَخْطرَ بين الإنسانِ وقلبه، فيقول: اذْكُرْ كذا اذْكُرْ كذا، حتَّى لا يَدْرِي أثَلاثا صَلَّى أم أربعًا، فَإذا لم يَدْر أثلاثا صَلَّى أم أرْبَعًا سَجَدَ سَجْدَتى السَّهْوِ".

ومن وسوسته: ما ثبت في "الصحيح" عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يأتي

=

=

الشَّيْطانُ أَحَدَكمْ فيقولُ مَنْ خَلَقَ كذا؟ مَنْ خَلَقَ كذا؟ حتى يقولَ: مَنْ خَلَقَ الله؟ فَمَنْ وَجَدَ ذَلكَ فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ".

وفي "الصحيح" أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن أحَدَنا ليجدُ فى نفسه ما لأَنْ يَخِرَّ من السماء إلى الأرض أحَبُّ إليه من أن يَتكَلَّمَ به، قال: "الحمْدُ للهِ الذي رَدَّ كَيْدَهُ إلى الوَسْوَسَةِ".

ومن وسوسته أيضًا: أن يَشغل القلب بحديثه حتى يُنسِيَهُ ما يريدُ أن يفعلَه، ولهذا يضافُ النسيانُ إليه إضافتَه إلى سَبَبِه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى إنه قال: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [الكهف: ٦٣].

وتأَمَّلْ حكمةَ القرآن الكريم وجلالَتَهُ كيف أَوْقَعَ الاستعاذةَ من شَرِّ الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخنَّاس، الذي يوسوسُ في صدور الناس، ولم يقلْ: من شرِّ وسوسته؛ لتعمَّ الاستعاذةُ شرَّه جميعَه، فإن قوله: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)} [الناس: ٤]، يعم كلَّ شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدِّها شرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعمِّها فسادًا، وهى الوسوسة التي هى مبادئُ الإرادة، فإن القلبَ يكونُ فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوسُ إليه، ويُخْطِرُ الذنبَ بباله، فيصوِّرُهُ لنفسه ويُمَنِّيه، ويُشَهِّيه فيصير شهوة، ويُزَيِّنُها له ويُحَسِّنُها ويُخَيِّلُها له في خيالٍ تميلُ نفسه إليه، فيصيرُ إرادة ثم لا يزالُ يُمَثِّلُ ويُخَيِّلُ، ويُمَنِّي ويُشَهِّي، ويُنَسِّي علمه بضررها، ويَطْوي عنه سُوءَ عاقبتها، فيحُوْلُ بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورةَ المعصية والتذاذَه بها فقط وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادةُ عزيمةً جازمةً، فيشتدُّ الحرصُ عليها من القلب، فيبعثُ الجنودَ في الطَّلَب، فيبعثُ الشيطانُ معهم مَدَدًا لهم وعونًا، فإن فَتَروا حرَّكهم، وإن وَنَوْا أزعجهم، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)} [مريم: ٨٣] أي: تُزْعِجهم إلى المعاصي: إزعاجًا، كلَّما فتروا أو وَنَوْا أزعجتهم الشياطينُ، وأَزَّتْهُم وأثارتهم، فلا

=

=

تزال بالعبد تقودُه إلى الذنب وتنظمُ شمل الاجتماع بألطف حيلة، وأتمِّ مَكِيدة. قد رضي لنفسه بالقيادة لفَجَرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يَسْجُدَ لأبيهم. فلا بتلك النَّخوة والكبر، ولا برضاه أن يصيرَ قوَّادًا لكل من عصى الله! كما قال بعضُهم:

عجبتُ من إبليسَ فِي تِيهِهِ ... وقبحِ ما أظهَرَ مِنْ نَخْوَتِهْ
تَاهَ على آدَمَ فِي سجْدَةٍ ... وصارَ قوَّادًا لِذرِّيَّتهْ

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصَفَه بها لتكون الاستعاذةُ من شرها أهمَّ من كل مستعاذ منه، وإلا فشرُّه بغير الوسوسة حاصل أيضًا.

فمن شرِّه: أنه لصٌّ سارقٌ لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكرِ اسمُ الله تعالى عليه، فله فيه حظٌّ بالسَّرقة والخَطْف، وكذلك يبيتُ فِي البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله تعالى، فيأكلُ طعامَ الإنس بغير إذنهم، ويبيتُ فِي بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغِيْرًا. ويدلُّ على عوراتهم، فيأمر العبدَ بالمعصية، ثم يلقي فِي قلوب الناس يَقظَةً ومنامًا: أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبدَ يفعل الذنبَ لا يطَّلِع عليه أحدٌ من الناس، فيصبحُ والناسُ يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطانَ زيَّنَة له، وألقاه فِي قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه فِي الذنب، ثم فضحه به، فالرَّبُّ تعالى يسترُه، والشيطانُ يَجْهَدُ فِي كشف ستره وفضيحته، فيغترُّ العبدُ ويقول: هذا ذنبٌ لم يَرَهُ إلا اللهُ تعالى، ولم يشعرْ بأنَّ عدُوَّهُ ساعٍ فِي إذاعته وفضيحته، وَقلَّ من يتفطَّنُ من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره: أنه إذا نام العبدُ عقد على رأسه عُقَدًا تمْنَعهُ من اليَقَظَة، كما فِي "صحيح البخاري" عن سعيد بن المُسَيِّب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيةِ رَأسِ أحَدِكُمْ إذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كلِّ عُقْدَه

=

=

مَكَانَها عَلَيْكَ لَيْلٌ طَويلٌ فَارْقُدْ، فَإِن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيبَ النَّفْسِ، وَإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَفْسِ كَسْلانَ".

ومن شره: أنه يبولُ في أُذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذُكِر عنده رجل نام ليلة حتى أصبحَ، قال: "ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَان فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ" رواه البخاري.

ومن شره: أنه قد قعد لابن آدم بطرق الخير كلِّها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشَّيْطَانُ مُرْصِدٌ عليه، يمنعُه بجَهْدِه أن يسلُكَهُ، فإن خالفه وسلكَه ثَبَّطَهُ فيه وعوَّقَهُ، وشوَّشَ عليه بالمُعارضات والقواطع، فإن عَمِله وفرغ منه، قيَّضَ له ما يُبْطِلُ أثَرَه وَيَرُدُّهُ على حافِرَته.

ويكفي من شرِّه: أنه أقسمَ بالله ليقعُدَنَّ لبني آدم صراطه المستقيم، وأقسم لَيَأتِيَّنهُمْ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أَيْمانهم وعن شمائلهم، ولقد بلغ شرَّه أن أعملَ المكيدة، وبالغ فى الحِيلة، حتى أخرجَ آدَمَ من الجنة، ثم لم يَكْفِهِ ذلك حتى استقطعَ من أولاده شرطة للنَّار من كلِّ ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، ثم: لم يكفِهِ ذلك حتى أعملَ الحيلةَ في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوةُ له، وأن: يُعْبَدَ من دون الله فهو ساعٍ بأقصى جَهْده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض.

ويكفي من شَرِّه: أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومُهُ بالمَنْجَنِيق فى النَّار، فردَّ اللهُ تعالى كيدَهُ عليه، وجعل النارَ على خليله بَرْدًا وسلامًا، وتصدَّى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتلَه وصلبَه، فرد الله كَيْدَهُ، وصان المسيحَ ورفعه إليه، وتصدَّى لزكريا ويحيى حتى قُتِلا، واستثار فرعون حتى زَيَّنَ له الفسادَ العظيم في الأرض ودعوى أنه ربُّهم الأعلى، وتصدَّى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتلة

=

=

بجَهْده، والله تعالى يكبتُهُ ويَرُدُّهُ خاسئًا، وتفلَّتَ على النبي ﷺ بشهاب من نار يُريد أن يَرمِيَهُ به وهو فى الصلاة، فجعل النبي ﷺ يقول: "أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ"، وأعان اليهودَ على سحرهم للنبي ﷺ.

فإذا كان هذا شأنَهُ وهِمَّتَهُ في الشَّرِّ، فكيف الخلاصُ منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته! ولا يمكن حصرُ أجناس شَرِّه فضلًا عن آحادِها، إذ كلُّ شرٍّ في العالم فهو السبَبُ فيه، ولكن ينحصرُ شرُّهُ في ستة أجناس، لا يزالُ بابن آدم حتى ينالَ منه واحدًا منها أو أكثر:

* الشر الأول: شرُّ الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بَرَد أنينُهُ، واستراح من تعبه معه، وهو أوَّلُ ما يُريده من العبد، فلا يزالُ به حتى ينالَهُ منه، فإذا نال ذلك منه صَيَّرَهُ من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليسَ ونوَّابه.

* فإن يَئِسَ منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلامُ في بطن أُمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر، وهي البدعة، وهي أحبُّ إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضرَرَها في نفس الدين وهو ضرر متعدٍّ، وهيِ ذنبٌ لا يتابُ منه، وهي مخالفةٌ لدعوة الرُّسُل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقيَ أيضًا نائِبَهُ وداعيًا من دعاتِهِ.

* فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبدُ ممن سَبَقَتْ له من الله موهبةُ السُّنَّة ومعاداة أهل البدَع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشَّرِّ، وهي الكبائرُ على اختَلاف أنواعها، فهو أشدُّ حرصًا على أن يوقعَه فيها، ولا سيِّما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريصٌ على ذلك لينفِّرَ الناس عنه، ثم يشيعُ من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستَنِيبُ منهم من يشيعُها ويذيعُها تديُّنًا وتقرُّبًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليسَ ولا يشعرُ، فإن الذين يُحِبُّون أن تشيعَ الفاحشة في الذين آمنوا لهم

=

=

عذاب أليم، هذا إذا أحبُّوا إشاعَتَها وإذاعَتَها، فكيف إذا تولَّوْا هم إشاعَتَها وإذاعَتَها [لا] نصيحة منهم، ولكن طاعةً لإبليس ونيابةً عنه؟! كل ذلك لينفِّرَ الناسَ عنه، وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عَنان السَّماء أهونُ عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلمٌ منه لنفسه، إذا استغفرَ اللهَ وتابَ إليه قبل اللهُ وتوبَتَهُ، وبدَّلَ سيئاتِهِ حسنات، وأما ذنوبُ أولئك فظلم للمؤمنين وتَتَبُّعٌ لعورتهم وقصدٌ لفضيحتهم، والله -سبحانه- بالمرصاد لا تخفى عليه كمائنُ الصدور ودسائسُ النفوس.

* فإنْ أعْجَزَ الشيطانَ عن هذه المرتبة، نقله إلى المرتبة الرابعة وهي: الصَّغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: "إيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوب، فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ قَوْمٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض ... "، وذكر حديثًا معناه: أن كل واحد منهم جاء بعُود حَطَب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشْتَوَوْا، ولا يزال يُسَهِّلُ عليه أمرَ الصغائر حتى يستهينَ بها، فيكون صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنَ حالًا منه.

* فإن أعجزه العبدُ من هذه المرتبة، نقله إلى المرتبة الخامسة، وهي إشغالُه بالمُبَاحات التي لا ثوابَ فيها ولا عِقَابَ، بل عقابها فَواتُ الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

* فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدارَ أنفاسِهِ وانقطاعها وما يقابلُها من النعيم والعذاب، نقلَه إلى المرتبة السادسة، وهو: أن يشغَلَهُ بالعمل المفضول عما هو أفضل مه، ليزيحَ عنه الفضيلة ويفوّته ثواب العمل الفاضل، فيأمرُهُ بفعل الخير المفضول، ويحضُّه عليه، ويحسّنه له، إذا تضمَّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلَّ من يَتَنْبَّهُ لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًّا ومحرِّكًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكادُ يقول: إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمرُ بخير، ويرى أن هذا خيرٌ، فيقول:

=

=

هذا الداعي من الله، وهو معذورٌ، ولم يصلْ علمُه إلى أن الشيطان يأمره بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما لِيَتَوَصَّلَ بها إلى باب واحد من الشَّرِّ، وإما لِيُفَوِّتَ بها خيرًا أعظمَ من تلك السبعين بابًا وأجلَّ وأفضلَ.

وهذا لا يتوصلُ إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفهُ في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدَّة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحةً لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصَّتهم وعامَّتهم، ولا يعرفُ هذا إلا مَن كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده.

* فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب السِّتِّ وأعيا عليه سَلَّطَ عليه حزبَهُ من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير له والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه لِيُشَوِّشَ عليه قلبَهُ ويشغل بحربه فكره، وليمنعَ الناسَ من الانتفاع به، فِيبقى سعْيُهُ في تسليط المُبْطِلينَ من شياطين الإنس والجن عليه، لا يَفْتُرُ ولا يَنِي، فحينئذٍ يلبَسُ المؤمن لأُمَةَ الحرب ولا يضعُها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِرَ أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمَّل هذا الفصلَ وتدبَّرْ موقِعَهُ وعظيمَ منفعته، واجعلْه ميزانًا لك تَزِنُ به الناسَ وتَزِنُ به الأعمال، فإنه يُطْلِعكَ على حقائق الوجود ومراتب الخلق، واللهُ المستعان، وعليه التُّكْلان، ولو لم يكنْ في هذا التعليق إلا هذا الفصلُ لكان نافعًا لمن تدبَّرَهُ ووعاه.

فصل

وتأمل السر في قوله تعالى: {يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)}، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمعُ فِي

=

=

الصدر ثم تَلجُ في القلب، فهو بمنزلة الدِّهْليز له، ومن القلب تخرجُ الأوامرُ والإرادات إلى الصدر ثم تتفرَّقُ على الجنود.

ومن فهم هذا فهم قولَه تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [آل عمران: ١٥٤] فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيتِه، فيُلْقي ما يريدُ إلقاءه في القلب، فهو موسوِسٌ في الصدر، ووسوسته واصلةٌ إلى القلب، ولهذا قال تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ} [طه: ١٢٠]، ولم يقل: فيه؛ لأن المعنى: أنه ألقى إليه ذلك وأوصلَهُ إليه، فدخل في قلبه.

فصل: وقوله تعالى: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} اختلف المُفَسِّرونَ في هذا الجارِّ والمجرور: بمَ يتعلَّقُ؟.

فقال الفَرَّاءُ وجماعة: هو بيانٌ للناسِ المُوَسْوَس في صدورهم، والمعنى: يوَسوِسُ في صدور الناس الذين هم من الجَن والإنس، أي المُوَسوَس في صدورهم قسمان: إنس وجن.

فالوسواسُ يُوَسوِسُ للجِنِّيِّ كما يوسوسُ للإنسي، وعلى هذا القول فيكون "منَ الجنة والناس": نصبًا على الحال؛ لأنه مجرورٌ بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصبًا بالخروج من المعرفة، هذه عبارتهم، ومعناها: أنه لما لم يصلحُ أن يكون نعتًا للمعرفة انقطع عنها، فكان موضعُهُ نصبًا، والبصريون يقدِّرونه حالًا، أي: كائِنِيْنَ من الجِنَّة والنَّاس، وهذا القولُ ضعيفٌ جدًّا لوجوه:

أحدها: أنَّه لم يَقمْ دليلٌ على أن الجِنِّيَّ يوسوسُ في صدور الجنِّ، ويدخلُ فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأيُّ دليل يدُلُّ على هذا حتى يصِحَّ حملُ الآية عليه؟.

الثاني: أنه فاسدٌ من جهة اللفظ أيضًا، فإنه قال: (الذي يوسوسُ في صدور الناس)، فكيف يبينُ الناس بالناس؟ فإن معنى الكلام على قوله: يوسوِسُ في صدور الناس

=

=

الذين هم -أو كائنين- من الجنة والناس، أفيجوزُ أن يقالَ: في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم؟ هذا ما لا يجوزُ، ولا هو استعمالٌ فصَيحٌ!.

الثالث: أن يكونَ قد قسم الناسَ إلى قسمين: جِنَّة وناس، وهذا غيرُ صحيح، فإن الشيء لا يكون قَسِيمَ نفسِهِ.

الرابع: أن الجنَّةَ لا يطلقُ عليهم اسمُ الناس بوجه، لا أصلًا ولا اشتقاقًا ولا استعمالًا، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجنَّ إنما سمُّوا جنًّا من الاجتنان، وهو الاستتارُ، فهم مستترون عن أعين البشر، فَسمُّوا جنًّا لذلك، من قولهم: جَنَّهُ الليلُ وأجنَّه: إذا سَتَرَهُ، وأجَنَّ المَيِّتَ: إذَا سَتَرَهُ في الأرض. قال:

ولا تَبْكِ مَيْتًا بعد مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وعباسٌ وآلُ أبي بَكْرٍ

يريد النبيَّ ﷺ.

ومنه: الجَنِينُ لاستتاره في بطنِ أُمِّهِ، قال تعالى: {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [النجم: ٣٢] ومنه: المِجَنُّ لاستتار المُحَارِبِ به من سلاح خصمِهِ، ومنه: الجَنَّةُ لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه: الجُنَّةُ بالضمِّ: لِمَا يَقِي الإنسانَ من السِّهام والسِّلاح، ومنه: المجنون لاستتار عقلِه.

وأما "الناسُ" فبينهُ وبينَ الإنس مناسبةٌ فى اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط، وهو: عَقْد تقاليب الكلمة على معنى واحد، والإنس والإنسان مشتقٌ من الإيناس وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله: {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} [القصص: ٢٩] أي: رآها، ومنه: {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا} [النساء: ٦] أي: أحسستموه ورأيتموه، فالإنسان سمِّيَ إنسانًا لأنه يُؤْنَسُ أي: يُرَى بالعين.

والناس فيه قولان:

أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب.

والثاني: -وهو الصحيح- أنه من النَّوْس وهو الحَرَكة المتتابعة، فسُمِّيَ النَّاسُ ناسًا

=

=

للحركة الظاهرة والباطنة، كما يسمَّى الرجلُ: حارثًا وهمَّامًا، وهما أصدقُ الأسماء كما قال النبي ﷺ؛ لأن كل أحدٍ له همٌّ وإرادةٌ هي مَبْدأ، وحرثٌ وعملٌ هو مُنتهى، فكلُّ أحدٍ حارثٌ وهَمَّام، والحَرْثُ والهَمُّ، حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النَّوْس، وأصل نَاسَ: (نَوَسَ) تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق "الناس".

وأما قول بعضهم: إنه من النِّسيان، وسُمِّي الإنسانُ إنسانًا لنسيانه، وكذلك الناس سُمُّوا ناسًا لنسيانهم؛ فليس هذا القولُ بشيءٍ! وأين النسيانُ الذي مادَّته (ن س ي) إلى الناس الذي مادَّتُهُ (ن وس)؟ وكذلك أين هو من الأُنس الذي مادته (أن س)؟ وأما إنسانٌ فهو "فِعْلان" من (أن س)؟ والألف والنون في آخره زائدتان، لا يجوزُ فيه غيرُ هذا ألبتَّةَ، إذ ليس في كلامهم أَنْسَنَ حتى يكونَ إنْسَانٌ إفعالًا منه، ولا يجوزُ أن يكون الألفُ والنونُ في أوَّله زائدتين، إذ ليس في كلامهم "انْفَعْلٌ" فيتعيَّن أنه "فِعْلانٌ" من الإنس، ولو كان مشتقًّا من (نَسِيَ) لكان نِسْيانًا لا إنسانًا.

فإن قلت: فهلَّا جعلته "إفْعِلالًا"، وأصله: إِنْسِيَان ك "ليلة إِضْحِيَان"، ثم حذفتَ الياء تخفيفًا فصار إنسانًا؟

قلت: يأبى ذلك: عدمُ "إفْعِلال" في كلامهم، وحذفُ الياء بغير سبب، ودعوى ما لا نظير له، وذلك كلُّه فاسد، على أن (الناس) قد قيلَ: إن أصله (الأُنَاسُ) فحُذفت الهمزة، فقيل: (النَّاسُ)، واستدل بقول الشاعر:

إنَّ المَنَايا يَطَّلِعْ ... نَ على الأُنَاسِ الغَافِلينا

ولا ريب أن (أُناسًا) فُعَالٌ، ولا يجوزُ فيه غير ذلك ألبَتَّةَ، فإن كان أصلُ ناس أُناسًا، فهو أقوى الأدلة على أنه من (أن س) ويكون الناسُ كالإنسان سواء في الاشتقاق، ويكون وزن ناس على هذا القول: (عال)؛ لأن المحذوفَ فاؤهُ، وعلى القول الأول يكونُ وزنه: "فَعْلٌ"؛ لأنه من النَّوْس، وعلى القول الضعيف يكون وزنه

=

=

"فَلْع"، لأنه من (نَسِي)، فقلبت لامُه إلى موضع العين فصار ناسًا ووزنه "فَلْعًا".

والمقصودُ أن الناسَ اسم لبني آدم، فلا يدخلُ الجنُ في مسمَّاهم، فلا يصحُّ أن يكونَ {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} بيانًا لقوله: {فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)} هذا واضحٌ لا خفاءَ به.

فإن قيل: لا محذورَ في ذلك، فقد أُطْلِق على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: ٦] فإذا أطلق عليهم اسم الرجال، لم يمتنع أن يُطْلَق عليهم اسم الناس.

قلت؛ هذا هو الذي غَرَّ من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية. وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعًا مقيَّدًا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزمُ من هذا أن يقعَ اسمُ الناس والرجال عليهم مطلقًا، وأنت إذا قلت: "إنسانٌ من حجارة"، أو "رجلٌ من خشب"، ونحو ذلك، لم يلزمْ من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضًا: فلا يلزمُ من إطلاق اسم الرجل على الجنِّي أن يُطلقَ عليه اسم الناس، وذلك لأن الناسَ والجِنَّةَ متقابلان، وكذلك الإنس والجن، فالله تعالى يقابلُ بين اللفظين، كقوله: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الرحمن: ٣٣] وهو كثير في القرآن، وكذلك قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} [الناس: ٦] يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخلُ أحدُهما في الآخر، بخلاف الرجال والجنِّ فإنهما لم يستعملا متقابلينِ، فلا: يقال: الجنُّ والرجال، كما يقال: الجن والإنس، وحينئذٍ فالآية أبْيَنُ حُجَّةٍ عليهَم في أن الجنِّ لا يدخلون في لفظ الناس؛ لأنه قَابَلَ بين الجنة والناس، فعُلِم أن أحدَهما لا يدخلُ فِي الآخر، فالصَّواب القولُ الثاني، وهو أن قوله: {مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)} بيان للذي يوسوسُ، وأنهما نوعان: إنسٌ وجنٌّ، فالجِنِّيُّ يوسْوِسُ في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوسُ إلى الإنسي.

=

=

فالموسوسُ نوعان: إنسٌ وجنٌّ، فإن الوسوسة هي الإلقاءُ الخفيُّ في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاءُ الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأُذُن، والجِنِّيُّ لا يحتاج إلى تلك الواسطة؛ لأنه يدخل فِي ابن آدمْ ويجري منه مجرى الدم.

على أن الجنيَّ قد يتمثَّلُ له ويوسوسُ إليه في أذنه كالإنسيِّ، كما: في "البخاري" عن عُرْوَةَ، عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ المَلائِكَةَ تُحَدِّثُ فِي العَنَانِ، - والعَنَانُ: الغَمَامُ- بالأَمْرِ يَكُونُ فِي الأَرْضِ، فَتَسْتَمِعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ فَتَقُرُّها فِي أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تَقُرُّ القَارُورَةُ فَيَرِيدُونَ مَعَها مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ" فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكُهما في الوحي الشيطاني قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢] فالشيطانُ يوحي إلى الإنسي باطلَه، ويوحيه الإنسيُّ إلى إنسي مثلِه، فشياطين الإنس والجن تشترك في الوحي الشيطاني وتشترك فى الوسوسة، وعلى هذا فتزولُ تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحابُ القول الأول.

وتدلُّ الآيةُ على الاستعاذة من شرِّ نوعي الشياطين: شياطين الإنس والجن. وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذةُ من شرِّ شياطين الجن فقط، فتأمله فإنه بديعٌ جدًّا. ا.ه

* مسائل في الحسد.

المسألة الأولى: الدعاء المشروع من العائن لدفع العين.

الصحيح من السنة أن يبرك الإنسان - أي يدعو بالبركة - إذا رأى ما يعجبه، وخاف على صاحبه من العين، قال رسول الله ﷺ (إذا رأى أحدكم من نفسه أو

=

=

ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة فان العين حق).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال (مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لبط به فأتي به النبي ﷺ فقيل له: أدرك سهلا صريعا قال: من تتهمون به؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال: علام يقتل أحدكم أخاه؟! إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه).

أما قول بعض الناس إذا أعجبه شيء وخاف عليه من العين "ما شاء الله لا قوة إلا بالله "! فقد رود فيه حديث عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ على عبد نعمة، من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) غير أن الحديث المذكور ضعيف وقد تقدم تخريجه في أصل الكتابفي هذا الفصل.

وذهب بعض أهل العلم ومنهم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى مشروعية مثل هذا الذكر، إذا رأى الإنسان ما يعجبه، إما خوفا من العين والآفة عليه، أو خوفا على صاحب ذلك الشيء من العجب والفخر، وتأولوا على ذلك معنى الآية، كما ذكر في آخر الحديث السابق، أنه كان يتأول الآية،

قال العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: " فإذا رأى الإنسان ما يعجبه وخاف من حسد العين فإنه يقول: ما شاء الله تبارك الله، حتى لا يصاب المشهود بالعين، وكذلك إذا رأى الإنسان ما يعجبه في ماله فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ لئلا يعجب بنفسه وتزهو به نفسه في هذا المال الذي أعجبه، فإذا قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فقد وكل الأمر إلى أهله تبارك وتعالى.

=

=

وقال أيضا كما في لقاء الباب المفتوح (٢٣٥/ ١٩): الأحسن إذا كان الإنسان يخاف أن تصيب عينه أحدا لإعجابه به أن يقول: تبارك الله عليك؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال للرجل الذي أصاب أخاه بعين: (هلا بركت عليه)، أما ما شاء الله لا قوة إلا بالله فهذه يقولها: من أعجبه ملكه، كما قال صاحب الجنة لصاحبه قال: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} [الكهف:٣٩] وفي الأثر: [من رأى ما يعجبه في ماله فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يصبه في ماله أذى] أو كلمة نحوها.

وفي فتاوى اللجنة (١/ ٥٤٧): وأما العين فهي مأخوذة من عان يعين إذا أصابه بعينه، والعين حق، كما ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»، وحكمها أنها محرمة كالسحر. وأما العلاج للعائن فإذا رأى ما يعجبه فليذكر الله وليبرك، كما جاء في الحديث «هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت»، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ويدعو للشخص بالبركة". والله أعلم.

المسألة الثانية: أسباب دفع شر الحاسد.

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب، أسوقها مختصرة من كلام المصنف رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٨ - ٢٤٦):

السبب الأول: التعوذ بالله من شره والتحصن به، واللجأ إليه

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه فمن اتقى الله حفظه ولم يكله إلى غيره

السبب الثالث: الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه

السبب الرابع: التوكل على الله فإنه من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا

=

=

يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه، ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

السبب السادس: الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو طفي نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازددت إليه إحسانا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلا عن أن تتعاطاه! واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به: اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه

=

=

المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في اساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقا. فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن، أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد وإخلاصه للعزيز الحكيم، فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه. وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده. وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل. والله يتولى حفظه والدفع عنه. وبحسب إيمانه يكون دفاعه عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر.

المسألة الثالثة: كيفية التعامل مع الحاسد.

١ - الابتعاد عنه قدر المستطاع، قيل لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو وتركت قومك؟ قال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة؟

٢ - محاولة إخفاء النعم عنه، قال المصنف في بدائع الفوائد (٣/ ٩): وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) [يوسف:٥] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم ا. ه

=

=

وينبغي التنبه إلى أن المبالغة في إخفاء النعم ومداومة التفكير في ذلك ومراقبة تصرفات الناس خوفا من حسدهم قد تتحول إلى مرض يجلب لصاحبه الوساوس والمتاعب

٣ – عدم إفشاء السر إليه، وقد قيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد فغم عليه أمرك.

اكتم عن الجلساء بثك إنما * جلساؤك الحساد والشمات

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص:٥٨٢): فإن أردت العيش فأبعد عن الحسود... فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش إليه سرك ولا تشاوره، ولا يغرنك تملقه لك، ولا ما يظهره من الدين والتعبد، فإن الحسد يغلب الدين.

٤ – الدعاء له بالهداية والصلاح.

٥ – استخدام (العزلة الشعورية) بإهمال التفكير فيه تماما وعدم محاولة الانتقام.

وكلمة حاسد من غير جرم * سمعت فقلت مري فانفذيني

وعابوها علي ولم تعبني * ولن يندى لها أبدا جبيني

٦ – مداراته والتلطف معه اتقاء لشره، قال الجاحظ كمت في رسالة الحاسد والمحسود (ص ٢٢): فإذا أحسست رحمك الله من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصن سرك منه تسلم من شذاة شره وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، فتمكن نفسك من سهام مساورته، ولا يغرنك خدع ملقه وبيان زلقه فإن ذلك من حبائل ثقافه.

٧ – نصحه ووعظه، وتخويفه بالله تعالى.

المسألة الرابعة: العلاج الشرعي للعين الحاسدة.

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١٧): هل العين تصيب الإنسان؟ وكيف تعالج؟ وهل التحرز منها ينافي التوكل؟

فأجاب: رأينا في العين أنها حق ثابت شرعا وحسا قال الله –تعالى –: {وإن يكاد

=

=

الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾. قال ابن عباس وغيره في تفسيرها: أي يعينوك بأبصارهم، ويقول النبي، ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» رواه مسلم.

ومن ذلك ما رواه النسائي وابن ماجه «أن عامر بن ربيعة مر بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: "لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة" فما لبث أن لبط به فأتى به رسول الله، ﷺ، فقيل له: أدرك سهلا صريعا فقال: "من تتهمون؟ "

» قالوا: عامر بن ربيعة فقال النبي، ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه، إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه وداخلة إزاره وأمره أن يصب عليه وفي لفظ: يكفأ الإناء من خلفه. والواقع شاهد بذلك ولا يمكن إنكاره.

وفي حالة وقوعها تستعمل العلاجات الشرعية وهي:

١ - القراءة: فقد قال النبي ﷺ: «لا رقيه إلا من عين أو حمة». وقد «كان جبريل يرقي النبي، ﷺ فيقول: "باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك».

٢ - الاستغسال: كما أمر به النبي، ﷺ، عامر بن ربيعة في الحديث السابق ثم يصب على المصاب.

أما الأخذ من فضلاته العائدة من بوله أو غائطه فليس له أصل، وكذلك الأخذ من أثره، وإنما الوارد ما سبق من غسل أعضائه وداخلة إزاره ولعل مثلها داخلة غترته وطاقيته وثوبه والله أعلم.

والتحرز من العين مقدما لا باس به ولا ينافي التوكل بل هو التوكل؛ لأن التوكل الاعتماد على الله -سبحانه - مع فعل الأسباب التي أباحها أو أمر بها وقد «كان النبي، ﷺ، يعوذ الحسن والحسين ويقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل

=

=

شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام». رواه البخاري ا. ه

(تنبيه): قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٢٨): قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وإما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أمامة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: هل يجوز التبخر بالشب أو الأعشاب لدفع العين؟

قال اللجنة الدائمة (١/ ٢١٢): "لا يجوز علاج الإصابة بالعين بما ذكر؛ لأنها ليست من الأسباب العادية لعلاجها، وقد يكون المقصود بهذا التبخر استرضاء شياطين الجن والاستعانة بهم على الشفاء، وإنما يعالج ذلك بالرقى الشرعية ونحوها مما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

(فرع): سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٣٦٨): سائلة تقول: عند زيارتي لبيت جدتي أرى أنهم يعلقون خنجرا على الحائط؛ ظنا منهم أنه يمنع الحسد، ويسمى لدينا صبايون، ولقد أوضحت لجدتي أن هذا شرك بالله، وإنه يجب أن يكون التوكل على الله وحده ولا نستعين بغيره، إلا أنها لم تأخذ بنصيحتي، وبعد فترة وبدون علم منها أخذته وحطمته، وهي حتى الآن لا تعلم من أخذه، فهل علي إثم في عدم إخبارها بأني أنا فعلت ذلك، مع علمي بأنها ستغضب علي لو قلت لها: أنا فعلت ذلك، هل لي أجر فيما فعلت؟

فأجاب: قد أحسنت في هذا وجزاك الله خيرا ولا تخبريها، وقد أحسنت في نصيحتها والحمد لله، قد أفهمتيها ونصحتيها، ولا حاجة إلى إخبارها بمن أزاله، وهو يشبه التميمة التي تعلق على الأولاد، أو غير الأولاد من باب الشرك الأصغر؛ لأنهم يعتقدون أن الحرز يدفع عنهم العين أو الحسد، فهذا شيء لا أصل له، بل هو من جنس تعليق التمائم على الأولاد من حروز، واعتقاد أنها تدفع العين أو

=

=

تدفع الجن، وهذا من الشرك الأصغر، فهو من المنكر وهذا يشبهه وقد أحسنت بإزالته، أما لو اعتقد الإنسان أن هذا الحجر أو هذه التميمة تتصرف بغير إذن الله ﷻ فهذا شرك أكبر، لكن في الغالب على الناس أنهم يقصدون أنها خير، فهو باطل لا أصل له، لا في التميمة ولا في الأشياء التي تعلق على الأولاد أو غيرهم، ولا في الحجر أو الخنجر الذي يعلق على باب أو جدار، نسأل الله السلامة ا. ه

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٢/٦٤٨ - ٦٥٠): معلقا على قوله ﷺ (إن الرقى، والتمائم، والتولة شرك) " الرقى " هي هنا ما كان فيه الاستعاذة بالجن، أو لا يفهم معناها، مثل كتابة بعض المشايخ من العجم على كتبهم لفظة " يا كبيج " لحفظ الكتب من الأرضة زعموا.

و" التمائم " جمع تميمة، وأصلها خرزات تعلقها العرب على رأس الولد لدفع العين، ثم توسعوا فيها فسموا بها كل عوذة. قلت: ومن ذلك تعليق بعضهم نعل الفرس على باب الدار، أو في صدر المكان!

وتعليق بعض السائقين نعلا في مقدمة السيارة أو مؤخرتها، أو الخرز الأزرق على مرآة السيارة التي تكون أمام السائق من الداخل، كل ذلك من أجل العين زعموا. وهل يدخل في "التمائم " الحجب التي يعلقها بعض الناس على أولادهم أو على أنفسهم إذا كانت من القرآن أو الأدعية الثابتة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، للسلف في ذلك قولان، أرجحهما عندي المنع كما بينته فيما علقته على " الكلم الطيب " لشيخ الإسلام ابن تيمية (رقم التعليق ٣٤) طبع المكتب الإسلامي.

و"التولة" بكسر التاء وفتح الواو، ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره قال ابن الأثير: " جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر، ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى ".

=

=

المسألة السادسة: الفرق بين العين والحسد:

وقع خلط كبير عند كثير من الناس في التفريق بين الحسد والعين، والفرق بينهما واضح ولله الحمد. أولا: الحاسد أعم من العائن فليس كل حاسد عائن، فقد يحسد شخص آخر من غير أن يعينه أو يضره، بل هو مرض في القلب يقتضي استكثار النعمة على الغير وتمني زوالها، فالحسد يقع في نفس حاقدة خبيثة. لذلك جاء ذكر الاستعاذة في سورة الفلق من الحاسد، فإذا استعاذ المسلم من شر الحاسد دخل فيه العائن، وهذا من شمول القرآن وإعجازه، بينما العين قد تقع من رجل صالح، فمصدر الحسد. تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود وتمني زوالها عنه أو عدم حصولها. أما العائن فمصدره الإعجاب والاستعظام، لذا فقد يصيب بالعين من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وربما أصابت عينه أحد أبنائه أو أهله أو نفسه، فرؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه وتوجهها إليه تؤثر في المعين.

قال المصنف في الزاد (٤/ ١٤٩): العائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منها تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه.

فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضا، ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الزاد (٤/ ١٦٧): وكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنا... ثم قال: وأصله إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: عن من عرف بذلك حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت،

=

=

وهذا هو الصواب قطعا.

(فرع): هل يعين الأعمى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الطب النبوي (ص١٣٠، ١٣١): والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظن من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، ونفس العائن لايتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر}، وقال: {قل أعوذ برب الفلق*من شر ماخلق * ومن شر غاسق إذا وقب* ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد}.

* مسائل في الرقية.

المسألة الأولى: حكم الرقية اذا اشتملت على شئ لا يعقل معناه.

الرقى غير المأثورة مباحة ما لم تحو محذورا شرعيا ولا سيما إذا جربت وصح نفعها بقدر الله، أما أن يحتج لرقية ما بأنها جربت وصح نفعها بمجرد التجريب فقط؛ فهذا وحده لا يكفي، فالرقية التي تكون على هيئة غامضة وأوامر معتسفة لا تجوز وإن زعموا أنها قد جربت ونفعت، والمسلم يجب أن يكون على بصيرة من أمره في كل ما يأتي أو يذر فيزن كل ما يعرض له بميزان الشرع. وأن يتريث قبل العمل بمثل هذه الأمور التي لا يوجد فيها نقل صحيح صريح، فهذه الأشياء التي لا يعقل معناها، إذا لم نتأكد أنها من الأسباب الشرعية أو العادية التجريبية؛ فلا يجوز التسليم بها أو تعاطيها؛ لأن هذا يفتح بابا عظيما من الفتن؛ إذ إنه ذريعة إلى تصديق السحرة والدجالين وتلبيس أمرهم على العامة.

قال ابن قدامة في الكافي (٤/ ١٦٦ - ١٦٧): وقد توقف أحمد لما سئل عن رجل

=

=

يزعم أنه يحل السحر فقال: قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء، ويغيب فيه، ويفعل كذا، فنفض يده كالمنكر، وقال: ما أدري ما هذا؟ وسئل ابن سيرين عن امرأة تعذبها السحرة، فقال رجل: أخط خطا عليها، وأغرز السكين عند مجمع الخط وأقرأ عليها القرآن، فقال محمد: ما أعلم بقراءة القرآن بأسا على حال ولا أدري ما الخط والسكين.

وقال الباجي في المنتقى (٧/ ٢٥٨): وكره مالك أن يرقي الراقي وبيده الحديدة أو الملح، والعقد في الخيط أعظم كراهية عنده، وروي عنه أنه كره الحديدة والملح، والعقد في الخيط أشد كراهية، ووجه ذلك عندي أنه لم يعرف وجه منفعته فإنه يكره استعماله لما يضاف إليه، والله أعلم).

وقال الباجي في موضع آخر (٧/ ٢٦١) أيضا: وروى ابن وهب عنه عن المرأة التي ترقي بالحديدة والملح، وعن الذي يكتب الحرز ويعقد فيما يعلقه به عقدا، والذي يكتب حرز سليمان أنه كره ذلك كله، وكان العقد عنده في ذلك أشد كراهية، لما في ذلك من مشابهة السحر، ولعله تأول قول الله تعالى: [ومن شر النفاثات في العقد] (والله أعلم) قلت: في الموضع الأول علل كراهيته أنه لم يعرف وجه منفعته، وهنا عللها لما في ذلك من مشابهة السحر، ولكن هناك وجه آخر من كلام مالك ذكره القسطلاني في إرشاد الساري (٨/ ٣٨٨) قال: وفيه جواز الرقية لكن بشروط: أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية غير مؤثرة بنفسها بل بتقدير الله ﷻ.

وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية فقال: لا بأس أن يرقى بكتاب الله ﷻ، وبما يعرف من ذكر الله إلى أن قال: وروى ابن وهب عن مالك كراهية الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.

=

=

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٩٥): وقد تمسك قوم بهذا العموم فأجازوا كل رقية جربت منفعتها ولو لم يعقل معناها لكن دل حديث عوف أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يمنع وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمتنع احتياطا ا. ه

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٢/ ٨٤٣ - ٨٤٤): تحت حديث «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل» أخرجه مسلم (٧/ ١٨ - ١٩) وأحمد (٣/ ٣٨٢) والخرائطي في " مكارم الأخلاق " (ص ٩٠) من طريق ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: " أرخص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في رقية الحية لبني عمرو.

قال أبو الزبير: سمعت جابر بن عبد الله يقول: " لدغت رجلا منا عقرب ونحن جلوس مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال رجل: يا رسول الله أرقي؟ قال... "فذكره. وفي الحديث استحباب رقية المسلم لأخيه المسلم بما لا بأس به من الرقى، وذلك ما كان معناه مفهوما مشروعا، وأما الرقى بما لا يعقل معناه من الألفاظ فغير جائز.

قال المناوي: " وقد تمسك ناس بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، وإن لم يعقل معناها، لكن دل حديث عوف الماضي أن ما يؤدي إلى شرك يمنع، وما لا يعرف معناه لا يؤمن أن يؤدي إليه، فيمنع احتياطا ".

قلت: ويؤيد ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يسمح لآل عمرو بن حزم بأن يرقي إلا بعد أن اطلع على صفة الرقية، ورآها مما لا بأس به، بل إن الحديث بروايته الثانية من طريق أبي سفيان نص في المنع مما لا يعرف من الرقى، لأنه -صلى الله عليه وآله وسلم- نهى نهيا عاما أول الأمر، ثم رخص فيما تبين أنه لا بأس به من الرقى، وما لا يعقل معناه منها لا سبيل إلى الحكم عليها بأنه لا بأس

=

=

بها، فتبقى في عموم المنع. فتأمل ا. ه

وقال علماء اللجنة الدائمة (١/ ٧٣): بعد نقل كلام الحافظ السابق: وما لا يعقل معناه إن لم يؤد إلى الشرك فإنه يفتح باب الشعوذة وتسويغ أعمال السحرة والمبتدعين والخرافيين.

المسألة الثانية: هل الراقي الذي يطلب اسم المريض واسم والدته هو ممن يستخدم الجن؟

سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٥/ ٤١٩): هناك فئة من الناس يعالجون بالطب الشعبي على حسب كلامهم، وحينما أتيت إلى أحدهم قال لي: اكتب اسمك واسم والدتك ثم راجعنا غدا وحينما يراجعهم الشخص يقولون له: إنك مصاب بكذا وكذا وعلاجك كذا وكذا... ويقول أحدهم: إنه يستعمل كلام الله في العلاج ، فما رأيكم في مثل هؤلاء؟ وما حكم الذهاب إليهم؟

فأجاب: من كان يعمل هذا الأمر في علاجه فهو دليل على أنه يستخدم الجن ، ويدعي علم المغيبات ، فلا يجوز العلاج عنده، كما لا يجوز المجيء إليه ولا سؤاله؛ لقول النبي ﷺ في هذا الجنس من الناس «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (أخرجه مسلم في صحيحه.

وثبت عنه في عدة أحاديث النهي عن إتيان الكهان والعرافين والسحرة ، والنهي عن سؤالهم وتصديقهم ، وقال ﷺ: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وكل من يدعي علم الغيب باستعمال ضرب الحصى أو الودع أو التخطيط في الأرض أو سؤال المريض عن اسمه واسم أمه أو اسم أقاربه فكل ذلك دليل على أنه من العرافين والكهان الذين نهى النبي ﷺ عن سؤالهم وتصديقهم.

فالواجب الحذر منهم ومن سؤالهم ومن العلاج عندهم وإن زعموا أنهم يعالجون

=

=

بالقرآن؛ لأن من عادة أهل الباطل التدليس والخداع، فلا يجوز تصديقهم فيما يقولون، والواجب على من عرف أحدا منهم أن يرفع أمره إلى ولاة الأمر من القضاة والأمراء ومراكز الهيئات في كل بلد حتى يحكم عليهم بحكم الله، وحتى يسلم المسلمون من شرهم وفسادهم وأكلهم أموال الناس بالباطل. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المسألة الثالثة: حكم تخيل المريض للعائن.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٩٠): مدى صحة تخيل المريض للعائن من جراء القراءة، أو طلب الراقي من القرين أن يخيل للمريض من أصابه بالعين؟

فأجابوا: تخيل المريض للعائن أثناء القراءة عليه، وأمر القارئ له بذلك هو عمل شيطاني لا يجوز؛ لأنه استعانة بالشياطين، فهي التي تتخيل له في صورة الإنسي الذي أصابه، وهذا عمل محرم؛ لأنه استعانة بالشياطين، ولأنه يسبب العداوة بين الناس، ويسبب نشر الخوف والرعب بين الناس، فيدخل في قوله تعالى {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} (الجن الآية ٦).

المسألة الرابعة: حكم مس جسد المرأة أثناء الرقية.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٩٠): ما حكم مس جسد المرأة يدها أو جبهتها أو رقبتها مباشرة من غير حائل، بحجة الضغط والتضييق على ما فيها من الجان، خاصة أن مثل هذا اللمس يحصل من الأطباء في المستشفيات، وما هي الضوابط في ذلك؟

فأجابوا: لا يجوز للراقي مس شيء من بدن المرأة التي يرقيها؛ لما في ذلك من الفتنة، وإنما يقرأ عليها بدون مس، وهناك فرق بين عمل الراقي وعمل الطبيب؛ لأن الطبيب قد لا يمكنه العلاج إلا بمس الموضع الذي يريد أن يعالجه، بخلاف الراقي فإن عمله وهو القراءة والنفث لا يتوقف على اللمس.

=

=

المسألة الخامسة: حكم الرقية عن طريق المسجل.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٨٥): عند الرقية هل يجوز أن يضع الراقي يده على المريض ثم يفتح المسجل مستعينا بالله ثم بصوت القارئ فقط، حيث يوجد في الأسواق ٤ أشرطة للتداوي بالقرآن ودفع الحسد ونحو ذلك؟

فأجابوا: الأصل أن الراقي هو الذي يباشر قراءة القرآن وينفث على المريض من ريقه، ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري ﵁: «أن أناسا من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا فجعلوا لهم قطعا من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك وقال: "وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم). وفي الصحيح أيضا من حديث عائشة ﵂: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها» ولما في مباشرة الراقي القراءة بنفسه من معان تقوم في الراقي لا بد من اعتبارها.

وعليه فإن الرقية بفتح جهاز التسجيل خلاف الأصل الشرعي، فالرقية بواسطة جهاز التسجيل أمر محدث لا يجوز شرعا.

المسألة السادسة: حكم استعمال جلد الذئب في الرقية.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٩١): ما حكم شم جلد الذئب من قبل المريض، بدعوى أن يفصح عن وجود جان أو عدمه، إذ أن الجان- بزعمهم- يخاف من الذئب وينفر منه، ويضطرب عند الإحساس بوجوده.

فأجابوا: استعمال الراقي لجلد الذئب ليشمه المصاب حتى يعرف أنه مصاب بالجنون- عمل لا يجوز؛ لأنه نوع من الشعوذة والاعتقاد الفاسد، فيجب منعه

=

=

بتاتا، وقولهم: إن الجني يخاف من الذئب خرافة لا أصل لها ا. ه
وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بعض الناس يقصون جلدة جبهة الذئب ويحضرونها عند الذي أصابه مس ثم يخرج هذا الجني بقولهم، وبعض الناس يضع هذه الجلدة في البيت حرزا من الجن حتى لا يدخل بيته. فما الحكم في المسألتين؟
فأجاب: الحكم في المسألتين: أن هذا لا أصل له، ولا صحة له، ولو كان هذا كذلك لكانت الذئاب بأغلى الأثمان، هذا لا صحة له. السائل: هل هذا من جنس لبس الحلقة لدفع البلاء؟ الشيخ: إي نعم، يكون هذا من جنس لبس الحلقة ونحوها لدفع البلاء أو رفعه، أوهام لا صحة لها. السائل: وإذا ثبت يا شيخ؟ الشيخ: لا يثبت، أوهام! افعل لك ذئبا وضعه حول الجن وانظر ماذا يحصل. السائل: عند شخص في حائل عنده ذئب. الشيخ: أنا أعرب إنسانا ممن كان يقرأ على المصابين بالمس، وأخذ معه ذئبا، والذئب لا يأكل إلا من أطيب اللحم، وصار يشتري له اللحم دائما، ولكن لا فائدة. الجني يرقص إذا رأى الذئب.
المسألة السابعة: حكم كتابة القرآن الكريم بالحروف المقطعة للرقية.
سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٩٣): هل يجوز كتابة القرآن الكريم بالحروف المقطعة، وحملها للمريض وإذابتها في الماء وشرب الماء.
فأجابوا: لا بأس بكتابة القرآن كتابة واضحة على شيء طاهر ثم يمحى بماء يسقى للمريض؛ لأن هذا فعله بعض السلف، وهو من الاستشفاء بالقرآن. أما كتابته بحروف مقطعة فإنها لا تجوز؛ لأن هذا تلاعب بكتاب الله ﷻ واعتقاد فاسد، وهكذا جعل القرآن أو بعضه تميمة أي حرزا يعلق على المريض، فإنه لا يجوز لأن الرسول ﷺ منع من ذلك وقال: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» وفي رواية أخرى: «من تعلق تميمة فقد أشرك» ولا فرق بين كون التميمة من القرآن أو من

=

=

غير القرآن في أصح قولي العلماء؛ لعموم الأحاديث، ولسد الذريعة؛ لأن تعليق التمائم من القرآن يفضي إلى تعليقها من غيره.

المسألة الثامنة: حكم تحديد عددا من السور القرآنية أو عددا من التسبيحات في الرقية.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ٩٦): بعض المعالجين يحددون عددا من السور القرآنية أو عددا من التسبيحات تقال بعد صلاة ركعتين، بنية مشاهدة رؤية في المنام للمصابين بالسحر؛ ليروا في هذه الرؤية من الذي فعل السحر وأين هو وكيف يحل، فما مشروعية هذا الفعل؟ وكذلك قراءة بعض السور مثل الإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي مائة مرة على المسبحة، علما بأن البعض اعترض على هذا الأمر وقالوا إنها بدعة.

وقالوا أيضا: إن من البدع قراءة القرآن على زيت حبة البركة والعسل واللبن، ودهن الجسم بالمسك وماء الورد المقروء عليه آيات قرآنية، علما بأن المشاهد بالتجربة تأثير هذه الأشياء على الجان، وقد تؤدي بفضل الله إلى حرقه، فهل هذه الطريقة مشروعة أم أن الاستشفاء بالقرآن من الأمور التوقيفية التي لا يجوز أن نتعداها إلا بنص؟

فأجابوا: ما ذكر في السؤال من تحديد بعض المعالجين بالقرآن عددا من السور والتسبيحات تقال بعد صلاة ركعتين بنية مشاهدة رؤية في المنام للمصابين بالسحر، وكذلك قراءة بعض السور مائة مرة على المسبحة.. إلخ- كل ذلك من البدع التي لا أصل لها ولا دليل عليها من كتاب الله ولا سنة رسوله محمد ﷺ، والرقية الشرعية جائزة بشروط منها أن تكون بكلام الله أو أسمائه وصفاته، فيجوز الاستشفاء بالقرآن وبالسنة فيما نص عليه الرسول ﷺ ورقى به نفسه أو رقى به أصحابه، أو بالدعوات الطيبة التي ليس فيها ما يخالف الشرع المطهر، ويشترط أن

=

=

تكون الرقية باللغة العربية أو ما يفهم معناها، كما يشترط أن يعتقد الراقي والمرقي أن الرقية لا تؤثر بذاتها ولا بذات المسترقي، بل بإذن الله تعالى فهو النافع الضار الشافي، وفعل الراقي سبب والله هو الذي خلق الأسباب والمسببات، وقراءة القرآن أو السنة على المريض مباشرة بالنفث عليه ثابتة بالسنة المطهرة من رقية الرسول ﷺ لنفسه ولبعض أصحابه، أما كتابة الآيات بماء الورد والزعفران ونحو ذلك ثم غمرها في الماء وشربها أو القراءة على العسل واللبن ونحوها ودهن الجسم بالمسك وماء الورد المقروء عليه آيات قرآنية- فلا بأس به، وعليه عمل السلف الصالح.

(تنبيه) قد يحتج البعض على تعيين آيات معينة تقرأ بأحاديث لا تصح منها:

حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى، قال (كنت جالسا عند النبي ﷺ إذ جاءه أعرابي، فقال: إن لي أخا وجعا، قال: ما وجع أخيك؟ قال: به لمم. قال: "اذهب فأتني به" قال: فذهب، فجاء به، فأجلسه بين يديه، فسمعته عوذه بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أول البقرة، وآيتين من وسطها: {وإلهكم إله واحد} [١٦٣] وآية الكرسي، وثلاث آيات من خاتمتها، وآية من آل عمران - أحسبه قال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو} [١٨] وآية من الأعراف: {إن ربكم الله الذي خلق} الآية [٥٤]، وآية من المؤمنين: {ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به} [١١٧] وآية من الجن: {وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} [٣]، وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر الحشر، و {قل هو الله أحد} والمعوذتين، فقام الأعرابي قد برأ، ليس به بأس) أخرجه عبد الله في زوائد المسند (٥/ ١٢٨، رقم ٢١٢١٢)، وابن ماجة (٢/ ١١٧٥، رقم ٣٥٤٩)، وأبو يعلى (٣/ ١٦٧، رقم ١٥٩٤)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣٢)، والطبراني في "الدعاء" (١٠٨٠)، والحاكم (٤/ ٤٥٨، رقم ٨٢٦٩) والحديث

=

=

قال عنه الحاكم: قد احتج الشيخان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا برواة هذا الحديث كلهم عن آخرهم غير أبي جناب الكلبي و الحديث محفوظ صحيح ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي قائلا: الحديث منكر، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٥٣٧٩): قلت: كلا مدار هذه الأسانيد على أبي جناب يحيى بن أبي حية وهو ضعيف مدلس وقد رواه بالعنعنة، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٨٢)، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف ابن ماجة، وضعفه الشيخ مشهور في كتابه فتح المنان (ص٤٧٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٤/ ٥٧٠): إسناده ضعيف لضعف أبي جناب: وهو يحيى بن أبي حية الكلبي، وقد اضطرب في إسناده.

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (بينا أنا والنبي في بعض طرقات المدينة إذا برجل قد صرع فدنوت منه وقرأت في أذنه فاستوى جالسا فقال النبي ماذا قرأت في أذنه فقلت قرأت في أذنه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) فقال النبي والذي بعثني بالحق لو قرأها موقن على جبل لزال) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ٨٩، رقم ٥٤٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص (٢٩٨)، والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ٣١١، رقم ٥٢٦)، وعزاه السيوطي في الدر: (٦/ ١٢٢) للحكيم الترمذي، وأبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والحديث قال عنه الإمام أحمد كما في العلل (٣/ ٤٦٣ رقم ٥٩٧٩): هذا الحديث موضوع هذا حديث الكذابين منكر الاسناد ونقل قوله وأقره العقيلي في الضعفاء (٢/ ١٦٣) وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٥٦) و (٣/ ٢١١) والذهبي في الميزان (٢/ ١٧٥) والحافظ في اللسان (٣/ ٥٧) وتعقبهم العلامة الألباني في الضعيفة (٢١٨٩) فقال: وهذا عجيب منهم، أما الإمام أحمد، فيمكن أن يكون عذره أنه لم يطلع على طريقه الأخرى السالمة من الضعف الشديد، بخلاف الحفاظ المذكورين الذين جاؤوا من بعدهم ؛ كيف لم

=

=

يتعقبوه بالطريق الأخرى عن ابن مسعود، كما فعل السيوطي في اللآلي المصنوعة (١/ ٢٤٧)، فإنه تعقبه بما عند أبي يعلى في مسنده (٨/ ٤٥٨/ ٥٠٤٥) ومن طريقه ابن السني في عمله (٢٠٣/ ٦٢٥) قال حدثنا داود بن رشيد حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن حنش الصنعاني عن عبد الله: أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق فقال له رسول الله ﷺ: " ما قرأت في أذنه؟ قال: الحديث مثله. وقال السيوطي عقبه: "وهذا الإسناد رجاله رجال الصحيح ؛ سوى ابن لهيعة و حنش، وحديثهما حسن". وكذا قال ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٩٤)، وأورده في الفصل الثاني الذي خصه بما تعقب فيه ابن الجوزي. وفيما قالاه في ابن لهيعة وحنش نظر ثم ضعف الشيخ الحديث وقال: والخلاصة أن علة هذا الشاهد إنما هو الإرسال وإسناده صحيح فلا يجوز أن يحكم على الحديث بالوضع. والله أعلم.

المسألة التاسعة: بعض طرق الرقية الغير جائزة.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ١٠٠): هناك بعض الإخوة يعالجون بعدة طرق، ومنها:

١ - يرقي في حقنة من الكالاكوز وتعطى للمريض المصاب بالجان في الوريد، ويستدل بأن الشيطان يجري في الإنسان منه مجرى الدم.

٢ - يرقي في الماء ويضيف عليه العطر بحجة أن الجان لا يحب العطر ويشربه المصاب.

٣ - ويرقي أيضا في زيت الزيتون ويسقي المريض مع الماء.

بماذا تنصح إخوانك الذين يقدمون مثل هذه المعالجة؟

فأجابوا: الرقية الشرعية توقيفية لا يجوز الزيادة فيها على الوجه المشروع، وقد أدخل بعض الناس في الرقية الشرعية صنوفا من المحدثات جهلا أو تأكلا، أو من

=

=

تلاعب الشيطان ببعضهم. ومنه إجراء بعضهم الرقية في حقنة ثم ضربها في الوريد من المريض المصاب بالمس، محتجا هذا الراقي بحديث «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» وهذه رقية بوسيلة غير شرعية، وتطبب يضمن ما يحصل منه من جناية على المريض، ولا حجة لهذا المتطبب بالحديث المذكور لما ذكر؛ لأنه يدل على ملابسة الشيطان للإنسان، فيعالج بالرقية الشرعية وهي القراءة والنفث على المصاب، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك، وقد يترتب على حقن الماء في الوريد ضرر أو تلف.

المسألة العاشرة: حكم رقية غير المسلم.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ١٠٣): هل يجوز للمعالج بالقرآن أن يعالج إنسانا غير مسلم؟

فأجابوا: يجوز للمسلم أن يعالج بالقرآن غير المسلم إذا لم يكن حربيا على وجه ليس فيه تمكين للكافر من مس المصحف، وذلك بالقراءة عليه والدعاء له بالشفاء والهداية.

وسئل علماء اللجنة الدائمة أيضا (٢٧/ ١٠٤): ماذا يصنع المعالج بالقرآن لو جيء إليه بشخص من أهل الكتاب يعاني من المس الشيطاني؟ وهل يفيد العلاج؟ علما بأنه لا يؤمن بالإسلام.

فأجابوا: يجوز علاج غير المسلم بالقرآن؛ لأن ذلك من الإحسان، والله يقول: {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}، وقال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}، وقد يكون شفاؤه بسبب الرقية سببا لإسلامه.

المسألة الحادية عشرة: حكم الرقية على يد غير مسلم.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ١٠٤): ما هو رأي الدين في اللجوء إلى

=

=

القسيسين - رهبان النصارى - لعلاج بعض حالات الخوف، أو القراءة على من عضه كلب مسعور، سواء كان المعضوض إنسانا أو حيوانا؟

فأجابوا: لا يجوز العلاج عند الكفرة إلا في الأمور الطبية، كالجراحة ووصف الأدوية الطبية المباحة، أما العلاج بالقراءة بالأدعية فلا يجوز إلا على يد مسلم سليم العقيدة.

المسألة الثانية عشرة: حكم دخول الحمام وعلى الجسم شئ مقروء عليه.

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٧/ ١٠٣): هل يجوز للإنسان أن يدهن بعض جسمه بزيت زيتون عليه قرآن الرقي، ثم يدخل الحمام (بيت الخلاء)؟

فأجابوا: نعم يجوز للإنسان أن يدهن بزيت الزيتون المقروء عليه القرآن، ولا بأس أن يدخل الحمام بعد ذلك.

المسألة الثالثة عشرة: حكم تعليق حديده على النفساء لدفع شر الجن.

سئل علماء اللجنة الدائمة (١/ ٣٢٧): إذا ولدت المرأة تأخذ معها حديدا لمدة ٤٠ يوما ويعتقدون بهذا الحديد أنه يمنع عنهم شر الجن ويعتقدون أن الحديد ينفعهم من دون الله فهو الذي خلقهم أول مرة ولقد وصلنا إلى جدال أنا وأمي وزوجتي فما نصيحتكم لأمي وزوجتي؟ عسى أن تكون نصيحتكم بركة تحل هذه المشكلة التي حدثت في كل القبائل في ظفار، وأرجو نصيحة المسلمات اللاتي يعتقدن أن الحديد ينفع ويضر من دون الله، وأرجو نصيحة مهمة في الموضوع نفسه حتى أستطيع أن أدعو الناس إلى الطريق الصحيح، وكذلك الولد المختون يمكث نفس المدة التي تمكثها المرأة لا يصوم ولا يصلي ويأخذ الحديد معه لمدة ٤٠ يوما، وأريد نصيحة ودليلا بأسرع وقت ممكن جزاكم الله خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

فأجابوا: من أنواع الشرك الأكبر المخرج من دين الإسلام؛ تعليق الحديد ونحوه

=

=

على المرأة النفساء والمختون لجلب النفع أو دفع الضرر، قال تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم} وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا في يده حلقة من صفر فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا» وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» رواهما أحمد وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك» وقد أحسنت في نصيحتك لمن ذكر وعنايتك بإرشادهما إلى ترك هذه البدعة الشركية جزاك الله خيرا.

المسألة الرابعة عشرة: حكم جعل المصحف على الوجه، خوفا من الجن.

سئل علماء اللجنة الدائمة (١/ ٢٩١): أنا رجل كفيف البصر وساكن في بيت، وهذا البيت كل ليلة يجيئني جن (يزوربون علي) وأتخوف منهم والآن عندي مصحف وإذا جعلته على وجهه راحوا عني، وقال بعض الناس: ما يصح تجعل المصحف على وجهه، آمل منكم إفادتي؟

فأجابوا: ينبغي لك أن تكثر من ذكر الله عند النوم، وأن تقرأ (آية الكرسي) وسورة (الإخلاص) و (المعوذتين)، وأن تستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاث مرات) صباحا ومساء وتقول: (باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاث مرات) صباحا ومساء)، وتسلم إن شاء الله من شر الجن وغيرهم، ولا ينبغي لك استعمال المصحف في هذا الأمر على الوجه المذكور؛ لما في ذلك من الإهانة لكتاب الله وإرضاء الشياطين بذلك.. ونسأل الله أن يعافيك وأن يعيذنا جميعا من الشياطين.

(**تتمة**): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) (الناس: ١) إلى آخر السورة، يسأل عن تكرار الناس في قوله تعالى (مَلِكِ النَّاسِ

=

=

(٢) إِلَهِ النَّاسِ) (الناس: ٢ – ٣)؟ وما وجه ذلك.

والجواب، أن التبعية في ملك الناس على عطف البيان ولا تحسن فيه الإضافة إلى الضمير لأن ذلك يؤدي إلى تعرف الأسمين بضمير الأول الذي عليه حملهما، فكأن يكون الأول في حكم الأعراف من اللفظ التابع له وذلك عكس ما عليه عطف البيان، أما إذا أضيف التابع لما أضيف إليه متبوعه فإنه إذ ذاك لا يكون مساويًا له، وذلك هو الجاري المطرد في هذا الضرب من التوابع – أعني أن يكون في الأغلب الكثير مساويًا للأول أو أعرف – فلهذا جاء مضافًا إلى الظاهر هنا والله أعلم. ا.ه من ملاك التأويل (٢/ ٥١٩).

وفي الخاتم ننبه على مسائل عامة تتعلق بالقرآن.

المسألة الأولى: آداب تلاوت القرآن.

قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٤٨٢ – ٤٨٤): فصل: في هديه ﷺ في قراءة القرآن، واستماعه، وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به، وتوابع ذلك.

كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلا لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفا حرفا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، فيمد (الرحمن)، ويمد (الرحيم)، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وربما كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه، ونفثه) وكان تعوذه قبل القراءة، وكان يحب أن يسمع القران من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود، فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

وكان يقرأ القران قائما، وقاعدا، ومضطجعا، ومتوضئا، ومحدثا، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة.

=

=

وكان ﷺ يتغنى به، ويرجع صوته به أحيانا كما رجع يوم الفتح في قراءته: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) الفتح/ ١.

وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه، آ آ آ ثلاث مرات، ذكره البخاري، وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم)، وقوله: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)، وقوله: (ما أذن الله لشيء، كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقران)، علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختيارا لا اضطرارا لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلا تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختيارا ليؤتسى به، وهو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته ثم يقول: (كان يرجع في قراءته) فنسب الترجيع إلى فعله. ولو كان من هز الراحلة، لم يكن منه فعل يسمى ترجيعا " انتهى.

وقد ذكر الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه النافع "أخلاق حملة القرآن"، بابا في (أدب القراء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله)، لخص فيه جملة من آداب قارئ القرآن، من أدب السنة، وهدي السلف، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

" وأحب لمن أراد قراءة القرآن، من ليل أو نهار أن يتطهر، وأن يستاك، وذلك تعظيم للقرآن؛ لأنه يتلو كلام الرب ﷻ؛ وذلك أن الملائكة تدنو منه عند تلاوته للقرآن، ويدنو منه الملك، فإن كان متسوكا وضع فاه على فيه، فكلما قرأ آية أخذها الملك بفيه، وإن لم يكن تسوك تباعد منه؛ فلا ينبغي لكم يا أهل القرآن أن تباعدوا منكم الملك، استعملوا الأدب، فما منكم من أحد إلا وهو يكره إذا لم يتسوك أ يجالس إخوانه.

وأحب أن يكثر القراءة في المصحف لفضل من قرأ في المصحف، ولا ينبغي له أن يحمل المصحف إلا وهو طاهر، فإن أحب أن يقرأ في المصحف على غير طهارة

=

=

فلا بأس، ولكن لا يمسه، ولكن يصفح المصحف بشيء، ولا يمسه إلا طاهرا.
وينبغي للقارئ إذا كان يقرأ فخرجت منه ريح أمسك عن القراءة، حتى تنقضي الريح، ثم إن أحب أن يتوضأ ثم يقرأ طاهرا فهو أفضل، وإن قرأ غير طاهر فلا بأس منه.
وإذا تثاءب وهو يقرأ، أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب...
وأحب للقارئ أن يأخذ نفسه بسجود القرآن كلما مر بسجدة سجد فيها، وفي القرآن خمس عشرة سجدة، وقد قيل: أربع عشرة، وقد قيل: إحدى عشرة سجدة، والذي أختار له أن يسجد كلما مرت به سجدة؛ فإنه يرضي ربه ﷻ ويغيظ عدوه الشيطان. روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار» رواه مسلم في صحيحه (٨١).
وأحب لمن كان جالسا يقرأ أن يستقبل بوجهه القبلة، إذا أمكن، وأحب لمن تلا القرآن أن يقرأه بحزن، ويبكي إن قدر، فإن لم يقدر تباكى.
وأحب له أن يتفكر في تلاوته، ويتدبر ما يتلوه، ويستعمل غض الطرف عما يلهي القلوب، ولو ترك كل شيء حتى ينقضي درسه كان أحب إلي؛ ليحضر فهمه، فلا يشتغل بغير كلام مولاه.
وأحب إذا درس فمرت به آية رحمة سأل مولاه الكريم، وإذا مرت به آية عذاب استعاذ بالله ﷻ من النار، وإذا مر بآية تنزيه لله ﷻ عما قال أهل الكذب سبح الله وعظمه. وإذا كان يقرأ فأدركه النعاس، فحكمه أن يقطع القرآن حتى يرقد، حتى يقرأه وهو يعقل ما يتلو.. "
وذكر رحمه الله طرفا من الآثار التي تشهد لما ذكره، ثم قال في آخر الفصل: "جميع ما ذكرته ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به ولا يغفلوا عنه، فإذا انصرفوا عن تلاوة

=

=

القرآن: اعتبروا نفوسهم بالمحاسبة لها: فإن تبينوا منها قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم، مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه، واجتناب محارمه: حمدوه في ذلك، وشكروا الله على ما وفقهم له.

وإن علموا أن النفوس معرضة عما ندبهم إليه مولاهم الكريم، قليلة الاكتراث به، استغفروا الله من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذه الحال التي لا تحسن بأهل القرآن، ولا يرضاها لهم مولاهم، إلى حال يرضاها، فإنه لا يقطع من لجأ إليه.

ومن كانت هذه حاله وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره.

(فرع): قال النووي في آداب قراءة القرآن: "فصل في آداب تدعو الحاجة إليها منها: إذا قرأ قوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي) يستحب له أن يقول: ﷺ تسليما. ومنها: إذا قرأ: (أليس الله بأحكم الحاكمين) (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) يستحب أن يقول: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: (فبأي حديث بعده يؤمنون) قال: آمنت بالله... وهذا كله مستحب أن يقوله القارئ في الصلاة وغيرها. اه باختصار.

وقال العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " يسن لكل من قرأ في الصلاة أو غيرها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله ، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ به من النار. وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه نزهه فقال: سبحانه وتعالى ، أو نحو ذلك ، ويستحب لكل من قرأ (أليس الله بأحكم الحاكمين) أن يقول: (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) ، وإذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) قال: (بلى أشهد) ، وإذا قرأ: (فبأي حديث بعده يؤمنون) قال: (آمنت بالله) ، وإذا قرأ: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قال: (لا نكذب بشيء من آيات ربنا) ، وإذا قرأ: (سبح اسم ربك الأعلى) قال: (سبحان ربي الأعلى) ، ويستحب هذا للإمام والمأموم والمنفرد؛ لأنه دعاء فهو مطلوب منهم كالتأمين ، وكذلك الحكم في القراءة في غير الصلاة "

=

=

انتهى من "فتاوى الشيخ ابن باز" (١١/ ٧٥).... وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٩): "لو قرأ القارئ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فله أن يقول: بلى، أو سبحانك فبلى، لأنه ورد فيه حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، ونص الإمام أحمد عليه، قال الإمام أحمد: إذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) في الصلاة وغير الصلاة قال: سبحانك فبلى، في فرض ونفل. وإذا قرأ: (أليس الله بأحكم الحاكمين) فيقول: سبحانك فبلى. وإذا قرأ: (أإله مع الله) يقول: لا إله إلا الله" اه باختصار وتصرف.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في لقاء الباب المفتوح (١١/ ٨١): سمعنا بعض المأمومين إذا قرأ الإمام قوله تعالى: (أليس الله بأحكم الحاكمين) يقول المأموم: بلى، فما صحة هذا؟

فأجاب: هذا صحيح، إذا قال الله تعالى: (أليس الله بأحكم الحاكمين) فقل: بلى، وكذلك مثل هذا الترتيب، يعني: إذا جاءنا مثل هذا الكلام نقول: بلى. (أليس الله بكاف عبده) الزمر/ ٣٦ تقول: بلى. (أليس الله بعزيز ذي انتقام) الزمر/ ٣٧ تقول: بلى. (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) تقول: بلى. لكن المأموم إذا كان يشغله هذا الكلام عن الاستماع إلى إمامه فلا يفعل، لكن إذا جاء في آخر الآية التي وقف عليها الإمام فإنه لا يشغله. فإذا قال: (أليس الله بأحكم الحاكمين) يقول: بلى ا. ه

وقال العلامة الألباني في تمام المنة (ص١٨٦): صح منه قوله: "بلى" في آية (القيامة) رواه موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ: (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) قال: سبحانك فبلى فسألوه عن ذلك؟ فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

أخرجه أبو داود بسند صحيح عن الرجل وهو صحابي وجهالته لا تضركما هو

=

=

معروف عند العلماء ولذلك خرجته في صحيح أبي داود (رقم٨٢٧).

(فرع): إذا مر بآية رحمة يسأل الله من فضله وإذا مر بآية عذاب تعوذ.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح {البقرة} فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعتين، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح {النساء} فقرأها ثم افتتح {آل عمران} فقرأها، يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فقال: (سبحان ربي العظيم) فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم رفع رأسه، فقال: (سمع الله لمن حمده) فكان قيامه قريبًا من ركوعه، ثم سجد، فجعل يقول: (سبحان ربي الأعلى) فكان سجوده قريبًا من ركوعه. صحيح النسائي (١٦٦٣).

قال النووي رحمه الله في المجموع (٣/ ٥٦٢): قال الشافعي وأصحابنا: يسن للقارئ في الصلاة وخارجها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى الرحمة أو بآية عذاب أن يستعيذ به من العذاب ، أو بآية تسبيح أن يسبح أو بآية مثل أن يتدبر. قال أصحابنا: ويستحب ذلك للإمام والمأموم والمنفرد... وكل هذا يستحب لكل قارئ في صلاته أو غيرها، وسواء صلاة الفرض والنفل والمأموم والإمام والمنفرد؛ لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين ، ودليل هذه المسألة حديث حذيفة رضي الله عنه... هذا تفصيل مذهبنا: وقال أبو حنيفة رحمه الله: يكره السؤال عند آية الرحمة والاستعاذة في الصلاة. وقال بمذهبنا جمهور العلماء من السلف فمن بعدهم. انتهى.

وقال في كشاف القناع (١/ ٣٨٤): " (وله السؤال والتعوذ في فرض ونفل، عند آية رحمة أو عذاب) انتهى.

وقال في مواهب الجليل (٢/ ٢٥٣): " إذا مر ذكر النبي ﷺ في قراءة الإمام فلا بأس للمأموم أن يصلي عليه وكذلك إذا مر ذكر الجنة والنار فلا بأس أن يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ويكون ذلك المرة بعد المرة، وكذلك قول المأموم عند

=

=

قول الإمام {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} بلى إنه على كل شيء قدير وما أشبه ذلك " انتهى.

وهو أيضا مذهب الحنابلة، قال في شرح المنتهى (١/ ٢٠٦): "ولمصل قول: سبحانك، فبلى إذا قرأ {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} نصا، فرضا كانت أو نفلا؛ للخبر.... وقال العلامة الألباني: هذا إنما ورد في صلاة الليل كما في حديث حذيفة المذكور، فمقتضى الاتباع الصحيح الوقوف عند الوارد وعدم التوسع بالقياس والرأي، فإنه لو كان ذلك مشروعًا في الفرائض أيضًا لفعله ﷺ، ولو فعله لنقل، بل لكان نقله أولى من نقل ذلك في النوافل كما لا يخفى. تمام المنة (ص١٨٥).... أما العلامة العثيمين رحمه الله فقد سئل: " ما حكم من قال آمين أو أعوذ بالله من النار أو سبحان الله والإمام يقرأ في صلاة جهرية وذلك عندما يسمع المأموم آيات تستوجب التعوذ أو التسبيح أو التأمين؟

فأجاب: أما الآيات التي تستوجب التسبيح أو التعوذ أو السؤال إذا مر بها القارىء في صلاة الليل فإنه يسن له أن يفعل ما يليق، فإذا مر بآية وعيد تعوذ، وإذا مر بآية رحمة سأل. وأما إذا كان مستمعا للإمام فإن الأفضل ألا يتشاغل بشيء غير الإنصات والاستماع، نعم إذا قدر أن الإمام وقف عند آخر الآية وهي آية رحمة فسأل المأموم أو هي آية وعيد فتعوذ أو آية تعظيم فسبح فهذا لا بأس به، وأما إذا فعل ذلك والإمام مستمر في قراءته فأخشى أن يشغله هذا عن الاستماع إلى قراءة الإمام، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع أصحابه يقرؤون خلفه في الصلاة الجهرية قال: (لا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها) " انتهى من "فتاوى نور على الدرب".

(فرع): الوقوف على رؤوس الآي.

قد جعل الوقف على رأس الآية سنة البيهقي والداني وأبو العلاء الهمذاني وابن

=

=

القيم وابن الجزري قال البيهقي: ومتابعة السنة أولى مما ذهب إليه بعض أهل العلم بالقرآن من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها. وكان أبو عمرو بن العلاء من الأئمة، وأحد القراء السبعة يسكت عند رأس كل آية ويقول: إنه أحب إلي، إذا كان رأس آية أن يسكت عندها. وقال السخاوي: معنى قوله مفسرة حرفا حرفا: ما سبق في الحديث الأول من الوقف على رأس الآية.

وقال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: (فائدة): قال أبو عمرو الداني في (باب تفسير الوقف الحسن (٥/ ٢): ومما ينبغي له أن يقطع عليه رؤوس الآي، لأنهن في أنفسهن مقاطع، وأكثر ما يوجد التام فيهن لاقتضائهن تمام الجمل، واستبقاء أكثرهن إنقضاء القصص. وقد كان جماعة من الائمة السالفين والقراء الماضين يستحبون القطع عليهن، وإن تعلق كلام بعضهن ببعض، لما ذكرنا من كونهن، مقاطع، ولسن بمشبهات لما كان من الكلام التام في أنفسهن دون نهايتهن). ثم روى عن اليزيدي عن أبي عمرو أنه كان يسكت على رأس كل آية، فكان يقول: إنه أحب إلي إذا كان آية إن يسكت عندها، وقد وردت السنة أيضا بذلك عن رسول الله (ﷺ) عند استعماله التقطيع) ثم ساق هذا الحديث. قلت: وهذه سنة تركها أكثر قراء هذا الزمان. فالله المستعان) انتهى الإرواء (٢/ ٦٢).

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (ص٨٠): يقول السائل: يوجد في القرآن الكريم حروف معينة وضعت على بعض الآيات أو بعض المواقف، كالجيم والطاء وغيرهما، تدل على وجوب الوقوف، فمن وضع هذه الأحرف؟ وهل يلزم التقيد بها؟ علما أننا نسمع من بعض أئمة الحرمين في قراءة التراويح أنهم يقفون على غير أماكن الوقف فهل هذا صحيح أم لا؟

فأجاب: هذه الحروف لا أعرف من وضعها، يضعها بعض القراء للإشارة إلى أن هذا الوقف جائز أو لازم لبيان المعاني، ولكن هذه لا يلتفت إليها ولا تلزم، وإنما

=

=

السنة الوقوف على رؤوس الآيات فكان النبي ﷺ يقف عند رؤوس الآيات، فهذا هو الأفضل، وهذا هو الترتيل.

وأما هذه الحروف فلا يلزم التقيد بها، ولكن إذا أراد أن يقف يتحرى الوقف المناسب الواضح الذي ليس له صلة بما قبله، فعند الحاجة إلى الوقف يقف على الآيات التي يحسن الوقوف عندها، أما الآية المتصلة بما قبلها فينبغي أن يقرأها حتى يتضح المعنى، وأما الوقوف على بعض الآية فلا يناسب بل عليه أن يكمل الآية.

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (٣/ ٦٥): وينبغي أن يفصل بين آياتها، ويقف عند كل آية... لأن النبي ﷺ كان يقطع قراءته، فيقف عند كل آية وإن لم يقف فلا حرج؛ لأن وقوفه عند كل آية على سبيل الاستحباب، لا على سبيل الوجوب؛ لأنه من فعل النبي ﷺ دون أمره، وما فعله النبي عليه الصلاة والسلام دون أمر به مما يتعبد به فهو من قبيل المستحب، كما ذكر ذلك في أصول الفقه: أن الفعل المجرد مما يتعبد به يفيد الاستحباب، ولأن النبي ﷺ لما علم المسيء في صلاته أمره أن يقرأ ما تيسر من القرآن (٢) ولم يقل: ورتل، أو: قف عند كل آية.

(فرع): قال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٠/ ٢٧٦): فمن آداب التلاوة إخلاص النية لله تعالى فيها؛ لأن تلاوة القرآن من العبادات الجليلة كما سبق بيان فضلها، وقد قال الله تعالى: {فادعوا الله مخلصين له الدين} [غافر: ١٤]، وقال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} [البينة: ٥]، وقال النبي ﷺ: «اقرءوا القرآن وابتغوا به وجه الله ﷻ من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه» (١)، ومعنى يتعجلونه يطلبون به أجر الدنيا.

* ومن آدابها: أن يقرأ بقلب حاضر يتدبر ما يقرأ ويتفهم معانيه، ويخشع عند ذلك

=

=

قلبه، ويستحضر بأن الله يخاطبه في هذا القرآن لأن القرآن كلام الله ﷻ.

* ومن آدابها: أن يقرأ القرآن على طهارة لأن هذا من تعظيم كلام الله ﷻ، ولا يقرأ القرآن وهو جنب حتى يغتسل إن قدر على الماء، أو يتيمم إن كان عاجزا عن استعمال الماء لمرض أو عدم، وللجنب أن يذكر الله ويدعوه بما يوافق القرآن إذا لم يقصد القرآن، مثل أن يقول: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

* ومن آدابها: أن لا يقرأ القرآن في الأماكن المستقذرة، أو في مجمع لا ينصت فيه لقراءته لأن قراءته في مثل ذلك إهانة له، ولا يجوز أن يقرأ القرآن في بيت الخلاء ونحوه مما أعد للتبول أو التغوط لأنه لا يليق بالقرآن الكريم.

* ومن آدابها: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند إرادة القراءة لقوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} [النحل: ٩٨]، ولئلا يصده الشيطان عن القراءة أو كمالها، وأما البسملة فإن كان ابتداء قراءته من أثناء السورة فلا يبسمل، وإن كان من أول السورة فليبسمل إلا في سورة التوبة فإنه ليس في أولها بسملة؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم أشكل عليهم حين كتابة المصحف هل هي سورة مستقلة أو بقية الأنفال؟ ففصلوا بينهما بدون بسملة ، وهذا الاجتهاد هو المطابق للواقع بلا ريب ، إذ لو كانت البسملة قد نزلت في أولها لبقيت محفوظة بحفظ الله ﷻ ، لقوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: ٩].

* ومن آدابها: أن يحسن صوته بالقرآن ويترنم به ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء (أي: ما استمع لشيء) كما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»، «وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فما سمعت أحد أحسن صوتا أو قراءة منه» ﷺ، لكن

=

=

إن كان حول القارئ أحد يتأذى بجهره في قراءته كالنائم والمصلي ونحوهما فإنه لا يجهر جهرا يشوش عليه أو يؤذيه؛ لأن النبي ﷺ خرج على الناس وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال: «إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به ولا يجهر بعضكم على بعض في القرآن».

* ومن آدابها: أن يرتل القرآن ترتيلا ، لقوله تعالى: {ورتل القرآن ترتيلا} [المزمل: ٤]، فيقرأه بتمهل بدون سرعة؛ لأن ذلك أعون على تدبر معانيه وتقويم حروفه وألفاظه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: كانت مدا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم»، «وسئلت أم سلمة رضي الله عنها عن قراءة النبي ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ، {بسم الله الرحمن الرحيم} * {الحمد لله رب العالمين} * {الرحمن الرحيم} * {مالك يوم الدين} »، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، ولا بأس بالسرعة التي ليس فيها إخلال باللفظ: بإسقاط بعض الحروف أو إدغام ما لا يصح إدغامه ، فإن كان فيها إخلال باللفظ فهي حرام لأنها تغيير للقرآن.

* ومن آدابها: أن يسجد إذا مر بآية سجدة وهو على وضوء في أي وقت كان من ليل أو نهار ، فيكبر للسجود ويقول: سبحان ربي الأعلى ، ويدعو ، ثم يرفع من السجود بدون تكبير ولا سلام ، لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ، إلا أن يكون السجود في أثناء الصلاة فإنه يكبر في الصلاة إذا سجد وإذا قام «لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يكبر كلما خفض ورفع، ويحدث أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ يكبر في كل رفع وخفض وقيام وقعود»، وهذا يعم سجود الصلاة وسجود التلاوة في الصلاة.

=

=

هذه بعض آداب القراءة فتأدبوا بها واحرصوا عليها وابتغوا بها من فضل الله.
اللهم اجعلنا من المعظمين لحرمتك ، الفائزين بهباتك ، الوارثين لجناتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المسألة الثانية: حكم التغني بالقرآن.

جاء في السنة الصحيحة الحث على التغني بالقرآن، يعني تحسين الصوت به، وليس معناه أن يأتي به كالغناء، وإنما المعنى تحسين الصوت بالتلاوة، ومنه الحديث الصحيح: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به) وحديث: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به) ومعناه: تحسين الصوت بذلك كما تقدم.

ومعنى الحديث المتقدم: (ما أذن الله) أي: ما استمع الله (كإذنه) أي: استماعه، وهذا استماع يليق بالله لا يشابه صفات خلقه، مثل سائر الصفات، يقال في استماعه سبحانه وإذنه مثل ما يقال في بقية الصفات، على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى، لا شبيه له في شيء سبحانه وتعالى، كما قال ﷻ: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى/ ١١، والتغني: الجهر به مع تحسين الصوت والخشوع فيه، حتى يحرك القلوب، لأن المقصود تحريك القلوب بهذا القرآن، حتى تخشع، وحتى تطمئن، وحتى تستفيد، ومن هذا قصة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما مر عليه النبي ﷺ وهو يقرأ، فجعل يستمع له عليه الصلاة والسلام، وقال: (لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) فلما جاء أبو موسى أخبره النبي عليه الصلاة والسلام بذلك، قال أبو موسى: لو علمت يا رسول الله أنك تستمع إلي لحبرته لك تحبيرا. ولم ينكر عليه النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، فدل على أن تحبير الصوت وتحسين الصوت والعناية بالقراءة أمر مطلوب، ليخشع القارئ

=

=

والمستمع، ويستفيد هذا وهذا" انتهى "مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ" (١١/ ٣٤٨ - ٣٥٠).

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٣٧ - ٥٣٨): وفيه من الفقه: إجازة قراءة القرآن بالترجيع والألحان الملذة للقلوب، بحسن الصوت...، ألا ترى أن النبي ﷺ أراد أن يبالغ في تزيين قراءته لسورة الفتح التي كان وعده الله فيها بفتح مكة، فأنجزه له؛ ليستميل قلوب المشركين العتاة على الله لفهم ما يتلوه من إنجاز وعد الله له فيهم، بإلذاذ أسماعهم بحسن الصوت المرجع فيه بنغم ثلاث، في المدة الفارغة من التفصيل. وقول معاوية: (لولا أن يجتمع الناس إلي لرجعت كما رجع ابن مغفل، يحكي عن النبي ﷺ) يدل أن القراءة بالترجيع والألحان تجمع نفوس الناس إلى الإصغاء والتفهم، ويستميلها ذلك حتى لا تكاد تصبر عن استماع الترجيع المشوب بلذة الحكمة المفهومة منه " انتهى.

وقال النووي: قال القاضي: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها، قال أبو عبيد: والأحاديث الواردة في ذلك محمولة على التحزين والتشويق، قال: واختلفوا في القراءة بالألحان فكرهها مالك والجمهور لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم، وأباحهما أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث؛ ولأن ذلك سبب للرقة وإثارة الخشية وإقبال النفوس على استماعه.

قلت: قال الشافعي في موضع: أكره القراءة بالألحان، وقال في موضع: لا أكرهها، قال أصحابنا: ليس له فيها خلاف، وإنما هو اختلاف حالين، فحيث كرهها أراد إذا مطط وأخرج الكلام عن موضعه بزيادة أو نقص أو مد غير ممدود وإدغام ما لا يجوز ونحو ذلك، وحيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغير لموضوع الكلام، والله أعلم. " شرح مسلم " (٦/ ٨٠).

وقال ابن كثير في كتابه فضائل القرآن (١/ ١٩): و الغرض أن المطلوب شرعا إنما

=

=

هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن و تفهمه و الخشوع والخضوع و الانقياد للطاعة. فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل، و يعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، و قد جاءت السنة بالزجر عن ذلك.

قال العلامة العثيمين في شرح الرياض (٤/ ٦٦٢): قوله في الحديث: (مزمارا من مزامير آل داود) آل داود يعني به داود ﷺ داود عنده صوت حسن جميل رفيع حتى قال الله تعالى يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد فكانت الجبال ترجع مع داود وهو يتلو الزبور لحسن صوته تجاوبه جبال أحجار جامدة وكذلك الطير تؤوب معه سبحان الله تأتي فإذا سمعت قراءته تجمعت في جو السماء وجعلت ترجع معه فكانت الجبال والطيور إذا سمعت قراءة داود للزبور قامت ترجع معه ولهذا قال النبي ﷺ لأبي موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود يعني صوتا حسنا كصوت آل داود يقول أبو موسى لما قال له الرسول لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة قال لو علمت أنك تستمع أو قال تسمع لحبرته لك تحبيرا يعني يزينه أحسن مما كان.

قال العلماء وفي هذا دليل على أن الإنسان لو حسن صوته بالقرآن لأجل أن يتلذذ السامع ويسر به فإن ذلك لا بأس به ولا يعد من الرياء بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله ﷻ حتى يسر الناس به ولهذا يوجد بعض الناس إذا ضاق صدره استمع إلى قراءة إنسان حسن القراءة حسن الصوت وهذه متيسرة الآن في أشرطة لبعض القراء الذي لا يتكلفون القراءة وأصواتهم حسنة وأداؤهم حسن إذا استمع الإنسان إليهم لا يكاد يمل لأن كلام الله له تأثير إذا جاء من إنسان حسن الصوت وحسن الأداء لا يمل.

ويستفاد من هذين الحديثين أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن على أكمل ما يمكنه

=

=

أن يقرأه عليه من حسن الصوت وحسن الأداء ونسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن يقيم حروفه وحدوده حتى يكون حجة لنا لا علينا والله الموفق.

(فرع): حكم قراءة القرآن بالألحان.

القرآن بالألحان وهي (النهاوند والبيات والقرار والسيكا والصبا وجواب الصبا والعجم....): والمقامات هي هي عبارة عن استقراء للأصوات البشرية المغنّاه، ووضعها في أطر معينة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في الإستقامة (١/ ٢٤٦): ومع هذا فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء ولا أن يقرن به من الألحان ما يقرن بالغناء من الآلات وغيره انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا في المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٥): "قراءة القرآن بصفة التلحين الذي يشبه تلحين الغناء مكروه مبتدع، كما نص على ذلك مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من الأئمة" انتهى.

وقال ابن القيم في الزاد (١/ ٤٦٤): وكان ﷺ يتغنى به، ويرجع صوته به أحيانا كما رجع يوم الفتح في قراءته {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} [الفتح: ١]. وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه، آآ آثلاث مرات ذكره البخاري.

وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم). وقوله: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن). وقوله (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن). علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختيارا لا اضطرارا لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلا تحت الاختيار فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه ويفعله اختيارا ليؤتسى به وهو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول كان يرجع في قراءته فنسب الترجيع إلى فعله. ولو كان من هز الراحلة، لم يكن منه فعل يسمى ترجيعا.

=

=

وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري فلما أخبره بذلك قال: (لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرا) أي حسنته وزينته بصوتي تزيينا، وروى أبو داود في " سننه " عن عبد الجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن. قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع) قلت: لا بد من كشف هذه المسألة وذكر اختلاف الناس فيها، واحتجاج كل فريق، وما لهم وعليهم في احتجاجهم، وذكر الصواب في ذلك بحول الله تبارك وتعالى ومعونته، فقالت طائفة: تكره قراءة الألحان، وممن نص على ذلك أحمد، ومالك وغيرهما، فقال أحمد في رواية علي بن سعيد في قراءة الألحان: ما تعجبني وهو محدث. وقال في رواية المروزي: القراءة بالألحان بدعة لا تسمع، وقال في رواية عبد الرحمن المتطبب: قراءة الألحان بدعة، وقال في رواية ابنه عبد الله، ويوسف بن موسى، ويعقوب بن بختان، والأثرم، وإبراهيم بن الحارث: القراءة بالألحان لا تعجبني إلا أن يكون ذلك حزنا فيقرأ بحزن مثل صوت أبي موسى، وقال في رواية صالح (زينوا القرآن بأصواتكم) معناه أن يحسنه وقال في رواية المروزي: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت أن يتغنى بالقرآن)، وفي رواية قوله: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)، فقال كان ابن عيينة يقول: يستغني به. وقال الشافعي: يرفع صوته، وذكر له حديث معاوية بن قرة في قصة قراءة سورة الفتح والترجيع فيها، فأنكر أبو عبد الله أن يكون على معنى الألحان، وأنكر الأحاديث التي يحتج بها في الرخصة في الألحان.

وروى ابن القاسم، عن مالك أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال لا تعجبني، وقال إنما هو غناء يتغنون به، ليأخذوا عليه الدراهم، وممن رويت عنه الكراهة

=

=

أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، والقاسم بن محمد، والحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي. وقال عبد الله بن يزيد العكبري: سمعت رجلا يسأل أحمد ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال ما اسمك؟ قال محمد قال أيسرك أن يقال لك: يا موحمد ممدودا قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغة في الكراهة. وقال الحسن بن عبد العزيز الجروي: أوصى إلي رجل بوصية وكان فيما خلف جارية تقرأ بالألحان وكانت أكثر تركته أو عامتها، فسألت أحمد بن حنبل، والحارث بن مسكين، وأبا عبيد كيف أبيعها؟ فقالوا: بعها ساذجة فأخبرتهم بما في بيعها من النقصان، فقالوا: بعها ساذجة، قال القاضي: وإنما قالوا ذلك، لأن سماع ذلك منها مكروه، فلا يجوز أن يعاوض عليه كالغناء.

قال ابن بطال: وقالت طائفة: التغني بالقرآن، هو تحسين الصوت به والترجيع بقراءته، قال: والتغني بما شاء من الأصوات واللحون هو قول ابن المبارك، والنضر بن شميل، قال: وممن أجاز الألحان في القرآن: ذكر الطبري، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول لأبي موسى: (ذكرنا ربنا فيقرأ أبو موسى ويتلاحن وقال: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل) وكان عقبة بن عامر من أحسن الناس صوتا بالقرآن فقال له عمر: (اعرض علي سورة كذا، فعرض عليه فبكى عمر، وقال ما كنت أظن أنها نزلت) قال: وأجازه ابن عباس، وابن مسعود وروي، عن عطاء بن أبي رباح، قال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد، يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان. وذكر الطحاوي، عن أبي حنيفة وأصحابه: أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت أبي، والشافعي، ويوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان وهذا اختيار ابن جرير الطبري.

قال المجوزون - واللفظ لابن جرير -: الدليل: على أن معنى الحديث تحسين

=

=

الصوت، والغناء المعقول الذي هو تحزين القارئ سامع قراءته، كما أن الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذي يطرب سامعه -: ما روى سفيان، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، قال: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الترنم بالقرآن) ومعقول عند ذوي الحجا، أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم وطرب به. وروي في هذا الحديث (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به) قال الطبري: وهذا الحديث من أبين البيان أن ذلك كما قلنا، قال ولو كان كما قال ابن عيينة يعني: يستغني به عن غيره لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى، والمعروف في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع، قال الشاعر: تغن بالشعر إما كنت قائله * إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال: وأما ادعاء الزاعم، أن تغنيت بمعنى استغنيت فاش في كلام العرب، فلم نعلم أحدا قال به من أهل العلم بكلام العرب.

وأما احتجاجه لتصحيح قوله بقول الأعشى:

وكنت امرءا زمنا بالعراق * عفيف المناخ طويل التغن.

وزعم أنه أراد بقوله: طويل التغني: طويل الاستغناء فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى بالتغني في هذا الموضع: الإقامة من قول العرب: غنى فلان بمكان كذا: إذا أقام به، ومنه قوله تعالى: {كأن لم يغنوا فيها} [الأعراف: ٩٢] [الأعراف: ٩٢]، واستشهاده بقول الآخر:

كلانا غني عن أخيه حياته * ونحن إذا متنا أشد تغانيا.

فإنه إغفال منه، وذلك لأن التغاني تفاعل من تغنى: إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه، وتشاتما، وتقاتلا. ومن قال: هذا في فعل اثنين، لم يجز أن يقول مثله في فعل الواحد، فيقول:

=

=

تغاني زيد، وتضارب عمرو، وذلك غير جائز أن يقول: تغنى زيد بمعنى استغنى، إلا أن يريد به قائله أنه أظهر الاستغناء، وهو غير مستغن كما يقال تجلد فلان إذا أظهر جلدا من نفسه، وهو غير جليد، وتشجع، وتكرم، فإن وجه موجه التغني بالقرآن إلى هذا المعنى على بعده من مفهوم كلام العرب، كانت المصيبة في خطئه في ذلك أعظم لأنه يوجب على من تأوله أن يكون الله تعالى ذكره لم يأذن لنبيه أن يستغني بالقرآن، وإنما أذن له أن يظهر من نفسه لنفسه خلاف ما هو به من الحال، وهذا لا يخفى فساده. قال: ومما يبين فساد تأويل ابن عيينة أيضا أن الاستغناء عن الناس بالقرآن من المحال أن يوصف أحد به أنه يؤذن له فيه أو لا يؤذن، إلا أن يكون الأذن عند ابن عيينة بمعنى الإذن الذي هو إطلاق وإباحة، وإن كان كذلك، فهو غلط من وجهين، أحدهما: من اللغة، والثاني: من إحالة المعنى عن وجهه. أما اللغة، فإن الأذن مصدر قوله: أذن فلان لكلام فلان، فهو يأذن له: إذا استمع له وأنصت، كما قال تعالى: {وأذنت لربها وحقت} [الانشقاق: ٢] [الانشقاق: ٢]، بمعنى سمعت لربها وحق لها ذلك، كما قال عدي بن زيد: إن همي في سماع وأذن، بمعنى، في سماع واستماع. فمعنى قوله: ما أذن الله لشيء، إنما هو: ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لنبي يتغنى بالقرآن. وأما الإحالة في المعنى، فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز وصفه بأنه مسموع ومأذون له، انتهى كلام الطبري.

قال أبو الحسن بن بطال: وقد وقع الإشكال في هذه المسألة أيضا بما رواه ابن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثني موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ (تعلموا القرآن وتغنوا به واكتبوه، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من المخاض من العقل). قال: وذكر عمر بن شبة، قال: ذكر لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله (يتغنى بالقرآن) يستغني به، فقال

=

=

لم يصنع ابن عيينة شيئا، حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، قال: كانت لداود نبي الله ﷺ معزفة يتغنى عليها يبكي ويبكي. وقال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا، تكون فيهن، ويقرأ قراءة يطرب منها الجموع.

وسئل الشافعي رَحِمَهُ اللهُ عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد به الاستغناء، لقال: " من لم يستغن بالقرآن "، ولكن لما قال: (يتغنى بالقرآن)، علمنا أنه أراد به التغني.

قالوا: ولأن تزيينه، وتحسين الصوت به والتطريب بقراءته أوقع في النفوس وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب، وذلك عون على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تجعل في الدواء لتنفذه إلى موضع الداء، وبمنزلة الأفاويه والطيب الذي يجعل في الطعام، لتكون الطبيعة أدعى له قبولا وبمنزلة الطيب والتحلي وتجمل المرأة لبعلها ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح. قالوا: ولا بد للنفس من طرب واشتياق إلى الغناء فعوضت عن طرب الغناء بطرب القرآن كما عوضت عن كل محرم ومكروه بما هو خير لها منه، وكما عوضت عن الاستقسام بالأزلام بالاستخارة التي هي محض التوحيد والتوكل، وعن السفاح بالنكاح، وعن القمار بالمراهنة بالنصال، وسباق الخيل، وعن السماع الشيطاني بالسماع الرحماني القرآني، ونظائره كثيرة جدا.

قالوا: والمحرم، لا بد أن يشتمل على مفسدة راجحة أو خالصة، وقراءة التطريب والألحان لا تتضمن شيئا من ذلك فإنها لا تخرج الكلام عن وضعه ولا تحول بين السامع وبين فهمه، ولو كانت متضمنة لزيادة الحروف كما ظن المانع منها لأخرجت الكلمة عن موضعها وحالت بين السامع وبين فهمها ولم يدر ما معناها، والواقع بخلاف ذلك.

قالوا: وهذا التطريب والتلحين أمر راجع إلى كيفية الأداء، وتارة يكون سليقة

=

=

وطبيعة، وتارة يكون تكلفا وتعملا، وكيفيات الأداء لا تخرج الكلام عن وضع مفرداته، بل هي صفات لصوت المؤدي جارية مجرى ترقيقه وتفخيمه وإمالته، وجارية مجرى مدود القراء الطويلة والمتوسطة، لكن تلك الكيفيات متعلقة بالحروف، وكيفيات الألحان والتطريب متعلقة بالأصوات والآثار في هذه الكيفيات لا يمكن نقلها بخلاف كيفيات أداء الحروف، فلهذا نقلت تلك بألفاظها ولم يمكن نقل هذه بألفاظها بل نقل منها ما أمكن نقله كترجيع النبي ﷺ في سورة الفتح بقوله " آآآ ". قالوا: والتطريب والتلحين راجع إلى أمرين: مد وترجيع، وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه كان يمد صوته بالقراءة يمد الرحمن ويمد الرحيم وثبت عنه الترجيع كما تقدم.

قال المانعون من ذلك: الحجة لنا من وجوه. أحدها: ما رواه حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ («اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم») رواه أبو الحسن رزين في " تجريد الصحاح " ورواه أبو عبد الله الحكيم الترمذي في " نوادر الأصول ". واحتج به القاضي أبو يعلى في " الجامع " واحتج معه بحديث آخر، أنه ﷺ ذكر شرائط الساعة، وذكر أشياء، منها: («أن يتخذ القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم غناء») قالوا: وقد (جاء زياد النهدي إلى أنس رضي الله عنه مع القراء، فقيل له: اقرأ، فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء، وقال يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون، وكان إذا رأى شيئا ينكره رفع الخرقة عن وجهه)

قالوا: وقد منع النبي ﷺ المؤذن المطرب في أذانه من التطريب كما روى ابن

=

=
جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال كان لرسول الله ﷺ مؤذن يطرب فقال النبي ﷺ («إن الأذان سهل سمح فإن كان أذانك سهلا سمحا وإلا فلا تؤذن») رواه الدارقطني.

وروى عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث قتادة، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال «كانت قراءة رسول الله ﷺ المد ليس فيها ترجيع». قالوا: والترجيع والتطريب يتضمن همز ما ليس بمهموز، ومد ما ليس بممدود، وترجيع الألف الواحد ألفات، والواو واوات، والياء ياءات، فيؤدي ذلك إلى زيادة في القرآن، وذلك غير جائز، قالوا: ولا حد لما يجوز من ذلك وما لا يجوز منه، فإن حد بحد معين كان تحكما في كتاب الله تعالى ودينه وإن لم يحد بحد أفضى إلى أن يطلق لفاعله ترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، والتنويع في أصناف الإيقاعات والألحان المشبهة للغناء، كما يفعل أهل الغناء بالأبيات، وكما يفعله كثير من القراء أمام الجنائز، ويفعله كثير من قراء الأصوات مما يتضمن تغيير كتاب الله والغناء به على نحو ألحان الشعر والغناء ويوقعون الإيقاعات عليه مثل الغناء سواء، اجتراء على الله وكتابه وتلاعبا بالقرآن وركونا إلى تزيين الشيطان، ولا يجيز ذلك أحد من علماء الإسلام، ومعلوم: أن التطريب والتلحين ذريعة مفضية إلى هذا إفضاء قريبا فالمنع منه كالمنع من الذرائع الموصلة إلى الحرام، فهذا نهاية إقدام الفريقين، ومنتهى احتجاج الطائفتين.

وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني على وجهين، أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه، واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ («لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا») والحزين ومن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك
=

=

مـن نفسه دفـع التحـزين والتطريـب في القـراءة، ولكـن النفـوس تقبلـه وتـستحليه لموافقتـه الطبـع، وعـدم التكلـف والتـصنع فيـه فهـو مطبـوع لا متطبـع، وكلـف لا متكلف، فهذا هو الذي كـان الـسلف يفعلونـه ويـستمعونه، وهـو التغنـي الممـدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلـة أربـاب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بـل لا يحصل إلا بتكلف وتـصنع وتمـرن، كمـا يـتعلم أصـوات الغنـاء بـأنواع الألحـان البـسيطة، والمركبـة علـى إيقاعـات مخـصوصة، وأوزان مخترعـة، لا تحـصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أربـاب هـذا القـول إنمـا تتنـاول هـذا الوجـه، وبهـذا التفـصيل يـزول الاشـتباه، ويتبـين الـصواب مـن غيـره، وكـل مـن لـه علـم بـأحوال السلف يعلـم قطعـا أنهـم بـرآء مـن القـراءة بألحـان الموسـيقى المتكلفـة، التـي هـي إيقاعـات وحركـات موزونـة معـدودة محـدودة، وأنهـم أتقـى لله مـن أن يقـرءوا بهـا ويسوغوها ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرءون بالتحزين والتطريب ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرءونه بشجى تارة، وبطـرب تـارة، وبـشوق تـارة، وهـذا أمـر مركـوز في الطباع تقاضيه ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليـه ونـدب إليه وأخبر عن استماع الله لمن قـرأ بـه، وقـال: («لـيس منـا مـن لـم يـتغن بـالقرآن») وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثـاني: أنـه نفـي لهـدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ انتهى.

وقـال ابـن رجـب في رسـالته "نزهـة الاسـماع في مـسالة الـسماع" ضـمن مجمـوع رسائله (٢/ ٤٦٣): وكان قد حدث قبل ذلك حدثان:

أحدهما: قراءة القرآن بالألحان، بأصـوات الغنـاء وأوزانـه وإيقاعاتـه؛ علـى طريقـة

=

=

أصحاب الموسيقى، فرخص فيه بعض المتقدمين إذا قصد الاستعانة على إيصال معاني القرآن إلى القلوب؛ للتحزين والتشويق، والتخويف والترقيق.

وأنكر ذلك أكثر العلماء. ومنهم من حكاه إجماعا ولم يثبت فيه نزاعا، منهم أبو عبيد وغيره من الأئمة.

وفي الحقيقة هذه الألحان المبتدعة المطربة، تهيج الطباع. وتلهي عن تدبر ما يحصل له من الاستماع، حتى يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبر معاني القرآن، وإنما وردت السنة بتحسين الصوت بالقرآن، لا بقراءة الألحان، وبينهما بون بعيد. وقد بسطنا القول في ذلك في كتاب "بيان الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان".

والحدث الثاني: سماع القصائد الرقيقة، المتضمنة للزهد والتخويف والتشويق... انتهى.

وقال ابن كثير في كتابه فضائل القرآن (ص١٩): " و الغرض أن المطلوب شرعا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن و تفهمه و الخشوع والخضوع و الانقياد للطاعة. فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل، و يعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك ". انتهى

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٧٢): لا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم لأن للتطريب تأثيرا في رقة القلب وإجراء الدمع وكان بين السلف اختلاف في جواز القرآن بالألحان أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع في ذلك فحكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم القراءة بالألحان وحكاه أبو الطيب الطبري والماوردي وبن حمدان الحنبلي عن جماعة من أهل العلم وحكى بن بطال وعياض والقرطبي من

=

=

المالكية والماوردي والبندنيجي والغزالي من الشافعية وصاحب الذخيرة من الحنفية الكراهة واختاره أبو يعلى وبن عقيل من الحنابلة وحكى بن بطال عن جماعة من الصحابة والتابعين الجواز وهو المنصوص للشافعي ونقله الطحاوي عن الحنفية وقال الفوراني من الشافعية في الإباحة يجوز بل يستحب ومحل هذا الاختلاف إذا لم يختل شيء من الحروف عن مخرجه فلو تغير قال النووي في التبيان أجمعوا على تحريمه ولفظه أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فإن خرج حتى زاد حرفا أو أخفاه حرم قال وأما القراءة بالألحان فقد نص الشافعي في موضع على كراهته وقال في موضع آخر لا بأس به فقال أصحابه ليس على اختلاف قولين بل على اختلاف حالين فإن لم يخرج بالألحان على المنهج القويم جاز وإلا حرم وحكى الماوردي عن الشافعي أن القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ عن مخارجها حرم وكذا حكى بن حمدان الحنبلي في الرعاية وقال الغزالي والبندنيجي وصاحب الذخيرة من الحنفية إن لم يفرط في التمطيط الذي يشوش النظم استحب وإلا فلا وأغرب الرافعي فحكى عن أمالي السرخسي أنه لا يضر التمطيط مطلقا وحكاه بن حمدان رواية عن الحنابلة وهذا شذوذ لا يعرج عليه والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع كما قال بن أبي مليكة أحد رواة الحديث وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم فإن الحسن الصوت يزداد حسنا بذلك وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء فإن وجد من يراعيهما معا

=

=

فلا شك في أنه أرجح من غيره لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويجتنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم ا. ه

وقال ابن خلدون في تاريخه -المقدمة- (١/ ٤٢٥): وقد أنكر مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه، وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه، لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك، والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين، واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا، وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه، وإنما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره، ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك، هذا هو محل الخلاف. انتهى. فقال: وقد أنكر مالك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه، وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه، لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك، والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين، واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا، وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه، وإنما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه

=

=

صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره، ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك، هذا هو محل الخلاف انتهى.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ٢٩٠): ماذا يقول سماحتكم في قارئ القرآن بواسطة مقامات هي أشبه بالمقامات الغنائية بل هي مأخوذة منها أفيدونا بذلك جزاكم الله خيرا؟

فأجاب: لا يجوز للمؤمن أن يقرأ القرآن بألحان الغناء وطريقة المغنيين بل يجب أن يقرأه كما قرأه سلفنا الصالح من أصحاب الرسول ﷺ وأتباعهم بإحسان، فيقرأه مرتلا متحزنا متخشعا حتى يؤثر في القلوب التي تسمعه وحتى يتأثر هو بذلك. أما أن يقرأه على صفة المغنيين وعلى طريقتهم فهذا لا يجوز ا. ه

وقال الشيخ بكر أبو زيد في كتابة بدع القراء: " التلحين في القراءة، تلحين الغناء والشعر. وهو مسقط للعدالة، ومن أسباب رد الشهادة، قضاء. وكان أول حدوث هذه البدعة في القرن الرابع على أيدي الموالي ".

ويقول أيضا في نفس الكتاب: وهذا يدل على أنه محذور كبير وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة رحمهم الله على النهي عنه.

المسألة الثالثة: التحذير من بعض أخطاء القراء.

قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في رسالة بدع القراء القديمة و المعاصرة: فمن هذه البدع التي نبه عليها العلماء:

١ - ٢ - التنطع بالقراءة والوسوسة في مخارج الحروف، بمعنى التعسف، والإسراف خروجًا عن القراءة بسهولة، واستقامة، كما قال تعالى: ؟ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ؟ وقوله سبحانه: ؟وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا؟. وعن إعطاء الحروف حقها من الصفات والأحكام، إلى تجويد متكلف. وفي الحديث: ((من أراد أن يقرأ القرآن رطبًا...))

=

=

الحديث. أي: لينًا لا شدة في صوت قارئه.

٣ - الخروج بالقراءة عن لحن العرب إلى لُحُون العجم. قال ابن قتيبة في مشكل القرآن: (وقد كان الناس يقرأون القرآن بلغاتهم ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار، وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة.. فَهَفوا في كثير من الحروف وَذَلُّوا فأَخَلُّوا) انتهى. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (ومن ذلك - أي مكايد الشيطان - الوسوسة في مخارج الحروف والتنطع فيها ثم قال: ومن تأمل هَدْيَ رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم يتبين له أن التنطع، والتشدق، والوسوسة، في إخراج الحروف ليس من سنته). انتهى.

٤ - النهي عن القراءة بلحون أهل الفسق، والفجور. ولابن الكيال الدمشقي م سنة ٩٢٩ه - رسالة باسم: (الأنجم الزواهر، في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر).

٥ - قراءة الأنغام، والتمطيط. وربما داخلها ركض وركل - أي ضرب بالقدمين - ولهذا سميت (قراءة الترقيص). وكنت أظنها مما انقرض، لكني شاهدتها لدى بعض الطرقية، في ساحة مسجد الحسين بمصر عام ١٣٩١ه، وهم غاية من الاستغراق، والاغترار بمشاهدة الناس لهم، فلما ناصحت أحدهم وجدته في غاية الجهل، والانصراف عن النصح.

٦ - التلحين في القراءة، تلحين الغناء والشَّعر. وهو مسقط للعدالة، ومن أسباب رد الشهادة، قَضَاءً. وكان أول حدوث هذه البدعة في القرن الرابع على أيدي الموالي. ومن أغلظ البدع في هذا، تلكم الدعوة الإلحادية إلى قراءة القرآن، على إيقاعات الأغاني، مصحوبة بالآلات والمزامير. قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ

=

=

لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: ٤٠، ٤٢]

٧ - قراءة التطريب بترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات. وقد بحث ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هذه المسألة بحثًا مستفيضًا، وقد تقد ما يخص هذه المسألة في الفرع السابق.

المسألة الرابعة: حكم الدعاء عند ختم القرآن.

كان أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (إذا ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته فدعا لهم).

أخرجه بن المبارك في الزهد (رقم: ٨٠٩)، والدارمي في المسند (٤/ رقم ٣٥١٧) ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٩/ ٣٠٠٢٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٠٩)، والفريابي في فضائل القرآن (رقم ٨٣، ٨٤ ٨٥، ٨٦)، والطبراني في الكبير (١/ رقم: ٦٧٤)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٨/ ١٠٧٠)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٤٠/ ٢٧ - التفسر).وإسناده صحيح؛ كما قال العلامة الألباني في تعليقه على كتاب لفتة الكبد لابن الجوزي (ص ٧).

(تنبيه) ورد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا (إن لصاحب القرآن عند كل ختمة دعوة مستجابة، وشجرة في الجنة، لو أن غرابا طار من أصلها لم ينته إلى فرعها حتى يدركه الهرم) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٣١٩٠): موضوع

أخرجه الخطيب في "التاريخ" (٩/ ٣٩٠) عن رقاد بن إبراهيم: حدثنا أبو عصمة: حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعا، قلت: وهذا موضوع؛ آفته أبو عصمة هذا - وهو نوح بن أبي مريم، الملقب ب (الجامع) - جمع كل شيء من العلوم إلا الصدق! قال الحافظ:"كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع". ويزيد الرقاشي ضعيف، ورقاد بن إبراهيم لم أعرفه ا. ه

ليس في السنة النبوية دعاء خاص بعد ختم القرآن الكريم، ولا حتى عن أصحاب

=

=

النبي ﷺ أو الأئمة المشهورين، ومن أشهر ما ينسب في هذا الباب الدعاء المكتوب في آخر كثير من المصاحف منسوبا لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا أصل له عنه كما في فتاوى العثيمين (١٤/ ٢٢٦).

والدعاء بعد ختم القرآن إما أن يكون بعد ختمه في الصلاة، أو خارجها، ولا أصل للدعاء بعد الختمة في الصلاة، وأما خارجها فقد ورد فعله عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد سئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل هناك دعاء معين لختم القرآن؟

فأجاب: لم يرد دليل على تعيين دعاء معين فيما نعلم، ولذلك يجوز للإنسان أن يدعو بما شاء ويتخير من الأدعية النافعة كطلب مغفرة الذنوب والفوز بالجنة والنجاة من النار، والاستعاذة من الفتن وطلب التوفيق لفهم القرآن الكريم على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، والعمل به وحفظه، ونحو ذلك لأنه ثبت عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يجمع أهله عند ختم القرآن ويدعو اه. مجموع فتاوى ابن باز (١١/ ٣٥٨).

وسئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما حكم دعاء ختم القرآن في قيام الليل في شهر رمضان؟ فأجاب: " لا أعلم في ختمة القرآن في قيام الليل في شهر رمضان سنة عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة أيضا، وغاية ما ورد في ذلك أن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا. وهذا في غير الصلاة " انتهى من "فتاوى أركان الإسلام" (ص ٣٥٤).

وللشيخ بكر أبو زيد رسالة نافعة في هذه المسألة وهي "مرويات دعاء ختم القرآن"، ومما جاء في خاتمتها: من مجموع السياقات في الفصلين السالفين نأتي إلى الخاتمة في مقامين: المقام الأول: في مطلق الدعاء لختم القرآن:

والمتحصل في هذا ما يلي:

أولا: أن ما تقدم مرفوعا وهو في مطلق الدعاء لختم القرآن:

=

=

لا يثبت منه شيء عن النبي ﷺ ، بل هو إما موضوع أو ضعيف لا ينجبر، ويكاد يحصل القطع بعدم وجود ما هو معتمد في الباب مرفوعا؛ لأن العلماء الجامعين الذين كتبوا في علوم القرآن وأذكاره أمثال: النووي ، وابن كثير ، والقرطبي ، والسيوطي ، لم تخرج سياقاتهم عن بعض ما ذكر، فلو كان لديهم في ذلك ما هو أعلى إسنادا لذكروه.

ثانيا: أنه قد صح من فعل أنس بن مالك رضي الله عنه الدعاء عند ختم القرآن، وجمع أهله وولده لذلك ، وأنه قد قفاه (أي: تابعه) على ذلك جماعة من التابعين ، كما في أثر مجاهد بن جبر رحمهم الله تعالى أجمعين.

ثالثا: أنه لم يتحصل الوقوف على شيء في مشروعية ذلك في منصوص الإمامين: أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى. وأن المروي عن الإمام مالك رحمه الله: أنه ليس من عمل الناس، وأن الختم ليس سنة للقيام في رمضان.

رابعا: أن استحباب الدعاء عقب الختم ، هو في المروي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، كما ينقله علماؤنا الحنابلة ، وقرره بعض متأخري المذاهب الثلاثة.

المقام الثاني: في دعاء الختم في الصلاة:

وخلاصته فيما يلي:

أولا: أنه ليس فيما تقدم من المروي حرف واحد عن النبي ﷺ أو عن أحد من صحابته رضي الله عنهم يفيد مشروعية الدعاء في الصلاة بعد الختم قبل الركوع أو بعده لإمام أو منفرد.

ثانيا: أن نهاية ما في الباب هو ما يذكره علماء المذهب من الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في رواية حنبل والفضل والحربي عنه - والتي لم نقف على أسانيدها -: من جعل دعاء الختم في صلاة التراويح قبل الركوع.

وفي رواية عنه - لا يعرف مخرجها -: أنه سهل فيه في دعاء الوتر.

=

=

المسألة الخامسة: حكم نسيان القرآن.

لا شك أن النسيان فطري في الإنسان، وما سمي الإنسان إلا لنسيه، وهو يختلف عادة من شخص لآخر فيقل ويكثر بحسب ما فاوت الله بين العباد في قوة الذاكرة. والقرآن الكريم يتفلت من الصدور إذا لم يبادر المسلم إلى المراجعة الدائمة والتعاهد المستمر لما يحفظه منه. ولعل في ذلك حكما منها الابتلاء والامتحان لقلوب العباد لكي يتميز الفرق بين القلب المتعلق بالقرآن المواظب على تلاوته والقلب الذي تعلق به وقت الحفظ ثم فترت همته وانصرف عنه حتى نسيه.

ولعل من الحكم أيضا تقوية دافع المسلم إلى الإكثار من تلاوة القرآن الكريم لينال الآجر العظيم بكل حرف يتلوه ولو أنه حفظ فلم ينس لما احتاج إلى كثرة التلاوة فيفوت عليه أجر المراجعة والتعاهد، فخشية النسيان تدفعك إلى الحرص على التلاوة ليزيد أجرك عند ربك، ولك بكل حرف تتلوه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولقد حث الرسول ﷺ على تعاهد القرآن الكريم خشية النسيان وحذر من التهاون في ذلك كما جاء في أحاديث عديدة، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٧٩) في شرحه لحديث عبد الله بن عمر: ما دام التعاهد موجودا فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدودا بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل الذكر لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورا، وفي تحصيلها بعد استكمان نفورها صعوبة.

(تنبيه) ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (عرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها) حديث ضعيف لا يثبت.

وقد اختلف العلماء في حكم نسيان القرآن ممن كان حفظه، وقد ذهب طائفة من الشافعية إلى أنه من الكبائر! وقال بعضهم إنه من الذنوب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: فإن نسيان القرآن من الذنوب. " مجموع

=

=

الفتاوى " (١٣/ ٤٢٣).

وقال الشيخ زكريا الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونسيانه كبيرة) ، وكذا نسيان شيء منه؛ لخبر (عرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها) أخرجه أبو داود (١/ ١٢٦، رقم٤٦١)، والترمذى (٥/ ١٧٨، رقم ٢٩١٦)، وابن خزيمة (٢/ ٢٧١، رقم ١٢٩٧)، والبيهقى (٢/ ٤٤٠، رقم ٤١١٠)، والطبرانى فى الأوسط (٦/ ٣٠٨، رقم ٦٤٨٩)، وفى الصغير (١/ ٣٣٠، رقم ٥٤٧)، وأبو يعلى (٧/ رقم ٤٢٦٥)، والخطيب في الجامع (١/ ١٠٩)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٣٦٤) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال البخاري لا أعرف للمطلب بن عبد الله سماعا من أحد من الصحابة، وقال ابن عبد البر في التمهيد: ليس هذا الحديث مما يحتج به لضعفه وضعفه النووي كما في الخلاصة وفي الأذكار (١/ ٨٩)، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١١٦ - ١١٧): قال الدارقطني قد روى عن ابن جريح عن انس والاول اشبه بالصواب والحديث غير ثابت لأن ابن جريج لم يسمع من المطلب شيئا يقال كان يدلسه عن ابن ميسرة وغيره من الضعفاء، وقال الذهبي في تلخيص العلل المتناهية: لم يسمعه ابن جريج من المطلب وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٨٦): إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٧٠٠)، وضعفه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ٢٩١ - ٢٩٢) بقوله: والحديث على أي وجه كان لا يصح.، وخبر (من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله ﷿ يوم القيامة أجذم) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٥، رقم ١٤٧٤)، وابن أبى شيبة (٦/ ١٢٤، رقم ٢٩٩٩٥)، وأحمد (٥/ ٢٨٥، رقم ٢٢٥١٦)، وأبو عبيد في الفضائل (ص ١٠٣)، وعبد بن حميد (ص ١٢٧، رقم ٣٠٦)، والدارمى (٢/ ٥٢٩، رقم ٣٣٤٠)، والطبرانى (٦/ ٢٣، رقم ٥٣٩١)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/

=

=

٣٣٦، رقم ١٩٦٩) والحديث قال عنه ابن عبد البر: " هذا إسناد رديء، و عيسى بن فائد لم يسمع من سعد بن عبادة و لا أدركه "، وضعفه الذهبي في الميزان (٣/ ٣١٩)، وقال عنه الحافظ في الفتح (٩/ ٨٦): في إسناده مقال، وقال المناوي في الفيض: قال ابن القطان وغيره: فيه يزيد بن أبي زياد لا يحتج به وعيسى بن فائد مجهول الحال ولا يعرف روى عنه غير يزيد هذا وقال ابن أبي حاتم: لم يثبت سماعه عن سعد ولم يدركه، وضعفه الألباني في الضعيفة، وضعفه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٠). وفي حاشية الرملي عليه: قوله: (ونسيانه كبيرة) موضعه إذا كان نسيانه تهاونا وتكاسلا. " أسنى المطالب " (١/ ٦٤).... والأظهر أن نسيان القرآن: ليس كبيرة، بل ولا ذنبا، ولكنه مصيبة، أو عقوبة، والغالب أن يكون هذا بسبب إعراضه عن العمل به، وعدم تعاهده، وقد أمر بكلا الأمرين، فلما لم يستجب للأمر عوقب بما فيه سلب لخير عظيم، وقد يكون نسيانه له بسبب معاص وذنوب، فيأثم عليها، ويعاقب بسلب القرآن منه، وأما إن كان نسيانه لما حفظ بسبب ضعف في ذاكرته: فلا شيء عليه، لكن عليه المداومة على تنشيطها بكثرة القراءة، وبالقيام بما يحفظ؛ فإنه من أعظم السبل للبقاء على ما يحفظ، وقد سئلت اللجنة الدائمة عن: ما حكم من استظهر كتاب الله على ظهر قلبه ثم نسيه، هل يعاقب أو لا؟

فأجابت: القرآن كلام الله تعالى، وهو أفضل الكلام ومجمع الأحكام، وتلاوته عبادة تلين بها القلوب، وتخشع النفوس، إلى غير ذلك من منافعه التي لا تحصى، من أجل ذلك أمر النبي صلي الله عليه وسلم بتعاهده حتى لا ينسى، فقال ﷺ: (تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها) فلا يليق بالحافظ له أن يغفل عن تلاوته، ولا أن يفرط في تعاهده، بل ينبغي أن يتخذ لنفسه منه وردا يوميا يساعده على ضبطه، ويحول دون نسيانه رجاء الأجر والاستفادة

=

=

من أحكامه عقيدة وعملا، ولكن من حفظ شيئا من القرآن ثم نسيه عن شغل أو غفلة ليس بآثم، وما ورد من الوعيد في نسيان ما قد حفظ لم يصح عن النبي ﷺ.

المسألة السادسة: حكم قول نسيت آية كذا.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بئس ما لأحدهم يقول: نسيتُ آية كيتَ وكيتَ، بل هو نُسِّي. استذكروا القرآن، فلهو أشد تَفَصِّيًا من صدور الرجال من النّعم بعُقُلها) [مختصر مسلم ٢١١٠]

قال العلامة الألباني: لأن أصل النسيان الترك، فنهاه أن يقول: (نسيت آية كذا) لأن معناه تركت الآية أو قصدت إلى نسيانها، وهذا مما لا يصدر من مسلم، فعلمه ﷺ أن يقول: نُسِّيت، أي أن الله تعالى هو الذي أنساه ا. ه[مختصر مسلم ٥٥٦]....

فلا ينبغي للمسلم أن يقول " نسيت " فيما ضاع من ذاكرته في حفظه للقرآن، بل " أنسيت " أو " نسيت "، وهذا هو الذي فعله النبي ﷺ، فعن عائشة قالت كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد، فقال: (رحمه الله، لقد أذكرني آية كنت أنسيتها). رواه البخاري (٤٧٥١) ومسلم (٧٨٨).

قال أبو العباس القرطبي - رحمه الله -: قوله في آخر الحديث: (بل هو نسي)، وهذا اللفظ رويناه مشددا مبنيا لما لم يسم فاعله، وقد سمعناه من بعض من لقيناه بالتخفيف، وبه ضبط عن أبي بحر، والتشديد لغيره، ولكل منهما وجه صحيح، فعلى التشديد يكون معناه: أنه عوقب بتكثير النسيان عليه؛ لما تمادى في التفريط، وعلى التخفيف يكون معناه: ترك غير ملتفت إليه، ولا معتنى به، ولا مرحوم، كما قال الله تعالى: (نسوا الله فنسيهم)؛ أي: تركهم في العذاب، أو تركهم من الرحمة. " المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم " (٢/ ٤١٩).

المسألة السابعة: حكم بداية المجالس والندوات بقراءة القرآن الكريم.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٦٨): (ما

=

=

يبتدئ به المستملي من القول) ينبغي أن يقرأ في المجلس سورة من القرآن قبل الأخذ في الإملاء: لما أنا محمد بن أحمد بن رزق أنا عثمان بن أحمد الدقاق نا الحسن ابن سلام السواق نا عفان نا شعبة عن علي بن الحكم عن أبي نضرة قال كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرءوا سورة ا. ه

وقال النووي التقريب (٢/ ١٣٢ – تدريب): ويفتتح مجلسه ويختمه بتحميد الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ ودعاء يليق بالحال بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئا من القرآن العظيم ا. ه

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في اختصار علوم الحديث (ص١٥٣) فقال: ينبغي عقد مجلس التحديث، وليكن المسمع على أكمل الهيئات، كما كان مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إذا حضر مجلس التحديث، توضأ، وربما اغتسل، وتطيب، ولبس أحسن ثيابه، وعلاه الوقار والهيبة، وتمكن في جلوسه، وزبر من يرفع صوته، وينبغي افتتاح ذلك بقراءة شيء من القرآن، تبركا وتيمنا بتلاوته، ثم بعده التحميد الحسن التام، والصلاة على رسول الله ﷺ، وليكن القارئ حسن الصوت، جيد الأداء، فصيح العبارة ا. ه

وقد ذهب إلى المنع من هذا الفعل وعده من المحدثات الشيخ العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فقال:"ومن المحدثات التي لم تكن في هدي من مضى من صالح سلف هذه الأمة: التزام افتتاح المؤتمرات، والاجتماعات، والمجالس والمحاضرات، والندوات بآيات من القرآن الكريم، ولا أعلم حدوث هذا في تاريخ المسلمين إلا بعد عام ١٣٤٢ من هجرة النبي ﷺ ، أما قبل ذلك فلا، فهذا قدوة الأمة رسول رب العالمين لم يعهد من هديه فعل ذلك ولا مرة واحدة، لا سيما في حال جمعه لوجوه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للمشورة في مهمات الأمور، وهكذا الخلفاء الراشدون من بعده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من اجتماع السقيفة إلى الآخر، وهكذا في حياة

=

=

من تبعهم بإحسان.

هذا إذا كان الأمر المفتتح مشروعا، أما إذا كان محظورا أو محرما أو مكروها؛ فيحرم شرعا افتتاحه بالقرآن لعدم شرعية السبب، ولما فيه من تعريض كلام الله تعالى للامتهان في مجلس محظور مثل دورات الرهان المحرم على لعب محرم في ميادين الكرة، والمصارعة، والملاكمة، ونطاح الحيوانات، وسباق السيارات، والدراجات، إلى غير ذلك من أمور مبنية على الرهان المحرم، وما تفضي إليه من محرمات أخرى" انتهى. "تصحيح الدعاء" (ص ٢٩٨).

وسئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن إدارة مدرسة تريد أن تبدأ الإذاعة المدرسية يوميا بقراءة شيء من القرآن الكريم.

فأجاب: الذي ينبغي أن لا يتخذ ذلك سنة دائمة - أعني: البداءة بالقرآن الكريم عند فتح الإذاعة -، لأن البداءة بالقرآن الكريم عبادة، والعبادة تحتاج إلى توقيف من الشرع، ولا أعلم أن الشرع سن للأمة أن تبتدأ خطاباتها ومحاضراتها وما أشبه ذلك بالقرآن الكريم، لكن إذا ابتدأ أحد بقراءة ما يناسب المحاضرة مثلا تقدمة لها، ولعل المحاضر يتكلم على معاني الآيات التي قرأها فإن هذا طيب لا بأس به، مثل أن تكون المحاضرة عن الصيام فيقوم أحد الناس يقرأ آيات الصيام قبل بدأ المحاضرة، أو تكون المحاضرة في الحج فيقوم أحد ويقرأ آيات الحج، فإن هذا لا بأس به، لأنه مناسب، فهو كالتقدمة لهذه المحاضرة التي تتناسب مع هذه الآيات، أما اتخاذ هذا سنة راتبة كلما أراد المحاضرة، أو كلما أردنا كلاما قرأنا القرآن، فهذا ليس بسنة" انتهى.

قال العلامة العلامة الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى معلقا على كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في شرح الباعث الحثيث (ص ٢٨٥): لاأعلم دليلا ، والأفضل وينبغي يحتاج إلى دليل.

=

=

(فرع): قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في تصحيح الدعاء (ص٤٢١):
تنبيه: في طبقات ابن أبي يعلى (١/ ٩٦)، والفروع (١/ ٥٤٨)، والاختيارات للبعلي (ص/ ٦٤) أن الإمام أحمد - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى - استحب قراءة سورة القلم عشاء أول ليلة من رمضان، وعلل ذلك: بأنها أول سورة نزلت من القرآن في رمضان، ووافقه شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك، ولم أر لهذا الاستحباب دليلا، فليحرر. انتهى

(فرع): قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في تصحيح الدعاء (ص٣٢٠):
مما أحدثه الوعاظ وبعض الخطباء، في عصرنا، مغايرة الصوت عند تلاوة الآيات من القرآن لنسق صوته في وعظه أو الخطابة.

وهذا لم يعرف عن السالفين، لا الأئمة المتبوعين، ولا تجده لدى أجلاء العلماء في عصرنا، بل يتنكبونه، وكثير من السامعين لا يرتضونه، والأمزجة مختلفة، ولا عبرة بالمخالف لطريقة صدر هذه الأمة وسلفها، والله أعلم.

(فرع): حكم الاهتزاز أثناء قراءة القرآن.

قال علماء اللجنة الدائمة (٤/ ١٤٩): صدر من اللجنة فتوى برقم (٧٤٢٣) جاء فيها (لا بأس بما ذكرت من التمايل المعروف يمينًا وشمالًا عند القراءة، وليس هذا التمايل من العبادة حتى يكون بدعة.. إلخ)، وقد نشرت في الطبعة الأولى (٤/ ١١٥)، ثم أعادت اللجنة تأملها وقررت العدول عنها وحذفها من الطبعة الجديدة؛ خشية أن يلتبس على البعض فيظنها عبادة لا سيما وهي عادة عند اليهود ابتدعوها عند قراءة التوراة كما ذكر ذلك أبو حيان في تفسيره (٤/ ٤٢) عند كلامه على قوله تعالى: " وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ " ونص كلامه: وذكر الزمخشري هنا عند ذكر السبب أنه لما نشر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الألواح وفيها كتاب الله تعالى لم يبق شجر ولا جبل ولا حجر إلا اهتز؛ فلذلك لا ترى يهوديًا يقرأ التوراة

=

=

إلا اهتز وأنغض لها رأسه انتهى. وقد سرت هذه النزعة إلى الأولاد المسلمين فيما رأيت بديار مصر، تراهم في المكتب إذا قرأوا القرآن يهتزون ويحركون رؤوسهم، وأما في بلاد الأندلس والغرب فلو تحرك صغير عند قراءة القرآن أدبه مؤدب المكتب، وقال له: لا تتحرك فتشبه اليهود في الدراسة. انتهى المقصود من كلام أبي حيان، والله أعلم ا. ه

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: أرى كثيرًا ممن يقرءون القرآن وخاصة في حلقات القرآن يهزون أو يتحركون حركة، ما حكم هذا الهز؟

فأجاب: هذا إن جاء تلقائيًا فهذا ما فيه بأس؛ لأن بعض الناس يستعين -مثلًا- بالهز على التلاوة، وإن جاء تعبديًا فإنه لا يجوز وهو بدعة، ومع ذلك نحن نحث الذين يهتزون تلقائيًا أن يعودوا أنفسهم على ترك الهز؛ لأنه قد يقتدي بهم غيرهم ويظن أن هذا أمر مشروع ا. ه

وقال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في تصحيح الدعاء (ص٨٠): اشتدت كلمة علماء الأندلس في النكير على: التمايل، والاهتزاز، والتحرك، عند قراءة القرآن، وأنها بدعة يهود، تسربت إلى المشارقة من المصريين، ولم يكن شيء من ذلك ماثورا عن صالح سلف الأمة.

وقد ألف ناصر السنة ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى "كتاب من تأخذه عند قراءة القرآن حركة" ولا ندري من خبر هذا الكتاب شيئا. قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في تفسيره البحر المحيط عند قول الله تعالى: ؟ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم: قال الزمخشري في الكشاف (٢/ ١٠٢): لما نشر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الألواح وفيها كتاب الله تعالى، لم يبق شجر، ولا جبل، ولا حجر إلا اهتز فلذلك لا ترى يهوديا يقرأ التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه انتهى من الكشاف، وقد سرت هذه النزعة إلى أولاد المسلمين، فيما رأيت بديار مصر،

=

=

تراهم في المكتب إذا قرأوا القرآن يهتزون ويحركون رؤوسهم، وأما في بلادنا، بالأندلس والغرب، فلو تحرك صغير عند قراءة القرآن، أدبه مؤدب المكتب وقال له: لا تتحرك فتشبه اليهود في الدراسة ا. ه من البحر المحيط (٤/ ٤٢).

وقال الراعي الأندلسي في انتصار الفقير السالك (ص٢٥٠) (وكذلك وافق أهل مصر اليهود في الاهتزاز عند الدرس والاشتغال، وهو من أفعال يهود).

وسئل العلامة الوادعي: ما حكم الاهتزاز اثناء قراءة القرآن؟

فأجاب: السائل: ما حكم الاهتزاز اثناء قراءة القرآن؟

الاهتزاز الذي ننصح به هو عدم الاهتزاز ثم بعد ذلك هو يختلف الاهتزاز اهتزاز كثير هذا يعتبر بارك الله فيكم الظاهر يصل إلى حد البدعة، والشئ اليسير يتململ لحلاوة القرآن لا نستطيع ان نقول يبلغ إلى حد البدعة لكن الذي ننصح به هو عدم الاهتزاز والخشوع هو في القلب -والله المستعان - وتركنا الكلام على أنه تشبه باليهود، لانه لم يرد دليل بذلك وما رأينا اليهود وهم يقرؤن ويهتزون، فمن رأى منكم اليهود يقرؤن ويهتزون يا اخوان نعم

فقال بعض الحاضرين: نعم في صعده.

فقال الشيخ" نعم إذا فيه تشبه.

المسألة الثامنة: حكم قراءة القرآن بالعين قراءة فقط دون اللسان؟

قراءة القرآن بالعين فقط دون تحريك اللسان لا تعتبر قراءة، ولا يثاب عليها ثواب القراءة، وإنما هي تدبر للقرآن ويؤجر عليها المسلم.

فالأذكار التي تقال باللسان كقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل، وأذكار الصباح والمساء والنوم ودخول الخلاء... وغيرها لا بد فيها من تحريك اللسان، ولا يعد الإنسان قد قالها إلا إذا حرك بها لسانه.

فقد نقل ابن رشد في البيان والتحصيل (١/ ٤٩٠) عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سئل

=

=

عن الذي يقرأ في الصلاة، لا يسمع أحدا ولا نفسه، ولا يحرك به لسانا. فقال: ليست هذه قراءة، وإنما القراءة ما حرك له اللسان " انتهى.

وقال الكاساني في بدائع الصنائع (٤/ ١١٨): القراءة لا تكون إلا بتحريك اللسان بالحروف، ألا ترى أن المصلي القادر على القراءة إذا لم يحرك لسانه بالحروف لا تجوز صلاته. وكذا لو حلف لا يقرأ سورة من القرآن فنظر فيها وفهمها ولم يحرك لسانه لم يحنث " انتهى. يعني لأنه لم يقرأ، وإنما نظر فقط.

ويدل على ذلك أيضا: أن العلماء منعوا الجنب من قراءة القرآن باللسان، وأجازوا له أن ينظر في المصحف، ويقرأ القرآن بالقلب دون حركة اللسان. مما يدل على الفرق بين الأمرين، وأن عدم تحريك اللسان لا يعد قراءة. انظر المجموع (٢/ ١٨٧ - ١٨٩).

وقال في مواهب الجليل (١/ ٣١٧): قال ابن الحاجب في كتاب الصلاة: ولا يجوز إسرار من غير حركة لسان ؛ لأنه إذا لم يحرك لسانه لم يقرأ وإنما فكر انتهى.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١٣/ ١٥٦): هل يجب تحريك اللسان بالقرآن في الصلاة؟ أو يكفي بالقلب؟

فأجاب: القراءة لابد أن تكون باللسان، فإذا قرأ الإنسان بقلبه في الصلاة فإن ذلك لا يجزئه، وكذلك أيضا سائر الأذكار، لا تجزئ بالقلب، بل لابد أن يحرك الإنسان بها لسانه وشفتيه؛ لأنها أقوال، ولا تتحقق إلا بتحريك اللسان والشفتين " انتهى.

نعم ذكر الله تعالى من أشرف أعمال المسلم، ولا يقتصر الذكر على اللسان، بل يكون الذكر بالقلب واللسان والجوارح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٦): الناس في الذكر

=

=

أربع طبقات:

إحداها: الذكر بالقلب واللسان وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبا بذكر الله

الرابع: عدم الأمرين وهو حال الخاسرين " انتهى باختصار.

وقال السعدي في الرياض النضرة (ص ٢٤٥): وإذا أطلق ذكر الله: شمل كل ما يقرب العبد إلى الله من عقيدة، أو فكر، أو عمل قلبي، أو عمل بدني، أو ثناء على الله، أو تعلم علم نافع وتعليمه، ونحو ذلك، فكله ذكر لله تعالى ا. ه

وقال العلامة العثيمين في تفسير سورة البقرة (٢/ ١٦٧، ١٦٨): وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح، فالأصل: ذكر القلب كما قال ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب) رواه البخاري ومسلم، فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) الكهف/ ٢٨؛ وذكر الله باللسان أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جدا، كجسد بلا روح.

وصفة الذكر بالقلب: التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب.

وأما ذكر الله باللسان: فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: " لا إله إلا الله ".

وأما ذكر الله بالجوارح: فبكل فعل يقرب إلى الله كالقيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعا لله؛ وحينئذ تكون ذاكرا لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: (وأقم الصلاة إن الصلاة

=

=

تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) العنكبوت/ ٤٥؛ قال بعض العلماء: أي: لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٥/ ٣٢٥): هل تكفي قراءة القلب في الصلاة السرية بدون تحريك اللسان؟

فأجابوا: يجب على المصلي أن يحرك لسانه وشفتيه بالقراءة ولا تكفي القراءة القلبية.

وسئل العلامة الألباني كما في سلسلة الهدى والنور (شريط رقم ٤٧١): السائل: شيخي، الجهر واجب أن يسمع نفسه أو جليسه في الدّعاء أو الاستعادة أو الطّهارة على سبيل المثال رأى رجلا مريضا..

الشيخ: نعم مريض؟

السائل: رأى رجلا مريضا فاستعاذ بالاستعادة المعروفة..

الحلبي: الحمد لله الّذي عافاني

السائل: الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلاك به و فضّلني على كثير ممّن..

الشيخ: لا يسمعه.

السائل: أو يقول في دخول البيت الاستعادة من الشّيطان الرّجيم بعد دعاء الدّخول أو بالطّهارة الأمور الاعتيادية الّتي نعرفها هل الجهر فيها سيدي واجب؟

الشيخ: يسمع نفسه فقط.

السائل: يسمع نفسه؟

الشيخ: أي نعم. إلاّ في وضع يكون هو في موضع المعلّم، إذا كان في موضع المعلّم يريد أن يعلّم غيره حينئذ يرفع صوته أمّا إذا لم يكن كذلك فالأصل في كلّ الأذكار و الأوراد هو الإسرار فيها دون الإجهار.

السائل: دون الإجهار سيدي؟

=

=

الشيخ: أي نعم. و بخاصّة إذا ترتّب من وراء الجهر أحيانا إزعاج لأخيه المسلم كالمريض المبتلى فأنت تسمعه تقول الحمد لله الّذي عافاني مما ابتلاك به هذا فيه إزعاج..

السائل: بلا شكّ.

الشيخ: فهنا يتأكّد الإسرار.

السائل: هل هنا في النّفس ممكن شيخي أو يسمع نفسه هو فقط ممكن يعني يحكيها بقلبه؟

الشيخ: هو إسماع النّفس هو الإسرار.

السائل: إسماع النّفس هو الإسرار؟

الشيخ: أي نعم.

السائل: و كذلك في الطّهارة سيدي ضروري يرفع صوته؟

الشيخ: لا لا. سر كلّه سرّ.

السائل: بنفسه.

الشيخ: أي نعم

سائل آخر: المقصود... بالإسماع نفسه و الإسرار أن تسمع نفسك فعلا ما بقلبك.

الشيخ: كيف؟

السائل: بالقلب سيدي مثلا أحكيها على أن لا أسمع أذنيّ.

الشيخ: لا. بدّك تحرّك لسانك.

السائل: هذا هو المقصود....

الشيخ: في فرق بين القراءة الذّهنيّة و بين القراءة اللّفظيّة ، القراءة الذّهنيّة تشغّل ذهنك أنت يعني تتصوّر في نفسك تقرأ الحمد لله ربّ العالمين هذه ليست قراءة و لو أنّ مصليّا صلّى و قرأ الفاتحة ذهنا ما صحت صلاته لأنّه لا يقال فيه لغة قرأ.

=

=

القراءة تستلزم تحريك الشّفة فهذا هو الفرق بين القراءة الذّهنيّة و القراءة اللّفظيّة. القراءة اللّفظيّة تنقسم إلى قسمين: سرّيّة و جهريّة. فآنفا قلنا الأذكار كلّها إلاّ ما استثنينا و هناك استثناءات اخرى لسنا في صددها فالقراءة السّريّة تتطلّب تحريك اللّسان لكن ليس ضروريّا أنّك تسمع نفسك أو تسمع جارك لا. فقط تحرّك لسانك بحيث تتمكّن من النّطق بالأحرف العربيّة المعروفة لكن سرّا ثمّ تسمع نفسك هذه قضيّة تختلف من شخص إلى آخر ربّ شخص سمعه حسّاس و دقيق جدّا و ربّ شخص آخر فيه ثقل فهذا الثّقيل سمعه إذا أراد أن يسمع نفسه أسمع البعيد عنه و اسمه أسمع نفسه لا. المهمّ يحرّك لسانه في نفسه وما ضروريّا يسمع نفسه فضلا أن يسمع غيره أمّا غيره فواضح. أمّا نفسه فلها النّسبة الّتي ذكرتها آنفا.

المسألة التاسعة: حكم قراءة سورة العصر في ختام المجلس.

لم يثبت في قراءة سورة العصر في ختام المجلس عن النبي ﷺ شيئا مرفوعا.

والذي ورد في هذه المسألة: عن أبي مدينة الدارمي أنه قال: (كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: والعصر إن الإنسان لفي خسر)، ثم يسلم أحدهما على الآخر) أخرجه أبو داود في الزهد (٤١٧) عن موسى بن إسماعيل أبي سلمة التبوذكي، والطبراني في الأوسط (٥١٢٤) -ومن طريقه ابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٢١٦) - من طريق عبيد الله بن عائشة، والبيهقي في الشعب (٩٠٥٧) من طريق يحيى بن أبي بكير، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أبي مدينة الدارمي، قال: كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا، ثم أرادا أن يفترقا، قرأ أحدهما: (والعصر * إن الإنسان لفي خسر) حتى يختمها، ثم يسلم كل واحد منهما على صاحبه. هذا لفظ أبي داود. قال الطبراني: " لا يروى هذا الحديث عن أبي مدينة إلا بهذا الإسناد، تفرد به حماد بن سلمة "، وقال الذهبي -في تاريخ الإسلام (٦/ ٥٤٠) -: " هذا

=

=

حديث غريب جدا، ورواته مشهورون ". وحماد أوثق الناس في ثابت، حكم بذلك غير واحد من الأئمة. وقد أشار البيهقي إلى اختلاف على حماد، قال: " ورواه غيره عن حماد، عن ثابت، عن عقبة بن عبد الغافر، قال: (كان الرجلان...)، فذكره "، ووقع (عقبة بن عبد الغافر) في المطبوعة القديمة: عتبة بن الغافر، ولذا لم يعرفه الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ- في الصحيحة (٦/ ٣٠٨)، وجاء على الصواب في الطبعة الجديدة للشعب (١١/ ٣٤٩ ط. الرشد). إلا أنه لم ينفرد به يحيى بن أبي بكير عن حماد بالوجه الأول، فقد تابعه -كما سبق- أبو سلمة التبوذكي وعبيد الله بن عائشة. ولم يعرف الذي خالفهم فأبدل أبا مدينة الدارمي بعقبة بن عبد الغافر، ولم يوقف على هذه الرواية التي أشار إليها البيهقي، فالمعتمد رواية الثلاثة الثقات.

وأما أبو مدينة الدارمي، فقد قال الطبراني في سياق إسناده: " وكانت له صحبة "، وأخرج حديثه فيمن اسمه عبد الله في معجمه الكبير -كما ذكر ابن حجر في تعجيل المنفعة (ص٢١٩) -، والمصادر تختلف في اسمه، بين: عبد الله بن حصن، وعبد الله بن حصين، وعبد الله بن محصن، وانظر: تعليق العلامة المعلمي على الجرح والتعديل (٥/ ٣٩). وشابهه تابعي في الاسم والكنية، قال ابن حجر -في الإصابة (٤/ ٥٧) -: " وفي التابعين أبو مدينة عبد الله بن حصن السدوسي، يروي عن أبي موسى الأشعري، حديثه في مسند الشافعي، ذكره البخاري وابن أبي حاتم وابن حبان ". والذي يظهر أن الرجلين واحد، هو التابعي؛ لأمرين:

- أن رواية الدارمي لهذا الحديث عن الصحابة، والأغلب أن الرواة عن الصحابة تابعون، - أن احتمال اختلاف النسبة واتحاد الرجل وارد، فقد قال السمعاني -في الأنساب (٢/ ٤٤٠) -: " الدارمي، هذه النسبة إلى بني دارم، وهو دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم "، وقال (٣/ ٢٣٥): " السدوسي، هذه النسبة إلى

=

=

جماعة قبائل قال ابن حبيب: (في تميم سدوس بن دارم بن مالك بن حنظلة) "، فيمكن اعتبار النسبة إلى سدوس في تميم نسبة إلى دارم، لأن دارما أبو سدوس.

إلا أن خليفة عد -في الطبقات (ص٢٠٩) - أبا مدينة من بني سدوس بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وهو آخر غير جد التميميين. ويدخل على اختلاف النسبة هذا -إن صح- احتمال أن يكون من دون أبي مدينة السدوسي نسبه دارميا، ظنا أنه من بني سدوس بن دارم التميمي، وإنما هو من بني سدوس بن ذهل. والله أعلم. ولورود احتمال كون الرجلين واحدا؛ أشار ابن حجر إلى شكه في اعتبار الطبراني أبا مدينة الدارمي من الصحابة، قال -في الإصابة (٤/ ٥٧) -: " فإن كان الطبراني ضبط أن اسم الصحابي عبد الله بن حصن ولم يلتبس عليه بهذا التابعي "، وقال -في تعجيل المنفعة (ص٢١٩) -: " فان كان ضبط نسبه فهما اثنان ". وجزم الذهبي بخطأ ذلك، قال -في تاريخ الإسلام (٦/ ٥٣٩) -: " قيل: (له صحبة)، ولم يصح "، ثم ذكر مشايخ التابعي السدوسي، ومن روى عنه، ثم ذكر هذا الحديث مسندا، فاعتبرهما واحدا. وقال ابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ٢١٦): بعد أن أسند الحديث عن أبي موسى المديني: " أخرجه أبو موسى، وقال: (أورد ابن منده وغيره أبا مدينة في الكنى من التابعين، وقال: يروي عن عبد الرحمن بن عوف)، وفي كون الكنية من الآحاد، ولا يذكر الرجل في الصحابة في الكتب المعنية بالكنى ما يشير إلى أن أبا مدينة واحد، هو التابعي، وإذا تقرر ذلك، فلم أجد في أبي مدينة جرحا ولا تعديلا، وذكره -كما ذكر ابن حجر- البخاري في التاريخ (٥/ ٧١)، وابن أبي حاتم في الجرح (٥/ ٣٩)، وابن حبان في الثقات (٥/ ٢١)، والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٣٣) رواه الطبراني في الاوسط ورجاله رجال الصحيح، صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٤٨)، وقال العدوي في التسهيل جزء عم المجلد الثاني (ص٥٣٦) وعلى كل

=

=

حال فإنه يحكي عن الصحابة الذين رأهم فقط، مع أن في نفسي شئ من هذا الإسناد، والله أعلم.

وقد ذهب بعض العلماء إلى مشروعية قراءة سورة العصر في ختام المجلس اعتمادا على هذا الأثر: فقال العلامة الألباني في الصحيحة في فوائد الحديث رقم (٢٦٤٨): و في هذا الحديث فائدتان مما جرى عليه عمل سلفنا رضي الله عنهم جميعا: إحداهما: التسليم عند الافتراق.... والأخرى: نستفيدها من التزام الصحابة لها، وهي قراءة سورة (العصر) لأننا نعتقد أنهم أبعد الناس
عن أن يحدثوا في الدين عبادة يتقربون بها إلى الله، إلا أن يكون ذلك بتوقيف من رسول الله ﷺ قولا أو فعلا أو تقريرا، و لم لا و قد أثنى الله
تبارك و تعالى عليهم أحسن الثناء، فقال (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم و رضوا عنه و أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)، وقال ابن
مسعود و الحسن البصري: "من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا و أعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي
المستقيم".

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في سلسلة الهدى والنور: السائل: يعني كثير من الأخوة يبتدئون بسورة العصر ويختتمون جلستهم بهذه السورة؟

الشيخ: هذا شيء منه له أصل أيضًا إنه جاء عن الصحابة، أنهم كانوا إذا التقوا ثم افترقوا قرأ أحدهم سورة العصر، لكن هذا شيء وختم المجلس شيء آخر.

السائل: ثابت هذا شيخنا إذا افترقوا. الشيخ: كيف؟.السائل: ثابت إذا افترقوا.

=

=

الشيخ: نعم ثابت ا. ه

أما العلامة العثيمين فسئل كما في فتاوى نور على الدرب: هذا السائل يقول البعض في ختام المجلس وبعد دعاء الختام سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وكذلك سورة العصر فهل هذا سنة أم بدعة؟

فأجاب: هذا ليس بسنة السنة في ختام المجلس سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وأما ما ورد عن بعض الصحابة أنهم لا يتفرقون حتى يقرأ بعضهم على بعض سورة العصر فهذا لعله وقع من بعضهم ولكني لا أعلمه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ا. ه

وسئل أيضا كما في لقاءات الباب المفتوح: بعض الناس لهم أوراد يقولونها قبل الغروب وقبل الشروق بترتيب معين؛ وهي أحاديث عن رسول الله ﷺ محفوظة بترتيب معين، يواظبون عليها يوميًا، وما حكم قراءة سورة العصر في ختام المجلس، وجزاك الله خيرًا؟

فأجاب: أما الأوراد الواردة عن النبي ﷺ من القرآن أو من الأذكار النبوية فإنها تفعل كما وردت صباحية أو مسائية، أو كانت دبر الصلوات، أو كانت لأسباب معينة كذكر الدخول للمنزل والخروج منه، المهم أن الأذكار والأوراد الواردة عن الرسول ﷺ تفعل كما وردت. وأما الأذكار التي لم ترد عن الرسول ﷺ أو وردت على وجه آخر غير الذي يفعله الإنسان، فإن ذلك يكون بدعة إذا قام به الإنسان؛ لأن البدعة قد تكون في أصل العبادة وقد تكون في وصف العبادة، أما ختم المجلس بسورة العصر؛ فإن ذلك بدعة ولا أصل له ا. ه

قلت هذا الأثر مشكل لأنه يفيد أن أصحاب النبي ﷺ كانوا لا يفترقون حتى يقرأ بعضهم على بعض سورة العصر، فمع توافر أصحاب النبي ﷺ وهم الألوف

=

=

المؤلفة، ومع تعدد هذه الصورة في اليوم والليلة المرات والمرات لاسيما ما كان في عهد الخليفتين: أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فإن الصحابة كانوا يلتقون على مدار الساعة، فلو كان ديدنهم قراءة سورة العصر كلما افترقوا لنقلت إلينا بالأسانيد المتواترة ولامتلأت الكتب الصحاح والسنن بالآثار مخصصة بهذا الصنيع أو مضمنة لها في غضون وتضاعيف هذ الآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم، ولا يقال: إن عدم النقل ليس نقلا للعدم، لأن عدم النقل مع توافر السبب ودواعيه للنقل ثم لم ينقل دليل على أنه لم يكن وإلا لنقل، ومن علم حجم ومقدار تفاصيل النصوص الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم وكثرة النقولات الدقيقة عنهم وحرص التابعين على نقل كل صغيرة وكبيرة عنهم أدرك أن قراءتهم لسورة العصر كلما افترقوا لو كانت لنقلت بصور شتى بالأسانيد الكوفية، والشامية، والمصرية، والسلاسل المكية.

مسألة: في ذكر بعض الأصول والقواعد المفيدة في تفسير القرآن.

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في القواعد الحسان في تفسير القرآن: واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله، لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود، لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب

=

=

منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير.

كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} [البقرة: ١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها {إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩].

فعلى الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

=

=

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمرتها.

ويلحق بهذه القاعدة:

القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وهذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، و ليست معاني الألفاظ و الآيات مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا و كذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن كما تقدم إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنى تكون.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه " إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك، فإنه إما خير تُؤمر به، وإما شر تُنهى عنه ".

=

=

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص. فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ونزّهه عن كل ما نزه نفسه عنه، وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزمًا لا شك فيه أنه حق على حقيقته، بل هو أعلى أنواع الحق والصدق، قيلا و حديثا.

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله و القيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها كما قال تعالى: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان:٣٣]، يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته:

القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف و أسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

وقد نص على ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان. فمثلُ قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إلى قوله تعالى أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نَهى الله عنه ورتب عليه وعلى المتصف

=

=

به عقوبة وشرًا ونقصًا، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور، وكذلك مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج من ١٩ : ٢١]، عام لجنس الإنسان.

فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج:٢٢] إلى آخرها كما أن قوله: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر ١،٢] دال على أن كل إنسان عاقبته ومآله إلى الخسار {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [العصر:٣] وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شيئًا كثيرًا، وهي من أجل علوم القرآن بل هي المقصد الأول للقرآن.

فمثلًا يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد. فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يُشارِكُ اللهَ أحد في معنى من معاني الربوبية {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] لا بشر ولا مَلَك، بل هم جميعًا عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته، فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًا، ولا شريكا لله في عبادته وإلهيته، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم: خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياء وإماتة، وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه على عبادته بصفة ربوبيته، وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو الملك الكامل والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية، وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض

=

=

ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات، والجائزات.

والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون {و لا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥] وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته، لا مخلوق ولا مشروع، وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه، عزة القوة وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم، وأنه الرحمن الرحيم الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين. تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧] وأنه القدوس السلام، المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى، اعتبرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، يشمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوى جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المَخُوفات و المعاصي والمحرمات. والإثم: اسم جامع

=

لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية. كما أن العدوان: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي على الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدي على مجموع الأمة، وعلى الحكومات والتعدي على حدود الله.

و" المعروف " في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، وعكسه: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فقال: (فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد صالح من أهل السماء والأرض) [رواه البخاري]

وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًا.

القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم.

كقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦] فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي. فلا يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} [البقرة: ٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: {يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا} [الانفطار: ١٩]، يعم كل نفس، وأنها لا تملك شيئًا من الأشياء، لأي نفس أخرى، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧]، فكل ضر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه.

=

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: {مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٢] وقوله {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ} [النحل: ٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣]، وإذا دخلت [من] صارت نصًا في العموم كهذه الآية: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٧] وقوله {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]، ولها أمثلة كثيرة جدًا.

القاعدة الخامسة: المقرر: أن المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [النساء: ٢٣] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت إلى آخر المذكورات فكذلك قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى:١١] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية، وقوله: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:١٦٢] فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلًا وإحسانًا، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده، لا شريك له.

وقوله: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥] على أحد القولين: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبدًا.

وأَصْرَح من هذا قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [النحل:

=

=

١٢٣]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: [أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه] وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه، وكذلك قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣]، وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلًا وتركًا، اعتقادًا وانقيادًا، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال وكذلك قوله {وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الاسراء: ١] وكقوله {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة:٢٣] وقوله {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١] تدل على أنه وفَّى جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية، وقوله: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]

=

=

وقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠] يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده.

القرآن كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨]، ويدعوا العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة على خلق، ولا نفع، ولا دفع ضر، عن أنفسهم فضلا عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئا.

ويدعوهم أيضًا إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به، ويُثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلًا وفطرة، على جميع العبيد، وبذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلا.

=

=

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.

القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ.

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولنا محمد ﷺ أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله على ربه، أو أن يكون على الغيب ظنينًا.

وأعاد القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} [القصص: ٤٤] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال:

=

=

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف:١٠٢]

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول ﷺ بما أوحي إليه تفصيلًا، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسى وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن، فقص ذلك على ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك، أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًا.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته. وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي ﷺ على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه، كما في قوله تعالى

=

=

{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} الصف: ٦].

وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤٢] ويتحدى أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل، وهم أهل اللسان المُبَرِّزون في ميدان القول والفصاحة، ومع ذلك ما استطاعوا مع شدة حرصهم

ومحاولتِهم أن يأتوا بسورة منه وما استطاعوا ولا قدروا مع شدة حرصهم ومحاولتِهم أن يجدوا فيه نقصًا أو عيبًا ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التي ملكت أزمة قلوبهم، فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلًا إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علومًا وحكمًا، فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذي جمع الله فيه لرسوله وللمؤمنين به كل ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كل شئونهم. وأن هذا القرآن لأكبرُ أدلة رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

=

=

والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جدًا أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة، منها قوله: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت:٥١].

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده فكيف إذا اجتمعت على أنه رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحُنوِّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًا وإحسانًا إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد.

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة:١]. ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره العباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

=

=

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يُؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه و سننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية.

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو

=

=

الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة وهذا أحدها حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني أن يدعوهم بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بشكر هذه النعمة، بفعل كذا وترك كذا.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه، وتارة يدعوا المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وإن النعم تقتضي فهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين

=

=

من الثواب وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، وملاذا ومَعاذا، ومفزعا إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك.

وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥] {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين} [البقرة: ة ٣٥] {وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [لأعراف: ٢٠٥] {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

القاعدة العاشرة: في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم.

يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي منْ قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند.

وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

=

=

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة، ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ﷺ ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضا وعداوة.

ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلًا وضلالًا أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طريق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن

=

=

الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم.

وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.

القاعدة الحادية عشرة: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام.

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق،

وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنى [الرحمن الرحيم] فإنها تدل بلفظها على وصفه

=

=

بالرحمة، وسعة رحمته.

فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلا بد أن يكون عارفًا بهذا الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

=

=

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

ومن ذلك الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي بكل ما يرمى به، والركوب لكل ما يُركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخولَ مطابقة في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية و نحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته. وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماما، يقتضي سؤالهم اللهَ جميع ما تتم به الإمامة في الدين، من علوم و معارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئا سؤال له ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلى هذه و يبعِّد من هذه.

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل

=

=

فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب عليه السلام {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْأِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: ٨٨].

ومن ذلك قوله تعالى {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٤٧] {حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [لأنفال:٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي والقوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، وَوُجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام والفطر والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها.

وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الصوت إلى السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها، فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به.

وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئًا منه، فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلًا، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك، فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس فى هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإن

=

=

القرآن ولله الحمد لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إرشادات تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في غير هذا الموضع. والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية عشرة: الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض:

يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجُّون ويعتذرون ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون على ذلك، ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أُخْرِسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع، فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، والإثبات يوضح أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله فيهم، إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك أن في بعض الآيات أخبر أنه {لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، وفي بعضها: أنه يسألهم {مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} [الشعراء: ٩٢] و {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٦٥]، ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلى سؤالهم، مع كمال علم الله، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

=

=

والسؤال المُثْبَت: واقع على تقريرهم بأعمالهم وتوبيخهم وإظهارِ أن الله حكم فيها بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها: أثبت لهم ذلك، فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس؛ كقوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} [عبس:٣٤، ٣٥] إلى آخرها، والمنفي: هو الانتفاع بها، فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالى أنه {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئًا.

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها فى عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه، فتعين حمل المطلق على المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر فى آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله، لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس: ٩٦، ٩٧]، وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة.

=

=

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥] {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً} [محمد: ١٧].

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده وعلى عرشه، وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين ونحوهم، فعُلوُّه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، فهو على عرشه عَليٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم، ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء فى جميع نعوته، وما يتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوها، فهي معية أخص من المعية العامة، تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن مُوادَّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم.

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ

=

=

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨، ٩]

فالنهي واقع على التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يُخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم على خلق السماوات، ثم لما خلق الله السماوات بعد ذلك دحا الأرض، فأودع فيها مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد وببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيرًا أو شرًا، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على الجهاد باليد، والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدره، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التو حيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسبَّبات، والأمرَ بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحةَ مستوى

=

=

الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور بل يتكل على الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد، فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسرها، وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها. فإنه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه، ولهذا أمثلة يطول عدها.

القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة.

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيرًا ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين

=

=

أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان، وكيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغنى عن نفسها فضلًا عن عابديها شيئًا.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقًا لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثرًا من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها فى الإلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرع.

وينقض على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه وحقيقتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له. {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢]

وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد فى الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع

=

=

الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه.

القاعدة الرابعة عشرة: حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له.

وهذه قاعدة مفيدة جدًا، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا:

منها: أنه قال في عدة آيات {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١،١٥٢،١٥٣] فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين مُرْهفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي،

=

=

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام.

ولهذا كان قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]: يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من المفطرات والممنوعات، ومن كل الأحوال والصفات السيئة والخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى، وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢] أي المتقين لكل ما يُتقى من الكفر و الفسوق و العصيان، المؤدين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف:٢٠١] أي إن الذين كانت التقوى وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالًا لعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى، وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات، فإذا هم مبصرون من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم، فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ " المؤمنين " وبلفظ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٦٢] ونحوها، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد والأعمال والأحكام، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل

=

=

قوله: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ} الآية [البقرة ١٣٦]

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقًا، يدخل فيه كل صلاح كما يدخل في النهي كل فساد كذلك.

وكذلك قوله {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥] {وَأَحْسِنُوا} [البقرة: ١٩٥]، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى} [يونس: ٢٦] {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠]

يدخل في ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر:١] فحذف المتكاثَر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالى {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١،٢] أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقوله {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣] فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه، ليعم كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك أمره تعالى بالصبر، ومحبته للصابرين، وثناؤه عليهم، وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشئ ليشمل جميع ذلك المعنى.

=

=

ومن هذا قوله {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [البقرة: ١٩٦] ليشمل كل حصر، ومنه قوله {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا} [البقرة: ٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

القاعدة الخامسة عشرة: جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان.

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:

النصر قال في إنزال الملائكة به: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال: ١٠] وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الروم: ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس من ٦٢: ٦٤] وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد بهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العسرى؛ لأن الله يقول: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}. [الليل: ٥ – ٧]، و يقول: {وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}. [الطلاق: ٤]، فإذا رأيت الأمور متيسرة لك ومسهلة، وأن الله يقدر لك الخير حتى وإن كنت لا تحتسبه، فهذه لا شك أنها بشرى، وإذا رأيت الأمر بالعكس فصحح مسارك فإن فيك بلاءً، والنعم ما تكون استدراكا إلا لمن أقام على معصية الله، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ}.... [الأعراف: ١٨٢]،

=

أما إذا كانت من المؤمن فليست استدراجا.

ومن ذلك: بل من ألطف من ذلك أنه يجعل الشدائد مبشرة بالفرج، والعسر مؤذنًا باليسر، وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}. [البقرة: ٢١٤] {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤] رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. [الشرح:٥، ٦] وقال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا) وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة: حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [السجدة: ١٢] {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ} [سبأ: ٥١] {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [البقرة: ١٦٥] {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٣٠] {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ}

[الأنعام: ٢٧]. فحذْف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذِكْره، ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يعبَّر عنه بلفظ ولا يُدرك بالوصف، مثله قوله تعالى:

{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر:٥] أي لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.

القاعدة السابعة عشرة: بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له، وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه.

=

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة

منها: الإيمان، أُفرد وحده في آيات كثيرة، وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة.

فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره. وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح: كقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: ٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة. والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ " البر والتقوى " فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى. ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق والنجاة المطلقة كما يرتبه على الإيمان.

وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتم بها التقوى.

وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] كان

[البر] اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وكانت [التقوى] اسمًا جامعًا يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ [الإثم] و [العدوان] إذا قرنا، فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجرئ على الناس في دمائهم وأعراضهم. وإذا أفرد [الإثم]

=

=

دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد [العدوان].

وكذلك لفظ [العبادة والتوكل] ولفظ [العبادة والاستعانة] إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]

{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣] فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار مع الثقة التامة بالله في حصولها .

وكذلك [الفقير والمسكين] إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما كما في آية الصدقات وهي قوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: ٦٠] فسِّر الفقير بمن اشتدت حاجته وكان لا يجد شيئًا، أو من يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا، وفسر [المسكين] بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، ويشمل ذلك: القيامَ بالدين كله، فإذا قُرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} [العنكبوت: ٤٥] وقوله {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الأعراف: ١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيمًا لها وتأكيدًا لشأنها، وحثًا عليها، وإلا فهي داخلة في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة: إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها.

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك

=

=

حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره، وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء.

يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبون منها، ودفع كل ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحدًا غيره، كما في الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم) إلى آخره.

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار، كقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}

[الليل: الآيات من ٥: ١٠] فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن: {يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} [المائدة: ١٦]

{يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦] وقوله: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأعراف: ٣٠] فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسنًا، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد على الله، وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية

=

=

رب العالمين.

وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الصف: ٥] وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه:٨٢]

{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: من الآيات ١٥٦، ١٥٧] وقوله: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦] وقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣] ثم ذكر الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ} [البقرة: ٢١٨] {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٢٠٤] وأعم من ذلك كله قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران:١٣٢] فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عمومًا، وهذه الأسباب المذكورة خصوصًا.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى: {لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الشمس من ١٥: ١٨] وقوله: {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه:٤٨].

=

=

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل في مناكب الأرض مع لزوم التقوى كقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: من الآيات ٢،٣] وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: ٧] وكثرة الذكر والاستغفار: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣] {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [نوح: ١٠، ١١] فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة وقد عرفت طريقها فالزمه.

القاعدة التاسعة عشرة: الأسماء الحسنى في ختم الآيات.

يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم.

فتجد آية الرحمة مختومةً بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيرًا منها.

=

=

قال تعالى: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٩] فذكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤] فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:٣٢] فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات. وأما قوله عن آدم: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٧] وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين [التواب الرحيم] بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي

=

=

يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلى ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة: ١١٨] أي أقبل بقلوبهم عليه، فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بالسوء، إلا من رحم الله فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك. فقال {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: من الآيتين ١٠٦،١٠٧] وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه، فإنه تعالى يتصرف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حجر عليه في شيء من ذلك.

ولما قال: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ} [البقرة: ١١٥] قال: {إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥] أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبَلَة، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبَل المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطئوا القبلة المعينة، فحيث ولى المصلى منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧] فإنه توسل إلى الله بهذين

=

=

الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة معنى المستجيب. كما قال الخليل في الآية الأخرى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [ابراهيم: ٣٩].

وأما ختم قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} [البقرة: ١٢٩] بقوله {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩] فمعناه: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى عبثا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثه، كما حقق حكمته لئلا يكون للناس على الله حجة، والأمور كلها: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} [البقرة: ٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٠٩] أي: فإذا عرفتم عزته وهي قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته - وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها - أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصر على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤] لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها، بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٤] يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه، عرفتم أن من

=

=

تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: {نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨] أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعًا وقدرًا وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: {فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١١] فكونه عليمًا حكيمًا يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفِعْله، وفصَّله في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وَكَلَ العبادَ إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضى، وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقواها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو قادح في علم الله وفي حكمته.

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه.

ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب. وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠] أي: تعبَّدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [الحج:٥٩] والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأول منها: ختمها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم

=

=

عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختم الآية الثالثة بالسميع البصير يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير، لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معه جميع المخلوقات، ويبطل معها كل ما عبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن. كالظواهر، وبما تحتوى عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها، فإنه غني مطلق، ولا ليتكمَّل بها. فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميد في شرعه، حميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتا وصفات وأفعالًا.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول، فتختل مصالحهم. ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه،

=

=

وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: {وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ٦٨] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجى الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته. ويكون ذكر الرحمة دالًا على عِظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عليه السلام {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنهم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة:١١٨] ولم يقل: أنت الغفور الرحيم، لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، إنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة؛ مثل قوله: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ١٢٩] وقوله: {لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:٧٣] فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

=

=

القاعدة العشرون: القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث.

فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١] ومعنى ذلك أنه في غاية الإحكام ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولااختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} [الزمر: ٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق، وووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧] فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكمًا ويقولون: {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧] أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع، فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة؛ منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافًا لغير سبب وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد ويتصف بها مثل قوله في سورة المائدة: {يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

=

=

سُبُلَ السَّلام} [المائدة: ١٦] وأن إضلاله لعبده له أسباب من العبد، وهو توليه للشيطان، قال في سورة الأعراف: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الله} [الأعراف: ٣٠] وفي سورة الصف: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥].

وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، فظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجْمِلَ في بعض الآيات فسرته آيات أخر، وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر، وما كان معروفًا بين الناس وورد فيه القرآن أمرًا أو ناهيًا، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله فليس مجملًا، لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه والله أعلم.

القاعدة الحادية والعشرون: القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد.

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع، فإن الله أمر عباده بالمعروف، وهو ما

=

=

عرف حسنه شرعًا وعقلًا وعرفًا، ونهاهم عن المنكر، وهو ماظهر قبحه شرعا وعقلا وعرفا.

وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، فإنه أمر به: كلٌ في وقت. والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة. وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر ونحوها ثبتت أحكامه في كل زمان ومكان لا يتغير ولا يختلف حكمه.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمة والأحوال، فهو المراد ههنا.

فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعًا خاصًا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحسانًا.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف وكذلك قوله تعالى في سورة النساء

{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ١٩] وفي سورة البقرة {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨]، فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل

=

=

منهما على الآخر على المعروف المتعارف عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك. وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عدًا.

فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى في سورة الأعراف {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} [الأعراف: ٣١] {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا} [الأعراف: ٢٦] فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلى ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك.

فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى في سورة النساء: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} [النساء: ٢٩] لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات.

وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القرآن.

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال

=

=

المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين. وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه.

فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وإن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض، فمنها: أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير. كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علمًا وتعليمًا بحسب حالها. كالأراضي بحسب حالها. ومنها أراض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين وهؤلاء على خير ولكنهم دون أولئك.

ومنها: أراض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في الظهور. وأما مناسبة تشبيهه الوحي بالغيث لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية، والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقا وإيمانا وإرادة لموجبها، وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية،

=

=

والأعمال الصالحة والهدْي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به. وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهًا يتعزز به، ويزعم أنه سينال منه النفع، ودفع الضرر كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلى ضعفها. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا ونصيرًا من دون الله إلا ضعفًا، لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه. وتعلقه بالمخلوق زاده وهنًا إلى وهنه، فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله، وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله وتوحيده وتعلقه بالله وحده، الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو المتصرف في أحواله كلها، كالعبد الذي استقام على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة تحررعن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مُسْتَرَق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومثله أيضًا كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم!! فكيف بفرد من مئات الألوف منهم!! وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئًا لا يقدروا على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شئ؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف متقسِّم قلبه بين عدة آلهة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر. فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم. فلو

=

=

استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحد فإنه خالص لربه، ولا يعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه، وقد اطمأن قلبه واستراح، وعلم أن الدين هو الحق وأن عاقبته أحمد العواقب، ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضَحَى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرةً فإنها كافيةٌ له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضُه أطيب الأراضي وأزكاها. فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطيب الظلال ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه، فإن كان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف من العمل، وعنده عائلة ضعاف لا مساعدة منهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته، ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفه عن آخرهم. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة. فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيا أصبح تالفا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها. فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله على الإيمان، والعمل الصالح. و بستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده، ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلًا.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع، فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة. وقد جمع

=

=

العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عملُه كل زوج بهيج.

وقد مثّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء، فيأتيه وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، فيجده سرابًا.

ومثّله برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية. وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة، وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو كان يعتقده نافعا له، فإذا وصله ولم يجده شيئا تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي.

ومثّل نفقات المرائين بحجر أمْلسَ عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاس كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وسمعة لم تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاةً. كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئًا.

وهذه الأمثال إذا طبقت على مُمَثَّلاتها وضَّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير والشر والكمال والنقصان.

ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة، فاستوقد نارًا من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله، وتبين له الطريق، ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظمَ من الظلمة التي كان عليها أولًا. وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي في ظلمة متحيرًا. فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى، واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية، لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

=

وهـذا المثـل ينطبـق علـى المنـافقين الـذين تبـصروا وعرفـوا، ثـم غلبـت علـيهم الأعراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩] ينطبق على المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولـم يعرفوا المراد منه، لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعًا لرؤسائهم وسادتهم.

ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها، ولا يؤَمِّنون زوالها، فَلَهَوا بها عما خلقوا له، فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيمًا، وبعد الحياة يبسًا رميمًا.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل.

القاعدة الثالثة والعشرون: إرشادات القرآن على نوعين:

أحدهما: أن يرشد أمرًا ونهيًا وخبرًا إلى أمر معروف شرعًا أو معروف عرفًا كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخلة فيها

وأما النوع الثاني: وهو المقصود هنا، فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها.

=

وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: ١٣] فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به.

وهذا النوع قد أكثر منه أهل العلم. وكلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب.

وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها ونستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وسلطنا على استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية. فذلل لنا أرضها لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا لنستخرج منها الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها لاسيما في هذه الأوقات كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عُرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حد له. وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب. وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة

=

=

شرعًا، كما هي مطلوبة لازمة عقلًا، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

فإن الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق إلى تحصيلها، وهي معروفة بالتجارب.

وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل على سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده بأن أباح لهم جميع النعم، ويسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتًا بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر بها العباد كل ما ينفعهم فيسلكونه وما يضرهم فيتركونه، وأنه هداية لجميع المصالح.

القاعدة الرابعة والعشرون: التوسط والاعتدال وذم الغلو.

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال وذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور.

قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] وقال: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر بالاعتدال وهو الإيمان

=

=

بهم، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء. كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أوعدم اتباعهم. وذمَّ الغالين فيهم كالنصارى ونحوهم في عيسى، كما ذمَّ الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا، وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض، وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك يتعلق هذا الأمر في حق العلماء والأولياء فتجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم، وإعطاؤهم شيئًا من حق الله، وحق رسوله الخالص، ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله وليًا فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات، ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع والتسخط، كما نهى عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم والإحسان إليهم قولا وفعلًا، وذمَّ من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولًا وفعلًا، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس، ونهى عن السرف والترف، كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

=

=

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط.

القاعدة الخامسة والعشرون: حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها.

قال تعالى: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ} [التوبة: ١١٢] وقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩] وقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا الفعل وهذا الترك على معرفة الحدود على وجهها، ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها على ذلك الوجه كاملة غير ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وأثنى على من عرف ذلك.

وحيث قال الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩] كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع. فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها. كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح والطلاق والعدة وتوابع ذلك، ونهى عن تعدي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعًا.

وكما أمر بالمحافظة على ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده. ونهى عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧] كان المراد بذلك: المحرمات. فإن قوله: {فَلا تَقْرَبُوهَا} نهي عن فعلها، ونهي عن مقدماتها

=

=

وعن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها.

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم، وبين لهم وقت الصيام فقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا}. وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئًا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، قال: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} وكما بين المحرمات في قوله: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى} [الإسراء: ٣٢] {وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٣٤]

فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله، أوترك المحافظة عليها أو الجمع بين الشرين. والله أعلم.

القاعدة السادسة والعشرون: الأحكام في الآيات المقيدة.

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة. وهذه قاعدة لطيفة. فإن الله متى رتب في كتابه حكمًا على شيء، وقيده بقيد، أو شرط لذلك

شرطًا، تعلق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالى.

وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين - إذا تكلموا عليها -: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة، وقد تظهر للمخاطب وقد تخفى. وإنما مرادهم بقولهم [غير مراد] ثبوت الحكم لها.

فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده، وليظهر لهم حسنها، إن كانت مأمورًا بها، أو قبحها إن كانت منهيًا عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عيانًا.

=

=

فمنها قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [المؤمنون: ١١٧] ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهًا آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقًا. وإنما قيدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك ليس له دليل شرعي، ولا عقلي قطعًا، والمشرك ليس بيده ما يُسوِّغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستجيزه من له أدنى إيمان ولا معقول.

ومنها قوله تعالى: {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: ٢٣] مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطًا لتحريمها، فإنها تحرم مطلقًا. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجليةً بثياب قبحها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة. فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا، سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [الإسراء: ٣١] و: {مِنْ إِمْلاقٍ} [الأنعام: ١٥١] مع أن المعلوم النهي على قتل الأولاد على أي حال. فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله: كونه قتل بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقةٍ لا نظير لها، وكون ذلك صادرًا عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله. فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرمًا وتسخطًا بقدر الله، فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت

=

=

فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضًا فإنه إذا كان منهيًا عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

وأيضًا ففي هذا: بيان للحالة الموجودة غالبًا عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة في الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا} [البقرة: ٢٢٨] فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع، وإنه يستحق ردها سواء أراد الإصلاح أم لم يرده، فيكون ذكر هذا القيد حثًا على لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح، وتحريمًا لردها على وجه المضارة، وإن كان يملك ردها، كقوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [البقرة: ٢٣١].

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح. فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها، وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ} [البقرة: ٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضرًا وسفرًا. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض، وأن قبضه ليس شرطًا لصحته، وإنما ذلك للاحتياط وزيادة الاستيثاق، وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} [البقرة: ٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل

=

=

والمرأتين ومع وجود الرجلين، ولكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم.

وأما قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى:٩] فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرى أو لم تنفع. ولكن قصر الآية على هذا غلط، فنفع الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه من شر أو ضرر. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} [النحل: ١٢٥] فعُلم أن هذا قيد مراد ويرتبط الحكم به ثبوتًا وانتفاء والله أعلم.

ومنها قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [البقرة: ٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١٥١] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، [والحق] الذي قيّدها الله به جاء مفسَّرًا في قوله ﷺ: (النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق لجماعة). [رواه البخاري [٦٨٧٨] ومسلم [١٦٧٦]]

ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ

=

=

لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا} [النساء: ٤٣] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضرًا وسفرًا، ولكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، أما الحضر فإنه يندر فيه عدم وجود الماء جدًا.

ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم وإن كان الماء موجودًا، وهذا في غاية الضعف، وهدي الرسول وأصحابه مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء: ١٠١] مع أن الخوف ليس شرطًا لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق. ولما سئل النبي ﷺ عن هذا أجاب (صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته) ويعني وصدقة الله وإحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

القاعدة السابعة والعشرون: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها.

وهذه القاعدة جليلة النفع، وعظيمة الوقع.

=

=

وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حكمًا من الأحكام أو خبرًا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر، إلا وجدت الله قرَن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه. وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته. وذلك في القرآن كثير جدًا.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة، وتحسن للداخل الدخول إليها.

فمن ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} [النمل: ٩١] لمَّا خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: {وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} [النمل: ٩١].

ومنها قوله تعالى: {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ} [هود: ١٠٩] لمَّا كان قد يقع في الذهن أنهم على حجة وبرهان فأبان بقوله: {مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ} [هود: ١٠٩] أنهم ضُلَّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلى يقين من مذهبهم، وربما يتوهم أيضًا أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَأنهم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [هود: ١٠٩، ١١٠]

ولما قال تعالى: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كان القاعدون معذورين. أزال هذا الوهم بقوله: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [النساء: ٩٥].

وكذلك لما قال: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا} [الحديد: ١٠] ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة، فأزال هذا الوهم بقوله: {وَكُلًّا وَعَدَ

=

=

اللهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠] ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحق بمجرد هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠].

ومنها: قوله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [النمل: ٤٨] ربما وقع في الذهن أنهم يفسدون وقد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: {وَلا يُصْلِحُونَ} [النمل: ٤٨] أي: لا خير فيهم أصلًا مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع {وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ} فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة. فأزال هذا الاحتمال بقوله: {إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} [النمل: ٨٠] فهذه الحالة لا تقبل سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.

ومنها قوله: {وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافًا من غير سبب. فأزال هذا بقوله: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦] أي: بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان حسن الفهم رأى من هذا النوع شيئًا كثيرًا.

القاعدة الثامنة والعشرون: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن.

لما كان الإيمان أصل كل الخير كله والفلاح، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًا: أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيانًا لأوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيويه بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمما لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا في شيءٍ منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد

=

=

بذلك المؤمن حقًا الجامع لمعاني الإيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول:

وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه، وبترك جميع المعاصي، وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها، وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما أتت به الرسل كلهم ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، ووصفهم بأنهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٢،٣،٤].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر، وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون، ولأماناتهم وعهدهم مُراعون.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين،

=

=

وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرؤن من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم.

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات وترك المنهيات، والوقوف الحدود الشرعية.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب، واستحق الثواب، ونال كل خير رُتِّب على الإيمان.

فإن الله رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعثر أحوالهم، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره العبدَ لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عين للمؤمن، والصبر عند المحن والمصائب.

وحمْل الله عنهم الأثقالَ، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة

=

=

لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أوتخفيفها.

وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان، كما أن الشرور مرتبة على فقده، والله أعلم.

القاعـدة التاسـعة والعـشرون: في الفوائـد التـي يجتنيهـا العبـد في معرفتـه وفهمـه لأجناس علوم القرآن.

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظـم في علـم التفسير وذلـك أن القـرآن مـشتمل علـى علـوم متنوعـة، وأصـناف جليلـة مـن العلـوم. فعلـى العبـد أن يعـرف المقصود من كل نوع منها، ويعمل على هذا، ويتتبع الآيات الـواردة فيـه، فيحصِّل المراد منها: علمًا وتصديقًا وحالًا وعملًا

فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله مـن صـفات الكمـال، فـإذا مرت عليه الآيـات في توحيـد الله وأسـمائه وصـفاته أقبـل عليهـا، فـإذا فهمهـا وفهـم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد، وعَرَفَ أنه كما ليس لله مثيل في ذاته فليس له مثيل في صفاته، وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمـه بكمـال الله وعظمته. فإن القلوبَ مجبولـةٌ علـى محبـة الكمـال، فكيـف بمـن لـه كـل الكمـال؟ ومنه جميع النعم الجِزَال. ويعـرف أن أصـل الأصـول هـو الإيمـان بـالله، وأن هـذا الأصـل يقـوى ويكمـل بحسب معرفـة العبـد لربـه، وفهمـه لمعـاني صـفاته ونعوتـه وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلـم وأصل التعبد.

ومن علـوم القـرآن: صـفات الرسـل وأحـوالهم، ومـا جـرى لهـم وعلـيهم، مـع مـن وافقهم ومن خالفهم. وما هـم عليـه مـن الأوصـاف الوافيـة. فـإذا مـرت عليـه هـذه الآيات عرف بها أوصافهم وازدادت معرفته ومحبته لهم، وعرف مـا هـم عليـه مـن

=

=

الأخلاق والأعمال خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ . فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الكفاية.

ويستفيد أيضًا الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ولطفَ جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سمرًا!! وإنما القصد أن تكون عبرًا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير وأهل الشقاوة والشر. وفي معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب والاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار، والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم، ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم، ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان، كما أن بغض أولئك من الإيمان. وكلما كان العبد أعرف بأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر، فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف على معرفة ما يكون فيه، والترغيب والترهيب والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجزيل، والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلى معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه، وبالعمل بذلك والعلم سابق

=

=

للعمل، وطريق ذلك: إذا مر على القارئ نص فيه أمر بشيء عرفه وفَهِم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائمًا به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مطالب به وملزم به. فليستعن بالله على فعله، وليجاهد نفسه على ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك الذي نهى الله عنه، ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على توفيقه، ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات؛ وليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة الله، ليكونَ تركه عبادةً، كما كان فعله للطاعة عبادة، وإن كان غير تارك له فليتبْ إلى الله منه توبة نصوحا جازمة وليبادر، ولا تمنعه الشهوات الدنية ما تدعوه إليه النفس الأمارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملًا على هذه الطريقة فإنه ماش على الصراط المستقيم والطريقة المثلى فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله وحصل له بذلك علم غزير وخير كثير.

القاعدة الثلاثون: أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار.

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى.

وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيِّف عن ثمانين اسما كُررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب

فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، ومحيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة

=

=

وقوة عظيمة ويقدر على كل شيء، ورحيم، وذو رحمة عظيمة ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة

فالاسم دل على الوصف، وذلك دل على المتعلق. فمن نفى واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج ليعرف أن الأسماء كلها على هذا النمط.

القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة.

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات: برها وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين، حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالإيمان الكامل، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة، وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أُطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول، مثل قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦٤] ونحو ذلك.

وحيث قُيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالبًا فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فملاحظة هذا المعنى نافعة

أعظم النفع للعبد.

=

=

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم:٩٣] فكلهم مماليكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء. ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] ثم ذكر صفاتهم الجليلة. وكقوله: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] وفي قراءة {عبدِهِ} وقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١] وقوله {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا}. [البقرة: ٢٣] فالمراد بهذا النوع من قاموا بعبودية الله، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولى: يدخل فيها البر والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

القاعدة الثانية والثلاثون: الأمر بالشيء نهي عن ضده.

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال.

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهيًا عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق والقطيعة والظلم والإساءة، وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة... إلى آخر المذكورات. كان آمرًا بالتوحيد وفعل الصلاة إلى آخرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال القلب على الله إنابة ومحبة وخوفًا ورجاء،

=

=

كان ناهيًا عن الجزع والسخط وكفران النعم وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره. وحيث نهى عن الجزع وكفران النعم وغفلة القلب، كان آمرًا بالصبر إلى آخر المذكورات.

وهذا ضربُ مثلٍ، وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط، وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات، فحيث أثنى على نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب: كالنوم والسِّنة واللُّغوب والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلًا وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة، فَلتَضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتى ينفي تكميلًا للكمال.

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الأحكام، والانتظام التام والصدق الكامل، إلى غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفى عن رسوله ﷺ الكذب، والتقول على الله، واتباع الهوى والجنون والسحر والشعر ونحوها، كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيرًا كثيرًا. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والثلاثون: المرض في القرآن مرض القلوب نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات.

والطريق إلى تميز هذا من هذا مع كثرة ورودهما في القرآن يُدرك من السياق.

=

=

فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان مرضَ الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرضَ الشهوات. ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن كان علمه شكًا وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا وكان مرض قلبه قوة وضعفًا بحسب هذه الشكوك والشبهات. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافا في إرادته ومرضًا.

وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفًا في علمه وفي إرادته.

فمن النوع الأول: قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة: ١٠] وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ {فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠] عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة براءة: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥].

وكذلك قوله تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} [الحج: ٥٣] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به.

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة الأحزاب: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [الأحزاب: ٣٢] أي: مرض شهوة وإرادة للفجور،

=

أقل شيء من أسباب الافتنان يوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا. فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات: {وَلكنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً} [الحجرات: من الآيتين ٧، ٨].

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات على ذلك، والزيادة من فضل الله ورحمته.

القاعدة الرابعة والثلاثون: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلى بالاشتغال بما يضره، وحُرِم الأمرَ الأول.

وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضىً بطريق الغي على طريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى

=

يَـوْمِ يَلْقَوْنَـهُ بِمَـا أَخْلَفُـوا اللهَ مَـا وَعَـدُوهُ وَبِمَـا كَـانُوا يَكَـذِبُونَ} [التوبـة: الآيـات ٧٥،٧٦،٧٧] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثم تركها بعد أن عرفها، ونكص عنها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى.

فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادرًا في طريق غوايته ممعنًا في سبيل ضلالته.

جزاء على فعله، كقوله في اليهود في سورة البقرة: {نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنهم لا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: من الآيتان: ١٠١، ١٠٢] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح شئونهم وإسعادهم، ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

القاعدة الخامسة والثلاثون: تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين.

في القرآن عدة آيات في الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته، وهذه قاعدة جليلة. نبه الله عليها في آيات كثيرة.

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال وتقديم الأعلى منها كقوله في سورة الحديد: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠] وقوله في سورة التوبة: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ١٩] وكقوله في سورة النساء: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [النساء: ٩٥].

=

=

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧] بين تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتال في الشهر الحرام وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله، وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبرُ من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: {وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ} [الفتح: ٢٥] فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضي من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل، ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها الضرر على المسلمين. ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضررًا من الصبر والإخلاد إلى السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} [الأعلى:٩] يعني فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جدًا.

=

=

ومن النوع الثالث: قوله تعالى في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَر} [البقرة: ٢١٩].

وهذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضي المنع منه وتحريمه على عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعًا فإنه هو المعقول بين الناس المفطورون على استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، والله أعلم.

القاعدة السادسة والثلاثون: مقابلة المعتدي بمثل عدوانه.

طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان.

وهذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في سورة النحل: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل:١٢٦] وقوله في سورة الشورى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى:٤٠] فذكر المراتب الثلاثة

ولما كان القتال في المسجد الحرام محرمًا قال تعالى في سورة البقرة: {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ} [البقرة: ١٩١: ١٩٤] وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه.

فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدى به لا أكثر. وقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ} [البقرة: ١٩٤] وقوله في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة:١٧٨] وقوله في سورة المائدة:

=

=

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥] وقوله في سورة الإسراء: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: ٣٣] وقوله في سورة النساء: {لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السابعة والثلاثون: اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام.

اعتبر الله القصد والإرادة في ترتيب الأحكام على أعمال العباد، وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ﷺ في قوله: (إنما الأعمال بالنيات) متفق عليه.

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جدًا في هذا الأصل فمنها وهو أعظمها أنه رتب حصول الآجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، قال في سورة النساء: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] وقال في سورة البقرة: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ} [البقرة: ٢٦٥] وفي مقابله قال: {رِئَاءَ النَّاسِ} [البقرة: ٢٦٤].

ووصف الله نبيه وخيار خلقه الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانا. وقال في الرجعة في سورة البقرة: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا} [البقرة: ٢٢٨] وقال في سورة البقرة: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} [البقرة: ٢٢٥].

وقال في سورة النساء: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ} [النساء: ١٢] وقال في سورة النساء: {فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤] وفي سورة البقرة: {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ١٨٨] وفي سورة البقرة:

=

=

{وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: ٢٢٠] وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة: {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦] فقال الله [قد فعلت] وقال في سورة الأحزاب: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} [الأحزاب: ٥]

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال في سورة النساء: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣] وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة: {وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ الآية} [المائدة: ٩٥] وقال في سورة البقرة: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: ٢٣٥]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، وصحتها وفسادها، ورتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.

القاعدة الثامنة والثلاثون: قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا.

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها، أمر الله بتمتعها على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف.

وكذلك من مات زوجها عنها، فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغّب فيها.

وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجعية، أو كانت حاملًا مطلقة.

وقال تعالى في سورة النساء: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}، [النساء: ٨]، ويدخل الواجب

=

=

والمستحب في مثل قوله في سورة الأنعام: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، [الأنعام: من الآية ١٤١]،.

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالى في سورة الإسراء: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}، [الإسراء: من الآية ٢٣، ٢٤]، إلى قوله: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}، [الإسراء: من الآية ٢٦]،.

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات. وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات.

فهذا أصل قد اعتبره الله، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه.

القاعدة التاسعة والثلاثون: في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية.

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاس، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى في سورة آل عمران:

{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}، [آل عمران: من الآية ١٥٩]، وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، [الشورى: من الآية ٣٨]، فالأمر مفرد ومضاف إلى المؤمنين، وفي الآية الأولى: قد دخلت عليه: [ال]، المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم واستجلاب مصالحهم واستدفاع مضارهم، معلقٌ بالشورى والتعاون على الاهتداء إلى الأمر الذي

=

=

يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى. فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بأعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرة، نظروا: أيها أقوى وأولى وأحسن عاقبة، وإذا رأوا أمرًا من الأمور هو المصلحة ولكن ليست أسبابه عتيدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي شيء تدرك الأسباب وبأي حالة تنال على وجه لا يضر.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم الملقي إلى التهلكة، وإذا عرفوا وقد عرفوا أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته فيقدمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام، وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشدهم إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة. ومن ذلك قوله في سورة الأنفال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}، [الأنفال: من الآية ٦٠]، فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصر أفراده، وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه ومن ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

=

=

آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}، [النساء: من الآية ٧١]، ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه، ومن عجيب ما نبه إليه القرآن من النظام الوحيد، أن الله عاتب المؤمنين بقوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، [آل عمران: الآية ١٤٤]، فأرشد عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طريقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عظم.

وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة أناس، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها. قصدهم جميعًا أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، [التغابن: الآية ١٦]، أي: اتقوا غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين، فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة، فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة. فلا يكلفهم الله ما لايطيقون. وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلة في تقوى الله تعالى، وذلك بأسبابها، لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

كذلك كل ما نهاهم عنه، فإنه أعطاهم من القوى والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه ومن الحلال ما يستغنون به. ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، [النساء: ٥٨]، والآية

=

=

التي بعدها.

فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجَلِّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى الأمانات إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكْفاء لها، وكل ولاية لها أكْفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}، [القصص: ٢٦]،.

فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده.

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السموات والأرض إلا به، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه معرفة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكْفاء للأعمال فَجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد، متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصَلَحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، [النساء:٥٩]، فهل يوجد أكمل وأغنى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟.

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود على الجرائم، العقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد،

=

=

وتطهير المجتمع من فسادهم، وتنقيته من جرائمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق، والدعوة إلى الصالح للأمة، وفي الأمور التي لا محظور فيها، كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية الزائفة الكاذبة الباطلة التي يتشدق بها الحمقى والسفهاء الذي عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة. إن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ.

وأما إطلاق عِنان الجهل والظلم والأقوال الضارة المحللة للأخلاق، فإن من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة.

فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح ودفعًا للمضار والمفاسد، والله أعلم.

القاعدة الأربعون: في دلالة القرآن على أصول الطب.

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية من الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد.

وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا}، [لأعراف: من الآية ٣١]، فأمر الله بالأكل والشرب اللذي

=

=

لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال. ونهى عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما بالتخليط في المطعوم والأوقات، وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر منع منه، فكيف بغيره؟.

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟.

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع، والتحرز عنه وبمعالجة الحادث بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلى الخلق فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا الله وقربه وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحًا للقلب وأسرارًا خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.

القاعدة الحادية والأربعون: قصر النظر على الحالة الحاضرة.

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من

=

=

المصالح، ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها.

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقى العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا اشتغل بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإن قصر فِكره وظاهره وباطنه عليه نجح، ويتم له الأمر بحسب حاله.

وإن نظر وتشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعدُ فترت عزيمته، وانحلت همته وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفًا على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط ويتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني.

ومن هذا: قوله تعالى مصرحًا بهذا المعنى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}، [النساء: من الآية ٧٧]،.

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما جاء العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف.

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، [آل عمران: ١٤٣]، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ

=

=
تَثْبِيتًا}، [النساء: ٦٦]، لأن فيه تكميلًا للعمل الأول، وتثبيتًا من الله، وتمرنًا على العمل الثاني.
ونظيره قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ {٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم}، [التوبة: ٧٥/ ٧٧]، فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معينًا على الثاني، وهذا المعنى في القرآن كثير.
وأما الأمور المتأخرة فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمرتها الذميمة.
فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه، وتامل ما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه، وقوي عليه وهانت عليه مشقته، كما قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ}، [النساء: ١٠٤]،.

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد مِنَ الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله تعالى عليها، ففي القرآن منه كثير، يُذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم، كقوله في سورة آل عمران: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}، [آل عمران: ١٦٤]، وفي قوله في سورة آل عمران: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
=

=

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، [آل عمران: ١٠٣]، أي إلى الزيادة لشكر نعم الله.

وقوله في سورة الأنفال: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، [لأنفال: ٢٦]،.

وقوله في سورة القصص: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة...}،

[القصص: ٧٢]، إلى آخر الآيات، حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، حيث قال: " انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم " وقوله تعالى: {فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، [الأعراف: من الآية ٦٩]، وقوله: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى

{٦} وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى {٧} وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}، [الضحى: ٦/ ٨]، إلى آخرها.

القاعدة الثانية والأربعون: الحقوق لله ولرسوله.

قد ميز الله في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص والحق المشترك.

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة:

حق لله وحده، لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات.

وحق خاص لرسوله ﷺ: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه

=

=

والاقتداء به.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله ومحبة الله ومحبة رسوله.

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن، فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيء لا يحصى.

وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح: {لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ}، فهذا مشترك {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، فهذا خاص بالرسول {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، [الفتح: ٩]، فهذا حق لله وحده.

وقوله: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، في آيات كثيرة.

وكذلك: {آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ}.

وكذلك قوله في سورة التوبة: {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوه} [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى:

{سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ}، فهذا مشترك {إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: ٥٩]، وهذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة والإيمان والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع رغبة ورهبة.

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله، وطاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم، فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالًا لأمر الله، وعبودية له.

وإنما قيل له حق الرسول، لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب

=

=

والجيران والعلماء والولاة والأمراء، والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالى، فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبدًا له، وقيامًا بحق ذي الحق، وإحسانًا إليه، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليمًا.

القاعدة الثالثة والأربعونُ: الأمر بالتثبت.

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها.

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة:

قال تعالى في القسم الأول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا}، [النساء: ٩٤]، وفي قراءة: {فتثبتوا}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ}، [الحجرات: ٦].

وقد عاب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، فقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}، [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ}، [يونس: ٣٩]، ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: كقوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْض}، [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، [البقرة: ١٤٨]، وقوله: {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}، [المؤمنون: ٦١]، وقوله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، [الواقعة: ١٠]، أيْ: السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات

=

=

في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه، هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات.

ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون؟.

القاعدة الرابعة والأربعون: علاج ميل النفوس إلى ما لا ينبغي.

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما حصل لها من الضرر بهذا الميل.

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافًا مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ}، [الأنفال: ٢٨]، فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها {وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، [الأنفال: ٢٨]،.

وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}، [النساء: ١٠٩]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}، [الشورى: ٢٠]، وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ {٢٠٥} ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ {٢٠٦} مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}، [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]،.

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جدًا. فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل

=

=

عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر، والله أعلم.

القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح.

وهذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن يكاد يكون كله داخلًا تحتها فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله مقصودًا بها غايتها الحميدة، التي قصد الله إليها. فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنى على الصالحين، لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس والتصالح فيما بين المتنازعين، وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}، [هود: من الآية ٨٨]، فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية، فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل، ويسلك كل طريق توصل إلى الملائمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى إن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة أن

=

=

يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، والمتعدية والقاصرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة والأربعون: ما أمر الله به في كتابه، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمر به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه.

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها.

فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا} [النساء: من الآية ٤٧]، من القسم الأول.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا} [البقرة: من الآية ١٠٤]، من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها.

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أن الله قد هداهم للإسلام!!.

جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك

=

=

من أبواب العلم كنوزًا، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

القاعدة السابعة والأربعون: السياق الخاص يراد به العام إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام.

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة:

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنى منهم التائبين، فقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ} [النساء: من الآية ١٥٠]، إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: ١٥١]،.

لم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: {قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا} [الأنعام: من الآية ٦٤]، أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها {وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ} [الأنعام: من الآية ٦٤]،.

القاعدة الثامنة والأربعون: متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات

=

=

والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال.

وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا؛ ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء، لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال، وعلى هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [المائدة: من الآية ٩٤]، وقوله: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة: من الآية ١٤٣]، وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: من الآية ٢٥]، وقوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت:١١]، وقوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف: ١٢]،.

وما أشبه هذه الآيات كلها على هذا الأصل.

القاعدة التاسعة والأربعون: إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه وأسهل وأولى.

وهذا من لطفه، قال تعالى: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: من الآية ٣٢]، فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان الحال.

ولما سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، وبلسان المقال سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٤٤]، وقوله

=

=

تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: من الآية ١٠٦]، وقوله تعالى: {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ} [النساء: من الآية ١٣٠]، وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها.

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلى صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث: (ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر)، وأما ما آتى الله محمدًا ﷺ من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها وقوتها ووضوحها ولله الحمد فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ.

فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقًا، وإن لم تأت بذلك فإننا لا نصدقك، فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف، ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طالبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعدما عرفوا الحق ورفضوه.

وأيضًا فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا

=

=

قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا، كقولهم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} [الإسراء: ٩٠]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا} [الأنعام: من الآية ١١١]،، إلى آخرها.

وأيضًا إن اقتراحهم هذا ينادي صريحًا بأنهم ينسبون إلى الله العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولًا لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة على صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوى خصمه.

وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله.

وهذا أعظم كفرًا وإجرامًا وأشد من شركهم وفسوقهم، وما كان يتولى كبره منهم إلا السادة الرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء، ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلى قوله، ولذلك يدمغهم الله بمَيْسَم الخزي عقب كل تحدٍ واقتراحٍ لآية، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به.

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي} [الإسراء: من الآية ٩٣]، ثم يقول: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا} [الإسراء: من الآية ٩٧].

ويقول في سورة العنكبوت: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ

=

=

عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، [العنكبوت: ٤٧ - ٥٢]،.

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي لو فرض الإتيان بها شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا، فهو متجرئ على الله، متوثب على حرمات الله وأحكامه، فكذلك براهينُ أحكامه لا يتولاها إلا هو، فمن اقترح شيئًا عنده فقد ادعى مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ} [الأنعام: من الآية ٩٣]،.

القاعدة الحادية والخمسون: كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

ويدل على عموم ذلك: قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: من الآية ٦٠]،

أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، [غافر: من الآية ٦٠]، فسمى ذلك عبادة، وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من

=

=

ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا قبل أن يجيبك لسانه -: بأن قصدي من ذلك رضى ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه، ولهذا كانت النية شرطًا لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} [غافر: من الآية ١٤]، فوضع كلمة: {الدِّين}، موضع كلمة {العبادة}، وهو في القرآن كثير جدًا: يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة.

ومعنى الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحيانًا بدعاء الطلب، كقوله: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠]، وأما قوله:

{وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا..} [يونس: من الآية ١٢]، الآية، فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًا بلسانه، سائلًا دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال يكون راجيًا طامعًا، منقطعًا عن غير الله، عالمًا أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [لأعراف: من الآية ٥٥]، يدخل فيه الأمران، فكما أن من كمال دعاء الطلب، كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكتمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا

=

=
رَغَبًا وَرَهَبًا}،
[الأنبياء: من الآية ٩٠]، فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا، ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.
وقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّه} [المؤمنون: من الآية ١١٧]، {فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَدًا} [الجن: من الآية ١٨]، {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [القصص: من الآية ٨٨]، يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.
فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك وكافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك وكافر.
ومثله: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}،
[يونس: ١٠٦]، كل هذا يدخل فيه الأمران.
وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [لأعراف: من الآية ١٨٠]، يشتمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.
أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم. ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق، وهكذا.
وأما دعاء العبادة: فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولًا معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتى يمتلئ قلبه منه.
فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى.
والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل الله
=

=

ورجاءً لرَوْحِه ورحمته.

والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًا وتألهًا وإنابة لله تعالى.

والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الجوادين.

القاعدة الثانية والخمسون: إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل.

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح.

فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحدًا واضحًا، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارِضُ هنا لا يُلتفت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات.

قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: من الآية ٢٥٦]،. يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون

=

=

على أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟.

ونظير هذا قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: من الآية ٢٩]، أيْ هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيَّته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

كقوله: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [لأنفال: من الآية ٤٢]، وقال تعالى:

{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}، [آل عمران: من الآية ١٥٩]، أيْ: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} [آل عمران: من الآية ١٥٩]،.

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف، في قوله: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} [لأنفال: من الآية ٦]، أيْ فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعًا وعقلًا.

وقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: من الآية ١١٩]، فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وَبَّخَ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال:

{فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ {٢١} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢١]،.

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بيانًا وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال

=

=

تعالى:

{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: من الآية ٦]،.

ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} [لنجم: ٥٥]،

{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٣]، وقال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ} [يونس: من الآية ٣٢]،. وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جدًا.

القاعدة الثالثة والخمسون: من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا.

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته ونفحة عظيمة من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦]، فبين تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها على العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، لكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادة التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها، قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا

=

=

يَرْجُونَ} [النساء: من الآية ١٠٤]، وقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، [البقرة: ١٥٥/ ١٥٦]، وقال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: من الآية ١٠].

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر، قال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَام إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب}، [الأنفال: ١١ - ١٢].

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة، مزيلة محصلة لثمراتها.

وقال تعالى: {إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ {٣٢} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه يسر لهم العبادات وهون عليهم مشقة القربات، وأن ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل.

وقال: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} {الليل: ٥ - ٧}،

أيْ لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}، [النحل: من الآية ٩٧].

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في

=

=

رضا الله تعالى، فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها، واحتسب الخير في عنائه وجهاده ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

القاعدة الرابعة والخمسون: كثيرًا ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة.

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف بها ربه ويقوم بحقه، فهذا المقصود منها، وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبها.

وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها، فإنها حجة الله على عباده، ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له. ولهذا كثيرًا ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للأباء والسادة والرؤساء، المنسلخين من آيات الله، وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقابًا علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين.

كقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}، [البقرة: ١٧١]، وقال في سورة الأعراف: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} [الأعراف: من الآية ١٧٢]،.

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم وأرحام

=

=

أمهاتكم، وإخراجكم منها بشرًا سويا، وتسخير ما في السموات والأرض جميعًا لكم، ثم ساقت الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات.

وبين سبب هذه الغفلة بقوله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}، [الأعراف: ١٧٥]،

أيْ ألقاها وخلعها كارهًا لها: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}، [الأعراف: ١٧٦]، فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته فيرتفع على درجات الكمال، ولكنه أخلد إلى الأرض البهيمية ورضي بالتقليد الأعمى الذي هو من خصائص الأنعام، ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله: {لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، [الأعراف: من الآية ١٧٩]،.

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال: {لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: من الآية ٤٦]،.

وقال: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} [النمل: ٨١]،.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}،

[النساء: ١٥٠ - ١٥١]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه؛ لأن دعواهم الإيمانَ بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان؛ لأن

=

=

ثمرة إيمانهم مفقودة حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ، وغيره ممن كفروا به وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}، [البقرة:٨]، لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، ولما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، [آل عمران: من الآية ١٢٢]، {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]،،وقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ}، [لأنفال: من الآية ٤١]، إلى قوله: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ}، [لأنفال: من الآية ٤١]، وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٢ – ٤]، وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، وهذا قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا

=

=

يَعْلَمُونَ}، [البقرة: ١٠١].

ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، [البقرة: ٦٧]، فكما أن فقد العلم جهل ففقد العمل به جهل قبيح:

القاعدة الخامسة والخمسون: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهرًا عنه، ويكتب له ما نشأ عن عمله.

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.

أما الأعمال التي باشرها العبد فأكثر من أن تحصى النصوص الدالة عليها، كقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، [المائدة: ١٠٥]، {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}، [البقرة: ٢٨٦]، {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ}، [يونس: ٤١]، ونحو ذلك.

أما الأعمال التي شرع العبد فيها وعجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ}، [النساء: ١٠٠]، فهذا خرج قاصدًا الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره، فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بموت أو عجز بدني أو عجز مالي أو مانع داخلي أو خارجي، وكان من نيته لولا المانع إكمالُه فقد وقع أجره على الله. فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، [العنكبوت: ٦٩]، فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا}، [يّس: ١٢]،

أيْ: باشروا عمله {وَآثَارَهُمْ}، التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر في الدنيا

=

=

والآخرة، وقال في المجاهدين: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، [التوبة: ١٢٠]، فكل هذه الأمور من آثار عملهم ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: {وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، [التوبة: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالًا صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولادًا صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علم غيره علمًا نافعًا فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك، فإنه من آثار عمله.

وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك من يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره، فما ترتب من نفع على هذا العمل فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله أجرًا وعوضًا، فإن الله يدخل بالسهم الراحد الجنة ثلاثة: صانعه وراميه والممد به.

القاعدة السادسة والخمسون: تحال المصالح على قدر الوسع والطاقة.

يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام

=

=

بها، وليوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة.
وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ}،
[التوبة: ١٢٢]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.
وقال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى}، [المائدة: ٢]، وقال: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، [الشورى: ٣٨].
إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها، لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.
القاعدة السابعة والخمسون: في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية.
قد دعا الله عباده إلى التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبَرًا نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا، فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب
=

=

بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه هذا أمر بديهي فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاس} [غافر: من الآية ٥٧]، وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصدًا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال على إرادة الله ونفوذ مشيئته ونعرف بذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، الذي لا تنبغي الرهبة إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها ومواردها وأرواحها قد مكن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نزعم أن

=

=

علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها، فإنها كلها كما نبه الله داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأن يُعلم الإنسان ما لم يعلم.

القاعدة الثامنة والخمسون: الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده.

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال. وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن.

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأى المَلِكَ تلك الرؤيا، وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عَبَّرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، [لأعراف: ١١٦]، فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي

=

=

أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه الغضب والغيظ، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له، من أعظم أنواع النصر.

كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، [التوبة: ٤٠].

وقريب من هذا نصره له يوم حنين، حيث أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين وثبت الله نبيه ﷺ فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه، وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمدًا وشكرًا وثناء على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ}، [الأنعام: ٤٦]، وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ {٧١} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ {٧٢} وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

=

=
تَشْكُرُونَ}، [القصص: ٧١ - ٧٣]،.

ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه: حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف، وقالوا: {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ}، [يوسف: ٨٨]، الآية ثم بعد قليل قال: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}، [يوسف: ٩٩]، في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكّر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}

[آل عمران: ١٦٥]، وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، [آل عمران: ١٢٣]،. وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب، ليكون هذا الرجاء مخففًا لما نزل به من البلاء، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}، [يوسف: ١٥]، وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج وهب على قلبه نسيم الرجاء، ولهذا قال: {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ}، [يوسف: ٨٧]،.

وكذلك قوله لأم موسى في سورة القصص: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، [القصص:٧]،.

وأعظم من هذا كله: أن وعد الله لرسله بالنصر وبتمام الأمر وحسن العاقبة يهون
=

=

عليهم به المشقات ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

القاعدة التاسعة والخمسون: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصًا صريحًا على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها.

معنى {أَقْوَمُ}، أيْ أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور.

فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها لصلاح القلوب وحياتها وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألهًا وتعبدًا وإنابة، وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل، من الصبر والحلم والعفو والأدب وحسن الخلق وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة. وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح

=

مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال. حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنه وجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، إلا القرآن يرشد إليها نصًا وظاهرًا، أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح تفصيلًا لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره تبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن. والله ولي الإحسان.

القاعدة الستون: أنواع التعليم القصصي في القرآن.

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، وأن الأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلى التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مَواضع:

منها: في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: في قوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}،

[يوسف: ٣]، ثم أخذ في تفصيلها: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ}،

=

[يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف: قال في تصويرها الإجمالي: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا {٩} إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا {١٠} فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا {١١} ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف: ٩ – ١٢]، فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها، ثم بسطها بقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ}، [الكهف: ١٣]، الآيات إلى آخر القصة.

وكذلك قصة موسى: قال: {نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، {القصص: ٣]، إلى قوله: {يَحْذَرُونَ}، [القصص: ٦]، ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، [طه: ١١٥]، ثم أتى بعد ذلك بالقصة. وأما التنقل في التقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه، فكثير.

منه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهًا آخر، وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية: أن هؤلاء الأولياء والآلهةأبناء الله؛ لأنهم النور الذي انبثق منه تجسدوا بشرًا ثم عادوا إلى النورانية، فيقول: {مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ}، [الكهف: ٥]، فأبان أن قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة. ثم صرح بقبحه قولُه: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، [الكهف: ٥]، ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل: {إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا}، [الكهف: ٥]، وقال في حق المنكرين للعبث: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}، [النمل: ٦٦]، أيْ علمهم فيها علم ضعيف سافل إلى أحط الدركات، لا يعتمد عليه إلا سفيه ثم انتقل إلى ما هو ابلغ منه، فقال: {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ}،

=

=

[النمل: ٦٦]، والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه، وزعم أنه في ضلال مبين: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ}، [الأعراف: ٦١]، ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له، فقال: {لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ}، [الأعراف: ٦١]، ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه، فقال: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}، [الأعراف: ٦١]، وكذلك هود عليه الصلاة والسلام، وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى {١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، [النجم: ١ - ٢]، فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه ثم قال: {إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}، [النجم: ٤]، الآيات.

وهو في القرآن كثير جدًا، كانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا على كبره وعقم زوجته، إلى ذكر مريم وعيسى، وكذلك أمر بالتوجيه إلى الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها، وهذا في القرآن كثير.

القاعدة الحادية والستون: معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص.

وذلك أن الله رتب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملًا وتنفيذًا على ضبط تلك المدة وإحصائها وتحديدها.

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}، [البقرة: ١٨٩].

فقوله: {مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ}، يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها، وخص بالذكر الحج لكثرة مل يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة. وكذلك مواقيت للعدد والديون والإجارات وغيرها، قال تعالى لما ذكر العدة:

=

=
{وَأَحْصُوا العِدَّةَ}، [الطلاق: ١]، وقوله في الصيام: {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، [البقرة: ١٨٤]، وقال تعالى: {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ}، [البقرة: ٢٢٦]، {إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}،
[النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}، [الكهف: ١٢]،. وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين والدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنى: قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}،
[البقرة: ٢٥٩]، الآية، وقوله: {وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [الإسراء: ١٢]، ونحوها من الآيات.

القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر.

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة:
قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}، [البقرة: ٤٥]، أيْ: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شئونكم بالصبر، فبالصبر يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ماتهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات.

ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها: وهي معرفة الشيء المصبور عليه، ومعرفة ما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من
=

=

الثمرات.

فمتى عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور. إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع الشدائد.

وبهذا فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله تعالى كثيرًا في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها.

وقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}، [فاطر: ٢٨]، وقال: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}، [النساء: ١٧]، ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر عملهم وخبرتهم، بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المانع.

وقال تعالى مبينا أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى وطلب منه أن يتعين ليتعلم مما علمه الله قال: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا {٦٦} قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا {٦٧} وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}، [الكهف: ٦٦ - ٦٨]، فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلابد أن يُعال صبره.

وقال تعالى مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}، [يونس: ٣٩]، فبين أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه

=

=

وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته، فقال في المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}، [النمل: ١٤]، وقال الله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}، [الأنعام: ٣٣]، والمقصود أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها وفضائلها ورذائلها. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والستون: العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال.

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أوبإعطاء الله للعبد من الدنيا بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: كل ذلك من طرق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلًا لهذا الأصل وقد قال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا}، [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ {٨٩} إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]،.وقد أكثر الله هذا المعنى في عدة مواضع. وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين فقال عن اليهود والنصارى:

{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، [البقرة: ١١١]، ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة فقال:

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}، [البقرة: ١١٢]، وقال: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ

=

=

يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}، [النساء: من الآية ١٢٣]، {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣]، {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}، [الزخرف: ٣١]، ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة، وهذا من أكبر مواضع الفتن؛ فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.

القاعد ة الرابعة والستون: الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات

قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول.

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة تعالى الله في ورودها على الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبهة قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحقُ الباطل، ودمغه فزهق الباطل وثبت الحقُ، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حكمٌ بالغة، وأيادٍ سابغة.

ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا، وتصديقًا بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسل، من أنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة المنافية حسًا لما علم يقينا ما يوجب لهؤلاء

=

=

الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: {مَتَى نَصْرُ اللهِ}، [البقرة: من الآية ٢١٤]، وقد يخطر في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}، [البقرة: ٢١٤]، فعندئذ يصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة، ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: من الآية ١١٠]، فلهذا الوارد الذي لا قرار له، وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى، لا ينكر ويطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

ومن هذا الباب بل من صريحه قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: من الآية ٥٢]، أيْ يلقي من الشبه ما يعارض اليقين.

ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته، والله عليم حكيم، فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء، لهذه الحكم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولًا يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا على أحد قولي المفسرين قوله تعالى عن يونس: {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}،

[الأنبياء: ٨٧]، وأنه ظنٌّ عرضَ في الحال ثم زال، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها

=

=

ويذهبها ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشرًا لهم: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)، وأخبرهم أن هذا صريح الإيمان.

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض.

ومن هذا: قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، [يوسف: ٢٤]، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه وخشيته ورجائه، دفع عنه هذا الهم وموجبه واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه. ولهذا فاز بمرتبة الصديقية؛ لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن، فقال: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}، [يوسف: ٣٣]، وكان كل من يتشبه به ويقف أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله).

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}،

[الأعراف: ٢٠١]، يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته، فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان وواجباته، من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير.

ولعل من هذا: قول لوط عليه الصلاة والسلام: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود:

=

=

٨٠]، وقول النبي ﷺ: (رحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد) يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط عليه السلام في تلك الحالة الحرجة وملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

القاعدة الخامسة والستون: قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك الواجب، أو فعل محرم.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

فمنها: قوله تعالى: {وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}،

[الأنعام: ١٠٨]،. وقوله: {وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}، [النور: ٣١]،.

وقوله: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، [الأحزاب: ٣٢]،.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ}، [الجمعة: ٩]،.

فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأمورًا بها.

وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرمة منهيًا عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.

القاعدة السادسة والستون: من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ماصدرت عنه

من الأخلاق والصفات.

وهذه قاعدة جليلة فإن أكثر الناس يُقْصر نطره على نفس اللفظ الدال على ذلك

=

=

القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت حضور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين ويعرف أن هذا لازم لهذا، أو هذا ملزم لهذا. وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل، ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: {يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} [الفرقان: ٦٣]، ذلك صادرعن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حملهم الواسع وخلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين، ومثل قوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: ١٧]، يدل على ذلك حسن إدارة المُلْك وكمال السياسة وحسن النظام.

وقوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٥]، يدل على حسن الخلق ونزاهة النفس عن الخلاق الرذيلة وعلى سعة عقولهم وقوة حملهم واحتمالهم ومثل الأخبار عن أهل الجاهلية في تقتيل أولادهم خشية الفقر أو من الإملاق يدل على شدة هلعهم وسوء ظنونهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته، وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص: ٥٧]، يدل على ظنونهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، وأمثلة هذا الأصل واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

القاعدة السابعة والستون: يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات.

وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق. ونحوها من العبارات.

وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة:

=

=

منها: لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشابهات: أنهم يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، [آل عمران: ٧]، فالأمور المحكمة المعلومة، يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون. وقال تعالى في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين:

{لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}، [النور: ١٢]، فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا}، [الأحزاب: ٦٩]، فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله من آذاه لأنه لا يكون وجيها عند ربه حتى يسلم من جميع المنقصات ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم. فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك من آذى موسى مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرسل جاهًا عند الله، وأرفعهم مقامًا ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحسانًا إلى الخلق.

وقال تعالى: {فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}، [يونس: ٣٢]، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقّ}، [سبأ: من الآية ٦]،.

القاعدة الثامنة والستون: ذكر الأوصاف المتقابلات يغنى عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا.

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وبين إلهية الحق وإلهية من سواه، ويذكر تباين

=

الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء، قال تعالى: {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩]، {آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ {٥٩}، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [النمل: ٥٩ - ٦٠]، والآيات التي بعدها: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [الزمر: ٢٩]، {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} [هود: ٢٤]، وقال تعالى: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ} [البقرة: ١٤٠]، {قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩]، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]، وقال قبلها: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: ٩]، فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة، لعلمه من المقام، فقوله: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ}، إلخ يعني كمن ليس كذلك، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب، كقوله: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: ٢٢]، ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضة له قال: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٢٤]، {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ {٥}، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} [القلم: ٥ - ٦]،

{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦]، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، وذلك أنه إذا ميزت الأشياء تمييزًا تامًا عرفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك أفضل لا معنى له، والله أعلم.

القاعدة التاسعة والستون: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

=

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله،

فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليبعده عن دائرة الفساد والفتنة عوضه الله أن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما شاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سببًا لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين. وسليمان عليه السلام لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها، عوضه الله الريح تجري بأمره، والشياطين كل بناء وغواص.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.

القاعدة السبعون: القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل.

ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن

=

=

وأصوله وعقائده وأخلاقه وآدابه وشرائعه.

ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشر والفساد نوعان؛

أحدهما المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد قولهم شيء كثير، لا يأتي مبطل يقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود والنصارى والأميين

{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، [الفرقان: ٣٣]، يذكر الله حجج هؤلاء ويرفضها ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذا بالجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شرهم، وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يمكن امثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن ولله الحمد القرآن العظيم والدين القويم قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم على أعقابهم منهزمين. فما فيه من العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم وما فيه من إيجاب الزكاة والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمساكين ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية ووجوب الملاك والحقوق، كل هذا أعظم صدق وأحسن حكم للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حَضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية والأخلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلل شرورهم التي طريقها

=

=

الأقوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون، فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية والتسلط على العباد بالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج المخرب المدمر ما مر عليه، فما معهم من سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم، لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية والصلاح والإصلاح والعدل ودفع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب، بل تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحصن والإنكار والصرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود الله وصدقه وصدق من جاء به ما تصدع له الجبال وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يعينهم على تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث على الأخلاق العالية والأعمال الصالحة والأداب الجميلة التي لا تدع للشر على صاحبه سبيلًا، وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم، للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال ولم يجد هؤلاء العظيم بعدله وقسطه وإيجاب الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات بصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم وحثه على سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبق في وجهه باطل إلا محقه ولا شر إلا سحقه ولا بقى من قصده الحق والصواب إلا اختاره، واعتنقه ولا تأمله صاحب عقل إلا صدع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القامع لكل من قاومه في كل الأمور.

=

=

القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني.

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا.

ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها:

قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}، [فصلت: ٤٦]، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} {يونس: ٢٦}، {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}، [الرحمن: ٦٠]، {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، [الواقعة: ١٠]، {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}، [النحل: ٩٠]، الآية، {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، [المائدة: ٢]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}، [الزلزلة: ٧]، {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:٨]، {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا}، [المزمل: ٢٠]، {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ}، [البقرة: ١٩٧]، {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}، [النساء: ١٢٣]، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، [الزمر: ١٠]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا}، [النساء: ٩٤]، {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا}، [الحجرات: ٦]، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، [الشورى: ٣٨]، {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}، [آل عمران: ١٥٩]، {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا} [النساء: ٤٠]، {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}،

=

=

[النساء: ١٢٨]، {إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}، [يونس: ٨١]، {وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ}، [البقرة: ٢٠٥]، {يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}، [الانفطار: ١٩]، {فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَدًا}، [الجن: ١٨]، {تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا}، [البقرة:٢٢]، {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}، [الزمر: ٣]، {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ}، [غافر: ١٤]، {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، [التغابن: ١٦]، {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣]، {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} [البقرة: ٢٣٧]، {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} [الأعراف: ٨٥]، {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}
[هود:١١:٢١]، {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ} [فصلت: ٦]، {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، [هود: ١١٥]، {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]، {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ٨٠]، {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَل}، [الرعد: ٢١]، الآيات، {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}،
{الشورى: ٤٠}، {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}، [النحل: ١٢٦]، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، [البقرة: ١٩٤]، {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، [الجن: ٢]، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ}، [التوبة:٩١]، {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}، [الأعراف:١٥٧]، الآية، {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ}، [الشورى:٤٠]، {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}، [الكهف: ٤٦]، {وَخَيْرٌ مَرَدًّا}، [مريم: ٧٦]، {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، [البقرة: ١٨٥]، {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}،
=

[الحج: ٧٨]، {لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}، [البقرة: ٢٣٣]، {لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}، [الطلاق: ٧]، {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ}، [الطلاق: ٧]، {وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}، [الأحزاب: ٤]، {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، [الفرقان: ٣٣]، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، [الأحزاب: ٢١]، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ}، [الحشر: ٧]، {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ}، [الأحزاب: ٥٣]، {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}، [الأحزاب: ٥٨]، الآية، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}، [الأنفال: ٦٠]، {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، [البقرة: ٢٠١].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي على معان كثيرة.

وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانية ولله الحمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر الله تعالى علينا ما من بجمعه، فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يسر الناظرين ويعين على فهم كلام رب العالمين، ويبدي لأهل البصائر والعلم من المعاقل والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعا في محل واحد، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه. انتهى كلام السعدي

وقال العلامة العثيمين في رسالة أصول في التفسير:

القرآن في اللغة: مصدر قرأ بمعني تلا، أو بمعني جمع، تقول قرأ قرءًا وقرآنًا، كما تقول: غفر غَفْرًا وغُفرانا، فعلى المعني الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعني اسم

=

المفعول؛ أي بمعنى متلوّ، وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام.

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا) (الانسان: ٢٣) وقال: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف: ٢). وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفل ﷻ بحفظه فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩) ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر: ٨٧).... (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق: الآية ١). وقال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩) (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام: ١٥٥) (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة: ٧٧) (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: الآية ٩).

وقال تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر: ٢١) (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُون (١٢٥) (التوبة: ١٢٤-١٢٥) (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (الأنعام: الآية ١٩) (فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا

=

=

كَبِيرًا) (الفرقان: ٥٢). وقال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: الآية ٨٩) (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) (المائدة: الآية ٤٨).

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد ﷺ إلى كافة الناس، قال الله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان: ١) (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيد (ابراهيم: ١-٢).

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرره القرآن، قال الله تعالى: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (النساء: ٨٠) (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا) (الأحزاب: الآية ٣٦) (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: الآية ٧) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران: ٣١)

١- نزول القرآن.

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول ﷺ في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر: ١) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم (الدخان: ٣-٤). (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة: الآية ١٨٥).

وكان عمر النبي ﷺ أول ما نزل عليه أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيِّب وغيرهم. وهذه السِّن

=

=

هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

والـذي نـزل بـالقرآن مـن عنـد الله تعـالى إلـى النبـي ﷺ، جبريـل أحـد الملائكـة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) (الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥).

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، مـن الكـرم والقـوة والقـرب من الله تعالى والمكانـة والاحـترام بـين الملائكـة والأمانـة والحسن والطهـارة؛ مـا جعله أهلًا لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله قال الله تعـالى: (إِنَّـهُ لَقَـوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ " (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَـمَّ أَمِين (٢١) (التكـوير: ١٩ – ٢١). وقـال: (عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوَى ذُو مِـرَّةٍ فَاسْـتَوَى وَهُـوَ بِـالْأُفُقِ الْأَعْلَى (لنجم: ٥ –٧).

وقال: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحـل: ١٠٢) وقـد بـين الله تعـالى لنـا أوصـاف جبريـل الـذي نـزل بالقرآن مـن عنـده وتـدل على عظـم القـرآن وعنايتـه تعـالى فإنـه لا يرسـل مـن كـان عظيما إلا بالأمور العظيمة.

٢ – أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولي مـن سـورة العلق، وهي قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَـا لَـمْ يَعْلَـمْ (العلـق: ١ – ٥). ثـم فـتر الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعـالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (المدثر: ١ –٥). ففي الصحيحين: صحيح البخاري ومسلم. عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالـت:

=

=

حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ، فقال النبي ﷺ ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه ثم قال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق) إلى قوله: (عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ١- ٥). وفيهما عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء....) فذكر الحديث، وفيه، فأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ إلى (وَالرُّجْزَ فَاهْجُر (المدثر: ١-٥).

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيدة مثل: حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصحيحين. إن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١) قال أبو سلمة: أنبئت أنه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١) فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: (جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت...) فذكر الحديث وفيه: (فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردًا، وأنزل علي: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١) إلى قوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (المدثر: ١-٥)).

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله (قُمْ فَأَنْذِرْ) (المدثر: ٢)

ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نبئ ب (اقْرَأْ) (العلق: ١) وأرسل ب الْمُدَّثِّرُ) (المدثر: ١)

٣- نزول القرآن ابتدائي وسببي.

ينقسم نزول القران إلى قسمين:

الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القران،

=

=

ومنه قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) (التوبة: ٧٥)

الآيات فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة ابن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له.

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه. والسبب:

أ -... إما سؤال يجيب الله عنه مثل (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) (البقرة: الآية ١٨٩).

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) (التوبة: الآية ٦٥) الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر النبي ﷺ فيجيبه (أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (التوبة: الآية ٦٥).

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة: ١)

❋ فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١ - بيان أن القران نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينا له. مثال الأول: قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ

=

=

رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلًا) (الإسراء: ٨٥). ففي صحيح البخاري " عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (الإسراء: ٨٥) الآية مثال الثاني قوله تعالى (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) (المنافقون: الآية ٨) وفي صحيح البخاري

أن زيد ابن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله ابن أبى رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ، فدعا النبي ﷺ زيدا فأخبره بما سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه مثال ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان: ٣٢) وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ وتطهير له عمّا دنسه به الأفاكون.

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم. مثال ذلك آية التيمم، ففي صحيح البخاري أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها، وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله أية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولًا.

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) (البقرة: الآية

=

=

١٥٨) أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: (فَلا جُنَاحَ عَلَيْه) (البقرة: الآية ١٥٨) أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ (البقرة: الآية ١٥٨) إلى قوله: (أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) (البقرة: الآية ١٥٨) وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: (مِنْ شَعَائِرِ اللهِ) (البقرة: الآية ١٥٨)

* عموم اللفظ وخصوص السبب.

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها، لأن القران نزل تشريعا عاما لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) إلى قوله (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (النور: ٦- الآية ٩) ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: البينة أو حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرء ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) (النور: الآية٦) فقرأ حتى بلغ (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (النور: الآية٩)

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن عويمر

=

=

العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك. فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنه بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث.

فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملا لهلال بن أمية وغيره.

* المكي والمدني.

نزل القران على النبي ﷺ مفرقا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضي رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: ١٠٦) ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكي ومدني:

فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا) (المائدة: الآية ٣) من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة، ففي صحيح البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

١ - الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، أقرأ سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه البين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، أقرا سورة المائدة.

=

=

٢- الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة، لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، أقرا سورة الطور.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، مرسلة بدون محاجة، لأن حالهم تقتضي ذلك، أقرأ آية الدين في سورة البقرة.

ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث، لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك لأن فيها فوائد منها:

١- ظهور بلاغة القران في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئا فشيئا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القران في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما

=

=

شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

* الحكمة من نزول القرآن الكريم.

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقا. ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها:

١- تثبيت قلب النبي ﷺ، لقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (يعني كذلك نزلناه مفرقًا) كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (ليصدوا الناس عن سبيل الله) إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) (الفرقان: ٣٢-٣٣)

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئا فشيئا، لقوله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: ١٠٦)

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القران وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

٤- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابهوا بالمنع منه منعا باتا، فنزل في شأنه أولا قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (البقرة: الآية ٢١٩) فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئا إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانيا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) (النساء: الآية ٤٣) فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض

=

=

الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة: ٩٠) (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة: ٩١) (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (المائدة: ٩٢) فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منها باتا في جميع الأوقات، بعد أن هيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات.

* ترتيب القران.

ترتيب القرآن: تلاوته تاليا بعضه بعضا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلا من (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة: ٢)

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلا من: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الفاتحة: ٣) (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة: ٤) ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) (البقرة: الآية ٢٤٠) قد نسخها الآية الأخرى يعني قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا

=

=

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) (البقرة: الآية ٢٣٤) وهذه قبلها في التلاوة قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه.

وروي الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي ٠من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول، ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا النوع الثالث: ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلّى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري تعليقا عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: " تجور قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنة الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب أتباعها " أه.

* كتابة القرآن وجمعه.

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عسب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف وكان القراء عددا كبيرا.

ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلا

=

=

يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه أنه قتل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعا، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري مطولا.

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي " صحيح البخاري " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية

=

=

وأذربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وكان زيد بن ثابت أنصاريا والثلاثة قرشيين - وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روي أبن أبي داود عن على رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملاء منا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا، فنعم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر الله عنه تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف، حتى لا يضيع منه شئ دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

=

=

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهو تقييد القرآن كله مجموعا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقا عليه بين المسلمين متواترا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فلله الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

* التفسير.

التفسير لغة: من الفسر، وهو: الكشف عن المغطى.

وفي الاصطلاح. بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلم التفسير واجب لقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩) ولقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: ٢٤)

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

=

=

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذي كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم. ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: الآية ١٨٧) وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليعبد الله بها على بصيره.

* الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظما لهذه الشهادة خائفا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

=

=

الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣٣)

وقال تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر: ٦٠)

* المرجع في تفسير القرآن.

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ- كلام الله تعالى: فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به. ولذلك أمثلة منها:

١-قوله تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس: ٦٢) فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس: ٦٣)

٢- قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) (الطارق: ٢) فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) (الطارق: ٣).

٣- قوله تعالى: (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (النازعات: ٣٠) فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (النازعات: ٣١) (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) (النازعات: ٣٢).

ب - كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى كلامه.

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس: الآية ٢٦) ففسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحا من حديث أبي موسى وأبي بن كعب . ورواه جرير من حديث كعب بن عجرة في

=

=

" صحيح مسلم " عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: " فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ "، ثم تلا هذه الآية (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس: ٢٦)

٢- قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (لأنفال: الآية ٦٠) فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم ، وغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

ج- كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب. ولذلك أمثلة كثيرة جدا منها:

١- قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ) (النساء: الآية ٤٣) فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع .

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : إذا أجمعوا - يعني التابعين - على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو ألسنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضا: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئا في ذلك، بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤة، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول

=

=

جميعا.

٥ - ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق لقوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) (النساء: الآية ١٠٥) وقوله: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣) وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (ابراهيم: الآية ٤).

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا) (التوبة: الآية ٨٤) فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) (التوبة: الآية ١٠٣) فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم عن عبد الله بن أبي أوفي، قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم، صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: " اللهم صل على آل أبي أوفي ".

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

=

=

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣) قال ابن عباس: قضي: أمر، وقال مجاهد: وصي، وقال الربيع بن انس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، او متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف: ١٧٦) قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر قوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (النبأ: ٣٤) قال ابن عباس: دهاقًا مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعًا ويكون كل قول لنوع من المعنى.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلاله السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣) قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عاد من أكله، وقيل: غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره والأرجح الأول لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن

=

=

المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرم وغير ذلك.

ومثال آخر قوله تعالى: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) (البقرة: الآية ٢٣٧) قال على بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

* ترجمه القرآن.

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح. وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وترجمة القران: التعبير عن معناه بلغة أخرى والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣) فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمةً فيترجم (إنا) ثم (جعلناه) ثم (قرآنا) ثم (عربيا) وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

* حكم ترجمة القرآن.

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

=

=

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بازاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك - محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالما بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالما بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلما مستقيما في دينه.

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

=

=

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة على بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

١ - على بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول ﷺ، وزوج فاطمة رضي الله عنه وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

ولد قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربي في حجر النبي ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي " ، نقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروى عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل

=

=

بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي، وأمه أم عبد كان ينسب إليها أحيانا ، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام: " إنك لغلام معلم " ، وقال: " من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد " ، وفي " صحيح البخاري " أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا،أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه، وكان ممن خدم النبي صلى الله عليه وسلم فكان صاحب نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا ما نرى عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أجل ملازمته النبي صلى الله عليه وسلم تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحدا أقرب هديا وسمتا ودلا بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد .

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عمارا أميرًا وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فأقتدوا بهما، ثم أمره عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأمره بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

٣- عبد الله بن عباس:

=

=

هو ابن عم الرسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي ﷺ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ، وضمّه النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة، وفي رواية: الكتاب ، وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فقه في الدين ، فكان بهذا الدعاء المبارك حبر الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله فنال بذلك مكانا عاليا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ ! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) (النصر: ١) حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان توابا، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لنعم ترجمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي ما كان نظيرا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه اعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ، وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقها وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع.

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي وال على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه فافتتح سورة النور نجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا

=

=

سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت، ولاه عثمان على موسم الحج سنة ٣٥ وولاه علي على البصرة فلما قتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة.

* المشتهرون بالتفسير من التابعين.

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح.

ب- أهل المدينة وهم اتباع أبي بن كعب، كزيد بن أسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي.

ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة، والشعبي. فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١ - مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبى السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءت التفسير عن مجاهد فحسبك به، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيرا ما ينقل عنه في " صحيحه" وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢ - قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمة أي أعمي سنة إحدى وستين،

=

=

وجد في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئا قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المثل فلعل، وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئا إلا حفظه، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ستة وخمسين سنة.

* القرآن محكم ومتشابه.

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود: الآية ١) وقوله (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (يونس: ١) وقوله (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف: ٤).

ومعنى هذا الإحكام الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ) (الزمر: ٢٣) ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة والغايات الحميدة (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) (النساء: الآية ٨٢)

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ

=

=

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ٧).

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحا جليا، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات: ١٣)، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ٢١) وقوله: (وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ) (البقرة: الآية ٢٧٥) وقوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) (المائدة: الآية ٣) وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبها خفيا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) (المائدة: الآية ٦٤) أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضا حين يقول: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء: الآية ٧٩) ويقول في موضع آخر: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) (النساء: الآية ٧٨)

ومثاله فيما يتعلق برسول الله، أن يتوهم واهم من قوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (يونس: ٩٤) ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكا فيما أنزل إليه.

=

=

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) (آل عمران: الآية ٧) وقال في الراسخين في العلم: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران: الآية ٧) فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُّون، ويُضِلُّون وأما الراسخون في العلم يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) (النساء: الآية٨٢) وما جاء مشتبهًا ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذات لا تماثل ذوات المخلوقين، لأن الله تعالى يقول: (ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: الآية ١١).

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله ﷻ، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠) فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لإنفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينا كما قال الله تعالى في نفس السورة: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

=

=

إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) (يونس: الآية ١٠٤) المعنى إن كنت في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (يونس: الآية ٩٤) أن يكون الشك جائزا على الرسول ﷺ، أو واقعا منه. ألا ترى قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (الزخرف: ٨١) هل يلزم منه أن يكون الولد جائزا على الله تعالى أو حاصلا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلا، ولا جائزا على الله تعالى، قال الله تعالى: (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) (مريم: ٩٢) (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (مريم: ٩٣)

ولا يلزم من قوله تعالى: (فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (البقرة: الآية ١٤٧) أن يكون الامتراء واقعا من الرسول ﷺ، لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله تعالى: (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (القصص: ٨٧) ومن المعلوم أنهم لم يصدون النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ.

* أنواع التشابه في القرآن.

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله ﷻ، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (طه: الآية ١١٠) وقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ١٠٣) ولهذا لما سئل الإمام مالك

=

=

رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبها على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوما للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شئ لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٨) وقال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: الآية ٨٩) وقال: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (القيامة: ١٨) وقال: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (القيامة: ١٩) وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (النساء: ١٧٤).

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: الآية ١١) حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وأدعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، واعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء: ٩٣) حيث اشتبه على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمدا مخلد في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، واعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

ومنها قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) (الحج: ٧٠) حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن

=

=

الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه.

* الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

لو كان القرآن كله محكما لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابها لفات كونه بيانا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وآخر متشابهات امتحانا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤٢)

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) (النساء: الآية ٨٢).

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبته لشئ والأخرى نافية فيه.

=

=

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذبا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا) (النساء: الآية ٨٧) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا) (النساء: الآية ١٢٢)) ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حكمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) (البقرة: الآية ١٠٦) وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكل الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع في ذلك.

ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب " دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب " للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة: الآية ٢) وقوله فيه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاس) (البقرة: الآية ١٨٥) فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول ﷺ: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: ٥٦) وقوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: الآية ٥٢) فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ) (آل عمران: الآية ١٨) وقوله (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الله) (آل عمران: الآية ٦٢) وقوله: (فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) (الشعراء: ٢١٣) وقوله: (فَمَا

=

=
أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) (هود: الآية ١٠١) ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله ﷻ هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الحج: ٦٢).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) (لأعراف: الآية ٢٨) وقوله (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء: ١٦) ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق. والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعا بالفحشاء لقوله تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: ٩٠) والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يّس: ٨٢).

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفا.

* القسم: القسم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها، وأدواته ثلاث:

الواو – مثل قوله تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) (الذريات: الآية ٢٣) ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء – مثل قوله تعالى (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة: ١) ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
=

=

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (صٓ: ٨٢) ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين.

والتاء - مثل قوله تعالى: (تاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) (النحل: الآية ٥٦) ويحذف معها العامل وجوبا، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: ترب الكعبة لأحجن إن شاء الله.

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في المثل السابقة. وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن.

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: ٨)

والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) (التغابن: الآية ٧) وقد يحذف جوازا مثل قوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق: ١) وتقديره ليهلكن.

وقد يحذف وجوبا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني ومثل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به.

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرا له.

* القصص

=

=

القصص والقص لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضا.

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا) (النساء: الآية٨٧) وذلك لتمام مطابقتها على الواقع وأحسن القصص لقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآن) (يوسف: الآية ٣) وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص، لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَاب) (يوسف: الآية ١١١). وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

*- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

* - وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

*- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ) (القمر: ٤) (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (القمر: ٥)

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا

=

=

جَاءَ أَمْرُ رَبِّك) (هود: الآية ١٠١)

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) (القمر: ٣٤-٣٥)

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (فاطر: ٢٥) (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (فاطر: ٢٦).

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء: ٨٨) وقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم: ٤٧)

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (محمد: ١٠).

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ، لقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود: ٤٩) وقوله: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ) (إبراهيم: الآية ٩).

* تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين

=

=

والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحكمة في هذا التكرار؟

١ - بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢ - توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣ - مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤ - بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقضيه الحال

٥ - ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدو تناقض.

* الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى. وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصده فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود ﵁ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر: ٦٧)

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل مثاله ما رواه البخاري عن جابر ﵁ قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت:

=

=

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) (البقرة: الآية ٢٢٣)

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: (آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) (العنكبوت: الآية ٤٦) الآية، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: " بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده م النار " رواه البخاري .

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شئ من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني " .

وروى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شئ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضا، لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله، وغيروا، فكتبوا بأيدهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنا قليلا أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

* موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت موافق العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة

=

=

أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبا، فكان حاطب ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيميه عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

ج- ومنهم من ذكر كثيرا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئا يجعله تفسيرا للقرآن كمحمد رشيد رضا.

* الضمير

الضمير لغة: من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصارا وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى الله) (غافر: الآية ٤٤).

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة: الآية ٧).

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلاله الحضور عنه. والدال على الغائب، ما وضع للغائب. ولابد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقا على الضمير لفظا ورتبه مطابقا له لفظا ومعنى

=

=

مثل: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) (هود: الآية ٤٥).

وقد يكون مفهوما من مادة الفعل السابق مثل: (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: الآية ٨).

وقد يسبق لفظا لا رتبة مثل: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربُه) (البقرة: الآية ١٢٤) ... وقد يسبق رتبة لا لفظا مثل: (حمل كتابه الطالب).

وقد يكون مفهوما من السياق مثل: (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَد) (النساء: الآية ١١) فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: (مما ترك).

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة) (المؤمنون ١٢، ١٣) فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ، لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول.

وإذا كان المرجع صالحا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا) (الطلاق: الآية ١١)

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وهو بالأفق الأعلي ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) (النجم: ٥-١٠) فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل.

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال أول: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيل) (الإسراء: الآية ٢).

ومثال الثاني (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا) (إبراهيم: الآية ٣٤).

=

=

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

* الإظهار في موقع الإضمار.

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) (الأحزاب ١٣٥) عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار). وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

١ - الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢ - بيان علة الحكم.

٣ - عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: (من كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة: الآية ٩٨) ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١ - الحكم بالكفر على من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل.

٢ - إن الله عدو لهم بكفرهم.

٣ - أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف: ١٧٠) ولم يقل أنا لا نضيع أجرهم، فأفاد ثلاثة أمور:

١ - الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب. ويقيمون الصلاة.

٢ - أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣ - أن كل مصلح وله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين.

=

=

* ضمير الفصل.

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) (طه: الآية ١٤) وقوله

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) (الصافات: ١٦٥) وبضمير المخاطب كقوله تعالى: (كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم) (المائدة: الآية ١١٧) وبضمير الغائب كقوله تعالى: (وأولئك هم المفلحون) وله ثلاثة * فوائد.

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

ثالثا: الفصل: أي التمييز بين كونه ما بعده خبرا، أو تابعا، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرا، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرا، لوجود ضمير الفصل.

* الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة) فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: إياك.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) (يونس: الآية ٢٢) فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله

=

=

وجرينا بهم.

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) (المائدة: الآية ١٢) فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله وبعثنا.

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ) فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة بقوله: لربك.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغيير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الممل غالبا.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام ا.ه كلام العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال العلامة العثيمين في شرح مقدمة في أصول التفسير للشيخ الإسلام ابن تيمية: قال شيخ الإسلام: فصل في أن النبي صلي الله عليه وسلم بيَّن لأصحابه معاني القرآن

يجب أن يعلم أن النبي صلي الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه؛ فقوله تعالي: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل:) يتناول هذا وهذا.

الشرح

وكذلك قوله تعالي: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (القيامة:)، يتضمن هذا وهذا، أي: بيان لفظه وبيان معناه، وفي هذا رد واضح على أهل التفويض، الذين يقولون: إن

=

=

الرسول ﷺ لم يبين معاني أسماء الله وصفاته، فإننا نقول لهم: قولكم هذا إما أن تعنوا أن الرسول صلي الله عليه وسلم جاهل بمعاني أسماء الله وصفاته، وإما أنه كاتم لما يعلمه من ذلك، فإن قلتم بالأول وصفتموه بالجهل، وإن قلتم بالثاني وصفتموه بالخيانة.

وقوله: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) اللام هذه للتعليل، يعني لأجل هذا، وليست للأمر، والدليل على أنها ليست للأمر أن الفعل بعدها منصوب.

***

قال شيخ الإسلام: وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يحاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدً في أعيننا.

الشرح

يعني صار جليلًا معظمًا؛ لأنهم لا يحفظونه إلا إذا عرفوا معناه، معني ذلك أن الإنسان إذا كان يحفظ البقرة لفظًا ومعنى، وآل عمران لفظًا ومعنى، فعنده علم كبير.

***

قال شيخ الإسلام: وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين- قيل: ثماني سنين- ذكره مالك وذلك أن الله تعالي قال: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:) وقال: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن) (محمد:)، وقال: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْل) (المؤمنون:) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالي: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:) وعقل الكلام

=

=

متضمن لفهمه.

الشرح

قوله تعالي: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) فبركة القرآن في تلاوته وتدبره، والعمل به، وما يحصل فيه من التأثير على القلب لزيادة الإيمان، ومعرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته وأحكامه، وكذلك ما حصل فيه من التأثير على الأمم، حيث فتح الله بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها كل هذا من بركاته، وكذلك ما حصل للمتمسكين به من الرفعة والعزة والظهور على جميع الأمم، وكذلك ما يحصل للمتمسك به من صحة القصد، وسلامة المنهج، والسعادة في الدنيا والآخرة، فالمهم أن بركات هذا القرآن لا تحصى.

وقوله: (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)، هذا فيه ثناء عظيم على من تذكر بالقرآن واتعظ به، وأنه هو صاحب اللب، أي العقل.س

وقوله تعالي: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن) هذا فيه حث على تدبر القرآن؛ لأن الله وبخ هؤلاء الذين لا يتدبرونه، وقوله تعالي: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْل) كذلك، والمراد بالقول هنا القرآن، واقرأ قوله تعالي: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (المؤمنون،).فأتى بالقرآن وأتى بالسنة: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (المؤمنون:).

وقال تعالي: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:) لعل هذه للتعليل، وتعقلون يعني تفهمونه فهمًا كاملًا؛ لأنه من المعلوم أنه لو نزل على العرب بلغة غير العربية، ما عقلوه ولا فهموه، والعقل يأتي بمعني الفهم، كما قال الله تعالي: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:).

❊❊

=

=

قال شيخ الإسلام: ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحوه. فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟!

الشرح

هذا كلام صحيح، فإننا لو كنا مثلًا ندرس كتاب زاد المستقنع، ونقرؤه ثم نمشي فإننا لا نستفيد، وكذلك لو قرأنا كتابًا مثلا في الطب أو في الكيمياء أو ما أشبه ذلك، بأن نقرأ ونمشي، فإننا لن نستفيد أبدًا، فلقد جرت العادة المؤكدة أنه لا يمكن أن نقرأ أي كتاب إلا ونستشرحه، بأن نطلب من يشرحه لنا، وإلا صارت قراءتنا له عبثًا.

ولا يقال إن القرآن يختلف عن ذلك لكون الإنسان يثاب على تلاوته، فيقال إن القرآن له جهتان: جهة تعبد وجهة عمل وتنفيذ، فالأولى قد تحصل بأن يتعبد الإنسان لله ﷻ بقراءة القرآن. لكن الثانية التي نزل من أجلها (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) مفقودة في حق من لم يعرف معني القرآن ولم يتعظ به.

❊ ❊ ❊

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًا، وهو إن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر.

الشرح

وجه كون النزاع في التفسير في الصحابة أقل لسببين:

السبب الأول: أن القرآن نزل بلغتهم التي لم تتغير، فكانوا أفهم الناس لمعانيه،

=

=

وأفضل له، ثم تغيرت الألسن بعدهم.

السبب الثاني: قلة الأهواء فيهم وسلامة قصدهم، فما تجد الرجل ينتصر لهواه ورأيه، ولكن كان الواحد منهم لا يقصد إلا الحق أينما وجده أخذه، حتى أن الخليفة يرجع إلي الحق الذي ذكرته به امرأة من النساء، ولم يقل أنا الخليفة لا يرد علي فأنا أعلم منها ولم يقل: أنا لي السلطة.

فلهذين السببين كان الخلاف بين الصحابة- رضوان الله عليهم- في تفسير كلام الله أقل.

ثم جاء التابعون من بعدهم فحصل نقص لا في السبب الأول ولا في السبب الثاني، بل إن التابعين كثرت الفتوح في زمنهم، واختلط العربي بالعجمي وتغيرت الألسن، وقد ذكر أن أول تأليف للنحو كان في عهد على بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد كثرت الأهواء والفتن وانتصار الإنسان لرأيه، حتى أدى ذلك إلي التطاحن والتقاتل بين المسلمين، وعلى هذا فيكون الخلاف بينهم في تفسير كلام الله أكثر من الخلاف بين الصحابة، ثم كلما بعد العهد عن عصر النبوة، صار البلاء أشد، والتباس بالباطل الحق أعظم، وكما نجد الآن في زماننا، كل عمود في مسجد تحته عالم يرى نفسه أنه ابن تيمية، وكل خيمة في مني فيها عالم يرى نفسه أنه أحمد بن جنبل أو الشافعي.

ولهذا كثرت الأهواء حتى إنك لتجد في المسألة التي ليس فيها فيما سبق إلا قول واحد أو قولان، تجد فيها عدة أقوال؛ لأن العلم قليل والهوى كثير، فترتب على نقص العلم وكثرة الهوى الضياع والخلاف والشقاق وعدم الائتلاف.

* * *

قال شيخ الإسلام: ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها؛

=

=

ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير، يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

الشرح

وهذا أمر لابد منه، يعني كون التابعين يزيدون على الصحابة في الاستدلال والاستنباط أمر لابد منه وضروري؛ لأنه حدثت أمور لم تكن معهودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وهكذا كلما طرأت أمور جديدة لم ينص على عينها في الكتاب والسنة فلا بد من أن يكون هناك استنباط واستدلال لعلماء العصر، حتى يطبقوها على ما في الكتاب والسنة؛ لأن الكتاب والسنة لم يأتيا بكل مسألة تحدث بعينها إلي يوم القيامة.

إذ لو أتى بذلك لكان المصحف أكبر مما هو عليه مائة مرة، وأيضًا لأتى الناس بما لا يعرفونه، فمثلًا ستحدث عن الشيكات وعن البنوك وعن التأمينات، ومثل هذه الأشياء يتحدث عنها في عهد الصحابة وهم لا يعرفون ذلك، أما الآن فكلما حدثت أمور وجدت صار لعلماء المسلمين من النظر والاستدلال والاستنباط ما لم يكن لغيرهم، حتى يطبقوها على ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *

قال شيخ الإسلام: فصل في اختلاف السلف في التفسير وأنه اختلاف تنوع

الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف

=

=

تضاد وذلك صنفان:

الشرح

هنا أثبت المؤلف أن السلف قد يكون بينهم خلاف في تفسير القرآن، لكن خلافهم في تفسير القرآن أقل من خلافهم في الأحكام، لأن تفسير القرآن هو تبيين ألفاظه، معناها والمراد بها وهذا شيء يقل فيه الخلاف، لكن الأحكام مبينة على الاجتهاد والنظر والقياس، فصار الاختلاف فيها أكثر من الاختلاف في التفسير، وذلك لاختلاف الناس في العلم والفهم.

وقد سبق لنا القول بأن هناك فرقًا بين التفسير بالمعنى والتفسير باللفظ، فتفسير اللفظ شيء وتفسير المعني الذي يراد بالآية شيء آخر، يعنى أن اللفظ يفسر بمعناه بحسب الكلمة، ويفسر بالمراد به بحسب السياق والقرائن.

والفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد: أن اختلاف التضاد لا يمكن الجمع فيه بين القولين؛ لأن الضدين لا يجتمعان.

واختلاف التنوع يمكن الجمع فيه بين القولين المختلفين؛ لأن كل واحد منهما ذكر نوعًا، والنوع داخل في الجنس، وإذا اتفقا في الجنس فلا اختلاف.

وعلى ذلك فاختلاف التضاد معناه أنه لا يمكن الجمع بين القولين لا بجنس ولا بنوع، ولا بفرد من باب أولى، واختلاف التنوع معناه أنه يجمع بين القولين في الجنس ويختلفان في النوع، فيكون الجنس اتفق عليه القائلان ولكن النوع يختلف، وحينئذ لا يكون هذا اختلافًا؛ لأن كل واحد منهما ذكر نوعًا كأنه على سبيل التمثيل.

وسيذكر المؤلف أمثلة لذلك، لكننا لا بد لنا أن نعرف الفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد.

* * *

=

=

قال شيخ الإسلام: أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة.

الشرح

اختلاف التنوع جعله المؤلف صنفين:

الأول: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، والضمير في قوله: ((منهم)) هنا يعود على الصحابة، بل على السلف أعم، ليشمل الصحابة والتابعين، فيعبر بعبارة غير عبارة صاحبه، لكن تدل على معني في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، فهما اتفقا على المراد لكن عبر كل واحد منهما عنه بتعبير غير الأول، وإلا فهما متفقان، كما لو قال قائل في تعريف السيف: هو المهند، وقال الثاني: السيف هو الصارم، وقال الثالث: السيف ما تقطع به الرقاب، وما أشبه ذلك، فهذا في الحقيقة ليس بخلاف.

وكذلك لو قال إنسان: الغضنفر الأسد، وقال الثاني: الغضنفر القسورة، وقال الثالث: الغضنفر الليث، وما أشبه ذلك، فليس هذا خلافًا ولا تنوعًا أيضًا، لكن كل لفظه تدل على معني لا تدل عليه اللفظة الأخرى والمسمى واحد.

وهذا هو المقصود بعبارة المؤلف: (أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معني في المسمي غير المعني الآخر مع اتحاد المسمي).

ثم قال المؤلف: إنها بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة، فقوله: ((المتكافئة)) هذه فيها إشكال إلا إذا كان المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بها معنى آخر، فالأسماء المترادفة هي الدالة على معنى واحد، والأسماء المتباينة هي الدالة على معنيين. فهذه الأسماء باعتبار دلالتها على المسمى مترادفة، وباعتبار دلالتها على معني يختص بكل لفظ منها تكون متباينة.

=

=

* * *

قال شيخ الإسلام: كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد.

الشرح

أسماء الله- تعالي- كثيرة جدًا، لكن مسماها واحد. فهي مترادفة من حيث دلالتها على الذات متباينة من حيث اختصاص كل اسم منها بالمعني الخاص به وكذلك أسماء الرسول صلي الله عليه وسلم متعددة، فهي باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، وباعتبار دلالة كل لفظ منها على معنى آخر متابينة. وكذلك القرآن يسمي القرآن، والفرقان، التنزيل وغير ذلك، فهذه الألفاظ باعتبار دلالتها على القرآن مترادفة، وباعتبار أن كل واحد منها له معني خاص متباينة.

* * *

قال شيخ الإسلام: فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضادًا لدعائه باسم آخر، بل الأمر كما قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (الاسراء:٠)، وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم، كالعليم يدل على الذات والعلم، والقدير يدل على الذات والقدرة، والرحيم يدل على الذات والرحمة.

الشرح

إذا هذه الأسماء الثلاثة باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، وباعتبار دلالة الأول: على العلم، والثاني: على القدرة، والثالث: على الرحمة، فهي متباينة.

قال شيخ الإسلام: ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون: لا يقال هو حي ولا ليس

=

=

بحي، بل ينفون عنه النقيضين، فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض، كالمضمرات، وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات، فمن وافقهم على مقصودهم كان- مع دعواه الغلو في الظاهر- موافقًا لغلاة الباطنية في ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك.

الشرح

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتشبعه بهذا العلم صار لا بد أن يذكره.

انقسم الناس في أسماء الله سبحانه وتعالي إلى أقسام فمنهم من جعلها أعلامًا محضة لا تدل على المعنى إطلاقًا، ومنهم من جعلها أعلامًا وأوصافًا، ومنهم من قال: لا نقول: إنه حي ولا نقول: إنه ليس بحي، فننكر هذا وهذا وهم الباطنية، ويجيبون بقولهم: إن الحياة والموت لا يصح نفيهما وإثباتهما إلا لمن هو قابل لذلك، والله تعالى ليس بقابل للحياة ولا للموت، ولهذا لا يوصف الجدار بأنه حي ولا ميت.

وللإجابة على ذلك نقول لهم: إن دعواكم إن الحياة والموت لا يوصف بها إلا من كان قابلًا لها مجرد دعوى أو عرف اصطنعتموه، فالله سبحانه وتعالي وصف الأصنام بأنهم أموات، ونفى عنهم الحياة. فقال: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ) (النحل:٠،)، وهم يعبدون شجرًا وحجرًا وما أشبه ذلك، فانتقض قولهم بنص القرآن.

أما زعمهم أننا لو قلنا: إن الله حي شبهناه بالأحياء، ولو قلنا: إنه ميت شبهناه بالأموات، نقول: فإنكم على زعمكم هذا قد شبهتموه بالجمادات. فما دمتم تقولون: إنه غير قابل للحياة والموت كالحجر فقد شبهتموه بالجماد.

ثم نقول لهم: هب أننا تنازلنا معكم، لكن أنتم تقولون: إننا لا نقول: إنه موجود ولا غير موجود، فنفيتم عنه الوجود والعدم، وهذا مستحيل باتفاق العقلاء، لأن

=

=

المقابلة بين الوجود والعدم مقابلة بين نقيضين يجب إذا ارتفع أحدهما أن يثبت الآخر، وأنتم تقولون: لا يجوز أن نقول: إن الله موجود، ولا يجوز أن نقول: إن الله ليس بموجود فإذا قلت: إنه موجود فقد ألحدت، وإن قلت: معدوم، فقد ألحدت، وهذا غير ممكن، ونقول: الآن شبهتموه بالمستحيلات والمتنعات التي لا يمكن وجودها.

فهذا مذهب الباطنية في الله ﷻ، يقولون: لا يمكن أن نثبت لله اسمًا ولا معنى بل ننفي عنه النقيضين.

والآخرون- وهم المعتزلة وأهل الظاهر الذين يغالون في إثبات الظاهر- يقولون: إنا نثبت الاسم لكن لا نثبت له معني، ونقول هذه الأسماء مجرد أعلام فقط، أي سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، ورحيم بلا رحمة وهكذا، أي مجرد علم، كما أنك تقول لهذا الرجل محمد وهو مذمم ما فيه خصلة حميدة، وتقول لهذا الرجل عبد الله وهو من أكفر عباد الله ينكر وجود الله.

إذًا معنى قولنا: عبد الله مجرد علم يعين مسماه فقط، فهم يقولون: إن أسماء الله هكذا أعلام محضة، ليس لها معنى ولا تحمل معنى إطلاقًا.

وهذا الكلام الذي جاء به المؤلف جاء به استطرادًا وليس له دخل في التفسير؛ لأنه قال: ((وليس هذا موضع بسط ذلك)) اللهم إلا أن يقال: قد يدخل في التفسير من حيث إن في القرآن أسماء كثيرة لله ﷻ.

❊❊

قال شيخ الإسلام: وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته، ويدل أيضًا على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم.

الشرح

إن الاسم يدل على الصفة التي تضمنها وعلى صفة أخرى تضمنها اسم آخر

=

=

بطريق اللزوم، مثاله اسم الخالق دل على الذات وعلى صفة الخلق، ودل على العلم الذي تضمنه اسم العليم، وعلى القدرة التي تضمنها اسم القدير ودل اسم الخالق على العليم والقدير؛ لأنه لا يمكن أن يخلق إلا بعلم وقدرة، ولهذا قال الله ﷻ: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق:)، وهذا واضح؛ فلو أن أحدًا صنع جهازًا من الأجهزة فلا يمكن أن يصنعه وهو لا يدري كيف يصنعه ولا يمكن أن يصنعه وهو أشل؛ لأنه ليس قدرة.

وكذلك أسماء النبي ﷺ مثل: محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب، وكذلك أسماء القرآن مثل: القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب، وأمثال ذلك.

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمي هذا الاسم، وقد يكون الاسم علمًا وقد يكون صفة، كمن يسأل عن قوله: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) (طه:).ما ذكره؛ فيقال له: هو القرآن مثلًا، أو هو ما أنزله من الكتب، فإن الذكر مصدر، والمصدر تارة يضاف إلي الفاعل وتارة إلي المفعول، فإذا قيل: ذكر الله بالمعني الثاني، كان ما يذكر به مثل قول اعبد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر. وإذا قيل بالمعني الأول، كان ما يذكره هو، وهو كلامه، وهذا هو المراد في قوله: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) (طه: من الآية).

لأنه قال قبل ذلك: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى) (طه:)، وهداه هو ما أنزله من الذكر. وقال بعد ذلك (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا) (طه::)، والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل أو هو ذكر العبد له، فسواء قيل: ذكري: كتابي أو كلامي، أو هداي، أو نحو ذلك فإن المسمى واحد.

=

=

الشرح

هنا يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا كان مقصود السائل- يعني الذي يسأل عن تفسير آية من القرآن_، تعيين المسمي عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم. فلو قال سائل: ما معني قوله تعالي: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)؟ وهل المراد بذكري المضاف إلي الفاعل أو المضاف إلي المفعول؟ يعني هل المعنى من أعرض عن ذكره إياي أو المعنى من أعرض عن ذكري الذي أنزلته إليكم؟

والجواب على ذلك أنه يحتمل أن يكون المعنى من أعرض عن ذكري أي: عن ذكره إياي، كما قال تعالي: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)، أي: لتذكرني بها، فالمعني لذكري أي: لذكره إياي، ويحتمل أن يكون المراد بذكري أي: ما أنزلته عليه من الذكر وهو القرآن، أو بعبارة أعم وهو أحسن ما أنزله الله من الكتب، فالمعنى من أعرض عن الكتب الذي أنزلتها ليذكر بها، وهذا المعني إلي اللفظ أو إلي السياق أقرب؛ لقوله: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) (طه:،)، فالمراد بذكري هنا هداه الذي أنزله؛ لأنه قال: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ)، (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي) ولكنه عبر في الإعراض عن ذكره؛ لأن فيما أنزله من الهدى تذكيرًا للإنسان وإنذارًا له وتخويفًا.

فهنا إذا سأل عن الذكر فقيل له: الذكر قول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر صار تفسيرًا صحيحًا وإذا عن ذكري فقلنا له: ما أنزله من الكتب على عباده صار معنى صحيحًا؛ لأن اللفظ صالح لهما جميعًا. وهذا اختلاف تنوع، لأن المعني الثاني لا يضاد المعني الأول. فكل ما أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ فهو مستلزم لذكره وهو تذكير لعباده.

* * *

قال شيخ الإسلام: وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به، فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمي مثل أن يسأل عن القدوس،

=

=

السلام، المؤمن، وقد علم أنه الله، لكن مراده: ما معنى كونه قدوسًا، سلامًا، مؤمنًا، ونحو ذلك.

الشرح

إذا قال: من هو القدوس؟ قلنا: الله. أو قال: من السلام؟ قلنا: الله لكن إذا قال ما القدوس؟ ما السلام؟ فهنا يختلف الجواب، لأن سؤاله ب (ما) يدل على أنه أراد المعنى، يعني ما معنى القدوس؟ وما معني السلام؟ بخلاف ما إذا قال: من القدوس؟ فلا يمكن أن تفسر القدوس له، بل تعين المراد به المسمى بهذا الاسم، وهو الله سبحانه وتعالى.

* * *

قال شيخ الإسلام: إذا عرف هذا، فالسلف كثيرًا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر، كمن يقول: أحمد هوالحاشر، والماحي، والعاقب.

والقدوس هو: الغفور الرحيم أي: إن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هي هذه.

الشرح

وهذا أيضًا جواب ثالث، إذا قال: من القدوس؟ من السلام؟ من المؤمن؟ فقلت: عالم الغيب والشهادة، أو الذي وسعت رحمته كل شيء، أو هو الغفور الرحيم، فهذا جواب ثالث غير السابقين، لكنه في المعنى مثل من عرفه بالذات؛ لأنني عندما أقول هو الغفور معناه ما (فسرت له) معني القدوس، ففهم مني أني أريد تعيين المسمى الذي هو الذات، لكن بمعنى آخر جديد قد لا يطرأ على باله، فأتيت باسم يدل على صفة ليست في نفس الاسم المسؤول عنه.

وذلك مثلًا إذا كان السائل يعلم، أو سأل: من هو القدوس؟ من هو السلام؟ فأقول: هو شديد العقاب لمن عصاه؛ لأني أعرف أن هذا الرجل يقيم على معصية

=

=

الله، فأريد أن أذكره. أو مثلًا يكون السائل إنسانًا مشفقًا على نفسه خائفًا، فأقول في معناها هو من كان على حسن ظن عبده به، وذلك لأذكره بحسن الظن بالله.

فهذه الآن ثلاثة أنواع، قد يكون التفسير للكلمة تفسيرًا للمراد بها بقطع النظر عن صفته، وقد يكون التفسير للكلمة من حيث معناها الذي تضمنته، وقد يكون التفسير للكلمة بمعنى آخر يوصف به من يراد بها، مثل الغفور الرحيم السميع العليم.. إلى آخره.

* * *

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس، مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم فقال بعضهم: هو القرآن أي اتباعه لقول النبي ﷺ في حديث علي الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة، ((هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم)) وقال بعضهم هو الإسلام لقوله صلي الله عليه وسلم في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: ((ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جنتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على راس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن)).

فهذان القولان متفقان؛ لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبّه على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ الصراط يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله صلي الله عليه وسلم، وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

=

=

الشرح

عرفنا أنه إذا فسر السلف الكلمة بمعني، وفسرها آخرون منهم بمعنى آخر، باعتبار أن هذه الصفة تشمل هذا وهذا، فهو من باب اختلاف التنوع، فقوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، معنى الصراط الطريق الواسع، لكن المراد بالصراط المستقيم الإسلام، هذا قول، وقول ثان هو القرآن، والمؤلف جاء لكل من هذين القولين بدليل من السنة، ومع ذلك فهما لا يتنافيان أبدًا، لأن الإسلام هو ما في القرآن، وحينئذ فلا تضاد بينهما سواء فسر بأنه القرآن، أو فسر بأنه الإسلام. وواضح أن هذا الاختلاف اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد، بدليل أن كل واحد منهما لا ينافي الآخر.

* * *

قال شيخ الإسلام: الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ ((الخبز)) فأري رغيفًا، وقيل له: هذا فالإشارة إلي نوع هذا، لا إلى هذا الرغيف وحده.

الشرح

لو سأل أعجمي: ما هو الخبز؟ فقيل له: الخبز هو قرص يصنع من البر بعد طحنه وبله بالماء وعجنه فلن يعرف ما الخبز، ولكن إذا كان معك خبزة فقلت له هذا فهو لن يفهم أنه ليس في الدنيا خبز إلا الذي بيدك، بل سيعرف أن هذا على سبيل التمثيل، ولهذا لو ذهب إلي بقالة ووجد لفة خبز، فسيقول بكم لفة الخبز، فهذا التعيين ليس معناه أنه يراد أن يفسر اللفظ بهذا المعنى على وجه المطابقة، لا يزيد ولا ينقص، لكن على سبيل التمثيل.

=

=

* * *

قال شيخ الإسلام: مثال ذلك ما نقل في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: من الآية].

الشرح

يقول تعالي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ الاسم الموصول ليس وصفًا للكتاب، بل الصحيح أن الكتاب مفعول أول، والذين مفعول ثانٍ.

قال تعالي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والمراد بالذين اصطفى الله من عباده هذه الأمة الإسلامية؛ لأن آخر كتاب نزل هو هذا القرآن.

* * *

قال شيخ الإسلام: فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات، والمنتهك للمحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع، والناس في الأموال إما محسن، وإما عادل وإما ظالم. فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأقاويل.

=

=

فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية إنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق.

الشرح

صحيح هذا هو الغالب أن التعريف بالمثال أبين وأظهر من التعريف بالحد المطابق، فمثلًا لو قال لك قائل ما البعير؟ فقلت حيوان كبير الجسم، طويل العنق، ذو سنام، له ذيل قصير وما أشبه ذلك من صفاته، فلن يعرفه، حتى لو رآه ربما يشك فيه لعله يكون هناك شيء آخر يشابهه، لكن إذا قلت مثال البعير هذا اتضح، والإيضاح بالمثال أكثر وضوحًا.

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء رحمهم الله إلي التعريف بالحكم، وإن كان عند المناطقة يرونه عيبًا، فمثلًا يقولون: الواجب هو ما أثيب فاعله واستحق العقوبة تاركه مثلًا، لكن لو قال: الواجب هو ما أمر به الشرع على سبيل الإلزام، فقد يشكل على الإنسان أكثر.

والحاصل أن السلف فسروا (الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)،بأن الظالم لنفسه هو الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، وأن المقتصد هو الذي يصليها في الوقت، وأن السابق بالخيرات هو الذي يصليها في أول الوقت، أو بعبارة أصح على وقتها، وذلك من أجل أن يشمل الذي يصليها في أول الوقت فيما يسن تقديمه وفي آخره فيما يسن تأخيره، ولهذا جاء حديث ابن مسعود: ((الصلاة على وقتها)) ؛ لأن هناك بعض الصلوات يسن تأخيرها كالعشاء.

وإذا قيل المقتصد هو الذي يؤدي الزكاة الواجبة، والسابق بالخيرات هو الذي يؤدي الزكاة مع الصدقات المستحبة، والظالم لنفسه هو الذي لا يزكي، فليس بين القولين تناقض؛ لأن كل واحد منهم ذكر نوعًا يدخل في الآية، مع أن الآية أعم من

=

=

هذا حيث تشمل كل ما ينطبق عليه ظلم النفس والسبق والاقتصاد.

* * *

قال شيخ الإسلام: والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف فقيل له هذا هو الخبز.

وقد يجئ كثيرًا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إذا كان المذكور شخصًا، كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ((أوس بن الصامت)) وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله ((وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله)) (المائدة:) نزلت في بني قريظة والنضير وإن قوله (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه) (لأنفال:)، نزلت في بدر، وإن قوله: (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْت) (المائدة: من الآية ٠) نزلت في قضية تميم الداري، وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب إن قوله: (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (البقرة: من الآية)، نزلت فينا معشر الأنصار.. الحديث، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب واليهود والنصاري، أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق.

والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب، هل يختص بسببه أم لا، فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

الشرح

وهذا القول هو الصحيح: أنها تعم ذلك الشخص؛ لأنها تختص بنوع ذلك

=

=

الشخص أو تعم نوع ذلك الشخص فقط. مثال ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((ليس من البر الصيام في السفر)).فهذا اللفظ عام، لكن سببه خاص بالنوع وخاص بالشخص، فهل نخصصه بذلك الشخص؟

يقول شيخ الإسلام: ما أحد قاله من المسلمين، وهل نخصصه بذلك النوع؟ يمكن ذلك إذا علمنا أن العلة والسبب في ذلك النوع لا يتعداه لغيره فإننا نخصصه بذلك النوع، وإذا أخذنا بالعموم في حديث: ((ليس من البر الصيام في السفر))، قلنا: إن الصيام في السفر ليس من البر؛ سواء شق على الإنسان أم لم يشق. وإذا خصصناه بالشخص قلنا ليس من البر باعتبار ذلك الرجل الذي رآه النبي عليه الصلاة والسلام عليه زحام ظللًا عليه، كأنه قال ليس صومه من البر وهذا أيضًا خطأ لا أحد يقوله من المسلمين مثل ما قال الشيخ، وإذا قلنا: إنه خاص بالنوع، قلنا: ليس من البر الصيام في السفر فيمن حاله كحال ذلك الشخص يشق عليه، فإنه ليس من البر أن يصوم في السفر بخلاف من لا يشق، وهذا القول الوسط هو الصواب، وأنه يجب أن يعدى الحكم الوارد على سبب معين إلي نوع ذلك المعين فقط لا إلى العموم، ولا أن يختص بنفس ذلك الشخص.

وهنا نشير إلي أن ربطه بعلته أولى من التعميم؛ لأننا لو عممناه لاحتجنا إلي دليل على التخصيص، لكن كأنه من العام الذي أريد به الخصوص.

وفرق بين قوله: ((ليس من البر)) وبين قول: ((البر ألا يصوم))، لأنه قول قال: ((ليس من البر)) فهو من الإثم.

والرخصة لا نؤثم من لم يفعلها، اللهم إلا إذا اعتقد في نفسه الاستغناء عن رخصة الله له فهذا شئ آخر، فيكون آثمًا من هذا الوجه، وأما من قال: الحمد لله الذي رخص لي لكن أنا قوى ونشيط، فهذا غير.

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرًا ونهيًا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره

=

=

ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذم فهي متناوله لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته أيضاَ.

ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلي سبب يمينه وما هيجها وآثارها.

الشرح

وكذلك إذا لم يعرف ما نواه المطلق رجع إلي سبب الطلاق، فمثلًا لو أن رجلًا رأى مع امرأته شخصًا فظنه أجنبيًا، فقال لها: أنت طالق. بناء على أن الرجل الذي معها أجنبي، ثم تبين أنه أخوها فإنها لا تطلق؛ لأنه كأنه قال: أنت طالق لأنك صاحبتي رجلًا أجنبيًا، وكذلك أيضًا الحالف لو قال: والله لا أزور فلانًا، لأنه قيل له إن الرجل فاسق، ثم تبين له أنه ليس بفاسق، فإنه لا بأس أن يزوره؛ لأن السبب في حلفه هذا أنه رجل فاسق، ثم تبين له بعد ذلك أنه ليس بفاسق فإذا زاره، فإنه لا يحنث؛ لأن السبب كالمشروط فكأنه قال والله لا أزوره لأنه فاسق، فيكون هذا السبب كأنه مشروط، وبهذا لا يكفر لأنه زال حكم اليمين، فلو قال: والله لا أزوره بناء على أنه فاسق، فتبين أنه ليس بفاسق، فهذا يزوره ولا شيء عليه؛ لأن اليمين انحلت فتبين أنها غير مرادة، وهذه قاعدة تنفعك في باب الأيمان وفي باب الطلاق، أن ما بني على سبب فتبين زوال السبب فلا حكم له، لكن لو قال الحالف أنا نويت والله لا أزور فلانًا مطلقًا، لا أزوره لشخصه، سواء كان فاسقًا أم عدلًا، فإذا زاره حنث لأننا هنا علمنا مراده.

والقاعدة في ذلك: أن كل لفظ بني على سبب فتبين انتفاء ذلك السبب فإنه لا حكم له.

والمسبب هو الآية النازلة أو الحديث الوارد، فمثلًا: سبب نزول آية اللعان قذف

=

=

هلال بن أمية زوجته بشريك بن سحماء فهذا هو السبب، والمسبب الذي حصل من أجل هذا السبب هو نزول الآية. فورود الحديث ونزول الآية هذا هو المسبب. فالآية أو الحديث قد يكون معناها خفيًا إلا إذا عرفت سبب النزول.

* * *

قال شيخ الإسلام: وقولهم: ((نزلت هذه الآية في كذا)) يراد به تارة أنه سبب النزول.

الشرح

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ دائمًا يستطرد في مؤلفاته، فهنا استطرد للتعبير عن سبب النزول، وهو ثلاثة أنواع:

فتارة يقول: ((حصل كذا وكذا، فأنزل الله كذا))، وتارة يقول: ((سبب نزول الآية الفلانية كذا وكذا)) وتارة يقول: ((نزلت هذه الآية في كذا وكذا)) فهذه ثلاث صيغ.

أما قوله: ((سبب نزول الآية كذا)) فهي صريحة في أن هذا سبب النزول.

وأما قوله: ((كان كذا وكذا فأنزل الله)) فهي ظاهرة أيضًا- وليست بصريحة، ظاهرة في أن هذا سبب النزول؛ لأن حمل الفاء في مثل هذا التعبير على السببية أولي من حمله على العطف المجرد والترتيب، فيكون ظاهرها أن هذه الحادثة سبب النزول.

الثالث أن يقول ((نزلت هذه الآية في كذا)) فهذه فيها احتمال متساوي الطرفين، بين أن يكون المراد أن هذه الآية معناها كذا وكذا فيكون تفسيرًا للمعنى، وبين أن يكون ذلك ذكرا لسبب النزول، فعلى الاحتمال الأول تكون ((في)) للظرفية، والظرف هنا معنوي، وعلى الاحتمال الثاني تكون ((في)) للسببية، أي بسبب كذا وكذا، و ((في)) معروف أنها تكون للسببية، ومثال ذلك: ((دخلت امرأة النار في

=

=

هرة حبستها)) (٠)، ((في)) بمعنى بسبب، وليس المعني أنها دخلت في جوفها.
والحاصل أن العبارات التي يعبر بها عن أسباب النزول تنقسم ثلاثة أقسام: صريحة، وظاهرة، ومحتملة، فالصيغة الصريحة أن يقول: ((سبب نزول الآية كذا وكذا)) والظاهرة ((كان كذا فنزلت)) والمحتملة: ((نزلت في كذا)).
ولهذا يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب.

* * *

قال شيخ الإسلام: ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عني بهذه الآية كذا.
وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: ((نزلت هذه الآية في كذا)) هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجرى مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببًا نزلت عقبه فإنهم يدخلون مثل هذا في المسند.

الشرح

قول الصاحب: ((نزلت في كذا)) إذا أجريناه مجرى المسند صار معناه أن الأمر حدث في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآية تفسيرًا له، أو بيانًا لحكمه، وأما إذا جعلناه ليس جاريًا مجري المسند، صار ذلك تفسيرًا منه للآية، وقد يكون صوابًا وقد يخالفه غيره.

* * *

قال شيخ الإسلام: فإذا عرف هذا فقول أحدهم: ((نزلت في كذا)) لا ينافي قول الآخر: ((نزلت قي كذا)) إذا كان اللفظ يتناولهما كما ذكرناه في التفسير بالمثال.
=

=

وإذا ذكر أحدهم لها سببًا نزلت لأجله، وذكر الآخر سببًا، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

الشرح

ولكن الأول أقرب، إذا ذكر كل واحد منهما سببًا لنزول الآية بلفظ صريح أو بلفظ ظاهر على حسب ما شرحناه، فهل نقول: إن السبب متعدد والمسبب واحد؟ أو نقول: إن السبب متعدد والمسبب متعدد وأن الآية صار لنزولها سببان؟ والأقرب الأول؛ لأن تكرر نزول الآية خلاف الأصل، فالأصل أن الآية إذا نزلت، نزلت مرة واحدة، فتكون الأسباب سابقة على نزول الآية، يعني معناه وجد سبب وسبب وسبب، ثم أنزل الله الآية مبينة لحكم هذه الأمور. مع أنه نادر أن تنزل الآية مرتين وهذا إن صح.

وقد ذكر أن سورة الفاتحة نزلت مرة في مكة، ومرة في المدينة، والله أعلم. لكن الكلام على أنه إذا تعدد ذكر الأسباب الصريحة في نزول الآية فإنها تحمل عل أحد أمرين: إما أن الأسباب متعددة والنزول واحد، وإما أن الأسباب متعددة والنزول متعدد. هذا إذا كان كل من الصيغتين صريحا في النزول، أما لو قال أحدهم: ((نزلت في كذا)) وقال الآخر: ((كان كذا فنزلت الآية)) فمعلوم أننا نقدم الثاني؛ لأنه ظاهر، وكذلك لو قال أحدهم: ((سبب نزولها كذا)) والآخر قال: ((نزلت في كذا)) فإننا نقدم الذي قال: ((سبب نزول الآية)) لأنه صريح.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأول الذي ذكر صريحًا فهو قطعًا سبب النزول، وأما الثاني فنقول: هذا ذكر للمعنى يعني أن هذا الشيء داخل في معناه، مثل لو قيل إن قوله تعالي: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) (الماعون:.)، نزلت هذه الآية في الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، فليس معناها أنه كان تأخير الصلاة

=

=

عن وقتها سببًا لنزولها؛ بل معناها الظاهر المتبادر أن هذا هو المراد من الآية، فيكون مثل هذا القول تفسيرًا وليس ذكرًا لسب النزول.

***

قال شيخ الإسلام: وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير- تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف.

الشرح

مثال لما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تنوع الأسماء والصفات مثل صارم، ومهند، ومسلول، وسيف وما أشبه ذلك، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى، مثل تفسير: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)، حيث فسر بعضهم هذا بالمصلين وهذا فسره بالمتصدقين..

***

قال شيخ الإسلام: ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملًا للأمرين، إما لكونه مشتركًا في اللغة كلفظ: (قَسْوَرَةٍ) الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد، ولفظ (عَسْعَسَ) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره.

الشرح

اللفظ المشترك سبق أن عرفناه بأنه ما اتحد لفظه وتعدد معناه؛ لأن هذا اللفظ مشترك بين معنيين، ومثاله: ((القسورة))، فهو مشترك بين الرامي وبين الأسد. قال تعالي: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (المدثر: ٥٠)، حمر الوحش إذا رأت الرامي فرت، والحمر الأهلية إذا رأت الأسد فرت، فهل المراد بالقسورة الرامي، أو المراد بذلك الأسد؟ بعضهم قال: المراد الأسد، وبعضهم قال: المراد الرامي، وما دام اللفظ صالحًا للمعنيين بدون تناقض؛ فإنه يحمل على المعنيين

=

=

جميعًا.

كذلك: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) (التكوير:،)، عسعس: بعضهم يقول: يعني أدبر، وبعضهم يقول: عسعس يعني أقبل، واللفظ محتمل. إن وجد ما يرجح أحد المعنيين أخذنا به، وإلا قلنا اللفظ صالح للأمرين، فهو شامل. فيكون الله أقسم بالليل عند إقباله وعند إدباره وإذا قلنا عسعس: بمعني اقبل ليقابل قوله: (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) (التكوير:)، صار من هذه الناحية أرجح.

ومثال الألفاظ المشتركة أيضًا: (القرء) يراد به الحيض، ويراد به الطهر.

***

قال شيخ الإسلام: وإما لكونه، متواطئا في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في قوله: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (لنجم:،)

الشرح

يقول تعالي: (ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى) (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) (النجم: - ٠)، الضمير في ((دنا)) يعود على جبريل، وفي قوله: (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) الضمير يعود على الله.

وهذا هو الصحيح من أقوال المفسرين، وبعضهم قال: إن الضمائر واحدة لله.

وعلى هذا القول يكون تعالي دنا دنوا يليق بجلالة ﷻ، مثل ما قال: ((يدنو ربنا ﷻ إلي السماء الدنيا... الحديث)).

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) متعلقة بدنا، ويصح أن نقول: دنو الله قاب قوسين مثل ما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((إن الذي تدعون هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)).

(أَوْ أَدْنَى) ((أو)) هذه معناها عند المفسرين، بمعني بل، أو للتحقيق، كقوله:

=

=

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات:)، أي: بل يزيدون. وبعضهم قال: إن ((أو)) هذه لتحقيق ما سبق كأنه يقول: إن لم يزيدوا لم ينقصوا، كما تقول عندي ألف درهم أو أكثر، فإن الناس يفهمون من المعنى أن الذي عندك لا ينقص عن ألف درهم؛ بل إما أن يزيد أو يكن بقدره.

***

قال شيخ الإسلام: وكلفظ الفجر، والشفع، والوتر، وليال عشر، وما أشبه ذلك. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك.

فالأول: إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه، إذ قد جوز ذلك أكثر فقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام، وإما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما إذا لم يكن لتخصيصه موجب، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني.

الشرح

يقول المؤلف: ومن التنازع الموجود بينهم ما يكون اللفظ فيه محتملًا للأمرين:

وذكر أن اللفظ يكون محتملًا للأمرين بإحدى واسطتين:

الأولي: أن يكون اللفظ مشتركًا؛ كلفظ العين وما أشبهها.

والثانية: أن يكون متواطئا في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين، والمتواطئ هو الذي طابق لفظه معناه، مثل إنسان، حجر، شمس، قمر، وما أشبهها، فهذا نسميه متواطئًا، لأن اللفظ يطابق المعنى، فهما متواطئان أي: متفقان، يقول المؤلف: إما متواطئ لكن المراد به أحد النوعين، وهذا عندما يكون في متواطئ له نوعان فيراد به أحدهما، ولكن هذا في الواقع قليل جدًا، إلا أنه قد يوجد ويكون تعيين أحد النوعين بحسب السياق.

فمثلًا كلمة (مع) في اللغة العربية هي متواطئة في معناها، إذ معناها المقارنة

=

=

والمصاحبة، لكنها أنواع بحسب ما تضاف إليه، فإذا قلت: الماء مع اللبن فهو مختلط، وإذا قلت الزوجة مع زوجها، فمعناه بقاء عقد الزواج بينهما، وإذا قلت الضابط مع الجند فمعناه أنه يراعيهم، وليس بلازم أن يصاحبهم بذاته، بل يراعيهم ويلاحظهم، فكلمة (مع) الآن تجد أنها كلمة مطابقة فيها مصاحبة، لكنها اختلفت هذه المصاحبة في أنواعها باعتبار ما تضاف إليه.

ومن ذلك، الضمائر التي أشار إليها المؤلف، فإذا اختلفوا فيها فإننا نقول: إذا كانت الضمائر صالحة للمعنيين، فهو اختلاف تنوع وكل واحد منهم ذكر نوعا، وإذا لم تكن صالحة، فهو اختلاف تضاد، ثم إنه تعرض المؤلف -رَحِمَهُ اللَّهُ- إلى أن المشترك هل يجوز أن يراد به معنياه؟ والصواب أنه يجوز أن يراد به معنياه إذا لم يتنافيا، مثل ما مضي في (قسورة) يجوز أن يراد بها المعنيان، ويكون كل معنى كالمثال، فيكون الله ﷻ أراد بقوله: (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ).أي: من الرامي فهم كحمر الوحش إذا رأت الرامي، أو المراد به الأسد فهم كالحمير الأهلية إذا رأت الأسد فرت، لأنه ليس عندنا قرينة تؤيد أحد المعنيين واللفظ صالح لهما ولا مناقضة بينهما.

أما لو كان بينهما مناقضة فإنه لا يمكن أن يراد به المعنيان، مثل (القرء) بمعنى الطهر وبمعني الحيض، فلا يمكن أن نقول الآية صالحة للمعنيين جميعًا، لأنه يختلف الحكم ولا يمكن أن يجتمعا ، ومثل ((من راح في الساعة الأولى)) الرواح يطلق على المسير بعد زوال الشمس، ويطلق على مجرد المسير، فهو مشترك بين مطلق الذهاب وبين نوع معين من الذهاب وهو المسير بعد زوال الشمس، ولذلك لا يمكن الجمع بينهما؛ لأنك لو قلت: من راح في الساعة الأولى معناه أن الساعات بعد الزوال، فمعناه لا تبتدئ رواحك للجمعة إلا بعد زوال الشمس، وعلى هذا تكون الساعات دقائق، لأن الإمام إذا زالت الشمس حضر، وإذا قلنا

=

=

بأن الرواح مطلق الذهاب صار الرواح يبتدئ من أول النهار، أي من طلوع الشمس.

قوله: (وَالْفَجْرِ) (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) (الفجر:،)، (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)، فيها قولان:

فبعضهم قال: هي ليالي عشر رمضان، وبعضهم قال: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) هي عشر ذي الحجة، فصار فيها قولان لاشتراك اللفظ، كذلك (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) (الفجر:) بعضهم قال الوتر: الله، والشفع: المخلوق، لأنه قال: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) (الذريات:)

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله وتر)) وبعضهم قال: (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) هو العدد، لأن كل الخلائق متعددة إما إلي شفع وإما إلي وتر، واللفظ صالح للمعنيين جميعًا.

والصلاة وتر، لأن صلاة الليل تختم بالوتر فتكون وترا، وصلاة النهار تختم بالوتر فتكون وترًا، ولا ينافي ذلك كون صلاة الظهر أربع ركعات وصلاة العصر أربع ركعات، فإن صلاة المغرب وتر، وهذه أوترت تلك، يعني أن المغرب جعلت ما سبق وترًا، ولهذا قال الرسول ﷺ: ((إنها وتر النهار)). وقال الرسول ﷺ: ((إذا خشي أحدكم الصبح صلي واحدة فأوترت له ما قد صلي)) والراجح أنها شاملة للمعنيين؛ لأنه كلما كانت الآية تتضمن معنيين لا يتنافيان تحمل عليهما.

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافًا أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة الأقوال، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

الشرح

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: الترادف في اللغة العربية قليل، لأن الترادف في الحقيقة عبارة

=

=

عن تضخم اللفظ، وكلام المؤلف صحيح بالنسبة للمعاني، أما بالنسبة للأعيان فإن الترادف فيها كثير، فكم للهر من اسم؟ وكم للأسد من اسم؟ وهكذا، المعاني صحيح أن الترادف فيها قليل ولكن مع ذلك موجود ولا يمكن أن ينكر، فمثلًا بر، وقمح، وحب، وعندنا باللغة العامية عيش هذا مترادف وهو كثير. وفي القرآن يقول: إنه نادر بمعنى أنه لا يمكن أن تأتي كلمة بمعنى كلمة في القرآن، ولكن هناك كلمة ((الشك)) في قوله تعالي: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (يونس:) وهناك كلمة (رَيْبَ)، ((لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)) (البقرة:) يظن بعض الناس أن الشك والريب معناهما واحد وليس كذلك كما سيذكر المؤلف، فحينئذ الترادف من كل وجه يقول إنه نادر أو معدوم. قوله: (وقل أن يعبر عن لفظ واحد، بلفظ واحد يؤدي جميع معناه) قوله: ((بلفظ واحد)) يعني مغاير أي غير الأول ((عن لفظ واحد بلفظ آخر)) يعني آخر لو، وقال المؤلف: ((عن لفظ واحد بلفظ واحد)) لكان أبين وأوضح، وهذا هو مراده.

***

قال شيخ الإسلام: فإذا قال القائل: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) (الطور:) إن المور هو الحركة، كان تقريبًا، إذ المور حركة خفيفة سريعة. وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل: (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أنزلنا إليك، أو قيل: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيل) (الاسراء: من الآية) أي أعلمنا. وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالًا إليهم وإيحاء إليهم والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته.

الشرح

يعنى الذين قالوا: إن معنى قوله تعالي: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) أي: تتحرك، يقول هذا تقريبًا، لأن المور حرك خفيفة سريعة وليست مطلق حركة، كذلك إذا قال

=

=

الوحي هو الإعلام. أوحى الله إلى نبيه يعني أعلمه بكذا، فهذا أيضًا تفسير تقريبي، أو قال: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيل) يقول: أي أعلمنا إليهم، هذا أيضًا تقريبي؛ لأن معني قضينا إليهم أخص من أعلمنا؛ لأن معناها قضينا إليهم، يعني قضاء قدريًا واصلًا إليهم فهو ليس بمعنى مجرد الإعلام.

وبين المؤلف ذلك فقال: ((فإن الوحي هو إعلام سريع خفي. والقضاء إليهم أخص من الإعلام فإن فيه إنزالًا إليهم وإيحاء إليهم والعرب تضمن الفعل معني الفعل وتعديه تعديته)) وهذا معروف وهو التضمين، بأن يضمن فعل معني فعل فيكون متعديًا تعدي ذلك الفعل.

ومثال ذلك وهو من أوضح الأمثلة قوله تعالي: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله) (الانسان:)، فالفعل يشرب ضمن معني يروي بها؛ لأنه ليس معقولًا أنهم يشربون بالعين، بل إنهم يشربون بالكاس، فبعضهم قال: إن معني ((بها)) أي: منها، وبعضهم قال: معني يشرب أي يروى بها، فيكون الفعل هنا مضمنًا للشرب إعدالًا عن الشرب بلفظه ودالًا على المعنى وهو الري بمتعلقه وهو قوله (بها).

* * *

قال شيخ الإسلام: ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) (صّ:) أي مع نعاجه و ((مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله) (آل عمران:) أي مع الله ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلي نعاجه.

الشرح

وذلك لأن علماء النحو اختلفوا فيما إذا تعدى الفعل بغير ما يتعدى به في الأصل. هل يكون التجوز في الحرف أو أنه في الفعل، والصحيح كما قال أنه بالفعل، فيضمن الفعل معنى يتعدى بمثله إلي ما هو متعد إليه الآن وهنا (لَقَدْ ظَلَمَكَ

=

=

بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) أي: بضم السؤال هنا ضمن معني الضم، أي: ضم نعجتك إلي نعاجه، وليس المعنى بسؤال نعجتك مع نعاجه. أي ليس المعنى أن نجعل إلي بمعنى مع، كذلك (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله)، يقول: (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله) أي مع الله، أي من أنصاري مع الله، وليس الأمر كذلك، بل المعني من ينيب معي إلى الله؛ لأن أنصاري إلي الله يعني منيبين إليه، كما قال تعالى: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ) (الروم:).

* * *

قال شيخ الإسلام: وكذلك قوله: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك) (الاسراء:) ضمن معني يزيغونك ويصدونك، وكذلك قوله (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) (الانبياء:) ضمن معني نجيناه وخلصناه، وكذلك قوله (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله) (الانسان:)، ضمن يروي بها، ونظائره كثيرة.

الشرح

لماذا هنا قلنا إن تضمين الفعل أولى من التجوز بمعنى الحرف؟ لأن تضمين الفعل يؤدي معنى زائدًا على معنى الفعل، بخلاف ما إذا جعلنا الحرف متجوزًا فيه فإنه يبقي الفعل على دلالته لمعناه فقط، ونحول معنى الحرف إلي معنى يناسب لفظ الفعل، فالتضمين إذًا أوضح وأولى.

قوله تعالي: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) (المعارج:)، على رأي من يرى التجوز بالحرف يقول: سأل سائل عن عذاب واقع، وعلى القول الثاني سأل سائل مهتما بعذاب واقع. فيكون ضمن سأل بمعنى اهتم به وبحث، حتى سأله عنه، أو يقال: سأل سائل أخبر بعذاب واقع، فيكون السؤال هنا مضمنًا معنى الإخبار، يعني: سأل عن العذاب فأخبر بالعذاب.

* * *

=

=

قال شيخ الإسلام: ومن قال: ((لا ريب)) لا شك) فهذا تقريب. وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال: ((دع ما يريبك إلي ما لا يريبك)) وفي الحديث: أنه مر بظبي حاقف فقال: ((لا يريبه أحد))، فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة، فالريب ضده ((ضمن الاضطراب والحركة)) لفظ الشك وإن قيل: إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه. وكذلك إذا قيل: (ذلك الْكِتَاب) (البقرة:) هذا القرآن فهذا تقريب؛ لأن المشار إليه وإن كان واحدًا، فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ ((الكتاب)) يتضمن من كونه مكتوبًا مضمومًا ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءا مظهرًا باديا. فهذه الفروق موجودة في القرآن.

الشرح

أفادنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكلام أن العلماء قد يفسرون اللفظ بما يقاربه لا بما يطابقه، تقريبًا للأذهان فمثلًا، (ذَلِكَ الْكِتَاب) إذا قال أي: هذا القرآن فهذا التفسير تقريبي، لأن إبداله ذلك بهذا يختلف به المعنى، فالإشارة بالبعد تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه الإشارة بالقرب، والكتاب يتضمن ما لا يتضمنه القرآن، من كون الكتاب مجموعًا، وهذا معني قول المؤلف مضمونًا، فإن الكتاب من الكتب بمعنى الجمع، ومنه الكتيبة لجماعة الخيل؛ لأنها مجتمعة.

***

قال شيخ الإسلام: فإذا قال أحدهم: ((أن تبسل)) أي: تحبس، وقال الآخر، ترتهن ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضاد، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهنا وقد لا يكون، إذ هذا تقريب للمعنى، كما تقدم.

وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جدًا؛ لأن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين.

=

=

الشرح

وذلك لأن عباراتهم المختلفة في اللفظ توجب للإنسان أن يحيط بكل ما تحتمله الكلمة من معنى قاله السلف، ومن أجمع ما يكون في ذلك تفسير ابن جرير- رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فإنه جمع من ألفاظهم ما لم يجتمع في غيره، وتفسير ابن كثير كالمختصر له؛ لأنه إذا قال معنى الآية كذا وكذا قال: هكذا قال فلان وفلان وفلان، وعدد المفسرين القائلين بذلك، الذين أتى بهم ابن جرير بالسند، فشيخ الإسلام رحمة الله يقول: ((جمع العبارات في هذا نافع)) لأن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين.

***

قال شيخ الإسلام: ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم كما يوجد مثل ذلك في الأحكام.

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاتفاق معلوم: بل متواتر عند العامة أو الخاصة، كما في عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها، وفرائض الزكاة ونصبها، وتعيين شهر رمضان، والطواف، والوقوف، ورمي الجمار، والمواقيت وغير ذلك، ثم إن اختلاف الصحابة في الجد والإخوة وفي المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريبًا في جمهور مسائل الفرائض، بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء، والكلالة من الإخوة والأخوات، ومن نسائهم كالأزواج، فإن الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة. ذكر في الأولى الأصول والفروع، وذكر في الثانية الحاشية التي ترث بالفرض؛ كالزوجين وولد الأم، وفي الثالثة الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الإخوة لأبوين أو لأب، واجتماع الجد والإخوة نادر، ولهذا لم يقع في الإسلام إلا بعد موت النبي صلي الله عليه وسلم.

=

=

والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل أو لذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون لغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح، فالمقصود هنا التعريف بمجمل الأمر دون تفاصيله.

الشرح

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هذا الاختلاف قد يكون لأحد الأسباب لكن هذه الأسباب ليست شاملة؛ لأن أسباب اختلاف العلماء ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب ((رفع الملام عن الأئمة الأعلام)) أكثر من هذه الأسباب، فهنا يقول: ((قد يكن لخفاء الدليل))، ويخفي الدليل بمعنى أنه لا يظن أن هذا دليل على كذا، فهو سمعه لكن خفي عليه أنه دليل، وقد يذهل عنه، أي: يكون ذاكرًا له ولكن نسيه، وقد يكون لعدم سماعه وهذا هو الجهل، وقد يكون الغلط في فهم النص، وهذا قصور الفهم، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح، يعني أنه فاهم الدليل، وعالم به لكنه اعتقد أن هناك معارضًا راجحًا يمنع القول بهذا الدليل، إما تخصيص، أو نص، أو تقييد، أو ما أشبه ذلك، ومن أراد البسط في هذا فليرجع إلي كتاب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: ((رفع الملام عن الأئمة الأعلام))، وكذلك كتاب لنا صغير كالملخص لكن فيه زيادة تمثيل واسمه: ((الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه)).

* * *

قال شيخ الإسلام: فصل في نوعي الاختلاف في التفسير المستند إلى النقل وإلى طريق الاستدلال

الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك إذ العلم إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم، والمقصود بيان جنس المنقول سواء كان المعصوم أو غير المعصوم، وهذا هو النوع الأول، فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف،

=

=

ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه.

وهذا القسم الثاني من المنقول: وهو ما لا طريق لنا إلي الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه والكلام فيه من فضول الكلام. وأما ما يحتاج المسلمون إلي معرفته فإن الله تعالى نصب على الحق فيه دليلًا، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة.

الشرح

وهذا صحيح فاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف ليس فيه فائدة، سواء كان أحمر أو أبيض أو أسود، فلا فائدة لنا من معرفته، وليس لنا طريق إلي العلم به، إلا عن طريق الإسرائيليين، والإسرائيليون ليسوا موثوقين، ولا فائدة لنا في العلم بلونه إذ لا يهم كونه اسود أو أبيض أو أحمر.

وكذلك أيضًا في البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، في قوله تعالي: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) هل البعض هو اليد أم الرجل أم الرقبة أم الرأس؟ فلا ندري.

* * *

قال شيخ الإسلام: وفي مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها.

الشرح

فليس هناك فائدة في معرفة من أين خشبها ومما كان، هل كان من الأثل، أم من السمر، أم من الساج؟ وما كان مقدارها وطولها في السماء وطولها في الأرض وعرضها؟ كل هذا لا يهمنا.

* * *

وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولًا نقلًا صحيحًا عن النبي ﷺ - كاسم صاحب موسى أنه

=

=

الخضر- (٠)، فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب- كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب- فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله ورسله، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن أهل يحدثوكم بباطل فتصدقوه)).

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلًا صحيحًا، فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلي الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين.

ومع جزم الصحابي بما يقوله فكيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا تصديقهم، والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك.

وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد، فكثيرًا ما يوجد في التفسير والحديث والمغازى أمور منقوله عن نبينا صلي الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، والنقل الصحيح يدفع ذلك؛ بل هذا موجود فيما مستنده النقل، وفيما يعرف بأمور أخرى غير النقل.

فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في

=

=
المغازي، والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: ((ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي)) ويروي: ((ليس لها أصل)) أي: إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل، مثل ما يذكره عروة بن الزبير، والشعبي، والزهري،وموسى بن عقبة،وابن إسحاق،ومن بعدهم، كيحيي بن سعيد الأموي والوليد بن مسلم، والواقدي ونحوهم من كتاب المغازي.

فإن أعلم الناس بالمغازى أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق.

الشرح

هذه فائدة مهمة جدًا لأن أهل كل بلد وطائفة قد يكونون أعلم من البلد الآخر والطائفة الأخرى في شيء من مسائل الدين، فإذا قيل لك: من أعلم الناس بالمغازى؟ فكما قال الشيخ رحمة الله أهل المدينة، ثم أهل الشام ثم أهل العراق، وعلل الشيخ ذلك فقال:

* * *

قال شيخ الإسلام: فأهل المدينة أعلم بها؛ لأنها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الغزاري الذي صنفه في ذلك، جعلواالأوزاعي (٠) أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار.

الشرح

عنى المؤلف هنا خاصة بأبي إسحاق الفزازي والأوزاعي.

* * *

قال شيخ الإسلام: وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمه مولي ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس؛ كطاووس، وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم وكذلك
=

=

أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود.

الشرح

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن التفسير أعلم الناس به أهل مكة بخلاف المغازى فأعلم الناس بها أهل المدينة ويعلل ذلك فيقول: لأنهم أصحاب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح.

* * *

قال شيخ الإسلام: ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن اسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذه عنه أيضا ابنه عبد الرحمن وأخذه من عبد الرحمن عبد الله بن وهب.

والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصدًا أو اتفاقًا بغير قصد، كانت صحيحة قطعًا، فإن النقل إما أن يكون صدقا مطابقًا للخبر، وإما أن يكون كذبًا تعمد صاحبه الكذب أو أخطأ فيه، فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقًا بلا ريب.

الشرح

المراسيل هل تكون صدقًا أو هل تكون صحيحة أم لا؟ والمراسيل هي: التي رفعها إلي النبي ﷺ من لم يسمع منه؛ من تابعي أو صحابي، فالمرسل: هو ما رفعه التابعي أو الصحابي الذي لم يسمع من النبي صلي الله عليه وسلم، فلو روى محمد بن أبي بكر حديثًا عن النبي صلي الله عليه وسلم سميناه مرسلًا، لأنه لم يسمع منه قطعًا، فمحمد ابن أبي بكر ولد في عام حجة الوداع. ومع ذلك قال أهل العلم: إن مراسيل الصحابة حجة، وأما مرسل التابعي فالتابعون يختلفون فمنهم من يقبل مرسله، ومنهم من لا يقبل، فالذين تتبعوا وعرف أنهم لا يرسلون إلا عن صحابي مثل سعيد بن المسيب، فإنه قد قيل إنه لا يرسل إلا عن أبي هريرة فيكون

=

=

مرسله صحيحًا، والذين ليسوا على هذه الحال ينظر في المرسل نفسه، إذا تعددت طرقه وتلقته الأمة بالقبول فإنه يكون صحيحًا ومثال ذلك حديث عمرو بن حزم، أن النبي ﷺ كتب إلي أهل اليمن كتابًا فيه ذكر الديات والزكاة، ومنه ((وأن لا يمس القرآن إلا طاهر)).

***

قال شيخ الإسلام: فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات وقد علم أن المخبرين لهم يتواطؤوا على اختلافه، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقًا بلا قصد، علم أنه صحيح، مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال، ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطئ الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول من تفاصيل القوال والأفعال، فيعلم قطعًا أن تلك الواقعة حق في الجملة، فإنه لو كان كل منهما كذب بها عمدًا أو خطأ لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه، فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتًا وينظم الآخر مثله، أو يكذب كذبة ويكذب الآخر مثلها، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروى فلم تجر العادة بأن غيره ينشئ مثلها لفظًا ومعنى مع الطول المفرط، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه، وكذلك إذا حدث حديثًا طويلًا فيه فنون وحدث آخر بمثله، فإنه إما أن يكون واطأه عليه أو أخذه منه أو يكون الحديث صدقًا، وبهذه الطريق يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات، وإن لم يكن أحدها كافيًا إما لإرساله وإما لضعف ناقله.

الشرح

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن المراسيل إذا تعددت طرقها، وليس فيها اتفاق أو مواطأة عليها، فإنه يعلم بأنها صحيحة، ثم ضرب مثلًا: لو أن رجلًا أخبرك بخبر عن واقعة

=

=

وفصل ما فيها تفصيلًا كاملًا عن كل ما جرى فيها من قول وفعل وإن زدت فقل ومن حضور، وهذا الرجل ضعيف عندك لا تثق بخبره، لكن جاءك رجل آخر وحدثك بنفس الحديث وأنت تعلم أنه ما حصل بينه وبين الأول مواطأة ولا اتفاق، ثم جاء ثالث ورابع وهكذا، وإن كان هؤلاء كلهم ضعافًا لكن كون كل واحد منهم يذكر القصة على وجه مطابق للآخر مع طولها هذا يبعد أن يكون الخبر مختلفًا، لكن لو كانت القضية واقعة صغيرة مثلًا، وجاء إنسان وحدث بها، ثم آخر وهكذا، وكلهم ضعاف فإنها قد لا تصل إلي العلم وإلي الجزم بأنها حق؛ لأن مثل الكذبة الواحدة قد تقع، فقد يقولها قائل، ثم يقولها الثاني، ثم يقولها الثالث وهي لست لها أصل، مثل أن يكون أناس يريدون أن يروعوا الناس فقالوا: إنه سقطت مثلًا قذيفة في مكان، ولكن ما وصفوها، وقال آخرون مثل ذلك، وهكذا، فربما يكون هؤلاء قصدوا بذلك الترويع وكذبوا في هذا، لكن يأتون يكون لنا قصة بتفاصيلها القولية والفعلية هذا يبعد أن يكون ذلك على سبيل الكذب إلا إذا علمنا أن بينهم اتفاقًا أو مواطأة على ذلك.

وهذا هو حاصل ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكل ذلك يريد به أن يؤيد أن المراسيل إذا تعددت طرقها وعلم أنه ليس هناك مواطأة ولا اتفاق فإنها تكون صحيحة؛ لأن كلا منهم يذكرها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وكونهم يتفقون على هذا من طرق متعددة يدل على أن لها أصلًا عن النبي ﷺ، لأنه يبعد في العادة أن مثل هؤلاء كلهم ينسبونها إلي الرسول عليه الصلاة والسلام بدون أن تصل إليهم من طريق مرفوع.

ثم اذكر أيضًا أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول العادة ويكررها، وذلك لأن مثل هذه المسائل الخبرية - كما قال ابن حجر - لا مدخل للعقل فيها، ولو أننا أخذنا بكل احتمال عقلي ما بقي علينا خبر يمكن تصديقه ولا حكم يمكن إثباته؛ لأنه في المجادلة كل

=

=

إنسان يورد لك احتمالًا ويقول يحتمل كذا وكذا.

* * *

قال شيخ الإسلام: لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق بل يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والدقائق.

الشرح

والمعنى أن هذه الطريق التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يمكن أن تثبت بها الألفاظ والدقائق التي لا تعلم إلا بطريق آخر أصح منها. فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا لا يتكلم عن المراسيل، بل يتكلم عن هذه الحادثة التي وقعت وحصل فيها التفصيل، فإن الألفاظ والدقائق التفصيلية من هذه الحادثة لا تثبت بهذه الطريق، بل يحتاج إلي نقل صحيح يعتمد عليه لإثباتها، أما هذه التفاصيل في ظل الحادثة- ونحن نتكلم عن الحادثة عمومًا- تثبت بهذه الطريق التي توافقوا فيها، لكن الدقائق والتفاصيل لا تثبت إلا بطريق يثبت به مثل هذه الدقائق والتفاصيل.

* * *

قال شيخ الإسلام: ولهذا ثبتت غزوة بدر بالتواتر وأنها قبل أحد، بل يعلم قطعا أن حمزة وعليًا وابا عبيدة برزوا إلي عتبة وشيبة والوليد، وأن عليًا قتل الوليد، وأن حمزة قتل قرنه، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أم شيبة؟!.

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك، ولهذا إذا روى الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي صلي الله عليه وسلم من وجهين- مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر- جزم بأنه حق، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب، وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط، فإن من عرف الصحابة كابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عمر، وجابر،

=

=

وأبي سعيد، وأبي هريرة وغيرهم علم يقينا أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله. ﷺ فضلًا عمن هو فوقهم، كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس، ويقطع الطريق ويشهد بالزور، ونحو ذلك.

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة، فإن من عرف مثل أبي صالح السمان والأعرج (٠) وسليمان بن يسار وزيد بن أسلم وأمثالهم علم قطعًا أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث، فضلًا عمن هو فوقهم مثل محمد بن سرين والقاسم بن محمد أو سعيد بن المسيب أو علقمه أو الأسود أو نحوهم.

وإنما يخاف على الواحد من الغلط فإن الغلط والنسيان كثيرًا ما يعرض للإنسان، ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جدًا، كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم، لا سيما الزهري في زمانه والثوري في زمانه.

فإنه قد يقول القائل: إن ابن شهاب الزهري، لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه.

والمقصود أن الحديث إذا روي مثلًا من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطًا كما امتنع أن يكون كذبًا، فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة وإنما يكون في بعضها، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة، ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة امتنع الغلط في جميعها، كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة، ولهذا إنما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي صلي الله عليه وسلم البعير من جابر فإن من تأمل طرقه علم قطعًا أن الحديث صحيح (٠)، وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن.

الشرح

=

=

وهذا هو الذي قلناه قبل قليل. إذا كان في القصة شيء من الدقائق فلا يكفي هذا النقل بل لا بد من طريق آخر يثبت به.

* * *

قال شيخ الإسلام: وقد بين ذلك البخاري في صحيحه، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي ﷺ قاله؛ لأن غالبه من هذا النحو. ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق. والأمة لا تجتمع على خطأ، فلو كان الحديث كذبًا في نفس الأمر والأمة مصدقة له قابلة له: لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب. وهذا إجماع على الخطأ وذلك ممتنع، وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطل بخلاف ما اعتقدناه، فإذا اجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطنًا وظاهرًا.

الشرح

وهذا واضح، فأحيانًا يمر عليك الحديث وتعلم أن معناه كذا وكذا، لكن فيه احتمال أن يكون خلاف ذلك، بأن يكون معناه الباطن -الذي هو خلاف الظاهر- على خلاف ما فهمت، فإذا انعقد الإجماع على ما يقتضيه ظاهر الحديث علمنا بأنه لا يحتمل المعنى الباطن الذي نقدره في أذهاننا، لأن الأمة لا تجتمع على خطأ.

فمثلًا اختلاف الرواة في مقدار ثمن جمل جابر لا يجعله مضطربًا، لأن هذا الاضطراب لا يعود إلي أصل الحديث، وإنما يعود إلي مسألة جزئية فيه وهو لا يضر، وكذلك اختلافهم في حديث فضالة بن عبيد في قيمة القلادة. هل هي اثنا عشر دينارًا أو أقل أو اكثر؟ فهذا أيضًا لا يضر؛ لأن هذا الاختلاف ليس في اصل القصة.

=

=

* * *

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقًا له أو عملًا به أنه يوجب العلم، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك، ولكن كثيرًا من أهل الكتاب أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك، وهو قول أكثر الأشعرية؛ كأبي إسحاق وابن فورك، وأما ابن الباقلاني فهو الذي أنكر ذلك، وتبعه مثل أبى المعالي، وأبو حامد وابن عقيل، وابن الجوزي، وأبن الخطيب، والآمدي ونحو هؤلاء. والأول هو الذي ذكره الشيخ أبو حامد، وأبو الطيب، وأبو إسحاق، وأمثاله من أئمة الشافعية، وهو الذي ذكره القاضى عبد الوهاب، وأمثاله من الماكية، وهو الذي ذكره شمس الدين السرخسي، وأمثاله من الحنفية، وهو الذي ذكره أبو يعلي وأبو الخطاب، وأبو الحسن ابن الزاغوني، وأمثالهم من الحنبلية.

الشرح

وبهذا يكون المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر عن علماء المذاهب الأربعة وهو يدل على سعة إطلاعه- رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وهذه المسألة من مسائل أصول الفقه وأصول الحديث، أي في المصطلح وفي أصول الفقه. فخبر الآحاد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقًا له إن كان خبرًا، وعملا به إن كان طلبا. هل ذلك يفيد العلم واليقين؟ وهذا فيه الخلاف الذي ذكره المؤلف، ولكن جمهور علماء المسلمين على أنه يفيد العلم واليقين، وذكر ابن حجر أنه يفيد العلم بالقرائن وهذا هو الحق، فإن أحدًا لا يتطرق إليه الشك في أن الرسول ﷺ قال: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوي)) مع أنه خبر آحاد، ولا نشك في أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: ((من عمل

=

=

عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)) مع أنه خبر آحاد، إلى غير ذلك مما هو خبر آحاد ومع ذلك يفيد العلم اليقيني لكثرة الشواهد التي تثبته ولتلقي الأمة له بالقبول.

❊ ❊ ❊

قال شيخ الإسلام: وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجبًا للقطع به؛ فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلم بالحديث، كما أن الاعتبار بالإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة.

الشرح

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بهذا أن إجماع كل ذي فن بفنه، فمثلًا في علم الحديث نرجع إلى إجماع أهل الحديث، فإذا أجمع أهل الحديث على أن خبر الواحد إذا تلقي بالقبول واحتفت به القرائن أفاد العلم فلا يهمنا من خالفهم من الفقهاء، كذلك أيضًا الاعتبار للإجماع في الأحكام الشرعية -كالواجب والحرام والمندوب والمكروه والمباح- المعتبر في ذلك علماء الأحكام الفقهاء. كذلك الإجماع في مسألة نحوية، الاعتبار بإجماع أهل النحو، وعلى هذا فقس، لأن صاحب كل علم أدري بما يحصل فيه، فالإنسان الفقيه لا يعرف إجماع أهل النحو، ولا يعرف إجماع أهل الحديث، ولا الأصوليين مثلًا، فالمهم أننا نعتبر إجماع كل قوم في علمهم وفنهم الذي يجمعون عليه، فإذا قال لنا قائل مثلًا: إن الفقهاء أو إن أهل الكلام خالفوا في خبر الواحد، وقالوا: لا يمكن أن يفيد العلم، قلنا لا يهمنا مخالفتهم، إنما نحن ننظر إلي إجماع أهل الحديث وعلى هذا فقس.

❊ ❊ ❊

قال شيخ الإسلام: والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاور أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول، لكن هذا ينتفع به كثيرًا في علم أحوال الناقلين.

=

=

الشرح

لو جاء واحد مثلًا من أهل النحو وقال: أجمع العلماء على وجوب ستر العورة في الصلاة، فنقول له: ما هذا عشك فادرجي. قل أجمع العلماء على رفع الفاعل ونصب المفعول به، نقول: نعم سمعًا وطاعة، ولهذا يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: لكن هذا ينتفع به كثيرًا من علم أحوال الناقلين. هل الناقل لهذا الكلام من الفقهاء أم من الأصوليين أم من النحويين؟

❋ ❋ ❋

قال شيخ الإسلام: وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون: إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره، قال أحمد: ((قد أكتب حديث الرجل لأعتبره)) ومثل ذلك بعبد الله بن لهيعة، قاضي مصر فإنه كان من أكثر الناس حديثًا ومن خيار الناس، ولكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط فصار يعتبر بذلك ويتشهد به وكثيرًا ما يقترن هو والليث بن سعد والليث حجة ثبت إمام.

الشرح

ذكر المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ- أن الإمام أحمد يقول: ((قد أكتب حديث الرجل لأعتبره)). وليس معنى لأعتبره: أحتج به، لكن المعنى أنني أطلب له شواهد ومتابعات، ولهذا قال ابن حجر في النخبة: ((وتتبع الطرق لذلك يسمي الاعتبار)) الشاهد هو الاعتبار، فهنا شاهد ومتابع، فالشاهد أن يأتي حديث مستقل بغير هذا السند يكون شاهدًا للحديث الذي نحن نطلب له ما يؤيده.

والمتابعات تكون في السند بمعنى أن الراوى يجد متابعًا له في الحديث عن هذا الرجل الثقة، فلو روى إنسان غير ثقة عن الزهرى مثلًا، والزهري ثقة. روي عنه

=

=

إنسان غير ثقه، فنحتاج أن نرى أحدًا تابع هذا الراوي عن الزهري في روايته عن الزهري، فإذا وجدنا متابعًا قوي الحديث، أو مثلًا حديثًا آخر من طريق آخر غير طريق الزهرى يشهد لهذا الحديث فيسمى هذا شاهدًا، وتتبعنا للطرق لأجل وجود متابع أو شاهد يسمى الاعتبار، وهذا معنى قول الإمام أحمد: ((لأعتبره)) أي لأجل أن أنظر هل له من يتابعه أو له حديث شاهد.

***

قال شيخ الإسلام: ولهذا عبد الله بن لهيعة يكثر الإمام أحمد من الرواية عنه في المسند كثيرًا جدًا لكن عبد الله بن لهيعة هذا من علم أنه سمع منه قبل احتراق كتبه كان حجة، ومن علم أنه سمع منه بعد ذلك كان مشكوكًا فيه وغير موثوق به؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ اختلفت حاله بعد احتراق كتبه، وإذا شككنا هل هو ممن سمع منه قبل أو بعد؛ فإننا نتوقف فيه بدون أن نرجح، لكن القسم الثاني نرجح أنه خطأ.

* * *

قال شيخ الإسلام: وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ، فإنهم أيضًا يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم غلطه فيها بأمور يستدلون بها، ويسمون هذا: ((علم علل الحديث)) وهو من أشرف علومهم، بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه، وغلطه فيه عرف، إما بسبب ظاهر؛ كما عرفوا أن النبي صلي الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال وأنه صلى في البيت ركعتين وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها وهو محرم، ولكونه لم يصل مما وقع فيه الغلط، وكذلك أنه اعتمر أربع عمر وعلموا أن قول ابن عمر: إنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط.

الشرح

إذا مع أن هؤلاء كلهم ثقات لكن الغلط لا يسلم منه أحد، وعلى هذا فالنبي صلي

=

=

الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال؛ لأنها هي بنفسها قالت: إنه تزوجها وهو حلال، وكذلك قال ابو رافع وهو السفير بينهما: إنه تزوجها وهو حلال، وأما صلاته في البيت يعني: في الكعبة فهذا لا شك فيه ثابت، ونفي ابن عباس له يحمل على أنه نفى علمه به، وأما رواية أنه أعتمر أربع عمر فهو ثابت أيضًا.

فالنبي صلي الله عليه وسلم اعتمر أربع مرات؛ العمرة الأولي: عمرة الحديبية، والثانية عمرة القضاء، والثالثة عمرة الجعرانة، والرابعة: العمرة التي كانت مع حجه، فإنه كان قارنًا، فهذه أربع عمر، ولم يعتمر النبي عليه الصلاة والسلام سواها أبدًا، فقول ابن عمر: إنه اعتمر في رجب هذا مما وهم فيه رضي الله عنه.

* * *

قال شيخ الإسلام: وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع، وأن قول عثمان لعلي: كنا يومئذ خائفين

مما وقع فيه الغلط.

الشرح

عثمان رضي الله عنه لا يري التمتع، ويقول إن الرسول عليه الصلاة والسلام تمتع؛

لأنه كان خائفًا، ولكن هذا ليس بصواب، فإن الرسول كان تمتع وهو آمن ما يكون وليس فيه خوف.

* * *

قال شيخ الإسلام: وأن ما وقع في بعض طرق البخاري ((إن النار لا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خلقًا آخر، مما وقع فيه الغلط وليس فيه خوف.

الشرح

هذا أيضًا مما نعلم أنه غلط وهو أن النار يبقى فيها فضل عمن دخلها، فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم النار، فهذا ليس بصواب، بل النار لا تزال يوضع فيها وهي

=

=

تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الله عليها رجله- سبحانه وتعالى- فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط ولأن النار لو أنشأ لها أقوامًا لإحراقهم بها لكان ذلك منافيًا للعدل والرحمه، فهذا مما يعلم أنه ليس بصواب حتى وإن ورد في صحيح البخاري، وقال هذا الراوي فيه وهم والطريق الآخر اصح منه.

***

قال شيخ الإسلام: والناس في هذا الباب طرفان: طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله، لا يميز بين الصحيح والضعيف فيشك في صحة أحاديث أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعًا بها عند أهل العلم به، وطرف ممن يدعي اتباع الحديث والعلم به كلما وجد لفظًا في حديث قد رواه ثقة أو رأي حديثا بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته.

الشرح

وهذا الذي قاله الشيخ أخيرًا، وحكم بأنه طرف يقع فيه كثير من الناس اليوم، فتجدهم يعتمدون على ظاهر الإسناد، ويصححون الحديث بناء على ظاهره، ولا ينظرون إلي الأحاديث الصحيحة التي تعتبر في السنة كالجبال، وهذه المسألة دائما أحذر منها، وأقول: إن مثل هذه الأحاديث التي ليست في الكتب المعروفة المتلقاة عن أهل العلم إذا وردت ولو بسند ظاهر الصحة وهي تعارض الأحاديث الواضحة البينة المتلقاة بالقبول؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يعتمد عليها، فكما أننا لا نعتمد على ظاهر الإسناد-لا تصحيحًا ولا تضعيفًا -فإنه يجب أن نحيل هذه المسائل إلي القواعد العامة في الشريعة والأحاديث التي تعتبر جبالًا راسية، فالشيخ الآن بين رَحِمَهُ اللهُ أنه قد يكون السند صحيحًا والمتن غير صحيح كما سبق من ذكر الأوهام، كذلك بعض الناس الذين يدعون علم الحديث وانهم أهله

=

=

ورجاله تجدهم يعتمدون على حديث رواته ثقة، وظاهره الصحة فيجعلونه معرضًا للأحاديث المتلقاة بالقبول المتفق على صحتها.

* **

قال شيخ الإسلام: حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة أو يجعله دليلًا له في مسائل العلم، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط.

وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق، وقد يقطع بذلك، فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل، مثل حديث يوم عاشوراء، وأمثاله مما فيه أن من صلي ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبيا، وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

الشرح

حاطب الليل لا يميز بين الرطب واليابس، وبين الحطب والحية وغيرها فيلتقط ما يجده.

* * *

قال شيخ الإسلام: والواحدي صاحبه كأن أبصر منه بالعربية لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة والموضوعات في كتب التفسير كثيرة.

الشرح

=

=

هذا تقويم من شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ- لهذه الكتب فتكلم عن الثعلبي والواحدي والبغوي. ومتقضى كلامه أن تفسير البغوي أحسن هذه التفاسير.

وإذا سأل أحدكم: هل سياق الإسناد قبل الحديث الموضوع يبرر الإتيان به في كتاب التفسير؟ فأقول هذا وإن كانت تبرأ ذمته به لكنه لا ينبغي أن يأتي بالموضوعات، هذا في الموضوع، أما الضعيف فأهون. إذًا فالموضوع لا ينبغي أن يأتي به.

* * *

قال شيخ الإسلام: منها الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة وحديث على الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم (٠).

الشرح

تكلم المؤلف- رَحِمَهُ اللَّهُ- على حديث على الطويل، وهذا الحديث روي من عدة طرق أخرجها الطبري وغيره في تفسير قوله تعالي: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (المائدة:)، وفحواها أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه فنزلت الآية. قال ابن كثير في هذه الروايات: وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها، وعلق المرحوم الشيخ أحمد شاكر على هذه الآثار التي أخرجها الطبري بقوله: ((وهذه الآثار جميعًا لا تقوم بها حجة في الدين)).

وشيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ- يرى أنه موضوع، والموضوع هو المكذوب على الرسول ﷺ.

ومثل ما روي في قوله: (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد:)، أنه على (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) (الحاقة:)، أذنك يا علي.

الشرح

=

=

والظاهر أن هذا من تفسير الرافضة، فهم الذين يدسون مثل هذه الأشياء، ولا شك أن لكل قوم هاديًا، لكن ليس هو على فقط، كل قوم يسر الله لهم من يهديهم، وعلى رأس الهداة الرسل عليهم الصلاة والسلام. (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) هذه في أي أذن واعية، تعي القول وتفهمه فهي داخلة في هذه الآية.

ومثل هذا ما أخرجه ابن جرير، وابن مردوية، وأبو نعيم وغيرهم من حديث ابن عباس، قال لما نزلت:) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد:) وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: ((أنا المنذر، وأوما بيده إلي منكب على فقال: أنت الهادي يا على. بك يهتدي المهتدون من بعدي، قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

فصل

في النوع الثاني: الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال

وأما النوع الثاني من سببي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبد الرزاق ووكيع وعبد بن حميد وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم،، ومثل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهوية، وبقي بن مخلد، وأبي بكر بن المنذر، وسفيان بن عيينه، وسنيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله بن ماجه، وابن مردويه.

: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به.

الشرح

=

=

إذا القسم الأول: وهم الذين اعتقدوا شيئًا فأرادوا أن يحملوا معاني الكلام عليه، وهذا كما يكون في العقائد والأمور العلمية يكون كذلك في الأحكام والأمور العملية، تجد الرجل يعتنق مذهبًا معينًا ثم يحاول أن يصرف معاني النصوص إلي ذلك المعنى المعين الذي كان يعتنقه سواء في أسماء الله وصفاته، أو في التوحيد، أو ما أشبه ذلك.

فمثلًا: يقول أنا أجيز التوسل حتى بالجن والشياطين، لأن الله يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) (المائدة:) فأتوسل بكل شيء، وكذلك أيضًا ينكر صفات الله ﷻ ويقول لأن الله يقول (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشوري:) وأنا إذا أثبت الصفة مثلت، يكون معتقدًا هذا الاعتقاد ثم يحمل القرآن على ذلك.

القسم الثاني: ليس عنده اعتقاد سابق لكنه يفسر القرآن بحسب ما يدل عليه اللفظ، بقطع النظر به وهو الله، وعن المنزل عليه وهو الرسول ﷺ، وعن المخاطب به وهم المرسل إليهم، ينظر إلي الكلام من حيث هو كلام فقط، وهذا أيضًا خطأ، فإنه بلا شك عند جميع الناس أن الكلام يختلف معناه بحسب المتكلم به، وبحسب المخاطب به أيضًا.

فمثلًا لو جاءتك كلمة نابية من شخص محترم، وجاءتك مثل هذه الكلمة من شخص ساقط فإن كلمة الأول أشد تاثيرًا، لأن كلمة المحترم لها وزن، فإذا وصفني بعيب مثلًا فمعناه أنه حط من قدري، لكن إذا جاء شخص ساقط يسب كل أحد وسبني فلن يهمني كثيرًا. مع أن الكلمة واحدة.

كذلك أيضًا، لو أن واحدًا تكلم مع شخص فقال: والله هذا رجيل ! ورجيل تصغير رجل- وهو يتحدث عن صبي صغير، صارت مدحًا له، ولكن لو قالها لرجل عاقل كبير صارت ذمًا.

إذًا فالكلمة الواحدة تجدها تختلف بحسب المخاطب بها، حتى إن الكلمة التي

=

=

تصغر تكون أحيانًا معناها عظيمًا وكبيرًا كما قيل:

وكل أناس سوف تدخل بينهم

دويهية تصفر منها الأنامل

فبعض الناس يأخذ القرآن والحديث ويفسره بحسب ما يقتضيه ذلك اللفظ الظاهر بقطع النظر عن المتكلم به والمخاطب والمنزل عليه وقرائن الأحوال، وهذا خطأ.

* * *

قال شيخ الإسلام: فالأولون راعوا المعنى الذي من غير نظر إلي ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به عندهم العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به والسياق الكلام، ثم هؤلاء كثيرًا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعني في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيرًا ما يغلطون في صحة المعني على الذي فسروا به القرآن كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلي المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلي اللفظ أسبق.

الشرح

ولكن الواجب على الإنسان أن ينظر إلى اللفظ وينظر إلى قرائنه المحيطة به، من حال المتكلم به والمخاطب والمنزل عليه وما أشبه ذلك، وهذا شيء معروف لكل أحد؛ بل إن الكلام يختلف حتى في نبرات المتكلم، فلو تكلم مثلًا بعنف واحمرار عين وانتفاخ أوداج وانتشار شعر فليس كمن تكلم بهدوء، تجد الأول كأنما يرمي بشرر والثاني ليس كذلك.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا جعلهم على قسمين: قسم ينظرون إلى المعنى لكن يحاولون أن يجعلوه على ما يريدونه هم، وقسم ينظرون إلي اللفظ فقط، ليس عندهم اعتقاد

=

=

سابق لكن ينظرون إلى مجرد اللفظ بقطع النظر عن الأحوال والقرائن. فهؤلاء ينظرون إلي المعنى وهؤلاء ينظرون إلي اللفظ، ويقصد بالأولين الذين عندهم اعتقاد القسم الأول.

❊ ❊ ❊

قال شيخ الإسلام: والأولون صنفان تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به. وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلًا فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول، وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضًا في تفسير الحديث.

فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها.

وعمدوا إلي القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات علي مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه.

الشرح

والفرق بين الأمرين أنهم تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم ويحرفون الكلام عن مواضعه. ونضرب مثلًا لذلك بالمعطلة، حيث يقولون: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، هذا يدل على أننا لا نثبت أي صفة تكون للمخلوق، وليس صحيحًا أن الآية تدل على ما قالوا. وتارة يحرفون الكلم فيقولون: إن المراد باليد: القدرة أو النعمة. فهم يثبون هذا لكن يحرفونه، فتارة يحملون اللفظ، ما لا يحتمله، وتارة يصرفونه عن معناه.

ومن هذا ما وقع أخيرًا من أولئك الذين فسروا القرآن بما يسمي بالإعجاز

=

=

العلمي، حيث كانوا يحملون القرآن أحيانًا ما لا يتحمل، صحيح أن لهم استنباطات جيدة تدل على أن القرآن حق ومن الله ﷻ، وتنفع في دعوة غير المسلمين إلي الإسلام ممن يعتمدون على الأدلة الحسية في تصحيح ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، لكنهم أحيانًا يحملون القرآن ما لا يتحمله، مثل قولهم: إن قوله تعالي: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن:)، إن هذا يعني الوصول إلى القمر وإلى النجوم وما أشبه ذلك، لأن الله قال: (لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) والسلطان عندهم العلم. وهذا لا شك أنه تحريف، وأنه حرام ان يفسر كلام الله بهذا، لأن من تدبر الآية وجدها تتحدث عن يوم القيامة، والسياق كله يدل على هذا. ثم إنه يقول: (أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) وهؤلاء ما نفذوا من أقطار السموات، بل ما وصلوا إلي السماء، وأيضًا يقول: (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ) وهؤلاء لم يرسل عليهم.

والحاصل أن من الناس من يتجاوز ويغلو في إثبات أشياء من القرآن ما دل عليها القرآن، ومنهم من يفرط وينفي أشياء دل عليها القرآن، لكن يقول هذا ما قاله العلماء السابقون ولا نقبله. لا صرفًا ولا عدلًا، وهذا خطأ أيضًا، فإذا دل القرآن على ما دل عليه العلم الآن من دقائق المخلوقات، فلا مانع من أن نقبله وأن نصدق به إذا كان اللفظ يحتمله، أما إذا كان اللفظ لا يحتمله فلا يمكن أن نقول به.

* * *

قال شيخ الإسلام: ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم. وهذا كالمعتزلة مثلًا فإنهم من أعظم الناس كلامًا وجدالًا.

=

=

الشرح

فالخوارج مثلًا يأخذون بنصوص الوعيد وما ظاهره الكفر، فيكفرون المسلمين بالكبائر.

والرافضة يحرفون القرآن أيضًا فيقولون في قوله تعالي: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) (الرحمن:)، المراد بذلك على وفاطمة، ويقولون ((وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)) (الاسراء: ٠) المراد بها بنو أمية. ولهم تفاسير غريبة منكرة -والعياذ بالله-فهم يحرفون الكلم عن مواضعه في تفسير الآيات الدالة على الذم وتأويلها إلي خصومهم، والآيات الدالة على المدح يجعلونها لمن ينتصرون لهم.

وكذلك الجهمية - والعياذ بالله- أصحاب الجهم بن صفوان يحرفون كل آيات الصفات، لأنهم يعتقدون أن الله ليس له صفة، وأن أسماءه مجرد إعلام، ومنهم من يقول: إنه ليس له اسم ولا صفة وأما هذه الأسماء فهي أسماء لمخلوقاته، ليست أسماء له وعلى كل حال الحمد لله ﴾ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ) (البقرة:)، وأما المعتزلة أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فهم كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ من أعظم الناس كلامًا وجدالًا؛ لأنهم دائمًا يرجعون إلي العقل ولا يعبؤن بالنصوص إطلاقًا، حتى فيما لا تدركه العقول يحكمون العقل، والقاعدة عندهم في الصفات يقولون: إن ما أثبته العقل فهو ثابت سواء كان موجودًا في الكتاب والسنة أو لم يكن موجودًا، وما نفاه العقل فهو منفي سواء كان موجودًا في الكتاب والسنة أم لا، وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه، فأكثرهم نفاه؛ لأنه قال: لا نثبت إلا ما أثبته العقل، وبعضهم توقف فيه، فما دام العقل لا يدل على إثباته ولا نفيه نتوقف، وهم يجادلون في هذا جدالا عظيمًا، وإذا رأيتهم تعجبك أقوالهم، ولكنها أقوال باطلة، كما قيل فيها:

حجج تهافت كالزجاج تخالها

=

=

حقا وكل كاسر مكسور

فهم يتناقضون فتجد الواحد منهم يرى أن من الواجب أن يوصف الله بكذا، والآخر يرى أنه من المستحيل أن يوصف الله بكذا، وتناقض الأقوال يدل على بطلانها.

وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي، ومثل كتاب أبي على الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة.

الشرح

الكشاف لأبي القاسم الزمخشري كتاب معروف متداول، وهو جيد في اللغة والبلاغة، لكنه على أصول المعتزلة مثل ما قال الشيخ، ولا تكاد تعرف كلامه في ذلك إلا إذا كان عندك علم بمذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة والجماعة؛ لأنه رجل جيد وبليغ، يدخل عليك الشيء وأنت لا تشعر به، حتى كأنك تظن أن هذا هو الكلام الصحيح السداد، لكن فيه بلاء، فمثلا: قال: (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) (آل عمران:)، قال أي: فوز أعظم من دخول الجنة والنجاة من النار؟! وهذا كلام طيب. لكنه يريد نفي رؤية الله ﷻ؛ لأن رؤية الله ﷻ أعلى شيء، كما قال تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (يونس:)، فأنت إذا قرأت هذا الكلام فستجده صحيحا، فليس هناك فوز أعظم من دخول الجنة والنجاة من النار، ولن تدري أن هذا الرجل يشير إلى أنه لا رؤية، وأن الله لا يرى؛ لأن رؤية الله اعظم من دخول الجنة، وأعظم من كل شيء. وله أشياء عجيبة وتصرف يتلاعب بالعقول. إذا لم يكن عندك حذر منه ومعرفة بأصول المعتزلة، وأصول أهل السنة

=

=

والجماعة، فإنك تضل. هذا إذا تكلم فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وما يتعلق بمذهبهم، أما إذا تكلم في البلاغة والعربية فهو جيد.

وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات.

الشرح

فهم يقولون: نحن نوحد الله ونقول من أصولنا التوحيد. ولكن التوحيد الذي يريدون له معنى آخر.

وكذلك أيضا: العدل، والعدل أيضا أصل عظيم، قال تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (النحل: ٠).

والثالث: المنزلة بين المنزلتين، ولكي نعرف هذا الأصل عندهم نضرب مثلا فنقول: هناك رجل محافظ على الطاعات متجنب للمعاصي، ورجل آخر يفعل الكبائر وهو مؤمن، ورجل ثالث: كافر. فهل تجعل الثلاثة سواء؟ فإذا أجبتهم: بلا، يقولون: إذا هذا المؤمن الذي يفعل الكبائر يصير في منزلة بين المنزلتين، فلا نقول مؤمن ولا كافر.

أما الأصل الرابع فهو إنفاذ الوعيد، فهم يقولون: إن الله ﷻ يتوعد على فعل المعاصي التي لا تخرج من الإسلام مثل: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء:)، ومثل: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر، قاطع الرحم، والمنان بما أعطى))، ومثل: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)). فيقولون نحن ننفذ هذا الوعيد؛ لأن الذي قال هذا الوعيد الله ﷻ وهو قادر فلابد من إنفاذه، فهم يقولون

=

=
ننفذ الوعيد.

والأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من أصولهم، ونعم الأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن سيأتينا ما يريدون بهما من معنى باطل، وما يلبسون به على الناس، فهذه الأصول إذا قرأتها تقول هذه أصول حق لكن عندما تفسر تجد أنها باطلة.

وتوحيدهم هم توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك، قالوا إن الله لا يرى، وإن القرآن مخلوق، وإنه تعالى ليس فوق العالم. وإنه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة ولا صفة من الصفات.

الشرح

وعلى هذا صار التوحيد عندهم تجريد الله من صفاته، يقولون: وحد الله، يعني جرده من صفاته؛ لأنك إذا أثبت له صفة مثلته بغيره وحينئذ لم تكن موحدا؛ لأن التوحيد مبناه على أمرين: على النفي والإثبات؛ لأنه من وحد يوحد، فلا توحيد في إثبات فقط ولا توحيد في نفي فقط، لأن النفي المجرد تعطيل، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، فلا توحيد إلا بنفي وإثبات.

فإذا قلت: لا قائم، فهذا نفي، وبهذا فقد نفيت القيام عن كل أحد فهو تعطيل، وإذا قلت زيد قائم فهذا إثبات، لكن لا يمنع المشاركة، قد يكون عمرو قائما، وخالد قائما. وإذا قلت لا قائم إلا زيد صار الآن توحيدا، وجعلت القائم واحدا وهو زيد.

ومثل ذلك لا إله إلا الله. فهؤلاء يقولون إن التوحيد أن لا تثبت لله صفة أبدا نسأل الله العافية فلا سمع ولا بصر ولا قدرة ولا حياة ولا علم ولا شيء أبدا.

وأما عدلهم فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها كلها ولا هو قادر عليها كلها؛ بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله لا خيرها ولا شرها، ولم
=

=

يرد إلا ما أمر به شرعًا، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

الشرح

وهذا هو العدل عندهم. يقولون: إن الله لا يشاء كل شيء، وأفعال العباد لا يشاؤها، ولا خلق كل شيء. يقولون: لو كان الله يشاء أفعال العباد ويخلقها ثم يعذبهم فهذا ظلم، فإذا قلنا لم يشاؤه ولم يخلقها، ويعذبهم لأنهم هم الذين شاؤوها أوجدها صار ذلك عدلا. وهذا لو تأتي به لعامي وتحدثه بهذا الحديث وافقك فورا، وقال هذا صحيح، كيف الله يشاء أفعالهم ويخلق أفعالهم ثم يعذبهم عليها، فهم قالوا: هذا ظلم. إذا فالله ﷻ لم يشأ أفعال العبد ولا خلقها.

ونقول لهم ردًا على قولهم: هذا في الحقيقة تعطيل وتنقص للخالق؛ أن يكون في ملة ما لا يشؤه ولا يريده، أو أن يكون هناك خلق لم يقم به، وليس الله هو الذي خلقه، وهذا معنى قوله: (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الزمر:)، ثم نقول: إن الظلم منتف بأمرين: معقول، ومنقول.

أما المعقول فلأن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان عقلًا يدرك به ويعرف به ما يضره وينفعه، وهو ليس كالبهيمة؛ بل له عقل يتصرف به، ولم يحجزه عن عقله أبدًا.

وأما المنقول فقد أرسل إليه الرسل، وبين له الحق من الباطل، وأقام عليه الحجة (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء:).

والظلم الحقيقي أن يقول لك افعل، ثم تفعل ثم يعاقبك، أما أن يقول: لا تفعل ثم تفعل فيعاقبك فهذا ليس ظلما أبدًا، ولو أن رجلا قال لولده: لا تفعل ثم فعل فعاقبه لعده الناس عدلا وتقويما لهذا الابن، فانظر إلى تلبيسهم والعياذ بالله ومجادلتهم، وإلى باطلهم.

ثم هم يقولون: إن الله تعالى لا يريد إلا ما أمر به فقط، فجعلوا الإرادة بمعنى

=

=

الأمر، أي: الأمر الشرعي، وهذا باطل، لو قلنا إنه لا يريد إلا ما أمر به شرعا لكان أكثر الناس يعملون بغير إرادته؛ لأن تسعمائة وتسعًا وتسعين بالألف كلهم لا ينفذون مراد الله الشرعي، ولا شك أن هناك فرقا بين الرضا التابع للأمر وبين المشيئة الشاملة لما أمر به وما لم يأمر به.

***

قال شيخ الإسلام: وقد وافقهم على ذلك متأخروا الشيعة؛ كالمفيد، وأبي جعفر الطوسي وأمثالهما.

الشرح

عبر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا بالشيعة وكان فيما سبق يعبر بالروافض، فهم شيعة بحسب قولهم إنهم شيعة لعلي بن أبي طالب، وهم روافض لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ حين اجتمعوا إليه، وقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر فأثنى عليهما خيرا وقال هما وزيرا جدي، يعني بجده الرسول عليه الصلاة والسلام. فلما قال ذلك رفضوه واعتزلوه ومن ثم سموا رافضة.

والحقيقة أن أهل السنة والجماعة هم شيعة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن آمن من آل البيت؛ لأن المؤمن هو ولي لكل مؤمن، قال الله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (التوبة:)، فكل من كان أكثر إيمانا بالله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه أكثر ولاية للمؤمنين من آل البيت ولغيرهم، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برئ مما ينسب إليه من هذه الأقوال الباطلة، بل إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حرق غاليتهم بالنار، لما جاءوا إليه وقالوا له: أنت الله نعوذ بالله فما صبر، وأمر بالأخاديد فخدت وبالحطب فجمع ثم ألقاهم في النار شر قتلة، والعياذ بالله لأنهم جعلوه إلهًا، والذين لا يجعلونه إلها باللفظ قد يجعلونه إلهًا بالمعنى، ويعتقدون أنه مدبر للكون، وأنه ما من ذرة في الأرض ولا في السماء إلا والذي يدبرها علي بن أبي طالب قطب

=

=

الأقطاب.

وعلى كل حال فنحن نقول: نشهد الله ﷻ على محبة المؤمنين من آل البيت، ونرى أن المؤمن من آل البيت له حقان علينا: الحق الأول: إيمانه، والثاني: قرابته من رسول الله ﷺ، ونرى أنهم ما شرفوا إلا لقربهم من الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس الرسول هو الذي شرف بهم؛ بل هم شرفوا بقربه، ونرى أيضا أنهم مراتب ومنازل، وأنهم وإن تميزوا بهذه الخصيصة -وهي القرب من الرسول عليه الصلاة والسلام- فلا يعني ذلك أن لهم الفضل المطلق على من فضلهم في العلم والإيمان، فأبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم هؤلاء أفضل من علي بن أبي طالب الفضل المطلق، وإن كان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يمتاز عنهم في بعض الخصوصيات، لكن هذا لا يلزم منه التفضيل المطلق؛ لأن هناك فرقا بين الإطلاق وبين التقييد.

وبالنسبة لإحراقهم بالنار فهو رضي الله عنه رأى أن هذا أعظم عقوبة، مثل ما فعل أبو بكر رضي الله عنه في الأمر بتحريق اللوطي، وإن كان الإنسان قد يخفى عليه بعض الشيء أحيانا، ولهذا قال ابن عباس: لو أنه في مقام علي بن أبي طالب لقتلهم؛ لقول النبي صلي الله عليه وسلم: ((من بدل دينه فاقتلوه)) وما أحرقتهم بالنار؛ لأن النبي صلي الله عليه وسلم نهى أن يعذب بالنار، فقيل إنه قال: ما أسقط ابن أم الفضل على الهنات يعني على العيب والخطأ.

***

قال شيخ الإسلام: لأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الاثني عشرية، فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك، ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج إنفاذ الوعيد في الآخرة، وأن الله لا يقبل في أهل

=

=

الكبائر شفاعة ولا يخرج منهم أحدًا من النار. ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من المرجئة والكرامية والكلابية وأتباعهم فأحسنوا تارة وأساؤوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض كما قد بسط في غير هذا الموضع.

الشرح

وهذا يكون أحيانا يرد بعض الناس على بعض البدع ولكن يكون في طرفي نقيض مع الآخرين فيأتي هو أيضًا ببدعة، مثل ما ذهب إليه بعض الناس من أنه ينبغي في عاشوراء التوسعة على الأهل وإدخال الفرح والسرور، ليقابلوا بذلك الرافضة الذين يجعلون يوم عاشوراء يوم غم وحزن، وهذا خطأ؛ لأن البدعة لا يجوز أن تقابل ببدعة؛ بل يكفي في البدعة منعها، بأن توضح أن هذا غير مشروع، وأن كل بدعة ضلالة، وأما أن تحدث شيئا يقابلها فلا يمكن هذا، ولا ينفع ولا يذهب البدعة إلا السنة فقط.

***

قال شيخ الإسلام: والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين، ولا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلا على قولهم أو جوابا على المعارض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحًا ويدس البدع، في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير، ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد

=

=

فسادها ولا يهتدي لذلك.

الشرح

ذلك لأنهم كانوا أقوياء في الأساليب، فتجد ظاهر كلامهم أنه جيد وليس فيه شيء، لكنهم يدسون فيه السم، فهؤلاء الذين ينقلون من تفاسيرهم ما ينقلون وهم يعلمون فساد قولهم هؤلاء قد اغتروا بأساليبهم وألفاظهم ولم يهتدوا إلى ما كانوا عليه من الباطل، وقد سبق لنا أن بينا أن سبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون رأيًا ثم يستدلون لرأيهم، أو يستدلون بنصوص الكتاب والسنة على ما لا تدل عليه.

***

ثم إنه بسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجبا، فتفسير الرافضة كقولهم: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) (المسد:) وهما أبو بكر وعمر.

الشرح

يعني يجعلون أبا بكر وعمر اليدين، يدان لأبي لهب - نسأل الله العافية - وهذا مما يدل على أن الرافضة في الحقيقة عندهم من الغل والحقد على الصحابة رضي الله عنهم؛ بل وعلى دين الإسلام ما يتسترون بظاهر حالهم من أنهم مسلمون وأنهم أهل الإسلام، وهم والعياذ بالله في باطن أمرهم من أشد عداوة وبغضًا لأصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، فرجل يقول إنه مؤمن وإنه مسلم، ثم يقول إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر، وهما أشرف الأمة على الإطلاق، فإذا كانت مثل هذه الآيات تنزل فيهما فما بقي للمسلمين شأن بعد ذلك.

***

قال شيخ الإسلام: و (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) (الزمر:)، أي بين أبي بكر

=

=

وعمر وعلى في الخلافة.

الشرح

والمراد لئن أشركت بالله في عبادته (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) (الزمر:)، وهم يقولون: لئن أشركت بين هؤلاء الثلاثة في الخلافة، يعني لئن جعلتهم خلفاء فإن عملك يبطل، وعلى هذا فقد حرفوا القرآن أعظم تحريف، والعياذ بالله.

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَة) هي عائشة حسب زعمهم.

الشرح

قاتلهم الله، فالذي يقول هذا هو موسى لقومه، ومع ذلك قالوا: إن المراد عائشة أمرنا الله تعالى أن نذبحها، وعندي أن أي إنسان يرى مثل هذه التفاسير، لا يشك في كفرهم والعياذ بالله، ولا يشك أنهم حتى ما عندهم حياء من الله ولا يستحيون من عباد الله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) (البقرة:)، أين عائشة من موسى حتى ينزل كلام رب العالمين على هذه المعاني؟

هذا قول الرافضة المتقدمين، وكذلك المتأخرين، فإنهم يأخذون عنهم ويجادلون عنهم.

وليس بصحيح قول من يقول إن الرافضة المتقدمين يرون إمامة أبي بكر وعمر، فإني قد رأيت أمرًا عجبا منهم، لكن ليس من كلهم حيث يقول: إن أبا بكر كافر، وعمر كافر وعثمان كافر، وعلي كافر، الثلاثة الأولون قالوا كفرة لأنهم ظلمة، والرابع علي، لأنه لم يدافع عن الحق واستسلم للباطل، فكفر برضاه بالباطل.

و(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) (التوبة:)، طلحة والزبير.

الشرح

وهذا لا يستقيم، يقول تعالى: (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي

=

=

دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) (التوبة:) هذا في المعاهدين الذين عاهدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، والحكم ينسحب على غيرهم بالقياس، والآية ليست لما أراد هؤلاء المحرفون والعياذ بالله، لكنهم لا يبالون ولا يستحيون لا من الله ولا من عباد الله ولا من أحد.

قال شيخ الإسلام: و (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) (الرحمن:)، علي وفاطمة، و (اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن:) الحسن والحسين.

الشرح

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ (٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن) إذا كان بينهما برزخ لا يبغيان فهل علي مع فاطمة بينه وبينها برزخ؟ لكن هذه سخافة مثل ما قال الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يقضي العالم منها العجب من سوء الفهم وسوء القصد، فتفاسيرهم هذه جامعة بين أمرين: بين سوء الفهم وبين سوء القصد.

والمراد بالبحرين كما قال العلماء معناه المالح والعذب، والبرزخ الذي بينهما قيل إنه ما يرى عند مصب النهر في البحر فإن النهر يأتي مندفعا بقوة ويكون أمامه كالحاجز فلا يمتزج بالبحر عند المصب، وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالبرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض، وأن هذا من قدرة الله ﷻ لأن الأرض كروية وكيف أن الله ﷻ أمسك هذا البحر فيها حتى لا يبغي. ولا يبغي بمعنى لا يطغى على اليابس وقال بعضهم: إن هذا البرزخ هو برزخ دقيق بين البحر المحيط والبحار الأخرى التي تعتبر كالخلجان بالنسبة له. فبينها برزخ، ويقولون إنه يحس به بالأسماك التي تعيش في هذا ولا تعيش في الثاني أو بالعكس، وهذا يدل على أنها متنوعة على الرغم من أنها متلاصقة، فبينهما برزخ.

فهذه ثلاثة أقاويل في معنى هذا، ولم يقل ا حد من أهل العلم لا السابقون ولا

=

=

اللاحقون إن المراد به فاطمة وعلي بن أبي طالب، لكن هذه من خرافات الرافضة والعياذ بالله.

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس:) في علي بن أبي طالب.

الشرح

أين هذا من اللفظ؟ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) أي في كتاب يأتم به الإنسان ويأخذ به ويراه ويشاهد عمله، فأين هذا من علي بن أبي طالب؟ لكن هم يقولون علي إمام ومبين وفصيح ومظهر للحق، فكل شيء أحصاه الله في هذا الرجل، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين، وهذا واضح في أنهم يدعون أن علي بن أبي طالب يعلم الغيب؛ لأنهم يقولون كل شيء أحصيناه وأين مكانه؟ في هذا الإمام، أي كائن في هذا الإمام، فعلى هذا يعتقدون أن عند علي بن أبي طالب من علم الغيب والشهادة ما عند الله، فكل ما أحصاه الله من الأمور فإنه كائن في هذا الإمام في علي بن أبي طالب.

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ) (النبأ:،)، علي بن أبي طالب.

الشرح

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) يقولون: إن هذا علي ابن أبي طالب لأن الناس مختلفون فيه ما بين مادح وقادح ومحب ومبغض، ولكن هل علي نبأ أم منبأ به؟ ثم هذا الخلاف (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) كائن لأنه لم يقل الذي هم فيه يختلفون أو سيختلفون، وعلي بن أبي طالب حين نزلت الآية ما اختلف الناس فيه.

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (المائدة:)، هو علي، ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم، وهو تصدقه بخاتمه في الصلاة (٠).

=

=

الشرح

وليس ذلك بصحيح (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) المقصود كل مؤمن فهو ولي لله ورسوله، قال تعالى: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) (البقرة:)، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: ((أنا أولى بكل مؤمن من نفسه))، فهذه الولاية الحقيقية، ولا ريب أن علي بن أبي طالب له حظ من هذه الآية كغيره من المؤمنين، وأنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويركع ويسجد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولكن لا يمكن أن نقول إن هذا خاص به لا يتناول غيره، فعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدخل في الآية، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وابن مسعود، وابن عباس، وخالد بن الوليد، وغيرهم من الصحابة كلهم داخلون في هذه الآية.

والزبير بن العوم قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: ((إن لكل نبي حواري وإن حواري الزبير، ومع ذلك فهم يقولون إن الزبير من أئمة الكفر، فإذا كان الزبير من أئمة الكفر وهو حواري الرسول ﷺ، فكيف يكون أصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم الخاصون به هم أئمة الكفر؟ وما ظنك برجل يكون أصحابه الخاصون به أئمة الكفر؟ يكون مثلهم إما بطريق اللزوم، وإما بطريق الاصطحاب، ولهذا جاء في الحديث وإن كان فيه نظر: ((الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)).

***

قال شيخ الإسلام: وكذلك قوله: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) (البقرة: من الآية)، نزلت في على لما أصيب بحمزة.

الشرح

يا سبحان الله العظيم أيهما أعظم مصابًا الرسول ﷺ أم على بحمزة؟ الرسول صلي الله عليه وسلم. ولكنهم يقولون: إن عليا هو الذي أصيب بحمزة، وهو الذي

=

=

له هذه الآية، فيكون من كذبهم وافترائهم على بن أبي طالب اشد حزنًا على فقد حمزة من رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكذبوا والله في ذلك، فأعظم من أصيب به بلا شك هو الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومما يقارب هذا في بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله: (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (آل عمران:)، إن الصابرين رسول الله، والصادقين أبو بكر، والقانتين عمر، والمنفقين عثمان، والمستغفرين على،

الشرح

وهذا جهل أيضًا؛ لأن هذه الأوصاف يصح أن تنطبق على موصوف واحد، أما توزيعها فهذا غير صحيح، وأيضًا: (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ) الذي يظهر أن القانت أفضل منهم. فكيف يكون الرسول ﷺ في مرتبة الصبر، وهذا في مرتبة الصدق، وهذا في مرتبة القنوت؟! فالرسول عليه الصلاة والسلام هو أفضل من اتصف بهذه الصفات، فهو أصبر الصابرين، وأصدق الصادقين من الخلق، وكذلك أفضل القانتين، وهو أجود المنفقين، حتى إنه يعطي عطاء من لا يخشي الفاقة، ويبيت طاويا عليه الصلاة والسلام، وأما استغفاره فناهيك به؛ كان يستغفر الله ويتوب في اليوم مائة مرة، وكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ويقول: ((أفلا أكون عبدًا شكورا)).

وفي مثل قوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) أبو بكر (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار) عمر (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) عثمان (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) (الفتح:).

الشرح

وهذا التوزيع ليس بتفسير الرافضة لكنه تفسير قاصر بلا شك، يقول: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) لأن ابا بكر معه في الغار (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ

=

=

مَعَنَا) (التوبة: ٠) وعمر، (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ لأن اشد الناس في دين الله عمر، وعثمان مشهور بالرحمة واللين والعطف، (رُكَّعًا سُجَّدًا) وعلى بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الراكعين الساجدين، لكن عثمان أيضًا شهر عنه أنه كان يقوم الليل، وأنه كثير القيام.

والحاصل أن هذا خطأ وأن قوله: (وَالَّذِينَ مَعَه) يشمل كل الصحابة، وقوله: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) ينطبق على الجميع.

* * *

قال شيخ الإسلام: وأعجب من ذلك قول بعضهم (وَالتِّينِ) أبو بكر، (وَالزَّيْتُونِ) عمر (وَطُورِ سِينِينَ) عثمان،)وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) على.

الشرح

هذا كتاب تفسير، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ينقل عن تفسير، فالتين: أبو بكر، والزيتون: عمر، وطور سينين: عثمان، وهذا البلد الأمين: على بن أبي طالب. سماهم كلهم بمأكول ومسكون. نسأل الله العافية، ولعله لما قدم التين وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقدما بدأ به، فقال ما دام أبو بكر أفضلهم والله بدأ بالتين، ثم بالزيتون على حسب ترتيبهم في الخلافة والأفضلية.

وقال: إن هذه أربع كلمات، وهؤلاء أربعة وهم مرتبون هكذا أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على.

* * *

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص، وقوله تعالي: (وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) كل ذلك نعت للذين معه، وهي التي يسميها النحاة خبرا بعد خبر، والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد

=

=

وهم الذين معه، ولا يجوز أن يكون كل منها مرادًا به شخص واحد، وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصرًا، في شخص واحد كقولهم: إن قوله تعالي (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِين) (المائدة: من الآية) أريد بها على وحده، وقول بعضهم: إن قوله: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) (الزمر: من الآية) أريد بها أبو بكر وحده.

الشرح

هذا قال به بعض المفسرين، قالوا: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) هذه نزلت في أبي يكر، ولكن سبق لنا أن قولهم نزلت في كذا يعني أنه داخل في معناها، فيكون تفسيرًا، وعلى هذا فمن قال إنها نزلت في أبى بكر، فمعناه أن أبا بكر - رضي الله عنه - يدخل في هذا الوصف (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) ولا شك أن أول من يدخل فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه جاء بالصدق وصدق به، فشهد لنفسه عليه الصلاة والسلام أنه رسول حقًا، وأنه عليه الصلاة والسلام مرسل إلى جميع الناس، وأمر أن يقول ذلك (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) فجاء بالصدق وصدق به أيضًا.

* * *

قال شيخ الإسلام: وقوله: (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) (الحديد ١٠) أريد بها أبو بكر وحده ونحو ذلك.

الشرح

والذي قال أريد بها أبو بكر مثلًا نقول: إن أراد على سبيل الحصر فخطأ، وإن أراد على سبيل المثال فصحيح. ولنا أن نقول: نزلت في أبي بكر يعني وفي أمثاله، ولكن إن أريد الحصر فهذا لا يجوز، وهذه قاعدة في التفسير؛ أنه لا يجوز أن يخصص العام ويحصر معناه إلا بدليل، فإن جاء الدليل مثل قوله: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

=

=
النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) أن الناس المراد بهم أبو سفيان (قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) وهذا كما قيل، وإلا فإن الواجب إبقاء العم على عمومه لأن حصره في واحد من أفراده قصور في التفسير، وكما نعلم جميعًا أن المفسر يجب أن يكون مطابقًا للمفسر، أما أن يخصص فهذا لا يجوز، كما أنه لا يجوز أن يعم أيضًا، فإذا جاء نص في شيء خاص لم يجز أن نجعله عاما اللهم إلا عن طريق القياس، إن كان مما يمكن فيه القياس.

* * *

قال شيخ الإسلام: وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري وهو من أجل التفاسير المأثورة وأعظمها قدرًا، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلي السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

الشرح

هذا من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يدل على أن الرجل منصف وعادل، وأن الحق ولو كان من أهل البدع، يجب أن يقبل، وأن أهل البدع إذا كان بعضهم أقرب إلي السنة من بعض يجب أن يثنى عليهم بهذا القرب، وأما أن نرد ما قاله أهل البدع جملة وتفصيلًا، حتى ما قالوه من الصواب، ونقول هذا قاله صاحب بدعة، فهذا خطأ؛ لأن الواجب أن يقول الإنسان الحق أينما كان ولا ينظر إلي قائله، ولهذا قال يجب أن يعرف الرجال بالحق، لا الحق بالرجال، وأنت إذا عرفت الحق بالرجال
=

=

فمعناه أنك مقلد محض، لكن إذا عرفت الرجال بالحق، وأنه إذا كان ما يقولونه حقا فهم رجال حقا فهذا هو العدل، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: يجب أن يعطي كل ذي حق حقه حتى ولو كان من أهل البدع وكان قريبا من أهل السنة فإننا نعطيه حقه، ونقول إن هذا المبتدع أقرب إلى السنة من هذا المبتدع.

❊❊

قال شيخ الإسلام: فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية

بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه- وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان- صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا.

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان

مخطئا في ذلك بل مبتدعا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه.

فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب.

الشرح

وهنا يجدر التنبيه إلي هذه المسألة المهمة فإن من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين

وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في هذا؛ بل يكون مبتدعًا وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، يعني نحن نصفه بأنه مخطئ وبأنه مبتدع، لأن كل قول في دين الله لم يأت في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا في قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان فهو قول مبتدع؛ لأنه محدث، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)).

=

أو في الأمور العلمية العقدية، فكل شيء مخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان فإنه قول مبتدع، وصاحبه مخطئ، ولكن هل يأثم هذا القائل؟ ينظر إذا كان مجتهدًا باذلًا وسعه في طلب الحق ولكن لم يصل إليه فهو مغفور له، ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه))

قلنا الآن نظران: نظر إلى القول أو التفسير، ونظر إلي القائل أو المفسر، فالقول أو التفسير المخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان هذا قول مبتدع باطل، وأما بالنسبة للقائل فينظر فإن كان قد بذل الجهد وسعى بقدر ما يستطيع إلى الوصول إلى الحق ولكن لم يتبين له إلا ما قال، فإنه يغفر له خطؤه لأن الله يقول: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة:)، فيعذر بهذا الخطأ، وهذه القاعدة تكاد تكون مجمعًا عليها، وإن كان الصحابة يختلفون في تفصيلها أحيانًا لكن هي قاعدة أصيلة وأصل في هذا.

ورب سائل يقول: كيف يقال لمن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم مبتدعًا وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه. كما ذكر ذلك المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؟

والجواب على ذلك بأنه قال بقول ليس معروفًا عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعلى ذلك فهو مبتدع في قوله هذا، ولكن لا نعطيه الوصف المطلق وإن كان مبتدعًا في ذلك.

ورب سائل يقول: بالنسبة إلي التفاسير العلمية التي تنظر للمكتشفات الحديثة، عندما يكون هناك تفسير لآية ليس هناك دليل شرعي عليه، بمعني حديث عن الرسول ﷺ، ولكن هنا أقوال عن الصحابة أو أقوال عن السلف في تفسير هذه الآية، وقد يكون أيضًا هناك أكثر من قول، ويأتي مفسر يستند في التفسير إلي جانب اللغة العربية أو المكتشفات الحديثة. فما هو القول في هذا؟ وهل يدخل في القاعدة السابقة فيقال عنه إنه مبتدع؟

=

والجواب: أنه إذا صحت دلالة القرآن عليه فليس بمبتدع، إذا كان لا يخالف قول السلف في ذلك، أما إذا خالف قولهم فإننا نقول: إنه مبتدع ونرده، لكن غالب ما تكون من هذه المكتشفات مسكوت عنه بالنسبة لمن سبق، لأنهم لم يطلعوا عليها، لكن قد يكون القرآن دل عليها بعمومه أما أن يدل عليها بخصوصها فهذا بعيد ولو دل عليها بخصوصها لكان الصحابة يدرون عنه وفسروه بها. فهذه الاكتشافات العلمية إذا صح أنها داخلة في الآية أما إذا لم يصح فهذا يجب أن يرد على قائله.

فمثلًا هناك من فسر الفتنة بالغزو الفكري، وهذا صحيح، كما أخبر بها الرسول صلي الله عليه وسلم: ((فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا)).

* * *

قال شيخ الإسلام: فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب. ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلي الله عليه وسلم، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم؛ فقد اخطأ في الدليل والمدلول جميعًا.

الشرح

أخطأ في الدليل؛ لأنه فسره بغير المراد به، وأخطأ في المدلول حيث أتي بمعني مخالف لما كان عليه السلف.

* * *

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها: إما عقلية، وإما سمعية، كما هو مبسوط في موضعه.

=

=

الشرح

هذا صحيح وما قاله الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ له أصل في القرآن، وأن المخالفين لذلك لهم شبه، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) (آل عمران:) لأن المبطل لو أتي بشيء لا شبهة فيه لم يقبل منه، فهو يأتي بأمور فيها اشتباه لكنه والعياذ بالله- زائغ لا يحمل هذا المتشبه على المحكم حتى يكون بينا، وإنما يجعل الشيء كله مشتبهًا، وكما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كل من خالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان فله شبه يتعلل بها ويموه بها.

* * *

قال شيخ الإسلام: والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله.

فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق. وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق.

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره.

وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم يفسرون القرآن بمعان صحيحة، لكن القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير. وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة فإن ذلك يدخل في القسم الأول وهو الخطأ في الدليل والمدلول

=

=

جميعا، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسدًا.

* * *

قال شيخ الإسلام: فصل في تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة وأقوال الصحابة

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن اصح الطرق في ذلك ان يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلي الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالي: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) (النساء:٠) وقال تعالي: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل:) وقال تعالي: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (النحل:) ولهذا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ((ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه (٠) يعني السنة والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لا أنها تتلي كما يتلى.

وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلي اليمن: ((بم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي)).قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: ((الحمد لله الذي وفق رسول

=

=

رسول الله لما يرضي رسول الله)) وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد.

الشرح

تكلم بعض العلماء على هذا الحديث وضعفه، ولكن المؤلف يرى أن إسناده جيد وهو الظاهر، لأنه وافق القاعدة العامة في الشريعة في أن الإنسان يحكم بكتاب الله، فإن لم يجد فبسنة رسول الله ﷺ؛ لأن في السنة أشياء لم يفسرها القرآن، ولا تجدها ظاهرة في القرآن، فلابد من الرجوع إلى السنة. أما إذا كانت لا في هذا و لا في هذا فالإنسان ((يجتهد رأيه)) وليس المعنى أنه يحكم برأيه، لكن المعنى أن يجتهد في تطبيق الواقعة والحادثة على نصوص الكتاب والسنة، وبهذا يكون هذا الحديث مطابقًا للقواعد العامة في الشريعة، والذين ضعفوه ظنوا أن قوله: ((فإن لم تجد فبسنة رسول الله))، أن تكون السنة في مرتبة متأخرة عنه، وظنوا أيضًا أن قوله: ((أجتهد رأيي)) يعنى: أحكم بالرأي وليس كذلك.

وإذا سأل سائل: هل السنة تنسخ القرآن؟

فالجواب: أننا نقول إذا صحت نسخت القرآن، لكن ليس لهذا مثال سليم.

وأما قول النبي صلي الله عليه وسلم: ((لا وصية لوارث)) فهذا المثال خطا؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: ((إن الله أعطى كل ذي حق حقه))، فبين في هذا الحديث الناسخ فقط، يعني كأنه يقول الآن الفرائض كفتكم الوصية.

ثم لو تنزلنا تنزيلًا كاملًا فهذا الحديث لم ينسخ الآية، ولو فرضنا أن الرسول قال لا وصية لوارث فقط فما نسخ الآية، لأن الآية في ذلك تقول: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (البقرة: ٠)، وهذا تخصيص وليس نسخًا؛ لأن الأقربين غير الوارثين الوصية باقية فيهم. فهو تخصيص، يعني لو تنزلنا تنزلًا كاملًا مع هؤلاء فليس هذا بنسخ ولكنه تخصيص، والمهم أن هذا المثال لا يصح علي أي تقدير.

=

=

* * *

قال شيخ الإسلام: وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، مثل عبد الله بن مسعود. قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كريب، قال: ((أنبانا جابر بن نوح، قال: أنبانا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق، قال عبد الله- يعني ابن مسعود- والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

الشرح

هذا فيه السفر في طلب العلم، وليس مراد ابن مسعود ﵁ بهذا أن يمدح نفسه وأن يفخر بها، لكن مراده أن يحث الناس على تعلم كتاب الله ﷻ وعلى طلب تفسيره من أهله، ولعله أيضًا يريد أن يتعلم الناس منه، تفسير كلام الله سبحانه وتعالى.

* *

وقال الأعمش أيضًا: عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر

آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ.

الشرح

البحر لكثرة علمه، والحبر معناه أيضًا سعة العلم، لأن الحبر والبحر الشيء الواسع ويقال: الحبر، والحبر بالكسر أيضًا.

=

=

وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلي الله عليه وسلم له، حيث قال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار قال: أبنانا وكيع قال: ابنانا سفيان عن الأعمش عن مسلم قال: عبد الله يعني ابن مسعود قال: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، ثم رواه عن يحيي بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحي عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس، ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك، فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة. فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليٌ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة • وفي رواية سورة النور- ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا فإن غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: ((بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار))، رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو.

الشرح

المعروف أن ابن مسعود لا يأخذ عن الإسرائيليات، وإنما الذي يأخذ ابن عباس، فلا أدري هل كلام المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كلام يراد به الجميع أو يراد به البعض؟

***

=

=

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب،

فكان يحدث منها بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه. لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله تعالى لإبراهيم، وتعيين ((البعض)) الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى إلي غير ذلك مما أبهمه الله تعالي في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا في دينهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز.

الشرح

يقول: ((نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز)) لا على الاعتبار به ولكن لبيان اختلافهم في هذا الأمر، وقد يكون في نقل اختلاف أهل الكتاب في مثل هذه الأمور، قد يكون فيه فائدة لنا، وهو أننا إذا كان هناك اختلاف، فإن هذا يقلل من الثقة مما في أيديهم، ويعلم أن عندهم تصرفًا وكذبًا فيما ينقلونه، أما أن نذكره على سبيل الاعتبار وأنها أقاويل صحيحة مقبولة، فهذا لا يجوز فيما لا نعلم صدقه، وكما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنها ثلاثة أقسام، ومر علينا فيما سبق أن ما نحتاج إليه من

=

=

النقل لا بد أن يقوم عليه دليل؛ وما لا حاجة إليه فإنه لا يقوم عليه دليل لأنه لا حاجة إليه، فكل ما يحتاج العباد إلى بيانه فلابد أن يقوم عليه دليل صحيح، ولا يمكن أن يدعه الله ﷻ بدون دليل تطمئن له النفوس.

* * *

قال شيخ الإسلام: كما قال تعالى: (سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (الكهف:)، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا فإنه تعالى أخبر عنهم في ثلاثة أقوال، وضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته، إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما، ثم ارشد إلي أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)،فإنه لا يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: (فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا)، أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم.

فأما من حكي خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا، فإن صحح غير الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب، أو جاهلًا فقد أخطأ.

الشرح

=

=

أي أنه إذا حكى الأقوال ولم يبين الصحيح فتارة يلام عليه وتارة لا يلام، فإن كان يعلم الصحيح ولم يبينه فهذا قصور، وإن كان لا يعلم كما لو كان القولان عنده على حد سواء فإنه لا يلزم أن يبين، وهذا يقع حتى في كلام المؤلف أحيانًا في الفتاوى وغيرها، يقول فيه قولان لأهل العلم، ثم يقول هذا قول الجمهور، وهذا قول فلان، وهذا قول مالك، وهذا قول الشافعي وما أشبه ذلك.

فالإنسان الذي يسوق الخلاف فإن من الأمانة أن ينقل جميع الأقاويل، لأنه كما قال الشيخ ربما يحذف من الأقاويل ما هو أصح، ثم إذا نقل الأقاويل فإن كان لديه حجة ترجح أحد الأقوال وجب عليه أن يبين الراجح حتى لا يدع السامع في حيرة، وإن كان لا يعلم فليس عليه بأس في أن يذكر الخلاف ولا يبين الراجح؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

* * *

قال شيخ الإسلام: كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالًا متعددة لفظًا، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

الشرح

والآية الكريمة التي ساقها المؤلف زعم بعض الناس أن أصحاب الكهف ليسوا سبعة وثامنهم كلبهم، وتشبثوا بقوله تعالي: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)، وهذا لا شك أنه غلط في تفسير الاية، لأن الله تعالي قال: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)، يعني وقد أبطل قولين وسكت عن الثالث، وعلى هذا فيكون الثالث هو الأصح، لأنه لو كان خلاف الأصح لبينه الله ﷻ؛ لأن الله سبحانه وتعالي لا يعلم الأمر على خلاف ما هو عليه، ثم إنه قال: (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ)، ولو كان المراد بقوله:) رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) مع أنه لا يعلمه أحد من الناس لكان متناقضا لقوله (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيل)

=

=

فالآية بلا شك تدل على أن أصحاب الكهف كانوا سبعة وكان ثامنهم كلبهم.
وهنا نكتى في مسألة العدد، فالله قال: (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم)، ولم يقل: ثمانية ثامنهم كلبهم، لأن الكلب من غير الجنس، وإذا كان من غير الجنس فإنه لا يدخل في العدد، ولكنه يجعل بعده، ولهذا قال الله ﷻ: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) ولم يقل من نجوي أربعة إلا هو رابعهم؛ لأنه خالق وهم مخلوقون.
وقوله: (فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا)، فسره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بأن المعنى لا تجهد نفسك في التعمق والجدال في عدتهم، لأنه لا طائل تحته، وهكذا يمر أحيانًا في الأحاديث إبهام الرجل صاحب القضية، فيقال: قال الرجل، أو أتى الرجل، أو دخل أعرابي، أو ما أشبه ذلك. فتجد بعض الناس يتعب نفسه في تعيين ذلك الرجل مع أنه لا طائل تحت ذلك، فيشتغل بالمهم إن كان مهما عن الأهم، والأولى لطالب العلم ألا يضيع الوقت في مثل هذه الأمور التي فائدتها قليلة بالنسبة لغيرها، أو ربما أنها لا فائدة فيها إطلاقًا.
والحاصل أن أصحاب الكهف عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقد مر علينا أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازداوا تسعًا.
ومثال ذلك الاختلاف في عصا موسى من أي شجرة كانت، وكذلك الاختلاف في الجزء الذي ضربوا به الميت القتيل، كل هذا لا طائل تحته ولا فائدة لنا.

* * *

قال شيخ الإسلام: فصل في تفسير القرآن بأقوال التابعين
إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه

=

=

وأساله عنها، وبه إلى الترمذي قال حدثنا الحسين بن مهدي البصري قال حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال مجاهد: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا وبه إليه قال: حدثنا ابن أبي عمر، قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت، وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس ((اكتب)) حتى سأله عن التفسير كله.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن انس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحيكها أقوالًا، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد كثير في الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا اجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلي لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

الشرح

=

=
أشار شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ- هنا إلى أن العلماء اختلفوا في كونه حجة في التفسير، لأنه قال: فإن كثيرًا من أهل العلم، وهذا يدل على أنها ليست محل إجماع، وهو كذلك، ولا ريب أن التابعين يختلفون؛ فالذين تلقوا عن الصحابة التفسير هؤلاء لا يساويهم من لم يكن كذلك، ومع هذا فإنهم إذا لم يسندوه عن الصحابي فإن قولهم ليس بحجة على من بعدهم إذا خالفهم، لأنهم ليسوا بمنزلة الصحابة ولكن قولهم أقرب إلي الصواب، وكلما قرب الناس من عهد النبوة كانوا أقرب إلى الصواب ممن بعدهم، وهذا شيء واضح لغلبة الأهواء فيما بعد، ولكثرة الواسطات بينهم وبين عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، فبعدهم هذا لا شك أنه يقلل من قيمة أقوالهم، ومن هنا نعرف أن الرجوع إلي قول من سلف أمر له أهميته، وأن غالب اجتهادات المتأخرين مما يحتاج إلي نظر فإنها قد تكون بعيدة من الصواب.

فصارت الآن الطرق لتفسير القرآن أربعة: القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، وأقوال التابعين، على خلاف في الأخير. فهو - رَحِمَهُ اللَّهُ- يرى أنهم إذا اجتمعوا، فقولهم حجة، وإذا اختلفوا، فليس بحجة.

* * *

قال شيخ الإسلام: فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، حدثنا مؤمَل، قال حدثنا سفيان قال حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.

حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)) وبه إلى الترمذي قال حدثنا عبد بن حميد قال حدثني
=

=

حبان بن هلال قال: حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال: حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ((من قال في القرآن برأية فأصاب فقد أخطأ))، قال الترمذي هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم، وهكذا روي عن بعض أهل العلم عن أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم. وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم. وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم، فمن قال في القرآن برأية فقد تكلف ما لا علم به، وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ، والله أعلم.

الشرح

ولهذا كان من اجتهد فأخطأ فله أجر، كذلك من لم يجتهد ولو أصاب فقد أخطأ إذا كان ما تكلم فيه ليس محلا للاجتهاد.

وتفسير القرآن بالرأي تارة يفسره الإنسان بحسب مذهبه كما يفعله أهل الأهواء. فيقول المراد بكذا وكذا. كذا: وكذا مما ينطبق على مذهبه، وكذلك هؤلاء المتاخرون الذين فسروا القرآن بما وصلوا إليه من الأمور العلمية الفلكية أو الأرضية والقرآن لا يدل عليها، فإنهم يكونون قد فسروا القرآن بآرائهم، إذا كان القرآن لا يدل عليها، لا بمقتضى النص ولا بمقتضى اللغة، فهذا هو رأيهم ولا يجوز أن يفسر القرآن بهذا.

وكذلك أيضًا لو لم يكن عند الإنسان فهم للمعنى اللغوي ولا للمعنى الشرعي

=

=

الذي تفسر به الآية فإنه إذا قال قولا بلا علم، فيكون آثما، كما لو أن أحدًا من العامة فسر آية من القرآن الكريم على حسب فهمه من إلي مستند- لا لغوي ولا شرعي -فإنه يكون حرامًا عليه ذلك؛ لأن مفسر القرآن يشهد على الله بأنه أراد كذا، وهذا أمر خطير، لأن الله حرم علينا أن نقول عليه ما لا نعلم (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (لأعراف:)، فأي إنسان يقول على الله ما لا يعلم في معني كلامه أو في شيء من أحكامه فقد أخطأ خطأ عظيمًا.

وهكذا سمي الله تعالى القذفة كاذبين فقال:)َ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (النور:) فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به وتكلف ما لا علم به، والله أعلم.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق: ((أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم)) (٠) وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن ابا بكر الصديق سئل عن قوله: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) (عبس:)، فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، إسناده منقطع.

الشرح

فلو أن رجلًا قيل له ما معني قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) قال)َأَبًّا) يعني أب أي: الوالد، فيكون قد فسر القرآن برأيه وجهله؛ لأنه صار يسمع الناس يقولون الأب ويشددون الباء، وهي ليست مشددة فظن أن قوله تعالي: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) يعني فاكهة وأبَا يعني وأبا فيكون هذا قال في القرآن برأية.

وكذلك من ينزل القرآن على غير ما أراد الله مثل قول بعضهم إذا سئل عن شيء

=

=

قال: (لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (المائدة:٠)، هذا أيضًا من تنزيل القرآن على غير ما أراد الله.

ومنه نعرف خطأ ما نقل مدحًا لامرأة يسمونها المتكلمة بالقرآن.

ذكرها في جواهر الأدب، امرأة لا تتكلم إلا بالقرآن، وقيل إنها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيغضب عليها الرحمن، وأظن فعلها هذا زلّة لأنها بهذا تنزل القرآن على غير ما أراد الله.

***

قال شيخ الإسلام: وقال أبو عبيد أيضًا: حدثنا يزيد، عن حميد عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) فقال: ما الأب؟ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر!

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن صرب، قال حدثنا بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) (عبس:) فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه؟!

الشرح

في قوله: ((وفي ظهر قميصه أربع رقاع)) الفائدة فيه من حيث مصطلح الحديث أنه أدل على ضبط الرواي، يعني أن الراوي قد ضبط هذه القصة أو هذه القضية بحيث إنه أدل على ضيط الراوى يعنى أن الرلوى قد ضبط هذه القصة أو هذه القضية بحي إنه لم يخف عليه ما في ثوبه من الرقاع، أما الفائدة فيها من حيث السلوك فهو أن نعرف ما كان عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من عدم الأثرة، وأنهم يعدون أنفسهم كغيرهم من الناس، لا يمتازون على أحد، وأن حالهم كحال غيرهم، حتى إن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة حرم على نفسه أن يأكل من الطعام

=

=

الطيب واقتصر على اقل ما يطعم. كل هذا من أجل ألا يستاثر بشيء على رعيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن كان ذلك حين كانت الرعية مستقيمة على أمر الله ورعة عما لا يحل لها، ولهذا قيل: قال رجل لعلي بن أبي طالب: ما بال الناس قد خرجوا عليك ولم يخرجوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: كانت الرعية في وقت أبي بكر وعمر مثل على بن أبي طالب، وكانت الرعية في وقتي مثلك.

وكذلك هشام بن عبد الملك أو عبد الملك لما رأى من الناس تذمرًا جمع أعيانهم وشرفاءهم وخطب فيهم وقال لهم: أما بعد فإنكم تريدون أن نكون لكم كأبي بكر عمر، فكونوا لنا كالرجال في عهد أبي بكر وعمر. نكن لكم كأبي بكر وعمر. وجاء في الأثر: كما تكونون يولي عليكم.

* * *

قال شيخ الإسلام: وهذا كله محمول على أنهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إنما أرادا استكشاف ماهية الاب، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى: (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا).

الشرح

(وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) هي محل الشاهد فعلم من قوله (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) أنه مما تنبت الأرض، ولا يخفى على أبي بكر وعمر أن الأب نبات من الأرض لكنهما أرادا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- تعيين هذا الأب ما هو؟ وأي شجر هو؟ فأشكل عليهم، وقد قيل في تفسيره أن الأب هو نبت يشبه القت عندنا، والظاهر والله أعلم أنه نبت صالح، يعنى بمعنى أنه شامل عام لكل ما يكون نبتًا.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي ملكية أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبي أن يقول

=

=

فيها، إسناده صحيح.

الشرح

أي أن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الذي دعا له الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يعلمه الله التأويل، يقول لو يسأل عن الآية التي لو سئل عنها بعضكم الآن لأجاب. وهذا يدل على أنه يجب التحري في تفسير كلام الله سبحانه وتعالي.

* * *

قال شيخ الإسلام: وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي ملكية قال: سأل رجل ابن عباس عن: (يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) (السجدة:) فقال ابن عباس فما (يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج:) فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: ((هما يومان ذكرهما الله في كتابه والله أعلم بهما)) فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

الشرح

قد سبق لنا أن يوم القيامة كان مقداره خمسين ألف سنة كما في سورة المعارج في قوله تعالى: (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة في مسلم، في مانع الزكاة أنه يعذب بها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وأما التي في سورة السجدة: (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) فهذا - والله أعلم- في الدنيا؛ لأنه قال: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) وأما قوله تعالي: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (الحج:) فما دام عند الله، فنحن لا نعلمه، وهذا اليوم الله أعلم به.

* * *

قال شيخ الإسلام: وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية

=

=

عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال: أحرج عليك إن كنت مسلما لما قمت عني، أو قال: أن تجالسني.

الشرح

وهذا محمول على الورع وعدم المضى في التكلم في معني كلام الله ﷻ، وإلا فليس المعني إذا جاء رجل فسأل عن معني آية تقول له: لا تجلس عندنا، أو قم، أو ما أشبه ذلك. ولمن بناء على شدة تحريهم وتحرجهم كانوا يقولون مثل هذا.

وقال مالك عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنا لا نقول في القرآن شيئًا.

وقال الليث عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم ابن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط.

=

=

وقال: أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده.

حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله.

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم قال: أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه.

***

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا يعلم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالي: (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ) (آل عمران: من)، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا مؤمل قال: حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا

=

=

الله تعالي ذكره. والله سبحانه وتعالي أعلم.

الشرح

إذًا هذه أربعة أقسام: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وهو ما يعرف في اللغة مثل: الكهف والعرش والسرر ومنضودة والطلح وما أشبه ذلك، والثاني تفسير لا يعذر أحد بجهالته وهو تفسير ما يجب اعتقاده أو العمل به، كتفسير قوله تعالي: (أَقِيمُوا الصَّلاة) فيجب علينا أن نعرف معنى إقامة الصلاة التي أمرنا بها. وكذلك ما يجب علينا اعتقاده كالإيمان بالرسل ونحوهم، فإنه لا يعذر أحد بجهالته، والثالث تفسير يعلمه العلماء مثل العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وما يتعلق بذلك من الأحكام، فإن هذا ليس كل أحد يعرفه، وليس واجبًا على كل أحد بل هو فرض كفاية، وتفسير لا يعلمه إلا الله، فمن ادعي علمه فهو كاذب، كما جاء في بعض ألفاظ الأثر مثل العلم بحقائق صفات الله ﷻ وكيفيتها، وكذلك العلم بحقائق ما أخبر الله به عن اليوم الآخر وعن الجنة والنار وما أشبه ذلك مما لا يمكننا إدراكه، فهذا من ادعى علمه فإنه كاذب، لأنه لا يعلمه إلا الله. انتهى.

مسألة: هل في القرآن مجاز.

قبل الدخول في حكم المجاز عند الأصوليين بين المنع والجواز أرى أنه يحسن وضع مدخل تمهيدي للبحث يتم فيه التعريف والتقسيم والتمثيل ونحو ذلك مما له علاقة وطيدة بالموضوع تهيئ القارئ للوقوف على حكم المسألة بالتفصيل.

فكان هذا التمهيد المشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: توطئة في تقسيم الألفاظ:

من المعلوم لدى المتخصصين أن الألفاظ لها أقسام كثيرة باعتبارات متعددة، فمنها تقسيم اللفظ باعتبار وضعه للمعنى كالعام والخاص والمطلق والمقيد والأمر والنهي ونحوها.

=

=

ومنها تقسيم اللفظ باعتبار ظهور المعنى وخفائه كالنص والظاهر والمجمل والمؤول.

ومنها تقسيم اللفظ باعتبار كيفية دلالته كالمنطوق والمفهوم بأقسامه المختلفة.

ومنها تقسيم اللفظ باعتبار الاستعمال وهو المقسم إلى الاستعمال الحقيقي والمجازي.

وهذه التقسيمات ليست محل اتفاق بين العلماء لكنها اصطلاحات ارتضاها بعضهم، وآخرون نظروا إلى الألفاظ باعتبارات أخرى لا تخرج في حقيقتها عما أوردته.

والذي يهمنا في هذه الأقسام آخرها وهو تقسيم الألفاظ باعتبار استعمالها.

وأنواع هذا القسم ليست محل اتفاق بين العلماء، لكنها المسلك الذي سار عليه جمهورهم.

ولذلك فإني في هذا التمهيد سأسير على ماسار عليه الجمهور، ثم يأتي بيان الحكم في المباحث القادمة.

ولأبدأ في هذا التمهيد بعد هذه التوطئة في التعريف لكل من الحقيقة والمجاز.

المطلب الثاني: تعريف الحقيقة في اللغة:

الحقيقة في اللغة مأخوذة من حق يحق حقا وحقيقة، يقال: حق الشئ إذا وجب وثبت، ومنه قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}، وقوله سبحانه: {كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}. وحققت الأمر وأحققته أحقه إذا تيقنته أو جعلته ثابتا لازما، وحقيقة الشئ: منتهاه وأصله المشتمل عليه.

قال ابن فارس: "(حق) الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشئ وصحته، فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلفيق، ويقال: حق الشئ: وجب".

=

=

ومن مجموع هذه المعاني اللغوية لكلمة "الحقيقة" يتبين أنها تطلق ويراد بها أحد المعاني الآتية:

(أ) الوجوب، والثبوت، واللزوم، والوقوع.

(ب) الإحكام، والصحة، والإتقان، والجودة، والحسن.

(ج) غاية الشئ، ومنتهاه، وأصله، وماهيته.

(د) التيقن، والجزم، والقطع.

المطلب الثالث: تعريف المجاز في اللغة:

المجاز لغة: مأخوذ من جاز، يجوز، جوزا، وجوازا، يقال جاز المكان، إذا سار فيه، وأجازه: قطعه، يقال جاز البحر: إذا سلكه وسار فيه، حتى قطعه، وتعداه. ويقال: أجاز الشئ: أي أنفذه، ومنه إجازة العقد: إذا جعل جائزا، نافذا ماضيا على الصحة.

وجاوزت الشئ وتجاوزته: تعديته، وتجاوزت عن المسئ: عفوت عنه وصفحت.

قال ابن فارس: "(جوز) الجيم والواو والزاء أصلان، أحدهما: قطع الشئ، والآخر: وسط الشئ، فأما الوسط: فجوز كل شئ وسطه والأصل الآخر: جزت الموضع: سرت فيه، وأجزته: خلفته، وقطعته، وأجزته: نفذته..".

المطلب الرابع: تعريف الحقيقة في الاصطلاح:

للعلماء في تعريف الحقيقة اصطلاحا أقوال متعددة، أهمها:

"أنها اللفظ المستعمل فيما وضع له"، ومن الأصوليين من زاد في هذا الحد قيدا وهو قولهم "في اصطلاح التخاطب"لأنه إذا كان التخاطب باصطلاح، واستعمل فيه ما وضع له في اصطلاح آخر، لمناسبة بينه، وبين ما وضع له في اصطلاح التخاطب، كان خارجا عن حد الحقيقة، مع أنه لفظ مستعمل فيما وضع له، ومن

=

=

تعريفاتها أنها: "اللفظ المستعمل فيما وضع له أولا"، ليخرج مثل ما سبق إيراده في التعريف قبله.

ومنها: "أنها ما أفيد بها ما وضعت له، في أصل الاصطلاح الذي وقع التخاطب به".

ومنها: "أنها كل لفظ بقي على موضوعه".

ومنها: "أنها كل اسم أفاد معنى على ما وضع له".

هذه أهم التعريفات التي ذكرها الأصوليون لتعريف الحقيقة، وكما ترى أنها متقاربة، متحدة في أصل المعنى والمراد وإن اختلفت في الألفاظ.

المطلب الخامس: تعريف المجاز في الاصطلاح:

كما تعددت عبارات الأصوليين في المراد بالحقيقة، فقد تعددت كذلك عباراتهم في تعريف المجاز، وإليك أهمها:

أن المجاز: "ما كان بضد معنى الحقيقة".

ومنها: "أنه اللفظ المستعمل في غير ما وضع له".

ومن الأصوليين من زاد على هذا الحد قيدا، وهو قولهم "في غير ما وضع له أولا"، ومنهم من زاد "على وجه يصح" وهو تعريف صاحب الروضة، وبعضهم زاد "في غير ما وضع له، لعلاقة مع قرينة".

ومنهم من عبر بقوله: "قول مستعمل بوضع ثان لعلاقة".

وعرفه بعضهم بأنه: "كل اسم أفاد معنى على غير ما وضع له"().

وذكروا في تعريفه "أنه كل اسم غير ما وقع عليه الاصطلاح على ما وضع له حين التخاطب".

ومن خلال عرض هذه التعريفات يترجح لدي أن تعريف صاحب الروضة أرجحها لأنه جامع مانع وهذا واضح لمن تأمله بخلاف غيره فلم يسلم من

=

=

المناقشات.

وهذا الترجيح مبني على القول بصحة التقسيم. والله أعلم.

المطلب السادس: أقسام الحقيقة وأمثلتها:

قسم العلماء الحقيقة إلى ثلاثة أقسام هي:

الحقيقة اللغوية (الوضعية).

الحقيقة العرفية.

الحقيقة الشرعية.

فاللغوية (الوضعية): هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولا في اللغة، كالأسد المستعمل في الحيوان الشجاع المعروف.

والعرفية: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له بعرف الاستعمال اللغوي وهي ضربان: عرفية عامة وعرفية خاصة.

فمن الأول: أن يكون الاسم قد وضع لمعنى عام، ثم يخصص بعرف استعمال أهل اللغة ببعض مسمياته، كاختصاص لفظ الدابة بذوات الأربع عرفا، وإن كان في أصل اللغة لكل مآدب.

ومنه: أن يكون الاسم في أصل اللغة بمعنى، ثم يشتهر في عرف استعمالهم بالمجاز الخارج عن الموضوع اللغوي بحيث إنه لا يفهم من اللفظ عند إطلاقه غيره، كاسم الغائط فإنه وإن كان في أصل اللغة للموضع المطمئن من الأرض، غير أنه اشتهر في عرفهم بالخارج المستقذر من الإنسان. حتى إنه لا يفهم من ذلك اللفظ عن إطلاقه غيره.

ومن العرفية الخاصة ما تعارف عليه أهل كل فن كالحد والرسم عند المناطقة، والرفع والنصب عند النحاة، والكسر والقلب عند الأصوليين ونحو ذلك.

والحقيقة الشرعية: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل الشرع، كاسم

=

=

الصلاة، والزكاة، والحج ونحوها.

المطلب السابع: أقسام المجاز، وأمثلته:

قسم العلماء المجاز إلى أقسام متعددة، أهمها أربعة هي:

مجاز الإفراد.

مجاز التركيب.

المجاز العقلي.

مجاز النقص والزيادة.

فمجاز الإفراد: هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، لعلاقة مع قرينة صارفة عن قصد المعنى الأصلي كإطلاق لفظ الأسد على الرجل الشجاع.

والتركيب: أن يستعمل كلام مفيد في معنى كلام آخر، لعلاقة بينهما دون نظر إلى المفردات، ومن ذلك جميع الأمثال السائرة، المعروفة عند العرب.

والمجاز العقلي: هو ما كان التجوز فيه في الإسناد خاصة، لا في لفظ المسند إليه ولا المسند، كقولك "أنبت الربيع البقل"، فالربيع وإنبات البقل كلاهما مستعمل في حقيقته، والتجوز: إنما هو في إسناد الإنبات إلى الربيع، وهو لله جل وعلا.

وأما مجاز النقص والزيادة: فمداره على وجود زيادة، أو نقص يغيران الإعراب، ويمثلون للنقص بقوله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ}، والمراد أهل القرية.

ويمثلون للزيادة بقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ويقولون إن الكاف زائدة والمراد ليس مثله شئ.

وهناك أقسام أخرى كمجاز التقديم والتأخير، وغيره، وليس هذا محل بسطه().

وينبغي أن يعلم أن أقسام المجاز هذه إنما هي عند الذين يرون المجاز في العربية، وفي القرآن، أما الذين لا يرونه فلا يعتبرون ذلك كله، وسيأتي لهذا الأمر تفصيل في صلب البحث عند ذكر الخلاف في المسألة.

=

=

وقد أتيت بهذه التقسيمات لعلاقتها الوطيدة بالبحث. والله أعلم.

المطلب الثامن: تاريخ نشوء القول بالمجاز:

المستقرئ للجانب التاريخي لظهور المجاز يجد أن العرب لم يعرف عنهم تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ولم يذكر عنهم التعبير بلفظ المجاز الذي هو قسيم الحقيقة عند أهل الأصول، وإنما هذا اصطلاح حدث بعد القرون المفضلة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا التقسيم اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم بل ولا تكلم به أئمة اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها وإنما هو اصطلاح حادث فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر في المائة الرابعة وظهرت أوائله في المائة الثالثة وما علمته موجودا في المائة الثانية".

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد رده تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز: "وهو اصطلاح حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة بالنص".

المبحث الأول: أقوال العلماء في المجاز

اختلف العلماء في المجاز بين مجيز ومانع ومفصل، ولقد تتبعت أقوالهم فيه فتحصل لي خمسة مذاهبهي:

الأول: الجواز والوقوع مطلقا، وإليه ذهب الجمهور.

الثاني: المنع مطلقا، وإليه ذهب بعض العلماء والمحققين منهم أبو إسحاق الاسفرايينيمن الشافعية، وأبو علي الفارسيمن أهل اللغة.

وهو قول المحققين من العلماء.

القول الثالث: المنع في القرآن وحده، وهو قول بعض العلماء منهم داود بن علي، ومن الشافعية ابن القاص، ومن المالكية ابن خويز منداد.

=

=

ومن الحنابلة جمع منهم: أبو الفضل التميمي بن أبي الحسن التميمي، وأبو عبد الله بن حامدوغيرهم.

القول الرابع: المنع في القرآن والسنة دون غيرهما.

وهو قول ابن داود الظاهري.

القول الخامس: التفصيل بين ما فيه حكم شرعي وغيره، فما فيه حكم شرعي لا مجاز فيه ومالا فلا.

وإلى هذا التفصيل ذهب ابن حزم الظاهري.

المبحث الثاني: الأدلة والمناقشات والراجح ووجه ترجيحه

أولا: أدلة الجمهور القائلين بجواز المجاز ووقوعه:

استدلوا بأدلة كثيرة على ذلك، أهمها:

أن الاسم في لغة العرب منقسم إلى الحقيقة والمجاز، وهذا التقسيم معتبر عند علماء العربية، ومشتهر في استعمالات العرب، والقرآن هو أصل اللغة، ومعينها، فمحال أن يأتي بخلاف ما عليه أهل اللسان العربي، من تقسيم الاسم إلى حقيقة ومجاز.

أن الأمثلة على وقوع المجاز في القرآن وغيره كثيرة جدا، وهي أشهر من أن تنكر كقوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ}، {جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ}، {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ}، وغيرها.

ووجه الاستدلال من هذه الآيات أنها استعملت في غير ما وضعت له أولا في أصل الوضع. فقوله "جناح الذل" الجناح حقيقة للطائر من الأجسام، والمعاني والجمادات لا توصف به، فإثباته للذل مجاز قطعا.

والسؤال لأهل القرية، وليس لها، فهو مجاز بالحذف.

والجدار لا إرادة له، إذ الإرادة حقيقة، من خصائص الإنسان أو الحيوان، وإنما

=

=

هو كناية عن مقاربته الانقضاض لأن من أراد شيئا قاربه فكانت المقاربة من لوازم الإرادة، فتجوز بها عنها.

ثانيا: أدلة المانعين من وجود المجاز، ومناقشتهم للمجيزين:

سأورد هنا أدلة المانعين للمجاز سواء في اللغة أم في القرآن وحده أم في القرآن والسنة لتقاربها، وتلافيا للتكرار وفي ثناياها مناقشة المخالف ومنها:

(أ) أن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز لم يقع إلا في كلام المتأخرين، فهو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة المفضلة، ولم يتكلم في ذلك أحد من الصحابة والتابعين، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم من أئمة المذاهب، وغيرهم، بل ولا تكلم فيه أئمة اللغة والنحو المعتبرون.

(ب) أن علماء السلف الذين ألفوا في ضروب العلم المختلفة، كالفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، لم يوجد فيما كتبوه هذا التقسيم.

وهذا الإمام الشافعي أول من ألف في أصول الفقه لم يتكلم بتقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز.

(ج) أن الذين أطلقوا كلمة المجاز من علماء السلف لم يعنوا بها ما هو قسيم الحقيقة، فأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر ابن المثنيفي كتابه "مجاز القرآن"، ولكنه لم يعن بالمجاز ما يقابل الحقيقة وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية.

وقال الإمام أحمد في كتابه "الرد على الجهمية" في قوله تعالى "إنا" و"نحن" ونحو ذلك في القرآن، هذا من مجاز اللغة ومراده رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك أن هذا مما يجوز استعماله في اللغة، ولم يرد أنه مستعمل في غير ما وضع له.

(د) أن الذين قالوا بالتقسيم مطالبون بالدليل لكون الألفاظ العربية وضعت أولا لمعان، ثم بعد ذلك استعملت فيها، ثم تجوز بها عن ما وضعت له ولن يستطيعوا

=

=

ذلك، لأنه ليس بإمكان أحد أن ينقل عن العرب أنه اجتمع جماعة، فوضعوا جميع الأسماء الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال العرب هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني، وأي دعوى خلاف ذلك فليست صحيحة لعدم نقلها إلينا.

(٥) أن التقسيم ذاته غير صحيح من وجوه:

أن دعوى المجاز تستلزم وضعا قبل الاستعمال، وهذا غير معلوم.

أنه يستلزم تعطيل الألفاظ عن دلالتها على المعاني، وذلك ممتنع لأن الدليل يستلزم مدلوله من غير عكس.

أن التقسيم لا يدل على وجود المجاز، بل ولا على إمكانه، ولا يدل على ثبوت كل واحد من الأقسام في الخارج ولا على إمكانها، فإن التقسيم يتضمن حصر المقسوم في تلك الأقسام وهي أعم من أن تكون موجودة أو معدومة ممكنة أو ممتنعة.

أن هذا التقسيم يتضمن التفريق بين المتماثلين، فإن اللفظ إذا أفهم هذا المعنى تارة، وهذا تارة، فدعوى المدعي أنه موضوع لأحدهما دون الآخر تحكم محض.

أنه يلزم منه الدور، فإن معرفة كون اللفظ مجازا متوقف على معرفة الوضع الثاني، ومستفاد منه، فلو استفيد معرفة الوضع من كونه مجازا لزم الدور الممتنع، فمن أين علم أن هذا وضع ثان للفظ؟ ومن أين علم أن وضع اللفظ لأحد معنيين سابق على وضعه للآخر؟

أن هذا التقسيم يتضمن إثبات الشئ ونفيه، فإن وضع اللفظ للمعنى هو تخصيص به، بحيث إذا استعمل فهم منه ذلك المعنى فقط، ففهم المعنى المجازي مع نفي الوضع، جمع بين النقيضين، وهو يتضمن أن يكون اللفظ موضوعا غير موضوع.

أن المجاز هو ما يصح أن يقال لقائله إنه فيه كاذب لأنه يخبر بالشئ على خلاف

=

=

حقيقته فيصح أن يقال لمن قال رأيت أسدا يرمي إنك كاذب حيث لم ير أسدا وإنما رأى رجلا شجاعا. وهذا ظاهر في ضعف تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز.

أن هذا التقسيم لا ينضبط بضابط صحيح، ولهذا فإن عامة ما يسميه بعضهم مجازا، يسميه غيرهم حقيقة، وكل يدعي أن اللفظ مستعمل في موضوعه وهذا يدل على بطلان هذا التقسيم، وتجرده من الحقيقة.

وإذا بطل التقسيم بطل تقسيم التقسيم حيث قسموا كل قسم إلى أقسام وهذا ينقصه الدليل الصحيح، والنقل السليم.

(و) أن التعريفات التي عرفوا بها كلا من الحقيقة والمجاز لم تخل من مناقشة، وذلك أنهم عرفوا الحقيقة "باللفظ المستعمل في موضوعه"، والمجاز "ما استعمل في غير موضوعه"، وهذا يحتاج إلى إثبات الوضع السابق على الاستعمال وهو متعذر.

ومنهم من زاد "في الاصطلاح الذي به التخاطب"، فيقال من أين يعلم أن هذه الألفاظ التي كانت تتخاطب بها العرب عند نزول القرآن وقبله لم تستعمل قبل ذلك في معنى شئ آخر؟ وإذا لم يعلم هذا النفي لا يعلم أنها حقيقة، ويلزم منه أنه لا يقطع بشيء من الألفاظ أنه حقيقة، ولا قائل بهذا.

(ز) أن الفروق التي يفرق بها بين الحقيقة والمجاز ليست صحيحة، كقولهم: إن المجاز يصح نفيه، والحقيقة ليست كذلك، وإن المجاز ما يتبادر غيره إلى الذهن، والحقيقة ما تتبادر إلى الذهن، وإن الحقيقة ما يفيد المعنى مجردا عن القرائن، والمجاز مالا يفيد ذلك المعنى إلا مع القرينة.

فهذه الفروق لم تخل من مناقشات طويلة، ومستلزمات غير سديدة، ثم ما ضابط القرائن، والعلائق التي تذكر؟ كل ذلك وغيره مما ليس له برهان ساطع، وضابط واضح يدل على عدم صحة هذه الفروق وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

=

=

(ح) أن هذا التقسيم كثيرا ما استعملته الفرق الضالة، المخالفة لأهل السنة وجعلته تكأة لها في تأويل النصوص ورد الأحاديث الصحيحة، ولم ينقل عن السلف استعماله.

(ط) أن هذا الأمر يستلزم لوازم غير صحيحة، ويترتب عليه أمور غير سديدة، وما استلزم ذلك فهو مثله، فما أولت الآيات وردت الأحاديث، إلا بدعوى المجاز، وما عطلت الصفات العلي لله جل وعلا وحرفت إلا بدعوى المجاز، فقطع هذا الباب، وسده أسلم للشريعة، وأقوم للملة.

ومن أشنع اللوازم على قول من فرق بين الحقيقة والمجاز، بأن الحقيقة مالا يصح نفيها، والمجاز ما يصح نفيه، وهذا باطل قطعا. وبهذا الباطل توصل القائلون بالتعطيل إلى نفي صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة بدعوى أنها مجاز، كقولهم في استوى استولى وبتأويلهم اليد بالقدرة والنعمة، والمجيء بمجيء الأمر، وقس على هذا().

ثالثا: أدلة المانعين منه في القرآن ومناقشتهم للمخالفين:

من ذلك إضافة إلى ما سبق: أننا لو أثبتنا المجاز في القرآن لصح أن نطلق على الله سبحانه اسم متجوز ومستعير وهذا لا يصح لأن أسماء الله توقيفية.

كما أن دعواهم في القرآن بضرب الأمثلة المعروفة غير صحيحة، فالآيات والأمثلة التي ذكروها لا مجاز فيها، وإنما هي أساليب استعملتها العرب، ومعان حقيقية جاءت بها اللغة، فمثلا قوله تعالى {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} فيه حذف مضاف، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أسلوب من أساليب العربية معروف. لأنه مما يعلم وحذف ما علم جائز كما قرره علماء العربية.

وأيضا: فإن العرب استعملت لفظ القرية ونحوه من الألفاظ التي فيها الحال والمحل، وهما داخلان في الاسم، كالمدينة والنهر، والميزاب وغيرها، وأطلقت

=

=

هذه الألفاظ تارة على المحل، وهو المكان، وتارة على الحال وهو السكان، وهذا أسلوب مشهور من أساليب العربية.

فيقولون: حفر النهر، يريدون المحل، وجرى النهر، وهو الماء ووضعت والميزاب وهو المحل، وجرى والميزاب وهو الماء، ونحو ذلك.

ونظيره هذا المثال، {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} فقد جاء استعمال العرب لها تارة للمكان، وتارة للسكان، وقد جاء القرآن بذلك كله. قال تعالى: {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} ().

وقال في آية أخرى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}، فالمراد بالقرية هنا السكان، وكذلك قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا}، والمراد السكان.

وقد أطلق لفظ القرية، وأريد به المكان، قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} الآية.

فالحاصل أن العرب تطلق هذا اللفظ، وتريد به تارة المكان، وتارة السكان، والسياق هو الذي يحدد ذلك، وليس هذا اللفظ مجازا، وإنما أسلوب من أساليب العربية المعروفة.

وقوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ} ليس المراد به أن للذل جناحا، بل المراد بالآية الكريمة كما يدل عليه كلام جمع من المفسرين أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، فيكون المعنى "واخفض لهما جناحك الذليل لهما من الرحمة"، وقد ورد ما يدل على ذلك في كلام العرب كقولهم "حاتم الجود" أي الموصوف بالجود.

ووصف الجناح بالذل، مع أنه صفة الإنسان، لأن البطش يظهر برفع الجناح،

=

=

والتواضع واللين يظهر بخفضه فخفضه كناية عن لين الجانب، وإضافة صفة الإنسان لبعض أجزائه أسلوب من أساليب العربية كما في هذا المثال.

وكما في قوله تعالى: {نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}، والمراد: صاحب الناصية()، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: {جدارا يريد أن ينقض} فلا مجاز فيه من وجهين:

أحدهما: أن المراد بالإرادة هنا إرادة حقيقية، لأن للجمادات إرادة حقيقية، لا نعلمها، وإنما يعلمها الله ﷻ ومما يؤيد ذلك سلام الحجر على الرسول (، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه لما تحول عنه إلى المنبر، وهذا كله ناشئ عن إرادة يعلمها الله تعالى وإن لم نعلمها، كما في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}. وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة.

الثاني: أن الإرادة تطلق على معان عدة، منها: المعنى اللغوي المعروف، ومنها: مقاربة الشئ، والميل إليه فيكون معنى إرادة الجدار ميله إلى السقوط، وقربه منه، وهذا أسلوب عربي معروف، وبه ينتفي ادعاء المجاز في الآية.

وأما قوله تعالى: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ} فلا مجاز فيه كذلك، بل هو من إطلاق اسم المحل على الحال فيه وعكسه، وهذا أسلوب من أساليب العربية المشهورة، وكلاهما حقيقة في محله. كما سبق نظيره في القرية، والنهر ونحوها.

فحاصل الجواب على هذه الأمثلة التي ادعي فيها المجاز أن يقال: إن ذلك أسلوب من أساليب العرب على حقيقته.

وقد استدل المانعون لوجود المجاز في اللغة والقرآن، بأدلة كثيرة، وناقشوا أدلة المجيزين بمناقشات طويلة وبينوا ما يلزم على القول بالمجاز من لوازم كثيرة.

وقد كان من رواد هذا القول، والمتصدين لمخالفيه شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد تكلم عنه في مواضع متعددة، وشنع على القائلين به، ودحض حججهم.

=

=

وتبعه في ذلك تلميذه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد تصدى لرد هذا القول، ووصفه بالطاغوت، وناقشه من خمسين وجها، بل أكثر().

وسار على ذلك عدد من المتقدمين، وجمع من المتأخرين.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام، أن السلف كما قدمت، لم يعرفوا هذا المجاز بهذا المعنى الاصطلاحي المتأخر ولذا فلا يرد عليه عدم نقل إنكار المجاز عنهم.

وبعد القرون المفضلة، ظهر هذا التقسيم، وأنكره عدد من العلماء ومنعوا وقوعه، إما مطلقا أمثال الأستاذ أبي أسحق الاسفرائيني، وهو من كبار الشافعية، وأبي علي الفارسي، وهو من كبار أهل اللغة.

وإما منعوا وقوعه في القرآن خاصة كالظاهرية، وعلى رأسهم داود بن علي، ومن الحنابلة أبو عبد الله بن حامد وغيرهم كما سبق ذكرهم.

ويؤدي الاستدلال بالمنع في القرآن خاصة إلى المنع في اللغة، والله أعلم.

رابعا: ومما سبق من الأدلة والمناقشات على منع المجاز في القرآن يدخل فيها المنع في السنة لعموم كونها وحيا من الله تبارك وتعالى.

خامسا: مناقشة الجمهور لأدلة نفاه المجاز.

وقد ناقش الجمهور حجج المنكرين وأجابوا عن أدلتهم فمن ذلك:

أن القول بأن العرب لم تقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز فإن أردتم أنهم لم يضعوا هذا الاصطلاح فمسلم وإن أردتم أنه لا يوجد في كلامهم مجاز فغير مسلم بدليل ما ذكرناه من الأمثلة.

وأما قولكم إن هذا الاصطلاح حادث لم يعرف إلا بعد القرون المفضلة فغير صحيح بل قد تكلم به عدد من الأئمة منهم معمر بن المثنى مما يدل على أنه استعمال قديم وقد يطلقون عليه لفظ الاتساع.

وأما القول بأن المجاز يخل بالفهم فنحن اشترطنا لصحة القول بالمجاز وجود

=

=

القرينة التي تمنع الإخلال بالفهم وتبين مراد المتكلم من لفظه.

وأما قولكم إن المجاز كذب وأنه يصح نفيه فغير مسلم لأنه وإن جاز نفيه فليس كذبا لأن المنفي هو إرادة المعنى الحقيقي وليس المجازي بدليل القرينة الموضحة للمراد.

وأما دعوى أن المجاز يلزم عليه وصف الله سبحانه بأنه متجوز ومستعير فغير مسلم لأن الصفات توقيفية.

تلك أهم المناقشات التي أوردها الجمهور على القائلين بنفي المجاز وإنكاره.

سادسا: أما التفصيل بين ما فيه حكم شرعي وما ليس فيه فيمنع في الأحكام الشرعية لما يترتب عليه من لوازم غير صحيحة، فالأحكام الشرعية مبنية على القرآن والسنة بلفظ العرب ولغتهم، فالأيمان والنذور والمعاملات والنكاح والطلاق ونحوها لا مجاز فيها، أما ما ليس فيه حكم شرعي فالأمر فيه واسع بحمد الله. والله أعلم.

سابعا: الراجح ووجه ترجيحه مما سبق من عرض المذاهب، والأدلة والمناقشات، أرى صعوبة الترجيح في هذه المسألة وإن كنت أميل إلى التفصيل على حسب الضوابط الشرعية وأهمها:

ألا يكون في القرآن والسنة.

ألا يكون في الاعتقاد لاسيما صفات الله سبحانه.

ألا يكون طريقا إلى تأويل النصوص وردها والتنصل من الأحكام الشرعية.

والذي يظهر لي إذا دون تعصب ولا تقليد رجحان القول بعدم المجاز، لاسيما في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله (، لقوة أدلة المانعين، وضعف أدلة المجيزين مما ورد عليها من المناقشات القوية، التي أوهنتها.

ولما يلزم على القول بالجواز المطلق من لوازم غير سديدة، كتعطيل صفات

=

=

الكمال لله جل وعلا بحجة المجاز وتأويل النصوص على حسب الأهواء بهذه الحجة، ولعدم الضوابط السليمة التي يعرف بها ما قسموه، مما يوهن القول به ولما يترتب على التفريق بين ما قسموه، من جواز نفي بعض كلمات القرآن والسنة، لأن المجاز يجوز نفيه وهذا باطل قطعا.

ونحو ذلك مما تقدم عند أدلة المانعين، ومناقشتهم للمجيزين فيصار إلى القول بأن ما سموه بالمجاز يسمى أسلوبا من أساليب العرب المشهورة، التي درجت عليها وعرفت عنها، فالحاصل أن الراجح هو التفصيل والقول بجواز المجاز بالضوابط الشرعية، فما يتعلق بالاعتقاد والصفات وكلام الله فلا مجاز فيه بل كله حقيقة، أما المجاز فيما دون ذلك فأمره يسير بحمد الله.

المبحث الثالث: هل للخلاف في المجاز ثمرة؟

بعد عرض الخلاف في المسألة ظهر لي أن الخلاف بين المانعين والمجيزين خلاف حقيقي ليس لفظيا وإن لم يترتب عليه كبير فائدة في الفروع بشرط ألا يتخذ القول بالمجاز ذريعة لتعطيل شئ مما جاء به الشرع.

فالأمثلة السابقة المضروبة لهذه المسألة، يطلق عليها المجيزون مجازا ويطلق عليها المانعون أساليب عربية، تكلمت بها العرب، وهي حقيقة في معناها، لا تجوز فيها.

ولهذا فقد أنكر المانعون كون الخلاف لفظيا، لأنهم لم يسلموا أصلا بصحة التقسيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ اللَّهُ: "وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع، محدث لم ينطق به السلف، والخلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظيا، بل يقال: نفس هذا التقسيم باطل، لا يتميز هذا عن هذا ".

ومن أثبت صحة التقسيم نفى أن يكون هناك ثمرة عملية لهذا الخلاف وإنما

=

=

ينحصر الخلاف في العبارة، والتسمية.

قال ابن قدامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إثباته المجاز وتمثيله له : "ومن منع فقد كابر، ومن سلم وقال لا أسميه مجازا، فهو نزاع في عبارة، لا فائدة في المشاحنة فيه، والله أعلم"().

قال الشارحمعلقا على كلام ابن قدامه هذا بعد أن ذكر المانعين:

"ولما كان هؤلاء من العلم بمكان معروف، تردد المصنف في الأمر فجعل ذلك إما مكابرة، وإما نزاعا في عبارة وأقول: لا مكابرة، وإنما الصواب الثاني وشرح القول في ذلك ثم قال: "وحاصل الأمر تعذر معرفة تقدم وضع على وضع، فلا مجاز بالمعنى الذي قالوه، بل الكل موضوع، فرجع إلى أنه نزاع في العبارة".

المبحث الرابع:

أثر القول بالمجاز على النصوص الشرعية وتعقيب على أشهر الأمثلة التي ذكرها بعض الأصوليين للمجاز

لقد كان للقول بالمجاز على إطلاقه أثر عظيم وخطير على الموقف الصحيح الذي يجب اتخاذه حيال النصوص الشرعية حيث يجب إثباتها على حقيقتها دون تحريف لها عن معانيها الحقيقية لاسيما فيما يتعلق بالأسماء والصفات.

وقد سبق أن أوردت في حجج منكري المجاز ومناقشتهم للمثبتين له شيئا من ذلك بما يغني عن الإعادة.

وقد ذكر الأصوليون عددا من الأمثلة من القرآن على إثبات المجاز وحيث إن كثيرا منها يتعلق بصفات الباري جل وعلا، فإن ادعاء المجاز فيها يقتضي نفي حقيقتها، وتعطيل دلالتها على إثبات صفات الكمال لله ﷻ، التي أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله (، وسار عليها سلف هذه الأمة، وقد عرف عن بعضهم سلوكه مذهب الأشاعرة في العقيدة، لذا فقد وقعوا في تأويل بعض النصوص عن حقيقتها، بدعوى المجاز، ولاسيما في آيات الصفات وتلك عقيدة المخالفين

=

=

لمنهج أهل السنة والجماعة في إثباتهم الصفات لله، كما جاءت، وإقرارها كما وردت، بدون تأويل، ولا تعطيل ولا نفي لحقيقتها، ولا ادعاء كونها مجازا.

وإليك بعض الأمثلة التي ذكروها عفا الله عنهم تعد شواهد من كلامهم تبين خطورة القول بالمجاز في هذا المجال.

المثال الأول: قوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

وهذا المثال ذكره بعض الأصوليين لإثبات المجاز في القرآن، فعلى هذا المذهب أن في الآية مجازا يكون المعنى: أن الله منور السموات والأرض بالنور المخلوق أو هادي أهلها.

والحق عند أهل السنة أن الآية على حقيقتها، لا مجاز فيها، وأن من أسمائه تعالى النور، وهو اسم تلقته الأمة بالقبول، وأثبت في الأسماء الحسنى ولم ينكره أحد من السلف، ومحال أن يسمي الله نفسه نورا، وليس له نور ولا صفة النور ثابتة له، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بإثباتها على حقيقتها.

المثال الثاني: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ} الآية.

هذا المثال ذكره بعضهم لإثبات المجاز في القرآن، مع اختلافهم في معنى ايذاء الله تعالى.

فيرى بعضهم أن معنى إيذاء الله: إيذاء رسوله.

ويرى آخرون أن معنى إيذاء الله: إيذاء أوليائه.

والذي اضطرهم إلى هذا التأويل الواضح ادعاؤهم المجاز فيها.

والحق: أن كلا التفسيرين ليس صحيحا، بل تحمل الآية على حقيقتها وتجرى على ظاهرها، ويكون المعنى الصحيح لإيذاء الله: الكفر به، ومخالفة أوامره، وارتكاب زواجره، واتخاذ الأنداد والشركاء له، وتكذيب رسله عليهم الصلاة والسلام، ويدل على ذلك المعنى حديث "ليس أحد أصبر على أذى سمعه من

=

=

الله، إنهم ليدعون له ولدا، ويجعلون له أندادا، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم".
وأما تفسير من أوله بأنه إيذاء رسوله فهو مردود، بما ذكر، ثم إن الله نص في الآية نفسها على إيذاء الرسول بعد ذكره إيذاءه، فقال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله} فيكون الكلام على هذا القول مكررا وهذا محال لمنافاته الأسلوب الصحيح، والتعبير السليم، الذي جرى عليه كتاب الله.
وأما تفسير من قال بأنهم يؤذون أولياءه فهو غير صحيح من جهتين:
الأولى: ما ذكر سابقا من المعنى الصحيح في الآية.
الثانية: أن الآية نفسها فيها ذكر للرسول، وللمؤمنين والمؤمنات وهم أولياء الله، فيكون في الكلام تكرار لا يليق بكتاب الله، ولو قيل به لحصل المحظور، وهو صرف الآية عن ظاهرها، وتأويلها على غير حقيقتها، والوقوع في التكرار الممنوع الذي يجعل المعطوف عليه بمعنى المعطوف فيكون معنى لفظ الجلالة "الله" بمعنى لفظ "الرسول" وبمعنى لفظ "المؤمنين"، وهذا غير مراد قطعا.
المثال الثالث والرابع: قوله تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}، و{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}.
فهذان مثالان ذكرهما بعض الأصوليين لإثبات المجاز في القرآنوليس الأمر كذلك، فلا مجاز في هذه الآيات وأمثالها، بل هي على حقيقتها، عند أهل السنة والجماعة، لأن مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلما له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه، عقوبة له بمثل فعله، كانت عدلا، كما قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} فكاد له كما كاد له إخوته لما قال له أبوه {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}.
ومعنى استهزاء الله ومكره: إيقاع استهزائهم، ورد خداعهم ومكرهم عليهم، وقيل: استدراجه لهم، وقيل: إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة،
=

=

وقيل: هو تجهيلهم، وتخطئتهم فيما فعلوه().

قال شيخ الإسلام ابن تيميه بعد ذكره لهذه الأمثلة والمعاني: "وهذا كله حق، وهو استهزاء بهم حقيقة".

ومن الأمثلة التي ذكرها بعضهم: قوله تعالى: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}، وقوله: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}، وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

وادعى أن هذه الآيات ليست على حقيقتها، وإنما هي مجاز، والراجح خلاف قوله، فإنها معان حقيقية لا مجاز فيها البتة، ومعانيها مبسوطة في مظانها المعروفة.

والأمثلة التي ذكرها القائلون بالمجاز ليس فيها مجاز على القول الراجح وإنما هي أساليب بلاغية، تكلم بها العرب وأرادوا بها الحقيقة.

وأما آيات الصفات فهي حق، تمر على ظاهرها، وتجرى على حقيقتها، نوردها كما جاءت، ونثبتها كما وردت ولا نقع فيه تأويلا أو تعطيلا بدعوى المجاز، فهذا خلاف منهج السلف أهل السنة والجماعة والله تعالى أعلم.

(تنبيه) بعض الطلاب يجعل من علامات الابتداع القول بوجود المجاز، فمن قال بأن القرآن فيه مجاز، فهو من المبتدعة عند هذا البعض، وهذا جناية وخطأ، لأن هذا القول ثابت عن جمع كبير من أهل السنة، فإطلاقه من الخطأ على أهل العلم، والواجب التثبت قبل إطلاق شيء.

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الورقات: قوله (ومن وجه آخر ينقسم إلى حقيقة ومجاز) وهذا هو المهم، (ينقسم إلى حقيقة ومجاز) الكلمة تنقسم إلى حقيقة ومجاز، وكذلك الكلام أثناء تركيبه ينقسم إلى حقيقة ومجاز.

ما هي الحقيقة؟ الحقيقة بقاء اللفظ على معناه الأول، مثل ما يمثلون به أسد حقيقة لهذا الحيوان المفترس المعروف، شجرة حقيقة في هذا النبت المعروف

=

=

هذا وضعها الأول.

المجاز هو نقل اللفظ من معناه الأول إلى معنى ثان لمناسبة بينهما أو لعلاقة بينهما، هذا المجاز، ولاحظ أن كثيرا يخلطون بين الحقيقة والمجاز وبين الظاهر والتأويل، فيخلطون بين المجاز والتأويل، المجاز شيء والتأويل شيء آخر.

إذن المجاز نقل اللفظ، أما التأويل صرف اللفظ، المجاز نقل اللفظ من وضعه الأول إلى وضع ثان لعلاقة بينهما، مثل أنْ تقول فلان أسد، لا تريد به الحيوان المفترس، لكن تريد فلان أسد في الشجاعة، فَنَقَلَ اللفظ من معناه الأول إلى معنى جديد.

وهذا الذي ذَكر من انقسام الكلام إلى حقيقة ومجاز دَرَجَ عليه جلّ الأصوليين، بل أكثر العلماء في القرون المتأخرة ما بعد القرن الثالث الهجري، وهذا التقسيم إنما ظهر من جهة المعتزلة، وذلك أنه لما احتج عليهم أهل السنة بردّ صرفهم لآيات الصفات وآيات الأسماء عمّا هي عليه من المعاني أتوا بما يسمى بالمجاز، وأنّ هذه ألفاظ نقلت من معناها الأول إلى معنى جديد لعلاقة بينهما، وبالتأويل، وهو أنهم صرفوها لمعنى جديد، والتحقيق في هذه المسألة ولا يتسع المقام لتفصيل الكلام؛ أنّ لغة العرب لا تعرف في ألفاظها إلا الحقيقة؛ فليس ثَم عندهم مجاز، والحقيقة عندهم تارة تكون إفرادية؛ حقيقة في اللفظ بمفرده، وتارة تكون تركيبية، وهي المفهومة من تركيب الكلام.

الحقيقة الإفرادية مثل الأسد هو الأسد؛ حيوان مفترس.

الحقيقة التركيبية هي التي ادعى فيها المدّعون المجاز، مثل أنْ يقال فلان أسد، قال كلمة أسد، هذه مجاز عن الرجل الشجاع لأنه لا يُعنى بها المعنى الأول.

فنقول العرب استعمالها لتركيب كلامها لا تنظر حين التركيب إلى الألفاظ، وإنما تنظر إلى دلالة الألفاظ حال التركيب، فالألفاظ تدل حال التركيب على معنى لا

=

=

ينتقل معه الذهن من المعنى الأول إلى معنى جديد، مثلا نقول زيد أسد مباشرة ما دام قال زيد أسد لا يأتي للذهن الأسد الذي هو حيوان مفترس، ثم ينتقل منه إلى الرجل الشجاع لقرينة وجود زيد، وإنما مباشرة لما قال زيد أسد علِمَ أن المراد تشبيه زيد بالأسد في شجاعته، وهذه حقيقة تركيبية، وهي التي يدعي فيها المخالفون أنها مجاز، مثلا في القرآن في قول الله تعالى ؟فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ؟ [النحل:٢٦] قال (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) معلوم هنا الذي يتبادر للذهن أول ما يسمع السامع هذا الكلام (أَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) أنه ليس إتيان الله لهذا (٦) المكان بذاته، وإنما أتى بقدرته، لأنه قال (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ) فيفهم من حقيقة الكلام هذا المعنى، ولا يمكن أن يفهم منه أنه يمكن أن يكون الإتيان بالذات فيُصرف عنه لأجل أنه قال (مِنَ الْقَوَاعِدِ) ونحو ذلك، فهذا يسمى حقيقة تركيبية، وهي التي أو يشبهها الذي يسميه أولئك المجاز، قال تعالى ؟أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟ [الفرقان:٤٥] لا يمكن أنْ يفهم عربي أن المراد (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ) يعني ألم تر إلى ذات ربك، إنما المراد يَفهم من قوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) ألم تر إلى قدرة ربك كيف مد الظل، وهذا ليس مجازا، وإنما هو حقيقة تركيبية، الحقيقة هي التي تُعنى عند العرب بالكلام؛ لأنّ الحقيقة ما هي؟ هي إظهار الحقيقة بهذا الكلام، فصار الكلام حقيقة، لأنّه تظهر به حقيقة الأمر، فالكلام كله حقيقة، هذه الحقيقة تارة تكون إفرادية في اللفظ، وتارة تكون تركيبية في الكلام جميعا، وهنا مثّل بأمثلة يأتي الكلام عليها.

لكن هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى ؟ وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا؟ [يوسف:٨٢].

تعريف المجاز الذي عرفوه به: أنّ المجاز نَقْلُ اللفظ من معناه الأول إلى معنى ثان. وهذا يسمونه المجاز الناقص؛ لأنه حُذفت منه أهل القرية، أصل الكلام

=

=

واسأل أهل القرية، نقول أنّ هذا الكلام مفهوم، ولا نقول أنّ ثَمّ مجاز؛ لأنّ المستمع لهذا الكلام يعلم أنّ القرية من حيث هي جدران وأبنية أنّه ليس المراد الجدران والأبنية، وإنما المراد أنْ يُسأل من يصح أن يُنسب إليه أنّه يسأل وهم أهل القرية، فقوله (وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ) من الذي يصح أنْ يسأل؟ أهل القرية، فلهذا يكون الكلام بتركيبته يفيد حقيقة، هذه تسمى حقيقة تركيبية تُستفاد من تركيب الكلام، لكن لو أتى بمفردها وقيل القرية يُعنى بها أهل القرية لم تكن حقيقة إفرادية، ولكن لما استعملت بهذا التركيب صات حقيقة تركيبية، ومن مثل قوله ؟وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا؟ [يوسف:٨٢] يعني أهل العير، ونحو ذلك من أنواع كثيرة أُدُّعي أنها مجاز في القرآن.

بقي أن نقول أنّ الأصوليين اختلفوا في وجود المجاز في اللغة، فمنهم من قال بوجوده في اللغة وهم الكثرة الكاثرة، وهناك قلة أفراد من المحققين نفوا وجود المجاز في اللغة؛ قالوا كلام العرب كلُّه حقيقة، هناك خلاف آخر أخص من هذا، وهو هل في القرآن مجاز أم لا؟ فنفاه كثيرون؛ نفاه كثيرون، وأثبته كثيرون، والخلاف في كون القرآن فيه مجاز أم لا، قد يكون عقديا وقد يكون أدبيا فيكون الخلاف في قول المجاز في القرآن عقديا إذا أُدُّعي أنّ آيات الصفات فيها مجاز، أو أنّ الآيات التي فيها العقائد -آيات الغيب التي فيها الخبر عن الغيب ونحو ذلك- أنّ فيها مجاز؛ إذا أدعي أن فيها مجاز صار الخلاف عقديا، لأنّ هذا مسلك المبتدعة، فإن أُدعي أنّ القرآن فيه مجاز في غير آيات الصفات صار خلافا أدبيا، فمثلا إذا قرأت في بعض التفاسير في بعض الآيات، قال هذه الآية فيها مجاز في مثل قوله تعالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ) [الإسراء:٢٤] يقولون هذا فيه استعارة تمثيلية وهي من أنواع المجاز، (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ) ليس متعلقا بخبر غيبي ولا متعلق بعقيدة، فيكون الخلاف فيه أدبيا، نقول لا،

=

=

الصواب أنه ليس هاهنا مجاز، ظاهر؟

وإذا قيل (الرَّحْمَن الرَّحِيم) أو (وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أنّ الرحمة مجاز عن إرادة الإحسان أو عن إيصال الإنعام صار خلافا عقديا، يُرَدُّ كما يُرَدُّ على أهل البدع.

بهذا تجد أنّ من أهل السنة من قد يقول في بعض الآيات فيها مجاز، لكن في غير آيات الصفات هذا يكون خلافا أدبيا، نقول الصواب فيه أنه لا مجاز في القرآن أصلا، والأصح أيضا أنّه لا مجاز في اللغة أصلا؛ لأنّ كلام العرب حقيقة قد تكون حقيقة إفرادية وقد تكون تركيبية، في كلام طويل على المجاز.

مسألة: في حقيقة التفسير الإشاري.

لقد وقع الصوفية في انحرافات عقدية خطيرة، تغلغلت في طرقهم من عقائد الشيعة والباطنية خاصة، كما أنها دخلت إليهم من عقائد الملل الأخرى، مما أوقع القوم في ضلالات، من أولها هذا الانحراف الذي قسم الدين فيه إلى ظاهر وباطن، وإلى شريعة وحقيقة، ثم انجرفوا بسبب ذلك إلى القول بسقوط التكاليف الشرعية وتأويل القرآن تأويلًا باطنيًا فاسدًا.

* فالشريعة - كما يراها المتصوفة - هي مجموعة من الأحكام العملية التكليفية أي ما يسمى (بالفقه الإسلامي)، والحقيقة هي ما وراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار حسب زعمهم، لقد أهملوا علوم الشريعة لأنها عندهم من علوم الظاهر التي لا تؤدي - بزعمهم - للوصول إلى الحضرة كما هو شأن علم الباطن، ويسمون العلماء بحملة الشريعة، بينما يسمون أنفسهم بحملة الحقيقة.

فالفقهاء - في نظر الصوفية - يعلمون الناس أركان الصلاة وسننها، وهم يهتمون بأعمال القلوب من المحبة والخشية، ويقول غلاتهم: إن هذه الأحكام خاصة بعوام المسلمين نظرًا لضيق عقولهم وقلوبهم عن استيعاب المعاني العلوية، دون الالتزام برسوم وأشكال معينة...

=

=

* وقد انحرف غلاتهم بعد ذلك إلى التنفير من علوم الحديث حتى يضعوا الأحاديث لتناسب طرائقهم وبدعهم.. ولهم في ذلك عجائب لا تحصى من ذلك: ما نقله فريد الدين العطار كما في دراسات في التصوف (ص ١٢٩) عن أبي الحسين الخرقاني أنه قال: (وهبني الله جميع العلوم والمعارف، مع كوني أميًا، وقرأت الحديث على رسول الله ﷺ، فلم يُصَدِّقْهُ مريده، فرأى - المريد - في المنام رسول الله وسمعه يقول: صدق الرجل، صدق الرجل، وقال المريد: بدأت بعدها أتردد إلى الشيخ وأقرأ الحديث، فأحيانًا كان يقول: هذا الحديث ليس بصحيح، ولما سألته كيف عرف ذلك؟ قال: لما تقرأ الحديث أشتغل بمشاهدة رسول الله ﷺ، فكلما قرأت الحديث الصحيح يبتسم النبي وتنورت جبهته، وإذا مررت بحديث موضوع ظهرت كآبة على وجهه ﷺ، فبذلك أميز الصحيح من الضعيف).

ويصرح الدباغ كما في الإبريز (ص ١٥١) قائلًا: (قد ينزل الملك على الولي، ويخبره بصحة حديث ضعفه العلماء). فالمتصوفة يرون أن العلم اللدني ليس بينه وبين الغيب حجاب، أي أنه لا يحتاج إلى إسناد، فوجوده إسناده. وقد جعلوا حديث الناس حديثًا للنبي المعصوم، معتمدين على كشفهم وإلهامهم، فجعلوا الموضوع ثابتًا، والسقيم صحيحًا، دون النظر إلى رواته قائلين: بأنهم سمعوه عن النبيّ رأسًا، أو علموا تصحيحه عن رسول الله مشافهة، أو بواسطة الملك أو بتعليم الخضر. دراسات في التصوف: (ص ١٣٠ - ١٣١).

ولقد ادّعى الصوفية أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، فالظاهر هو ما يؤخذ من ألفاظه حسب الفهم العربي، وهو ما يهتم به علماء الظاهر، أما الباطن فهو العلم الخفي وراء تلك الألفاظ، وهو المراد الحقيقي بها، وهذا لا يطلع عليه إلا الخواص من أصحاب المقامات السامية، ويطلقون عليه: الإشارات وهم يغمزون أهل الفقه

=

=

بأنهم لا يهتمون بأعمال القلوب. ولعل فكرة الظاهر والباطن تسربت إلى التصوف من التشيع إذ إن الشيعة بجميع فرقها وخاصة الإسماعيلية منهم، يعتقدون أن لكل ظاهر باطنًا، وقد اختص بمعرفة الباطن علي ؟ وأولاده وأئمتهم المعصومون – حسب زعمهم – وقد سموا الموالين لهم بالخاصة، وغير الموالين بالعامة.

ثم قسموا الظاهر والباطن بين النبي ﷺ، والوصي وقالوا كما في الذخيرة في الحقيقة: للداعي الإسماعيلي علي بن الوليد (ص ١١٣): (كانت الدعوة الظاهرة قسط الرسول، والدعوة الباطنة قسط وصيه الذي فاض منه جزيل الأنعام) يقصدون عليًا رضي الله عنه. ثم قالوا كما في الافتخار: للداعي أبي يعقوب السجستان، (ص ٧١): (إن الظاهر هو الشريعة، والباطن هو الحقيقة، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد ﷺ، وصاحب الحقيقة هو الوصي علي بن أبي طالب).

وقال الصوفية: (العلوم ثلاثة ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر وباطن، وباطن الباطن. فعلم الشريعة ظاهر، وعلم الطريقة باطن، وعلم الحقيقة باطن الباطن)). الفتوحات الإلهية لابن عجيبة الحسني (ص ٣٣٣).

ونلاحظ أن التوافق بينهم وبين الباطنية الإسماعيلية في هذه المصطلحات واضح جلي.

قال صاحب رسالة: تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره (ص٧): أما التفسير الصوفي النظري أو الفلسفي، فقوامه المباحث النظرية، والتعاليم الفلسفية، والصوفي إذا كان من أصحاب هذه النزعة الفلسفية، نظر إلى القرآن من خلال نزعته، وكله حرص على أن يجد في القرآن ما يشهد لنظرياته وفلسفاته، وليس من السهل أن يجد في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته فإذا به يحاول أن يطوع القرآن قسرا إلى ما يقول به، وإذا به ينتهي بعد إلى

=

=

تعسف في فهم النص القرآني فهما يخرجه عن ظاهره الذي يؤيده الشرع وتشهد له اللغة.

ونستطيع أن نعتبر محي الدين بن عربي شيخ هذه الطريقة في التفسير، إذ أنه أظهر من خب فيها ووضع، وأكثر أصحابه معالجة لتفسير القرآن على طريقة التصوف النظري.

وفي الكتب المنسوبة لابن عربي على اختلافها وكثرتها نراه يطبق
كثيرا من الآيات القرآنية على مفاهيم فلسفية.

فمثلا: يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٠) من سورة مريم في شأن إدريس عليه السلام {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} ويقول ما نصه:

"وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر.. ثم ذكر الأفلاك التي تحته والتي فوقه، ثم قال: "وأما علو المكانة فهولنا أعني المحمديين، كما قال تعالى: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ} في هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة.

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٩، ٢٠) من سورة الرحمن: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ} يقول ما نصه: "مرج البحرين " بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأجاج، وبحر الروح المجرد الذي هو العذب الفرات "يلتقيان" في الوجود الإنساني، "بينهما برزخ " هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها "لايبغيان" لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا..

=

=

سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء".

كذلك نرى ابن عربي يتأثر في تفسيره للقرآن الكريم بنظرية وحدة الوجود التي هي أهم النظريات التي بنى عليها تصوفه، فتراه في كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية حتى أنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذي أراده الله تعالى منها!!.

فمثلا: عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ..} الآية، يقول ما نصه: "اتقوا ربكم" اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم- وهو ربكم- وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد فكونوا وقايته في الذم، واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين".

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٩، ٣٠) من سورة الفجر: {فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} يقول ما نصه:

" ... وادخلي جنتي التي هي ستري، وليست جنتي سواك، فأنت تسترني بذاتك الإنسانية، فلا أعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بي، فإن عرفك عرفني، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك فتعرف نفسك معرفة أخرى غزير المعرفة التي عرضا حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت ربا، وأنت رب لمن فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد".

وبعد هذه الأمثلة التي سقناها، نستطيع أن نقرر في صراحة واطمئنان. أن التفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن عن هدفه الذي يرمى إليه: يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفي هدفا آخر معينا بأبحاثه ونظرياته، وقد

=

=

يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن الكريم، وأن يقيم أبحاثه ونظرياته على أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته الصوفية ولم يعمل للقرآن شيئا، اللهم إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين، وإلحاد نص آيات الله!!.

رأينا ابن عربي يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، ووحدة الوجود- عنده وعند من يقول بها- معناها: أنه ليس هناك إلا وجود واحد، كل العالم مظاهر ومجال له، فالله- سبحانه- هو الموجود الحق، وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز. وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله في أئمتهم، وصوروه- أعني الصوفية، بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية في الحقيقة، وإن اختلفت في الاصطلاح والألفاظ....".

هذا المذهب الذي، خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله ولمثل ابن عربي أن يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها، والذي جرّه فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوي وغير سماوي، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات.. هذا المذهب الذي يذهب بالدين من أساسه، هل يكون سائغا ومقبولا أن نجعله أصلا نبنى عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم؟.

وهل يليق بهذا الصوفي الذي وضعه مريدوه في القمة أن يتأثر بمذهبه في وحدة الوجود فيقول في شرحه لقوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة الإسراء: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ} ما نصه:".. فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على

=

=

الأمر ونحن نحمله على الحكم كشفا، وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم، ولهذا يقضي الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم وإن أخطئوا في النسبة فما أخطئوا في المقام، ولهذا قال: "إن هي إلا أسماء سميتموها" أي أنتم قلتم عنها آلهة.. وإلا فسموهم فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان فتتميز عندهم بالاسمية، إذ ما كل حجر عبد ولا اتخذ إلها ولا كل شجر ولا كل جسم منير، ولا كل حيوان، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله: "قل سموهم".

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى في الآية (١٦٣) من سورة البقرة: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} قال ما نصه.

".. إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم في أحديته.. فقال: وإلهكم، فجمعنا وإياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم، ومن قصد عن أجل أمر فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر، أو حبك لأمر ولى بانقضائه، ولهذا ذكر الله: أنهم يتبرءون منهم يوم القيامة وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جهلوا قدر الله في ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: وإلهكم إله واحد؟ ونبههم فقال: "قل سموهم" فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم في شركهم قد ضلوا ضلالا بعيدا أو مبينا، لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة، لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيدهم وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصرو لا يغنى عنهم من الله

=

=

شيئا".

ويستطرد ابن عربي في الحديث إلى أن يقول: "فإذا علمت هذا وتقرر لديك، علمت أن الله إله واحد في كل شرع عينا، وكثير صورة وكونا، فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه، وكلها حق، ومدلولها صدق، والتجلي في الصور كثرة أيضا لاختلافها، والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟ أو كيف يصح لي أن أخطيء قائلا؟.. الخ".

وبعد: فالذي أدين الله عليه أن مثل هذا التفسير الذي أخضعه ابن عربي وغيره إلى نظرية وحدة الوجود أو إلى المفاهيم الفلسفية الغامضة، مرفوض بالكلية، لأنه خروج بالنص العربي عن مدلوله، ولا يعرف عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من صحابته أو تابعيهم: أنه نحى مثل هذا المنحى العجيب في التفسير، وكتاب الله أعلى وأجل من أن تلصق به هذه الأفهام الضالة المضلة. "ومن يضلل الله فما له من هادى".

وأما التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري: فهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات.

* الفرق بين التفسير النظري والتفسير الإشاري:

على ضوء ما تقدم نستطيع القول بأن الفرق بين التفسير النظري والتفسير الإشاري من وجهين:

أولا: أن التفسير الصوفي النظري، ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك.

أما التفسير الإشاري، فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سخف

=

=

العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

ثانيا: أن التفسير الصوفي النظري، يرى صاحبه أنه كل ما تحمله الآية من المعاني، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه.. هذا بحسب طاقته طبعا.

أما التفسير الإشاري، فلا يرى الصوفي أنه كل ما يراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شيء: ذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره.

شرعية التفسير الإشاري:

ولسنا ننكر أن للتفسير الإشاري سندا شرعيا، ولا ندعى أنه حدث في الدين ابتدعه المتصوفة في تفسير القرآن الكريم فقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله: {.. فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} النساء٨٢، وقوله: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد ٢٤ وبيان ذلك- كما يقرره الشاطبي في الموافقات- ٢ ص ٣٨٢،٣٨٣-: "أن القرآن له ظهر وبطن، فحيث ينعى القرآن على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا يحضهم على التدبر في آياته، لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك: أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.

ويقرر السيوطي وغيره: أن رسول الله ﷺ نبه على التفسير الإشاري بقوله في الحديث الذي رواه الغربابي عن الحسن مرسلا "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع " وقد فسر الحديث بتفسيرات عدة، ولم أقف له على أصل صحيح يعتد به فلعل المعنى القريب للحديث ما حكاه ابن النقيب: من أن

=

=

ظهرها: ما ظهر من معانيه لأهل العلم بالظاهر وبطنها: ما تضمنته من الأسرار التي يطلع الله عليها أرباب الحقائق.

وأقول: أن بعض الصحابة كانت لهم في القرآن أفهام فوق ظاهر النص، هي في الواقع إشارات قد لا يفهما الكثير منهم، فمن ذلك مثلا:

ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: أنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ماتقولون في قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له: قال إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول".

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس وعمر- رضي الله عنهم فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وأيضا ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى في الآية (١٢) من سورة المائدة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِينًا}، فرح الصحابة وبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج ابن أبى شيبة: أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يبكيك؟ " قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل، فانه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال عليه الصلاة والسلام: "صدقت".

=

=

فعمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أدرك المعنى الإشاري، وهو نعي رسول الله ﷺ، وأقره النبي على فهمه هذا. وأما باقي الصحابة فقد فرحوا بنزول الآية، لأنهم أيفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها.

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن.. ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي، وبطن يفهمه أصحاب المواهب وأرباب البصائر، غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور، ولقد فهم ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا فقال: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور٢ القرآن" وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} سورة الأنعام "٢٨"

هذا، وينبغي أن يعلم أن المعاني الظاهرة للنص القرآني لا يشترط لمعرفتها أكثر من الجريان على اللسان العربي، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شيء.. لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك فهو مبطل في دعواه.

أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة في التفكير، ومن هذا: أن التفسير الإشاري ليس أمرا خارجا عن مدلول اللغة، ولهذا اشترط العلماء لصحة هذا اللون من التفسير شرطين أساسيين:

أولهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، بحيث يجرى على المقاصد العربية.

ثائيهما: أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

=

=

أما الشرط الأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إلى القرآن أصلا، ومن قال هذا فهو متقول على الله بالهوى والغرض.

وأما الشرط الثاني: فانه إذا لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان له معارض، صار مرر جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوة المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء"١

ثم لابد مع ذلك من اعتقاد أن المعنى الظاهر مراد الله تعالى، ومن ادعى أن الظاهر غير مراد لله عد كافرا. قال ابن الصلاح في فتاواه- وقد سئل عن كلام الصوفية في القرآن-: وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدي المفسر- رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية "وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في الآية المذكورة- يريد قوله تعالى في الآية (١٣٣) من سورة التوبة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ} فكأنه قال: "أمرنا بقتل النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس".

* موقف ابن عربي من التفسير الإشاري:

ما ذكرناه من كلام أبي الحسن الواحدي، وما عقب به عليه العلامة ابن الصلاح في فتاواه، ليس إلا حسن ظن بالقوم ومنهم ابن عربي. وكنت أود أن أقف من هؤلاء ومن ابن عربي بخاصة- وهو الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر كما يقولون- هذا

=

=
الموقف الذي وقفه ابن الصلاح منهم حملا لحال المسلم على الصلاح. ولكن تبدد أملي في حسن الظن بابن عربي وبمن يحطب في حبله من المتصوفة أثر مقالة قرأتها لابن عربي في فتوحاته وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية في كتاب الله ليست إلا تفسيرا حقيقيا لمعاني القرآن الكريم، وشرحا لمراد الله من ألفاظه وآياته، ويقول بكل صراحة: أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر.. وفي هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم- على حد تعبيره- الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية هذا المسلك في التفسير. وإليك ما قاله بالنص، لتقف على رأيه الصريح الذي لا لبس فيه ولا خفاء.

مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري:

قال رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطوارا، فمنا العالم والجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه، ومنا الرئيس ومنا المرءوس، ومنا الأمير ومنا المأمور، ومنا الملك ومنا السوقة، ومنا الحاسد ومنا المحسود، وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته.. العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه، وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام، لما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم- كما ذكرنا- عدل أصحابنا إلى الإشارات، فكلامهم- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفوسهم مع تقديرهم إياه في العموم وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به- سبحانه- عندهم الوجهين
=

=

كما قال: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، يعني الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان:

وجه يرونه في نفوسهم، ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون في ذلك أنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجعلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإن الله كان قادرا على تنصيص ما تأوله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل، بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم.

ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك، وبعلو بعضهم على بعض لا الكلام في معنى تلك الآية، وبقر القاصر بفضل غير القاصر فيها وكلهم في مجرى واحد، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك، ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء، وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف، وصدقوا، فان أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم، وهو الإعلام الرحماني الرباني، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} فإنه القائل: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}. {خَلَقَ الْأِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} فهو- سبحانه- علم الإنسان فلا نشك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، والله يقول في حق الرسول: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} وقال في حق عيسى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالأِنْجِيلَ} وقال في حق خضر صاحب

=

=

موسى عليهما السلام: {وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا: أن العلم لا يكون إلا بالتعلم وأخطأوا في اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبي ولا رسول بقول الله: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} وهي العلم، وجاء بمن وهي نكرة، ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة، وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ورأوا- في زعمهم- أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به على العامة، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادا تولى الله تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه وعلى السنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه ولا غير مؤمن، فان الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه، وإنما قصدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشيء بل علمها مندرجة في علمه بالكليات، فأثبتوا له العلم- سبحانه- مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه- سبحانه- في ذلك وإن أخطأوا في التعبير عن ذلك، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} في أثر قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} فبين لها الفجور من التقوى إلهاما من الله لها لتتجنب الفجور وتعمل بالتقوى.

وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ولا تعلمت فيه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقال فيه: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ} وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورويته-وعلماء الرسوم يعلمون ذلك- فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضا- تنزيلا من

=

=

عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل، وكذا قال علي بن أبى طالب ﵁ في هذا الباب: "ما هو إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن " فجعل ذلك عطاء من الله، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم، وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون- وهم في إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعا- سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الشكل كما قال القائل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

كما يتميز المحق من أهل الله من المدعى في الأهلية، غدا يوم القيامة. قال بعضهم:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

أين عالم الرسوم من قول علي بن أبى طالب- ﵁-حين أخبر عن نفسه: أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرأ؟ هل هذا إلا من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن؟ فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} فأقامهم مقام الرسول في التفقه في الدين والإنذار، وهو الذي يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله ل ﷺ على بصيرة لا على غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتى به وبقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه، وبين من يفتى في دين الله بغلبة ظنه.

=

=

ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أن يجهل من يقول: فهمني ربي، ويرى أنه أفضل منه وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سرى مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطامي- رضي الله عنه في هذا المقام يخاطب علماء الرسوم: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت".

يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون حدثني فلان.. وأين هو؟ قالوا: مات. عن فلان، وأين هو؟ قالوا؟ مات. وكان الشيخ أبو مدين- رحمه الله إذا قيل له: قال فلان، عن فلان، عن فلان، يقول: ما في يد نأكل قديدا هاتوا ائتوني بلحم طري- يرفع همم أصحابه- فأولئك أكلوه لحما طريا، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد.

والفيض الإلهي والمبشرات ما سد بابها، وهي من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقى من إليه يسعى، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب- مع دعواك العلم بذلك والإيمان به- لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه، فتكون حديث عهد بربك ... " انتهى كلام ابن عربي، من الفتوحات المكية ج١ ص٢٧٩-.٢٨.

ولسنا ننكر على ابن عربي دعواه أن ثم أفهاما يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبابه، نحصهم بها دون غيرهم على تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام مرادة لله من كلامه، ولكن بشرط أن تكون داخلة تحت مدلول النص القرآني وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيدها كما قلنا، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول

=

=

اللفظ القرآني وليس لها من الشرع ما يؤيدها، فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله منها لأن القرآن عربي قبل كل شيء، والله- سبحانه- يقول في شأنه: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وحاشا لله أن يلغز في آياته، أو يعمي على عباده طريق النظر في كتابه وهو يقول: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.

يقولون: إنهم يدركون بعض المعاني بعين اليقين، إذا فلابد لمن يريد أن يحكم على القوم حكما صحيحا أن يجتهد في الوصول إلى ما وصلوا إليه بالعيان دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، والشاعر يقول:

علم التصوف علم ليس يعرف ... إلا أخو فطنة بالحق معروف

وليس يعرفه من ليس يشهد ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

ويقول ابن خلدون "وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق ردا وقبولا، إذ هي من قبيل الوجدانيات".

ويقول الآلوسي في مقدمة تفسيره: "فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مراكز الدائرة المحمدية ما هم عليه، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل- لكثرة العوائق والعلائق- إليه.

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار".

ويقول الآلوسي أيضا بعد أن نقل عن ابن عربي ما قاله في تفسير الفاتحة في فتوحاته: "فإذا وقع الجدار، وانهدم السور، وامتزجت الأنهار، والتقى البحران، وعدم البرزخ صار العذاب نعيما، وجهنم جنة، ولا عذاب ولا عقاب إلا نعيم وأمان بمشاهدة العيان ... الخ ".. يقول الآلوسي بعد نقله لهذا الكلام الغريب: "وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق، ولا ينافي ما وردت به القواطع.. " ثم قال: "وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، وكلما وجدت

=

=

مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى فسلمه لهم بالمعنى الذي أراده مما لا تعلمه أنت ولا أنا لا بالمعنى الذي ينقدح في عقلك المشوب بالأوهام، فالأمر- والله- وراء ذلك".

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت في البعد والغرابة، وتوريط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير مالهم في مجال التصوف والمتصوفة من شهرة علمية، ومكانة دينية، ومهما يكن من شيء فأنا عند رأي وهو: أن هذه التفاسير الإشارية، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها لأنفسهم ولا يذيعوها على الناس فيوقعوهم في حيرة واختلاف: منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل من كتب التفسير على خلافه فربما كذبه أو أشكل عليه.. ومنهم من يكذبها ويرى أنها تقول على الله وبهتان!!.. ليتهم فعلوا ذلك، إذا لأراحونا من هذه الحيرة، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد في آيات الله!!.

* حقيقة التفسير المنسوب لابن عربي: هذا التفسير الذي ينسب إلى أبي بكر محي الدين محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بابن عربي، وبعض الناس يصدق نسبته إليه ويعتقد أنه من عمل ابن عربي نفسه وبعض آخر لا يصدق هذه النسبة ويرى أنه من عمل عبد الرازق القاشاني، وإنما نسب إلى ابن عربي ترويجا له، نظرا لشهرة ابن عربي، وممن يرى هذا الرأي الأخير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عليه رحمة الله، فقد نقل عنه تلميذه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمة تفسيره أنه قال بعد ما تكلم عن التفسير الإشاري: "وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وإنما هو

=

=

القاشاني الباطني الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ عنه دين الله وكتابه العزيز، تفسير المنار ج١ ص ١٨.

وما قاله الأستاذ الإمام من أن الكتاب من عمل القاشاني لا من عمل ابن عربي صواب أرتضيه وأؤيده بما يلي:

أولا: أن جميع النسخ الخطية لهذا التفسير منسوبة للقاشاني، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانيا: قال في كشف الظنون: "تأويلات القرآن المعروف بتأويلات القاشاني، وهو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة "ص" للشيخ كمال الدين أبي الغنائم عبد الرازق جمال الدين الكاشي السمرقندي المتوفى سنة ٧٣٠ه أوله: "الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته ... الخ ". وقد رجعت إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي في النسخ المطبوعة قديما وفي أجزاء النسخة التي طبعت أخيرا، فوجدت أولها هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثا: في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ...} الآية يقول: "وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد، قدس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه.. الخ " ونور الدين هذا هون ور الدين عبد الصمد بن على النطنزي الأصفهاني، المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري وكان شيخا لعبد الرزاق القاشاني المتوفى سنة ٧٣٠ ه كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس في مناقب الأولياء ص ٥٣٤-٥٣٧٢. وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري شيخا لابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ه.

لهذا كله أقرر أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وإنما هو لعبد الرزاق القاشاني الباطني، كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عليه رحمة الله، أو الصوفي

=

=

المتطرف الغامض كما أباه من خلال هذا التفسير.

وابن عربي- في رأيي ورأي الكثير من العلماء: صوفي لا يقل في تطرفه وغموضه عن القاشاني وقد بلغ من أمر تطرفه وغموضه حدا جعل بعض العلماء يرمونه بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة وبين يدي كثير من النصوص الشاهدة على ذلك، نقلتها من مؤلفاته وأهمها "الفتوحات المكية" ومن الناقمين على ابن عربي: الحافظ الذهبي، وابن تيمية، ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربي، أنهم حاولوا اغتياله بمصر.

وبعض الناس يحسن الظن بابن عربي، ومن هؤلاء الإمام السيوطي، ولكنه إذ يزكيه ويعتقد ولايته، يحرم النظر في كتبه وذلك حيث يقول فما كتابه "تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي" ما نصه: "والقول الفصل في ابن عربي اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر".

وقال الحافظ الذهبي في ابن عربي: "وله توسع في الكلام وذكاء وقوة خاطر، وحافظة وتدقيق في التصوف وتآليف جمة في العرفان، ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس".

ومهما يكن من شيء فابن عربي والقاشاني كلاهما معقد في أفكاره، موهم في ألفاظه وتعابيره، مشكل أكثر ما يقول..

وسواء أكان التفسير الذي نحن بصدده لابن عربي أم كان للقاشاني، فإن مؤلفه قد جمع فيه بين التفسير الصوفي النظري وبين التفسير الإشاري أو الباطني، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال، وقد التزم هو في مقدمة

=

=

تفسيره بالاكتفاء بالتفسير الباطني دون التعرض للتفسير الظاهر فقال: "فرأيت أن أعلق على بعض ما سنح لي في الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود فإنه قد عين لها حد محدود" اه. ج١ ص ٤، ٥، من المطبوع أخيرا.

وما في الكتاب من التفسير الصوفي النظري، فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذي كان له أثر سيء في تفسير القرآن الكريم.

وأما ما فيه من التفسير الإشاري، فكثير منه لا نفهم له معنى، ولا نجد له من سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه، ولو أن مؤلف هذا التفسير كان واضحا في كلامه أو جمع بين التفسير الظاهر والباطن لهان الأمر إلى حد ما، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، مما جعل الكتاب مغلقا، وموهما لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه.

والكتاب في جملته إن لم يكن تفسيرا باطنيا. فهو أشبه ما يكون به، من ناحية ما فيه من تفسيرات تقوم على نظرية وحدة الوجود، وما فيه من المعاني الإشارية البعيدة، ثم هو بعد ذلك يورد أحاديث لا أصل لها، وفيما يلي نماذج من هذا التفسير تكشف عما فيه من زيغ وفساد:

"أ" من الأحاديث التي لا أصل لها:

قال عند شرحه للبسملة ما نصه:

"سئل رسول الله ﷺ عن ألف الباء- من باسم الله الرحمن الرحيم- إلى أين ذهبت؟ قال: "سرقها الشيطان" وأمر- يعني رسول الله ﷺ بتطويل باء "باسم الله" تعويضا عن ألفها، إشارة إلى احتجاب ألوهية الآلهية في صورة الرحمة الإنتشارية، وظهورها في الصورة الإنسانية، بحيث لا يعرفها إلا أهلها" اه. ج١ ص ٩. من النسخة الحديثة.

"ب" من التفسير الإشاري:

=

=

ا- عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: {وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} الآية. يقول ما نصه: "ولا تأكلوا أموالكم" معارفكم ومعلوماتكم "بينكم " بباطل شهوات النفس ولذاتها، بتحصيل مآربها، واكتساب مقاصدها الحسية والجمالية باستعمالها "وتدلوا بها إلى الحكام " وترسلوا إلى حكام النفوس الأمارة بالسوء "لتأكلوا فريقا من أموال الناس" بالقوى الروحانية "بالإثم" أي بالظلم بصرفكم إياها في ملاذ القوى النفسانية "وأنتم تعلمون" أن ذلك إثم ووضع الشيء في غير موضعه أه ج٢ ص ١١٧ من النسخة الحديثة.

٢- عند تفسيره لقوله تعالى في سورة آل عمران: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ..} الآية- قال ما نصه: "فلما أحس عيسى" القلب من القوى النفسانية "الكفر" الاحتجاب والإنكار والمخالفة "قال من أنصاري إلى الله " أي اقتضى من القوى الروحانية نصرته عليهم في التوجه إلى الله "قال الحواريون " أي صفوته وخالصته من الروحانيات المذكورة "نحن أنصار الله آمنا بالله " أي بالاستدلال والتنور بنور الروح "واشهد بأنا مسلمون " مذعنون منقادون "اه ج ٣ ص ١٨٩ من النسخة الحديثة.

"ج" من التفسير المبني على وحدة الوجود:

ا- عند تفسيره لقوله تعالى في سورة آل عمران {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} قال ما نصه: "ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا"، أي شيئا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك "سبحانك " ننزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شيء فردانيتك، أو يثني وحدانيتك" اه. ج١ ص ١٤١ من النسخة الأميرية".

٢- وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة الواقعة: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ} أو يقول ما نصه: "نحن خلقناكم بأظهاركم بوجودنا وظهورنا في ظهوركم "أه ج٢

=

=

ص ٢٩١ من النسخة الأميرية".

٣- وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة الحديد: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} يقول ما نصه: "وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره في مظاهركم " أه ج٢ ص ٢٩٤ من النسخة الأميرية".

٤- وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة المزمل: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} قال ما نصه: "واذكر اسم ربك " الذي هو أنت، أي اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها "رب المشرق والمغرب " أي الذي ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بإيجادك، والمغرب الذي اختفى بوجودك وغرب نوره فيك واحتجب لك "اه ج٢ ص ٣٥٢ من النسخة الأميرية".

وبعد: فهذه نماذج تكشف عن روح هذا التفسير وهي روح كلها شر، وكتاب هذا شأنه يفسد على المسلمين عقيدتهم ويوقعهم في حيرة وشك من كتاب ربهم، ولهذا أرى من الواجب على المسئولين أن يصادروا ما طبع من هذا التفسير، ويحال دون طبع باقيه وإخراجه للناس مخافة أن يفتنوا في دينهم، ويضلوا في فهم كتاب ربهم.

{رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: بارك الله فيكم هذه السائلة من الأردن تقول فضيلة الشيخ نحن نعلم بأن الدار التي تقرأ فيها سورة البقرة لا يدخلها شيطان فهل تقرأ مرة واحدة أم كل ثلاثة أيام وهل تقرأ هذه السورة في الغرفة أم يكتفى أن تقرأ في مكان واحد من البيت؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الظاهر أن البيت إذا قرئت فيه البقرة أول مرة اكتفي بها وأنه لا يشترط أن تقرأ في كل حجرة بل تقرأ في صالة البيت أو في السطح أو في مكان عام

=

=

من البيت ويكتفى بذلك.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: ما حكم المداومة على قراءة سورة الكهف في كل جمعة وهل الاستمرار عليها وعدم تركها يعتبر بدعة.

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الاستمرار عليها جائز ولا شك فيه لأن في قراءتها كل جمعة فضلًا كما صحت بذلك السنة عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: ماذا ورد في قراءة سورة يس في كل ليلة وأيضًا سورة الدخان؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: لا أعلم في هذا سنة وإنما ورد السنة بقراءة سورة الملك كل ليلة وكذلك قراءة آية الكرسي وقراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة وقراءة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) و (المعوذتين) وأما ما ذكره السائل فلا أعلم له أصلا.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول ما حكم المداومة على قراءة سور معينة يتخذها الإنسان كورد بجانب تلاوة القران يوميا حيث علمنا من بعض الأحاديث بأن قراءة هذه السور لها فضل عظيم كسورة يس وسورة حم الدخان والفتح والملك وغيرها؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: أما ما لم يرد به النص من قراءة بعض السور أو الآيات فإنه لا يجوز للإنسان أن يقرأه معتقدا أن قراءة هذا الشيء المعين سنة لأنه لو فعل ذلك لشرع في دين الله ما ليس منه وأما ما ثبت به الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أو جاء عن الرسول ﷺ على وجه تثبت به الحجة فإنه لا بأس أن يداوم عليه على الوجه الذي جاء إن كان جاء بالمداومة يكون مداوما وإن كان جاء بغير المداومة يكون غير مداوم والمهم أنه ينبغي بل يجب على العباد وأصحاب الأوراد يجب عليهم أن يتحروا ما جاء في السنة عن النبي ﷺ وألا يبتدعوا في دين الله ما ليس منه فإنه حتى القرآن إذا خص الإنسان منه شيئًا معينا يتخذه دينا

=

=

بالمداومة عليه أو ما أشبه ذلك وهو لم يرد عن الرسول صلى الله وسلم على وجه يكون حجة فإنه لا يجوز له أن يفعل ذلك بل يكون مبتدعا في دين الله ما ليس منه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل سمعت بأن هناك سورا منجيات يوم القيامة مثل الملك والدخان والواقعة ما صحة ذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا أعلم عن هذا شيئا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: سورة الإخلاص يقال إنها تمثل أو تعدل ثلث القرآن فهل صحيح هذا وأن من يقرؤها ثلاث مرات كأنه قرأ القرآن كله؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: صحيح أن (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ثبت ذلك عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره ولكن ليس معنى المعادلة أنها تجزئ عن القرآن فإن المعادلة قد لا تكون مجزئة وانظر إلى ما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ من أن قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات يعدل عِتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ومع ذلك لو قال الإنسان هذا الذكر مائة مرة لم يجزئه عن العتق رقبة في كفارة فمعادلة الشيء بالشيء لا تقتضي إجزاء الشيء عن الشيء فنحن نقول كما قال النبي ﷺ (إن (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن) لكننا نقول إن قراءتها لا تجزئ عن قراءة القرآن بل لابد من هذا وهذا ولذلك لو أن الإنسان قرأها في صلاته ثلاث مرات ولم يقرأ الفاتحة ما صحت صلاته ولو كانت تجزئ عن القرآن لقلنا إنك إذا قرأتها ثلاث مرات في الصلاة أجزأتك عن الفاتحة ولا قائل بذلك من أهل العلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ماهي الآيات الناسخة والمنسوخة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا يمكن الإحاطة بها، هذه لها مجلس علم لكن هنا مسألة وهي أن بعض أهل العلم رحمهم الله يتساهلون في مسألة النسخ فقد يكون الأمر ليس بنسخ بل هو تخصيص ويقولون إنه نسخ وهذا وإن كان يطلق عليه اسم

=

=

النسخ في عرف المتقدمين أي إنهم يسمون التخصيص نسخا لكن النسخ بالمعنى المصطلح عليه بعض الناس يتساهل فيه فتجده يعد آيات كثيرة منسوخة وأحاديث كثيرة منسوخة مع إمكان الجمع والأحكام المنسوخة لا تتجاوز عشرة أحكام أو نحوها تزيد قليلا فما يفعله بعض العلماء رحمهم الله من كونه كلما عجز عن الجمع بين النصين قال منسوخ فهذا تهاون في النسخ والتهاون في النسخ ليس بالأمر الهين لأن لازمه إبطال أحد النصين وإبطال النص أمر صعب لا يمكن فالواجب الجمع ما أمكن فإذا تعذر الجمع نظرنا إلى التاريخ ولا بد من علم التاريخ فالمتقدم منسوخ والمتأخر ناسخ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: رسالة من الصومال يقول مرسلها عبد علي نور الصومالي تنزانيا، لي سؤال سألته من قبل بعض علماء هذا الوطن لكني لم أجد حتى الآن جوابًا مقنعًا أطلب أن تجيبوا لي برسالة وبالإذاعة أيضًا قد قرأت خطبة لعمر بن الخطاب إن الله بعث محمدًا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل الله عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل ما نجد الرجم في كتاب الله فيضل بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم حق في كتاب الله تعالى، إلى آخر الخطبة، فبحثت عن آية الرجم فوجدت في كتاب بلوغ المرام ص ٢٧١ وهي قوله تعالى الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما والعجب أن هذه الآية لا توجد في الكتاب كما قال عمر بن الخطاب في خطبته هذه، والسؤال من الذي خرجها في الكتب، وما السبب، وهل هناك جناح في قراءتها وفي أي سورة كانت وما الآية التي كانت قبلها والآية التي بعدها؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا الحديث الذي ذكره السائل عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثابت عنه في الصحيحين وأن الآية نزلت في كتاب الله وقرأها الصحابة ووعوها وحفظوها

=

وطبقت في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء بعده، وهي حق بلا شك، لكن هذه الآية مما نسخ لفظه وبقي معناه، وقد ذكر أهل العلم أن النسخ في كتاب الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام الأول ما نسخ حكمه وبقي لفظه، وهذا أكثر ما وقع في القرآن، والثاني ما نسخ لفظه وبقي حكمه، والثالث ما نسخ لفظه وحكمه، فمثال الأول قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) ثم قال بعدها ناسخًا لها (الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) فهذا نسخ حكمه وبقي لفظه، بقي لفظه تذكيرًا للأمة بما أنعم الله عليهم من التخفيف وكذلك إبقاءً لثوابه بتلاوته، أما القسم الثاني وهو ما نسخ لفظه وبقي حكمه فمثل هذه الآية، آية الرجم فإن حكمها باقٍ إلى يوم القيامة وكانت مقروءة وموجودة لكنها نسخ لفظها، والحكمة في نسخ لفظها والله أعلم بيان فضل هذه الأمة على الأمة اليهودية التي كتمت أو حاولت أن تكتم ما كان موجودًا في كتابها وهي آية الرجم حينما جاؤوا إلى النبي ﷺ يستفتونه في قضية اليهوديين حينما زنى رجل بامرأة منهم فجاؤوا بالتوراة ووضع القارئ يده على آية الرجم حتى قال عبد الله بن سلام ارفع يدك، فالأُمَّة اليهودية كان رجم الزاني ثابتًا عندها في التوراة لفظًا وحكمًا فحاولوا كتمه وعدم العمل به، هذه الأمة نسخ لفظ التلاوة التي تثبت رجم الزاني لكن الأمة الإسلامية طبقت هذا الحكم على الرغم من كون اللفظ منسوخًا مما يدل على فضلها وعلى امتثالها لأمر الله ﷻ وعدم تحايلها على إبطال شريعته هذا هو الذي يظهر لي من الحكمة في نسخ لفظها، وإن كان قد روي أن الحكمة هو أن الآية التي أشار إليها الأخ في السؤال وهي الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما لا تطابق الحكم الثابت الآن، لأن الحكم الثابت الآن معلق بالإحصان لا بالشيخوخة، والآية إن صحت الشيخ

=

والشيخة تعلق الحكم بالشيخوخة لا بالإحصان، وبينهما فرق فقد يكون الشيخ غير محصن يعني لم يتزوج ومع ذلك لا يرجم ومقتضى الآية أن يرجم لأنه شيخ، وقد يكون المحصن شابًا فيرجم ومقتضى الآية إن صحت أنه لا يرجم، ولذلك هذه الآية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم، في القلب من صحتها شيء وإن كانت قد وردت في السنن وفي المسند وفي ابن حبان، لكن في القلب منها شيء لأن حديث عمر رضى الله عنه الذي أشار إلى آية الرجم قال وإن الرجم حق ثابت في كتاب الله على من زنى إذا أحصن، إذا أحصن فمقتضى هذا اللفظ الثابت في الصحيحين أن الآية المنسوخة قد علقت الحكم بالإحصان لا بالشيخوخة، ولهذا يجب التحرز من القول بأن الآية المنسوخة بهذا اللفظ أي بلفظ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة لأن إثبات أن هذه هي الآية المنسوخة معناها إثبات أنها من كلام الله، وكلام الله سبحانه وتعالى حسب الحكم الشرعي الثابت الآن مقيد بالإحصان لا بالشيخوخة وهو في الحديث الذي في الصحيحين عن عمر يدل أيضًا على أن الآية المنسوخة قد علقت الحكم بالإحصان لا بالشيخوخة، على كل حال في نفسي وفي قلبي شيء من صحة هذا اللفظ أي لفظ الآية التي كانت منسوخة وهي أن لفظها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم فلا أستطيع أن أجزم بأن هذه هي الآية أي أن هذا هو لفظها، لأنها كما أشرنا إليه لا تطابق الحكم الشرعي الثابت الآن، ولا تطابق أيضًا الحديث الثابت في الصحيحين أن الآية المنسوخة على من زنى إذا أحصن، ففي القلب من صحتها شيء، أما قول الأخ أنه لم يجدها فصدق فهي غير موجودة في المصحف آية الرجم، وأما أين السورة التي ذكرت فيها ففي صحيح ابن حبان أنها كانت في سورة الأحزاب، والله أعلم بذلك، هل هي في سورة الأحزاب أو في سورة النور، الله أعلم، لأن الحديث يجب النظر فيه، والخلاصة أن

=

=

قوله والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، وإن كان مشهورًا ومعروفًا في السنن ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان فإن في نفسي من صحته شيئًا أولًا لأنه يخالف الحكم الشرعي الثابت إذ الحكم معلق بالإحصان لا بالشيخوخة، ثانيًا أن لفظ حديث عمر الثابت في الصحيحين ذكر أن الرجم على من زنى إذا أحصن فمقتضى ذلك أن الآية المنسوخة تعلق الحكم بالإحصان لا بالشيخوخة، وهذا مما يدل على ضعف هذا الحديث المروي فيجب التثبت فيه، إذن هذا القسم الثاني من المنسوخ ما نسخ لفظه وبقي حكمه، الثالث ما نسخ لفظه وحكمه، ومثلوا له بحديث عائشة رضى الله عنها الثابت في صحيح مسلم كانت فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن هذه فإن هذا العشر نسخت لفظًا وحكمًا ثم استقر الحكم على خمس معلومات.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل كل شخص يفسر القرآن برأيه أم الراسخون في العلم فقط وما الدليل على ذلك مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نعم التفسير بالرأي لا يجوز لا لأهل العلم ولا لغيرهم ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومعنى التفسير بالرأي أن الإنسان يحمل معاني كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ على ما يراه لا على ما تقتضيه دلالتها وأما التفسير بمقتضى الدلالة فإن كان عند الإنسان قدرة على ذلك بحيث يكون عنده علم من اللغة العربية وعلم من أصول الفقه وقواعد الملة فلا بأس أن يفسر القرآن بما يقتضيه ذلك وإن لم يكن عنده علم فإنه لا يجوز أن يفسره لأن الأمر خطير ومفسر القرآن مترجم عن الله سبحانه وتعالى فليحذر أن يترجم كلام الله بما لا يريده الله فإن الأمر شديد وعظيم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائل يقول عندما يسألني سائل عن تفسير آية من القرآن وأنا لا أعلم بتفسيرها أقوم بتفسيرها على ضوء نص الآية فهل

=

=

يجوز ذلك أم أن ذلك يكون من التكلف؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أما إذا كنت طالب علم وعندك شيء من علم اللغة وأفتيته بما تقتضيه اللغة أي فسرت له القرآن بما تقتضيه اللغة فأرجو أن لا يكون في هذا بأس وأما إذا كنت عاميًّا فلا تتحدث عن تفسير القرآن لأنك تكون حينئذ قلت في القرآن برأيك ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: أحيانًا يسأل أحدنا سؤالًا عن تفسير آية أو كلمة في القرآن فالبعض منا يفسر الآية على ما يغلب عليه ظنه فهل في ذلك بأس؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: إذا كان الذي فسر الآية على حسب ظنه من أهل اللغة العربية العارفين بها فلا بأس وأما إذا كان يتخرص خرصًا فلا يجوز لأن المفسر للقرآن شاهدٌ على الله تعالى بأنه أراد كذا وكذا وهذا أمرٌ فيه خطورةٌ عظيمة فإن الله تعالى سيسأله يوم القيامة كيف شهدت عليَّ بأني أردت كذا وكذا بدون علم ولهذا جاء التحذير من تفسير القرآن بالرأي وأن من فسر القرآن برأيه فقد أخطأ وإن أصاب أما الإنسان الذي عنده معرفة باللغة العربية وفسر القرآن بمقتضى اللغة العربية فهذا لا بأس به ولكن مع ذلك يراجع ما قاله المفسرون في تفسير الآية أما إذا كان هذا القول في مناقشةٍ بين طلبة العلم وسيرجعون في النهاية إلى كتب التفسير فهذا لا بأس به لأن هذا ليس قولًا مستقرًا لكنه عرض رأيٍ سوف يراجع فيما بعد.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بماذا ترشدون من أراد أن يقرأ في كتب التفسير لا سيما وأن بعضها يشتمل على تحريف الصفات؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أرشده إلى أن يتجنب جميع الكتب التي فيها التحريف ثم إذا ترعرع فيما بعد وأحب أن يطلع ويرى ما ابتلي به بعض الناس من التحريف فلا حرج أما في بداية الأمر فأخشى عليه الضلال إذا طالع الكتب التي فيها التحريف

=

=

كتحريف (اسْتَوَى) بمعنى استولى (وَجَاءَ رَبُّكَ) بمعنى جاء أمر ربك (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) أي نعمتاه وما أشبه ذلك من التحريف الباطل هذا لا يمكن أن يقرأه المبتدئ لأنه يضل ويهلك ونحن نؤمن بأن الله يجيء نفسه لأن الله أضاف الفعل إلى نفسه جاء ربك وأنه استوى على عرشه حقا وبأن له يدين حقيقتين قال الله ﷻ (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) فالأمر واضح ولله الحمد الأمر مثل الشمس في رابعة النهار لكني أقول من لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: أقرأ في بعض التفاسير وأخشى أن يكون بعضهم يخالف قول أهل السنة والجماعة ومذهب أهل السنة فبماذا تنصحونني؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: على كل حال أقول إن بعض المفسرين ينحون مذهب من يخرج النصوص على ظاهرها فيما يتعلق بصفات الله فيجب الحذر من هذا المذهب لأن حقيقته تحريف الكلم عن مواضعه وليس تأويلًا صحيحًا مرادًا لله ﷻ لأن الله تعالى لو خاطب الناس بما يريد منهم خلاف ظاهره لم يكن هذا من البيان الذي التزم الله به في قوله لرسول الله ﷺ (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) وفي قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ولا يجوز لنا أن نعدل بكلام الله أو كلام رسوله ﷺ لا في باب العقيدة ولا في باب الأحكام العملية عن ظاهره إلا بدليل لأن الله خاطبنا باللسان العربي المبين فيجب علينا أن نجري اللفظ بمقتضى هذا اللسان العربي المبين إلا إذا جاء دليل من المتكلم به على أنه لا يريد ظاهره فحينئذٍ نفسر كلامه بعضه ببعض وأما مجرد الأوهام والتخيلات التي تكون عند بعض أهل العلم من أن إثبات هذه الصفة يقتضي التمثيل أو التشبيه فإن هذه لا يجوز لنا أن نحكم بها على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لأنها

=

=

أوهام ذهب إليها من ذهب ظنًا منه أن صفات الله يحذى بها حذو صفات المخلوقين فيكون هذا الذي نفى الصفة يكون ممثلًا أولًا ومعطلًا ثانيًا فهو ممثل أولًا بحسب ظنه ووهمه معطلٌ ثانيًا لأنه نفى الصفة التي يدل عليها ظاهر كلام الله ورسوله.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما تنصحون بقراءته من كتب التفسير؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: كتب التفسير في الواقع كثيرة ومتشعبة والعلماء رحمهم الله كل يأخذ بجهة من جهات القرآن الكريم فمنهم من يغلب عليه تفسير المعاني بقطع النظر عن الإعراب والبلاغة وما أشبه ذلك ومنهم من يغلب عليه مسائل الإعراب والبلاغة وما أشبه ذلك ومنهم من يغلب عليه استنباطات من الآيات العلمية والعملية فهم يختلفون لكن من خير ما يكون من التفاسير فيما أعلم تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه تفسير جيد سلفي لكن يؤخذ عليه أنه يسوق بعض الإسرائيليات في بعض الأحيان ولا يتعقبها وهذا قليل عنده ومن التفاسير الجياد تفسير الشيخ عبد الرحمن الناصر بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه تفسير سلفي سهل المأخذ ينتفع به حتى العامي ومن التفاسير الجياد تفسير القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومنها تفسير محمد الأمين الشنقيطي الجكني لا سيما في الجزء الذي أدركه ومن التفاسير الجياد في البلاغة والعربية تفسير الزمخشري لكن احذره في العقيدة فإنه ليس بشيء ومن التفاسير الجياد تفسير ابن جرير الطبري لكنه لا ينتفع به إلا الراقي في العلم هناك تفاسير أخرى لا نعرفها إلا بالنقل عنها لكن الإنسان يجب عليه أنه إذا لم يفهم الآية من التفاسير أن يسأل عنها أهل العلم حتى لا يفسر القرآن بغير مراد الله تعالى به.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل صحيح بأن من حفظ القرآن كاملًا حرمه الله على النار.

=

=

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا أعلم هذا عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن حفظ القرآن كاملًا أو حفظ بعضه فإن القرآن إما حجة له أو حجة عليه وليس كل من حفظ القرآن يكون القرآن حجة له لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال (القرآن حجة لك أو عليك) فإن عمل به الإنسان مصدقًا بأخباره متبعًا لأحكامه صار القرآن حجة له وإن تولى وأعرض كان القرآن حجة عليه قال الله تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) ولكن مع ذلك أحث إخواني المسلمين من ذكور وإناث أن يحفظوا كتاب الله لأن كتاب الله تبارك وتعالى ذخر وغنيمة وإذا حفظه الإنسان استطاع أن يقرؤه في كل وقت وفي كل مكان إلا في الأوقات والأماكن التي ينهى عن القراءة فيها فيقرؤه وهو على فراشه يقرأه وهو يسير في سوقه إلى المسجد أو إلى المدرسة أو إلى حلقة الذكر أو إلى البيع والشراء ثم إن القرآن الكريم ليس كغيره فالقرآن الكريم في كل حرف منه حسنة والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ثم إن القرآن الكريم كلما تدبره الإنسان ازداد محبة لله تعالى وتعظيمًا له وصار القرآن كأنه سليقة له يسر بتلاوته ويحزن بفقده فنصيحتي لإخواني المسلمين عمومًا أن يحرصوا على حفظ القرآن ولا سيما الصغار منهم لأن حفظ الصغير له فائدتان الفائدة الأولى أن الصغير أسرع حفظًا من الكبير والثانية أن الصغير أبطأ نسيانًا من الكبير فهاتان فائدتان الأولى والثانية نسأل الله أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما هو الدعاء المفضل لحفظ القرآن

=

=

الكريم وما الطريقة التي تنصحون به لحفظ كتاب الله ولكم جزيل الشكر؟
فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا أعرف دعاءً يحفظ به القرآن الكريم ولكن الطريق إلى حفظه هو أن يواظب الإنسان على تحفظه وللناس في تحفظه طريقان
أحدهما أن يحفظه آية آية أو آيتين آيتين أو ثلاثا ثلاثا حسب طول الآية وقصرها.
والثاني أن يتحفظه صفحة، صفحة والناس يختلفون منهم من يفضل أن يتحفظه صفحة صفحة يعني يقرأ ويرددها ويرددها حتى يحفظها ومنهم من يفضل أن يحفظ الآية ثم يرددها حتى يحفظها ثم يحفظ آية أخرى كذلك وهكذا حتى يتمم ثم إنه أيضًا ينبغي سواءً حفظ بالطريقة الأولى أو بالثانية أن لا يتجاوز شيئًا حتى يكون قد أتقنه لئلا يبني على غير أساس وينبغي أن يستعيد ما حفظه كل يوم خصوصًا في الصباح فإذا عرف أنه قد أجاد ما حفظه أخذ درسًا جديدًا.
وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما هو السن المناسب في تحفيظ الأبناء للقرآن الكريم وما رأيكم أيضا في الأناشيد الإسلامية من أجل تحفيظها للأطفال وتعويدهم على ترديدها؟
فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أما الفقرة الأولى من السؤال وهي السن التي ينبغي أن يبتدأ فيها بتحفيظ الطفل كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الغالب أن سن السابعة يكون فيه الطفل مستعدا لحفظ ما يلقى إليه ولهذا كانت السابعة عند كثير من العلماء أو أكثر العلماء هي سن التمييز ويوجد بعض الأطفال يكون عنده تمييز قبل سن السابعة ويوجد بعض الأطفال لا يكون عنده تمييز إلا في الثامنة فما فوق فالمهم أن هذا يرجع إلى استعداد الطفل لحفظ القرآن وغالب ذلك سبع سنوات أما الأناشيد الإسلامية فتحتاج إلى أن نسمعها لأن بعض الأناشيد الإسلامية تسمى إسلامية لكن فيها بعض الأخطاء هذا إذا كانت مجردة عن الموسيقى والطبول والدفوف أما إذا صحبها شيء من آلات المعازف فهي حرام لما صحبها منها من آلات

=

=

العزف فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه (قال ليكونن أقوام من أمتي يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف) وهذا نص صريح في أن المعازف حرام.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمع خضر يقول أسأل عن آداب تلاوة القرآن الكريم وأرجو أن ترشدوني لبعض الأدعية المستجابة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: من آداب قراءة القرآن الكريم أن يكون الإنسان عند قراءة القرآن متطهرًا وأن يكون متخشعًا وأن يكون متدبرًا لكلام الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يكون مستحضرًا لكون القرآن كلام الله حروفه ومعانيه حتى يحصل له من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ حال قراءة القرآن ما لا يحصل له لو كان غافلًا وينبغي للإنسان أن يجعل له في كل يوم حزبًا معينًا يحافظ عليه حتى لا تضيع عليه الأوقات لأن الإنسان إذا ضاعت عليه الأوقات فإنه لا يتمكن من العمل الذي يرضى به عن نفسه أي أن الإنسان إذا أهمل نفسه بدون تقيد ضاعت عليه أوقاته وخسر وقتًا كبيرًا بخلاف ما إذا ما وقت لنفسه وضبط نفسه فإنه يحصل على خير.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما حكم الشرع في نظركم في الطالب الذي يقرأ القرآن ثم يحفظه ثم ينساه؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: إذا حفظ الإنسان القرآن ثم نسيه فإن كان عن هجر للقرآن ورغبة عنه فإنه قد عرض نفسه لإثم عظيم وإن كان بمقتضى السجية والطبيعة البشرية أو أتاه ما يشغله عن تعهده فإنه لا يأثم بذلك لأن النسيان من طبيعة الإنسان كما قال النبي عليه الصلاة والسلام (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون) فإذا كان النسيان بمقتضى طبيعة البشرية أو من أجل أنه تشاغل بأمور واجبة أوجبت نسيان شيء من القرآن فإن ذلك لا يكون سببًا لإثمه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: لقد كنت أحفظ من القرآن الكريم ما

=

=

يقارب من عشرة أجزاء ومنذ ثلاث سنوات نسيت ما كنت أحفظه إلا قليلًا وذلك بسبب دراستي فهل علي إثم في ذلك وهل أدخل في قوله تعالى (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) ؟

فأجاب رَحَمَهُ اللَّهُ تعالى: لا تدخل في هذه الآية لأن قوله تعالى (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا) المراد فتركتها يعني فتركت العمل بها ولم ترفع بها رأسا ولم تر في مخالفتها بأسا هذا معنى النسيان هنا والنسيان يأتي بمعنى الترك كما في قول الله تعالى (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) أي تركهم لأن الرب ﷻ لا ينسى النسيان الذي هو ضد الذكر ولكن لا ينبغي لمن من الله عليه بحفظ القرآن أن يهمله حتى ينساه بل يحافظ عليه ويتعهده لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر بذلك فقال (تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها) فإذا أمكنك الآن وأرجو أن يمكنك أن تعيد ما مضى فإن استعادته سهلة فاستعن بالله والتفت إلى القرآن واستذكر ما نسيت واسأل الله أن يفتح عليك وأن يذكرك ما نسيت.

وسئل رَحَمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: سالم محمد سالم مصري يقول ما معنى قوله تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) وهل ينطبق معناها على من حفظ شيئًا من القرآن ثم نسيه بسبب الإهمال وقلة الفراغ وعدم المداومة على قراءته؟

فأجاب رَحَمَهُ اللَّهُ تعالى: معنى قوله تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) أن كل من أعرض عن ذكر الله وهذا يشمل الإعراض عن ذكره الذي هو القرآن والوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله ويشمل الذكر الذي هو ذكر الله تعالى بالقلب وباللسان وبالجوارح فمن أعرض عن هذا وهذا فإنه يعاقب بهذه العقوبة العظيمة فإن له معيشةً ضنكا وهذه المعيشة الضنك قيل إن المراد بها

=

=

تضييق القبر عليه بعد موته وقيل إن المراد بها ما هو أعم وحتى وإن بقي في دنياه فإنه لا يكون منشرح الصدر ولا يكون مطمئن القلب وذلك لأنه لا عيش أنعم ولا أطيب من عيش من آمن بالله وعمل صالحًا كما قال الله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال بعض السلف لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف لأن الإيمان مع العمل الصالح يوجب للإنسان الانشراح والطمأنينة ويكون في قلبه نور ويكون راضيًا بقضاء الله وقدره في المكاره والمحاب فلا يوجد أحدٌ أنعم منه وهذا القول أقرب إلى الصواب أن المعيشة الضنك تشمل هذا وهذا في القبر وكذلك في الدنيا أما بعد الحشر فإنه يحشر والعياذ بالله يوم القيامة أعمى كما قال الله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) وحينئذٍ يسأل لا سؤال استعتاب ولكن سؤال استظهار لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا وهذا لأجل إقامة الحجة عليه وخزيه والعياذ بالله يوم القيامة فيقول الله له (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ).

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل إنني مواظب على قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ولكنني كثيرًا ما أنسى ولا أستطيع أن أحفظ هل علي إثم في هذا أفيدوني بارك الله فيكم؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا شك أن من نعمة الله على العبد أن يوفقه الله تعالى لحفظ كتابه عن ظهر قلب لما في ذلك من المصالح العظيمة فإن الإنسان إذا كان حافظًا لكتاب الله عن ظهر قلب أمكنه أن يتلوه على كل حال إلا في المواضع التي لا ينبغي فيها تلاوة القرآن أو في الأحوال التي لا يمكن فيها قراءة القرآن كحال

=

=

الجنابة وإذا كان حافظًا للقرآن عن ظهر قلب أمكنه أن يتدبر معانيه وأن يتفكر فيه كل وقت ولهذا ينبغي للإنسان أن يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب ما استطاع وإذا حرص على ذلك ولكنه نسي شيئًا منه بغير تفريط فإن ذلك لا حرج عليه فيه وقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بأصحابه ذات يوم بل ذات ليلة فقرأ وأسقط آية من القرآن نسيها فذكره أبي بن كعب بها بعد سلامه فقال (هلا كنت ذكرتنيها) فإذا نسي الإنسان شيئًا مما حفظ من كتاب الله دون استهانة به فإن ذلك لا حرج عليه فيه لأنه من طبيعة البشر أعني أن نسيان الإنسان لما حفظه أمر طبيعي لا يلام الإنسان عليه إلا ما كان من استهانة وعدم مبالاة فهذا له حال أخرى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمعة أختكم في الله غ ح م المملكة تقول في رسالتها لقد سمعت حديثًا عن الرسول الكريم ﷺ معناه أن من حفظ سورة أو آية من القرآن الكريم ونسيها بعد ذلك بأنه قد ارتكب ذنبًا ما مدى صحة هذا الحديث يا فضيلة الشيخ؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا الحديث روي عن النبي عليه الصلاة والسلام من الوعيد الشديد على من حفظ آية من كتاب الله ثم نسيها وهذا الحديث إن صح فالمراد به من نسي هذه الآية تهاونًا وإعراضًا عن كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وعدم مبالاة به وأما من نسيها بمقتضى الطبيعة أو بانشغاله بما يجب عليه من شؤون حياته وحياة أهله فإنه لا إثم عليه وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نسي آية في صلاة فذكره بها أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أن سلم فقال هلا كنت ذكرتنيها يعني من قبل وثبت عنه أنه مر برجل يقرأ في بيته فقال (رحم الله فلانًا لقد ذكرني آية كنت نسيتها) والنسيان من طبيعة البشر كما قال النبي عليه الصلاة والسلام (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون) والعجيب أن بعض الناس لتهيبه من عقوبة الله عَزَّ وَجَلَّ لعب به الهوى حتى قال لن أحفظ شيئًا من كتاب الله أخشى أن أحفظه فأنساه فمنع نفسه من الخير بهذه الحجة التي لا أساس

=

=

لها من الصحة ونحن نقول احفظ كتاب الله ﷻ وتعهده ما استطعت كما أمر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام فإنه أمر بتعهد القرآن وقال (إنه أشد تفلتًا من الإبل في عقلها) فأنت احفظ القرآن وتعهده وإذا نسيت بمقتضى الطبيعة لا للإعراض عن كتاب الله ولا للتهاون به فإن ذلك لا يضرك وليس عليك إثم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل قرأت في يوم من الأيام حديثًا معناه أن الرسول الكريم ﷺ قال (من قرأ القرآن ونسيه يأتي يوم القيامة وهو أجذم) وأنا في الحقيقة إنسان أنسى بسرعة ولا أتذكر شيئًا إلا بشق الأنفس وهذا ما يخيفني وحاولت العلاج وعرضت نفسي على عدد من الأطباء فبماذا تنصحونني بارك الله فيكم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أقول إن نسيان القرآن ينقسم إلى قسمين أحدهما أن يكون سببه إعراض القارئ وإهماله وتفريطه فهذا قد يكون آثمًا لكونه أهدر نعمة الله عليه بحفظ كتابه حتى أضاعه ونسيه

وأما القسم الثاني فهو أن يكون نسيانه عن غير إعراض وغفلة ولكنه بآفة كسرعة النسيان أو لكونه ينشغل بأمور لا بدّ له منها في دينه ودنياه فينسى بذلك فهذا لا يضر ولا يؤثر وقد صلى النبي ﷺ ذات يوم بأصحابه فقرأ بهم ونسي آية من القرآن فلما انصرف ذكره بها أبي بن كعب فقال له النبي ﷺ (هلا كنت ذكرتنيها) يعني في الصلاة ومر بقاريء يقرأ ليلًا فقال (رحم الله فلانًا لقد ذكرني آية كنت أُنسيتها) فالنسيان الذي يأتي بمقتضى طبيعة البشر لا يلام الإنسان عليه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائلة تقول تركت قراءة القرآن علمًا بأنني أقرؤه بشكل مستمر في شهر رمضان وذلك لانشغالي فما حكم ذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا شيء عليك إذا كان هذا الانشغال لا تتمكنين فيه من قراءة القرآن ومن المعلوم أن المؤمن لا يمكن أن يدع قراءة القرآن لأنه سوف يقرأ

=

=

القرآن في الصلاة يقرأ الفاتحة وما تيسر ويقرأ الأوراد من الآيات الكريمة كآية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين وآيتين من آخر سورة البقرة وما أشبه ذلك لكن مع هذا ينبغي أن تحافظي ولو على نصف جزء في اليوم وهذا أمر لا يشق فقراءة نصف الجزء في عشر دقائق لا تشغل الإنسان شغلًا كثيرًا فلتستعيني بالله ﷻ ولتحافظي على ورد معين تقرئينه كل يوم ولو عند النوم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: هل تجوز قراءة القرآن بدون معلم علما بأننا بحثنا في المدينة التي أسكن فيها ولم أجد من يعلمنا أحكام القرآن أو حفظ القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إن من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة ومن تمام حفظه لكتابه العزيز أن قيض للمسلمين هذه المصاحف التي كتب فيها القرآن وطبع فيها القرآن على وجه معرب تمام الإعراب في الحركات والسكنات والمدات وغير ذلك وهذا داخل في قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فإذا كان الإنسان باستطاعته أن يقرأ القرآن من هذه الصحف المعربة المشكولة ولو شق عليه ذلك ولو تتعتع فيه فإنه يجوز له أن يفعل وإن لم يكن له قارئ يقرئه وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) فأنت أخي السائل اقرأ القرآن وتهجه حرفا حرفا وكلمة كلمة مع إتقان الحركات والسكنات وهذا كافٍ وفيه خير عظيم ولك مع المشقة أجران كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأما قراءة القرآن على وجه التجويد المعروف فإن ذلك ليس بواجب لأن التجويد إنما يراد به تحسين القراءة فقط وليس أمرا واجبا حتما يأثم الإنسان بتركه بل الواجب الحتم أن يقيم الحركات والسكنات ويبرز الحروف.

=

=

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمع زكي عبد الله مصري يقول كيف يكون تعاهد القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: تعاهد القرآن يكون بمداومة تلاوته حسب ما تقتضيه المصلحة والحاجة فقد يكون الإنسان ضعيفًا في حفظه في كتاب الله وهذا نقول له أكثر من تلاوته ومعاهدته لئلا يضيع منه شيء وتارة يكون حفظه لكتاب الله قويًا وهذا لا نلزمه من المعاهدة والمحافظة كما نلزم الأول فهي تكون بحسب الحال أي بحسب حال حافظ القرآن وضابطها أن يتعاهد القرآن على وجه يأمن فيه من نسيانه ويختلف هذا باختلاف الناس.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: هل نسيان القرآن فضيلة الشيخ من كبائر الذنوب مع الدليل؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: نسيان القرآن ليس من كبائر الذنوب وليس فيه إثم إذا كان الإنسان قد أتى بما يجب عليه من تعهد القرآن فإن النسيان وقع للنبي عليه الصلاة والسلام ومن المعلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس تعهدًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ والنسيان من طبيعة البشر لقول النبي ﷺ (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني) أما إذا كان النسيان لتهاون الإنسان بتعهد القرآن الواجب فإنه يأثم بذلك لأنه ترك ما يجب عليه من التعاهد الواجب والحديث الوارد في الوعيد على ذلك فيه مقال كثير لا يستطيع الإنسان أن يجزم بوقوع الوعيد المذكور لأنه لم يكن ثابتًا ثبوتًا يبني الإنسان عليه معتقده فلهذا نقول إن النسيان الذي يكون سببه الإهمال أي إهمال ما يجب عليه من تعاهد القرآن يكون الإنسان آثمًا فقط أما الجزم بأنه من كبائر الذنوب فإن هذا ينبني على صحة الحديث. والحديث فيه مقال كثير.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل نسيان القرآن من كبائر

=

=

الذنوب مع الدليل؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: نسيان القرآن ليس من كبائر الذنوب وليس فيه إثم إذا كان الإنسان قد أتى بما يجب عليه من تعهد القرآن فإن النسيان وقع للنبي عليه الصلاة والسلام ومن المعلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس تعهدًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ والنسيان من طبيعة البشر لقول النبي ﷺ (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني) أما إذا كان النسيان لتهاون الإنسان بتعهد القرآن الواجب فإنه يأثم بذلك لأنه ترك ما يجب عليه من التعاهد الواجب والحديث الوارد في الوعيد على ذلك فيه مقال كثير لا يستطيع الإنسان أن يجزم بوقوع الوعيد المذكور لأنه لم يكن ثابتًا ثبوتًا يبني الإنسان عليه معتقده فلهذا نقول إن النسيان الذي يكون سببه الإهمال أي إهمال ما يجب عليه من تعاهد القرآن يكون الإنسان آثمًا فقط أما الجزم بأنه من كبائر الذنوب فإن هذا ينبني على صحة الحديث. والحديث فيه مقال كثير.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: ما حكم وضع المصحف على الأرض فوق فرش المسجد فقد أفتى بعضهم بأن وضعه يؤدي إلى الكفر؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: لا بأس به ولا حرج فيه إذا وضعه على وجه ليس فيه إهانة مثل أن يضعه بين يديه أو إلى جنبه فإن ذلك لا بأس به ولا حرج فيه وليس بكفر أما لو وضعه بين قدميه وحاشا لأحد أن يفعل ذلك وهو مؤمن فهذا لا شك أنه إهانة لكلام الله عَزَّ وَجَلَّ وإنني بهذه المناسبة أحذر من أن يفتي الإنسان بغير علم لأن الفتوى بغير علم قول على الله بغير علم وقد قرن الله القول عليه بغير علم بالشرك فقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) وجاء في الحديث (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) ولا يحل لأحد أن

=

=

يتكلم عن شريعة الله إلا بعلم يعلم به أن هذا من شريعة الله أو أن هذا مخالف لشريعة الله ولا يحل لأحد أيضًا إذا كان جريئًا أن يجرؤ على التكفير إلا بدليل واضح صريح لأن التكفير معناه إخراج الرجل من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر فالأمر عظيم وإذا كان ليس بإمكان أحد أن يقول عن الشيء الحلال إنه حرام أو عن الشيء الحرام إنه حلال فليس بإمكان أحد أن يقول للشخص المسلم إنه كافر بل قد يكون هذا أعظم لأنه يترتب على القول بالكفر مسائل كبيرة عظيمة فالكافر مثلًا لا يزوج ولا يكون وليًا في زواج ولا يكون وليًا على أولاده وإذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين ولا يورث عند أكثر أهل العلم فالأمر ليس بالهين فالتكفير صعب فعلى كل حال نصيحتي لإخواني أن يتقوا الله في أنفسهم وأن يتقوا الله في إخوانهم فلا يقولوا على الله ما لا يعلمون ولا يتكلمون بشيء لا طاقة لهم به وإذا كانوا يستعجلون الرئاسة في العلم والإمامة في الدين فقد أخطؤوا فإن من تعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه بل ينظروا ويصبروا حتى يكونوا أهلًا للإمامة في دين الله وحينئذٍ يفتون الناس ثم إني أحذر أيضًا العامة أن يستفتوا إلا من علم بأنه أهل للفتيا لأنهم إذا استفتوا من لا يعلمون أنه أهل للفتيا فقد يضلون بما أفتوا به من الضلال وإذا كان الإنسان لو مرض لم يذهب إلى أي واحد ليطلب العلاج عنده وإنما يذهب إلى الأطباء المعروفين فكذلك في دين الله إذا أشكل عليه شيء لا يذهب إلى أي واحد من الناس ويستفتيه وما أكثر ما يُعرض من الفتاوى الخاطئة فأحذر إخواني هؤلاء وأقول أسأل الله أن يجعلكم أئمة في الدين وأنتم تستحقون الإمامة واحرصوا على أن تتعلموا أولًا ثم تعلموا ثانيًا وتفتوا الناس فتكونوا أئمة للناس في دينهم وفي صلواتهم وكذلك أيضًا أحذر إخواني الذين منّ الله عليهم بشيء من العلم ولكنهم ما زالوا في الطلب وفي أول الدرجة أحذرهم ألا يتعجلوا في الفتيا فيضلوا الناس

=

=

بغير علم ويندموا هم بأنفسهم إذا كبروا ورأوا أنهم قد ضلوا فسوف يندمون وحينئذٍ لا ينفع الندم لأن الفتيا إذا انتشرت صعب جدًا أن تختفي وقد يقول من وافقت الفتيا هواه قد يقول بأني لا أرجع عن هذه الفتيا ولو رجع المفتي بها لأنني لا أدري الصواب في أول قوليه أو في آخرهما فالأمر خطير للغاية فنسأل الله أن يجعلنا جميعًا ممن رأى الحق حقًا واتبعه ورأى الباطل باطلًا واجتنبه إنه جواد كريم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما حكم وضع القرآن الكريم على الأرض في حال الصلاة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: مما لا شك فيه أن القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ تكلَّم به سبحانه وتعالى ونزل به جبريل الأمين على قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه يجب على المسلم احترامه وتعظيمه ولهذا لا يجوز للمسلم أن يمسَّ القرآن إلا وهو طاهر من الحدثين الأصغر والأكبر ولا يجوز أن يوضع القرآن في مكانٍ يكون فيه إهانةٌ له وأما وضع القرآن على الأرض أثناء السجود للمصلى فلا بأس بذلك لأنه ليس فيه إهانة لكنه يجب أن يبعد عن ما يقرب من القدمين بمعنى أنه لا ينبغي بل لا يجوز أن يضعه الإنسان عند قدمه وهو قائم مثلًا وإنما يجعله بين يديه أو قدّام موضع سجوده كذلك أيضًا لا يجوز أن يوضع بين النعال كما لو كان الناس يضعون نعالهم في مكان فيأتي هذا الإنسان ويضعه بين النعال فإن هذا لا يجوز لأنه إهانةٌ للقرآن الكريم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم كتابة القرآن على الجدار أو تعليق آيات من القرآن الكريم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أما تعليق القرآن أو كتابته على الجدران فليس من هدي السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهذا الذي كتبه يسأل لماذا كتبته أتريد أن يقرأ فإن من المعلوم أن

=

=

الجالس لا يقرؤه إلا على سبيل الفرجة فقط لا يقرؤه تعبدًا
وهل هو على سبيل التبرك فالتبرك على هذا الوجه بدعة
وهل هو على سبيل الحماية على أنه ورد فكذلك أيضًا لم يرد الاحتماء بالقرآن على هذا الوجه
وهل هو على سبيل النصيحة فإن الغالب أن الناس لا يهتمون بذلك ولنضرب لهذا مثلًا لو كتب آية (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) هل الجالس إذا قرأ الآية تهيب عن الغيبة ووقف ثم هل كل مجلس يكون فيه غيبة إذا كان بعض المجالس ليس فيها غيبة فما الفائدة من كتابة الآية إذا كان أهل المجلس لا يهتمون بالغيبة فإن هذه الآية المكتوبة أو المعلقة لم تنفعهم على كل حال يكفينا في هذا أن نقول تعليق القرآن الكريم على الجدران أو كتابته على الجدران ليس من هدي السلف الصالح ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.
وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ماحكم كتابة البسملة على السبورة؟
فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: كتابة البسملة على السبورة إن كان سيُكتب على السبورة شيء فحسن أما إذا لم يكتب على السبورة شيء فلا فائدة منها وغالب السبورات تكون وراء المدرس إذا قام يدرس.
وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز كتابة آية كريمة على شكل رجل يصلى كما يحصل من بعض من يجيدون الخط؟
فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الذي يظهر لي أنه لا يجوز وأن هذا من التعمق والتنطع وقد قال النبي ﷺ (هلك المتنطعون) ثم إن الكتابة العربية بالحروف العربية لا بد أن يحصل فيها تغيير إذا هي عُصفت حتى تكون على هيئة مصلٍّ ثم إن هيئة المصلى قد يكون فيها أو من جملة الهيئات أن يكون ساجدًا وحينئذٍ يكون أعلى القرآن أو أعلى الصحيفة وأسفلها مختلفًا ويكون القرآن معبرًا عن ساجدٍ وقد قال النبي

=

=

عليه الصلاة والسلام (ألا إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا) فكل شيء يوهم أن هذا القرآن في منزلةٍ أسفل فإنه منهيٌ عنه وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن يقرأ الإنسان القرآن راكعًا أو ساجدًا لأن هيئته هيئة ذلٍ بالغ والقرآن ينبغي أن يكون في محل القيام الذي يكون محل انتصابٍ وارتفاع فالحاصل أن هذه الكتابة نرى أنها لا تجوز ثم إن من المغالاة أن يدعى الناس إلى شريعة الله بمثل هذه الأمور وبهذه المناسبة أود أن أنبه أيضًا إلى ما يُعلَّق من بعض الآيات في المجالس فإنه هذا أيضًا من الأمور المبتدعة المحدثة التي وإن كان فاعلوها يقصدون إما التبرك وإما التذكير فهذا لا ينبغي لأن التبرك على هذا الوجه بالقرآن الكريم لم يرد وأما التذكير فإنها في الحقيقة لا تذكر في الغالب بل إنك تجد في هذا المجلس الذي عُلِّقت فيه هذه الآيات تجد فيه من السباب واللغو والشتم أو من الأفعال المنكرة من شرب دخان أو من استماع إلى ما لا يجوز الاستماع إليه أو ما أشبه ذلك وهذا لا شك أنه يكون كالاستهزاء بآيات الله تعالى حيث تكون آيات الله تعالى فوق رؤوس الناس الجالسين وهم ينابذون الله تعالى بالمعاصي وبالسباب والشتم والغيبة ونحو ذلك فلهذا نرى أن للمسلمين غنىً عن هذه الأمور التي تلقيت عن غير روية ومن غير تأمل وخير هدي هدي النبي ﷺ وسلف هذه الأمة الصالح والذي أنصح به إخواني المسلمين أن لا يعلقوا مثل هذه الآيات في بيوتهم لأن فيها من المفاسد ما اشرنا إليه آنفًا والحمد لله في المصاحف غنىً عن هذا ومن أراد كلام الله والتمتع بتلاوته أو التدبر لآياته وجده مكتوبًا في المصاحف والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز جعل أحد قصص القرآن الكريم مثل قصة يوسف على شكل شعر أفيدونا ولكم جزيل الشكر؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: القران الكريم كلام الله ﷻ ويجب أن يعظم بأنه كلام الله وهو

=

=

قرآن مجيد وقرآن عظيم وقرآن كريم فلا يجوز أن يعدل به عن الطريقة التي أنزله الله تعالى عليها لا سيما تحويله إلى شعر فإن هذا من أعظم المنكرات ومن أعظم الجرأة على الله ﷻ والقرآن إنما نزل للاتعاظ والتذكر ولم ينزل لأن يجعل أغاني وشعرًا فمحاولة هذا الشيء من أعظم الجرأة على الله تعالى وأعظم المنكرات وهي حرام بلا شك.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: سعيد محمود هل يجوز حمل القرآن الكريم إلى مكان بعيد لتلاوته وما حكم ذلك وفقكم الله؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: لعله يريد بالمكان البعيد بلاد الكفر فنقول لا بأس أن يحمل الإنسان القرآن إلى بلاد غير إسلامية لأن أهل العلم إنما ذكر بعضهم تحريم السفر بالقرآن إلى دار الحرب التي يخشى أن يستولي هؤلاء الأعداء على هذا المصحف فيهينوه وأما بلاد بينها وبين بلدك معاهدة كما هو الجاري المعروف الآن بين الدول فإنه لا حرج أن يستصحب الإنسان كتاب الله ليقرأ به وليقرئه غيره من المسلمين هناك فيحصل النفع للجميع والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: بارك الله فيكم المستمعة تقول ما حكم الاستناد على المصحف عند الكتابة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الاستناد يعني الاتكاء على المصحف عند الكتابة لا بأس به إذا لم يقصد بذلك الإهانة والغالب أن الكاتب لا يقصد الإهانة لكن خير من ذلك أن يجعل المصحف أمامه بين يديه ويكتب عليه إذا كان يريد أن ينقل من المصحف شيئًا أما إذا كان يريد أن يكون المصحف متكًا للورقة التي يريد أن يكتب عليها فإننا نقول لا تفعل لأن في هذا استخدامًا للمصحف قد يكون مشتملًا على شيء من الإهانة وليأت الإنسان بشيء آخر يتكئ عليه عند الكتابة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز رمي الأشرطة التي

=

=

تحمل تسجيلات لبعض الآيات القرآنية الكريمة وبعض الأحاديث الشريفة في سلة المهملات وإذا كان ذلك لا يجوز فماذا يجب أن نفعل بعد تلفها أفيدونا بذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نعم هذه الأشرطة التي تتضمن شيئًا من الآيات الكريمة أو من الأحاديث النبوية لا يظهر فيها أثر بالنسبة للآيات ولا للأحاديث أي لا يظهر للآيات ولا للأحاديث صورة بهذا الشريط وإنما هي حبيبات أو نبرات إذا مرت بالبكرات التي في المسجل حصل منها هذا الصوت فلا يثبت لها أحكام الورق الذي يكتب فيه شيء من القرآن أو من الأحاديث النبوية فإذا رماها الإنسان في أي مكان بشرط أن لا يقصد إهانتها فإنه لا حرج عليه في ذلك كما أنه لو دخل فيها مكان قضاء الحاجة فإنه ليس في ذلك بأس لأن الآيات أو الأحاديث لا تظهر في هذه الأشرطة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بارك الله فيكم المستمع عبد الله العربي يقول نرى في بعض من التجار وأصحاب الأعمال يستعملون أجزاء غير مكتملة من الآيات ويضعونها على مداخل الأبواب مثل صاحب الطعام يكتب (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) صاحب الشراب (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) صاحب المكتبة (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) إلى آخر هذه الاستعمالات والتي تبدو أحيانًا تجاوزت الحد الكثير نرجو بهذا التوجيه؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نعم تعليق هذه الآيات ينقسم إلى قسمين فتارةً يقصد بها التحرز والتحصن مثل الذين يعلقون آية الكرسي أو المعوذات أو نحو ذلك وهذا لا شك أنه غير مشروع وأنه أمرٌ لا ينبغي لأنه لم يرد عن السلف الصالح ولأنه يوجب للإنسان أن يعتمد عليه ويدع قراءة هذه الآيات التي يكون بها التحصن اعتمادًا على ما علق وتارةً يقصد بها التنبيه كما ذكر السائل يكتب أمام الداخل

=

=

على مكتبة (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وما أشبه ذلك وهذا قد يقول قائل إنه غير مشروع لأنه لم يرد عن السلف الصالح ولأنه قد ينتفع به وقد لا ينتفع وكثيرًا ما يعلق آية من القرآن تنهى عن شيء ويكون الجالسون في هذا المكان يفعلون نفس الشيء الذي نهي عنه كما لو كتب في المجلس (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) فإن الجالسين هل ينتفعون بما كتب قد ينتفعون وقد لا ينتفعون ربما يغتابون الناس وكلام الله ﷻ فوق رؤوسهم يقول الله فيه (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) فلا ينتفعون بهذا المكتوب وتارةً يعلق القرآن لكونه مكتوبًا على وجهٍ مطرز وكأنه نقوش ووشم حتى إن بعضهم يكتب على هيئة قصر وعلى هيئة منارة وما أشبه ذلك فهذا أشبه ما يكون باللعب بكتاب الله ﷻ والعلماء رحمهم الله اختلفوا هل يجوز أن يكتب القرآن بغير الرسم العثماني أي على حسب القواعد المعروفة أو لا يجوز على ثلاثة أقوال فمنهم من منعه مطلقًا ومنهم من أجازه مطلقا ومنهم من فصل وقال إذا كتبناه لمن يجيد قراءة القرآن بالرسم العثماني فلا بأس وإذا كتبناه بالرسم العثماني لشخصٍ يخشى أن ينطق بالقرآن على حسب الحروف المكتوبة فإننا لا نكتبه مثلًا (وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) مكتوبة بالواو فإذا كتبناها بالواو لشخصٍ لا يعرف النطق بالقرآن ربما يقول وحرم الربو الصلاة كذلك مكتوبة بالواو ربما إذا كتبناها بالرسم العثماني بالواو لشخصٍ لا يحسن التلاوة لفظًا ربما يقول الصلوة وهكذا المهم أن بعض العلماء فصل في هذا المقام وقال إن كتب لشخصٍ لا يخشى منه تحريف القرآن تبعًا للحروف فإنه يجب أن يبقى على الرسم العثماني وإن كتب لشخص يخشى أن يحرف القرآن بناءً على كتابة الحروف فإنه يكتب بالقاعدة المعروفة بين الناس فإذا كان العلماء اختلفوا في الخروج عن الرسم العثماني فكيف نجوز لشخص أن يكتب كلام الله ﷻ على صفة قصور أو منارات أو ما أشبه ذلك هذا لا شك في تحريمه والواجب على من عنده شيء مكتوبٌ على

=

=

هذا الوجه أن يطمسه وأن يحوله إلى كتابةٍ على حسب الرسم العثماني هذا إذا قلنا بجواز تعليق الآيات على الجدران

القسم الرابع من يعلق آياتٍ لا علاقة لها بالموضوع والسلامة من تعليق الآيات على الجدر أسلم وأبرأ للذمة وأحوط للإنسان فهو في غنىً عن تعليق الآيات على الجدر أما تعليق بعض الحكم على الجدران فهذا لا بأس به ولا حرج فيه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يستشهد بعض الناس فضيلة الشيخ ببعض الآيات والأحاديث في أمورهم الدنيوية مثلا (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) وحولها نونون وما أشبه ذلك نرجو الفتوى في مثل هذه الأمور؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: يجوز للإنسان أن يستشهد بالقرآن على الحادثة لا أن يجعل القرآن بدلا من الكلام فمثلا إذا قام يلاعب أولاده أو صار يتاجر في ماله فقال (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ) فلا بأس بذلك لأنه يستشهد بالآية على ما نزلت فيه وأما إذا جعلها بدلا من الكلام بحيث يعبر بالقرآن عن المعنى الذي يريده فإن هذا لا يجوز كهذا الرجل الذي قال اذكرني عند ربك فإن الآية لم تنزل بهذا ولا يحل له أن يجعلها بدلا عن كلامه بل يقول له اذكرني عند فلان أو نبه على فلان أو ما أشبه ذلك فهذا هو التفصيل في هذه المسألة إن جعل القرآن بدلا عن الكلام يعني أنه نوى شيئا أن يتكلم فيه فجعل القرآن بدلا عنه فهذا حرام وأما إن استشهد بالقرآن على حادثة وقعت كما جاء في القرآن فلا بأس به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما حكم جمع الأوراق المتناثرة من المصاحف والممزقة وحرقها حتى لا تتعرض للامتهان وهل الأفضل في ذلك حرقها أم دفنها كما هي؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا أحد من المسلمين يشك أن القرآن الكريم يجب على المسلم احترامه وتعظيمه ومنع تعرضه للإهانة وهذه الأوراق الممزقة التي سأل

=

=

عنها السائل والتي لا يمكن أن ينتفع بها بقراءة له فيها طريقتان الطريقة الأولى أن يدفنها في مكان نظيف طاهر لا يتعرض للإهانة في المستقبل حسب ظن الفاعل الطريقة الثانية أن يحرقها وإحراقها جائز لا بأس به فإن الصحابة رضي الله عنهم لما وحدوا المصاحف على حرف قريش في عهد عثمان رضي الله عنه أحرقوا ما سوى هذا الموحد وهذا دليل على جواز إحراق المصحف الذي لا يمكن الانتفاع به ولكني أرى إن أحرقها أن يدقها حتى تتفتت وتكون رمادًا ذلك لأن المحروق من المطبوع تبقى فيه الحروف ظاهرة بعد إحراقه ولا تزول إلا بدقِّه حتى يكون كالرماد.

فضيلة الشيخ: أما إذا مزقت؟

فأجاب رحمه الله تعالى: إذا مزقت تبقى هذه طريقة ثالثة لكنها صعبة لأن التمزيق لابد أن يأتي على جميع الكلمات والحروف وهذه صعبة إلا أن توجد آلة تمزق تمزيقًا دقيقًا جدًا بحيث لا تبقى صورة الحرف فتكون هذه طريقة ثالثة وهي جائزة.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: المستمعة ن. أ. ب. من جدة تقول عندي أوان كثيرة تحمل آيات قرآنية كريمة والبعض من الأدعية المأثورة وقال لي بعض الناس إن استعمالها أو امتلاكها حرام ويجب علي أن أحرقها فقمت بإحراقها خشية لعقاب الله عز وجل، وبعد أن أحرقت البعض منها ومزقت البعض الأخر لم أعرف أين أضع المخلفات، هل أقوم بدفنها أم أرميها بسلة مهملات أرجو التوجيه مأجورين؟

فأجاب رحمه الله تعالى: الجواب على هذا السؤال أن هذه الأوراق التي كانت فيها آيات من كتاب الله عز وجل وأحرقتها بمشورة من بعض الناس يمكن أن تكمل إحراقها أيضًا ثم تدفنها لأن ذلك أبلغ في البعد عن إمتهانها، اللهم إلا أن تمزقها تمزيقًا كاملًا بحيث لا يبقى من الكلمات شيء فإنه يغني عن إحراقها ولكنها ذكرت أنها أحرقت أوراقًا فيها أدعية، والأوراق التي فيها الأدعية يفصل فيها، فيقال إن كانت

=

=

أدعية مشروعة فالحفاظ عليها أولى وإبقاؤها أولى ينتفع بها وإن كانت أدعية غير مشروعة فإتلافها واجب بالإحراق أو التمزيق تمزيقًا كاملًا، قد يقول قائل لماذا فصلتم في الأوراق التي فيها أدعية ولم تفصلوا في الأوراق التي فيها آيات قرآنية، والجواب على هذا أن نقول إن الأوراق التي فيها آيات قرآنية لو بقيت لكان هذا عرضة لامتهانها إن بقيت هكذا مهملة وإن علقت على الجدر فإن تعليق الآيات على الجدر ليس من الأمور المشروعة التي كان عليها السلف الصالح رضى الله عنهم والمعلق لها لا يخلو من أحوال

الحال الأولى أن يعلقها تبركًا بها وهذا ليس بمشروع وذلك لأن التبرك بالقرآن على هذا النحو لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه وما لم يرد عن النبي ﷺ مما اتخذ على وجه تعبدي أو على وجه وسيلي فإنه لا يكون مشروعًا لقول الله تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ)

وإما أن يتخذها على سبيل الحماية بحيث يعتقد أنه إذا علق هذه الآيات حمته من الشياطين وهذا أيضًا لا أصل له من السنة ولا من عمل الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح، وفيه محذور وهو أن الإنسان يعتمد عليها ولا يقوم بما ينبغي أن يقوم به من قراءة الآيات التي فيها الحماية والتحرز من الشيطان الرجيم لأن نفسه ستقول له ما دمت قد علقت آية الكرسي مثلًا في بيتك فإنه يغني عن قرائتها، ما دمت علقت سورة الإخلاص والمعوذتين فإنه يكفيك عن قرائتها وهذا لا شك أنه يصد الإنسان عن الطريق الصحيح للاحتماء والاحتراز بالقرآن الكريم، فهاتان حالان.

الحال الثالثة أن يعلق هذه الأوراق التي فيها القرآن من أجل الذكرى والموعظة وهذا إن قدر أن فيه نفعًا في بعض الأحيان فإن فيه ضررًا أكثر وذلك أن كثيرًا من المجالس تكون فيها هذا الآيات القرآنية ولكن لا ينتفع أهل المجلس بها، قد يكون من المعلق ورقة فيها قوله تعالى (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) فتجد الناس في

=

=

نفس هذا المكان يغتاب بعضهم بعضًا، ولا ينتفعون بهذه الآية، وكون الآية فوق رؤوسهم تنهى عن الغيبة وهم يغتابون الناس يشبه أن يكون هذا من باب التحدي وعدم المبالاة بما نهى الله عنه، وربما تجد في بعض المجالس ورقة فيها قول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ومع هذا لا أحد يلتفت لها ولا يرفع رأسه إليها ولا يذكر الله ولا يسبحه، وهذا كثير، إذا فالعظة والتذكر بهذه الآيات التي تكتب على أوراق وتعلق قليلة ثم إن التذكير والعظة بهذه الطريقة لم تكن معروفة في عهد السلف الصالح ولا شك أن هديهم خير من هدينا وأقرب إلى الصواب منا، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ولهذا حبذنا عمل هذه المرأة التي أحرقت الأوراق التي عندها فيها آيات من كتاب الله وفصلنا في الأدعية.

فضيلة الشيخ: بارك الله فيكم يا شيخ محمد هل ينطبق هذا على الأحاديث؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: أنا عندي أن الأحاديث أهون، أهون من الآيات كثيرًا، ولكن مع هذا لو عدل الناس عندها لكان خيرًا، ولو بقيت فلا بأس.

فضيلة الشيخ: بارك الله فيكم، الحِكَم وغيرها أيضًا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: ليس فيها بأس لأنها ليست من كلام الله ولا رسوله في الغالب.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: السائل أم ن يقول فضيلة الشيخ يكثر في أماكن تجمعات الطلاب بعض الأوراق التي تحمل لفظ الجلالة أو اسم الرسول ﷺ والبعض يرميها غير مبال بها فهل يتعيّن على كلّ شخص أن يضع هذه على الأرض أو أن يحملها وإن كانت كثيرة ومبعثرة على الأرض أين توضع إن لم يجد مكانًا مناسبًا لها؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الظاهر لي أنه لا يلزم كلّ إنسان وجد قراطيس في الأرض أن

=

=

يأخذها ويفتشها وينظر هل فيها آية أو حديث لأن هذا شاق نعم لو رأى بعينه أن في هذه القرطاسة آية من كتاب الله أو حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحينئذ يأخذه ولكني أنصح إخواني الذين يلقون هذه الأوراق أن يتفقدوها قبل إلقائها فإذا وجدوا فيها آية آو حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمسكوا بها وأحرقوها والنار تأكل ما وضع فيها وأن لا يتهاونوا في هذا الأمر ولقد بلغني أن بعض السفهاء يلقون مقرر التفسير الذي فيه الآيات وبيان معناها يلقونه في الزبالة والعياذ بالله غير مبالين بما فيها وهذا على خطر عظيم لأن القرآن له من الحرمة ما هو جدير به فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى تكلّم به جلّ وعلا كلامًا بصوت وحرف وألقاه على جبريل وجبريل ألقاه على قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلسان عربي مبين فكيف يليق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر آن يلقي كلام الله في الزبل سبحان الله هذا فعل قبيح نسأل الله لنا ولإخواننا الهداية والتوفيق وفي هذه الحالة نقول اجمع ما لا يمكن استعماله عندك من الكتب التي فيها الآيات والأحاديث اجمعها واحرقها اخرج إلى جهة من الجهات من البر ثم احرقها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز رمي الكتب المدرسية والجرائد في النفايات علما بأن البلدية تقوم بإحراق جميع النفايات وعلما بأننا نضعها في كيس وحدها حتى لا تختلط مع النفايات الأخرى فإن لم يكن ذلك فماذا نفعل علما بأن الكتب تحوي آيات وأحاديث أفيدونا ووجهونا بذلك مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: من المعلوم أن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كلام شريف نفيس يجب العناية به ويجب تعظيمه ولا يحل أن يلقى في القاذورات والأشياء النجسة مهما كان الأمر لكن في بعض البلاد نرى أن

=

=

بعض البلديات وفقهم الله يضعون صندوقا خاصا للصحف والمجلات والكتب فإذا حصل مثل هذا فهو خير فمن كان عنده شيء زائد من الكتب فإنه يذهب به إلى هذا الصندوق المعيّن ويكون قد أدّى ما عليه والمسؤولية بعد وضعها في هذا الصندوق على البلدية والبلدية تكون مشكورة إذا فعلت ذلك ومأجورة عند الله ﷻ أما الصناديق العادية التي يلقى فيها القذر والإنتان وغيرها من الأشياء المستقذره فلا يمكن أن يوضع فيها كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام لكن إذا كان عمال البلدية عندهم فهم ووعي وجعلته في كيس ووضعته وحده إلى جنب الصندوق حتى يعرف العمال أنه لا يدخل مع النفايات الأخرى فهذا أرجو ألا يكون به بأس وإلا بأن تخشى أن يكون العمال ليس عندهم علم كما هو الغالب في عمال البلديات فإنك تبقيه عندك في البيت فإذا خرجت إلى البر في يوم من الأيام اخرج به معك واحرقه وادفنه هذا بالنسبة للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة أما بقية الجرائد وغيرها فلا حرج أن تجعلها مع ما تأخذه البلدية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز حرق أوراق ممزقة من القرآن أو فيها اسم الله ﷻ لأنني سمعت أن من يحرق ورقة يكوى بها يوم القيامة أرجو من الله التوفيق ومنكم الإجابة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: تحريق أوراق المصحف إذا كان لا ينتفع بها جائز ولا حرج فيه، فإن عثمان رضى الله عنه لما وحَّد المصاحف على لغة قريش أمر بإحراق ما عداها فأحرقت ولم يعلم له مخالف من الصحابة رضى الله عنهم، وكذلك أيضًا ما كان فيه اسم الله لا بأس بإحراقه إلا أنه حسب الأمر الواقع في المصاحف المقطوعة إذا أحرقت فإن لون الحروف يبقى بعد الإحراق، لون الحرف يبقى ظاهرًا في الورقة بعد الإحراق، فلابد بعد إحراقها من أحد أمرين إما أن تدفن وإما أن تدق حتى تكون رمادًا لئلا تبقى الحروف فيطير بها الهواء فتداس بالأقدام، وأما

=

=

ما سمعه أن من أحرق ورقة كوي بها يوم القيامة فلا أصل له.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بارك الله فيكم المستمعة ف. و. من بنغازي ليبيا تقول في هذا السؤال ما رأي الشرع في نظركم في استعمال الجرائد العربية التي قد يكون مكتوبًا فيها أسماء لله سبحانه وتعالى وذلك بقصد استعمالها في المسح والتغليف؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الصحف أو الجرائد التي فيها كتب وفيها كتابة باللغة العربية تشتمل على آية من كتاب الله أو على أقوال من سنة الرسول ﷺ لا ينبغي أن تستعمل في التغليف تغلف بها الثياب أو الأواني أو الحوائج الأخرى لأن في ذلك امتهانًا لها فإن غلف بها أشياء قذرة نجسة كان ذلك أشد وأعظم وأدهى وإذا كان ذلك يعد امتهانا واضحًا لهذه الصحف والجرائد وتيقن الإنسان أن فيها آياتٍ من كتاب الله أو أحاديث عن الرسول ﷺ فإن ذلك محرم لأنه لا يجوز امتهان كلام الله وكلام رسوله ﷺ ومن العجب أن هؤلاء الذين يغلفون بهذه الصحف والجرائد يسهل عليهم وتيسير أن يشتروا الأوراق البيضاء التي تعد لمثل هذا الأمر ولكنهم يعدلون عنها إلى هذه الجرائد والصحف الله سبحانه وتعالى قد جعل لنا غنىً عن هذه الصحف والجرائد بهذه الأوراق التي تملأ الأسواق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل لا شك أن لتلاوة القرآن الكريم آدابًا يجب أن يتحلى بها القارئ والمستمع حدثونا عن هذا مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: من آداب قراءة القرآن أن يخلص الإنسان نيته لله تعالى بتلاوته فينوي بذلك التقرب إلى الله سبحانه وتعالى حتى لو أراد مع ذلك أن يثبت حفظه إذا كان حافظًا فإن هذه نيةٌ صالحة لا تنافي الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

ومن الآداب أن يستحضر الثواب الذي رتب على تلاوة القرآن ليكون محتسبًا بذلك على ربه عَزَّوَجَلَّ راجيًا ثوابه مؤملًا مرضاته.

=

=

ومن الآداب أيضًا أن يكون متطهرًا وذلك لأن القرآن أشرف الذكر وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لرجل سلم عليه فلم يرد عليه السلام حتى توضأ قال (إني لست على وضوء أحببت أن لا أذكر الله إلا على طهارة) ولكن إن كان الإنسان جنبًا فإنه لا يجوز أن يقرأ القرآن إلا إذا قرأ شيئًا يريد به الذكر وهو من القرآن فلا بأس أو يريد به الدعاء وهو من القرآن فلا بأس فإذا قال بسم الله الرحمن الرحيم يريد بذلك البسملة والتبرك بذكر اسم الله لا يريد التلاوة فلا بأس بهذا ولو قال ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب يريد بذلك الدعاء لا القراءة فلا بأس أما إذا كان يريد القراءة فإن القرآن لا تحل قراءته للجنب وأما من به حدثٍ أصغر فيجوز أن يقرأ القرآن لكن لا يمس المصحف لأن المصحف لا يمسه إلا طاهر لقوله ﷺ في الكتاب الذي كتبه إلى عمرو بن حزم (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) والمراد بالطاهر الطاهر من الحدثين الأصغر والأكبر ولقول الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم قال (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) فدل هذا على أن الإنسان قبل الوضوء والغسل والتيمم غير طاهر وأما من قال إنه لا يجوز مس المصحف إلا لطاهر واستدل بقوله تعالى (لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) فاستدلاله بهذه الآية ضعيف لأن المراد ب (الْمُطَهَّرُونَ) في الآية الكريمة الملائكة ولو أراد المطهرون يعني الذين على طهارة لقال إلا المتطهرون أو إلا المطهرون كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) أما من قال إنه يجوز أن يمس المصحف بدون طهارة مستدلًا بالبراءة الأصلية وأنه لا دليل على ذلك وحمل قوله ﷺ في حديث عمرو بن حزم (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) على أن المراد بالطاهر المؤمن لقوله ﷺ (إن المسلم لا ينجس) فجوابه عن ذلك ضعيف لأنه ليس من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعبر عن المؤمن بالطاهر وإنما يعبر عن المؤمن بالإيمان

=

=

والواجب حمل خطاب المتكلم على المعهود في كلامه الغالب فيه لا على أمرٍ لا يقع في كلامه إلا نادرًا على كل حال من آداب قراءة القرآن أن يكون الإنسان متطهرًا

قال بعض أهل العلم ومن آدابها أي من آداب قراءة القرآن أن يتسوك عند قراءة القرآن لتنظيف فمه وتطهيره بالسواك حيث تمر الحروف من هذا الفم فيحصل أن لا تمر إلا من طريقٍ مطهر ومن آداب قراءة القرآن أن يقرأ بتدبر وتمهل وخشوع بقدر ما يستطيع فأما حفظ القرآن والسرعة فيه فإن كان يؤدي إلى إسقاط الحروف فإن ذلك حرام لأنه يخرج الكلمات عن صورتها والحروف عن صورتها وإن كان لا يؤدي إلى إسقاط الحروف فإن ذلك لا بأس به سواءٌ قرأه بالتجويد أو بغير تجويد لأن قراءته بالتجويد من باب تحسين الصوت وليس من باب الأمر الواجب فإن حسن صوته بالقرآن بالتجويد فهذا خير وإن لم يفعل فلا إثم عليه

أما بالنسبة لاستماع القرآن فإن من الآداب أن يكون المستمع منصتًا متابعًا لقول الله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) ولا ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن عنده وهو غافلٌ لاهٍ أو متحدثٌ مع غيره بل الأفضل والأولى أن يستمع وينصت لتناله الرحمة وكذلك لا ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن عند قومٍ يرى أنه لا تعجبهم القراءة في ذلك الوقت لأنه بهذا يشق عليهم ويحملهم ما لا يستطيعون لكن إن رأى منهم محبةً لقراءته أو طلبوا منه ذلك فهذا طيب أن يقرأ فيعمر المكان بقراءة القرآن أما أن يرهقهم بالقراءة وهم لا يريدونها في هذا المكان وفي هذا الوقت فهذا ليس بجيد ولا ينبغي للإنسان أن يفعل ولذلك لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يرهق أصحابه بقراءة القرآن كلما جلس معهم بل كان عليه الصلاة والسلام يراعي أحوالهم ويفعل ما يرى أنه أصلح لهم في دينهم ودنياهم وأنت إذا قرأت على قومٍ لا يحبون قراءة القرآن في هذا المكان أو في هذا

=

=

الزمن فربما تحملهم على كراهة القرآن فيأثمون وتأثم أنت لأنك أنت السبب ولكن يقرأ القرآن إذا ما ائتلفت عليه القلوب وأحبته

ومن آداب القرآن للقارئ والمستمع إذا مر بآية سجدة أن يسجد فإن السجود عند آية السجود من السنن المؤكدة حتى قال بعض أهل العلم إن السجدة واجبة ولكن القول الراجح أنها أعني سجدة التلاوة ليست بواجبة إن سجد فقد فعل خيرًا وإن ترك فلا شيء عليه لأنه ثبت في الصحيح عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قرأ على المنبر آية السجدة في سورة النحل فنزل وسجد ثم قرأها في الجمعة الأخرى فلم يسجد وقال إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء يعني لكن إن شيءنا سجدنا وإن شيءنا لم نسجد قال هذا بمحضرٍ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فالسجود للتلاوة سنة وليس بواجب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل هناك صفات يجب أن تتوفر فيمن يقرأ على المرضى؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: القارئ الذي يقرأ بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أو بما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على المرضى من المعلوم أنه لابد أن يكون مؤمنا وأن يكون مقتنعا بأن هذه القراءة تنفع ولكن لابد مع ذلك أن يكون المقروء عليه قابلا بهذه القراءة مؤمنا بأنها نافعة مؤملا من الله سبحانه وتعالى النفع بها ولابد أيضا من أن تكون القراءة قراءة شرعية فهذه ثلاثة أمور صحة القراءة وإيمان القارئ وإيمان المقروء عليه فإذا تمت هذه الشروط فإن القراءة تنفع بإذن الله وقد قرأ أحد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على رجل لدغته عقرب قرأ عليه سورة الفاتحة فقام كأنما نشط من عقال فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للقارئ (وما يدريك أنها رقية) أي الفاتحة وهي من أفضل ما يرقى به على المرضى ومن أنفع ما يكون للمريض لكن إذا اجتمعت الشروط الثلاثة إيمان القارئ وإيمان المقروء عليه

=

=

وكون القراءة شرعية وهي شرعية بالفاتحة لا شك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: كيف يكون القرآن حجةً على حامله أفيدونا مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: القرآن كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أنزله الله تعالى على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليكون للعالمين نذيرًا وجعل سماعه حجةً ملزمة فقال جل وعلا (وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ) فمن سمع كلام الله وهو يعرف اللغة العربية فقد قامت عليه الحجة وإذا قامت عليه الحجة فإما أن يقوم بموجب ما تقتضيه هذه الحجة وإما أن يخالف ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (القرآن حجةٌ لك أو عليك) وعلى من قرأ القرآن إذا لم يفهم معناه أن يتفهمه من أهل العلم لأن الله لم ينزل الكتاب العزيز لمجرد تلاوته بل لتدبره والعمل به قال الله تبارك وتعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) وما ضر الناس اليوم إلا أنهم لا يفكرون في معرفة معاني القرآن الكريم إلا قليلًا فتجد أكثر المسلمين يقرؤون القرآن تعبدًا بتلاوته واحتسابًا لأجره لا يتدبرونه ولا يتأملونه ويسألون عن معناه فهم والأميون على حدٍ سواء قال الله تبارك وتعالى (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) فجعل الله تعالى الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني أي إلا قراءة جعلهم أميين فعلى المرء أن يتدبر معاني كتاب الله وأن يتعظ بما فيها حتى يكون القرآن حجةً له لا عليه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم الإنصات إلى تلاوة القرآن هل هو واجب أو مستحب وكيف يعمل من كان يعمل في بقالة أو في محل عمله وهو يستمع إلى القرآن الكريم ويتحرك ويخاطب الناس ويسير ويرجع؟

=

=

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاستماع إلى قراءة القارئ مأمور بها إذا كان المستمع تابعا لهذا القارئ كالمأموم الذي خلف الإمام الذي يصلى صلاة جهرية ولهذا قال الإمام أحمد في قوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) قال أجمعوا أن هذا في الصلاة وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إنما جعل الإمام ليؤتم به) وفيه (وإذا قرأ فأنصتوا) وأما الذي يقرأ إلى جنبك فلا يلزمك أن تستمع إليه بل لك أن تقرأ وحدك وأن تذكر الله وحدك وأن تراجع ما بين يديك من الكتب ولو كان القارئ إلى جنبك لأنك لا تريد الاستماع له وأما ما يصنعه بعض الناس من وضع مسجل في الدكان يقرأ القرآن وضجيج الأصوات من هذا الدكان وربما يكون اللغو والكلام المحرم فلا أرى هذا وأخشى أن يكون هذا من إهانة القرآن ويغني عن هذا أن يسجل حكما مأثورة ثم يستمع إليها لأن القرآن أشرف وأعظم من أن يجعل في مثل هذا المكان الذي يكثر به اللغو والكلام الباطل فننصح إخواننا الذين يستمعون إلى المسجلات في دكاكينهم وهم يريدون الخير إن شاء الله ألا يفعلوا لأني أخشى أن يكون هذا من باب امتهان القرآن.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل تجوز قراءة القرآن أثناء القيام بأعمال البيت أرجو من فضيلة الشيخ إجابة مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قراءة القرآن عبادة من أفضل العبادات تقرب العبد من ربه ويحصل بها على ثوابٍ جزيل لأن من قرأ القرآن فله بكل حرفٍ عشر حسنات وقراءة القرآن يقصد بها مع التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ فهم معانيه ليتمكن الإنسان من العمل به ومن أجل هذا أنزل هذا القرآن المبارك قال الله تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) وإذا كان كذلك فإنه ينبغي للإنسان الذي يقرأ القرآن أن يستحضر ما يقرأ ويتدبر معناه وأن لا يشغل قلبه وجوارحه بغيره لا

=

=

بأعمال البيت ولا بأعمالٍ أخرى وإذا كان الله تعالى أمر من سمع القرآن أن يستمع له وينصت حتى يحضر قلبه ويتدبر ما يسمع فإن القارئ من باب أولى فلهذا نقول للمرأة التي تشتغل بأعمال البيت وبغيرها كالخياطة ونحوها لا تقرأ القرآن في حال انشغالها بل تتفرغ إذا أرادت قراءة القرآن لتتدبر معنى كلام الله ﷻ فإذا كانت تحبّ أن تستغل وقتها بما يقرّب إلى الله بالإضافة إلى القيام بعمل البيت فلديها ذكر الله ﷻ تذكر الله تحمد الله تسبّح الله تكبّر الله تستغفر الله فإن هذه الأذكار يحضر القلب فيها عند ذكرها في حال العمل لأن كل كلمة تمثل معنى مستقلًا فتجد الإنسان يستحضر المعنى لهذه الكلمات أعني التسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار ولو كان يعمل وخلاصة الجواب أن نقول إذا كانت المرأة تشتغل بأعمال بيتها أو غيرها من الأعمال فلا تقرأ القرآن لأنه ينبغي لقارئ القرآن أن يكون مستحضرًا له حين قراءته والقرآن أجلّ من أن يشتغل اللسان به مع غفلة القلب عنه أما الأذكار فأرجو أن لا يكون في ذلك بأس إذا كان يشتغل بعمل أن يذكر الله تعالى وهو في حال انشغاله.

فضيلة الشيخ: الاستماع إلى القرآن والأشرطة والإذاعة وهي في العمل؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا أهون من القراءة لأن الإنسان ليس يعمل ولكنه يستمع والاستماع ليس بواجب ولهذا قال الإمام أحمد في قوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) إنّ هذا في حال الصلاة أما في غير الصلاة فالإنسان حرّ إن شاء استمع إذا قرأ القارئ وإن شاء لم يستمع واشتغل بشيء آخر غير أنه لا ينبغي له أن يشتغل في حال سماع القرآن بما لا يتلاءم مع القرآن لأنه إن فعل ذلك أشبه قول المشركين (لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ).

وبهذه المناسبة أود أن أذكّر أن بعض المتاجر جزاهم الله خيرًا ووفقهم يفتحون المسجل على قارئ من القراء والناس عندهم في متجرهم مشتغلوه بالمماكسة

=

والكلام الذي قد يكون لغوًا لا يتناسب مع صوت القارئ وقراءته ولهذا ننصح إخواننا أصحاب المتاجر أن لا يفعلوا ذلك لأن كتاب الله ﷻ أجلّ من أن يسمع في مكانٍ لا يستمع إليه ولا يؤبه به بل ربما حصل لغوٌ منافٍ للقرآن.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: إذا كنت مشغولًا بأداء واجب مدرسي وفتحت المذياع ووجدت فيه قرآنًا يتلى فأقع في حيرة إن استمررت في أداء واجبي والقرآن يتلى فإن هذا تساهل عن القرآن وإن أغلقت المذياع كان هذا أمرًا لا أرتاح له لأنه إعراض عن ذكر الله سبحانه هل أترك واجباتي وأستمع أم ماذا وفقكم الله؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: لا تترك واجباتك وتستمع بل لا بأس أن تغلق المذياع وتوقف القراءة فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استمع إلى قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى وصل إلى قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) فقال له النبي ﷺ (حسبك) وأوقفه عن القراءة فيجوز للإنسان إذا استمع إلى القرآن أن يغلقه ويقتصر على ما استمع منه إذا لم يكن ذلك ناشيءًا عن كراهية القرآن وإنما أوقفه لغرض مقصود شرعًا كما في سؤال هذا السائل وكونه يقول أيضًا لا أحب أن أبقيه يقرأ وأنا مشتغل بواجباتي هذا صحيح فإن من الخطأ ما يفعله بعض الناس يجعلون القرآن يتلى بواسطة المذياع وهم يتكلمون ويمزحون ويقولون أو يطالعون في أمور أخرى أو يكونون في دكاكينهم وفي محلاتهم يبيعون ويشترون والمسجل يقرأ القرآن أو الراديو يقرأ القرآن فإن هذا لا ينبغي وهو خلاف قول الله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فنقول إما أن تنصتوا للقرآن وأما أن تغلقوه فلا حرج عليكم وقد رأيت كثيرًا من محبي الخير وهم يفعلون هذا يتكلمون ويبيعون ويشترون في محلاتهم والقرآن يتلى وهذا خطأ منهم لا ينبغي لهم ذلك.

=

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائلة من المنطقة الجنوبية أبها ل. ع.أتقول ما حكم الاستماع للقرآن والفتاة تقرأ في أي كتاب من الكتب؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: هذا عمل لا ينبغي ولا يُرْضَى فإن الله تعالى قال في كتابه (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وقال جل وعلا (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا) فإذا كانت المرأة تريد أن تطالع في كتاب آخر فإنها تغلق الاستماع إلى قراءة القرآن الكريم لئلا تقع في الإثم من حيث لا تشعر أما إذا كانت فارغة ليس لها عمل لا عمل فكري ولا عمل بدني وأرادت أن تستمع إلى القرآن المسجل فإن ذلك لا بأس له لأنه ينفع المستمع لكن لو مر هذا القارئ عبر المسجل بآية سجدة فهل يسجد المستمع الجواب لا لسببين

السبب الأول أنه لا يشرع للمستمع أن يسجد إلا إذا سجد القارئ لأن القارئ متبوع لا تابع فإذا لم يسجد فإنه لا يسجد وقد ذكر زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أنه قرأ على النبي ﷺ سورة النجم فلم يسجد فيها) والظاهر والله أعلم أن النبي ﷺ لم يسجد فيها لأن زيدا وهو القارئ لم يسجد

السبب الثاني أن ما يسمع عبر المسجل ليس هو الصوت المباشر للقارئ وإنما هو حكاية صوته فلا يشرع السجود حينئذ وبقولي إنه حكاية صوت وليس صوتًا يتبين أن ما يفعله بعض الناس من فتح المسجل عند حلول وقت الآذان ليسمع عبر الميكروفون خطأ ولا تحصل به الكفاية لأن هذا حكاية صوت وما فائدته إلا التنبيه إلى دخول الوقت فقط ومن المعلوم أن الأذان ذِكرٌ مشروع من أفضل العبادات والطاعات بل هو فرض كفاية كما هو معلوم فلا يمكن أن يستغنى بحكاية الصوت عن صوت المؤذن المباشر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمعة للبرنامج رمزت لاسمها بسعاد س. م. المدينة النبوية تقول ما حكم التحدث إلى الآخرين والقرآن يتلى؟

=

=

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: إذا كان القارئ يقرأ للجماعة فإنه لا يحل لهم أن يتلهوا عن القرآن بكلام أو غيره وإذا كان يقرأ لنفسه فهم مخيرون إن شاؤوا أنصتوا له واستمعوا له وإن شاؤوا لم ينصتوا وإذا لم ينصتوا بأن كانوا يتحدثون بما يتحدثون به فإن على القارئ أن يلاحظ ذلك وأن لا يرفع صوته بالقراءة لئلا يلقي على أسماع المشتغلين بغيره ما يحرجهم فيه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: طالب في مدرسة يقول في الإذاعة المدرسية ترغب الإدارة أن يبدأ البرنامج بالقرآن الكريم يوميا ولكننا لا نفعل ذلك نرجو التوجيه؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الذي ينبغي أن لا يتخذ ذلك سنة دائمة أعني البداءة بالقرآن الكريم عند فتح الإذاعة لأن البداءة بالقرآن الكريم عبادة والعبادة تحتاج إلى توقيف من الشرع ولا أعلم أن الشرع سن للأمة أن تبتدئ خطابتها ومحاضراتها وما أشبه ذلك بالقرآن الكريم لكن إذا ابتدأ أحد بقراءة ما يناسب المحاضرة مثلا تقدمة لها ولعل المحاضر يتكلم على معاني الآيات التي قرأها فإن هذا طيب لا بأس به مثل أن تكون المحاضرة عن الصيام فيقوم أحد الناس يقرأ آيات الصيام قبل بدء المحاضرة أو تكون المحاضرة في الحج فيقوم أحد ويقرأ آيات الحج فإن هذا لا بأس به لأنه مناسب فهو كالتقدمة لهذه المحاضرة التي تتناسب مع هذه الآيات أما اتخاذ هذا سنة راتبة كلما أراد المحاضرة أو كلما أردنا كلاما قرأنا القرآن فهذا ليس بسنة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز الاستماع إلى القرآن أثناء العمل في البيت أم أن ذلك لا يجوز؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الذي نرى أن الإنسان إذا أراد أن يستمع إلى القرآن فليستمع إليه وهو فارغ البال غير مشغولٍ بعمل لأن استماعه إلى القرآن وهو يشتغل بالعمل

=

=

يعني أنه لن يتأمل ما يسمع ولن يهتم به لذلك ننصح من يحب الاستماع إلى القرآن أن لا يستمع إليه إلا وهو فارغ القلب فارغ البدن حتى يستمع إلى كتاب الله ﷻ على وجهٍ ينتفع به.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: ماحكم تلاوة القرآن بدون وضوء وبدون لمس المصحف؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: تلاوة القرآن بلا وضوء جائزة ولا حرج فيها إلا أن يكون الإنسان جنبًا فإنه لا يجوز له أن يقرأ القرآن وهو جنب بل عليه أن يغتسل ثم إن شاء قرأ

وأما الحائض فإنه اختلف العلماء رحمهم الله في جواز قراءتها للقرآن فمنهم من قال إنه حرام لأحاديث وردت في ذلك ومنهم من قال إنه ليس بحرام لأن الأحاديث الواردة في هذا إما صحيحةٌ غير صريحة وإما صريحةٌ غير صحيحة وليس هناك حديثٌ صحيحٌ صريح يدل على منع الحائض من قراءة القرآن وعلى هذا فلها أن تقرأ القرآن ولكنني أرى أن الأحوط أن لا تقرأ القرآن إلا إذا كانت لحاجة كامرأة تقرأ من القرآن وردها أو امرأةٍ تعلم أولادها أو امرأةٍ تخشى نسيان القرآن الذي حفظته أو امرأة تؤدي اختبارًا أو ما أشبه ذلك مما تدعو الحاجة إليه فهذا لا بأس به أما لمجرد حصول الأجر فالأحوط أن تمتنع منه اتباعًا لقول أكثر أهل العلم

وأما مس المصحف فالصحيح أنه لا يجوز مس المصحف إلا بوضوء لقوله ﷺ في الحديث المشهور حديث عمرو بن حزم (لا يمس القرآن إلا طاهر) والمراد بالطاهر هنا الطاهر من الحدث لقوله تعالى في سورة المائدة حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) دل هذا على أن الإنسان ما دام على حدث فليس

=

=

بطاهر وحمل الطاهر هنا على المؤمن غير صحيح وذلك لأنه لم تجرِ العادة بالتعبير بطاهر عن مؤمن فإن كل من تتبع الكتاب والسنة وجد أنه يعبر فيهما عن المؤمن باسم الإيمان والتقوى وما أشبه ذلك وأما كلمة طاهر فلم يعبر بها فيما نعلم عن المسلم أو المؤمن.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمعة بالمدينة المنورة تقول ما حكم مس الأطفال للمصحف يا فضيلة الشيخ أرجو بهذه افادة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: اختلف العلماء رحمهم الله في جواز مس المصحف للمحدث فمن أهل العلم من يقول إن مس المصحف للمحدث جائز وذلك لعدم الدليل الصحيح الصريح في منع المحدث من مس المصحف والأصل براءة الذمة وعدم الإلزام ومن العلماء من قال إنه لا يحل مس المصحف إلا على طهارة لأن في حديث عمرو بن حزم الذي كتبه النبي ﷺ (ألا يمس القرآن إلا طاهر) والطاهر هنا هو الطاهر من الحدث لقول الله تعالى حين ذكر آية الوضوء والغسل والتيمم قال (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) ولقوله تعالى في الحيض (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله) وهذا القول أصح من القول الأول لأن كلمة طاهر وإن كانت مشتركة بين الطهارة المعنوية والطهارة الحسية لكن المعهود من خطاب الشارع أن لا يعبر بكلمة طاهر لمن كان طاهرًا طهارة معنوية والطاهر طهارة معنوية هو المسلم والنجس هو المشرك قال الله تبارك وتعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) وقال النبي ﷺ (إن المؤمن لا ينجس) وإذا كان لم يعهد التعبير بالطاهر عن المؤمن فإنه يحمل على المعنى الثاني أو يترجح حمله على المعنى الثاني وهو الطاهر من الحدث.

ولكن يبقى النظر هل يشمل الحكم الصغار الذين يتعلمون القرآن فتلزمهم

=

=

بالوضوء أو لا يشملهم لأنهم غير مكلفين في هذا خلاف بين العلماء فمنهم من قال إن الصغير لا يلزمه أن يتوضأ لمس المصحف لأنه غير مكلف ومنهم من قال إنه يلزمه فيلزم بأن يتوضأ وهذا لا شك أنه أحوط وفيه من المصلحة أننا نغرس في قلوبهم إكرام كلام الله ﷻ وأنه أهل لأن يتطهر الإنسان لمسه فإذا كان في إلزامهم بذلك صعوبة فإنه من الممكن أن يمس المصحف من وراء حائل فإن مس المصحف من وراء حائل جائز للمحدث وغير المحدث.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز للطفل غير المميز أن يمسك بالقرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: من المعلوم أن الصبي غير المميز ليس له وضوء لأنه من شرط صحة الوضوء التمييز وإذا لم يكن له وضوء فإنه لا يجوز له مس القرآن لأن مس القرآن لا يجوز إلا بوضوء لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما كتبه لعمرو بن حزم (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) أي إلا متوضئ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل قراءة القرآن من المصحف يشترط أن يكون الإنسان فيها طاهرًا ومتوضئًا مع العلم بأن هذا قد يكون شاقا على البعض؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أقول لا يمس المصحف إلا طاهر سواء قرأ أو لم يقرأ وإذا قرأ في مصحف بدون مس كأن يكون على يديه قفازان أو منديل أو ما أشبه ذلك لا يمسه بواسطتها فلا بأس وإذا قرأ القرآن عن ظهر قلب فلا بأس أن يقرأ وإن لم يتوضأ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ما هو الجزء من المصحف الذي يحرم لغير الطاهر مسه هل هو غلاف المصحف أم أوراق المصحف أم الآيات من المصحف.

=

=

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: كل المصحف لا يجوز مسه بغير وضوء سواء الذي فيه كتابة أو ليس فيه كتابة أما الجراب الذي يوضع فيه المصحف أو الكيس الذي يوضع فيه المصحف فإنه يجوز مسه لأنه منفصل عنه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ما حكم قراءة التفسير بغير وضوء؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أما قراءة التفسير من غير وضوء فلا بأس به لأن التفسير لا يسمى مصحفا أو قرآنًا إلا أن هناك طبعات تطبع المصحف في جوف الورقة والتفسير على الهامش ويكون القرآن أكثر من تفسيره فهذا له حكم المصحف لا يمسه إلا بطهارة وأما المرأة الحائض فلها أن تقرأ التفسير ولها أيضا أن تنظر إلى القرآن وتقرأه بقلبها دون أن تنطق به أما نطقها بالقرآن فالاحتياط أن لا تنطق به إلا فيما دعت الحاجة إليه كالآيات التي فيها ورد كآية الكرسي فإن آية الكرسي إذا قرأها الإنسان في ليله لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح. المرأة الحائض إن قرأت القرآن تعبدا بتلاوته فالأفضل أن لا تفعل لأن العلماء مختلفون في أن ذلك إثم أو أجر وأما إذا كان لحاجة كما لو كانت تقرأ آيات الورد أو تقرأ لئلا تنسى ما حفظته أو تقرئ ابنتها أو ولدها أو الطالبة تسمع في المدرسة فكل هذا حاجة لا بأس أن تفعله الحائض.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز للمسلم أن يقرأ القرآن دون الانضباط ببعض أحكام التجويد؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نعم يجوز ذلك إذا لم يلحن فيه فإن لحن فيه فالواجب عليه تعديل اللحن وأما التجويد فليس بواجب التجويد تحسين للفظ فقط وتحسين اللفظ بالقرآن لا شك أنه خير وأنه أتم في حسن القراءة لكن الوجوب بحيث نقول من لم يقرأ القرآن بالتجويد فهو آثم قول لا دليل عليه بل الدليل على خلافه بل إن

=

=

القرآن نزل على سبعة أحرف حتى كان كل من الناس يقرؤه بلغته إلا أنه بعد أن خيف النزاع والشقاق بين المسلمين وحد المسلمون في القراءة على لغة قريش في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا من فضائله ومناقبه وحسن رعايته في خلافته أن جمع الناس على حرف واحد لئلا يحصل النزاع والخلاصة أن القراءة بالتجويد ليست بواجبة وإنما الواجب إقامة الحركات والنطق بالحروف على ما هي عليه فلا يبدل الراء لاما مثلا ولا الذال زايًا وما أشبه ذلك هذا هو الممنوع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يلزم قارئ القرآن أن يكون ملمًا بأحكام التجويد؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا يلزم لقارئ القرآن أن يكون ملمًا بقواعد التجويد ولا يشترط أن تكون تلاوته بالتجويد بل هو مأجور مثاب على قراءته الحروف على ما هي عليه والحركات على ما هي عليه وإن لم يراع قواعد التجويد لكن التجويد في بعضه تحسين للفظ وتزيين للصوت ومن المعلوم أنه ينبغي للمرء أن يحسن صوته بكتاب الله العزيز.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بالنسبة لقراءة القرآن بدون تجويد هل عليها أجر كوني لا أعرف القراءة بالتجويد وهل إذا وضع المصحف في مسجد يعتبر صدقة جارية أم لا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نعم القراءة بالتجويد ليست واجبة وإنما هي سنة لتحسين الصوت بالقرآن لأنه ينبغي على الإنسان أن يحسن صوته بتلاوة كتاب الله ومن التحسين التجويد وأما كونه واجبا فلا إذا كان الإنسان يقيم الحركات يرفع المضموم ويفتح المنصوب ويكسر المجرور ويسكن الساكن فليس عليه إثم في ذلك وأما وضع المصحف في المسجد فهو إن شاء الله تعالى من الخير ويجري

=

=

أجره على صاحبه ما دام الناس ينتفعون به فإذا تلف انقطع الأجر لكن أريد أن أنبه على أمر مهم وهو اللحن الذي يحيل المعنى فإن بعض الناس ولا سيما كبار السن لا يبالون به ويقرؤون القرآن بهذا اللحن وهذا حرام عليهم ولا يصح أن يكونوا أئمة في المساجد ولو كان لهم مدة طويلة في الإمامة فإنه لا يجوز إبقاء إمامتهم إذا لم يقيموا ألسنتهم بكتاب الله مثال ذلك أن بعضهم يقرأ قول الله تعالى (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بفتح التاء فيضمها فيقول صراط الذين أنعمت عليهم وهذا لحن يحيل المعنى ويجب على الإنسان أن يقوم لسانه عنه فإذا قال أنا لا أستطيع أنا لا أقدر إلا هذا قلنا إذن لا تصل في الناس إماما لأن لحنك هذا يحيل المعنى ومثل أن يقول إياكي نعبد وإياكي نستعين هذا أيضا يحيل المعنى إحالة فاحشة فيجب عليه أن يقوم لسانه فيقول إياك نعبد فإن لم يستطع فإنه لا يجوز أن لا يكون إماما للناس وعليه أن يتنحى وإن كان له مدة طويلة في الإمامة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يأثم من يقرأ القرآن الكريم بدون تطبيق لأحكام التجويد وذلك لجهله فيها؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا يأثم بهذا لأن أحكام التجويد إنما هي لتحسين القراءة فقط وليست واجبة فمن أقام الكلمات والحروف على ما هي عليه فقد قام بالواجب.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم من قرأ القرآن ولم يرتل لعدم قدرته على الترتيل أفيدونا بهذا مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ترتيل القرآن على وجهين الوجه الأول ما يكون به بيان الحروف وإظهارها بحيث لا يسقط شيئًا من الحروف فهذا واجب ولا يجوز للإنسان أن يقرأ على وجه يسقط فيه الحروف كما يفعله بعض الناس من السرعة العظيمة التي يخفي فيها الواو أحيانًا أو الفاء أحيانًا أو اللام أحيانًا أو أي حرف من الحروف لأنه إذا تلاه على هذا الوجه فقد تلاه على غير ما أنزل فيخشى أن يكون

=

=

ممن يلوون ألسنتهم بالكتاب.

أما الثاني فهو الترتيل الذي يكون أكثر من إظهار الحروف بحيث يكون اللفظ محسنًا بالتجويد أو يقف عند كل آية فهذا الترتيل ليس بواجب ولكنه مستحب إن فعله الإنسان فهو أكمل وأفضل وإن لم يفعله فلا حرج عليه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: مستمع رمز لاسمه ب ح. أ. م. يعمل في المملكة يقول في رسالته بأنه شابٌ مؤمنٌ بالله سبحانه وتعالى ومصدق لنبيه ﷺ ومحافظ على الصلوات المكتوبة ويكثر من قراءة القرآن ولله الحمد ولكن يقول عندما أقارن بين قراءتي وبين قراءة المقرئين من خلال المذياع أجد أنني أرتكب أخطاءً كثيرة فهل علي إثمٌ لما أرتكبه من أخطاء من غير قصد أفيدونا أفادكم الله؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أقول إن الله سبحانه وتعالى أنزل على عبده محمد ﷺ الكتاب بلسانٍ عربيٍ مبين كما قال الله تبارك وتعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) فيجب على الإنسان أن يقرأ هذا القرآن باللسان العربي فيرفع المرفوع وينصب المنصوب ويجر المجرور ويجزم المجزوم ولا يجوز له أن يغير الحركات فإذا كان يغيرها فالواجب عليه أن يتعلم وأن يكرر بقدر استطاعته ولا يجوز أن يتهاون في هذا الأمر ويقول سأبقى على ما أنا عليه من الخطأ وأما ما لا تتغير به الحركات من صفات الحروف فهذا ليس بواجب مثل المد والقصر وما أشبه ذلك إلا أن يؤدي ترك المد إلى إسقاط حرف أو يؤدي القصر إلى إسقاط حرف هذا لا يجوز لأن إسقاط الحرف كتغيير حركته والمصاحف ولله الحمد متوفرة وبالإمكان أن يأخذ الإنسان مصحفًا يقرؤه كلمةً كلمة حتى يأتي به على وجه الصواب.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: رسالة المستمع من الباحة سعد علي يقول بأنه يحب قراءة القرآن حبًا عظيمًا والحمد لله ويقول أنا لا أجيد حقيقة

=

=

القراءة جيدًا وهناك شباب أحسن مني في قراءتهم لكنهم لا يطبقون أحكامه ويقولون لو أنت مطوع لكنت أحسن منا فما رأي فضيلتكم في ذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أرى أن الفائدة من قراءة القرآن هي تدبر القرآن والاتعاظ به والعمل به فأنت أحق منهم بالقرآن وذلك لأنك تعمل به حسبما قلت ومعلومٌ أن الذي يجيد قراءة القرآن ولكنه لا يعمل به يكون شبيهًا بمن قال الله فيهم (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) فالحامل سيئ والمحمول حسن فقل لهم إذا قالوا لك مثل هذا القول قل وأنتم لو كنتم من أهل القرآن لعملتم به فإعراضكم عن القرآن مع أن الله حملكم إياه أشد من كونكم لا تحملون القرآن أما بالنسبة لك أنت فأنت إذا قرأت القرآن وأنت تتعتع فيه وهو شاقٌ عليك فإن لك أجرين كما قال النبي ﷺ (الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) ومع ذلك فلا تيأس وحاول مرةً بعد أخرى واعلم أنه لا يلزمك أن تقرأ بالتجويد المهم أن تقيم الكلمات والحروف على الشكل المرسوم فلا تضم المنصوب ولا تنصب المرفوع وإنما تتمشى على حسب الشكل المرسوم سواءٌ كان ذلك بطريق التجويد أو بغير طريق التجويد لأن التجويد لا يراد به إلا تحسين اللفظ فقط وتحسين اللفظ ليس بواجب إنما هو من كمال القراءة فلا عليك إذا قرأت القرآن بغير تجويد ولكن لا بد من ملاحظة الشكل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمعة من العراق تقول تعلمت قراءة القرآن والكتابة في مدارس شعبية دون مراعاة للحركات وأصبحت حين أقرأ القرآن أخطئ كثيرًا فأنصب المرفوع وأجر المنصوب إلى غير ذلك من الأخطاء الكثيرة فهل أستمر في القراءة على هذا اللحن الشنيع أم الترك أفضل أرجو التوجيه مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا تتركي القراءة من أجل هذا الغلط ولكن حاولي بقدر

=

=

المستطاع إصلاح هذا الغلط وما دامت هذه السائلة تقول إني أرفع المنصوب وأنصب المرفوع فإن هذا يدل على أنها تعرف هذا الشيء وإذا عرفته فلتصحح، وقد جاء عن النبي ﷺ (أن الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران، والماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة).

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمع من الأردن يقول فضيلة الشيخ ما الفرق بين حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الذي ما معناه (الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه فله أجران) ومعنى الحديث الذي يقول (رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه) أفيدونا مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نقول إنه لا تعارض بين الحديثين إن صح الثاني وهو قوله (ربَّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه) فإن المراد بالحديث الأول الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق المراد به الرجل الحريص على قراءة القرآن فيحرص على قراءة القرآن ولو كان يتتعتع فيه أي يشق عليه النطق به على وجه سليم ومع ذلك فيحافظ على قراءة القرآن فإن هذا له أجران أجر التلاوة وأجر المشقة في التلاوة

أما الثاني إن صح فالمراد بقارئ القرآن الذي يلعنه القرآن هو القارئ يقرأ القرآن ولكنه لا يؤمن بأخباره ولا يعمل بأحكامه يكذب الأخبار يحرفها يستكبر عن الأحكام فيخالفها فمثل هذا القارئ يكون قارئًا للقرآن لكن القرآن في الحقيقة برئ منه بتكذيبه القرآن أو استكباره عن العمل بأحكامه ولا فرق بين من يكذب القرآن جملة أو يكذب خبرًا واحدًا من أخباره وبين أن يرفض أحكامه جملة أو يرفض حكمًا من أحكامه لأن الله سبحانه وتعالى جعل الكفر ببعض الشريعة كفرًا بها كلها فقال تعالى ناعيًا على أهل الكتاب (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ

=

=

إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) وجعل الذين يكفرون ببعض الرسل دون بعض كافرين بالجميع فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) فهذا هو القول في ما ذكره السائل وبه يتبين أنه ليس هناك تعارضٌ أصلًا بين ما ذكره السائل.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل أنا أقرأ القرآن ولكني لست ماهرًا بقراءته فقد يحدث مني أخطاء بتحريف بعض الآيات بدون قصد فهل عليَّ إثم في ذلك وهل أترك قراءته لهذا السبب أم أقرأ على حسب علمي ومقدرتي وليس علي إثم فيما أخطأت؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: يجب عليك أن تقرأ القرآن كما هو موجود في المصحف معربًا محركًا بحركاته وهذا أمر ميسر لمن كان يعرف الحروف والحركات ولا يجوز لك أن تتهاون وتقرأ على حسب ما كنت تقرأ بل يجب عليك أن تقف عند الآية أو عند الكلمة حتى تنطق بها نطقًا صحيحًا لأن هذا القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ تكلم الله به لفظًا فهو كلامه لفظًا ومعنى والواجب أن تقرأه كما هو في المصحف ولو تتعتعت فيه فإن ذلك أجر لك كما جاء في الحديث (الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران والماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة) فمرن نفسك على التلاوة الصحيحة ولا تتهاون ولا تفرط.

فضيلة الشيخ: لكن إذا كان المستوى الذي يقرأ عليه هو غاية علمه وقد يخطئ وهو لا يدري أنه يخطئ؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: يجب عليه أن يتعلم لأن الأمر ليس بالسهل فإن بعض الناس يقرأ على سجيته أو طبيعته من دون أن يحاول التعلم والتمرن على النطق

=

=

بالكلمات صحيح أن بعض الناس قد تكون لهجته لا توافق النطق العربي على الوجه الصحيح لكن عليه أن يحاول بقدر ما يستطيع ولا يتكلم بالقرآن كأنما يتكلم بكلام آخر عادي.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: م ع م من الزلفي تقول أنا اقرأ القرآن وأعرف الحروف الهجائية ولم أتعمق في معرفتها فلا أعرفها معرفة تامة فيحصل لي عند قراءتها بعض الغلط في بعض الكلمات هل يجوز لي قراءتها مع ذلك مع حرصي على القراءة الجيدة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن إذا كان لا يعرف إلا بتعلم فالمواطن التي لا تعرفينها من القرآن الكريم لا تقرئيها حتى تتخذي معلمة تعلمك إياها فإذا عرفتيها فاقرئيها أما المواطن الأخرى التي تعرفينها وتخرجينها على ما في كتاب الله فلا حرج عليك في قراءتها وإذا حصل للقارئ سهو أو غلط أو تغيير في كلمة فإنه لا حرج عليه إذا كان غير متعمد.

فضيلة الشيخ: حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه (من قرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة ومن قرأ القرآن وهو عليه شاق ويتتعتع به فله أجران) ألا يكون مثلاً يوافق قراءة هذه السائلة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا لأن الذي يتتعتع يقول (من قرأ القرآن) والمغير للكلمات والحروف ما قرأ القرآن أبدل كلمة بكلمة أو حرفًا بحرف لكن معنى يتتعتع يعني يشق عليه يخرج الكلمة شيئًا فشيئا مثل أن تجده مثلًا يقول قل أعوذ أعوذ أعوذ يعني مشقة يتهجاها تهجيًا فيتتعتع وأما أن يغير فلا ثم إنه إذا كان يغير وعنده معلم يقومه فلا حرج أيضًا لأن هذه هي طريقة التعلم لكن الرجل يعرف أنه يغير ولا يحاول أن يتعلم على قارئ فهذا خطأ ولا يجوز.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول قال النبي ﷺ (ليس منا من لم

=

=

يتغن بالقرآن) ما معنى الغناء بالقرآن هنا؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: اختلف العلماء رحمهم الله في معنى قوله (لم يتغن بالقرآن) فقيل المعنى أن يستغني به عن غيره لأن من لم يستغن بالقرآن عن غيره واتبع غير القرآن على خطر عظيم ربما خرج من الإسلام بذلك وقيل المعنى من لم يحسن صوته بالقرآن احتقارًا للقرآن فليس منا ومن المعلوم أنه ليس على ظاهره بمعنى أن من لم يقرأ القرآن على صفة الغناء فليس من الرسول في شيء ليس هذا مراد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قطعا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول هل قراءة القرآن بالتجويد المعروف الآن من السنة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الذي يظهر لي أن قراءة القرآن بالتجويد الموجود الآن من تحسين التلاوة ولكنه ليس بواجب وإنما الواجب إظهار الحروف والحركات لكن إذا أتى به على النحو المعروف الآن في التجويد كان هذا من تحسين الصوت بشرط ألا يبالغ في مخارج الحروف فإن بعض الناس يبالغ في مخارج الحروف حتى إنه يتكلف إخراج حروف القلقلة وأشباهها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: من العراق محافظة القادسية المستمع شوقي محمد أبو سعد يقول بالنسبة لمتخذ قراءة القرآن الكريم مهنة يعتمد عليها في حياته في المآتم مثلًا مقابل مبلغ كبير من المال رأي الشرع في نظركم يا شيخ محمد في هؤلاء؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: رأيي في هؤلاء أن عملهم هذا محرم وأن هذه الطريقة التي يتوصلون بها إلى اكتساب المال طريق غير مشروعة إذ إن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ إنما نزل ليتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى بتلاوته وفهم معانيه والعمل به فإذا حوله الإنسان إلى أن يصطاد به شيئًا من الدنيا فقد أخرجه عن مقتضاه وعما أراده الله

=

=

ﷻ فيه ويكون كسبه بهذه الطريق كسبًا محرمًا يأثم به ويأثم به أيضًا كل من ساعده على ذلك وبذل له هذا العوض لأن مساعدته وبذل العوض له من باب معاونته على الإثم والعدوان وقد قال الله تعالى (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وليعلم أن هؤلاء المستأجرين الذين يستأجرون عند موت الأموات ليقرؤوا لهم بشيء من القرآن أو يقرؤوا لهم كل القرآن ليعلم أن هؤلاء ليس لهم أجر يصل إلى الميت لأن عملهم حابط مردود عليهم لقوله تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ولقول النبي ﷺ (من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) فهذا القارئ لم ينل من قراءته أجرًا سوى ما أخذه من حطام الدنيا وما أخذه من حطام الدنيا لا يصل إلى الميت ولا ينتفع به الميت وعلى هذا فيكون في ذلك خسارة على أهل الميت خسارة دنيوية بإضاعة هذا المال الذي صرفوه إلى هذا القارئ المعطل في قراءته وخسارة أخروية لأنهم أعانوا هذا الآثم على إثمه فشاركوه في ذلك فعلى إخوتي المسلمين أن يتوبوا إلى الله ﷻ من هذه الأعمال وأن يسلكوا عند المصائب ما سلكه رسول الله ﷺ وأرشد أمته إليه من الصبر والتحمل وأن يقول الإنسان عند مصيبته إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها حتى يدخل في قوله تعالى (وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ) ومن قال هذا بصدق ورجاء ثواب واحتساب من الله ﷻ فإنه يوشك أن يخلف الله عليه خيرًا من مصيبته.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: أخذ الأجرة مقابل تلاوة القرآن وخصوصًا الذين يقرؤون القرآن في المناسبات؟

=

=

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أخذ الأجرة على قراءة القرآن حرام وذلك لأن قراءة القرآن لا تقع إلا قربة وكل عمل لا يقع إلى قربة فإن أخذ الأجرة عليه حرام والقارئ إذا أخذ الأجرة على هذه القراءة فإن الأجرة عليه حرام ولا ثواب له من هذه القراءة وبهذا نعرف خطأ أولئك القوم الذين يستأجرون من يقرأ لميتهم في أيام وفاته فإني أقول لهم إن عملكم هذا عمل بائر ليس فيه فائدة بل فيه مضرة لأنكم أعنتم هذا القارئ على الإثم حيث أخذ أجرةً على قراءته ولأن هذه الدراهم قد تكون مأخوذة من تركة الميت وقد يكون فيها وصية وقد يكون في الورثة صغار فيظلمون بأخذ شيء مما يستحقونه من هذه التركة ثم إن ميتكم لن ينتفع بهذه القراءة إطلاقًا وذلك لأن هذه القراءة ليس فيها ثواب عند الله وإذا لم يكن فيها ثواب فمن أين تأتي الفائدة لهذا الميت إذن فالواجب البعد عن هذا العمل والتحذير منه والتناصح بين المسلمين من أجل القضاء عليه وإخلاء المسلمين منه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل نشاهد في كثير من بلاد المسلمين استئجار قاريء يقرأ القرآن فهل يجوز للقاريء أن يأخذ أجرًا على قراءته وهل يأثم من يدفع له الأجر؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاستئجار على قراءة القرآن استئجار باطل لا يحل لا للباذل ولا للآخذ والقارئ الذي يقرأ ليس له أجر ينتفع به المقروء له لأنه أراد بعمله الدنيا وقد قال الله تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فمن استأجر شخصًا يقرأ القرآن على روح الميت مثلا كما يقولون فإن هذا الاستئجار باطل والقارئ ليس له أجر حتى يصل إلى الميت وما يأخذه القارئ فإنه أكل للمال بالباطل فلا يحل لأحد أن يستأجر له شخصا يقرأ القرآن لا لنفسه ولا لميت من أمواته وأما إذا كانت قراءة القرآن لغير

=

=

الثواب ولكن للنفع المتعدي كما لو استأجرنا شخصا يعلمنا القرآن وصار يتلو علينا للتعليم أو استأجرنا شخصا يقرأ على مريض ليشفى فإن هذا لا بأس به وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) فيجب أن نعرف الفرق بين هذا وهذا من استأجرا لثواب القراءة فلا ثواب له ولا تحل الإجارة ومن استأجر لنفع متعد كالتعليم والقراءة على المريض وما أشبه ذلك فإن هذا لا بأس فيه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم الشرع في نظركم في أولئك الذين يتلون القرآن في مناسبات الزواج يعملون لهم خيامًا ويقومون بتجهيز مكبرات الصوت وبإيجار الساعة الواحدة بمبلغ كبير من المال وهذه الظاهرة متوفرة في بعض البلدان هل هذا العمل جائز؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا شك أن خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا شك أن النبي ﷺ يعظم كلام الله تعالى أكثر مما نعظمه نحن ولاشك أن النبي ﷺ أحرص منا على الخير وعلى التعبد بكتاب الله ومع هذا لم يكن هذا من هديه أبدا أن يحضر الناس في أيام الزواج من أجل أن يتلو عليهم القرآن وكل عمل ليس عليه أمر الله ورسوله فإنه مردود على صاحبه لذلك ننصح إخواننا المسلمين من مثل هذه الأعمال التي يقصد بها التعبد لله عَزَّوَجَلَّ وهي لم ترد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز لشخص أن يقرأ الفاتحة وبعد إكمال التعزية يقبض مالًا من صاحب التعزية فهل المال يعتبر حلالًا أم حرامًا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نقول إنه لا يجوز للمرء أن يأخذ شيئًا على تلاوة القرآن وإنما يجوز الأخذ على تعليم القرآن لأن التعليم عمل يتعدى نفعه إلى الغير بخلاف القراءة المجردة هذا من حيث أخذ المال وعليه فيجب على أخينا السائل أن يرد

=

=

ما أخذه على صاحبه وأما قوله عن قراءة الفاتحة عند التعزية فنقول له إن هذا من البدع فلم يكن رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون ولا أصحابه يقرؤون الفاتحة عند التعزية وإنما كانوا يعزون المصاب بالميت بما يليق بحاله أي بما يكون سببًا لتقويته على تحمل هذه المصيبة لأن التعزية معناها التقوية وقد عزى رسول الله ﷺ إحدى بناته بقوله لرسول أرسلته إلى رسول الله ﷺ قال (مرها فلتصبر ولتحتسب فإن لله ما أخذ وله ما أبقى وكل شيء عنده بأجل مسمى) فمثل هذه الكلمات العظيمة لاشك أنها تؤثر على المصاب تأثيرًا بالغًا يتحمل به المصيبة ويصبر عليها حيث يؤمن بأنه إذا احتسب على الله تبارك وتعالى أُجر الصبر على هذه المصيبة ووفاه أجره بغير حساب وكذلك بأن لله تعالى ما أخذ وله ما أبقى فالملك ملكه يتصرف فيه كما يشاء وكل شيء عنده بأجل مسمى لا يتعداه ولا يتقدم عليه فلا فائدة من الجزع وإن كان الإنسان بلا شك سوف يحزن كما قال رسول الله ﷺ عند موت ابنه إبراهيم (القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون) ولكن على المرء أن يصبر ولا يحدث قولًا ولا فعلًا ينم عن التضجر وعدم الصبر.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل الذين يقرؤون ويأخذون مبالغ كبيرة ما حكمهم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إذا كان القارئ الذي يقرأ إنما قرأ من أجل ما يأخذ فإن ذلك حرام عليه ولا يحل له لأنه لم ينتفع بقراءته أحد إنما النفع له وهو إذا أخذ عليه أجرا من الدنيا حرم أجره في الآخرة وأما إذا كان يعلم الناس بأجرة يحفظ الإنسان مثلا سورة البقرة وهو يقول سورة البقرة عليه كذا وكذا من المقدار فالصحيح أن ذلك جائز يعني أنه يجوز أن يأخذ أجرا على تعليم القرآن لا على قراءة القرآن لأن قراءة القرآن نفعها لا يتعدى والتعليم يتعدى نفعه إلى المعلم ولهذا قال النبي عليه

=

=

الصلاة والسلام (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) يعني تعليمه فإذا كان الإنسان يعلم الناس القرآن بأجرة سواء كانت على المقدار أو على الزمن على المقدار بأن يقول كل جزء بكذا وكذا أو كل سورة بكذا وكذا أو على الزمان كل ساعة بكذا وكذا فهذا لا بأس به للحديث الذي ذكرت.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم الشرع في نظركم في القارئ يستأجر في ليالي رمضان يقرأ بأجر يقوم هو بتحديده وهل على الذي يقوم بالتأجير في شهر رمضان إثم؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الاستئجار على قراءة القرآن لا يجوز أي أنه لا يجوز أن تستأجر شخصا يقرأ القرآن عليك للتعبد بالاستماع إليه وذلك لأن قراءة القرآن قربة تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وكل شيء يقرب إلى الله فهو عبادة والعبادة لا يجوز أخذ الأجر الدنيوي عليها سواء كان ذلك في رمضان أو في غير رمضان وبذلك يتبين لنا خطأ ما يفعله بعض الناس إذا مات لهم الميت استأجروا قارئا يقرأ القرآن يزعمون على روح الميت فإن هذا محرم ولا أجر للقارئ على قراءته هذه وعلى هذا فيكون استئجاره إضاعة للمال بدون فائدة وقد سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجل قال لقوم أنا لا أصلى بكم في رمضان إلا بكذا وكذا فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ نعوذ بالله من يصلى خلف هذا وأما أخذ الأجرة على تعليم القرآن أو على قراءته على مريض او لديغ أو ما أشبه ذلك فلا بأس به لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) فيفرق بين من يستأجر لمجرد التلاوة وبين من يستأجر لعمل يحصل بالقراءة أي بقراءة القرآن فالثاني جائز والأول غير جائز.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز أخذ مكافأة على تعليم القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: يجوز أن يأخذ الإنسان مكافأة على تعليم القرآن لقول النبي

=

صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله) لكن لا يجوز أخذ مكافأة على مجرد القراءة أي مجرد قراءة القرآن لأن مجرد القراءة للقرآن لا يقع إلا عبادة والعبادة لا يؤخذ عليها أجر وبهذا نعرف خطأ من إذا مات ميتهم جمعوا القراء أو أتوا بقاريء واحد يقرأ القرآن يزعمونه نافعًا للميت وهو لا ينفع الميت إذا كان بعوض لأن قاري القرآن بعوض لا أجر له في الآخرة ولا ثواب له عند الله وإذا لم يكن له ثواب عند الله لم ينتفع الميت من ذلك بشيء فهذا الفعل محرم لأنه إعانة على الإثم والعدوان وربما يكون عوض هذه القراءة مأخوذًا من التركة والتركة قد يكون فيها وصايا للميت وقد يكون في الورثة من هم قصر فيؤخذ من مالهم ومن الوصية بغير حق فهذا عدوان ظاهر وبهذا ننصح إخواننا الذين يموت لهم ميت بأن يتجنبوا هذه الأمور وأن يتحلوا بالصبر والاحتساب فإن النبي ﷺ قال لإحدى بناته وقد مات لها طفل أو قارب الموت قال للرسول الذي أرسلته (مرها فلتصبر ولتحتسب فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: ع. خ. م. من بلاد بني عمرو قرية فران يقول هناك مدرس يقول الذي يستمع للقرآن الكريم من الراديو حرام فقلت قال الله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فقال ما دام أنت تعرف اقرأ في المصحف مع من هو الحق وفقكم الله؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاستماع إلى القراءة المسجلة لا شك أنه استماعٌ إلى صوتٍ محكي ومثبت على هذا الشريط وهو أمرٌ لا يعارض الآية الكريمة (وإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا) فالاستماع إليه لا بأس به بل قد يكون مستحبًا إذا كان الإنسان لا يحسن القراءة بنفسه ويحب أن يستمع إلى القرآن من المسجل فيكون مأمورًا به فالصواب معك في أنه لا بأس بالاستماع إلى القراءة من المسجل

=

لأن هذه من الوسائل التي أنعم الله بها علينا الآن حيث نحفظ كتاب الله بكتابته بالأحرف وبتسجيله بالصوت ولكن ليعلم أن ما يقال في التسجيل ليس كما يقوله الشخص بنفسه لا سيما إذا كانت العبادة مقصودةً من الفاعل أقول هذا لئلا يظن ظانٌ أننا لو ركبنا مسجلًا على مكبر الصوت في المنارة عند الأذان وسمع منه الأذان من هذا المسجل فإن هذا لا يجزئ عن الأذان من الإنسان نفسه لأن الأذان عبادة يجب أن يفعله الفاعل بنفسه بخلاف الشيء المسجل فإنه حكاية صوت الفاعل أو القارئ أو المسجل فليس هو فعله ولهذا قد نفتح المسجل فيحكي لنا صوت إنسانٍ ميت فإذا لم يكن هو فعله وكان الآذان مشروعًا من الفاعل فإنه لا يجزئ الأذان بمكبر الصوت عن أذان الإنسان نفسه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمع عبد الله العربي من مصر يقول هل يجوز أن يستمع الإنسان للقراءة من المذياع أو خلاف ذلك على سبيل المثال عند قيادة السيارة وهل يجوز أن يستمع للقرآن مضطجعًا وهل عليه شيء إن نام أثناء ذلك والقارئ يقرأ؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاستماع إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة لأن الله تعالى أمر بها فقال عَزَّ وَجَلَّ (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وهذه العبادة وهي الاستماع إلى كتاب الله جاءت مطلقة في كتاب الله لم تقيد بحالٍ دون أخرى فيجوز للإنسان أن يستمع إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وهو قائمٌ أو قاعدٌ أو مضطجع ويجوز أن يستمع إلى كتاب الله وهو يعمل لكن بشرط أن لا يلهيه العمل عن الاستماع فإن كان يلهيه عن الاستماع وذلك حيث يكون العمل يحتاج إلى تفكير فإنه لا ينبغي أن يستمع إليه وهذا إذا كان الأمر بيده واختياره مثل أن يكون مستمعًا إلى القرآن من شريط تسجيل فنحن نقول له إذا كنت مشتغلًا بشغلٍ يشغل قلبك فالأولى أن لا تفتح المسجل لتستمع لأنك في هذه الحال لا يمكنك أن تقبل على

=

=

عملك مع إقبالك على كلام الله ﷻ لكن الذي يظهر لي أن الاستماع إلى القرآن حال قيادة السيارة يمكن لأن القيادة لا تشغل الإنسان كثيرًا لا سيما في الخطوط السريعة التي لا يخشى الإنسان فيها حادثًا أو خطًا يمينًا أو شمالًا فالقاعدة أنه متى أمكنك الاستماع لكتاب الله على وجهٍ تصغي إليه وتنتفع بما تسمع فاستمع إليه على أي حالٍ كنت قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا لعموم قوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أما إذا كان لا يمكنك لانشغال قلبك بما أنت متلبسٌ به فلا يحسن أن تستمع إليه لأن الله تعالى يقول (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: أ. ع. خ. من الأردن إربد يقول: هل سماع القرآن عبر المذياع يوميًا يغني عن قراءته وهل أجر القارئ والمستمع سواء؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: هذا لا يغني عن قراءته لكن لا شك أن المستمع له أجر وأنه مشارك للقارئ في أجره ولهذا إذا مر القارئ بآية سجدة سجد هو والمستمع ولكن أحيانا يكون الإنسان عنده كسل وتعب فيحب أن يسمع القرآن من غيره فإذا رأى من نفسه أن سماعه من غيره أشد استحضارا وأقوى تدبرا وأنفع لقلبه ففعله فلا حرج وأما أن يتخذ ذلك ديدنًا له ويدع القراءة بنفسه فإن هذا لا ينبغي ولا يغني عن القراءة بالنفس وأما أيهما أكثر أجرا فلا شك أن قراءة الإنسان بنفسه أكثر أجرا لأن فيها عملا واستماعا في نفس الوقت فالإنسان يحرك مخارج الحروف بالنطق وهذا عمل ويسمع قراءته ويستمع إليها وهذا السماع ولكن قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل بحيث يكون تدبره ووعيه في قراءة غيره أكثر من تدبره إذا قرأ هو بنفسه ولكل مقام مقال لكن بالنظر إلى العمل من حيث هو عمل فإن القراءة أفضل من السماع.

=

=

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم قراءة القرآن جماعة بصوت واحد وما مدى حقيقة وضع القارئ في هذه الحالة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قراءة القرآن بصوت واحد من جماعة هذا جائز إذا لم يتضمن محظورًا فمن المحظور أن يحصل به تشويش على من حولهم فيمنع عن ذلك، لأن الرسول ﷺ خرج على أصحابه وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال ﷺ (كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض في القرآن).

ومنها أيضًا أي من المحاذير أن يتخذ هذا على سبيل الطرب وهز الظهور، وما أشبه ذلك مما يفعله بعض الناس أصحاب الطرق فهذا أيضًا يمنع منه،

ومنها أيضًا أن يحصل به إعراض عن تلاوة الإنسان لنفسه يعني الذين يألفون هذه الطريقة حتى لا يستطيع المرء منهم أن يقرأ القرآن لنفسه فإن هذا محظور يجب تجنبه، فإذا سلم من هذه المحاذير فلا بأس به، وإذا كان الرجل إذا قرأ وحده صار أقرب إلى استحضاره وإلى تدبره كان ذلك أولى من القراءة للجمع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بعض الناس بعد الانتهاء من قراءة القرآن يقولون الفاتحة ويقرؤون الفاتحة بصوتٍ جماعي علمًا بأن ذلك في المسجد هل هذا من البدع؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نعم هذا من البدع فلم يرد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يختم قراءته بالفاتحة بل كان يبتدئ قراءته بالفاتحة في الصلاة فأول ما يقرأ في الصلاة بعد الاستفتاح الفاتحة وكما قال السائل إن بعض الناس يختتم القراءة بالفاتحة وأقول إن بعض الناس أيضًا يختتم كل شيءٍ بالفاتحة حتى في الدعاء إذا دعا قرأ الفاتحة حتى في كل مناسبة يقول الفاتحة وهذا من البدع قد يقول قائل أكثرت علينا من البدع كل شيء بدعة فأقول لا ليس كل شيء بدعة البدعة هي التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بغير ما شرع وعلى هذا فالبدع لا تدخل في غير العبادات

=

=

بل ما أحدث من أمور الدنيا ينظر فيه هل هو حلال أم حرام ولا يقال إنه بدعة فالبدعة الشرعية هي أن يتعبد الإنسان لله تعالى بغير ما شرع يعني الذي يسمى بدعة شرعًا وأما البدعة في الدنيا فإنها وإن سميت بدعةً حسب اللغة العربية فإنها ليست بدعةً دينية بمعنى أنه لا يحكم عليها بالتحريم ولا بالتحليل ولا بالوجوب ولا بالاستحباب إلا إذا اقتضت الأدلة الشرعية ذلك وعلى هذا فما أحدثه الناس اليوم من الأشياء المقربة إلى تحقيق العبادة لا نقول إنها بدعة وإن كانت ليست موجودة من ذلك مكبر الصوت مكبر الصوت ليس موجودًا في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكنه حدث أخيرًا إلا أن فيه مصلحة دينية يبلغ للناس صلاة الإمام وقراءة الإمام والخطبة وكذلك في اجتماعات المحاضرات فهو من هذه الناحية خير ومصلحة للعباد فيكون خيرًا ويكون شراؤه للمسجد لهذا الغرض من الأمور المشروعة التي يثاب عليها فاعلها ومن ذلك ما حدث أخيرًا في مساجدنا من الفرش التي فيها خطوط من أجل إقامة الصفوف وتسويتها فإن هذا وإن كان حادثًا ولكنه وسيلةٌ لأمرٍ مشروع فيكون جائزًا أو مشروعًا لغيره ولا يخفى على الناس ما كان الأئمة الحريصون على تسوية الصفوف يعانونه قبل هذه الخطوط فكانوا يعانون مشكلات إذا تقدم أحد ثم قالوا له تأخر. تأخر أكثر ثم قالوا له تقدم. تقدم أكثر يحصل تعب الآن والحمد لله يقول الإمام سووا صفوفكم على الخطوط توسطوا منها فيحصل انضباطٌ تام في إقامة الصف هذا بدعة من حيث العمل والإيجاد لكنه ليس بدعة من حيث الشرع لأنه وسيلة لأمرٍ مطلوبٍ شرعًا فالمهم أنه لا ينبغي لأحد أن يعترض علينا أو لغيرنا عندما نقول إن هذا بدعة وهو حقيقةٌ بدعة ولنرجع إلى الضابط الذي ذكرنا وهو أن البدعة شرعًا والتي عليها الذم هي التعبد لله تعالى بما لم يشرعه سواءً في العقيدة أو في القول أو في العمل.

=

=

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هذه رسالة من ليبيا من بعض الأخوات يقلن نحن أخواتكم في الله من ليبيا لنا بعض القضايا السؤال الأول يقلن نقوم أحيانًا بختم القرآن ختمةً جماعية حيث تقوم كلٌ منا بقراءة جزء أو أكثر في بيتها فنختم في ليلةٍ واحدة فهل ما نفعله صحيح؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاجتماع على ختم القرآن في البيت له أصلٌ من فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنه روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا فإن فعلن ذلك فأرجو أن لا يكون فيه حرج وإن تركن ذلك فهو أسلم وأبعد من حدوث البدعة لأنه ربما تتطور هذه المسألة ويحدث منها ما لا يمكن أن نقول إنه من فعل الصحابة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل تجوز قراءة حزب من القرآن جماعة في المسجد في كل يوم بعد صلاتي الصبح والمغرب وما حكمهما في الإسلام؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا حرج أن يجتمع جماعة بعد صلاة الفجر أو المغرب أو الظهر أو العصر ويقرؤوا فيما بينهم حزبا من القرآن لكن لا على سبيل جماعي بل يقرأ واحد ويستمع الباقون ثم يقرأ الثاني ويستمع الباقون وهكذا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: فيصل الدعجاني من القصب يقول ما حكم قول صدق الله العظيم بعد قراءة القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قول صدق الله العظيم بعد قراءة القرآن لا أصل له من السنة ولا من عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وإنما حدث أخيرًا ولا ريب أن قول القائل صدق الله العظيم ثناءٌ على الله عَزَّ وَجَلَّ فهو عبادة وإذا كان عبادةً فإنه لا يجوز أن نتعبد لله به إلا بدليلٍ من الشرع وإذا لم يكن هناك دليل من الشرع كان ختم التلاوة به غير مشروع ولا مسنون فلا يسن للإنسان عند انتهاء القرآن أن يقول صدق الله العظيم فإن قال قائل أليس الله يقول (قُلْ صَدَقَ اللهُ) فالجواب بلى قد قال الله ذلك ونحن نقول

=

=

ذلك لكن هل قال الله ورسوله إذا أنهيتم القراءة فقولوا صدق الله وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يقرأ ولم ينقل عنه أنه كان يقول صدق الله العظيم وقرأ عليه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سورة النساء حتى بلغ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) فقال النبي عليه الصلاة والسلام (حسبك) ولم يقل قل صدق الله ولا قاله ابن مسعود أيضًا وهذا دليل على أن قول القائل عند انتهاء القراءة صدق الله ليس بمشروع نعم لو فرض أن شيئًا وقع مما أخبر الله به ورسوله فقلت صدق الله واستشهدت بآيةٍ من القرآن هذا لا بأس به لأن هذا من باب التصديق لكلام الله عَزَّ وَجَلَّ كما لو رأيت شخصًا منشغلًا بأولاده عن طاعة ربه فقلت صدق الله (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ) وما أشبه ذلك مما يستشهد به فهذا لا بأس به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم قول صدق الله العظيم عند نهاية كل قراءة من القرآن الكريم.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قبل الإجابة على هذا السؤال أود أن أبين ما ذكره أهل العلم قاطبة بأن العبادة لا بد فيها من شرطين أساسيين

أحدهما الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ والثاني المتابعة لرسول الله ﷺ أما الإخلاص فمعناه أن لا يقصد الإنسان بعبادته إلا وجه الله والدار الآخرة فلا يقصد جاهًا ولا مالًا ولا رئاسة ولا أن يمدح بين الناس بل لا يقصد إلا الله والدار الآخرة فقط

وأما الشرط الثاني فهو الاتباع للنبي ﷺ بحيث لا يخرج عن شريعته لقول الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) وقوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) ولقوله تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وقول النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله

=

=

فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ولقول النبي ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) فهذه النصوص النصية تدل على أنه لا بد لكل عمل يتقرب به الإنسان لله ﷻ بأن يكون مبينًا على الإخلاص. الإخلاص لله موافقًا لشريعة الله ﷻ ولا تتحقق الموافقة والمتابعة إلا بأن تكون العبادة موافقة للشرع في سببها وجنسها وقدرها وهيئتها وزمانها ومكانها فمن تعبد لله تعالى عبادة معلقة بسبب لم يجعله الشرع سببًا لها فإن عبادته لم تكن موافقة للشرع فلا تكون مقبولة وإذا لم تكن موافقة للشرع فإنها بدعة وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وبناء على هاتين القاعدتين العظيمتين بل بناء على هذه القاعدة المتضمنة لهذين الشرطين الأساسيين فإننا نقول إن قول الإنسان عند انتهاء قراءته صدق الله العظيم لاشك أنه ثناء على الله ﷻ بوصفه سبحانه وتعالى بالصدق (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلًا) والثناء على الله بالصدق عبادة والعبادة لا يمكن أن يتقرب الإنسان بها إلا إذا كانت موافقة للشرع وهنا ننظر هل جعل الشرع انتهاء القراءة سببًا لقول العبد صدق الله العظيم إذا نظرنا إلى ذلك وجدنا أن الأمر ليس هكذا بل أن الشرع لم يجعل انتهاء القارئ من قراءته سببًا لأن يقول صدق الله العظيم فها هو رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه (اقرأ) قال يا رسول الله كيف أقرأ عليك وعليك أنزل قال (إني أحب أن أسمعه من غيري) فقرأ حتى بلغ قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) فقال النبي ﷺ (حسبك) ولم يقل عبد الله بن مسعود صدق الله العظيم ولم يأمره النبي ﷺ بذلك وهكذا أيضًا (قرأ زيد بن ثابت على النبي ﷺ سورة النجم حتى ختمها) ولم يقل صدق الله العظيم وهكذا عامة المسلمين إلى اليوم إذا انتهوا من قراءة الصلاة لم يقل أحدهم عند قراءة الصلاة قبل الركوع صدق الله العظيم فدل ذلك على أن هذه

=

=

الكلمة ليست مشروعة عند انتهاء القارئ من قراءته وإذا لم تكن مشروعة فإنه لا ينبغي للإنسان أن يقولها فإذا انتهيت من قراءتك فاسكت واقطع القراءة أما أن تقول صدق الله العظيم وهي لم ترد لا عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه فإن هذا قول يكون غير مشروع قد يقول قائل أليس الله تعالى قال (قُلْ صَدَقَ اللهُ) فنقول بلى إن الله تعالى قال قل صدق الله ونحن نقول صدق الله لكن هل قال الله تعالى قل عند انتهاء قراءتك قل صدق الله الجواب لا إذا كان كذلك فإننا نقول صدق الله ويجب علينا أن نقول ذلك بألسنتنا ونعتقده بقلوبنا وأن نعتقد أنه لا أحد أصدق من الله قيلا ولكن ليس لنا أن نتعبد إلى الله تعالى بشيء معلق بسبب لم ي جعله الشارع سببًا له لأنه كما أشرنا من قبل لا تتحقق المتابعة في العبادة حتى تكون موافقة للشرع في الأمور الستة السابقة أن تكون موافقة للشرع في سببها وجنسها وقدرها وصفتها وزمانها ومكانها وبناء على ذلك فلا ينبغي إذا انتهى من قراءته أن يقول صدق الله العظيم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل سمعت من بعض الإخوة أن كلمة صدق الله العظيم بعد التلاوة بدعة هل هذا صحيح؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نعم ختم تلاوة القرآن بقول صدق الله العظيم بدعة وذلك لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أنهم كانوا يختمون قراءتهم بقول صدق الله العظيم وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) وعلى هذا فينبغي للقارئ إذا انتهى من قراءته أن ينهيها بآخر آية يتلوها بدون أن يضيف إليها شيئًا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة عند الانتهاء من قراءة سورة الفاتحة والسورة التي تليها هل يجوز قول صدق الله العظيم؟

=

=

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: قول صدق الله العظيم بعد انتهاء التلاوة في الصلاة أو في غيرها بدعة وذلك لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أنهم كانوا إذا انتهوا من القراءة قالوا صدق الله ومن المعلوم أن قول القائل صدق الله عبادة لأنه ثناء على الله بالصدق وإذا كان عبادة فإنه لا يجوز أن نشرع من العبادات ما لم يشرعه الله ورسوله فإن فعلنا ذلك كان بدعة وكل بدعة ضلالة وعلى هذا فالقارئ إذا انتهى من قراءته يسكت ولا يقول صدق الله العظيم ولا غيرها لأن ذلك لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وقد قرأ ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على النبي ﷺ شيئًا من سورة النساء حتى إذا بلغ قول الله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) قال النبي ﷺ (حسبك) قال فالتفت فإذا عيناه تذرفان صلوات الله وسلامه عليه ولم يقل ابن مسعود صدق الله ولا أمره النبي ﷺ بذلك وكذلك قرأ عنده زيد بن ثابت سورة النجم حتى ختمها ولم يقل النبي ﷺ له قل صدق الله العظيم ولا قالها أيضًا فدل هذا على أنه ليس من هدي النبي ﷺ ولا هدي أصحابه أن يقولوا عند انتهاء القراءة صدق الله العظيم لا في الصلاة ولا خارج الصلاة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر السابق: أسمع في الإذاعة كثيرًا من المقرئين يقرؤون القرآن ببطء ويقف بين الآية والأخرى فترة يخيل للمستمع أنه انتهى ثم يعاود القراءة مرة أخرى كذلك عند نهاية القراءة وأخيرًا يختمون بصدق الله العظيم ما حكم ذلك يا فضيلة الشيخ؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: أما الفقرة الأولى وهي كونهم يقفون عند كل آية وربما يبطئون في الوقف فهي طريقة يستعملها بعض الناس من أجل شد أذهان الناس إليهم وتشويقهم إلى القراءة فإن القارئ إذا وقف ثم تأخر كثيرا لا يزال السامع متشوقا لقراءته فهم يستعملون هذا من أجل هذا وأما ختم القراءة بصدق الله

=

=

العظيم فهذه لا أصل لها من سنة الرسول ﷺ ولا من عمل سلف هذه الأمة وإنما هي محدثة ولا ينبغي للإنسان أن يختم بها تلاوته لأن هذه الجملة ثناء على الله ﷻ والثناء على الله عبادة والعبادة موقوفة على الشرع فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرا القرآن ويقف ولا يقول صدق الله العظيم ويقرأ عليه القرآن فيقف القارئ ولا يقول صدق الله العظيم علم أن هذا ليس من السنة وأنه من الأشياء المحدثة التي حذر النبي ﷺ من جنسها فقال (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) فإن قال قائل أليس الله يقول (قُلْ صَدَقَ اللهُ) قلنا بلى ونحن نقول صدق الله ويجب علينا أن نؤمن بأن كلام الله أصدق الكلام ولكن هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام يختم بهذه الجملة كلما قرأ هذا هو محل هو بيت القصيد وهذا هو محل النقاش وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يختم قراءته بهذه الجملة دل ذلك على أنها ليست من السنة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بارك الله فيكم المستمعة أم هند من عسير بالمملكة العربية السعودية تقول ما حكم تجميع ختمات القرآن الكريم في أيام معينة مثل أن يقرأ القرآن حتى الجزء الثلاثين ليبدأ مرة أخرى حتى الجزء الثلاثين ثم يقرأ الجزء الثلاثين في ليلة السابع والعشرين من رمضان.

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا السؤال غير واضح كما ينبغي لكن ينبغي أن يعلم أن الإمام الذي يصلى بالناس في قيام رمضان لا يطلب منه أن يقرأ القرآن كله على سبيل الوجوب بل يقرأ ما تيسر فإن تمكن من قراءة القرآن كله فهذا طيب حتى يسمع الناس جميع القرآن في هذا الشهر الذي أنزل فيه القرآن وإن لم يتمكن من ذلك واقتصر على بعض القرآن فلا حرج عليه لعموم لقوله تعالى (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ) وقول النبي ﷺ (اقرأ ما تيسر معك من القرآن) وأهم شيء في هذا الباب أن يكون المصلى بالناس في قيام رمضان مطمئنًا في صلاته في ركوعه

=

=

وسجوده وقيامه وقعوده وتشهده حتى يتمكن الناس من الطمأنينة في هذا القيام وإنك لتعجب من بعض الناس ولاسيما في الصلاة في أول الليل التراويح فتعجب من بعض الناس الذين يسرعون إسراعًا عظيمًا بحيث لا يتمكن من وراءهم من فعل الواجب أي فعل واجب الطمأنينة وفعل واجب الأذكار وهذا حرام عليهم لأن الإمام في إمامته ولي متبوع لقول النبي عليه الصلاة والسلام (إنما جعل الإمام ليؤتم به) فإذا كان وليًا متبوعًا فإن الواجب عليه أن يراعي الأمانة فيمن ولاه الله عليهم وجعلهم تابعين له وأن لا يسرع إسراعًا يمنعهم من فعل ما يجب من الطمأنينة والأذكار وقد صرح أهل العلم رحمهم الله بأنه يكره للإمام أن يسرع سرعة تمنع المأمومين أو بعضهم من فعل ما يسن فكيف بمن يسرع سرعة تمنع المأمومين أو بعضهم من فعل ما يجب فليتق الله هؤلاء الأئمة وليقوموا بما يجب عليهم من مراعاة المأموم بحيث تكون صلاتهم موافقة لما تقتضيه الشريعة ولا يخفى على كثير من طلبة العلم أن النبي ﷺ قال (إذا أم أحدكم الناس فليخفف وإذا صلى بنفسه فليطول ما شاء) فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أوجب على الإمام أن يراعي الناس وجعله إذا صلى بنفسه حرًا يطول ما شاء وقد يستدل بعض الناس بهذا الحديث على هذا التخفيف وهذه السرعة التي تمنع المأمومين أو بعضهم فعل ما يجب أو يسن ولكن استدلاله بهذا الحديث غير صحيح لأن النبي ﷺ إنما قاله في حق من يطيل إطالة زائدة عن المشروع فأما الإطالة الموافقة للمشروع فإنها إطالة مشروعة مستحبة ولهذا يأتي بعض الأئمة يقول أن بعض الناس يقول لي لا تقرأ في الفجر يوم الجمعة سورة ألم تنزيل السجدة في الركعة الأولى وهل أتى على الإنسان في الركعة الثانية هذا يطول علينا يأتي بعض الأئمة يشكو من بعض أهل المسجد من مثل هذا الأمر ولكن الحقيقة الذي ينبغي أن يشكى هم أهل المسجد لا الإمام فالإمام إذا قرأ هاتين السورتين في فجر يوم

=

=

الجمعة لا يعد مطيلًا بل يعد ذا طَوْل أي ذا فضل على الجماعة لكونه أتى بالسنة التي شرعها النبي ﷺ كذلك بعض الناس في صلاة الجمعة إذا قرأ الإمام سورة الجمعة والمنافقون صار يشكو من الإمام ويقول أطال بنا مع أن هذا مما ثبتت به السنة عن رسول الله ﷺ ولا يعد إطالة بل هو طَوْل وفضل من الإمام يتفضل به على نفسه وعلى من وراءه حيث أتى بالقراءة المشروعة عن النبي ﷺ وربما نقول ينبغي للإمام أن يراعي حال الناس في أيام الصيف وأيام الشتاء الباردة فإذا رأى بأنه لو قرأ بهاتين السورتين في الجمعة في أيام الصيف لحق الناس من الغم والحر ما يزعجهم ويشغلهم عن صلاتهم ففي هذه الحال يعدل إلى سور أخرى وكذلك في أيام الشتاء الباردة إذا رأى أن بعض الناس قد يكون محتاجًا إلى قضاء الحاجة بسبب البرد وطول المكث في المسجد فإنه يعدل إلى قراءة سور أخرى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل من العادات والتقاليد في مدينتنا عند ختم كتاب الله يأتون بأنواع من الأكل والشراب فهل هذا ثابت في السنة أو هي بدعة؟ وهل توجد بدعة حسنة وبدعة سيئة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا يشرع شيء من مثل هذا عند ختم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يشرع حفلات ولا طعام ولا غيره فلو قرأ الإنسان القرآن كله ثم أراد عند ختمه أن يصنع وليمة يدعو إليها الناس أو أن يتصدق بطعام على الفقراء أو أن يعمل حفل كلمات وخطب فإن هذا كله ليس من السنة وإذا لم يكن من السنة وصنع بمناسبة دينية وهي ختم القرآن فإنه يكون من البدعة وقد قال أعلم الخلق بشريعة الله وأنصح الخلق لعباد الله وأفصح الخلق بلاغة ونطقًا محمد رسول الله ﷺ قال (كل بدعة ضلالة) كل بدعة وكل للعموم ولم يستثن النبي ﷺ بدعة من البدع تكون حسنة وبهذه الكلية الجامعة المانعة نعلم أن تقسيم البدع إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة خطأ عظيم وقول على الله بلا علم فليس هناك بدعة تكون حسنة أبدًا ومن ظن أن

=

=

في البدع ما يكون حسنًا فإن ذلك على وجهين

الوجه الأول أن يكون ظنه أنها حسنة ليس بصحيح لأنه متى تحققنا أنها بدعة فإنها سيئة

الوجه الثاني أن يكون ظنه أنها بدعة خطأ فهو يظن أنها بدعة وليست ببدعة أما إذا تحققنا أنها بدعة فإننا نتحقق أنها سيئة وليست بحسنة هذا هو ما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة من كلام سيد المرسلين محمد ﷺ (كل بدعة ضلالة) وتقسيم بعض العلماء البدعة إلى بدعة سيئة وبدعة حسنة يتنزل على ما قلت آنفًا وهو أنه إما أن يكون هذا الشيء ليس ببدعة وهم ظنوه أنه بدعة وإما أن يكون هذا الشيء ليس بحسن وهم ظنوه أنه حسن وأما مع تيقن أن هذا الشيء بدعة فإنه لن يكون حسنًا أبدًا

فإن قال قائل أليس قد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جمع الناس في رمضان على إمام واحد أليس قد قال: نعمت البدعة هذه.

فنقول بلى قال هكذا لكن هل أراد عمر أنها بدعة في دين الله؟ لا ما أراد هذا وعمر من أشد الناس تمسكًا بالسنة وتحريًا لها لكنه أراد أنها بدعة بالنسبة لما قبلها من الزمن فقط وذلك أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان ليلتين أو ثلاثًا يصلى بهم جماعة ثم ترك ذلك خوفًا من أن تفرض على أمته فشرع الصلاة جماعة في قيام رمضان لكن تركه خوفًا من مفسدة أعظم وهي إلزام الناس بهذه الصلاة جماعة ولما توفي رسول الله ﷺ أمن من هذه المضرة وهي إلزام الناس بهذا القيام لأنه انقطع الوحي أمن بذلك لكن خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تدم طويلًا إذ أنها سنتان وأشهر وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشغولًا بأحوال الجهاد وتنظيم الأمة الإسلامية بعد أن حصل ما حصل من بعضهم من مخالفات بعد وفاة الرسول ﷺ ولما كان زمن عمر وانتفت الموانع وتفرغ الناس بعض الشيء خرج ذات يوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجد الناس

=

=

يصلون أوزاعًا يصلى الرجل وحده والرجلان والثلاثة فرأى رضي الله عنه أن يجمع الناس على إمام واحد فجمعهم على إمام واحد ثم خرج ذات ليلة وهم مجتمعون على إمامهم يصلون بصلاته فقال: نعمت البدعة هذه. إذًا هي بدعة باعتبار ما سبقها من الزمن وليست بدعة باعتبار مشروعيتها إذ أن مشروعيتها قد ثبتت في عهد النبي ﷺ وعلى هذا فيكون إطلاق البدعة عليها إطلاقًا نسبيًا أي إنها بدعة بنسبتها لما سبقها من الزمن وبه ينقطع الحبل الذي تمسك به أهل البدع وابتدعوا في دين الله ما ليس منه وشرعوا في دينه ما لم يأذن به واحتجوا بمثل هذه العبارة التي لها وجه غير الوجه الذي يريدونه وتوجيهها إلى الوجه الذي قلته فهو الموافق لقول النبي ﷺ (كل بدعة ضلالة) إذ لا يليق بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يثني على بدعة وصفها النبي ﷺ بالضلالة بأنها نعمت البدعة هي ولقد انفتح أبواب من الشرور وبدع من قبيل المحظور بهذه الحجة وهي تقسيم بعض العلماء عفا الله عنهم وغفر لهم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة ولو أننا تمسكنا بقول المعصوم محمد ﷺ (كل بدعة ضلالة) لكان أحرى بنا أن نكون أتبع لرسول الله ﷺ مما لو قسمنا البدعة إلى حسنة وإلى سيئة.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: كثيرٌ من أئمة المساجد يقرؤون قراءة متسلسلة من البقرة وحتى سورة الناس في غير رمضان وقيل إن هذا بدعة ويحتج بعضهم بالمراجعة وضبط الحفظ وإسماع الجماعة آيات مباركات من القرآن الكريم قلَّ أن يسمعوها فما رأي فضيلتكم في هذا؟

فأجاب رحمه الله تعالى: ذكر العلماء رحمهم الله أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ في صلاة الفجر من طوال المفصل وفي صلاة المغرب من قصاره وفي الباقي من أوساطه والمفصل أوله سورة ق وآخره آخر القرآن وطواله من ق إلى عم وقصاره من الضحى إلى آخر القرآن وأوساطه من عم إلى الضحى هكذا قال أهل العلم والذي

=

=

ينبغي للإنسان أن يفعل هكذا لأن من الحكمة في ذلك أن هذا المفصل إذا ورد على أسماع الناس حفظوه وسهل عليهم حفظه ولم أعلم أن أحدًا من أهل العلم قال إنه ينبغي أن يقرأ من أول القرآن إلى آخره متسلسلًا ليسمع الناس جميع القرآن ولا يمكن أيضًا أن يسمع الناس جميع القرآن لأنه سيبقى مدة إلى أن ينتهي إلى آخر القرآن وسيتغير الناس يذهبون ويجيئون ولا يسمعون كل القرآن وإذا لم يكن هذا من السنة والعلماء ذكروا أن السنة القراءة في المفصل فالأولى للإنسان أن يتبع ما كان عليه العلماء والفائدة التي أشرنا إليها من أن العامة إذا تكررت عليهم سور المفصل حفظوها لا تدرك بما إذا قرأ الإنسان القرآن من أول القرآن إلى آخره فالأولى العدول عن هذا وأن يقرأ كما يقرأ الناس.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل لقد أنزل الله القرآن على نبينا محمد ﷺ باللغة العربية ولكن علمت أن لهذا القرآن عدة قراءات فما هي أفضل هذه القراءات ثم ما حكم القراءة في المصحف بدون أن يمد الكلمة التي فوقها مد أو يغن أو يقلقل ما ينبغي قلقلته أفيدونا بذلك بارك الله فيكم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الأمر كما ذكر السائل وهو أن هذا القرآن الكريم نزل باللغة العربية كما قال الله تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وقال تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) ولا شك أيضًا أن في القرآن قراءات متعددة والقراءات المشهورة هي السبع والسنة لمن كان عالمًا بها أن يقرأ بهذه مرة وبهذه مرة لأن القراءات السبع كلها متواترة ثابتة عن النبي ﷺ وإذا كانت كلها ثابتة عن النبي ﷺ كان المشروع أن يقرأ بهذه تارة وبهذه تارة كما نقول في العبادات الواردة على وجوه متنوعة إنه ينبغي أن يفعلها على كل وجه وردت فيفعل هذا الوجه مرة وهذا الوجه مرة ليكون قد أتى بالسنة كلها ولكن هذا لمن كان عالمًا بالقراءات لا لمن

=

=

كان متخرصًا يظن أن في هذه الآية قراءة وليس فيها فإن هذا لا يجوز بل من لم يكن عالمًا بالقراءات فليقتصر على ما كان في مصاحفه التي بين يديه وقوله هل يجوز لمن قرأ في المصحف أن يدع المد أو الغنة أو القلقلة أو ما أشبه ذلك فالصواب في هذه المسألة عندي أنه يجوز له ذلك وأن القراءة بالتجويد على حسب القواعد المعروفة إنما هي على سبيل الاستحباب والأكمل وأما الواجب فإنه إقامة الحروف فقط بحيث لا يسقط حرفًا أو يزيد حرفًا وأما أوصاف الحروف من مدٍ وغنة وقلقلة وما أشبه ذلك فإنه من باب الاستحباب وليس من باب الوجوب على ما أراه في هذه المسألة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة ما معنى أن نقول هذه التلاوة برواية حفص عن عاصم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: القراءات المعروفة سبع ولها رواة مخصوصون وكل قراءة تختص براوٍ فإذا قيل هذه قراءة فلان عن فلان فيعني أن القراءات الأخرى بخلافها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة هل كل آية موجهة للمؤمنين مثل قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) هل الإشارة هنا تمثل الذكر والأنثى أم الذكر فقط وهل المرأة الصالحة المتمسكة بشرع الله تكون إن شاء الله ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما جاء في الحديث؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أقول ليُعلم أن الأصل في خطابات القرآن الكريم أو السنة النبوية عمومها للرجال والنساء فما ثبت في حق الرجال ثبت في حق النساء وما ثبت في حق النساء ثبت في حق الرجال إلا بدليل وأكثر خطابات القرآن والسنة موجهة إلى الرجال الذكور وإنما كانت كذلك لأن الرجل أرجح عقلًا من المرأة

=

=

وأكبر تحملًا للمسؤولية وأقوى في تنفيذ أوامر الله ورسوله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) فلهذا تجد خطابات القرآن الكريم والسنة النبوية أكثرها موجه للرجال لكن أحيانًا يوجه للنساء أو يتحدث بها عن النساء لأنه الغالب فيهن مثل قوله تعالى (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) فإنه أضاف ذلك إلى النفاثات وهن النساء لأن ذلك الأكثر فيهن وإن كان يحتمل أن المعنى ومن شر النفوس النفاثات في العقد ولكن المشهور أن النفاثات هن الساحرات كذلك أيضًا قول الله تعالى (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ) فذكر المحصنات ومعلومٌ أن رمي الرجال مثلهم فالحكم فيه واحد لكن أضاف ذلك إلى النساء لأن الغالب أن النساء هن اللاتي يقدحن والخلاصة أن ما ثبت في حق الرجال ثبت في حق النساء وأن ما ثبت في حق النساء ثبت في حق الرجال إلا بدليل هذه هي الخلاصة وعليه فالخطابات الموجهة إلى الرجال في الكتاب والسنة تشمل الإناث مثل قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) كما جاء في السؤال نقول والمؤمنات أيضًا ومثل قول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) يدخل فيها النساء ومثل قوله ﷺ (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمامٌ عادل وشابٌ نشأ في طاعة الله ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه) هذا يشمل المرأة إذا اتصفت بما تتصف به من هذه الصفات فمثلًا (إمامٌ عادل) لا يمكن أن تتصف به المرأة لأن المرأة لا يمكن أبدًا أن تتولى ولاية عامة تشمل الرجال والنساء صحيح أنها يمكن أن تتولى ولاية عامة بالنسبة لقسم النساء

=

=

كمديرة المدرسة وما أشبه ذلك أما إمام فلا يمكن أن تكون إمامًا ولا يمكن أن تكون رئيسة ولا يمكن أن تكون وزيرة في حكم الشرع وذلك لأن المرأة ليست كالرجل في القوة والحزم والفكر (وشابٌ نشأ في طاعة الله) هذا يمكن للمرأة أن تكون كذلك أن تكون شابة نشأت في طاعة الله (ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد) هذا لا يمكن بالنسبة للمرأة لأن المرأة مسجدها بيتها لكن إذا كان قلبها معلقًا بالصلوات كلما صلت فريضة تشوفت إلى فريضة أخرى فنرجو أن تكون مثل الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) هذا يمكن أن تتصف به المرأة (ورجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله) هذا يمكن أيضًا أن تتصف به المرأة وقد لا تتصف به تتصف به المرأة بحيث إذا دعاها رجل ذو منصبٍ وجمال قالت إني أخاف الله ويمكن أن لا تكون كذلك لأن قوة الطلب في الرجال أكثر من قوة الطلب في النساء فإذا كان الرجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله فهو أعظم من قول المرأة في رجلٍ طلبها ذي منصبٍ وجمال قالت إني أخاف الله يعني أنا أتردد أن تلحق بهذا في هذه الخصلة أو لا (ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) هذا أيضًا يدخل فيه النساء لأنه قد يقع منهن (ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه) هذا يدخل فيه النساء أيضًا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة هل الخطابات التي وردت في آيات القرآن تشمل النساء والرجال أم هي للرجال فقط؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هي للرجال والنساء فإذا ورد خطاب باسم النساء فهو للرجال وإذا ورد للرجال فهو للنساء إلا ما قام الدليل على أنه خاص بأحد الجنسين فيؤخذ بالدليل.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل الحوار في القرآن الكريم الذي يكون

=

=

الطرف الثاني فيه إنسانًا رده في الحوار لفظًا ومعنى من عنده أم المعنى منه واللفظ من الله سبحانه وتعالى؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الذي يظهر لي أن ما يحكيه الله عَزَّ وَجَلَّ عمن سبق من الأمم إنما يحيكه سبحانه بالمعنى واللفظ من الله سبحانه وتعالى ذلك لأن هذا القرآن بلسان عربي مبين ومن المعلوم أن من يحكي الله عنهم أقوالهم ممن سبق ليسوا من أهل اللغة العربية فلغتهم لغة أخرى ومع ذلك يحكي الله قولهم باللغة العربية وهذا دليل على أن الله تعالى يحكي ما يقولون بمعنى ما يقولون لا باللفظ الذي يقولونه وهذا ظاهر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة سور القرآن الكريم لم تكتب بالترتيب الذي نزلت به فما هي الأسباب؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: هذا صادر عن اجتهاد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لا أعرف لذلك سببًا إلا أنه صدر عن اجتهاد منهم فإما أن يكون بتوقيف من الرسول عليه الصلاة والسلام، وإما أن يكون عن اجتهاد مجرد لأن سور القرآن ترتيب بعضها توقيفي من الشارع من النبي عليه الصلاة والسلام كما كان يقرأ مثلًا سورة سبح والغاشية في صلاة الجمعة، وكما كان يقرأ بسورة الجمعة والمنافقون فمثل هذا رتبه النبي عليه الصلاة والسلام، وفيه أشياء اجتهادية من الصحابة رضى الله عنهم في ترتيب السور ومع ذلك لا نستطيع أن نجزم بالحكمة، إنما يبدو لنا أن السور المتجانسة في الطول والقصر والموضوع تجدها مرتبة بعضها مع بعض، والسور الأخرى المخالفة تجدها مرتبة بعضها مع بعض أيضًا، فمثلًا السبع الطوال، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، تجدها متسلسلة، وتجد السور القصيرة وهو ما يسمى بالمفصل تجدها أيضًا متسلسلة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: المستمع علي نجمي جازان يقول ما

=

=

حكم تقبيل القرآن قبل وبعد القراءة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ تعالى: تقبيل القرآن إذا وقع من شخص فإنما يقع على وجه التعظيم لكتاب الله ﷻ ولا شك أن تعظيم كتاب الله من أفضل القربات لأن كتاب الله ﷻ هو كلامه فقد تكلّم الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن بكلام سمعه منه جبريل فنزل به إلى رسول الله ﷺ قال الله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ وقال الله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالقرآن كلام الله سبحانه وتعالى حقيقة تكلم به وسمعه جبريل ونزل به على قلب النبي ﷺ فتعظيم هذا القرآن العظيم من تعظيم الله ﷻ ولكن تعظيم الله وتعظيم رسوله وتعظيم كتابه إنما هو بحسن اتباع الرسول ﷺ لا بأن يتبع الإنسان هواه فهذه القاعدة ينبغي للإنسان أن يعتبرها وهي أن تعظيم الله وتعظيم رسوله وتعظيم كتابه إنما هو بحسن الاتباع لرسول الله ﷺ وكلما كان الإنسان أتبع لرسول الله كان أدل على ما في قلبه من تعظيم الله ومن محبة الله قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن ابتدع في دين الله ما ليس منه فإنه ينقص من محبته لله وتعظيمه لله بقدر ما حصل من هذه البدعة من المخالفة وبناء على هذه القاعدة نقول تقبيل المصحف عند ابتداء التلاوة وعند انتهائها أو عند الابتداء فقط أو عند الانتهاء فقط أو في غير هذه المناسبة ليس مشروعًا بل هو بدعة فلم يكن معروفًا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أن تقبل الرقاع التي كتب فيها شيء من القرآن وليس معروفًا في عهد الصحابة بعد جمع القرآن في المصحف أن يقبلوا هذا المصحف ولا شك أن خير الهدي هدي محمد ﷺ وأن من ابتدع بدعة ولو استحسنها فهي قبيحة ولو ظن أنها هدى فهي ضلالة ولو ظن

=

=

أن فيها ثوابًا فهي في النار لقول النبي عليه الصلاة والسلام (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وعلى هذا فإني أنصح أخي هذا السائل من أن يقوم بتقبيل المصحف لا في ابتداء القراءة ولا في انتهائها ولا في مناسبات أخرى ويكفيه تعظيمًا للمصحف أن يؤمن بما أخبر الله فيه وأن يعمل بما أمر الله به فيه وأن ينتهي عما نهى الله عنه فيه هذا هو التعظيم الحقيقي الذي يدل على صدق قصد الإنسان وإخلاصه لله ﷻ وعلى صحة شهادته لرسول الله ﷺ بالرسالة لأن من تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ألا تعبد الله إلا بما شرعه هذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة ماحكم تقبيل المصحف؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: تقبيل المصحف بدعة لأن هذا المقبل إنما أراد التقرب إلى الله ﷻ بتقبيله ومعلوم أنه لا يتقرب إلى الله إلا بما شرعه الله ﷻ ولم يشرع الله تعالى تقبيل ما كتب فيه كلامه وفي عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كتب القرآن لكنه لم يجمع إنما كتب فيه آيات مكتوبة ومع ذلك لم يكن يقبلها صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم يكن الصحابة يقبلونها فهي بدعة وينهى عنها ثم إن بعض الناس أراه يقبله ويضع جبهته عليه كأنما يسجد عليه وهذا أيضا منكر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل من شروط قراءة القرآن التوجه إلى القبلة أم لا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: ليس من شروط قراءة القرآن التوجه إلى القبلة وليس من شروط قراءة القرآن أن يكون الإنسان على طهر إلا إذا كان يقرأ بالمصحف فإنه لا يمس المصحف إلا وهو طاهر فإن أراد أن يمس المصحف وهو ليس بطاهر فليجعل بينه وبين المصحف حائلًا من منديلٍ أو غيره وليقرأ لكن الجنب لا يحل له أن يقرأ القرآن حتى يغتسل.

=

=

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بعض الناس يصلون الفرائض ويصومون رمضان ولا يقرؤون القرآن إلا في رمضان ويحتجون لذلك بأنهم ينشغلون طوال الأيام من السنة ما رأيكم بهذا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: رأيي في هذا أنه لا حرج عليه في ذلك لأنه وإن فعلوا هذا لم يهجروا القرآن فهم يقرؤون كتاب الله في صلواتهم يقرؤونه أيضا في أورادهم اليومية يسمعونه من غيرهم فلا حرج عليهم في هذا لكني أخبرهم بأنهم حرموا خيرا كثيرا لأن القرآن الكريم إذا تلاه التالي فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها فليحرصوا على تلاوة القرآن وإن حصل أن يجعلوا لأنفسهم شيئا معينا يوميا يحافظون عليه لئلا تضيع عليهم الأوقات فهذا خير.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل يجوز لقاريء القرآن أن يتحدث مع من سأله أثناء القراءة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: نعم لا حرج على الإنسان أن يتحدث إلى الشخص إذا حدثه وهو يقرأ القرآن لكن ينبغي للغير أن لا يشغل الإنسان عن قراءته القرآن لأن بعض الناس إذا حدث وهو يقرأ القرآن ضاع موقفه من السورة لا سيما إذا كان يقرأ عن ظهر قلب فيقطع المحدث قراءته عليه هذا بالنسبة لتحديث القارئ أما هو نفسه إذا أراد أن يكلم أحدا فلا حرج عليه أيضًا لكن ينبغي أن لا يقطع قراءته لمحادثة الناس إلا أن يكون هناك فائدة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل توجد في بعض الأشرطة تلاوة لبعض القراء بحيث يكمل القارئ الثاني ما بدأه الأول دون استعاذة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الاستعاذة تكون في أول التلاوة فإذا استعاذ أول القارئين كفى عن المستمعين الآخرين لكن أرى أن الأفضل أن يستعيذ كل منهم عند أول قراءة له فيستعيذ الأول فإذا فرغ استعاذ الثاني فإذا فرغ استعاذ الثالث فإذا عادت إلى

=

=

الأول قرأ بدون استعاذة هذا الذي أراه في هذه المسألة أن يستعيذ كل منهم عند ابتداء أول القراءة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائل عثمان علي العميرين من الثانوية التجارية بالرياض يقول هل يثاب الإنسان الذي يقرأ القرآن ولو لم يفهم معانيه؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: القرآن الكريم مبارك كما قال الله تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) فالإنسان مأجور على قراءته سواء فهم معناه أم لم يفهم ولكن لا ينبغي للمؤمن أن يقرأ قرآنًا مكلفًا بالعمل به بدون أن يفهم معناه فالإنسان لو أراد أن يتعلم الطب مثلًا ودرس كتب الطب فإنه لا يمكن أن يستفيد منها حتى يعرف معناها وتشرح له بل هو يحرص كل الحرص على أن يفهم معناها من أجل أن يطبقها فما بالك بكتاب الله سبحانه وتعالى الذي هو شفاء لما في الصدور وموعظة للناس أن يقرأه الإنسان بدون تدبر وبدون فهم لمعناه ولهذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا يتجاوزن عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا فالإنسان مثاب ومأجور على قراءة القرآن سواء فهم معناه أم لم يفهم ولكن ينبغي له أن يحرص كل الحرص على فهم معناه وأن يتلقى هذا المعنى من العلماء الموثوقين في علمهم وأمانتهم فإن لم يتيسر له عالم يفهمه المعنى فليرجع إلى كتب التفسير الموثوقة مثل تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير وغيرهما من التفاسير التي تعتني بالتفسير الأثري المروي عن الصحابة والتابعين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل ماحكم قراءة القرآن من المصحف والشخص مستلقٍ أو متكئ؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا بأس بها فإن النبي ﷺ (كان يقرأ القرآن وهو متكئ في حجر عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي حائض) فإذا قرأ الإنسان القرآن من المصحف أو عن ظهر قلب

=

=

وهو متكيء أو مضطجع فلا حرج عليه في هذا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائل محمد عبد الغني محمد يقول ما حكم قراءة القرآن بالمصحف وأنا نائم أي راقد؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا حرج في ذلك فقد (كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن وهو متكئ في حَجْرِ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي حائض) فكذلك الإنسان إذا اضطجع في فراشه وأخذ المصحف وصار يتلو القرآن فلا حرج عليه في ذلك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل تصح الاستعاذة عند آيات العذاب وسؤال الله عَزَّ وَجَلَّ عند آيات الرحمة والفضل في الصلاة المكتوبة؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نعم يجوز هذا يجوز للإنسان إذا مر بآية رحمة أو آية وعيد أن يسأل عند آية الرحمة ويستعيذ عند آية الوعيد في الفريضة والنافلة لكنها في النافلة السنة لا سيما في صلاة الليل لقول حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران لا يمر بأية رحمة إلا سأل ولا بأية عذاب إلا تعوذ ولا بأية تسبيح إلا سبح) لكن هذا في صلاة الليل ففي صلاة الليل بل في جميع النوافل يسن أن يسبح إذا مر بآيات التسبيح ويسأل إذا مر بآيات رحمة ويتعوذ إذا مر بآيات وعيد أما في الفرائض فجائز لكن تركه أفضل لأن الواصفين لصلاة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يكونوا يقولون إنه يسبح عند آيات التسبيح ويتعوذ عند آيات الوعيد ويسأل عند آيات الرحمة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز لكل من يقرأ في المصحف الشريف إذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من النار أو العذاب وإذا مر بآية رحمة أن يسأل الله من فضله وهكذا في باقي الآيات؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الذي يظهر من السؤال أن هذا القارئ يقرأ في غير صلاة وعلى هذا فنقول نعم يجوز له إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله من فضله وإذا مر بآية

=

=

وعيد أن يتعوذ بالله من ذلك الوعيد وإذا مر بآية فيها عبرة وعظة يقول سبحان الله وما أشبه ذلك لأن هذا مما يعين الإنسان على تدبر القرآن والتفكر في معانيه وأما إذا كان الإنسان في صلاة فإن كان في نفل فإنه يسن أن يسأل عند آية الرحمة ويتعوذ عند آية الوعيد ولاسيما في صلاة الليل لأنه ثبت ذلك عن النبي ﷺ كما في حديث حذيفة قال (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية وعيد إلا تعوذ) وأما في الفريضة فإن الظاهر من حال النبي ﷺ أنه لا يفعل ذلك في الفريضة لأن الواصفين لصلاته ﷺ لم يذكروا أنه كان يتعوذ عند آية الوعيد أو يسأل عند آية الرحمة ومع هذا لو فعل فليس عليه إثم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: بعض الناس يقرؤون القرآن في المسجد ويقولون بين السكتة والسكتة بين الآيات الله الله أو الله يفتح عليك يا عمنا أو مثل هذه العبارات ما حكم ذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: حكم هذا أنه من البدع المنكرة لأن تلاوة القرآن عبادة من أفضل العبادات الحرف فيها بحسنة والحسنة بعشر أمثالها وليست لعبًا حتى يقال كلما فرغ من آية وكان صوته جميلًا الله الله يعني يتعجب فهذا من البدع التي أحدثها من أحدثها من الناس نعم إذا مر الإنسان بآية وعيد فليتعوذ وإذا مر بآية وعد فليسأل وإذا مر بآية تسبيح فليسبح وإذا مر بآية تعجيب فليتعجب ويقول الله أكبر وأما الله الله أو مثلًا يا سلام يا سلام فهذا من البدع.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل يوجد في القرآن الكريم عدة مواضع للسجدة فهل في كل موضع من هذه المواضع يتم فيها السجود وهل يكون السجود والقارئ على غير وضوء؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: نعم السجدات التي في القرآن كلها موضع سجود يسجد فيها الإنسان إذا قرأها سواء كان في صلاة أم في غير صلاة إلا أنه لا يسجد إلا على

=

=

وضوء احتياطا وسجود التلاوة ليس فرضا وإنما هو سنة كما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أنه قرأ آية السجدة وهو يخطب الناس يوم الجمعة فنزل فسجد ثم قرأها في الجمعة الأخرى فلم يسجد ثم قال إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء) لكن لا ينبغي للإنسان تركها إذا كان على وضوء.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل أيهما أفضل تلاوة القرآن نظرًا في رمضان أو محاولة ترديد سور منه لأجل الحفظ؟

فأجاب رحمه الله تعالى: الأولى أن يقرأ القرآن كله نظرًا، وأن يحافظ على ما كان حفظه عن ظهر قلب لئلا ينساه، وذلك لأن القرآن كله قراءته مفيدة للإنسان لأنه يمر به كل كلام الله عز وجل وينتفع بما في آياته من الأحكام والأخبار، وهذا يفوته إذا اقتصر على سور معينة كان حفظها عن ظهر قلب، وإذا لازم السور المعينة التي كان يحفظها عن ظهر قلب استفاد منها ليرتبط بها، ولكن هذا لا يفوته إذا حرص على هذه السور التي حفظها في وقت آخر، لأن السور المحفوظة يمكن للإنسان أن يقرأها سواء في بيته أو في المسجد أو في أي مكان، فالأولى أن يحافظ على قراءة القرآن كله، ثم يزيد بعناية ما كان يحفظه عن ظهر قلب.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل القراءة من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب؟

فأجاب رحمه الله تعالى: أما من جهة قراءة القرآن في غير الصلاة فالقراءة من المصحف أولى لأنه أقرب إلى الضبط وإلى الحفظ إلا إذا كانت قراءته عن ظهر قلب أحضر إلى القلب وأخشع له فليقرأ عن ظهر قلب وأما في الصلاة فإن الأفضل أن يقرأ عن ظهر قلب وذلك لأنه إذا قرأ من المصحف فإنه يحصل له عمل متكرر في حمل المصحف وإلقائه وفي تقليب الورق وفي النظر إلى حروفه

=

=

وكذلك يفوته وضع اليد اليمنى على اليسرى في حال القيام وربما يفوته التجافي في الركوع والسجود إذا جعل المصحف في إبطه ومن ثم رجحنا قراءة المصلى عن ظهر قلب على قراءته من المصحف وإذا كنا نرجح هذا للإمام وهو أن الأفضل أن يقرأ عن ظهر قلب لئلا يحصل له ما ذكرناه فإننا كذلك نقول بالنسبة لبعض المأمومين الذين نشاهدهم خلف الإمام يحملون المصحف يتابعون قراءة الإمام فإن هذا أمر لا ينبغي لما فيه من الأمور التي ذكرناها آنفًا ولأنه لا حاجة بهم إلى أن يتابعوا الإمام نعم لو فرض أن الإمام ليس بجيد الحفظ وقال لأحد من المأمومين صلِّ ورائي وتابعني في المصحف إذا أخطأت ورد علي فهذا لا بأس به للحاجة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل الأفضل في تلاوة القرآن في المسجد أن تكون جهرًا أم سرًا؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: في المسجد الأفضل أن يقرأ القران فيه سرًا إلا إذا لم يكن فيه أحدٌ يشوش عليه أو كان الحاضرون يرغبون أن يقرأ جهرًا لكونهم لا يعرفون القراءة بأنفسهم ويحبون أن يسمعوها من غيرهم فهذا لا بأس به لكن بشرط أن لا يكون أحد من أهل المسجد منشغلًا بغير الاستماع إليه فإن ذلك لا يجوز أي لا يجوز للرجل أن يجهر بالقرآن في المسجد وحوله من يشوش عليه لأن النبي ﷺ خرج إلى أصحابه وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال ﷺ (كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض في القران أو قال في القراءة) وهذا حديث صحيح كما قاله ابن عبد البر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: هل يجوز لي أن أقرأ القرآن بدون النطق بالحروف ولكن بالمتابعة بالنظر والقلب من المصحف طبعا فهل يحصل الأجر بذلك؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا ليس في ذلك أجر يعني لا يحصل الإنسان أجر القراءة إلا

=

=

إذا نطق بالقرآن ولا نطق إلا بتحريك الشفتين واللسان وأما من جعل ينظر إلى الأسطر والحروف بعينه ويتابع بقلبه فإن هذا ليس بقارئ ولا ينبغي للإنسان أن يُعَوِّد نفسه هذا لأنه إذا اعتاد ذلك صارت قراءته كلها على هذا الوجه كما هو مشاهد من بعض الناس تجده يقلب الصفحة ويومئ هكذا برأسه يمينا وشمالا ليتابع الأسطر وإذا به قد قلب الصفحة الثانية في مدة يسيرة تعلم علم اليقين أنه لم يقرأ قراءة نطق والخلاصة أن مَنْ لم يقرأ قراءةً ينطق بها فإنه لا يُثاب ثواب القارئ هذا واحد، ثانيا ننصح إخواننا عن هذه الطريق أعني أن يقرؤوا بأعينهم وقلوبهم فقط لأنهم إذا اعتادوا ذلك حرموا خيرا كثيرا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: السائلة ص م ع من القصيم تقول هل الدعاء بعد قراءة القرآن مستحب وهل رفع الأيدي بعد ذلك جائز أم لا مأجورين؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لم يرد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه إذا قرأ القران وانتهى من قراءته دعا أو أتى بذكر آخر وما لم يرد عن النبي ﷺ فعله مع قيام سببه فإنه لا يكون من السنة بل يكون تركه هو السنة وعلى هذا فإذا انتهى الإنسان من قراءته أقفل المصحف إن كان يقرأ من مصحف وانتهت القراءة ولا دعاء بعدها وكذلك إذا كان يقرأ عن ظهر قلب فإن القراءة تنتهي ولا ذكر بعد ذلك ولا دعاء لكن لو قال الإنسان اللهم تقبل مني أو كلمة نحو ذلك فارجو ألا يكون في ذلك بأس.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل الجلوس في المنزل بعد صلاة الفجر لقراءة القرآن والذكر حتى تطلع الشمس له نفس الأجر في المسجد ثم يقوم هذا الشخص ويصلى ركعتين؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: كأن السائل يشير لحديث ورد في ذلك (من صلى الفجر في جماعة ثم جلس يذكر الله ﷻ حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين يعني بعد

=

=

ارتفاع الشمس قيد رمح فإنه يكون كأجر حجة وعمرة) أو كما جاء في الحديث لكن هذا الحديث قد اختلف العلماء في صحته والأخذ به إلا أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه (كان إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس حسنة) جاء ذلك في صحيح مسلم وأما ترتيب الأجر على ذلك فهذا إن صح به الحديث أخذنا به وفضل الله واسع وإن لم يصح فقد كفيناه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة هل يصح للمرأة قراءة القرآن قراءة صامتة أم الواجب عليها الترتيل بالقراءة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: الترتيل في القراءة ليس بواجبٍ لا على المرأة ولا على الرجل لكنه من آداب القراءة ومن حسن القراءة أن يرتل الإنسان ويتدبر المعنى ويتفهمه وله أن يقرأ قراءةً سريعة بشرط أن لا يكون فيها حذفٌ للحروف أو بعضها وأما الجهر بالقراءة والإسرار بها فهذا على حسب حال الإنسان إن كان إذا جهر يكون أنشط وأخشع فليجهر ما لم يؤذِ أحدًا وإن كان إذا أسر صار أخشع فليكن مسرًا وإن تساوى الأمران فهو مخير هذا بالنسبة للرجل والمرأة لكن بشرط أن لا يؤذي أحدًا كما لو كان بالمسجد وجهر جهرًا يشوش به على الناس في صلاتهم وقراءتهم فلا يجهر وكذلك أيضًا إذا كانت المرأة حولها رجال فإنه من الأفضل أن تسر لأنه لا ينبغي للمرأة أن تجهر صوتها عند الرجال إلا عند الحاجة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل يجوز للمرأة أن تقرأ القرآن وشعرها مكشوف؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: يجوز للمرأة أن تقرأ القرآن وشعرها مكشوف وذراعاها مكشوفتان وكذلك القدمان لأنه لا يشترط لقراءة القرآن ما يشترط في الصلاة من السترة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل السنترال يكون فيه قرآن

=

=

عند الانتظار فإذا قام بتحويله إلى الشخص المطلوب ورفعت السماعة انقطعت الآية في موقف غير مناسب ما حكم ذلك فضيلة الشيخ؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: لا أرى أن يجعل القرآن الكريم في السنترال من أجل أن يحول المتكلم إلى الرقم الخاص لمن طلبه لأن في هذا نوع ابتذال للقرآن حيث كان كما يقول النحويون حرف جاء لمعنى ولأنه قد يسمعه من لا يحب استماعه من منافق أو كافر ولأنه كما قال السائل قد ينقطع عند كلمة لا يحسن الوقوف عليها فالذي أرى وأنصح به إخواننا المسلمين أن يجعلوا الانتظار حكمة من الحكم التي تقال إما من كلام التابعين أو من كلام من بعدهم أو من كلام بعض الشعراء من أمثال المتنبي فقد قال بيتًا قد ينطبق على حالنا التي نتكلم عنها الآن قال

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ***مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأما أن يجعل كلام الله عَزَّ وَجَلَّ حرفًا جاء لمعنى فقط لأجل الانتظار وربما يكون كافرًا يكره القرآن وربما يتكلم بكلام بذيء فالحاصل أن من نصيحتي لإخواني أن يعدلوا عن هذا وأن يجعلوا بدله شيئًا من الحكم من النظم أو من النثر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: تقول السائلة نحن في المدرسة وتلقى المحاضرات والاحتفالات ودائمًا نستفتح بالقرآن الكريم فقد يطلبو مني أنا أن افتتح لهم بالقرآن علمًا بأن القراءة تكون بمكبر الصوت ويوجد في الاحتفال أو المحاضرة عدد من الرجال فهل في هذا إثم وإذا قرأنا القرآن هل صوت المرأة عورة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: هذا السؤال يتضمن عدة أسئلة أولًا افتتاح المحاضرات والندوات بالقرآن الكريم هل هذا من الأمور المشروعة لا أعلم في هذا سنة عن رسول الله ﷺ والنبي عليه الصلاة والسلام كان يجمع أصحابه كثيرًا حين يريد

=

=

الغزو أو للأمور المهمة التي تهم المسلمين ولا أعلم أنه ﷺ كان يفتتح هذه الاجتماعات بشيء من القرآن لكن لو كانت المحاضرة أو الندوة تشتمل على موضوع معين وأراد أحد أن يقرأ شيئا من الآيات التي تتعلق بهذا الموضوع ليكون بها افتتاح ذلك الموضوع فإن هذا لا بأس به وأما اتخاذ افتتاح المحاضرات أو الندوات بآيات من القرآن دائمًا كأنها سنة مشروعة فهذا لا ينبغي

المسألة الثانية في هذا السؤال كون المرأة تقرأ القرآن بمكبر الصوت فيسمعها الناس من قريب ومن بعيد حيث ينتهي مدى صوت هذا المكبر هذا أمر لا ينبغي لأن المرأة مأمورة بالتستر والاختفاء عن الرجال وكونها تعلن صوتها بمكبر الصوت ينافي ذلك.

وأما المسألة الثالثة فهي هل صوت المرأة عورة والجواب أن صوت المرأة ليس عورة فإن النساء كنّ يأتين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يسألنه بحضرة الرجال ولم ينكر ﷺ عليهن ذلك ولو كان صوتها عورة لأنكره النبي عليه الصلاة والسلام فصوت المرأة ليس بعورة لكن لا يجوز للرجل أن يتلذذ به سواء كان ذلك التلذذ تلذذ شهوة جنسية أو تلذذ استمتاع وراحة نفس وإنما يستمع إليها بقدر ما تدعو الحاجة إليه فقط إذا كانت أجنبية منه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل هل هناك جلسة خاصة عند تلاوة القرآن؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لا أعلم في هذا جلسة معينة بل كان النبي ﷺ يقرأ القرآن في حجر عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا متكئًا وهي حائض فالقرآن يقرأ على كل حال سواء كان الإنسان قاعدًا أو مضطجعًا أو واقفًا إلا أنه ينهى عن قراءة القرآن في حال الركوع أو السجود في الصلاة لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال (ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فأكثروا

=

=

فيه من الدعاء).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: يقول السائل بالنسبة للسرعة في قراءة القرآن الكريم هل هي محرمة؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: السرعة نوعان سرعة يلزم منها إسقاط بعض الحروف أو الحركات فهذه لا تجوز وسرعة أخرى مع المحافظة على الحروف والكلمات والإعراب فهذه جائزة. ا.ه

مسألة: ما هو المفصل من القران الكريم ؟ ومن سماه هكذا ؟ ولماذا سمي به ؟.

أولا: المفصل هو سور القرآن القصيرة التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سمي مفصلا لكثرة فواصله.

وقد اختلف في تحديده هل يبدأ من سورة ق أو من الحجرات، واختلف كذلك في طواله وأوساطه وقصاره على أقوال:

جاء في "الموسوعة الفقهية" (٣٣/ ٤٨): " اختلفوا في المفصل: فذهب الحنفية إلى أن طوال المفصل من (الحجرات) إلى (البروج) ، والأوساط منها إلى (لم يكن) ، والقصار منها إلى آخر القرآن.

وعند المالكية: طوال المفصل من (الحجرات) إلى (النازعات) ، وأوساطه من (عبس) إلى (الضحى) ، وقصاره من (الضحى) إلى آخر القرآن. وقال الشافعية: طوال المفصل كالحجرات واقتربت والرحمن ، وأوساطه كالشمس وضحاها والليل إذا يغشى ، وقصاره كالعصر وقل هو الله أحد.

وذهب الحنابلة إلى أن أول المفصل سورة ق ؛ لحديث أوس بن حذيفة قال: " سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ قالوا: ثلاث وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده " [رواه أبو داود (١٣٩٥) وابن ماجه (١٣٤٥) وحسنه إسناده ابن كثير في فضائل القرآن

=

=

(٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود]. قالوا: وهذا يقتضي أن أول المفصل السورة التاسعة والأربعون من أول البقرة لا من الفاتحة. وآخر طواله سورة عم ، وأوساطه منها للضحى ، وقصاره منها لآخر القرآن " انتهى.

وينظر: "فتح الباري" (٢/ ٢٤٩)، الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٠).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " أول المفصل من ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة على الصحيح " انتهى، باختصار يسير من "فتح الباري" (٢/ ٢٥٩)، وينظر أيضا: "فتح الباري" (٩/ ٤٣).

ثانيا: وأما أول تسمية ذلك بالمفصل: فقد كان هذا الاسم معلوما شائعا بين الصحابة، وردت به أحاديث كثيرة منوعة عن عدد من الصحابة.

جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة ؟

فقال: هذا كهذ الشعر ؟! لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن ؛ فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين في كل ركعة.

رواه البخاري (٧٧٥) ومسلم (٨٢٢).

والأحاديث التي ذكر فيها التسمية بالمفصل كثيرة جدا، ومتنوعة، في الصحيحين وغيرهما، مما يرجح أن التسمية بذلك توقيفية عن النبي ﷺ

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكأن معاذا تناول منه. فبلغ النبي ﷺ فقال: (فتان، فتان، فتان) ثلاث مرار، وأمره بسورتين من أوسط المفصل. قال عمرو راوي الحديث : لا أحفظهما.

رواه البخاري (٧٠١) ومسلم (٤٦٥). والله أعلم.

مسألة: سئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " في بعض السيارات تكون سماعات المسجل محاذية للأقدام، وقد توضع الأقدام والحذاء على السماعة.

=

=

والسؤال هو: عندما يشغل القرآن فهل يكون في هذا امتهان لكتاب الله تعالى؟ وهل يقاس هذا الفعل على فتواكم على من يمد أقدامه أمام كتاب الله تعالى، نرجو التوجيه والله يحفظكم ؟

فأجاب: إذا كانت السماعات كما ذكر تحت الأقدام، أو عند حذاء الأقدام، فإنه لا يفتحه على القرآن الكريم ؛ لأن كون القرآن الكريم يسمع من تحت قدم الإنسان لا شك أن فيه إهانة للقرآن، وإذا كان الإنسان لا بد أن يستمع إلى القرآن فليرفع السماعة عن محاذاة الأقدام " انتهى من "لقاء الباب المفتوح" (٥٧/ ١٣).

مسألة: هل يجوز التخاطب مع الغير أثناء قراءة القرآن ؟.

"لا نعلم حرجا في ذلك، فلا نعلم حرجا في أن يتكلم المسلم وهو يقرأ القرآن، لكن كونه يستمر في قراءته ولا ينشغل بالكلام أولى، حتى يحضر بقلبه للتدبر والتعقل، فهذا أفضل إذا لم تدع الحاجة إلى الكلام.

أما إذا دعت الحاجة إلى الكلام فلا حرج إن شاء الله أن يتكلم ثم يرجع إلى قراءته، مثل أن يرد السلام على من سلم عليه، مثل أن يجيب المؤذن إذا سمع الأذان وينصت له ؛ لأن هذه سنن ينبغي للمؤمن أن يأخذ بها ولا يتساهل فيها، فإذا سمع الأذان أنصت للأذان وأجاب المؤذن ثم عاد إلى قراءته، وهذا هو الأفضل.

كذا إذا سلم عليه إنسان فيرد عليه السلام، أو سمع عاطسا حمد الله يشمته، أو جاءه إنسان يسأله حاجة فيعطيه، فكل هذا لا بأس به.

أما إذا كان كلاما ليس له حاجة فالأولى له تركه حتى يشتغل بالقراءة وحتى يتدبر ويتعقل ؛ لأن هذا هو المطلوب، فالله سبحانه وتعالى يقول: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) ص/ ٢٩، ومعلوم أن الكلام الذي ليس له حاجة يكون فيه شغل للقلب، وفيه أيضا إضعاف للتدبر، فالأولى تركه" انتهى.

=

=

الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ "فتاوى نور على الدرب" (١/ ٣٣٥).

مسألة: يقول الرسول ﷺ، فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة). وسؤالي: هل يكفي أن يأتي الإنسان بالمسجل، ويضع فيه شريطا مسجلا عليه سورة البقرة، ويقوم بتشغيله حتى يقرأ كامل السورة ؟ أو لا بد أن يقرأ الإنسان بنفسه أو من ينوب عنه السورة ؟.

الأظهر- والله أعلم- أنه يحصل بقراءة سورة البقرة كلها من المذياع أو من صاحب البيت ما ذكره النبي ﷺ من فرار الشيطان من ذلك البيت، ولكن لا يلزم من فراره أن لا يعود بعد انتهاء القراءة، كما أنه يفر من سماع الأذان والإقامة ثم يعود حتى يخطر بين المرء وقلبه، ويقول له: اذكر كذا، واذكر كذا.. كما صح بذلك الخبر عن النبي ﷺ، فالمشروع للمؤمن أن يتعوذ بالله من الشيطان دوما، وأن يحذر من مكائده ووساوسه وما يدعو إليه من الإثم، والله ولي التوفيق " انتهى. "مجموع فتاوى ابن باز" (٢٤/ ٤١٣).

مسألة: هل يجوز قراءة القرآن دون فهم معانيه؟.

"نعم، يجوز أن يقرأ المؤمن والمؤمنة القرآن وإن لم يفهم المعنى، لكن يشرع له التدبر والتعقل حتى يفهم، ويراجع كتب التفسير إذا كان له فهم يستطيع به المراجعة، يراجع كتب التفسير وكتب اللغة العربية حتى يستفيد من ذلك، ويسأل أهل العلم عما أشكل عليه، والمقصود أنه يتدبر، لأن الله سبحانه وتعالى قال: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) ص/ ٢٩.

فالمؤمن يتدبر، يعني: يعتني بالقراءة ويفكر في معناها، ويتعقل معناها وبهذا يستفيد، وإن لم يستفد المعنى كاملا فقد يستفيد معاني كثيرة، فيقرأ بتدبر وتعقل، والمرأة كذلك ؛ حتى يستفيد من كلام ربه، وحتى يعرف مراده وحتى يعمل

=

=

بـذلك، والله سـبحانه يقـول: (أفـلا يتـدبرون القـرآن أم علـى قلـوب أقفالهـا) محمد/ ٢٤.

فربنا ﷻ حثنا وحرضنا على التعقل والتدبر بكلامه سبحانه، فإذا قرأ المؤمن أو قرأت المؤمنة كتاب الله فمشروع لهما التدبر والتعقل والعناية بما يقرأ ؛ حتى يستفيد من كلام الله وحتى يعقل كلام الله، وحتى يعمل بما عرف من كلام الله، ويستعين في ذلك بكتب التفسير التي ألفها العلماء مثل تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وتفسير البغوي، وتفسير الشوكاني، وغيرها من التفاسير، ويستفيد من كتب اللغة العربية، وهكذا يسأل أهل العلم المعروفين عنده بالعلم والفضل، يسألهم عما قد يشكل عليه" انتهى. سماحة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ "فتاوى نور على الدرب" (١/ ٣٣٢).

مسألة: هناك بعض النساء يجتمعن لتدارس تفسير القرآن، وعندما ينتهين من قراءة المصحف فإنهن يبدأن بالفاتحة، وبداية سورة البقرة، من أجل تبيين أن القراءة متواصلة، وأن القرآن لا ينتهي، فما رأيكم ؟.

اختلف العلماء في حكم ما يعتاده كثير من القراء عند ختم المصحف من الشروع في ختمة جديدة، وذلك بالرجوع إلى سورة الفاتحة وقراءتها مع الآيات الخمس الأول من سورة البقرة فقط، فكان خلافهم على قولين اثنين:

القول الأول: مشروعية ذلك العمل، واستحبابه. وهو ما ذهب إليه القراء ونص عليه بعض العلماء، واستدل لهذا القول بأدلة، منها:

الدليل الأول: حديث عن عبد الله بن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: أنه كان إذا قرأ: (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد، ثم قرأ من البقرة إلى: (وأولئك هم المفلحون)، ثم دعاء بدعاء الختمة، ثم قام.

رواه الدارمي - كما عزاه إليه السيوطي في " الإتقان " (١/ ٢٩٥) وقال بسند

=

=

حسن -، والحافظ أبو عمرو الداني، والحافظ أبو العلاء الهمذاني - كما نقل عنهما ابن الجزري في " النشر " (٦٨٨-٦٩٤)، والحسن بن علي الجوهري في " فوائد منتقاة " (٢/ ٢٩)، جميعهم من طريق: العباس بن أحمد البرتي، ثنا عبد الوهاب بن فليح المكي، ثنا عبد الملك بن عبد الله بن شعوة، عن خاله وهب بن زمعة بن صالح، عن زمعة بن صالح، عن عبد الله بن كثير، عن درباس مولى ابن عباس وعن مجاهد، عن عبد الله بن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ به.

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: " هذا إسناد ضعيف ؛ وله علتان:

الأولى: أن مداره على زمعة بن صالح، قال الذهبي في " الكاشف ": " ضعفه أحمد، قرنه مسلم بآخر ". وقال الحافظ في "التقريب": " ضعيف، وحديثه عند مسلم مقرون ".

والأخرى: الاضطراب في إسناده عليه على وجهين: الأول: هذا: عن درباس وعن مجاهد ؛ قرنه معه.

الثاني: عن درباس وحده ؛ لم يذكر مجاهدا معه. وقد ساق ابن الجزري في "النشر" (٢/ ٤٢٠ - ٤٢٥) الأسانيد بذلك.

وفي رواية له عن وهب بن زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس عن عبد الله بن عباس... به مرفوعا ؛ لم يذكر في إسناده زمعة.

وقال عقبه: "حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده حسن ؛ إلا أن الحافظ أبا الشيخ الأصبهاني وأبا بكر الزينبي روياه عن وهب عن أبيه زمعة...، وهو الصواب ".

فأقول: هذا التصويب صواب ؛ لأنه عليه أكثر الروايات، وعليه فلا وجه لتحسين إسناده ؛ لأن مداره على - زمعة بن صالح الضعيف - كما تقدم -.

وكيف يكون حسنا وفيه درباس مولى ابن عباس، وهو مجهول - كما قال أبو

=

=

حاتم، وتبعه الذهبي والعسقلاني - ؟! نعم قد قرن به مجاهد في بعض الروايات - كما في رواية الجوهري وغيره -، فإن كان محفوظا ؛ فالعلة واحدة وهي زمعة. والله أعلم " انتهى. " السلسلة الضعيفة " (رقم/ ٦١٣٤)

الدليل الثاني: حديث مرفوع جاء فيه: (قال رجل: يا رسول الله ! أي العمل أحب إلى الله ؟ قال: الحال المرتحل. قال: وما الحال المرتحل ؟ قال: الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل) وقد وي هذا الحديث على وجهين:

١ - مسندا متصلا: من طريق صالح المري، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن ابن عباس به. رواه عن صالح المري على هذا الوجه الهيثم بن الربيع - كما عند الترمذي (رقم/ ٢٩٤٨) -، وعمرو بن عاصم - كما عند البزار (٢/ ٢١٣) -، وعاصم الكلابي، وعمرو بن مرزوق، وزيد بن الحباب في " المستدرك " (١/ ٧٥٧)، وإبراهيم بن أبي سويد الذارع - كما في " معجم الطبراني " (١٢/ ١٦٨) -

٢- مرسلا من طريق صالح المري، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن النبي ﷺ، من غير ذكر ابن عباس. رواه عن صالح المري على هذا الوجه مسلم بن إبراهيم، كما عند الترمذي (رقم/ ٢٩٤٨). وإسحاق بن عيسى - كما عند الدارمي (٢/ ٥٦٠) -، وعبد الله بن معاوية الجمحي - كما في " النشر " لابن الجزري (ص/ ٦٩٩) -، وقد رجح الترمذي رواية من أرسله فقال: " هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بالقوي...وهذا - يعني المرسل - عندي أصح من حديث نصر بن علي عن الهيثم بن الربيع " انتهى.

وله شاهد مرفوع من حديث أبي هريرة يرويه الحاكم في " المستدرك " (١/ ٧٥٨) وفيه مقدام بن داود ضعيف الحديث، انظر: " لسان الميزان " (٦/ ٨٤)، وله

=

=

شاهد آخر من رواية زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلا، أسنده أبو عمرو الداني - كما في " النشر " (ص/ ٧٠٠) -.

وقد ضعف هذا الحديث جمع من أهل العلم، منهم: راويه الإمام الترمذي، والحافظ ابن حجر - كما في " الفتوحات الربانية " (٣/ ٢٤٨) -، وكذا الشيخ الألباني في " السلسلة الضعفة " (رقم/ ١٨٣٤).

الدليل الثالث: عمل السلف الصالحين، ونقل هذه السنة من عادتهم.

قالابن الجزري رحمه الله: " روى الحافظ أبو عمرو أيضا بإسناد صحيح عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كانوا يستحبون إذا ختموا القرآن أن يقرؤوا من أوله آيات. وهذا صريح في صحة ما اختاره القراء وذهب إليه السلف " انتهى. " النشر " (٢/ ٤٤٩) (ص/ ٧٠٣)

وقال الحافظ أبو عمرو الداني: " لابن كثير - يعني المقرئ المشهور - في فعله هذا دلائل من آثار مروية ورد التوقيف فيها عن النبي ﷺ، وأخبار مشهورة مستفيضة جاءت عن الصحابة والتابعين والخالفين " انتهى. نقلا عن " النشر في القراءات العشر " لابن الجزري (ص/ ٦٨٨)

الدليل الرابع: عمل المسلمين بهذه السنة في الأمصار عامة.

قال ابن الجزري رحمه الله: " وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها، وقراءة العرض وغيرها، حتى لا يكاد أحد يختم ختمة إلا ويشرع في الأخرى، سواء ختم ما شرع فيه أو لم يختمه، نوى ختمها أو لم ينوه، بل جعل ذلك عندهم من سنة الختم، ويسمون من يفعل هذا " الحال المرتحل "، أي الذي حل في قراءته آخر الختمة، وارتحل إلى ختمة أخرى " انتهى. " النشر " (ص/ ٦٩٤).

وقال النووي رحمه الله: " يستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب

=

=

الختمة ؛ فقد استحبه السلف والخلف، واحتجوا فيه بحديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ... " انتهى. "التبيان في آداب حملة القرآن" (ص/ ١١٠).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: " يسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره... " انتهى. " الإتقان " (١/ ٢٩٥)، وانظر: " سنن القراء ومناهج المجودين " (ص/ ٢٢٧)

القول الثاني: المنع وعدم الاستحباب، نص عليه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

ووجه ذلك القول عدم ورود ذلك الفعل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، وعرضه مرتين في العام الذي توفي فيه، ولم ينقل لنا أحد شيئا عن هذه السنة المتبعة اليوم.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: " قال أبو طالب: سألت أحمد إذا قرأ: (قل أعوذ برب الناس) يقرأ من البقرة شيئا ؟ قال: لا. فلم يستحب أن يصل ختمته بقراءة شيء، ولعله لم يثبت فيه عنده أثر صحيح يصير إليه " انتهى. " المغني " (١/ ٨٣٨)

وجاء في " الفروع " (١/ ٥٥٤): " ولا يقرأ الفاتحة وخمسا من البقرة نص عليه، قال الآمدي: يعني قبل الدعاء، وقيل يستحب " انتهى.

وقال ابن مفلح في " الآداب الشرعية " (٢/ ٣١٦): " إذا فرغ من قراءة الناس لم يزد الفاتحة وخمسا من البقرة، نص عليه، وذلك إلى قوله: (وأولئك هم المفلحون) قال في الشرح: ولعله لم يثبت فيه عنده أثر صحيح، وقيل: يجوز بعد الدعاء، وقيل: يستحب.

قال القاضي بعد ذكره لمعنى هذا الخبر من حديث أنس رواه ابن أبي داود - يعني حديث الحال المرتحل - قال: وظاهر هذا أنه يستحب ذلك، والجواب أن المراد به الحث على تكرار الختم ختمة بعد ختمة، وليس في هذا ما يدل على أن الدعاء لا يتعقب الختمة " انتهى.

=

=

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: " وفهم بعضهم من هذا: أنه كلما فرغ من ختم القرآن ؛ قرأ فاتحة الكتاب، وثلاث آيات من سورة البقرة ؛ لأنه حل بالفراغ، وارتحل بالشروع ! وهذا لم يفعله أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا استحبه أحد من الأئمة...

وقد جاء تفسير الحديث متصلا به: أن يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل. وهذا له معنيان: أحدهما: أنه كلما حل من سورة أو جزء ارتحل في غيره. والثاني: أنه كلما حل من ختمة ارتحل في أخرى " انتهى. " إعلام الموقعين " (٤/ ٣٠٦)

والقول الثاني أظهر من حيث الأدلة، إن شاء الله، لعدم ثبوت دليل على استحباب مثل ذلك، بل ظاهر السنة خلافه، كما تقدم بيانه، وقد سبق اختيار هذا القول في جواب رقم: (١٢٠٣٢)

على أننا ننبه هنا إلى أن المسألة، رغم ما رجحناه، هي مسألة اجتهادية، وليست من المسائل القطعية ؛ فمن صح عنده أن السلف كانوا يفعلون ذلك، أو اعتقد صحة الحديث الوارد فيه: فإنه لا يبدع ولا يضلل ؛ بل لا ينكر عليه.

وهكذا من ترجح عند القول الذي اخترناه، فإنه لا ينكر عليه ؛ بل إن الإمام ابن الجزري، رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من القائلين بمشروعية ذلك، يقول: " وعلى كل تقدير فلا نقول: إن ذلك لازم كل قارئ، بل نقول كما قال أئمتنا فارس بن أحمد وغيره: من فعله فحسن، ومن لم يفعله فلا حرج عليه " انتهى. " النشر " (ص/ ٧٠٤) والله أعلم.

مسألة: ما حكم قراءة القرآن للناس بأجرة ؟.

"إن كان المقصود تعليم القرآن للناس وتحفيظهم إياه فلا حرج في أخذ الأجرة على ذلك في أصح قولي العلماء، للحديث الصحيح في القراءة على اللديغ بشرط

=

=

أجرة معلومة، ولقوله ﷺ، في الحديث نفسه: (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) أخرجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه.

أما إن كان المراد أخذ الأجرة على مجرد التلاوة في أي مناسبة فهذا لا يجوز أخذ الأجرة عليه.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يعلم نزاعا بين أهل العلم في تحريم ذلك" انتهى. "مجموع فتاوى الشيخ ابن باز" (٢١/ ٢١١).

مسألة: ما حكم قراءة القرآن من المصحف في أثناء الاستلقاء على السرير للشخص الذي لا يعاني من أي مشاكل صحية وجسدية ؟.

لا حرج في قراءة القرآن من المصحف والإنسان مستلقي.

وقد روى البخاري (٧٥٤٩) ومسلم (٣٠١) أن النبي ﷺ كان يتكئ في حجر عائشة ويقرأ القرآن.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "شرح صحيح مسلم":

"فيه جواز قراءة القرآن مضطجعا ومتكئا" انتهى.

وقال الشيخ صالح الفوزان: "قراءة القرآن من المضطجع لا بأس بها سواء كان مضطجعا على السرير أو على الأرض. لا بأس بذلك فيتلو الإنسان القرآن على أي حال كان. قائما أو قاعدا أو مضطجعا. وسواء كان متوضئا أو محدثا حدثا أصغر. إذا كانت القراءة عن ظهر قلب. أما إذا كانت القراءة من المصحف فإن المحدث لا يجوز له مس المصحف حتى يتوضأ" انتهى. "المنتقى من فتاوى الفوزان.

مسألة: متى يجب الإنصات لتلاوة القرآن ؟.

اختلف العلماء في حكم الإنصات لقراءة القرآن خارج الصلاة، على قولين:

القول الأول: الوجوب، وهو مذهب الأحناف، وبعضهم جعله وجوبا عينيا،

=

=

وآخرون قالوا وجوب كفائي، واستدلوا بعموم قوله سبحانه وتعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الأعراف/ ٢٠٤
جاء في "الموسوعة الفقهية" (٤/ ٨٦): " الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم حين يقرأ خارج الصلاة واجب إن لم يكن هناك عذر مشروع لترك الاستماع.
وقد اختلف الحنفية في هذا الوجوب، هل هو وجوب عيني، أو وجوب كفائي ؟
قال ابن عابدين: الأصل أن الاستماع للقرآن فرض كفاية، لأنه لإقامة حقه، بأن يكون ملتفتا إليه غير مضيع، وذلك يحصل بإنصات البعض، كما في رد السلام.
ونقل الحموي عن أستاذه قاضي القضاة يحيى الشهير بمنقاري زاده: أن له رسالة حقق فيها أن سماع القرآن فرض عين.
نعم إن قوله تعالى في سورة الأعراف (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قد نزلت لنسخ جواز الكلام أثناء الصلاة، إلا أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، ولفظها يعم قراءة القرآن في الصلاة وفي غيرها " انتهى.
القول الثاني: الاستحباب والندب، وحملوا الآية التي في سورة الأعراف في حال الصلاة فقط، أما في غير الصلاة فالأمر على الندب والاستحباب، وهذا قول جماهير أهل العلم.
يقول ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٣٧٢): " وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الأعراف/ ٢٠٤: يعني في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المغفل. وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريري عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود
=

=

؟ قال: فنظرا إلي ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت، فنظرا إلي وأقبلا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الأعراف/ ٢٠٤

وكذا رواه غير واحد عن مجاهد وقال عبد الرزاق عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم.

وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة " انتهى.

ويظهر أن هذا القول هو القول الراجح، لأن الوجوب يلزمه دليل صريح، وإلا ألزمنا الناس بما فيه مشقة ظاهرة من غير دليل.

سئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كما في "لقاءات الباب المفتوح" (لقاء رقم/ ١٩٧، سؤال رقم/ ٢٦): كان مجموعة في السيارة يمشون، وشغل أحدهم شريط قرآن، فهل يجب على الجميع استماع هذا الشريط، وهل يأثم من يتكلم والشريط شغال ؟

فكان الجواب:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: هذا في الصلاة. وقال: أجمعوا على أن ذلك في الصلاة. وعلى هذا فلو كنت بجوار شخص يقرأ القرآن ويجهر به، وأنا أسبح وأهلل – ذكر خاص – فإنه لا يلزمني أن أستمع له، وإنما ذلك في الصلاة فقط.

ولكني أقول للأخ الذي شغل المسجل: لا تشغل والناس غافلون ؛ لأن هذا أدنى ما نقول فيه أنه يشبه من قال الله فيهم: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) فصلت/ ٢٦، فإذا رأيت إخوانك لا يريدون الاستماع،

=

=

إنما هم مشغولون بالحديث بينهم، فلا تشغل المسجل، وإذا كنت تشتاق لهذا فهناك سماعة صغيرة أدخلها في أذنك، ويجعل الصوت له وحده " انتهى.

وجاء في "المنتقى من فتاوى الفوزان" (٣/ سؤال رقم ٤٣٧) " أقضي بعض الأوقات الساعات الطوال في المطبخ، وذلك لإعداد الطعام لزوجي، وحرصا مني على الاستفادة من وقتي ؛ فإنني أستمع إلى القرآن الكريم، سواء كان من الإذاعة، أو من المسجل ؛ فهل عملي هذا صحيح أم أنه لا ينبغي لي فعل ذلك ؛ لأن الله تعالى يقول:

(وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) ؟

الجواب: لا بأس باستماع القرآن الكريم من لمذياع أو من المسجل والإنسان يشتغل، ولا يتعارض هذا مع قوله: (فاستمعوا له وأنصتوا) ؛ لأن الإنصات مطلوب حسب الإمكان، والذي يشتغل ينصت للقرآن حسب استطاعته " انتهى.

واختيار القول بالاستحباب لا يعني التساهل وتعمد التغافل عن الإنصات لكلام الله سبحانه وتعالى حين يتلى، فالحرص على الإنصات لا بد أن يكون أصلا ثابتا في حياة المسلم، ولا ينصرف عنه إلا لشغل أو حاجة.

يقول النووي في "التبيان في آداب حملة القرآن" (٩٢): " ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك: اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة، إلا كلاما يضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وليقتد بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنه كان إذا قرئ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه) " انتهى.

ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في "لقاءات الباب المفتوح" (لقاء رقم/ ١٤٦،سؤال رقم ٩): " ليس من الآداب أن يتلى كتاب الله ولو بواسطة

=

=

الشريط وأنت متغافل عنه " انتهى.

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هل السامع للقارئ في الشريط له حكم سامع القارئ العادي تلاوة، من وجوب الإنصات إليه؟

فأجاب:

"إذا سجل الإنسان في الشريط: فقد انتهى من أول مرة ، وانقطع أجره وثوابه ، اللهم إلا أن ينتفع أحد بالاستماع إلى صوته عبر الشريط، فيؤجر على هذا الانتفاع ، أما بالنسبة للاستماع إليه: فلا يجب الاستماع إليه، ولا إلى القارئ مباشرة، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الأعراف/ ٢٠٤: قال: أجمعوا على أن هذا في الصلاة، يعني: إذا كان المأموم خلف الإمام ، أما الإنسان يقرأ إلى جنبك، وأنت مشغول بذكرك الخاص: فإنه لا يجب عليك الإنصات، ثم إذا فرض أن هذا القارئ عبر الشريط مر بآية سجدة هل تسجد ؟ الجواب: لا تسجد إذا مر بآية سجدة.

أولا: لأنه لم يسجد هو....

فالحاصل: أن الاستماع إلى القراءة من الشريط ليست كالاستماع من القارئ المباشر ، وأيضا لا يجب الإنصات، لا للشريط، ولا للقارئ المباشر ؛ لأن قوله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الأعراف/ ٢٠٤ – كما سمعتم – قال الإمام أحمد: أجمعوا أن ذلك في الصلاة" انتهى. " لقاءات الباب المفتوح " (١١٨ / السؤال رقم ٤). والله أعلم.

مسألة: هل يترك قراءة القرآن اكتفاءا بقراءة سورة الإخلاص ثلاث مرات؟.

"ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الدين النصيحة) ثلاثا، فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

=

=

والنصيحة لكتاب الله تعالى تكون بتلاوته، وتدبر آياته، والاتعاظ بمواعظه، والوقوف عند حدوده، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا شك أن الاكتفاء بقراءة سورة الإخلاص دون سائر كتاب الله لا يتفق مع النصيحة لكتاب الله، ولا يتأتى لمن يكتفي بذلك النصح لنفسه بما يحصل له من تلاوة كتاب الله من الأجر والمثوبة، وزيادة الإيمان، ومعرفة الأحكام من الحلال والحرام، والواجب والمسنون والمكروه، والتأدب بآداب القرآن، والتخلق بأخلاقه، وكفى بانتقاص العبد هذه الأمور زاجرا عن ترك تلاوة كتاب الله، والرسول ﷺ مع علمه بفضل هذه السورة، وإخباره بأنها تعدل ثلث القرآن، وزيادة حرصه على عظم الأجر والثواب، لم يقتصر على تلاوة هذه السورة، بل كان يداوم على تلاوة سائر كتاب الله، وقد قال الله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الأحزاب/ ٢١.

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم" انتهى.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

مسألة: حكم بداية الاحتفالات والندوات بقراءة القرآن الكريم.

ليس ذلك من السنة، فلم يكن من هدي النبي ﷺ وأصحابه فيما نعلم ، فالمداومة على ذلك يدخل في الابتداع في الدين. وخير الهدي هدي النبي محمد ﷺ.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن إدارة مدرسة تريد أن تبدأ الإذاعة المدرسية يوميا بقراءة شيء من القرآن الكريم.

فأجاب:

"الذي ينبغي أن لا يتخذ ذلك سنة دائمة – أعني: البداءة بالقرآن الكريم عند فتح الإذاعة –، لأن البداءة بالقرآن الكريم عبادة، والعبادة تحتاج إلى توقيف من الشرع، ولا أعلم أن الشرع سن للأمة أن تبتدأ خطاباتها ومحاضراتها وما أشبه

=

=

ذلك بالقرآن الكريم، لكن إذا ابتدأ أحد بقراءة ما يناسب المحاضرة مثلا تقدمة لها، ولعل المحاضر يتكلم على معاني الآيات التي قرأها فإن هذا طيب لا بأس به، مثل أن تكون المحاضرة عن الصيام فيقوم أحد الناس يقرأ آيات الصيام قبل بدأ المحاضرة، أو تكون المحاضرة في الحج فيقوم أحد ويقرأ آيات الحج، فإن هذا لا بأس به، لأنه مناسب، فهو كالتقدمة لهذه المحاضرة التي تتناسب مع هذه الآيات، أما اتخاذ هذا سنة راتبة كلما أراد المحاضرة، أو كلما أردنا كلاما قرأنا القرآن، فهذا ليس بسنة" انتهى.

وقال الشيخ بكر أبو زيد: "ومن المحدثات التي لم تكن في هدي من مضى من صالح سلف هذه الأمة: التزام افتتاح المؤتمرات، والاجتماعات، والمجالس والمحاضرات، والندوات بآيات من القرآن الكريم، ولا أعلم حدوث هذا في تاريخ المسلمين إلا بعد عام ١٣٤٢ من هجرة النبي ﷺ، أما قبل ذلك فلا، فهذا قدوة الأمة رسول رب العالمين لم يعهد من هديه فعل ذلك ولا مرة واحدة، لا سيما في حال جمعه لوجوه الصحابة رضي الله عنهم للمشورة في مهمات الأمور، وهكذا الخلفاء الراشدون من بعده رضي الله عنهم من اجتماع السقيفة إلى الآخر، وهكذا في حياة من تبعهم بإحسان.

هذا إذا كان الأمر المفتتح مشروعا، أما إذا كان محظورا أو محرما أو مكروها ؛ فيحرم شرعا افتتاحه بالقرآن لعدم شرعية السبب، ولما فيه من تعريض كلام الله تعالى للامتهان في مجلس محظور مثل دورات الرهان المحرم على لعب محرم في ميادين الكرة، والمصارعة، والملاكمة، ونطاح الحيوانات، وسباق السيارات، والدراجات، إلى غير ذلك من أمور مبنية على الرهان المحرم، وما تفضي إليه من محرمات أخرى" انتهى. "تصحيح الدعاء" (ص ٢٩٨).

مسألة: في رمضان إذا أراد المرء أن يختم القرآن هل يجب قراءة القرآن بالتسلسل

=

=

؟.

أولا: يستحب الإكثار من تلاوة القرآن في رمضان، فهو شهر القرآن، قال الله تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) البقرة/ ١٨٥.

وكان جبريل يأتي النبي ﷺ كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن. رواه البخاري (٥) ومسلم (٤٢٦٨).

وروى البخاري (٤٦١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن جبريل (كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه).

وهذا يدل على استحباب ختم القرآن ومدارسته في رمضان.

ولذلك كان السلف يكثرون من تلاوة القرآن في رمضان، اقتداء بالنبي ﷺ.

" فكان قتادة رحمه الله يختم القرآن في كل سبع ليال دائما، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأخير منه في كل ليلة.

وكان إبراهيم النخعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان في كل ثلاث ليال، وفي العشر الأواخر في كل ليلتين.

وكان الأسود رحمه الله يقرأ القرآن كله في ليلتين في جميع الشهر " انتهى من مجالس شهر رمضان للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ص ٦٥.

ثانيا:

الأفضل قراءة القرآن على ترتيب السور الوارد في المصحف، وهو الترتيب الذي عرض به جبريل القرآن على النبي ﷺ في آخر حياته.

انظر: "التحبير في علم التفسير" للسيوطي ص ٦٣٧.

قال النووي رحمه الله في "التبيان": " قال العلماء رحمهم الله: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة ثم آل عمران، ثم النساء إلى أن يختم

=

=

ب (قل أعوذ برب الناس) سواء قرأ في الصلاة أم خارجا عنها، ويستحب أيضا إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها السورة التي تليها، ولو قرأ في الركعة الأولى: (قل أعوذ برب الناس) يقرأ في الثانية من البقرة.

ودليل هذا: أن ترتيب المصحف لحكمة، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة، يقرأ في الركعة الأولى: (ألم تنزيل) وفي الثانية: (هل أتى) وصلاة العيدين (قاف) و (اقتربت).

ولو خالف الترتيب فقرأ سورة ثم قرأ التي قبلها، أو خالف الموالاة فقرأ قبلها ما لا يليها جاز وكان تاركا للأفضل، وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه وذمه ؛ فإنه يذهب بعض أنواع الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب " انتهى كلام النووي.

وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها ما يدل على عدم وجوب قراءة القرآن مرتبا.

روى البخاري (٤٩٩٣) عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك. قالت: لم ؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف. قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل ؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبدا ! ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبدا ! لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده.

قال الحافظ: " الذي يظهر لي أن هذا العراقي كان ممن يأخذ بقراءة ابن مسعود ، وكان ابن مسعود لما حضر مصحف عثمان إلى الكوفة لم يوافق على الرجوع عن قراءته ولا على إعدام مصحفه... فكان تأليف مصحفه مغايرا لتأليف مصحف

=

=

عثمان. (تأليف المصحف هو جمع سوره مرتبة) ولا شك أن تأليف المصحف العثماني أكثر مناسبة من غيره ، فلهذا أطلق العراقي أنه غير مؤلف...

قال ابن بطال: لا نعلم أحدا قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها ، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة والحج قبل الكهف مثلا ، وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوسا فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها ، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها وتذليلا للسانه في سردها ، فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه.

وقال القاضي عياض: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس ولا في التعليم فلذلك اختلفت المصاحف ، فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن ، فلذلك اختلف ترتيب مصاحف الصحابة ثم ذكر نحو كلام ابن بطال " انتهى من فتح الباري ملخصا. والله أعلم.

مسألة: هل القراءة من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب، نرجو الإفادة ؟.

أما من جهة قراءة القرآن في غير الصلاة فالقراءة من المصحف أولى لأنه أقرب إلى الضبط وإلى الحفظ إلا إذا كانت قراءته عن ظهر قلب أحفظ لقلبه وأخشع له فليقرأ عن ظهر قلب.

وأما في الصلاة، فالأفضل أن يقرأ عن ظهر قلب وذلك لأنه إذا قرأ من المصحف فإنه يحصل له عمل متكرر في حمل المصحف وإلقائه وفي تقليب الورق وفي النظر إلى حروفه وكذلك يفوته وضع اليد اليمنى على اليسرى على الصدر في حال القيام وربما يفوته التجافي في الركوع والسجود إذا جعل المصحف في إبطه ومن ثم رجحنا قراءة المصلي عن ظهر قلب على قراءته من المصحف.

هذا وبعض المأمومين نشاهدهم خلف الإمام يحملون المصحف يتابعون قراءة

=

=

الإمام وهذا أمر لا ينبغي لما فيه من الأمور التي ذكرناها ولأنه لا حاجة بهم إلا أن يتابعوا الإمام.

نعم لو فرض أن الإمام ليس بجيد الحفظ وقال لأحد المأمومين: صل ورائي وتابعني في المصحف إذا أخطأت فإن هذا لا بأس به. من فتاوى الشيخ ابن عثيمين من كتاب فتاوى إسلامية ٤/ ٨.

مسألة: القرآن والطب.

أولا: أرسل الله تعالى محمدا ﷺ بدين شامل لكل نواحي الحياة كما قال أبو ذر رضي الله عنه: " لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما ".

رواه أحمد (٢٠٣٩٩) انظر" مجمع الزوائد " (٨ / ٢٦٣). قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة.

فجاء الإسلام ليسد حاجات الناس في كل شؤون حياتهم.

ثانيا: وما جاء في السنة عن النبي ﷺ فإنه مكمل لما جاء في القرآن، وهذان المصدران هما المصدران الرئيسيان عند المسلمين، وقد بين لنا النبي ﷺ أن الله تعالى ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ". رواه البخاري في (٥٦٧٨).

والقرآن الكريم ليس كتاب طب ولا كتاب (جغرافيا) ولا (جيولوجيا) كما يحلو لبعض المسلمين أن يقول ذلك أمام الغرب، بل هو كتاب هداية للناس ومن أعظم معجزاته: بلاغته وقوة معانيه، وهو الأصل في إعجازه، فقد أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ في زمان بلغت الفصاحة والبلاغة فيه مبلغا عظيما فجاء هذا الكتاب ليعجز أولئك القوم فيما يتقنونه ليبين لهم أنه من عند الله.

=

=

وهذا الأمر ليس بالمستغرب ولا بالمبتدع في هذا الدين، فقد جاءت آيات موسى عليه السلام - العصا واليد - من جنس ما انتشر في زمانه وهو السحر، وكانت آيات عيسى عليه السلام - من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص - من جنس ما أتقنه قومه وانتشر عندهم وهو الطب.

لذا نقول: إن أعظم ما في القرآن الكريم هو فصاحته وبلاغته، ولا زال العلماء إلى هذا الوقت يتبين لهم ذلك بالتدبر والتفكر في آياته.

وهذا لا يعني أنه ليس فيه غير ذلك، بل ذكر الله تعالى فيه بعض الآيات في بيان تركيب جسم الإنسان، وتدرج خلقه، وبعض مظاهر الطبيعة، وغير ذلك.

أما بالنسبة لما يتعلق بالعلاج الذي ذكره السائل، فإن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، وهذا يشمل شفاء القلوب والأبدان، وذكر الله تعالى فيه (العسل) وبين أنه شفاء للناس، وذكر فيه أصل حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، فمن قال إن القرآن ذكر كثيرا من الأدوية بهذا المعنى فقد أصاب، وأما غير ذلك فغير صحيح، بل هو من مبالغات بعض المسلمين، فالقرآن الكريم ليس كتاب طب، وقد جاءت أمراض لم تكن في سالف الأزمان، فكيف يأتي علاجها - باعتبار ما قاله السائل - قبل مجيئها ؟.

رابعا:

أ. وهذه بعض الآيات الدالة على أن القرآن شفاء.

قال تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين} الإسراء / ٨٢.

قال ابن القيم رحمه الله: قال الله تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين} والصحيح: أن {من} ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، وقال تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور} .

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة،

=

=

وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه: لم يقاومه الداء أبدا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها ؟، أو على الأرض لقطعها ؟ فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه فهما في كتابه.

" زاد المعاد " (٤ / ٣٥٢).

ب. والقرآن الكريم فيه علاج للنفوس والأرواح، ومن صح ذلك فيه: كان سببا لطرد الآفات والأمراض من بدنه، والقرآن بهذا الاعتبار شفاء وعلاج لكثير من الأمراض.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجا عنها ولكن الأسباب متنوعة فإن القلب متى اتصل برب العالمين خالق الداء والدواء ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة تعاونا على دفع الداء وقهره فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبها له وتنعمها بذكره وانصراف قواها كلها إليه وجمعها عليه واستعانتها به وتوكلها عليه أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأغلظهم حجابا وأكثفهم نفسا

=

=

وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية.

" زاد المعاد " (٤ / ١٢).

ج. وفي القرآن سورة الفاتحة وهي رقية للأمراض.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ {الحمد لله رب العالمين} فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال: قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهما فضحك رسول الله ﷺ.

رواه البخاري (٢١٥٦) ومسلم (٢٢٠١).

قال ابن القيم رحمه الله عن سورة الفاتحة: ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه من التوحيد ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال وإثبات الشرع والقدر والمعاد وتجريد توحيد الربوبية والإلهية وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحها ودفع مفاسدهما وأن العاقبة

=

=

المطلقة التامة والنعمة الكاملة منوطة بها موقوفة على التحقيق بها: أغنته عن كثير من الأدوية والرقى، واستفتح بها من الخير أبوابه ودفع بها من الشر أسبابه.
" زاد المعاد " (٤ / ٣٤٧).

د. وفي القرآن ذكر أصول حفظ الصحة.

وقال ابن القيم: وأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة.

وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه:

فحمى المريض من استعمال الماء خشية من الضرر فقال تعالى: {وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا} النساء / ٤٢ والمائدة / ٦. فأباح التيمم للمريض حمية له كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: {فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر} البقرة / ١٨١.

فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظا لصحته لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: {فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك} البقرة / ١٩٦.

فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم أن يحلق رأسه ويستفرغ المواد الفاسدة والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئا وصورة تنبيها بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ

=

=

مواد أذاهم، رحمة لعباده ولطفا بهم ورأفة بهم وهو الرؤوف الرحيم.
" زاد المعاد " (١ / ١٦٤، ١٦٥).
قال ابن القيم: وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر، فقال: والله لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا أو كما قال. إغاثة اللهفان ١ / ٢٥
ه - ذكر العسل في القرآن وأنه شفاء للناس.
قال الله تعالى {يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس} النحل / ٦٩.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما هدية في الشراب فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء، فإن شربه ولعقه على الريق يذيب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال، ويفتح سددها، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء لحدته وحدة الصفراء فربما هيجها، ودفع مضرته لهم بالخل فيعود حينئذ لهم نافعا جدا وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرها، ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألفها طبعه فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمة العسل ولا قريبا منه والمحكم في ذلك العادة فإنها تهدم أصولا وتبني أصولا.
وأما الشراب إذا جمع وصفي الحلاوة والبرودة فمن أنفع شيء للبدن ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقوى والكبد والقلب عشق شديد له واستمداد منه وإذا كان فيه الوصفان حصلت به التغذية وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء وإيصاله إليها أتم تنفيذ الطعام إلى الأعضاء وإيصاله إليها أتم تنفيذ.
" زاد المعاد " (٤ / ٢٢٤، ٢٢٥).

=

=

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعسل فيه منافع عظيمة: فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها محلل للرطوبات أكلا وطلاء، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم ومن كان مزاجه باردا رطبا، وهو مغذ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة، منق للكبد والصدر، مدر للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حارا بدهن الورد: نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإن شرب وحده ممزوجا بماء: نفع من عضه الكلب الكلب، وأكل الفطر القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويسمى الحافظ الأمين، وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر: قتل قمله وصئبانه وطول الشعر وحسنه ونعمه، وإن اكتحل به: جلا ظلمة البصر، وإن استن به: بيض الأسنان وصقلها وحفظ صحتها وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويدر الطمث، ولعقه على الريق: يذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها ويسخنها تسخينا معتدلا ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة وهو أقل ضررا لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة، قليل المضار مضر بالعرض للصفراويين ودفعها بالخل ونحوه فيعود حينئذ نافعا له جدا.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه ولا مثله ولا قريبا منه، ولم يكن معول القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ولا يعرفونه فإنه حديث العهد حدث قريبا، وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سر بديع في حفظ الصحة لا يدركه إلا

=

=

الفطن الفاضل." زاد المعاد " (٤ / ٣٣، ٣٤).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس

